غير مرخصة للطباعة

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

المجلد الخامس والخمسون

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي



المِحْوَرُ الخَامِسُ

القُرْآنُ وعُلُومُهُ وتَفْسِيرُهُ

١٠٢ في رحاب القرآن الكريم
دروس قرآنيَّة

(الجزء الثاني)

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة



نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي

المحور الخـامس

القرآن وعلومه وتفسيره

١٠٢

في رحاب القرآن الكريم

دروس قرآنيَّة

(الجزء الثاني)

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية

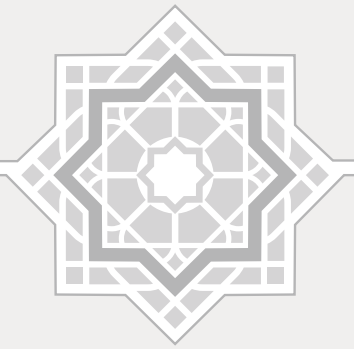
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِي



دروس في تفسير

سورة الأنفال



غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

من دروس سورة الأنفال
﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢ ـ ٦٤].

وَإِنْ يقصدوا أَنْ يَخْدَعُوكَ ويغشُّوك بالصُّلح، ليستعدُّوا للقتال، فصالحهم ولا تَخْشَ منهم، ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ﴾: كافيك ﴿ٱللَّهُ﴾ يدفع عنك مكرهم وخديعتهم بنصرك عليهم.

لو كانوا يريدون خداعك، وليسوا مسالمين حقيقيين، ولكن دبَّروا هذه المكيدة ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾، انظروا حتَّى عند إرادة الخداع لا تخف منهم، توكل أنت على الله، وسر في الطريق الَّذي يؤدي إلى أمان النَّاس، وإلى سلمية النَّاس.

في غزوة الخندق جاءت قريش وغَطَفان، عشرة آلاف مقاتل جاؤوا ليقاتلوا المسلمين في عقر دارهم، ما غُزِي قوم قط في عقر دارهم إلَّا ذُلُّوا، جاؤوا في عُقْر دارهم يقاتلونهم، ولكن بعمل الرسول الحيل العسكريَّة، وحفر الخندق، وثبات المسلمين لم يستطع المشركون أن

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

يحصلوا على شيء، يقول الله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]، كفى الله المؤمنين القتال، أراحهم من شر هؤلاء المشركين.

هل يوجد دين يُرغِّب في قتل النَّاس وإراقة دمائهم يقول: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]؟! يقول: احمدوا الله أن كفاكم القتال وصرفه عنكم، وصرفكم عنه، هل هذا دين يُرغِّب في سفك الدماء؟! إنَّه دين يرحّب بالسِّلم، ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦١، ٦٢]، هو الَّذي يكفيك شرهم، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

الله ﷻ يؤيد رسوله بأمرين: أمر سماوي، وأمر أرضي، أمر ربَّاني، وأمر إنساني، أمَّا الأمر السماوي الرباني فهو: نصر الله ﷻ، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٦٢]، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وأمَّا الأمر الأرضي الإنساني فهو: تأييد الله رسوله بالمؤمنين، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]، فالنصر لن يأتي وحده هكذا، لا، لا بدَّ من المؤمنين، ولا نقول: ننتظر نصر الله ثمَّ نُولِّي ظهرنا للأمور، لا يصح هذا، لا بدَّ أن نُثبت وجودنا، لا بدَّ أن يكون لنا كياننا، أن يكون لنا جهادنا، أن يكون منا بذل المال والنفس وكل ما يحرص عليه النَّاس.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]، قرأ أحد الغربيين عن الإسلام، وقال بعد أن رأى ما فُعل بالإسلام: يا له من دين لو كان له

QaradawiBooks.com

رجال! يعني ما أعظمه من دين لو كان لهذا الدين رجال، لأن الدين لا بدَّ له من رجال، كما يقول الشاعر:

وَعَادَةُ السَّيْفِ أَنْ يُزْهَى بِجَوْهَرِهِ وَلَيْسَ يَعْمَلُ إِلَّا فِي يَدَيْ بَطَلِ[١]

السيف لا يضرب بنفسه، السيف قاطع ولا نظير له، ولكن لا بدَّ من يد تحمله، وإنَّما يحتاج إلى اليد، سيف من غير يد ما قيمته؟! فالله أيَّد رسوله بنصره وبالمؤمنين، ولكن ليسوا مجرد مؤمنين، بل مؤمنين مؤتلفين مترابطين كالجسد الواحد، يشدّ بعضهم أزر بعض، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]، مؤمنون مؤتلفة قلوبهم، كأنهم شخص واحد، ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٦٣]، أُلفة جعلت من هؤلاء الَّذين كانوا يحارب بعضهم بعضًا، ولا يثق بعضهم ببعض، ويغِير بعضهم على بعض، معروف هذا في الجاهليَّة، العصبيَّة الجاهليَّة، لا يصبرون عن الغارة لاعتيادهم عليها، حتَّى أنَّهم ربَّما أغاروا على الأقارب إذا أعوزهم الأباعد، كما قال قائلهم:

وأحيانا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلَّا أخانا[٢]

من أجل ناقة سبقت أخرى حاربوا أربعين سنة، من أجل فرس حاربوا عشرات السنين، هكذا كانت الجاهليَّة، كان مبدؤهم: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» على ظاهر الحديث، هو مع ابن قبيلته وابن

(١) البيت للطغرائي في لاميته المسماة بلامية العجم، انظر: ديوانه صـ ٣٠٧، تحقيق د. علي جواد طاهر و د. يحيى الجبوري، نشر مطابع الدوحة الحديثة، ط ٢، ١٩٨٦م.

(٢) من شعر عمير بن شييم، الملقب بالقُطامي، انظر: شرح ديوان الحماسة للتبريزي (١٢٨/١).

QaradawiBooks.com

عشـــيرته في الحقّ أو في الباطل، في العدل أو فـــي الظلم هو معه، يقول القائل:

لَا يَسْـــأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَـــا قَالَ بُرْهَانَا(١)

الله ســـبحانه يقـــول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]، ليس بالمال وحده تستطيع أن تؤلف النَّاس، الله ﷻ هو الَّذي هيَّأ لهذه القلوب أن تأتلف، يألف بعضها بعضًا، يحب بعضها بعضًا، يؤثر أحدهم أخاه على نفســـه، يجوع ليشـــبع أخوه، يسهر لينام أخوه، يُعرِّض نفسه لضربات الســـيوف وطعنات الرماح ورميات السهام ليفدي أخاه، هؤلاء هم الَّذين قال الله فيهم: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

كان المجتمع المدني من الأوس والخزرج قبل الإســـلام متعادين، والى بعضهم اليهود، الأوس مع جماعة، والخزرج مع جماعة، ويحارب بعضهم بعضًا، إلى أن جاء الإسلام، يقول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، هذا ما جاء به الإسلام، ألَّف بين هذه القلوب فأصبحوا بنعمة الله إخوانًا، بل أشد من الإخوة بعضهم على بعض، أحيانًا الواحد يقاتل أخاه أو أباه ليحمي إخوانه في العقيدة.

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفـــال: ٦٣]، المجتمـــع الَّـــذي كان متعاديًا أصبـــح مجتمعًا متآخيًا، مجتمع أخوة وإيثار، ســـواء كان المجتمع المهاجري الَّذي جاء من مكَّة، أو مجتمع المدينة، أو المجتمعات الَّتي انضمت بالإيمان إلى

(١) الحماسة لأبي تمام (٥٨/١).

QaradawiBooks.com

هذا المجتمع، أصبحوا كتلة واحدة، «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**»، وشبك بين أصابعه[١]. جمع النبي ﷺ أصابعه وشبَّك بينها، أصبح هذا المجتمع كالجسد الواحد، كما قال ﷺ: «**مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسدِ إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسَّهَر والحُمَّى**»[٢].

ولذلك يقول الله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]، الله تعالى ألَّف بين هذه القلوب بعزَّته وبقدرته وبحكمته، فالحكمة أن تضع الشيء في موضعه، الله يضع كل شيء في موضعه، هو العزيز الحكيم، ألَّف بين هذه القلوب، أصبحت هذه الأُمَّة أُمَّة واحدة، كانت تقاتل الفرس، وتقاتل الرومان، وتقاتل الوثنيين، وتقاتل اليهود، وتقاتل النَّصارى، وتقاتل أهل النفاق، وأهل الردَّة، وتقاتل كل هؤلاء وهم على قلب رجل واحد، فالحمد لله رب العالمين.

هذه هي وصايا القرآن، وصايا للأُمَّة أن تُعِدَّ، لا بدَّ للأُمَّة من الإعداد، هذا أمر مفروض على الأُمَّة، من ضمن الإعداد: تكاتف الأُمَّة، الأُمَّة المتفرقة لا تستطيع أن تقوم بواجبها، وهي مشكلة أمتنا اليوم، أنَّها أصبحت أممًا، وأصبحت دولًا، كانت دولة واحدة، يقودها رجل واحد طوال العهد النبوي، والعهد الراشدي، والعهد الأُموي، والعهد العباسي، والعهد العثماني، ظلت الأُمَّة طوال هذه القرون تحكمها قيادة واحدة، أُمَّة واحدة شريعتها واحدة، مرجعيتها واحدة، الشريعة الإسلاميَّة، دارها

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٢٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥)، عن أبي موسى الأشعري.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٨٦)، وأحمد (١٨٣٧٣)، عن النعمان بن بشير.

QaradawiBooks.com

واحدة، دار الإسلام، وليس ديار الإسلام، وإنَّما دار الإسلام، هؤلاء في الشـــرق، وهؤلاء في الغرب، وهؤلاء في الشمال، وهؤلاء في الجنوب، هؤلاء في آســـيا، في أفريقيا، في أوربا، لكن كلها باسم: «دار الإسلام»، وحدة الدار، وحدة المرجعية، وحدة القيادة، كان فيه قيادة واحدة، لا بدَّ أن تكون قيادة واحدة.

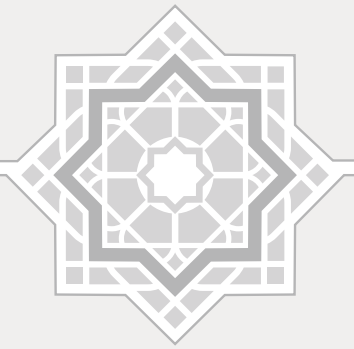
ولكن القيادة لا تكون كما فعلت جماعة «داعش» حيث عمدوا إلى رجل منهـــم وجعلوه خليفة، وقالـــوا: هذا خليفة المســـلمين، أي خليفة هذا؟! وأي مسلمين هؤلاء؟! اجمع المسلمين وديار المسلمين وأقم فيها الإسلام، وهذه الديار تتجمع تحت خليفة واحد، أمَّا أن تأتي بعشرين أو ثلاثين ألفًا وتريد أن تعمل عليهم خليفة للمسلمين فهذا لا يصح.

نسأل اللهَ أن يأخذ الظالمين المتجبِّرين في الأرض أخذ عزيز مقتدر، وأن ينزل عليهم بأســـه الَّذي لا يرد عـــن القوم المجرميـــن، وأن يؤيد المؤمنين الصادقين، وأن يجمع كلمتهم، ويشد أزرهم، ويحمي ظهرهم، ويقيهم شرور أولئك الظالمين المفسدين في الأرض، إنَّه سميع قريب.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



دروس في تفسير

سورة التوبة



QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الأوَّل
خطر المنافقين والجبهات الَّتي تحارب الإسلام(١)

سورة الأنفال والتوبة، سورتان مدنيتان، وبعضهم يجعلهما سورة واحدة، حيث لم يُفصل بينهما بالبسملة، ولأن موضوعهما موضوع واحد، هو الجهاد في سبيل الله.

جبهات تُحارب الإسلام:

فيما استمعنا إليه يعرض القرآن المعركة الَّتي يخوضها الإسلام، الرسول والمؤمنون معه يواجهون المعركة مع أعداء الله على كل صعيد، كان النبي ﷺ وأصحابه يحاربون في جبهات متعددة، في جبهة المشركين الوثنيين، الَّذين تربَّصوا بهم الدوائر، والَّذين أرادوا أن يكيدوا للنبيِّ ﷺ، فرد الله كيدهم في نحورهم، وأعاد سهامهم المسمومة إلى صدورهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

كان المشركون يبذلون جهودهم في وأد الإسلام في مهده بكل ما يستطيعون من قوَّة بالأنفس والأموال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

(١) من دروس تراويح ١٤٢٤هـ

QaradawiBooks.com

كان الإسلام يجاهد في المعركة مع المشركين من ناحية، ومع اليهود من ناحية أخرى، الَّذين عقد النبي ﷺ معهم معاهدة واتفاقية على أن يكونوا معًا في السلم والحرب، والبأساء والسراء، ولكنَّهم للأسف نقضوا عهودهم، ولم يرعوا الاتفاق مع رسول الله ﷺ، ولذلك قال الله تعالى في شأنهم: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥، ٥٦].

كان الإسلام يحارب في الجبهة الوثنيَّة، والجبهة اليهودية، ثمَّ فُتحت له جبهة أخرى هي الجبهة النصرانيَّة، الَّتي تآمرت على الإسلام وقتلت الدعاة الَّذين بعثهم النبي ﷺ، فكان لا بدَّ من خوض المعركة معهم، ونزل في ذلك قول الله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

لم يبدأ الإسلام هؤلاء ولكنَّهم هم الَّذين بدؤوا الإسلام، سالمهم الإسلام، ودعاهم بالحسنى، وبالتي هي أحسن، ولكنَّهم هم الَّذين رفعوا في وجهه السيف، ولم يريدوا لدعوته أن تُسمَع، ولم يريدوا لكلمته أن تُقَال، وقفوا في طريقه، وصدُّوا عن سبيله، فكان لا بدَّ أن يخوض المعركة معهم وهو كاره، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وكما قال في أوائل سورة الأنفال: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۞ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٥، ٦].

QaradawiBooks.com

أخطر الجبهات محاربةً للإسلام:

كان لا بدَّ للإسلام أن يخوض المعركة مع هؤلاء جميعًا، ومع أعداء آخرين هم من داخل المجتمع المسلم، هم المنافقون، الطابور الخامس، الَّذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفـر، ويتعاملون مع النَّاس بوجهين، ويتكلمون بلسانين، ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

هؤلاء كانوا فـي غاية الخطر، وتحدثت عنهم سـورة التوبة، كما في قولـه تعالـى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ [التوبة: ٦١]، ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤]، ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٤٨]، كان المنافقون مصدر فتنة وإضعاف للجيش.

لقد أرادوا أن يستأصلوا شأفة الإسلام، وأن يجتثوه من جذوره، وهاجموا المسلمين في عقر دارهم، مرَّة كانوا قريبين من المدينة في غزوة بدر، وبدر قريبة من المدينة، تُعتبر من ضواحي المدينة، أو من حمى المدينة.

وفي غزوة أحد جاؤوا إلى المدينة نفسها، وفي غزوة الخندق، جاؤوا بقضهم وقضيضهم، آلاف مؤلفة، عشـرة آلاف أو أكثر، يريدون القضاء على النبيِّ وأصحابه لكيلا يُبقوا لهم باقية، كما قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠].

QaradawiBooks.com

حتى إنَّ المؤمنين زُلزلوا زلزالًا شديدًا، فضلًا عن المنافقين الَّذين كانوا يقولون: إنَّ محمدًا يعدنا ممالك كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الخلاء وحده[1]. والَّذين يقولون: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]، يستأذنون النبي لكي يفروا من المواجهة قائلين: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، هذا كله يدل على ما واجهه المسلمون من شدائد وابتلاءات ومحن قاسية، محنة بعد محنة.

فكانت المعركة مع هؤلاء جميعًا، ولكن الله ﷻ تكفَّل لرسوله بالنصر، رغم هذه المحن جميعًا، فلم يصل الإسلام إلينا عفوًا صفوًا، غنيمة باردة، أو بيضة مقشورة، لا، لقد بُذلت في سبيله الدماء، وأُزهقت من أجله الأرواح، قدَّمها الصحابة رضوان الله عليهم، حتَّى استطاعوا أن يُثَبِّتوا أقدام هذا الإسلام، وأن يصل إلينا عبر القرون، هذا كله ذكره لنا الله ﷻ في هاتين السورتين، بأساليب شتَّى، وصور شتَّى، ولكنَّه ضمن لنا أنَّه سيُظهر الإسلامَ على الأديان كلها، وذلك في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

أيظنُّون أنَّ نور الله شمعة إذا نفخ فيها نافخ أطفأها؟! هل يستطيع أحد أن يطفئ الشمس بنفخه؟ الإسلام كالشمس، أشرقت على الدُّنيا، وأضاءت أنوارها في كل مكان، من ذا يستطيع أن يطفئ هذا النور بفمه، بنفخة من فمه، هيهات هيهات، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٢]، القرآن يصوِّر هذا الأمر، كأنَّما تريد أن تطفئ الشمس بنفخة من فيك، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٢]، بهذه

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢١٨/٢٠)، عن محمد بن كعب القرظي.

QaradawiBooks.com

المكايد والمؤامرات الَّتي يكيدون بها يومًا بعد يوم، يقول الله تعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

هم يريدون شيئًا والله يريد شيئًا آخر، فأيّ الإرادتين أولى بأن تُنفَّذ؟ إرادة العبيد أم إرادة ربِّ الأرباب؟ إرادة الله هي النافذة، هم يريدون والله يأبى هذا، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢]، وهذا الإباء الإلٰهي هو الَّذي يعطينا الثقة والطمأنينة، ويعطينا البُشْرى بأن نور الله لن يُطفأ أبدًا، وأن راية الله لن تسقط أبدًا، وأن دِين الله لن ينهزم أبدًا، وأن هذه الأُمَّة لن تموت أبدًا، مهما تألب عليها المتألبون، ومكر بها الماكرون، وتجمع عليها الكافرون.

هم يختلفون فيما بينهم، ولكن إذا كان العدو هو الإسلام تجمَّعوا علينا جميعًا، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣]، الكفر كله ملَّة واحدة، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩]، فليوالِ بعضهم بعضًا كما يشاؤون، فالله هو وليّنا، نعم المولى، ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿إِنَّ وَلِِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، وليّنا هو الله.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، أرادوا أن يطفئوا نور الله في أُحد، وأرادوا ذلك في الخندق، ولكن كانت النتيجة: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]، ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩]، ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

QaradawiBooks.com

المسلمون محاصرون، جاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتَّى اليهود في داخل المدينة غدروا بهم، ونقضوا عهدهم، وانضموا إلى المهاجمين، في الوقت الَّذي توجب عليهم المعاهدة المعقودة معهم أن يكونوا مع المؤمنين، أن يناصروهم بالمال والسلاح والرجال، ففي هذا الوقت العصيب غدروا بهم، وانضموا إلى الغُزاة، مرتكبين الخيانة العظمى في هذا الوقت، ومع هذا لم ينهزم المسلمون داخليًّا، ولم تنهزم أنفسهم، ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وعدنا الله ورسوله بمثل هذا، أنَّه لا بدَّ أن نلقى الشدائد، ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وهذه الأمور ليست غريبة على أصحاب الرسالات، ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

هذه الشدائد زادتهم إيمانًا وتسليمًا، مثل الذهب تضعه في النَّار فيزداد صفاء ولمعانًا ويذهب منه الخبث، ويبقي الذهب الأصلي، فالنار لا تزيده إلَّا نقاء وصفاء، كذلك المؤمن يدخل المحن وتصيبه الشدائد، فيبرز معدنه الأصيل النفيس، ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، خوفوهم بالجيوش وبالأسلحة، وغيرها، فلم يفت ذلك في أعضادهم، بل زادهم إيمانًا، ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

ثقوا أيُّها المسلمون أن نور الله باقٍ، لا يمكن لواحد من النَّاس، ولا لدولة من الدول، ولا للغرب، ولا لأوربا، ولا لأمريكا،

QaradawiBooks.com

ولا للأساطيل، ولا للقنابل النووية، ولا لغيرها، أن يطفئوا نور الله، لن يُمْكنهم أن يُخمِدوا جذوة الإسلام، ولا أن يميتوا أمة الإسلام، أو أن يقتلعوها من جذورها، الإسلام أقوى منهم وأكبر منهم، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

المبشّرات بانتشار الإسلام واتّساع دولته:

الإسلام هداية تعمر القلوب، وعدالة تُنصف الشعوب، ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، بعث الله محمدًا ﷺ بهذا الهدى الَّذي ينير العقل والقلب، ودين الحق بما فيه من عدل ومن تشريع، يحقق كل مصلحة، ويدرأ كل مفسدة، ويقيم القسط بين النَّاس، ويقيم دولة العدل والإحسان، بعث الله محمدًا بهذا الهدي ودين الحق، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، وهذا وعد من الله، ولن يخلف الله وعده، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]، وعد الله أن يظهر الإسلام على الدين كله، أي على كل الأديان، وهذا وعد لا بدَّ أن يُنجَز، لكن متى؟ لم يحدِّد ربنا في قرن كذا، ولكن لا بدَّ أن يحدث هذا.

من قبل ظهر الإسلام على الوثنيَّة العربيَّة، وعلى اليهودية، وعلى النصرانيَّة الشرقيَّة في بلاد الشرق، ولكن لم يظهر على كل الأديان، لم يظهر على الدين كله، بقيت المسيحيَّة في الغرب، بقيت الوثنيات الشرقيَّة الكبرى في آسيا وأفريقيا، يدين بها آلاف الملايين.

ولا بد أن يُنجَز وعدُ الله، ونحن ننتظر أن يُنجَز وعد الله، هذا وعد لا يتخلف، لأن الَّذي يعد ولا يُنجِز لا بدَّ أن يكون كاذبًا في وعده، أو

QaradawiBooks.com

عاجزًا عن إنفاذه، والله تعالى ليس بعاجز، وليس بكاذب، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، لا يكذب الله، ولا يَعجِز الله عن إنفاذ وعده.

إنَّ الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، ولكن كل شيء بميقات، ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، كل شيء عنده بأجل مسمى، نحن ننتظر أن يتحقق هذا.

نحن ننتظر نصر الله، وننتظر أن يُتم الله نوره، وأن يُظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون، ولكن هذا لا يأتي إلَّا بمؤمنين صادقين، الله تعالى يقول في سورة الأنفال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]، بنصره وبالمؤمنين، يعني لا نصر إلَّا بالمؤمنين، حتَّى لو فيه ملائكة لا بدَّ أن تتنزل الملائكة على المؤمنين، ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢]، الملائكة لن تنزل على فراغ، فلا بدَّ أن نهيئ المؤمنين الصادقين المترابطين المؤتلفين، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الثاني
المؤمنون والمشركون والمنافقون في سورة التوبة

تميَّزت سورة التوبة عن سائر سور القرآن بميزة وخاصية ليست لغيرها من سور القرآن الكريم، تميزت بأنَّها لم تبدأ بالبسملة، فليس في أولها: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ كسائر السور المائة والثلاثة عشر، فقد روي عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنَّه قال ـ كما ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» ـ: «بسم الله الرحمن الرحيم» أمان، وسورة براءة نزلت برفع الأمان[1].

فهذه السورة في الواقع تعلن إعلانًا عامًّا بقطع المواثيق ونبذ العهود الَّتي بين المسلمين وبين المشركين، إلَّا ما كان منها إلى أمد موقوت، إيذانًا بأنَّه لا مجال للرحمة، فنحن أمام حرب معلنة على هؤلاء المشركين، الَّذين نكثوا العهود، وتجاوزوا الحدود، ونكثوا أيمانهم مع رسول الله ﷺ، وهمُّوا بإخراج الرسول، وهم بدؤوا المسلمين أوَّل مرَّة، وفعلوا ما فعلوا، فكان لا بدَّ أن تُنبَذ إليهم عهودهم، وأن يبدأ الرسول ﷺ وأصحابه معركة طويلة معهم.

ووجود البسملة مقرونًا بالرحمة يوجب نوعًا من الأمان لهؤلاء النَّاس، والسورة ليس فيها أمان بل فيها: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ

(١) زاد المسير لابن الجوزي (٢/٢٣١).

QaradawiBooks.com

وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ ﴾ [التوبة: ٥]، ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ﴾ [التوبة: ٣٦]. فلا مجال لهؤلاء إلَّا السيف، وإلا القتال، ولا مجال لرحمة ولا أمان.

أمهلوهم أربعة أشهر يسيحون في الأرض، فإذا انتهت هذه الأشهر الأربعة الَّتي حُرم فيها القتال فعلى المسلمين أن يبدؤوا معهم معركة طويلة، ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة: ٥].

سورة التوبة نزلت بعد غزوة تبوك، كما نزلت سورة الأنفال بعد غزوة بدر، وكما نزل نحو ثمانين آية من سورة آل عمران بعد غزوة أحد، وكما نزلت سورة الأحزاب بعد غزوة الخندق، وكما نزلت سورة الفتح بعد غزوة الحديبية، هنا، نزلت هذه السورة بعد غزوة تبوك، وغزوة تبوك كانت لقاء بأضخم وأعظم وأقوى وأعتى إمبراطورية في الأرض، أو إحدى القوتين العظميين في الأرض، كانت القوَّتان العظميان فارس والروم، وقد انتصرت الروم أخيرًا وأصبحت هي القوَّة الأولى.

كانت هذه الغزوة لقاء مع الروم، وتعتبر من العمل العسكري المتميز لرسول الله ﷺ، لأنَّه لم يترك الروم حتَّى يغزوه، علم أنَّهم يدبرون لغزوه، فجهَّز الجيش، وذهب إلى تبوك هناك في الشام، وهي مسافة طويلة جدًّا، وكانت في وقت شديد الحر، وفي أيام قرب جني الثمار، ولذلك كانت شديدة على النَّاس.

ومن أجل هذا كان النبي ﷺ في سائر الغزوات يُورِّي بالغزو ولا يصرح إلى أين يذهب، يستخدم أسلوب التورية، ولكنَّه خالف ذلك في هذه

QaradawiBooks.com

الغزوة؛ لخطرها، وبُعد الأعداء عنها، صرح للصحابة أنَّه يقصد تبوك؛ حتَّى يجهِّزوا أنفسهم، لأنَّها بعيدة جدًّا عن المدينة، ولا يمكن أن يذهب أحد إليها ماشيًا، كيف سيمشي شهرًا أو نحو ذلك؟! فلا بدَّ أن يُعد العُدَّة، ويهيئ الركائب، فكانت هذه غزوة شديدة، ولذلك برز فيها النفاق[1].

سورة التوبة كشفت ستر المنافقين، وفضحت أولئك القاعدين عن الجهاد، ووضحت موقفهم المتخاذل، ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ﴾ أصحاب القدرة والسعة، ﴿وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ۝ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ من النساء والصبيان في البيوت، ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٦، ٨٧].

بينما في الجانب الآخر، الجانب المشرق الوضَّاء، بيَّنت جانب المؤمنين، فقالت: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٨٨، ٨٩].

ومن كان له عذر جاء إلى النبيِّ ﷺ واعتذر، فمنهم من اعتذر بحق، ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [التوبة: ٩٠].

وهناك من تعلَّلوا لرسول الله ﷺ بأعذار كاذبة، وقبِل رسول الله ﷺ ظاهرهم، وترك سرائرهم لله ﷻ.

وهناك من المسلمين ثلاثة هم: «كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع»، تخلفوا عن غزوة تبوك، ولم يكن لهم عذر، ثمَّ

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٥١٦/٢) وما بعدها، ودلائل النبوة للبيهقي (٢٧٠/٢).

QaradawiBooks.com

جاؤوا لرسول الله ﷺ بعدما رجع من الغزوة، وبينوا له أنَّهم ما كان لهم عذر، وأنَّهم كانوا أقوياء، وكانوا قادرين على الذهاب معه، فأمرهم النبيُّ ﷺ أن ينتظروا حكم الله فيهم.

وجاء الأمر للمسلمين بمقاطعتهم خمسين يومًا، مقاطعة اجتماعيَّة من المجتمع لهؤلاء الَّذين تخلَّفوا عن الجهاد، تخلَّفوا عن لقاء قوَّة عظمى، يحتاج إلى حشد القوى، وتعبئة الجنود والجهود، فأمهلهم رسول الله ﷺ حتَّى نزلت التوبة من الله لهم، ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

لأنَّهم صدقوا الله ورسوله، ولم يكذبوا على رسول الله، أنزل الله توبتهم من فوق سبع سماوات، وبعث رسول الله من يبشرهم بتوبة الله عليهم، قال أحدهم وهو كعب بن مالك: فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمةٍ قطُّ بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ، ألَّا أكون كذبته فأهلك كما هلك الَّذين كذبوا[1].

حول «آية السيف»:

مَن قرأ القرآن مكيَّه ومدنيَّه ـ مائة وأربع عشرة سورة ـ لاح له بغير خفاء: أنَّ القرآن ـ من أوَّله إلى آخره ـ كتاب دعوة وحوار، خطاب للعقول، وإقامة للحُجج، وتفنيد للشبهات، وبيان لحقائق الدين، وردٌّ على أباطيل الخصوم، وإيضاح لآيات الله في الأنفس والآفاق.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤٤١٨)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، عن كعب بن مالك.

QaradawiBooks.com

كما أنَّه يتعامل مع المخالفين له بسماحة منقطعة النظير، يدعو على بصيرة، ويجادل بالَّتي هي أحسن، ويدفع بالَّتي هي أحسن، ويأمر بالصبر على أذى الخصوم، والصفح عنهم، وترك أمرهم إلى الله يحكم بينهم يوم القيامة.

كما يدعو إلى الدخول في السِّلْم كافَّة، والإعراض عمَّن تولى عن الدخول في الإسلام، ولا يُشرِّع القتال إلَّا لردِّ العدوان، وقتال مَن يقاتل المسلمين، أو يفتنهم عن دينهم، أو يعذِّب المستضعفين منهم ممَّن لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا.

وإذا اضطر المسلمون إلى القتال: التزموا بآداب وأخلاق، تُوقفُهم عند حدود الله، الَّتي تحرِّم عليهم الاعتداء: لا يقاتلون إلَّا مَن يقاتلهم، لا يقتلون امرأة ولا وليدًا، ولا شيخًا فانيًا، ولا راهبًا في صومعته، ولا فلاحًا يحرث أرضه، ولا تاجرًا في متجره، ولا يخربون عامرًا، ولا يقطعون شجرًا، ولا يفسدون في الأرض.

هذه التعاليم القرآنيَّة الواضحة الَّتي دلَّت عليها عشرات الآيات، بل مئاتها، وأكَّدتها السُّنَّة النبويَّة قولًا وفعلًا وتقريرًا: ذهب بعض المفسرين القدامى إلى أنَّها فقدت فاعليتها، وأن كلَّ هذه الآيات المكتوبة في المصحف: موجودة حسًّا، معدومة معنًى، أو باقية تلاوة، منسوخة حُكمًا، بمعنى آخر: أن هذه الآيات ـ الَّتي قدَّرها بعضهم بمائة وأربع عشرة (١١٤) آية، وبعضهم بمائة وأربعين (١٤٠) آية، بل بعضهم بمائتي (٢٠٠) آية، والَّتي نتلوها آناء الليل وآناء النهار، ونتعبَّد بتلاوتها ـ قد ألغتها وقضت عليها آية واحدة، أو جزء من آية، أطلقوا عليها: «آية السيف».

QaradawiBooks.com

فإذا استشهدت بقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، قيل لك: نسختها آية السيف، أو بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ [البقرة: ١٩٠]، قيل لك: نسختها آية السيف، أو بقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، قيل لك: نسختها آية السيف، أو بقوله ﷻ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، قالوا لك: نسختها آية السيف، أو بقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ٩٠]، قيل: نسختها آية السيف، أو بقوله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الممتحنة: ٨]، قيل: نسختها آية السيف!

وهكذا، كأنَّما أصبحت «آية السيف» نفسها سيفًا يقطع رقاب الآيات، ويتركها جثة هامدة لا روح فيها ولا حياة، فهي متلوَّة لفظًا، ملغاة معنى. إذ حُكم عليها بالإعدام!

والعجب العاجب في هذا الأمر: أنَّهم اختلفوا في تعيين هذه الآية الَّتي زعموها ناسخة ـ آية السيف ـ أيُّ آية هذه من كتاب الله؟! وإن اتفقوا على أنَّها آية من سورة التوبة.

والأكثرون يرجِّحون: أن آية السيف هي قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ٥].

وهي ـ كما هو واضح ـ تأمر بقتل المشركين حيث وُجدوا، وبأسر

QaradawiBooks.com

مَن لم يُقتل منهم، وبحصارهم وتضييق الخناق عليهم، لكن: مَن هم المشركون المقصودون في الآية؟ ومتى يقتلون؟

إنَّ الآيات الَّتي قبل هذه الآية توضِّح ذلك حين تقول: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١ ـ ٤].

وانظر: كيف احترم عهد هؤلاء المشركين، الَّذين عاهدهم الرسول والمسلمون، فوفَّوا بعهدهم معهم، ولم ينقصوهم شيئًا، ممَّا فرضته المعاهدة ولم يُظاهروا عليهم عدوًّا، فأمر الله تعالى أن يُتمَّ إليهم عهدهم إلى مدَّتهم، فهذا من التَّقوى الَّتي يحبها الله ويحب أهلها.

لأنَّ من دعائم التَّقوى الوفاء بالعهد، كما يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وبعد هذه الآية الَّتي سمَّوها آية السيف مباشرة، نجد الآية التالية تقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

QaradawiBooks.com

فهذه الآية تأمر رسول الله ﷺ أن يُجير مَن يستجير به من المشركين، وأن يتيح له الفرصة حتَّى يسمع كلام الله، كما تأمره أن يؤمِّنه حتَّى يصل إلى ذلك المكان الَّذي يأمن فيه.

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، هذه ثلاثة شروط للكف عن قتال هؤلاء وتخلية سبيلهم.

أوَّلها: التوبة عن الشرك، ودليله أن يشهدوا أن لا إلٰه إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله.

ثانيها: إقامة الصلاة المفروضة على المسلمين، وهي مظهر الإيمان وأعظم أركان الإسلام المطلوبة في كل يوم من الأيام، والفيصل بين المسلم والكافر، وهي الرابطة الدينيَّة الروحيَّة الاجتماعيَّة بين المسلمين.

ثالثها: إيتاء الزكاة المفروضة في أموال الأغنياء لذوي الحاجات، ولمصلحة الأُمَّة العامَّة، وهي الرابطة الماليَّة الاجتماعيَّة السياسيَّة بين جماعة المسلمين.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]، ورد أن أم هانئ بنت عم رسول الله ﷺ أجارت بعض أحمائها من المشركين، وكان ممَّن حارب النبي ﷺ، وقالت: يا رسولَ الله، قد أجرتُ فلانًا وفلانًا. فقال النبي ﷺ: «**قد أجرنا مَن أجرتِ، يا أمَّ هانئ**»[1].

فجعل للفرد أن يجير على الدولة، ويُدخل في جواره مَن شاء،

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٣٥٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٣٣٦)، عن أم هانئ بنت أبي طالب.

QaradawiBooks.com

حتَّى المرأة، «**قد أجرنا مَـن أجرتِ، يا أمَّ هانئ**». هذا هو الإسـلام، وتسامح الإسلام.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]، ليس المقصود نفي علم معين عنهم من علوم الشرع أو الكون، بل المقصود نفي العلم من حيث هو، أي أنَّهم ليسوا بأهل علم ومعرفة.

هذه السورة ذكرت من طبائع المنافقين أنَّهم: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠]. المنافق يعاهد ويغدر، ويقول الكلمة وينكث، ولا يرعى لله عهدًا، ولا يرعى لما بينه وبين النَّاس حرمة، كلمته لا قيمة لها، وعهده لا وزن له، إذا عاهد الله غدر، وإذا عاهد النَّاس نقض، وإذا عاهد نفسه نكث، هذا هو المنافق، وهذا هو الكافر.

فإنَّ الله وصف الكفَّار بنقض العهود، فقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

على حين وصف الله ﷻ المؤمنين بأنَّهم يرعون العهود، ويحفظون المواثيق ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: ١٩، ٢٠].

وفي أوصاف المؤمنين الَّذين كتب الله لهم الفلاح في سورة المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

لقد أمر الله بالمحافظة على العهود، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وفي آية أخرى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

QaradawiBooks.com

أمر الله بالمحافظة على العهود والمواثيق ولو كانت بين المسلم والكافر، فإن الله أمر جماعة المسلمين أن يوفوا بعهودهم إلى الكفَّار ما دام الكفَّار موفين بعهودهم، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]، يقول الله ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

فهو يجعل الوفاء بالعهد من التَّقوى، ومن صفات المتَّقين. هكذا أمر الله المؤمنين، أن يوفوا بعهودهم حتَّى مع المشركين والكافرين. بل نرى القرآن يفضل الكافر الَّذي بينه وبين المسلم ميثاق على المسلم الَّذي يعيش في غير دار الإسلام. يقول الله ﷻ: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

أي: إذا استنصركم المسلمون الَّذين لم يهاجروا من دار الحرب ودار الكفر إلى دار الإسلام، فعليكم النصر، إلَّا إذا كان أولئك المسلمون بين قوم ارتبطوا معكم بالمواثيق والعهود.

ويجعل للقتيل الَّذي هو من أهل الإيمان ولكنَّه في دار الكفر ودار الحرب، يجعل له كفَّارة، وأمَّا إذا كان من أهل العهد والميثاق، من غير المسلمين، فإن له دية إلى جوار الكفارة.

يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

QaradawiBooks.com

الدرس الثالث
صفات المؤمنين الَّذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۞ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١، ١١٢].

هاتان الآيتان تتحدَّثان عن عقد في غاية الأهميَّة، عقد مُوثَّق، عقد من عقود البيع، الله فيه هو المشتري، والمؤمنون هم البائعون، والمعقود عليه أو الصفقة والسلعة هي الجنَّة، والثمن هو الأنفس والأموال.

هاتان الآيتان خصوصًا الآية الأولى جاءت بعد أن ذكر الله تعالى ما ذكر في هذه السورة من سمات المنافقين وأخلاقهم، وخصالهم وفرارهم من تبعات الجهاد بالأنفس والأموال، حتَّى قال الله في شأنهم: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟﴾ [التوبة: ٨١].

QaradawiBooks.com

كان هؤلاء المنافقون يهربون من الجهاد وتبعاته، ولا يريدون أن يبذلوا من أنفسهم ولا من أموالهم، ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ [التوبة: ٤٢]، هذا هو شأن المنافقين يتعلَّلون بتعِلَّات واهية، ويعتذرون بأعذار مرفوضة للتخلف عن الجهاد، ولكن المؤمنين لا يبخلون بأنفس ولا أموال، يبذلون الغالي والرخيص في سبيل الله، ومن هنا أكَّد القرآن هذه الصفقة وهذا العقد بين الله تبارك وتعالى وعباده المؤمنين.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، بهذا التأكيد، عقب على ذلك بعض مفسري السلف فقال: باعهم والله فأغلى الثمن. قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ بعد قراءة هذه الآية: اشترى أنفسًا هو الَّذي خلقها، وأموالًا هو الَّذي رزقها، ثمَّ أعطى ثمنًا غاليًا هو جنَّة عرضها السماوات والأرض[(١)].

أرأيت أحدًا يشتري ما يملك؟ إنَّ الله وحده هو الَّذي يشتري ما يملكه، فهذه الأنفس وهذه الأموال ملك الله تبارك وتعالى، لم نخلق أنفسنا وإنَّما الله هو الَّذي خلقها، وليست هذه الأموال ملكنا حقيقة ولكن الله هو الَّذي رزقها، هي وديعة الله عندنا، ونحن مستخلفون فيها، ولكن الله يشتري منا ما يملك ويعطينا الثمن الغالي بل أغلى ثمن، هي الجنَّة، الَّتي جاء في الحديث القدسي الصحيح أنَّ الله تعالى يقول: «**أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر**»، قال أبو هُرَيْرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]»[(٢)].

(١) الكشاف للزمخشري (٣١٣/٢).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة (٢٨٢٤)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

هل هناك ثمن أغلى وأنفس من الجنَّة؟ لا والله، كلُّ شـــيء في هذه الدُّنْيا مهما غلا فإنَّه رخيص بالنسبة إلى الجنَّة، ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

قال بعض السلف: لو كانت الدُّنْيا ذهبًا يفنى والآخرة خزفًا يبقى لآثر العاقل خزفًا يبقى على ذهب يفنى، فكيف والدنيا أقل من خزف والآخرة أعلى من ذهب، والآخرة هي الباقية والدنيا هي الزائلة. الدُّنْيا هي الزائلة لأنَّ كلَّ ما فيها إلى فناء[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبـــة: ١١١]، عوَّضهم عن الأنفس والأموال بالجنَّـــة، حينما بايع النبي الأنصار بيعة العقبة في موسم الحجِّ بمكَّة بايعهم على أن يمنعوه ممَّا يمنعون منه أنفســـهم وذراريهم، قالوا: يا رســـولَ الله اشترط لنفسك ولربك ما شئت. قال: أشـــترط لربِّي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني ممَّا تمنعون منه أنفسكم وأهليكم. قالوا: وما لنا في ذلك يا رســـولَ الله؟ قال: الجنة. قالوا: ربح البيع، لا نُقِيل ولا نستقِيل[٢].

يعني قبِلْنا هذه الصفقة بـــكل تبعاتها، نمنعك ونحرســـك ونحافظ عليك كما نمنع ونحرس أنفسنا وأهلينا وأموالنا، بل كان النبيُّ ﷺ أغلى عندهم وأعزُّ عليهم من أنفســـهم وأهليهم وذراريهم، والثمن هي الجنَّة، ربح البيع، لا نُقِيل ولا نستقِيل.

---

(١) انظر: إحياء علوم الدِّين (٢٠٧/٣)، من قول الفضيل بن عياض.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٤٩٩/١٤)، عن محمد بن كعب القرظي.

QaradawiBooks.com

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، وما داموا قد باعوا الأنفس والأموال لله ﷻ وهذا ما يقتضيه الجهاد، فالجهاد لا بدَّ فيه من بذل النفس وبذل المال، والمال هو شقيق النفس وصنو الروح، ولذلك كثيرًا ما يقدَّم في القرآن الجهاد بالأموال على الأنفس، ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠، ١١].

هذه هي الصفقة الرابحة، وهذه هي التجارة الناجحة، بل هي أربح تجارة في الدُّنْيا والآخرة، هؤلاء الَّذين بايعوا الله ﷻ على الأنفس والأموال يقاتلون في سبيل الله، ما داموا قد باعوا أنفسهم وأموالهم فهم يقاتلون في سبيل الله، يقاتلون قتالًا ليس كقتال الجاهليَّة عند العرب الَّذين كانوا يغير يعضهم على بعض من أجل الغنائم، أو من أجل العصبيَّة أو من أجل شيء من ذلك، ولا كما عرف النَّاس في القديم والحديث، القتال من أجل صفقات، أو من أجل استيلاء على أرض، أو من أجل أسواق، أو من أجل شيء من أعراض الدُّنْيا كما هو القتال في عهود الاستعمار من قديم ومن حديث.

ولكن المؤمنين ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، يقاتلون في سبيل الله أي لتكون كلمة الله هي العليا، كما سئل النبي ﷺ، فقيل له: يا رسولَ الله الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه، أي ليَرى النَّاس أنَّه من أهل الشجاعة والإقدام فيتحدث النَّاس عن شجاعته وبسالته في القتال، فمن في سبيل الله؟ وكان النبي ﷺ

QaradawiBooks.com

قد أوتي جوامع الكلم، فقال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، لا في سبيل مصلحة شخصيَّة، ولا في سبيل عصبيَّة قبيلة، أو عصبيَّة إقليميَّة أو عنصريَّة، ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]، هذه سنة الله في الحرب، يقتلون ويُقتَلون، إذا قَتلوا فقد أبلوا بلاءً عظيمًا، وإذا قُتلوا فهم شهداء في سبيل الله، كما قال الله ﷻ: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤]، ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]، النصر أو الشهادة في سبيل الله.

﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]، إذا قُتلوا فهم شهداء في سبيل الله، وقد سمع النبي رجلًا يقول: اللهمَّ آتني أفضل ما تُؤتِي عبادك الصالحين. فقال: «**إذن يُعقر جوادك، وتستشهد في سبيل الله**»(٢).

هذا أفضل ما يؤتِي الله عباده الصالحين، وأعظم ما يصل إليه الإنسان المؤمن من درجات عند الله أن ينال الشهادة، والعجيب أنَّه ينال الشهادة ويُهراق دمه ويُعقر جواده الَّذي يجاهد عليه، ومعنى هذا أنَّه بذل النفس والمال معًا.

---

(١) سبق تخريجه (٣٥٨/١).

(٢) رواه البزار (١١١٣)، وأبو يعلى (٧٦٩)، وابن خزيمة في الصلاة (٤٥٣)، والحاكم في الإمامة وصلاة الجماعة (٢٠٧/١)، وصحَّحه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٥٢٥): رواه أبو يعلى والبزار بإسنادين وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح خلا محمد بن مسلم بن عائذ وهو ثقة. عن سعد بن أبي وقاص.

QaradawiBooks.com

﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [التوبة: ١١١]، هذا العقد الَّذي عقد الله بينه وبين عباده المؤمنين عقد موثَّق ومسجل في الكتب السماويَّة كلها، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [التوبة: ١١١]، ولذلك لا ينقض هذا العقد، ولا ينكث بهذا الوعد، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [التوبة: ١١١]، والله لا يخلف الميعاد، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

سجل هذا العقد في كتب الله السماويَّة، ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، استبشروا أيُّها المؤمنون بهذا البيع وهذه الصفقة في الدُّنْيا والآخرة، ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]، وأي فوز أعظم من الجنَّة ومن رضوان الله تبارك وتعالى فيها؟ ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

ما سمات هؤلاء المؤمنين الَّذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم وأعطاهم الجنَّة عوضًا؟ قال الله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾، الَّذين يعيشون بروح التوبة وإن لم يُذنِبوا، ولكنَّهم يحسون دائمًا بأنَّهم مفرِّطون في جنب الله، مقصرون في حق الله، فكل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، وقد قال النبي ﷺ، «**يا أيُّها النَّاس توبوا إلى الله، فإنِّي أتوب في اليوم إليه مائة مرَّة**»[1].

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٢)، وأحمد (١٧٨٤٧)، عن الأغر الجهني.

QaradawiBooks.com

﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ الَّذين يعيشون مع الله بروح المتعبِّد دائمًا، يعبدون الله بأداء الفرائض، ويتقربون إليه بالنوافل، بل إنَّ الأعمال العادية تنقلب في حياتهم عبادة، لأن حياتهم كلها لله، حتَّى إنَّ الأكل والشرب وكل حياتهم العادية تنقلب إلى عبادات بالنيَّة، فهم يعيشون عابدين لله.

﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ الَّذين يَحمَدون الله على السراء والضراء، على النعماء والبأساء، فهم دائمًا يشعرون بنعمة الله تغمرهم من رؤوسهم إلى أقدامهم، وقد كان النبيُّ ﷺ إذا رأى ما يحب قال: «**الحمد لله الَّذي بنعمته تتمُّ الصالحات**»، وإذا رأى ما يكره قال: «**الحمد لله على كل حال**»[1]. فهو الَّذي لا يُحمَد على مكروه سواه، فالحامدون هم الَّذين يحمدون الله دائمًا وعلى كل حال.

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾، والسياحة هنا ـ كما جاء عن الصحابة والتابعين وفي بعض الأحاديث ـ الصيام[2]، فالسائحون أي الصائمون، فهي سياحة روحيَّة.

وبعضهم فسر السياحة هنا بالسياحة الماديَّة أي: المهاجرون، وبعضهم فسرها بالسياحة لطلب العلم، أو طلب الرزق، أو للحج والعمرة، ولكن أكثر ما ورد السياحة بمعناها الصيام، وهذا ما يوافق قوله تعالى في وصف أمهات المؤمنين: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥]، وهو الموافق لهذا الوصف.

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ﴾، أي المحافظون على الصلاة، الَّتي أهم أركانها الركوع والسجود، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

---

(١) سبق تخريجه (١٩/١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥٠٢/١٤ ـ ٥٠٦).

QaradawiBooks.com

﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، فهم كما صلحوا في أنفسهم حاولوا أن يُصلِحوا غيرهم، لا يقفون متفرجين إذا ضاع المعروف أو شاع المنكر، ولكنَّهم يأمرون وينهون حتَّى لا يكونوا ملعونين كما لعن الَّذين كفروا من بني إسرائيل، ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

من خصائص هذه الأُمَّة الإسلاميَّة أنَّها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

بعد أن وصفهم الله بهذه الأوصاف الإيجابية وصفهم بوصف آخر فقال تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾، فهم حافظون لحدود الله محترزون عن الحرام، وحدود الله هي ما نهى الله تبارك وتعالى عنه، لا يعتدون هذه الحدود، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، يقفون عند حدود الله عند ما أمر ونهى وحلَّل وحرَّم، ولا يقربون الحرام، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]، أي لا يقربون ما حرَّم الله، فلا يرتكبون الحرام ولا يقتربون منه.

هؤلاء هم المؤمنون الَّذين استحقوا البشرى في الحياة الدُّنْيا وفي الآخرة، حيث قال الله تعالى في ختام هذه الآية الكريمة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾،

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بشـــر هؤلاء المؤمنين الَّذين عقد الله معهم هذه الصفقة واشـــترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

نســـأل الله تعالى أن يجعلنا منهم، وأن يحشـــرنا معهم، اللهمَّ آمين، وصلى الله على ســـيِّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الرابع
غزوة تبوك وتوبة الله على مَنْ سار فيها أو تخلَّف عنها من المؤمنين

غير مرخصة للطباعة

نحن على موعد مع كتاب الله، وموعدنا الليلة مع آيات من سورة التوبة، سورة التوبة أو سورة براءة، وكان بعض السلف يسمونها الفاضحة، لأنَّها فضحت أسرار المنافقين وكشفت أستارهم، وظلت تتحدث عنهم، «ومنهم، ومنهم، ومنهم» حتَّى أرعبتهم.

سورة الأنفال قبلها عقَّبت على غزوة بدر، أمَّا هذه السورة: سورة التوبة فعقَّبت على غزوة تبوك، يقول الله ﷻ في هذه السورة الكريمة: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨].

من أجل ذلك سُمِّيَتْ سورة التوبة، تاب الله فيها على النبيِّ والمهاجرين والأنصار وعلى الثلاثة الَّذين خُلفوا، كيف تاب الله على النبيِّ والمهاجرين والأنصار؟ هل أذنبوا؟ هل ارتكبوا خطيئة؟ إنَّ التوبة هنا تعني القبول من الله ﷻ، إنَّه أدخلهم في زمرة التائبين الَّذين

QaradawiBooks.com

يحبهم الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، والنبيُّ ﷺ كان يقول: «**يا أيُّها النَّاس، توبوا إلى الله، فإنِّي أتوب في اليوم إليه مائة مرَّة**»(١).

سيدنا إبراهيم وإسماعيل حينما كانا يرفعان القواعد من البيت كان من دعائهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧، ١٢٨]، فالتوبة من الله مطلوبة، حتَّى الأنبياء يطلبون التوبة من الله، ولهذا تاب الله على النبيِّ من كل ما كان يعتبره هو ذنبًا ولو كان خلاف الأولى أو خلاف الأفضل، مثل ما جاء في هذه السورة: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، لم أذنتَ للمنافقين في التخلف عن الجهاد معك في هذه الغزوة؟ فهذا ممَّا يستغفر منه رسول الله ﷺ ويطلب التوبة منه ويتوب الله عليه.

تاب الله على النبيِّ وعلى من معه من المهاجرين والأنصار، وهم كرام الصحابة الَّذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الَّذي أنزل معه، المهاجرون ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الحشر: ٨]، هجروا وتركوا أوطانهم الَّتي نشؤوا فيها والَّتي ولدوا فيها، والَّتي فيها أموالهم وديارهم وأهلوهم، تركوها لله، أُخرجوا منها بغير حق إلَّا أن يقولوا ربنا الله.

والأنصار الَّذين آووا ونصروا، آووا رسول الله ﷺ إلى دارهم ونصروه ومنعوه، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

---

(١) سبق تخريجه صـ٣٨.

QaradawiBooks.com

الله تعالى تاب عليهم على المهاجرين والأنصار، ربَّما دخلت نفوسهم بعض الخواطر الَّتي يستغفر الله منها المؤمنون خصوصًا في هذه الغزوة، قال الله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧]، العسرة يعني الصعوبة والشدَّة والمشقة، وهذه الغزوة كانت تسمى «غزوة العسرة»، لأنَّها كانت في وقت قيظ شديد، حر شديد، المنافقون اعتذروا بالحر، ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١]، حر شديد، ووقت فيه عسر في النفقة لا توجد أموال، عسر في الزاد لا يوجد الطعام الكافي، عسر في الماء، عسر في الظهر أي الركائب، مع أن هذه الغزوة بعيدة، سفر بعيد ليس سفرًا قاصدًا، ذاهبون إلى الشام، عدو شديد الشوكة، كثير العدد، الروم أقوى قوَّة في الأرض في ذلك الوقت، يمثلون الأمريكان في وقتنا وعصرنا، كان العالم تتنازعه دولتان كُبريان، الفرس والروم، الفرس بمثابة روسيا الآن، والروم بمثابة أمريكا، فكان المسلمون ذاهبين لمواجهة أمريكا العصر، مواجهة الدولة الرومية البيزنطية.

ولذلك كان النبيُّ ﷺ إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها، يعني يكون ذاهبًا إلى جهة الشرق فيسأل عن نهر مثلًا في جهة الغرب، حتَّى يظن من حوله أنَّه ذاهب إلى جهة الغرب، وذلك كله حرصًا على السرية والكتمان لأن الأمور العسكريَّة لا ينبغي أن يعرفها كل النَّاس، وربَّما كان هناك من المنافقين أو من ضعفاء الصحابة من يسرّب هذه الأسرار إلى العدو، فكان لا يصرح بمكان الغزوة إلَّا في الحال، في هذه المرة صرح بمكان الغزوة وأخبرهم أنَّه ذاهب إلى قتال الروم، ليأخذوا الأهبة ويعدوا العدة كما ينبغي، بلد بعيد، وطريقه مفاوز وصحاري، وعدوٌّ له شوكته.

QaradawiBooks.com

أخذ النبيُّ ﷺ في هذه الغزوة زمام المبادرة، لأنَّه عَلِم أنَّ الروم يُعِدُّون له العُدَّة لغزوه في المدينة، فقد كان لهم أنصار من العرب، بنو غسَّان وبعض النَّصارى من قبائل العرب، فكانوا يُجمِّعون هذه الجموع ليغزوا الرسول، فالرسول أراد أن يغزوهم قبل أن يغزوه، كما قيل: الضربة الأولى نصف المعركة. فكان هذا من السياسة العسكريَّة العظيمة الَّتي عُرِف بها رسول الله ﷺ.

لقد كانت هذه الغزوة امتحانًا عسيرًا، فقد كانت في وقت الحرِّ وفي وقت جني الثمار، ثمار النخيل كانت تُجنى في ذلك الوقت، فكلُّ واحد يريد أن يجلس إلى حديقته وإلى نخيله يجني الثمار ويستمتع بها وبظلها، فكانت هذه الغزوة امتحانًا لإيمان المؤمنين، ولذلك في هذا الامتحان ظهر نفاق المنافقين لم يستطيعوا أن يتحملوا عبء الجهاد، هذا الجهاد الشاق البعيد، جهاد هذا العدو الضخم العدد، ممَّا قد يجعلهم يقولون لماذا نذهب لقتال عدو أكثر منا عددًا؟ من يضحي بنفسه؟ ومن يستغني عن نفسه؟ هذه مجازفة، مُحَمَّد يجازف بنا، فليذهب هو وأصحابه، فكانت الغزوة هذه امتحانًا كشف نفاق المنافقين، ولذلك هناك من المسلمين من الصحابة من جهَّزوا أنفسهم، هناك أناس أثبتوا وجودهم، مثل سيِّدنا عثمان جهّز العسرة بالمال الكثير[1]، وجاء سيِّدنا عمر بنصف ماله، وجاء أبو بكر بماله كله في حجره، فقال له ﷺ: «**ماذا أبقيتَ لأهلك يا أبا بكر؟**» قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله[2].

---

(١) رواه البخاري في الوصايا (٢٧٧٨) بلفظ: «**من جهز جيش العسرة فله الجنة**». وانظر: سيرة ابن هشام (٥١٥/٢) وما بعدها.

(٢) رواه أبو داود في الزكاة (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٦٧٥)، وقال: حديث حسن صحيح. والبزار (٢٧٠)، وقواه، والحاكم في الزكاة (٤١٤/١)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. عن عمر بن الخطاب.

QaradawiBooks.com

كانوا يتسابقون في تجهيز جيش العسرة لمقابلة الروم، وكان هناك أناس لم يستطيعوا أن يذهبوا مع النبي ﷺ لملاقاة الروم، لأنَّه لم يجدوا ركوبة يركبونها، والمسافة بعيدة والطريق طويلة، وهؤلاء ليس عندهم ما يركبون وليس عندهم أموال ليشتروا بها ركوبة، فجاؤوا إلى النبي ﷺ لعله يحملهم على دابة من عنده فلم يجدوا عند رسول الله ما يحملهم عليه، ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، رجعوا من عند النبي ﷺ يبكون ﴿حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، فهؤلاء ليس عليهم سبيل لأنَّهم محسنون، والله تعالى يقول: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١].

وهناك أناس اعتذروا إلى النبي ﷺ وهم غير أهل عذر، وقبل النبي منهم علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله ﷻ.

توبة الله على الثلاثة المؤمنين الَّذين أخِّر قبول عذرهم:

وكان هناك ثلاثة من الصحابة تخلَّفوا بغير عذر، وبان لهم هذا بعد رحيل النبي ﷺ، بعض الصحابة تخلَّف ثمَّ أدركته الحميَّة الدينيَّة مثل أبي خيثمة، جلس في بيته بعد رحيل النبي ﷺ، وكان عنده زوجتان، وعنده بيتان، وجلس في الظل والماء والثمار، ثمَّ حدَّث نفسه: أبو خيثمة في الظل والماء وبين زوجتيه ورسول الله ﷺ وأصحابه في حر الصحراء؟! والله لألحقن برسول الله، وركب فرسه وتوجه تلقاء رسول الله، ولما دنا من رسول الله ﷺ رأى النبي ﷺ رجلًا يأتي من بعيد فقال له: «**كن أبا خيثمة**». وفعلًا لما وصل وجده أبا خيثمة، النبي

QaradawiBooks.com

يتحسس النَّاس الَّذين لا ينتظر منهم أن يتخلَّفوا، فلمَّا رأى هذا الرجل يأتي من بعيد قال كن أبا خيثمة. فكان أبا خيثمة.

من الَّذين تخلَّفوا بغير عذر: الثلاثة الَّذين خُلفوا، ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة: ١١٧]، بعض النَّاس كاد يزيغ وكاد يحاول الاعتذار أو التخلف، لأن في أوقات المحن والشدائد والأزمات تظهر معادن الرجال كما في غزوة الخندق، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۞ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١]، هنا يثبت المؤمنون وتظهر معادن المؤمنين، ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

كادت بعض القلوب في هذه الغزوة تزيغ لكن ثبتها الله ﷻ، ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨]، خُلفوا أي خُلف أمرهم، أرجئ البتُّ فيهم، هؤلاء الثلاثة من الأنصار، كعب بن مالك أحد شعراء الصحابة وأحد الأبطال، ومرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي، هؤلاء الثلاثة تخلفوا بغير عذر.

ويحكي قصَّة هذا التخلف أحد هؤلاء الثلاثة وهو كعب بن مالك، يحكيها ويرويها عنه الإمامان البخاري ومسلم والإمام أحمد في مسنده، الحقيقة ما قرأتُ هذه القصَّة إلَّا وذرفت عيناي، الرجل يحكي كيف تخلَّف بلا عذر، يقول كعب بن مالك رضي الله عنه:

QaradawiBooks.com

لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلَّا في غزوة تبوك، غير أنِّي كنت تخلفت في غــزوة بدر، ولم يُعاتِب أحــدًا تخلَّف عنها، إنَّما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتَّى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في النَّاس منها.

ثم يقول رضي الله عنه: كان من خبري أنِّي لم أكن قطُّ أقوى ولا أيســر حين تخلَّفت عنه، في تلك الغــزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط، حتَّى جمعتهما في تلك الغزوة.

والراحلة هي الناقة المُعَدَّة للســفر وللركوب، وهي ناقة تكون غالية الثمن، فهــو يقــول: والله ما اجتمعت عنــدي قبله راحلتــان قط، حتَّى جمعتهما في تلك الغزوة.

وحينما بدأ رسول الله ﷺ يســتعد لهذه الغزوة وصرَّح لنا بجهتها على غير العادة، يقول رضي الله عنه: فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شــيئًا، فأقول في نفســي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتَّى اشــتدَّ بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئًا، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثمَّ ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئًا، ثمَّ غدوت، ثمَّ رجعت ولم أقض شيئًا.

ثم يقول: وكنت أخرج في النَّاس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت في المدينة، فأحزنني أنِّــي لا أرى إلَّا رجلًا مغموصًا عليــه النفاق. يحزنه ويزيد الأمر سوءًا أنَّه لم يجد في المدينة ممَّن تخلف عن رسول الله ﷺ إلَّا من عرفــوا بالنفاق، أو مــن عذرهم الله من أهــل العجز والضعف،

QaradawiBooks.com

كالأعمى والأعرج والمريض وغيرهم من أهل الأعذار، وظل كعب يسوِّف ويسوِّف حتَّى رجع رسول الله ﷺ.

وكان النبيُّ ﷺ لما وصل تبوك قد سأل عن كعب، قال: «**ما فعل كعب؟**» فقال رجل من بني سلمة من أقارب كعب: يا رسولَ الله، حبسه برداه، ونظره في عطفه، أي جلس بين أهله معجبًا بملابسه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسولَ الله ما علمنا عليه إلَّا خيرًا.

فلمَّا رجع رسول الله ﷺ من تبوك ذهب إليه من ذهب من الَّذين انتحلوا الأعذار الكاذبة فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فالنبي ﷺ قبل منهم علانيتهم، واستغفر لهم، وترك سرائرهم إلى الله تعالى، أمَّا كعب فأراد أن يواجه الأمر، قال: فأجمعت الصدق. أي: عزم على أن يصدق النبي ﷺ.

يقول كعب: فلمَّا رجع رسول الله ﷺ جئتُه فلمَّا سلمت عليه تبسَّم تبسُّم المغضب، ثمَّ قال: «**ما خلفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟**» فقلتُ: بلى، إنِّي والله لو جلست عند غيرك من أهل الدُّنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيتُ جدلًا، أي: أنا رجل لسِن وقادر على الكلام، ولكنِّي والله، لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق، تجد عليَّ فيه، إنِّي لأرجو فيه عفو الله، لا والله، ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى، ولا أيسر منِّي حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «**أمَّا هذا فقد صدق، فقم حتَّى يقضي الله فيك**».

فلمَّا قام من عند رسول الله ﷺ تبعه رجال من بني سَلِمة يقولون له: لو كنتُ اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلِّفون، لاستغفر

QaradawiBooks.com

رسول الله ﷺ لك، يقول: فوالله ما زالوا يؤنِّبوني حتَّى أردتُ أن أرجع فأكذِّب نفسي، ثمَّ قلتُ لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين، قد شهدا بدرًا، فقلت لي فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي.

أمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يقاطعوا هؤلاء الثلاثة، لا يكلمهم أحد، ولا يتعامل معهم أحد، وهذا نوع من التربية الَّتي جاء بها الإسلام كما سمَّاها الإمام السيوطي: «الزجر بالهجر»[1] تزجر الإنسان بأن تهجره ليتعلم من هذا الزجر، كما اعتزل النبي ﷺ نساءه شهرًا أيضًا تعليمًا وتأديبًا لهن حينما طالبن الزيادة في النفقة، فهنا أيضًا أمر بمقاطعة هؤلاء الثلاثة حتَّى يحكم الله فيهم.

يقول كعب: فاجتنبنا النَّاس، وتغيروا لنا حتَّى تنكرت في نفسي الأرض فما هي الَّتي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأمَّا أنا، فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه بردِّ السلام علي أم لا؟ ثمَّ أصلي قريبًا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليَّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني.

(١) الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج للسيوطي (٢٢/٥)، تحقيق أبي إسحاق الحويني، نشر دار ابن عفان للنشر والتوزيع، السعودية، ط ١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وظلوا هكذا حتَّى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت كما ذكر القرآن، انظر كيف صور القرآن نفسية هؤلاء: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ـ الأرض على سعتها ضاقت ـ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التوبة: ١١٨].

يقول كعب: حتَّى إذا طال عليّ ذلك من جفوة النَّاس، مشيت حتَّى تسوَّرت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب النَّاس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رد عليَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، أي لم يشف صدره بالجواب، يقول: ففاضت عيناي، وتوليت حتَّى تسوَّرت الجدار.

ثم حدثت لكعب حادثة، بينما هو في سوق المدينة، إذ برجل يبيع طعامًا يسأل النَّاس عن كعب، فأشار بعض النَّاس له على كعب، فدفع إليه كتابًا وسلَّمه رسالة من ملك غسان في بلاد الشام من أتباع الروم، يقول له في هذه الرسالة: بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. فزاد عليه البلاء، أحسَّ أنَّه يُراد له أن يكون عميلًا! فأحرق كعب الرسالة في التنور، أي الفرن.

وبينما هو على هذه الحال وبعد أن مضت أربعون ليلة من الخمسين؛ إذ برسول الله ﷺ يرُسل إليه من يقول له: إنَّ رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال كعب: أُطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، لا تطلقها، ولكن لا تقربها، فقال لامرأته: ألحقي بأهلك حتَّى يقضي الله في هذا الأمر، وجاءت امرأة هلال بن أمية إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسولَ الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال:

QaradawiBooks.com

«**لا، ولكن لا يقربك**»، قالت: إنَّه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره، ما كان إلى يومه هذا.

هنا قال بعض أقارب كعب لكعب: هلَّا استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما استأذنه هلال بن أمية لتبقى معك امرأتك؟ فقال لهم: لا والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، فهلال شيخ وأنا رجل شاب، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها.

وظل كعب وصاحباه هكذا على هذه الحال الَّتي وصفها القرآن، ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٨]، لبثوا على هذه الحال حتَّى كملت لهم خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامهم.

وذات يوم بينما كعب يصلي صلاة الفجر على سطح بيت، وبينما هو جالس على هذه الحال الَّتي ذكر الله قد ضاقت عليه نفسه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، إذ سمع صوت صارخ على جبل في المدينة يقال له: «جبل سَلْع»، سمع الصارخ ينادي بأعلى صوته يقول: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء من الله الفرج، وجاء رجل من الأنصار يركض إليَّ فرسًا، ولكن كان الصوت أسرع من الفرس، فلمَّا جاءني الَّذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبي، فكسوته إيَّاهما، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما.

وانطلق إلى رسول الله ﷺ، فتلقاه النَّاس فوجًا فوجًا، يُهَنِّئونه بالتوبة، وجاءه الكثيرون من الأنصار فوجًا فوجًا يهنِّئونه بتوبة الله عليه، يقولون له: لتهنك توبة الله عليك يا كعب، حتَّى دخل على رسول الله ﷺ

QaradawiBooks.com

المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس وحوله النَّاس، فلمَّا رآه طلحة بن عُبَيْد الله أحد العشرة المُبَشَّرين بالجنَّة، وأحد الستَّة أصحاب الشورى، وأحد السابقين الأوَّلين من المهاجرين، قام إليه يهرول حتَّى صافحه وهنأه، يقول كعب: والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة. انظروا هذه الأشياء تؤثر في النفس.

يقول كعب: فلمَّا سلمتُ على رسول الله ﷺ قال ـ وهو يبرق وجهه من السرور ـ: «**أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**»، قال: قلت: أمن عندك يا رسولَ الله، أم من عند الله؟ قال: «**لا، بل من عند الله**»، فقال كعب: يا رسولَ الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي كله صدقة لله ولرسوله شكرًا لله وفرحًا بهذه التوبة، فقال له رسول الله ﷺ: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**»، فقال: أمسك سهمي الَّذي بخيبر، ثمَّ قال: يا رسولَ الله إنَّ الله إنَّما نجاني بالصدق، وإن من توبتي ألَّا أُحدِّث إلَّا صدقًا، ما بقيت، فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن ممَّا أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا.

وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٩][1].

(١) سبق تخريجه صـ ٢٦.

QaradawiBooks.com

كانت هذه محنة انتصر فيها الصدق على الكذب، صدق الإيمان ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التوبة: ١١٨]، بعض علماء السلوك يقولون: هذا هو الندم المطلوب في التوبة. من أركان التوبة الأساسيَّة الندم، الحسرة، الحزن، أنَّ الإنسان يكوي نفسه بنار الندم والحزن ويغسل ذنوبه بدموعه، أن يكون مثل هؤلاء الثلاثة، هذه هي نفسية التائب الحقيقي الَّذي يشعر بذنبه ويشعر بخطيئته فيشعر أنَّ الأرض الواسعة هذه ضاقت عليه، وأصبحت كأنَّها عش الطائر.

﴿ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ ـ الظن هنا بمعنى العلم، علموا ـ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التوبة: ١١٨]، كما علمنا رسول الله ﷺ في الحديث: «**اللهمَّ أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**»[(١)]. تعوذ بالله ومنه، أعوذ بك منك، أعوذ من صفة الغضب بصفة الرحمة، لا تلجأ من الله إلَّا إلى الله، وممَّا علمنا رسول الله ﷺ أن نقول عند النوم: «**اللهمَّ أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلَّا إليك**»[(٢)].

﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨]، أكد التوبة.

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٦)، وأحمد (٢٥٦٥٥)، عن عائشة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣١١)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٠)، عن البراء بن عازب.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

يروى أنَّ السيِّدة الزاهدة العابدة رابعة العدوية رحمها الله سألها سائل: إذا تبتُ تاب الله عليَّ؟ قالت له: بل إذا تاب الله عليك تبتَ، أمَّا سمعتَ الله تعالى يقول: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨]. ما معنى: ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾؟ تاب عليهم أي: وفَّقهم للتوبة، ما دام الله تاب عليك أي وفقك للتوبة فثق أن توبتك مقبولة، لأن التوبة سنة من سنن الله، كما أنَّ الماء يغسل الوسخ كذلك التوبة الحقيقيَّة تغسل الإنسان من ذنوبه، ولذلك التائب من الذنب كمن لا ذنب له، ولذلك يحب الله التوابين ويحب المتطهرين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]، الله تعالى من أسمائه: «التواب»، والتواب كما نقول في علم العربيَّة صيغة مبالغة يعني كثير التوبة، يعني مهما كثر المذنبون ومهما قرعوا باب الله تائبين فإن عفو الله أكبر من ذنوبهم، وإن رحمة الله أوسع من خطاياهم، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، أي بالتوبة، حتَّى الشرك يغفره الله بالتوبة، الله تعالى يقول: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، الشرك، الكبائر، كله بالتوبة يذهب، ولذلك من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا: «التواب»، أنَّه التواب على عباده، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ٣].

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]، هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، ورحمته سبقت غضبه، ورحمته وسعت كل شيء.

* * *

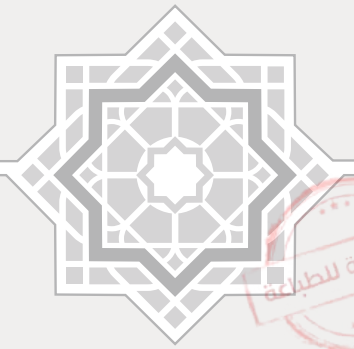
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



غير مرخصة للطباعة

دروس في تفسير

سورة يونس

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدروس الأوَّل

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤]

سورة يونس من السور المكيَّة، مثل سورة الأنعام وسورة الأعراف، وهي سور تُعنى بترسيخ الدين وأصول الفضائل، وأصول التعبد لله تعالى وحده، ترسيخ عقيدة التوحيد وعقيدة البعث والجزاء في الآخرة، ومصير المؤمنين برسله، ومصير المكذبين لرسله ﷻ.

ويهمني أن أقف في هذه السورة عند آيات كريمة تتحدث عن أولياء الله، حيث يقول الله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤].

أولياء الله:

هذه الآيات الثلاث تتحدث عن هذا الصنف من عباد الله ﷻ، أولياء الله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. هناك أولياء لله، وهناك أولياء للشيطان، ناس يحبون الله، ويوالونه، ويقتربون منه، وناس يحبون الشيطان، ويوالونه، ويقتربون منه.

QaradawiBooks.com

أولياء الشيطان هؤلاء الَّذين قال فيهم الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

فأولياء الشيطان هم أولياء الطاغوت، والطاغوت: هو كل ما يُعظَّم ويُطاع ويُعبد من دون الله طاعة مطلقة. من صنم أو حجر أو شجر أو بشر أو جنّ أو شيطان، هذا ما يمكن أن يكون هو الطاغوت.

فهناك أناس يوالون هذا الطاغوت، وقد جاء الأنبياء يحذّرون النَّاس من عبادة الطاغوت، ويدعون النَّاس إلى اجتناب الطاغوت، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

هناك أناس يوالون الله، ويحبونه ويطيعونه، فهؤلاء أولياء الله، وهناك أناس يحبون الشيطان ويوالونه، ويتَّبعون خطواتِه، وهؤلاء هم أولياء الطاغوت، أولياء الشيطان، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

أولياء الله اتَّخذوا الله وليًّا، كما قال الله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، لا يجوز للمؤمن أن يتَّخذ غير الله وليًّا، لا يجوز له أن يتَّخذ أعداء الله أولياء، فمن والى الله والى أولياءه، وعادى أعداءه بطبيعة الحال.

جاء عن سيِّدنا عليّ رضي الله عنه أنَّه قال: أصدقاؤك ثلاثة: صديقك،

QaradawiBooks.com

وصديق صديقك، وعدوُّ عدوِّك. وأعداؤك ثلاثة: عدوُّك، وصديق عدوِّك، وعدوُّ صديقك[١].

فإذا واليتَ الله عاديتَ أعداءه بطبيعة الحال، فلذلك يأمر الله ﷻ المؤمنين ألا يتَّخذوا أعداء الله أولياء. يقول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦]، لا تتَّخذوهم أولياء من دون الله ولا من دون المؤمنين، هؤلاء أولياء الله، أحباب الله ﷻ.

من هم أولياء الله؟

بيَّنهم الله تعالى فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾. الوليُّ هو المؤمن المتَّقي، هذا ما ذكره القرآن. على خلاف عالم الأولياء الَّذي صنعه المسلمون والعصور المتأخرة، صنعوا عالمًا اسمه: «عالم الأولياء»، عالم غريب له مجالس وديوانيات وأقطاب وغير ذلك، مثل قول المصريِّين عن السيِّدة زينب: هي رئيسة الديوان، ديوان الأولياء، والإمام الشافعي كذا.

وجماعة يقولون عنهم: الأقطاب الأربعة، الدُّنْيا صُرِّفَتْ بينهم، كل منهم أخذ ربع الدُّنيا: السيد البدوي، وإبراهيم الدسوقي، وأحمد الرفاعي، وعبد القادر الجيلاني. اقتسموا الكون، كل منهم أخذ ربعه يتصرف فيه كله، هذا كله كلام لا أصل له.

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري (٤٠٥/١)، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ.

QaradawiBooks.com

الولي حقًّا هو من آمن واتقى، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

كلمة: ﴿يَتَّقُونَ﴾، تعني: الملازمة للتقوى، لم يتقوا مرَّة ثمَّ انتهوا، لا، كانوا يتقون، فهؤلاء الأولياء أهل الإيمان والتَّقوى، مثل الصحابة والتابعين لهم بإحسان. فالعوام من النَّاس عندهم الولي هو من ظهرت على يديه الكرامة حيًّا، وكان له ضريح يُزار ميتًا، هذا هو الولي. ولكن من أين جاؤوا بهذا؟ هذا الكلام لا أصل له.

هدي الصحابة الَّذين فتحوا الفتوح، وروَوْا لنا السنن لم تظهر على أيديهم كرامات، نادر جدًّا أن تجد للصحابة كرامات، وتقرأ في كتب التصوُّف وكتب الأولياء تجد عشرات الأولياء، فهذا ركب الأسد، وهذا قال للبحر كذا، كأنَّ هذا الكون ليس له سننٌ يسير عليه.

صحيح هناك كرامات، ونحن قد درسنا في الأزهر كتابًا في التوحيد اسمه: «الجوهرة» يقول فيه:

وَأَثْبِتَنْ لِلْأَوْلِيَا الْكَرَامَةْ ... وَمَنْ نَفَاهَا فَانْبِذَنْ كَلَامَهْ[1]

نثبت للأولياء الكرامة، ولكن ليس معناها أنَّ الكرامة تتعدى سنن الله الثابتة، السنن لا ينبغي أن تتجاوز، قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾ [فاطر: ٤٣]، فالولي هو المؤمن المستقيم على أمر الله.

وما التَّقوى؟ التَّقوى الاستقامة على أمر الله ﷻ، أنا أجد هذه الآيات من سورة يونس شبيهة تمامًا بالآيات من سورة فصلت، قال

(١) شرح الصاوي على الجوهرة صـ ٣٤٤ ـ ٣٤٦

QaradawiBooks.com

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

فالمعنى واحد، والمضمون واحد تمامًا، لكن النَّاس وضعوا على الأولياء هالة عظيمة، وبناءً على هذا فكل المسلمين هنا ليس فيهم ولي واحد، لأنَّه لا أحد تظهر على يديه كرامات، ولا يعرف الغيوب.

هل معرفة الغيب دليل على التَّقوى والولاية؟

ومعرفة الغيوب ليست دليلًا على التَّقوى، لأن الَّذين يخبرون عن الغيوب وتتحقق موجودون، حتَّى عند اليهود وعند النَّصارى وعند المشركين الوثنيين، مثل الهندوس وغيرهم عندهم كُهَّان يخبرونك بأنَّك سيحدث لك كذا ويحدث.

كان أحد مشايخنا في كليَّة أصول الدين قال لي مرَّة: ستذهب إلى الشام وهو يمتحنني، وبالفعل ذهبتُ إلى الشام، وما تذكرت هذه الأشياء إلَّا بعد أن رأيتُه بعد أن رجعتُ، فقلتُ: هذا الشيخ قال لي: إنِّي سأذهب إلى الشام، وأنا ذهبتُ إلى الشام فعلًا، وما كان يخطر ببالي أنِّي سأذهب إلى الشام، كيف؟ الله أعلم، حتَّى أنَّ ابن هذا الشيخ وهو ليس على قدم أبيه ولا على استقامته كان يعرف هذه الأشياء، يخبر الرجل بأنَّه سيحدث له كذا، ويحدث وهو يدخن، هو إنسان عادي، فهذه الأمور ليس لها علاقة بالولاية لله والاستقامة على أمر الله.

التقي ليس معصومًا من الذنوب:

قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، والتَّقوى هي امتثال

QaradawiBooks.com

الأوامر واجتناب النواهي، وليس معنى التَّقوى: أنَّ التقيَّ معصوم من الذنوب والخطايا، لا، التقيُّ بشر يخطئ ويصيب، كما قال النبي ﷺ: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوَّابون**»[1]، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فالشيطان قد يمسهم، ويوسوس لهم، ويوقعهم في المعاصي، ولكنَّهم لا يتمادون كما يتمادى غيرهم، بل يتذكرون، يتذكرون جلال الله وعظمته، وأنَّه مطَّلع عليهم، وأنَّه لا تخفى عليه خافية، وأن هذا سيُسجَّل عليهم، وأنَّهم سيرونه يوم القيامة في كتابهم، يتذكرون هذا فيبصرون الغاية، ويبصرون الطريق، ويبتعدون عن المعصية، وإذا وقعوا في المعصية، فسرعان ما يرجعون إلى الله ويقرعون بابه تائبين مستغفرين، وهذا لا يخرجهم عن التَّقوى.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ثمَّ يبيِّن الله من هم المتقون، فيقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٤، ١٣٥].

عدَّد الله تعالى صفات هؤلاء المتَّقين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي أنَّهم قد يقعون في الكبيرة، ويلمّوا

(١) سبق تخريجه (٤٦٨/١).

QaradawiBooks.com

بالصغيرة، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾، أي: كبيرة، ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، بفعل الصغيرة، ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾، وتابوا ورجعوا إلى ربهم.

حتى إنَّ بعض العلماء فسروا: «اللمم» في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، بأنَّه الرجل يلم بالكبيرة ثمَّ يتوب منها[١]. فالولي ليس معصومًا، سئل الجنيد الإمام المربي، مربي المريدين، قيل له: أيزني الولي؟ فأطرق برأسه قليلًا ثمَّ رفع رأسه وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨][٢]. ممكن القدر يدفعه فيرتكب المعصية، فليس معصومًا.

علام يخاف الناس؟

المؤمنون الأتقياء هم أولياء الله، أولياء الله هؤلاء: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، هل ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة أم في الدنيا؟

أكثر النَّاس يفهم أنَّه: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة، لأن أهل الجنة: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ولكن الظاهر في الآية أنَّها تشمل الدُّنْيا قبل الآخرة ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

من صفات المؤمنين الأتقياء: أنَّهم ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، لا يخاف عليهم خائف ممَّا يجري على النَّاس من مصائب الدُّنيا، من وساوس الشطان، من هواجس النفس، من خواطر السوء، ممَّا

---

(١) قال البغوي: وهو قول أبي هريرة ومجاهد والحسن، ورواية عطاء عن ابن عباس. انظر: تفسير البغوي (٣١١/٤).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣١٨/٢)، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، نشر دار هجر، ط ٢، ١٤١٣هـ.

QaradawiBooks.com

يخيف النَّاس، لا يخشى عليهم أحد، ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، لا تخف على المؤمن التقي أبدًا، لن يضره شيء.

علام يخاف الناس؟ يخاف النَّاس على أرزاقهم، يخاف النَّاس على أعمارهم، هذا يؤدي إلى الجبن والتقاعس عن الجهاد، وعن الدعوة إلى الله، وعن النصيحة في الدين، وعن قول الحق، يخاف الإنسان على الرزق، فلا يريد أن يقول كلمة، فربما يفصل من عمله بسببها، أو ربَّما وربما.

رزقك سيأتيك، لن يستطيع أحد أن ينقص من رزقك فَلْسًا، ولا لقمة، لو قدر الله لك لقمة تصل إلى جوفك ستأتي، علام تخاف؟ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦].

كان الرجل في زمن الصحابة والتابعين يذهب إلى الجهاد ويترك زوجته وأولاده، فيقولون له: أتجاهد وتترك هؤلاء؟ لمن تتركهم؟ فيقول: علينا أن نجاهد في سبيله كما أمرنا، والله يرزقنا كما وعدنا. الله تكفل لنا بالرزق.

ويذهبون إلى امرأة المجاهد يقولون لها: يا أمَّ فلان كيف ذهب أبو فلان وترككِ والأولاد وحدكم؟ ومن أين تأكلين، ومن أين تُرزقين؟ فتقول لهم: إن أبا فلان ـ تعني زوجها ـ منذ تزوجتُه عرفتُه أكَّالًا وما عرفتُه رزَّاقًا، ولئن ذهب الأكَّال لقد بقي الرزَّاق[1].

عرفتُ زوجي أكَّالًا، يأتي من عمله فيقول لنا: ماذا عندكم اليوم؟ ماذا طبختم لنا؟ فهو يأكل، وليس هو الَّذي يرزق، فإذا إذا ذهب الأكَّال فقد بقي الرزَّاق، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٢/٥٨).

QaradawiBooks.com

الإيمان سد منافذ الخوف:

ولذلك لا يُخاف على الأولياء، المؤمنون المتقون لا يُخاف عليهم، لا يخافون على أنفسهم، ولا يخاف عليهم أحد، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، المؤمن بإيمانه سدَّ منافذ الخوف.

أمَّا غير المؤمن يخاف من كلِّ شيء، ويخاف على كلِّ شيء، يخاف من الجنِّ والعفاريت، يخاف من المرض، من الموت، من الشيخوخة، يخاف من الأعداء، إنَّه يخاف من خياله، إنَّما المؤمن لا يخاف إلَّا الله، حتَّى الموت لا يخافه، سيأتي في أوانه، ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

فالأرزاق والآجال اللذان يخاف النَّاس من أجلهما، لا يخاف المؤمنون لا على الرزق، ولا على الأجل، فهم يعلمون أنَّ الرزق مقسوم، وأنَّ الأجل محتوم، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، المؤمن سدَّ منافذ الخوف كلها، فلم يعد يخاف من شيء في الأرض أو في السماء، ولا يخاف إلَّا الله، ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

ولذلك المؤمنون موصوفون بالأمن، الله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، الأمن النفسي، أمنتْ نفوسهم واطمأنتْ، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، هذا هو الأمن، بخلاف المشركين، الله تعالى يقول: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٥١]، هم في رعب دائم، رعب من كل شيء، أمَّا المؤمنون آمنون مطمئنون، قال تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، لا يعتريهم الحَزَن.

QaradawiBooks.com

قد يأتي حَزَن طارئ، إذا أصابته مصيبة يحزن كما يحزن البشر، كما قال النبي ﷺ حينما مات ابنه إبراهيم رضي الله عنه: «**إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلَّا ما يرضى ربُّنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»[1].

هذه طبيعة الأب الَّذي فارق ولده، وفلذة كبده، يحزن، ولكن ليس هذا هو المقصود بالحزن، إنَّما المقصود بالحزن الَّذي نفاه الله عن المؤمنين هو الحزن الدائم، الحزن الَّذي ينغّص على الإنسان حياته، وهو ما يسمونه الآن: «الاكتئاب».

الغربيُّون وعصر الاكتئاب:

العالم الغربي الَّذي غزا القمر، وسيَّر سفن الفضاء، وصنع الكمبيوتر، وأطلق ثورة المعلومات، وثورة الاتصالات، وثورة الإلكترونيات، وثورة الفضائيّات، وثورة البيولوجيات، يعيش عصر القلق والاكتئاب والأمراض النفسيّة، والعيادات النفسية بالآلاف وعشرات الآلاف في أمريكا، الإنسان الَّذي صعد إلى القمر لم يستطع أن يكسب السعادة على وجه الأرض، يعيش في حياة قلقة معذبة مؤلمة، أحدهم يضرب نفسه بالرصاص لأدنى شيء يتعرض له، أو يرمي نفسه من فوق عمارة، وغير ذلك.

لا يوجد هذا في بلادنا الَّتي نرى فيها الإيمان، مهما ضعف لا زال عندنا بقايا من إيمان، من دين، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، لا خوف، لا حُزن، لا اكتئاب، لا يأس، فـ ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٠٣)، ومسلم في الفضائل (٢٣١٥)، عن أنس بن مالك.

QaradawiBooks.com

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، أغلبها أنَّها في الدُّنيا، الله تعالى يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

بشائر أهل الإيمان:

ثم قال الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، في الحياة الدُّنْيا البشريات كثيرة، ومنها: أن يرى الرجل الرؤيا الصالحة، أو تُرى له الرؤيا الصالحة، ومنها: البشائر المذكورة في القرآن الكريم، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨]، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، هذه كلها بشائر، بشائر ستتحقق إن شاء الله، ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

وفي الآخرة بشائر تبدأ بلحظة الاحتضار، وهي الَّتي جاءت في سورة فصِّلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١]، عند الموت وساعة الاحتضار تبدأ البشائر، قبل أن تزهق الروح تأتي الملائكة مبشّرة، هذا هو بداية البشرى في الحياة الآخرة، ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

الخوف يكون من المستقبل، والحزن يكون على الماضي، اطمئن على الماضي، واطمئن على المستقبل: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، فالبشائر في الدُّنْيا والبشائر في الآخرة

QaradawiBooks.com

لأهل الإيمان والتَّقوى، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ﴾، هذه البشائر ستتحقق، ولكن كل شيء بأجل مسمًّى، ليس من الضروري أن يكون غدًا، أو بعد غد.

لما أخبر النبيُّ ﷺ المسلمين أنَّهم سيدخلون المسجد الحرام: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، فلمَّا ذهبوا إلى الحديبية لم يدخلوا، فقال سيِّدنا عمر لسيدنا أبي بكر: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأَخْبَرَك أنَّك تأتيه العام؟ قال عمر: لا. قال أبو بكر: فإنَّك آتيه ومطوف به[1]. فلم العجلة؟ سيتحقق سيتحقق، فالبشريات ستتحقق إن شاء الله[2].

تحدثتُ قريبًا عمَّا عندنا من بشائر عن نصر الإسلام وانتصار هذا الدين، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣]، هذه البشائر ستأتي، فبشائر أهل الإيمان والتَّقوى ستتحقق ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

كلمات الله لا تتبدَّل، سواء كانت كلمات الله التكوينيَّة، أو كلمات الله التنزيليَّة، فهناك الكلمات التكوينيَّة الَّتي يكوِّن الله بها الأشياء بـ «كن»، إنَّما أمره بين الكاف والنون، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فهذه كلمات الله التكوينيَّة، فمقادير الله

(١) رواه البخاري في الشروط (٢٧٣١)، عن المسور بن مخرمة ومروان.

(٢) راجع كتابنا: المبشرات بانتصار الإسلام، نشر مكتبة وهبة القاهرة.

QaradawiBooks.com

لا تتبدل، وهناك الكلمات التنزيليَّة، الَّتي أنزلها في القرآن الكريم قال تعالـــى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٥]، لن تتبدَّل كلمات الله، وستتحقَّق وعود الله، وبشائر الله للمؤمنين، وإنا لذلك لمنتظرون، وبذلـــك مصدِّقون ومؤمنون إن شاء الله.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِي

دروس في تفسير

سورة هود

نسخة مجانية
غير مخصصة للبيع

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الأوَّل
التوحيد والإصلاح في دعوات الأنبياء
من خلال سورة هود[1]

سورة هود من السور المكيَّة الَّتي تُعنى بذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم، وكيف انتهت في الغالب بهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين، وهذا ما حكاه الله في قصص سورة هود، كما في سورة الأعراف، وكما سيأتي في سورة الشعراء، وفي عدد من سور القرآن الكريم.

قصص الأنبياء من دلائل نبوَّة مُحَمَّد ﷺ:

عُني القرآن بقصص الرسل، والأنبياء، عناية كبيرة لما فيها من عظة، كما في آخر هذه السورة: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، فيها تثبيت لقلب النبي ﷺ في مواجهة المشركين.

وفي آخر سورة يوسف يقول الله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

---

(١) من دروس تراويح ١٤٢٢هـ.

QaradawiBooks.com

وفي هذه السورة ـ أيضًا ـ يقول بعد أن قصَّ قصَّة نوح مع قومه وابنه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

هذه القصص من دلائل نبوَّة مُحَمَّد ﷺ، لأنَّه نبيٌّ أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، فمن أين جاءته هذه الأخبار؟ وقد صحَّح أخطاء كثيرة وقع فيها أصحاب الكتب السابقة، وليس الكتب السابقة؛ لأنَّ الكتب لا تخطئ، لأنَّها من عند الله، وإنَّما الخطأ فيما حرّفوه منها، وما كتبوه بأيديهم، ﴿يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩].

سورة هود من السور المكيَّة، والقرآن المكي ـ كما نعلم ـ يُعنَى بتأسيس العقائد والقيم والأصول الفكرية والعبادية والأخلاقيَّة الَّتي تقوم عليها الحياة الإسلاميَّة، وتدعو إليها الرسالة الإسلاميَّة، من هذه الأصول الراسخة: النبوة، الَّتي بعث الله تعالى بها الأنبياء مبشرين ومنذرين، ما بين الحين والحين.

وقد عرض لنا القرآن في عدد من السور قصصًا لمجموعة من هؤلاء الأنبياء، وكرَّر علينا هذه القصص، القرآن حينما يُكرِّر القصَّة لا يكررها تكرارًا مطلقًا، وإنَّما يذكر جوانب لم تُذكَر في السور الأخرى، القصص الَّتي ذُكرت هنا ذُكرت في سورة الأعراف، وستُذكَر في سورة الشعراء، ويُذكَر بعضها في سورة الأنبياء، ولكن في كل مرَّة يعرض لنا القرآن جوانب لم تُذكَر في المرة السابقة.

أنا أشبِّه هذا بشخص واحد تُلتقَط له مجموعة من الصور، قد تُلتقَط له عشرون، أو ثلاثون أو أربعون صورة، كل صورة غير الأخرى، صورة وهو قائم، وصورة وهو قاعد، وصورة وهو مضطجع، وصورة

QaradawiBooks.com

وهو يضحك، وصورة وهو يبكي، وصورة وحـــده، وصورة مع أهله، وصورة مع أصدقائه، هو شخص واحد، هذه الصور الكثيرة المتكررة ليســـت مكررة تكرارًا مطلقًا، إنَّما تُركِّز على جوانـــب لم تركز عليها الصور الأخرى.

وما أشـــبه ســـورة هود هنا بســـورة الأعراف، كلاهما تحدَّثتا عن العقيدة في ســـياق تاريخي، حيث عرضت كل منهمـــا موكب النَّبيِّين والرسل وهم يدعون أقوامهم إلى الله تبارك وتعالى، إنَّ الجميع يدعو إلى الله، وإلى توحيده من ناحية، ويُعنَى بإصلاح المجتمع الَّذي يدعوه من ناحية أخرى.

كلُّ الأنبياء جاؤوا بالتوحيد:

إنَّ من قرأ قصص الأنبياء في القـــرآن، وجد أنَّ الأنبياء جميعًا، عُنوا بأمرين أساسيين:

الأمر الأوَّل هـــو: التوحيـــد، كل الأنبياء دعوا إلى عبـــادة الله وحده لا شـــريك لـــه، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحـــل: ٣٦]. والطاغوت هو: كل ما يُعبـــد ويعظَّم ويُطاع طاعة مطلقة من دون الله. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبيـــاء: ٢٥]، كل الرســـل جـــاؤوا بتوحيـــد الله ﷻ، وتحرير الإنسان من عبادة ما ســـوى الله، ولن يكون الإنسانُ حرًّا إذا كان عبدًا لغير الله، من بشر أو حجر، أو نبت أو شجر، أو شمس أو قمر، أو جن أو بشر، لا بدَّ أن يتحرر الإنسان، هذه هي الحريَّة الحقيقيَّة.

هناك من عبدوا الأحجار، ينحتونها ثـــمَّ يعبدونها، ينحتونها بأيديهم ثمَّ يسجدون لها ويلتمســـون منها النفع أو دفع الضر أو جلب الخير أو

QaradawiBooks.com

درء الشر، كما قال سيِّدنا إبراهيم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦]. وكما قال أبو رجاء العطاردي: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا أحسن من الأوَّل ألقينا الأوَّل وأخذنا الثاني، فإذا لم نجد حجرًا حثونا حثوات من تراب ثمَّ حلبنا عليها من الشاة، ونجعل منها إلٰهًا نعبده[1]!

قدماء المصريين عبدوا نوعًا من العجول يسمونه: «عجل أبيس»، مثل الهنود إلى اليوم يعبدون البقر، وهناك من عبدوا الأشجار، ومن عبدوا الأنهار، ومن عبدوا الجبال، عبدوا مظاهر القوَّة أو مظاهر النفع للناس.

هكذا جنت الوثنيَّة على عقول البشر من قديم، ولهذا كانت مهمَّة الأنبياء أن يردُّوا النَّاس إلى فطرة الله.. ليعلموا أنَّ الله إلٰه واحد، كان موكب النَّبيِّين جميعًا يدعو بهذه الدعوة.

إنَّ مشكلة البشريَّة في تاريخها الطويل: هو الشرك، وضلالها عن توحيد الله. لم تكن مشكلة البشريَّة أنَّها ألحدت أو جحدت بوجود الله. فلم يأتِ نبيٌّ ليقرِّر أنَّ الله موجود، لأنَّ الكلَّ يعترف أنَّ الله موجود، وأنَّه يوجد إلٰه.

حتى قال بعض مؤرِّخي الأديان والفلسفات: وُجدتْ في التاريخ مدنٌ بلا حصون ولا قلاع، ووُجدت مدن بلا قصور ولا بنايات، ووُجدت مدن بلا مدارس ولا جامعات، ولكن لم توجد في التاريخ أبدًا مدنٌ بلا معابد[2].

(١) رواه البخاري في المغازي (٤٣٧٦).

(٢) قاله المؤرخ الإغريقي القديم بلوتارك. انظر: الله والإنسان صـ ١١٦، نشر دار الجمهورية، القاهرة، سلسلة كتب للجميع، العدد (١١٣).

QaradawiBooks.com

فكلُّ الحضارات وكلُّ المدن على مدار التاريخ لم تخلِ من معابد، ولكن مَن يُعبَد في هذه المعابد؟ هذه هي المشكلة، المشكلة من يُعبد في هذه المعابد.

فالبشريَّة ضلت الطريق، فعبدوا الأحجار والأشجار، والأبقار، والكواكب، والجن، واتخذ بعضهم بعضا أربابًا من دون الله، وهذا ما ضلت به البشريَّة، ولهذا جاء الأنبياء والرسل جميعًا بهذه الحقيقة، أنَّه لا إلٰه إلَّا الله.

غير مرخصة للطباعة

الرسل جميعًا جاؤوا يدعون إلى توحيد الله وعبادته وحده، ومن هنا نجد أنَّ النداء الأوَّل في كل رسالة من رسالة هؤلاء الرسل: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾. تكرَّر ذلك في سور: الأعراف، وهود، والمؤمنون، في قصَّة نوح، وهود، وصالح، وشعيب مع أقوامهم، الجميع يدعون إلى أن يُعبَد الله وحده لا شريك له، ولا يُعبَد معه غيره، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

حقيقة التوحيد، توحيد الإلٰهيَّة، فتوحيد الربوبيَّة (أو الخالقيَّة) لا ينكره أحد، حتَّى مشركي قريش أنفسهم، كانوا معتقدين بربوبيَّة الله، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]. إن كنتم تعتقدون أنَّ الله هو الخالق وحده، وهو الرازق وحده، فلماذا لا تُفردوه بالعبادة وحده؟

QaradawiBooks.com

فمشكلة البشريَّة ليست في توحيد الربوبيَّة، ولكن في توحيد الإلٰهيَّة. ومعنى توحيد الإلٰهيَّة: لا إلٰه إلَّا الله، ومعنى لا إلٰه إلَّا الله: لا يُعبد إلَّا الله، لا يُرجى إلَّا الله، لا يُخشى إلَّا الله، لا يُخضع إلَّا لله، لا تنحني الظهور إلَّا لله، لا تتعفر الجباه ساجدة سائلة إلَّا لله. وهذا تحرير للبشريَّة، فلا عبوديَّة لأحد إلَّا الله، فإذا أردنا أن نحرر البشر حقيقة فلنحررهم بالتوحيد.

ولهذا كانت دعوة الأنبياء إلى التوحيد، هي دعوة إلى الحريَّة الحقيقة، وحينما جاء مُحَمَّد ﷺ، ودعا النَّاس جميعًا، وخصوصًا أهل الكتاب، كان يختم رسائله إلى قيصر، وإلى هرقل، وإلى النجاشي، وإلى المقوقس، بهذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، كلنا إخوة، كلنا سواسية، كلنا عبيد لرب واحد، وأبناء لأب واحد، فلماذا تستعبدني، أو تستذلني؟

لماذا تجعل نفسك ربًّا لي وأنا عبد لك؟ ولهذا أنكر على أهل الكتاب، أنَّهم اتخذوا أحبارهم، ورهبانهم أربابًا من دون الله، والمسيح ابن مريم.

فالدعوة إلى التوحيد، كانت أوَّل نداء الأنبياء لقومهم، وهو أمر اتفق عليه جميع الأنبياء: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

الأنبياء جميعًا كانوا متَّفقين في الهدف، في الفلسفة العامَّة الكلية، الأصول العامَّة للجميع واحدة، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، فكلمة الأنبياء واحدة، وأصولهم واحدة.

QaradawiBooks.com

أمَّا الفلاسفة فكان لكلٍّ منهم فلسفةٌ مخالفة للآخر، ولا تكاد تجد فيلسوفًا متَّفقًا مع آخر، كل واحد له منهج، وله هدف.

لم تكن مشكلة البشريَّة على مدار التاريخ هي الإلحاد، لم تكن المشكلة جحود وجود الله، أمَّا الجاحدون لوجود الله الَّذين نسمِّيهم «ملحدين» قلة، على مدار التاريخ، إنَّما مشكلة البشريَّة كانت هي الشرك بالله.. أنَّ النَّاس عبدوا من دون الله ومع الله آلهة أخرى.

غير مرخصة للطباعة

كلُّ الأنبياء جاؤوا بالإصلاح:

وأمَّا الأمر الثاني الَّذي اتَّفق عليه الأنبياء جميعًا فهو: إصلاح المجتمع، ومحاربة المفاسد والرذائل والمظالم. جميع الرسل جاؤوا برسالة إصلاحيَّة، لا يمكن أن يجد الرسول فسادًا في قومه ويسكت عنه، أو يقول: إنَّ مهمتي مهمَّة دينيَّة بحتة، لاهوتيَّة صرفة، لا يوجد نبي عمل هذا، وإنَّما يقاوم الفساد، لا يمكن أن يتخفّى رسول، أو يُغمض عينيه عمَّا يجري في المجتمع من الظلم والفساد والشر والمنكر، فكل نبي حاول أن يصلح حال قومه، ويحارب البغي في الأرض بقدر المستطاع.

وهكذا نجد دعوات الرسل، لم تنفصل عن مشكلات البشر، ولم تغفل أحوال المجتمع الإنساني، وما تتطلبه من علاج وإصلاح، ولذلك وقف كبراء القوم، في وجه الرسل، سمَّاهم القرآن بـ «الملأ»، أي: أشراف القوم، الَّذين يملؤون صدور المجالس أُبَّهة وفخامة ووجاهة وسيادة، وقفوا في وجوه الأنبياء، وجاء هذا كثيرًا: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]، ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]،

QaradawiBooks.com

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ [هود: ٢٧]، فقوم نوح قالوا له: لا يوجد معك غير الضعفاء والمساكين والمحتاجين، لم نجد معك وزيرًا أو أميرًا، أو أحدا من أصحاب النفوذ بين النَّاس، حتَّى طلب بعضهم أن يجالسوه بشرط أن يطرد هؤلاء المساكين، والضعفاء، فقال لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: ٢٩، ٣٠].

وظلَّ يجادلهم حتَّى قالوا: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [هود: ٣٢]. العاجز عن استخدام المنطق، يستعمل القوة، فلذلك قالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، مثل قريش لما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢]. انظر إلى الغباء، لم يقولوا: اهدنا إليه. أيُّ غباء هذا، وأيُّ عصبيَّة أعمت العيون، وغشَّتْها إلى هذا الحدِّ؟

وكذلك وجدنا شعيبًا عليه السلام يُقاوم الفساد الاقتصادي في قومه، ويقول لهم: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [هود: ٨٥]، فقالوا له: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧]. أي: الصلاة الَّتي تراك تصليها

QaradawiBooks.com

وتجتهد في إقامتها هي الَّتي تدعوك يا شُعَيْب لأن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نريد؟ هم يظنُّون أنَّ الإنسان حرٌّ في ماله، يتصرَّف فيه كيف يشاء.

وهذه هي النظرة الَّتي نسميها في عصرنا: النظرة الرأسماليَّة المستكبِرة، كل واحد يتصرف في ماله كما يريد، كما قال قارون حينما نصحه قومه بالنصائح الخمس المعروفة: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ۞ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٧٨]. أي أنا الَّذي جمعتُه بذكائي ومهارتي وشطارتي، هذه هي نظرة آثمة.

الإسلام يقول للإنسان: المال ليس مالك حقيقة، ولكنَّه مال الله عندك، وأنت مُستخْلَف فيه، فلست حرَّ التصرف فيه تفعل ما تشاء، ثمَّ هو من جهة أخرى مال المجتمع: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥]، ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨] هنا قال: ﴿أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ مع أنَّ المقصود: أموال غيركم.

سخِر قوم شُعَيْب منه وقالوا بلسان السخرية: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾. أي: أصلاتك هي الَّتي تأمرك وتوجِّهُك وأنت معروف فينا بأنَّك الحليم الرشيد؟

ردَّ عليهم سيِّدنا شُعَيْب ردًّا قويًّا فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

QaradawiBooks.com

وخوَّفهم من مصير الأمم قبلهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾، أيْ: لا يحملنكم مخالفتي: ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٩]. سواء كان البعد المكاني؛ لأنَّهم كانوا قريبَيْن، هذا في مدين، وهذا في الأردن عند البحر الميت، وهما قريبان. أو البعد الزماني أيضًا؛ ليسوا ببعيد زمانيًّا، لأنَّ شُعَيْبًا قريبٌ من لوط.

المهمُّ أنَّ الأنبياء جميعًا جاؤوا لإصلاح أحوال أقوامهم، وكل دعوة تنتسب إلى السماء وتنتسب إلى الدين لا يمكن أن تُغفل شؤون أهل الأرض، وكل دعوة تنسب إلى الدين، لا يمكن أن تُغفل أمور الدُّنيا، ولذلك أعجب من بعض الدعوات الَّتي تقول: ليس لنا علاقة بالمجتمع، وليس لنا علاقة بالسياسة، نقول له: تعال نساعد إخواننا المضطهدين في البوسنة والهرسك، وفي البلاد المختلفة، يقول لك: لا، لا نتدخَّل في السياسة! فأين الأمر بالمعروف وأين النهي عن المنكر إذن؟ وأين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمَّة المسلمين وعامتهم؟ أين الغَيْرة على الدين وعلى حُرماته؟ أين الأُمَّة الواحدة؟ ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

من هنا وجدنا أن مشكلة الأنبياء مع أقوامهم كانت وقوف الكبراء والزعماء والوجهاء والأعيان ضد دعوتهم، إلَّا من هدى الله منهم، وهذا هرقل إمبراطور الروم، حين أرسل له النبي رسالة، يقول فيها: «**أسلِم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيِّين. ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾**»[1] وكان من حكماء النَّاس، أراد

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في المغازي (١٧٧٣).

QaradawiBooks.com

أن يستوثق من أمره، فقال: ابحثوا لي عن أحد من العرب، ممَّن يعرف محمدًا، فوجدوا أبا سفيان بن حرب، وكان تاجرًا، فجاؤوا به، وعرف أنَّه قريب من محمَّد، ويعرفه جيدًا، فسـأله أسئلة في غاية الدقة، تدل على غاية الذكاء.

يروي أبو سفيان هذه الحديث فيقول: كان أوَّل ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا.

قال: فأشراف النَّاس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتدُّ أحدُ منهم سَخْطَة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا.

ثم قال: فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنَّه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسـل تُبعث في نسب قومها. وسـألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أنْ لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله.

وسـألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلت فلو كان من آبائـه من ملك، قلت: رجـل يطلب ملك أبيه. وسـألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، أعرف أنَّه لم يكن ليذر الكذب على النَّاس ويكذب على الله.

QaradawiBooks.com

وسألتك: أشراف النَّاس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل.

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنَّهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتَّى يتم.

وسألتك: أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك: هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر[1].

فالشاهد: أنَّ هرقل سأله عمَّن يتبعه من الناس: الضعفاء أم الأشراف؟ ليبيِّن له بعد ذلك سبب السؤال، وهو: أنَّ الأنبياء يتبعهم الضعفاء غالبًا؛ لأن الكبراء يستنكفون ويستكبرون أن يتبعوا الأنبياء، وبعض الأنبياء ربَّما كان ضعيفًا في قومه، كما قال لوط عن نفسه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، لو أنَّ لي عائلة، أو قبيلة، أو أسرة أنتمي إليها.

وفي قصَّة شُعَيْب قالوا له: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

كل الأنبياء وكل الرسل، جاؤوا لإصلاح المجتمع، فوقف أمامهم كبراء قومهم، وأشرافهم، ولكن هذا لم يُثْنهم عن الدعوة للإصلاح.

شرُّ ما كان في مجتمع سيِّدنا لوط عليه السلام هو: فاحشة الشذوذ الجنسي، هم أوَّل من ابتكر هذه الفاحشة كما قال لوط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]. وأصبحت إدمانًا، ومرضًا، حتَّى إنَّهم عندما علموا أن ضيوفًا عند لوط، هرولوا إليه. فهم لا يتركون أحدًا.

(١) جزء من الحديث السابق.

QaradawiBooks.com

ولذلك لما جاء الملائكة للـوط عليه السلام في صورة أضياف، ضاق ذرعًا بذلك، وخاف عليهم من قومه، ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]، وحصل ما كان يخافه، ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ٧٨]، أعماهم الباطل الَّذي يعيشون فيه عن الحق، كما قال الله لرسوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، أسكرتهم هذه المصيبة.

وقد عاقب الله قوم لوط بعقوبتين:

عُوقبوا بما لم يُعاقَب به أحد في العالمين، جزاء فاحشتهم الَّتي لم يسبقهم بها من أحد من العالمين، جعل عالي بلدانهم سافلهم، قلبها عليهم كما قلبوا فطرة الله عز وجل، كما قال تعالى عنها: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢].

وهذه هي العقوبة الأولى، والعقوبة الثانية: أنَّ الله أمطر عليهم حجارة من سجّيل منضود، كما قال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۞ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣]، أي: أرسل عليهم حجارة من سجيل مُسوَّمة، أي: مُعَلَّمة ومُوجَّهة ومُصَوَّبة، لا تُخطئ صاحبها، كل حجر يعرف سيضرب من.

ثم قال الله تعالى مُعقّبًا على هذه القصَّة: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، عقوبة الله ليست ببعيدة عن كل من سلك مسلكهم، أو اتَّبع مناهجهم، ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

ولكن ـ للأسف ـ جاءتنا الحضارة الغربيَّة المعاصرة، بالشذوذ الجنسي، وجعلت له أندية، وجمعيَّات، ومؤسسات، ويُعترف به علنًا، وتوافق عليه الحكومات والبرلمانات في أوربا وغيرها، وكذلك

QaradawiBooks.com

الكنائس، كثير من الكنائس صارت تعتمد زواج الرجال بالرجال، والنساء بالنســاء، وقرأنا هذا في الصحف، وفي التلفزيونات، وغيرها، أنَّ القس الفلاني يعقد زواج الرجال بالرجال، والنســاء بالنساء، وصدرت بذلك قوانين في أوربا وأمريكا، هل هــذه حضارة؟ حضارة الإباحية. هذه هي الحضارة الســائدة الَّتي تحارب حضارةَ الإسلام، حضارة العفة والطهارة والنظافة، والإحصان، والحياء.

وهؤلاء النَّاس لهم أصوات عالية فــي الانتخابات الأمريكية، وصار باســتطاعتهم أن يتجمَّعوا ويُنجِّحوا من يريدون من المرشَّحين، فصارت لهم قــوَّة، ولذلك يشــتري السياســيون رضاهــم بالوعــود والقوانين والاعتراف بهم.

كلُّ الرسل جاؤوا بإصلاح المجتمعات، فلوط جاء لإصلاح المجتمع من الناحية الاجتماعيَّة الأخلاقيَّة، وشــعيب عليه السلام جاء بإصلاح المجتمع من الناحية الاقتصاديَّة، حتَّى أن بعض المعاصرين يســمي سيِّدنا شُعَيْبًا: «نبي الاقتصاد»؛ لأنَّه عُني بالناحية الاقتصاديَّة، ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ۞ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾.

أهم ما تميزت به سورة هود عن سورة الأعراف:

إذا كانت سورة الأعراف تميَّزت بالاهتمام بالحديث عن الأب الأوَّل للبشريَّة آدم عليه السلام، فإنَّ ســورة هود تميَّزت بالاهتمام بالحديث عن الأب الثاني للبشــريَّة، وهو نوح عليه السلام، فهو أوَّل المرســلين وشــيخ النبيِّين، وفصَّلت الســورة في قصَّة نــوح تفصيلًا جعل بعض العلمــاء يقول: لو

QaradawiBooks.com

سُمِّيت سورة هود باسم نوح كان أولى؛ وذلك أنَّها فصَّلت في قصَّة نوح ما لم تُفصِّل في قصَّة هود عليه السلام.

ولكنَّ نوحًا عليه السلام له سورة خاصَّة به ليس فيها غيره، ولذلك لم يُستحسن أن تسمَّى السورة باسمه، وإنَّما سمِّيت باسم هود الَّذي تكرر اسمه في هذه السورة خمس مرات. وهي أكثر سورة تكرر فيها اسم نبي الله هود، كما ذُكر فيها من الحوار والجدال بينه وبين قومه ممَّا استحقَّ أن تُسَمَّى السورة باسمه.

غير مرخصة للطباعة

وقد تعجَّب بعض العلماء من هذا، وقال: سُمِّيت سورة باسم هود، وسورة باسم يونس، وسورة باسم إبراهيم، وسورة باسم نوح، ولم تسمَّ سورة باسم موسى[١]! مع أنَّ بعض العلماء قال: كاد القرآن كلُّه أن يكون لموسى؛ من كثرة ما ذُكر في القرآن وما فُصِّلت قصته[٢]. وقد كان بعض السلف يُسمِّي سورة طه: سورة الكليم[٣]؛ لأنَّها تكاد تكون هذه السورة خاصَّة بقصة موسى عليه السلام، وكذا سورة القصص.

المهمُّ، أنَّ سورة هود ذكرت الأنبياء وتوافُقهم جميعًا في الدعوة إلى توحيد الله، ثمَّ العمل على إصلاح المجتمع، كلُّ واحد يهتمُّ بإصلاح مجتمعه ومحاربة نوع الفساد الَّذي ظهر في قومه.

فلوط ظهر في قومه الفاحشة، «الشذوذ الجنسي» فكانت مهمته محاربة هذه الفاحشة. وسيدنا شُعَيْب ظهر في قومه الفساد الاقتصادي،

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (١٩٨/١).

(٢) المصدر السابق (١٩٨/١، ١٩٩).

(٣) ذكره السخاوي في جمال القراء صـ ٩١، تحقيق مروان العطيَّة ومحسن خرابة، نشر دار المأمون للتراث، دمشق، ط ١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

«التطفيف في الكيل والميزان وبخس النَّاس أشياءهم» فكانت مهمته محاربة هذا النوع من الفساد، ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥]، حتَّى قال قومه: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ [هود: ٨٧]! نحن نتصرف في أموالنا كما نريد. كما هو منطق الرأسماليين دائمًا في كل عصر: أنَّ النَّاس أحرار في أموالهم، يفعلون فيها ما يشاؤون، ويتصرفون فيها كما يشتهون. كأن الأموال ملك خالص لهم، وليس لله ولا للمجتمع حق فيه. وهذه نظريَّة خاطئة بل باطلة.

كلُّ الأنبياء كانت دعوتهم واحدة، من حيث الدعوة إلى التوحيد من ناحية، ومن حيث الدعوة إلى الإصلاح من ناحية أخرى. وهذا ما يجعل الأنبياء يختلفون عن الفلاسفة، فالفلاسفة لا يكاد يوافق فيلسوف فيلسوفًا، كل فيلسوف يأتي بفلسفة جديدة يخالف فيها الَّذي قبله. هذا يقول: الأصل الفكرة. والآخر يقول: لا، بل الأصل العاطفة. والآخر يقول: بل الأصل الإرادة. واحد يقول: المعرفة. وواحد يقول: الفضيلة. وهكذا.

حتى قال شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود أستاذ الفلسفة وشيخ الأزهر بعد ذلك، قال: إنَّ الفلسفة لا رأي لها؛ لأنَّها تقول الشيءَ وضدَّه[1]. وما من فيلسوف دعا إلى شيء إلَّا جاء فيلسوف آخر وجاء بنقيضه تمامًا. كلٌّ يقيم الدليل على صحة دعواه، حتَّى إنَّ الفلاسفة الكبار الثلاثة في الفلسفة اليونانيَّة الَّذين هم سقراط وأفلاطون وأرسطو، يُسَمُّونهم:

(١) مقال: الفلسفة للشيخ عبد الحليم محمود، مجلة البحوث (١٤١/٥)، من المحرم إلى جمادى الثانية لسنة ١٤٠٠هـ.

QaradawiBooks.com

الفلاسفة المؤلِّهين، أي: الَّذين يقولون بأنَّ هناك إلٰهًا، كلٌّ واحد مع ذلك خالَف الآخر، وقال أرسطو كلمته الشهيرة في مخالفته لأستاذه أفلاطون: أفلاطون صديق، والحقُّ صديق؛ ولكنَّ الحقَّ أصدق منه[1].

أفلاطون مثالي، وأرسطو واقعي مادي، أفلاطون أقرب إلى الاشتراكيَّة، وأرسطو أقرب إلى الفرديَّة، وهكذا.

خالف الفلاسفة بعضهم بعضًا، إنَّما النبيون فقد جاؤوا ليكمِّل بعضهم بعضًا، كما قال النبيُّ ﷺ: «**الأنبياء إخوة لعَلَّاتٍ، أمَّهاتُهم شتَّى، ودِينُهم واحد**»[2]. كذلك الأنبياء أشبه بالإخوة الأشِقَّاء، من أين جاء الاختلاف؟ جاء من اختلاف العصور، ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾ [المائدة: ٤٨]، إنَّما الدين واحد، وهو: الإسلام، فلا دين غير الإسلام، كلُّ الأنبياء جاؤوا بالإسلام، من آدم إلى نوح، إلى إبراهيم، إلى موسى، إلى عيسى، كلُّهم مسلمون، كما قال الحواريُّون: ﴿**ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٥٢].

فدين الله واحد، هو الإسلام، الأنبياء جاؤوا بدعوة واحدة. نراها في سورة هود، ثمَّ كانت مواقف أقوامهم منهم متشابهة. آمن القليل وكفر الكثيرون والعياذ بالله، حتَّى إن نوحًا ظلَّ في قومه ألف سنة إلَّا خمسين عامًا، وكانت النتيجة كما قال الله في سورة هود: ﴿**وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾ [هود: ٤٠]، حتَّى هذا القليل لم يكن منهم امرأته، ولم يكن منهم ابنه الَّذي قال: ﴿**سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ**﴾ [هود: ٤٣]، وكانت

(١) تهافت الفلاسفة صـ ٧٦، تحقيق د. سليمان دنيا، نشر دار المعارف، مصر، ط ٤، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٣)، ومسلم في الفضائل (٢٣٦٥)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

النتيجة أن أخذ الله الجميع أخذ عزيز مقتدر، نتيجة التكذيب والمعاندة دائمًا عقوبة عزيز مقتدر، ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

ثم ذكر الله تعالى عاقبة عادٍ قوم هود: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾ [هود: ٦٠]. أُهلِكوا، ثمَّ جاء ذكر قوم صالح: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٧، ٦٨]، وقوم شُعَيْب أخذتهم الصيحة، ثمَّ كان التعقيب: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥]، وهذا يدلُّ على هوان أهل الشرك على الله.

لقد خلق الله ﷻ آدم أبا البشر بيده، وسوَّاه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وسخَّر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، لماذا؟ ليعبده وحده لا شريك له، ويستعمره في الأرض، كما قال صالح لقومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، فإذا لم يقم النَّاس بحق الله لم يستحقوا العيش، ولم يستحقُّوا أن تُسخَّر لهم هذه الحياة، فيأخذهم الله، وهنا يُقال فيهم: بُعْدًا لهم. بُعْدًا لقوم نوح، وبُعْدًا لقوم عاد، وبُعْدًا لثمود، وبُعْدًا لمدين كما بعدت ثمود، في الدُّنْيا والآخرة أخذهم الله. وحينما أخذهم الله لم يظلمهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠١، ١٠٢].

قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الله ليُمْلِي للظالمِ حتَّى إذا أخذه لم يُفْلِتْه**». ثمَّ قرأ

QaradawiBooks.com

قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][1].

كلُّ ظالم لـه يـوم، ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، لذا يجد من تدبُّر سورة هود أنَّها من السور المكيَّة الَّتي حفلت بالوعد والوعيد، حيث تحدَّثت عن مصيـر الظالمين وعاقبتهم وما نزل بهم من عقاب الله ﷻ، فذكرت السـورة كيف أهلك أولئك الأمم الَّذين أعرضوا عن رسل الله، قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وعقَّبت على إهلاك هذه الأقوام بقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هـود: ٤٤]، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هـود: ٦٠]، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هـود: ٦٨]، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥].

وهكذا يهلك الله هذه الأمم جزاء تكذيبها وإعراضها وجحودها، وقد عقَّب الله على هؤلاء جميعًا بقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۞ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠١، ١٠٢].

هذه سـورة هود وما فيها من قصص تحدث الله عنـه في آخر هذه السورة قال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

والله الهادي إلى سواء السـبيل، وصلى الله على سيِّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٦)، ومسلم في الآداب والصلة (٢٥٨٣)، عن أبي موسى.

QaradawiBooks.com

الدرس الثاني
قصة عاد قوم هود عليه السلام

سورة هود تناولت عددًا من قصص الأنبياء عليهم السلام، نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب، وأشارت إلى موسى إشارة سريعة، وحديثنا عن قصَّة هود عليه السلام، وهود رغم أنَّه ذكر في سور كثيرة ولكن خُصَّت هذه السورة باسم هود عليه السلام، لأنَّه تكرر في السورة خمس مرات، وهود وقومه عاد أو قبيلة عاد من قبائل العرب العاربة أو العرب الدارسة البائدة، لأنَّهم يقسمون العرب إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوَّل: هم العرب البائدة، وهم الَّذين بادوا ودرست آثارهم، ولم يعد لهم بقاء ولا نسل.

والقسم الثاني: هم العرب العَرْباء أو العاربة، وهم العرب القحطانيُّون، العرب الأصليُّون، وهم أهل اليمن ونجد وهذه المناطق.

والقسم الثالث: هم العرب المستعربة، ومعنى مستعربة أنَّها لم تكن عربًا واستعربت، اكتسبت العروبة، لأنَّ أصل العروبة اللسان، فمن تكلَّم العربيَّة فهو عربي، وهؤلاء من أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وإسماعيل كان عبرانيًّا ولكنَّه صاهر قبيلة جُرْهُم، واكتسب العربيَّة منهم وورث أبناؤه العربيَّة وأصبحوا يُسَمَّون العرب العدنانيِّين أو عرب الحجاز أو عرب الشمال أو العرب المستعربة، ومنهم قريش، ومنهم بُعث النبيُّ ﷺ.

QaradawiBooks.com

فالعرب البائدة هم عاد وثمود، ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥٠، ٥١]، ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨]، بادوا وانتهوا، أهلكهم الله بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسله.

وعاد هذه كانت تسكن من ناحية حضرموت إلى الأحقاف في الجزيرة العربيَّة، أرسل الله تعالى إلى قبيلة عاد هذه نبيَّه هودًا عليه السلام، وكانت عاد تتمتع بضخامة الأجسام وقوتها، كما قال القرآن: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، حتَّى إنَّهم لما هلكوا قال القرآن في وصفهم: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦، ٧]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٩، ٢٠]، فكانوا يمتازون بقوَّة الأجسام، وكانوا يستكبرون بهذا ويقولون فيما حكى القرآن: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

وكان عندهم أيضًا زروع وخضروات وحدائق ومباني ضخمة ورائعة، القرآن يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ٨]، وسيدنا هود يقول لهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ـ آية من آيات الفن والعمارة ـ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٤].

ولكن عادًا لم يشكروا نعم الله هذه، بل أشركوا بالله ما لم ينزِّل به سلطانا، فأرسل الله إليهم هودًا ليقيم عليهم الحجَّة، ودعاهم أوَّل

QaradawiBooks.com

ما دعاهم إلى عبـــادة الله وحده، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هـــود: ٥٠]، وهذه هـــي الكلمة الأولى لكل رســـول، ينادي قومـــه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هود: ٥٠]، مشكلة البشـــريَّة لم تكن في الإلحاد، الإلحاد على مدار التاريخ نادر، الملحدون قليل، الملحـــدون بالفكر قليلون، إنَّمـــا الملحدون بالبطن والفرج كثيرون، ينحلون ثمَّ يبررون انحلالهـــم بقولهم: ليس هناك إلٰه ولا آخرة ولا كذا.

الملحدون بالفكر قليلون، ومشكلة البشريَّة طوال التاريخ هي الشرك، لذلك كانت مهمَّة الأنبياء محاربة الشـــرك، وكل رســـول يأتي إلى قومه يقـــول: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هـــود: ٥٠]، هكذا قال نوح، وهكذا قال هود، وهكذا قال صالح، وهكذا قال شعيب.

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠]، بشرككم هذا تفترون على الله ﷻ، لأن الشـــرك افتراء وكذب على الله، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النســـاء: ٤٨]، الشرك تزوير وظلم للحقيقة، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [هـــود: ٥١]، أنا لم أطلب منكم أجرة ولا إتاوة ولا شيئًا، أنا أدعوكم لله، إلى الحقيقة مجانًا، ما أريد منكم شـــيئًا. وكل الأنبياء أيضًا قالوا هذا، تجد في سورة الشـــعراء كل نبي يقول لقومـــه: ﴿أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قالها نوح لقومه وكذلك هود وصالح ولوط، وقالها شُـــعَيْب لأصحاب الأيكة، وهنا في هذه الســـورة ســـورة هود قال نـــوح لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود: ٢٩].

QaradawiBooks.com

فهنا سيِّدنا هود يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ [هود: ٥١]، خالقي وفاطري هو الَّذي أرسلني إليكم، وهو الَّذي سيثيبني ويأجرني، فأنا ما أريد منكم شيئًا، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١]، العاقل ينظر في دعوة إنسان ما يريد منه عوضًا ولا بدلًا ولا شيئًا، لو كان عنده عقل ينظر ماذا يريد هذا الرجل؟ ما يريد إلَّا أن تعرفوا الحقيقة وتُذعنوا لها، والحقيقة هي التوحيد، أن لا إلٰه إلَّا الله.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢]، الأنبياء أيضًا كلُّهم يَدْعون قومهم إلى أن يستغفروا الله من ذنوبهم، وأعظم ذنب هو الشرك، لأن الذنوب يمكن أن تُغفر إلَّا الشرك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

فسيِّدُنا هود يقول لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢]، استغفروا ربَّكم من كلِّ ذنوبكم خصوصًا الشرك، ثمَّ توبوا إليه، قوُّوا الاستغفار بالتوبة، بالإقلاع عن هذه الذنوب وهذا الشرك، أن تندموا على ما حدث منكم، وأن تعزموا على تغيير حياتكم من حياة الشِّرك إلى حياة التوحيد، من حياة التلوّث إلى حياة الطهارة، من حياة الانحراف إلى حياة الاستقامة، من حياة التحلل إلى حياة الالتزام، وهكذا.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٢ ـ ٥٥]، قال لهم: أنا أُشهد الله واشهدوا أنتم معي أنِّي بريء ممَّا تشركون من الأصنام الَّتي تزعمون أنَّها

QaradawiBooks.com

اعترتني بسوء وهي لا تملك ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وهي كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، ما تقدر على شيء.

فهو يقول: ﴿أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ﴾ [هود: ٥٤، ٥٥]، أنا بريء من كل هذه الآلهة المزعومة وهذه الأرباب المدَّعاة، أنا بريء منها ومن عبادتها وممن يعبدونها، كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧].

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥]، كما يقال: الحمراء في خيلكم اركبوها. اعملوا ما في مقدرتكم من مكر وكيد وإيذاء، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥]، لا تمهلوني لحظة ولا تتأخروا في إلحاق ما تريدون إلحاقه بي، ابدؤوا من الآن، يتحدَّاهم لكمال توكُّله على الله، إن معه قوَّة أعظم من قوتهم، قوَّة الله عز وجل وقدرته الَّتي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء، من كان معه مثل هذه القوَّة فإنَّه لا يبالي بأحد، قوَّة الله عز وجل هذه هي الَّتي أعطت المؤمنين هذه القدرة الفائقة، قوَّة التوكُّل على الله.

كلُّ الأنبياء توكَّلوا على الله، سيِّدنا شُعَيْب حينما هدَّده قومه وقالوا: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨]، تدخلونا في مِلَّتِكم بالقوَّة الجبريَّة؟! ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

QaradawiBooks.com

وسيدنا نوح قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، وكل الأنبياء توكلوا على الله، وقالوا لقومهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

على هذا الطريق سار هود عليه السلام وقال: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٦]، اعتصمتُ بحبل الله، لجأت إلى الحصن الحصين وإلى الركن الركين، ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦]، الأخذ بالناصية كناية عن التمكُّن، الَّذي يتمكَّن من الإنسان ويملك تصريفه يمينًا أو شمالًا ويذهب به هنا أو هناك أو يقعده أو يقيمه هو الله عزوجل.

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦]، ومن ضمن الدوابِّ: الإنسان، ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]، الله تعالى لا يكيل بكيلين ولا يزن بميزانين، بل هو الحقُّ، ويقضي بالحقِّ، ويقول الحقَّ، ويهدي السبيل، ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ [هود: ٥٧]، أنا عملت ما يجب عليَّ وأدَّيتُ أمانتي، وبلَّغت رسالتي، وكل الرسل لا بدَّ أن يبلِّغوا الرسالة، حتَّى إن علماء التوحيد يقولون: هناك أربع صفات للرسل، وهي الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة. كل رسول يجب أن يبلغ ما أنزل إليه وما أوحي إليه، وقد قال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

QaradawiBooks.com

ولذلك بَلَّغ النبيُّ الرسالةَ كلَّ الرسالة حتَّى الآيات الَّتي تعاتبه وتلومه، كانت السيِّدة عائشة رضي الله عنها تقول: لو كان محمدا كاتمًا شيئًا ممَّا أنزل إليه من ربه لكتم هذه الآيات. أي: الآيات الَّتي تعاتبه عتابًا شديدًا، كقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧][1]، ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١ ـ ١٠]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحريم: ١][2].

﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [هود: ٥٧]، إذا ظللتم على كفركم وعنادكم سيذهب الله بكم ويأتي بغيركم، كما قال الله عز وجل: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠]، هذا ليس شيئًا يعجز الله عنه، الله قادر أن يذهب بهذه الأقوام ويأتي بغيرهم، ويكونوا أفضل منكم قطعًا.

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ [هود: ٥٧]، لأنَّ العباد لا يمكن أن يضروا ربَّ العباد، الله لا ينفعه أحد، ولا يضرُّه أحد، لا تنفعه طاعة المطيعين، ولا تضرُّه معصية العاصين، وفي الحديث القدسي

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٧٧).

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥/٤٣٦).

QaradawiBooks.com

الشهير حديث أبي ذر في صحيح مسلم: «**يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في مُلْكي شيئًا، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أفجر قلبِ رجلٍ واحدٍ، ما نقص ذلك من مُلْكي شيئًا**»[1].

ولذلك قال سيِّدنا هود: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٧]، حفيظ: يحفظ كل شيء بعلمه وقدرته وإحاطته بهذا الكون، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦]، فربنا هو الحفيظ.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨]، لما جاء أمر الله بإهلاك القوم نجَّى نبيَّه هودا والَّذين آمنوا معه من عذاب الدُّنْيا وعذاب الآخرة، استفادوا دنيا وأخرى بإيمانهم، أمَّا الَّذين كفروا فأخذهم العذاب، ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩]، هذا شأن عاد، ﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ [هود: ٥٩]، كذبوا رسله، هم عصَوْا رسولًا واحدًا وهو سيِّدنا هود عليه السلام إنَّما قال: ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ لأنَّ من كذب رسولًا واحدًا أو عصى رسولًا واحدًا فكأنَّما عصى الرسل جميعًا، ولذلك القرآن يقول في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، ونوح أوَّل المرسلين فهم كذَّبوا رسولًا واحدًا إنَّما من كذَّب رسولًا واحدًا كأنَّه كذب كل الرسل؛ لأن دعوتهم واحدة ورسالتهم واحدة، فمن كذَّب واحدًا من الرسل كأنَّما كذَّب الجميع، ولذلك الإيمان الحق أن تؤمن بكل رسول من رسل الله عزَّ وجلَّ.

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧)، عن أبي ذر.

QaradawiBooks.com

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩]، المشكلة هي اتِّباع الجبابرة، اتِّباع السادة والكبراء، إنَّهم جعلوا من أنفسهم أذنابًا، وجعلوا هؤلاء الكبراء سادتهم يمشون وراءهم فكانت النتيجة أن أرْدَوهم وكانوا سببًا في هلاكهم، وهكذا من فقد استقلال إرادته وفكره ومشى وراء آبائه أو وراء سادته وكبرائه كانت النتيجة ما وصل إليه قوم هود، ومن قبلهم قوم نوح، ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١]، اتَّبعوا المترفين والكبراء والأغنياء، فانتهوا إلى الهلاك، وهكذا هلك قوم هود كما هلك قوم نوح من قبل، هلكوا في الدُّنْيا وفي الآخرة، في الدُّنْيا هلكوا: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٨]، وفي الآخرة: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠]، فهم باؤوا بهلاك الدُّنْيا وبلعنة الآخرة.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الثالث
قصة شُعَيْب في سورة هود

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۞ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ۞ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۞ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۞ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٤ ـ ٨٩]

رسالة الأنبياء رسالة إصلاحيَّة:

كلُّ الأنبياء جاؤوا برسالة واحدة، هي رسالة التوحيد، وهي الأساس، ولكن مع رسالة التوحيد هناك رسالة إصلاحيَّة أخرى، كل الأنبياء قالوا لقومهم: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، قالها هود لقومه عاد، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هود: ٥٠]،

QaradawiBooks.com

وقال صالح لقومه ثمود، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود: ٦١]، وقالها ـ كما هنا ـ شُعَيْب لقومه مَدْيَن، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود: ٨٤].

فالنداء الأوَّل في كلِّ رسالة هو نداء التوحيد، ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، لأنَّ الَّذي ضلَّل البشريَّة وأفسدها هو الشرك، ليس الإلحاد، الجحود بوجود الله هذا أمر نادر في التاريخ، دائمًا الملحدون قلَّة لا وزن لها، إنَّما مشكلة الشرك هي المشكلة الكبرى، المؤرخون[1] من قديم قالوا: وُجدت مدنٌ بلا مدارس، ووُجدت مدنٌ بلا حصون، ووُجدت مدنٌ بلا قصور، ولكن لم توجد أبدًا مدن بلا معابد.

كلُّ الأنبياء دعوا إلى عباد الله وحده لا شريك له، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، والطاغوت هو: كل ما يُعبد ويعظم ويطاع طاعة مطلقة من دون الله، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، هكذا كل الرسل جاؤوا بتوحيد الله ﷻ، لكي يحرروا الإنسان من عبادة ما سوى الله، ولن يكون الإنسان حرًّا إذا كان عبدًا لغير الله، من بشر أو حجر أو نبت أو شجر، أو شمس أو قمر، أو جن أو بشر، لا بدَّ أن يتحرَّر الإنسان، هذه هي الحريَّة الحقيقيَّة.

جاء الرسل برسالة إصلاحيَّة، لا نجد رسولًا وجد فسادًا في قومه وسكت عنه، وقال: أنا مهمتي مهمَّة دينيَّة بحتة، مهمَّة لاهوتيَّة، لا، لا يوجد نبيٌّ عمل هذا، أي نبيٍّ وجد فسادًا في قومه يقاومه، وهكذا نجد

(١) هو المؤرخ اليوناني الشهير بلوتارك.

QaradawiBooks.com

دعوات الرسل، لم تنفصل عن مشكلات البشر، ولم تغفل أحوال المجتمع الإنساني، وما تتطلبه من علاج وإصلاح.

فسيِّدنا شُعَيْب جاء لإصلاح الاقتصاد، العلماء أطلقوا على سيِّدنا شُعَيْب وَصْفَين، الوصف الأوَّل: سمَّوه: «خطيب الأنبياء»، لأنَّك لما تقرأ عبارته في القرآن تجده رجلًا بليغًا فصيحًا، اقرأْ عبارته في سورة الأعراف: ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۞ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٥ ـ ٨٨].

هؤلاء قوم قعدوا بكلِّ طريق يُوعِدُون النَّاس ويُخَوِّفونهم، ويقطعون الطريق عليهم، وينهبون أموالهم، ويُطَفِّفون المكاييل والموازين، ولا يعطون النَّاس القيمة الحقيقيَّة للمال، ولذلك من أوَّل الأمر حذرهم من هذا.

لكنَّ القوم لم يملكوا أمام منطق شُعَيْب البليغ الفصيح هذا إلَّا منطق القوة، قابلوا قوَّة المنطق بمنطق القوة، ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

وهذا منطق المجرمين في كلِّ عصرٍ ومصر، كما حكى القرآن عن قوم إبراهيم، حينما كسر أصنامهم إلَّا كبيرًا لهم، ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ

QaradawiBooks.com

يَنطِقُونَ ۞ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٢ ـ ٦٤]، أقام عليهم الحجة وأفحمهم بقوَّة المنطق: لكن سرعان ما انقلبوا رأسًا على عقب ولجؤوا إلى منطق القوة، وقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

وهكذا فعل المجرمون من قوم شعيب، قالوا: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف: ٨٨] بالإكراه والتعذيب، بالحديد والنَّار، بمنطق القوَّة لا بقوَّة المنطق، فسيِّدنا شُعَيْب قال لهم: ﴿أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٨]، تعيدوننا في مِلَّتكم بالإكراه ولو كُنَّا نكرهها؟! أين حريَّتُنا؟ أين كرامتنا؟ أين بشريَّتُنا؟

وهنا قالوا: ﴿يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ لا نفهم كلامك هذا ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَ﴾، لولا جماعتك وعزوتك وقبيلتك لرجمناك وآذيناك وعذَّبْناك ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ۞ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ [هود: ٩١، ٩٢].

فسيِّدُنا شُعَيْب جاء لإصلاح الفساد الاقتصادي في قومه مَدْيَن، قال لهم: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ۞ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ [هود: ٨٤، ٨٥].

اعتبر شُعَيْبٌ هذا الخلل وهذا الظلم في التعامل هو من الفساد في الأرض، لكنَّ القوم كانوا في وادٍ وشُعَيْبٌ في وادٍ آخر، ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا

QaradawiBooks.com

مَا نَشَـٰٓؤُاْ﴾ [هود: ٨٧]، الصلاة الَّتي تُصَلِّيها دعتك إلى هذا؟! تريدنا أن نترك عباد الأصنام؟! تلك العبادة الَّتي ورثناها عن آبائنا وأجدادنا، وتريد كذلك ألَّا نفعل في أموالنا ما نشاء؟!

دائمًا الطغاة وما يسمون في عصرنا: «الرأسماليين» هؤلاء المحتكرون يعتبرون المال مالهم، وليس لأحد حقٌّ أن يشاركهم فيه، أو يحدِّثهم فيه، هم أتوا به بذكائهم ودهائهم ومهارتهم وشطارتهم، كما قال قارون لقومه لما نصحوه وقالوا له: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ۝ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦، ٧٧].

نصحوه بخمس نصائحَ رائعة، ولكنَّه سدَّ أذنًا من طين وأذنًا من عجين وقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]، هذا المال أنا جئت به بعبقريتي ونبوغي، ولا أحد يشاركني فيه، هذا شأن الرأسماليِّين المحتكرين، يعتبرون الأموال أموالهم وهم أحرار فيها.

وهذا منطق مرفوض؛ لأنَّ المال من جهة هو مال الله، والإنسان مستخلف فيه، لأنَّ الله هو الَّذي خلق مادة المال، من الَّذي خلق الأرض الَّتي تزرعها؟ من الَّذي خلق الحبوب الَّتي تبذرها، من الَّذي خلق الماء الَّذي يحيي هذه الأرض؟ من الَّذي خلق الهواء الَّذي يستنشقه الزرع؟ من الَّذي خلق الضياء والشمس؟

الله هو الَّذي خلق هذا كله، من الَّذي خلقك ووهبك العقل الَّذي يفكر، والقدرة الَّتي تنفذ؟ الله هو الَّذي فعل كل هذا، فكيف تدَّعي أنَّ المال مالُك أنت؟

QaradawiBooks.com

هذا من ناحية، ومن جهة أخرى المال مال المجتمع، فالمجتمع مشارك لك في المال، القرآن يقول: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩].

لا يحرم على الإنسان أن يأكل ماله طبعًا، إنَّما المراد لا تأكلوا مال إخوانكم، لا تأكلوا مال الآخرين، فأضاف المال إلى المجتمع؛ لأنَّ المال نتيجة عمل اجتماعي مشترك، هل يمكن أنَّك تزرع الأرض وحدك؟ هناك من المجتمع مَن عمل لك محراثًا تحرث به الأرض، ومنه مَن صنع لك مكينة لري الأرض، وأنت تزرع، والمجتمع هو مَن يشتري منك بعد حصادك، آلاف من النَّاس عملوا معك في هذا المال، حتَّى وصلت إلى ما وصلت إليه، شاركك المجتمع، وكما قيل:

الناس للنَّاس من بدوٍ وحاضرةٍ بعضٌ لبعضٍ وإن لم يَشْعُرُوا خَدَمُ[1]

فالمجتمع مشارك بقدر كبير في إيجاد هذه الثروة، ولذلك هؤلاء الرأسماليون جاهلون بسنن الله، وبحقائق الحياة والكون، فقوم شُعَيْب قالوا لشعيب: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، ظنُّوا أن ملكية المال تجيز لهم حرية التصرف فيه بما يشاؤون، ولو كان ذلك ممَّا تُنكره الأخلاق، أو تأباه مصلحة المجتمع، وحُجَّتهم أنَّها أموالهم، وهم أحرار أن يفعلوا فيها وبها ما يشاؤون.

(١) البيت لأبي العلاء المعري، كما في اللزوميات (٢/٢٧٧)، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة.

QaradawiBooks.com

لكنَّ الإسلام يُقَرِّر أنَّ المال مال الله، آتاه مَن شاء من عباده، واستخلفهم فيها، لينظر كيف يعملون، فإذا لم يلتزموا أوامر الله فقد تجاوزوا حدود الوكالة، فأخذت منهم الحقوق قهرًا، أو غُلّت أيديهم بالحجر.

قال لشعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، كيف تقول هذا الكلام وأنت الرجل الحليم الرشيد؟! ما كان لحلمك ورشدك أن تقول هذا، مع أن ما قاله شُعَيْب هو المعبِّر عن الحلم، والمعبِّر عن الرشد، والمعبِّر عن الحقيقة، وعن الصدق، ولكن القوم لا يعقلون، كما قال من قبلهم قوم لوط عليه السلام لنبيهم ولمن معه من المؤمنين: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

إنَّ عالمنا اليوم يقوم فيه صراع ضخم بين المذهب الفردي، والمذهب الجماعي، فالرأسماليَّة تقوم على تقديس الفرديَّة، واعتبار الفرد هو المحور الأساسي، فهي تُد لله بإعطاء الحقوق الكثيرة، الَّتي تكاد تكون مطلقة، فله حرية التملك، وحرية العمل، وحرية القول، وحرية التصرف، وحرية التمتع، ولو أدت هذه الحريات إلى إضرار نفسه، وإضرار غيره، ما دام يستعمل حقه في «الحريَّة الشخصيَّة»، فهو يتملك المال بالاحتكار والحيل والربا، وينفقه في اللهو والخمر والفجور، ويمسكه عن الفقراء والمساكين والمُعْوِزين، ولا سلطان لأحد عليه، لأنَّه «حرٌّ فيما يملك»، أشبه بما حكى القرآن عن قوم شعيب.

المهمُّ أنَّ قوم شُعَيْب ـ للأسف ـ لم يستجيبوا له، بل صدُّوا عنه، رغم محاولته أن يستميلهم إليهم، وأن يوقظ ضمائرهم، ويقنع عقولهم،

QaradawiBooks.com

ويرقق قلوبهم بمواعظه البليغة، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، ورغم ذلك لم يستجب له القوم.

غلبت عليهم شهوة جمع المال، وجمع المال شهوة أخرى، كما عبر عن ذلك الحديث الصحيح: «**لو كان لابنِ آدم واديان من مالٍ لابتغى ثالثًا**»[1]. هؤلاء نفوسهم أشبه بجهنم، يقال لها: هل امتلأتِ؟ فتقول: هل من مزيد؟ عنده مليون يريد أن يكون عنده مليونان، عنده عشرة ملايين يريد أن تصبح العشرة مائة، ومن عنده مائة يريدها ألف مليون، والملياردير يريد أن يكون من كبار المليارديرات، وهكذا لا يشبع هؤلاء أبدًا.

فماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة أن أصاب قوم شُعَيْب ما أصاب الَّذين عصوا ربهم وعصوا رسله من قبل، نزلت عليهم النقمة، وأخذتهم الصيحة، ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤، ٩٥].

القرآن ودع هذه الفئات والأقوام كلها بقوله: ﴿بُعْدًا﴾، قال عن قوم نوح: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، وقال عن عاد قوم هود: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠]، وقال عن ثمود قوم صالح: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨]، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥]، إلى غير رجعة، في ستِّين داهية، ما يستحق هؤلاء لطفًا من الله ولا رحمة.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٣٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٤٩)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

أمهلهم الله وأملى لهم، فلم ينفعهم شيء، فأخذهم الله أخذَ عزيزٍ مقتدر، أخذهم أخذًا أليمًا شديدًا، وصدق الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، يقول النبي ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتَّى إذا أخذه لم يفلته**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][1]، كما يقول عوامُّ النَّاس: يمهل ولا يهمل، وهكذا كان مصير مدين قوم شعيب، ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤، ٩٥].

نسخة مجانية

(١) سبق تخريجه صـ٩٣.

QaradawiBooks.com

الدرس الرابع
الأمر بالاستقامة والنهي عن الطغيان والركون إلى الظالمين

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٢، ١١٣].

كل من يقرأ القرآن الكريم ويتفقَّه، ويتأمَّل فيه ويتدبَّره حقَّ التدبُّر، يوقن يقينًا لا ريب فيه ولا شكَّ معه، أنَّ هذا الكتاب ليس من عند محمَّد، وإنَّما مُحَمَّد فيه مأمور ومنهي، هناك سلطة أعلى منه تأمره وتنهاه، لهذا يقال له: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ﴾، استقمْ يا مُحَمَّد كما أمرك الله، سرْ على الصراط المستقيم، لا تَحِدْ عنه يمينًا ولا شمالًا، ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ مِن المؤمنين، مَن تابوا من الشرك والكفر، ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ ولا تسلك سلوك الطغاة الظالمين، ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢].

الله تعالى أمر رسوله محمدًا ﷺ مرتين في القرآن بالاستقامة، الأولى في سورة هود هنا: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ [هود: ١١٢]، والثانية في سورة الشورى: ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

QaradawiBooks.com

ذكر القُشَــيْري رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ أحد الصالحين رأى رسول الله ﷺ في المنام فقال له: رُوِيَ عنك أنَّك قلتَ: «**شــيَّبتْني هود**»[١] فما الَّذي شــيَّبك منها قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ فقال: «لا، ولكنْ قولُ الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾»[٢].

طبعًا النبيُّ ﷺ مســتقيم، بل هو القدوة في الاستقامة على صراط الله، لكن يريد الله منه أيضًا الدوام والثبات، ولهذا كان النبيُّ ﷺ يقول: «**يا مُقَلِّبَ القلوب، ثبِّت قلبي علــى دينك**»[٣]. الثبات والاســتمرار على هذا الأمر، ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾، مِن المؤمنين الَّذين تابوا عن الشرك، تركوا الشــرك إلى التوحيد، والجاهليَّة إلى الإسلام، والكفر إلى الإيمان، والمعصية إلى الطاعة، وأصبحوا عبيدًا لله بعد أن كانوا عبيدًا للطواغيت.

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ﴾، فالأمــر للنبــيِّ ﷺ وللمؤمنين معــه، ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾، الطغيان تجاوز الحــد، لا يجوز تجاوز حدود الله ﷻ، ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾، ســواء كان طغيانًا على الآخرين، أو طغيانًا تجاوز ما شرعه الله ﷻ، الله ﷻ ينهى الرسول ومن معه عن هذا الطغيان، ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾، فالطغيان هو أســاس الفســاد في الدين والدُّنيــا، إذا كان تجاوزا لأمور الدين أو تجاوزا فــي أمور الدُّنْيا علــى النَّاس، وقد قال الله ﷻ في أهل جهنم: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۞ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩].

---

(١) رواه الترمذي في التفسير (٣٢٩٧)، وقال: حســن غريب. والحاكم في التفسير (٣٤٣/٢)، وصحَّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، عن ابن عباس.

(٢) الرسالة القشيرية (٣٥٧/٢)، تحقيق الإمام الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف، نشر دار المعارف، القاهرة.

(٣) سبق تخريجه (٤٠/١).

QaradawiBooks.com

الطغيان هو من أسس الفساد والإفساد في هذه الحياة، ومنه البغي والعلو في الأرض على النَّاس، كما وصف الله فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]، ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣٠، ٣١]، فالبغي والعلو في الأرض يجسد هذا الطغيان.

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾، لا تسلكوا سلوك الطغاة الظالمين، لا تبغوا على أحد، ولا تستعلوا على أحد، كما قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتَّى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد**»[1]. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: مطلع على أعمالكم الظاهرة والباطنة، بصير بها يعرف العمل وما وراء العمل من البواعث والنيات، فهو يجازي به في الدُّنْيا وفي الآخرة، وهذا يتضمَّن وعدًا ويتضمَّن وعيدًا في الوقت نفسه، لأنَّه يُجازي على الخير خيرًا وعلى الشرِّ شرًّا.

ومن مُكَمِّلات الاستقامة ما ذكره الله تعالى هنا من «اللَّائَيْن»؛ فالدِّين بين «لَاءَيْن» كما قالوا، ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا﴾، لا تطغوا ولا تتجاوزوا الحد، لا في حقوق النَّاس ولا في حدود الله، لا تتجاوزوا الحلال إلى الحرام، ولا تتجاوزوا العدل إلى الظلم، كما وصف الله تعالى فرعون حينما قال لموسى ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤].

والله تعالى يعلمنا الاستقامة وعدم الطغيان فيقول: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩]. هذه هي الوسطيَّة، لا طغيان ولا إخسار.

(١) رواه مسلم في الجنة (٢٨٦٥)، عن عياض بن حمار.

QaradawiBooks.com

وكما أمر الله تعالى بالاستقامة ونهى عن الطغيان؛ نهى عن الركون إلى الطغاة والظالمين، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]. ولا تركن إلى طاغية أو ظالم، لا تكن عونًا لطاغية أو ظالم، ولا تكن سوطًا في يده، ولا تسخر نفسك خادمًا له، فإنَّك بذلك تكون شريكًا له، تكون معه من حطب جهنَّم، وأعوان الظلمة معهم في النار.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾، الركون إلى الظلمة: الاستناد إليهم والاعتماد عليهم، بحيث تسير في ركابهم، وتحرق البخور بين أيديهم، وتكون معهم في الخير والشر، والعدل والظلم، والحسن والقبيح، والمعروف والمنكر، هذا ما يُنكره الإسلام.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]، والركون هنا معناه: الميل، فلا يجوز للمسلم أن يكون هواه، أو تكون ميوله مع الظالمين، حتَّى لا تمسه النار، ويفقد ولاية الله تعالى ونصرته.

فالإسلام يحرم الظلم ويشتد في تحريمه، كيف لا، والله تعالى ـ وهو رب العالمين ـ يحرم الظلم على نفسه، فما بالك بعباده؟! يقول تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي، إنِّي حرمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلته بينَكم محرَّمًا فلا تَظَالَمُوا**»[1].

وقال العلَّامة الشيخ رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ: لا تركنوا إليهم أي: لا تعتمدوا عليهم، ولا تستندوا إليهم، لأنَّ من ركن إلى شيء أي جعله ركنًا يرتكن

(١) سبق تخريجه صـ١٠١.

QaradawiBooks.com

إليه ويعتمد عليه، أي لا تتخذوا الَّذين ظلموا سندًا لكم ولا تلجؤوا إليهم، ولا تعوِّلوا عليهم وتكونوا لهم يدًا وعونًا[1].

فالإسلام يطلب هنا من المسلم ألَّا يظلم، وألَّا يكون عونًا لظالم؛ لأنَّ من أعان ظالمًا كان ظالمًا واشترك معه في الإثم، ومعظم الَّذين يظلمون النَّاس ويبغون في الأرض ويطغون ويستعلون على النَّاس، إنَّما يفعلون ذلك بمن معهم من الأعوان والأدوات، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨]، اشتركوا في الإثم، وقال: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠]، لأن الظالمين لا يظلمون إلَّا بهؤلاء الأعوان ويتقوون بهم ويتكبرون بهم.

والقرآن الكريم حافل بآيات الوعيد للظالمين بعذاب الدُّنْيا والآخرة، وسخط الله والناس، الله تعالى يبين عاقبة الظالمين فيقول: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [يونس: ١٣]، ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [الكهف: ٥٩]، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: ٥٢]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢]، ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء: ١١]، ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٥]، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

والرسول ﷺ، ينذر الظالمين بعذاب الله في الآخرة، فيقول: «**إنَّ الله ليملي للظالم حتَّى إذا أخذه لم يُفْلِته**». ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ

(١) تفسير المنار (١٤٢/١٢).

QaradawiBooks.com

﴿أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢][١]، ويقول ﷺ: «**إيَّاكم والظلمَ؛ فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة**»[٢].

وأشدُّ أنواع الظلم ما يقع من القويِّ للضعيف، الَّذي لا يجد له ناصرًا غير الله تعالى، إنَّ الله تعالى لهذا القوي بالمرصاد، ومع هذا الضعيف بالمعونة، يسمع شكواه، ويستجيب لدعائه، وينتصر له من ظالمه، وإن طال الأمد.

وقد أوصى الرسول ﷺ معاذًا حين بعثه إلى اليمن، فقال: «**واتَّق دعوةَ المظلوم، فليس بينها وبين اللهِ حجابٌ**»[٣]. وقال ﷺ: «**دعوةُ المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الربُّ: وعزَّتي لأنصرنَّك ولو بعدَ حين**»[٤].

وتتعاظم حرمة الظلم وإثمه إذا وقع من الراعي لرعيته الَّذين ولاه الله عليهم، وكلَّفه رعايتهم والشفقة عليهم والرفق بهم، حتَّى يكون لصغيرهم أبًا، ولكبيرهم أخًا، ولشيخهم ابنًا، فإذا هو يصبح ذئبًا بدل أن يكون راعيًا، ولصًّا بدل أن يكون حارسًا، يقول رسول الله ﷺ: «**ما من أمير عشرةٍ إلَّا يؤتى به مغلولًا يوم القيامة، حتَّى يفُكَّه العدل، أو يُوبِقه الجَوْر**»[٥].

---

(١) سبق تخريجه صـ٩٣.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغضب (٢٤٤٧)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧٩)، عن ابن عمر.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٤٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٩)، عن ابن عباس.

(٤) رواه أحمد (٩٧٤٣)، وقال مُخَرِّجوه: صحيح بطرقه وشواهده. والترمذي في الدعوات (٣٥٩٨)، وقال: حسن. وابن ماجه في الصيام (١٧٥٢)، وحسَّنه الألباني لغيره في التعليقات الحسان (٨٧١)، عن أبي هريرة.

(٥) رواه أحمد (٩٥٧٣)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده قوي. والطبراني في الأوسط (٦٢٢٥)، =

QaradawiBooks.com

إنَّ نقمة الله حين تنزل لا تخصُّ الظالمين وحدهم، ولكنَّها تأخذهم وتأخذ كلَّ من سكت على ظلمهم، ووقف موقفا سلبيًّا من تسلُّطهم وبغيهم بغير الحقِّ، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ [الأنفال: ٢٥].

لما أخذ الله فرعون أخذه هو وجنوده، قال ﷻ: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۞ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ۞ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۞ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ [القصص: ٣٨ ـ ٤٢].

يقول الله تعالى حكاية عن سيِّدنا موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]، أي: لن أكون عونًا لظالم، أو سوطًا في يد ظالم. فإنَّ أعوان الظالم معه في جهنَّم، ولهذا يَدين القرآن جنود الطغاة كما يَدين الطغاة أنفسهم، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨]، وقال عن فرعون: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠].

فاعتبر الطاغية والجنود جميعًا من الظالمين، ونزلت نقمة الله فشملتهم جميعًا، وأخذتهم جميعًا بما قدمت أيديهم، وذلك أنَّ الجبار

= والبزار (٨٤٩٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٠٣٦): رواه البزار بإسنادين والطبراني في الأوسط بالأول، ورجال الأول في البزار رجال الصحيح. وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٠٠)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

المستكبر في الأرض لا ينفذ ظلمه بنفسه، ولكن بوساطة هذه الآلات البشريَّة الَّتي يستخدمها في قهر العباد، وإفساد البلاد، وهي تكون له عادة أطوع من الخاتم في أصبعه!

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣]، ولذلك كان أئمَّة السلف متورِّعين أشد الورع عن الركون إلى الظالمين، لا يسهِّلون لهم أمرًا، ولا يصدقون لهم قولًا، وقد جاء في صحيح مسلم عن ابن مسعود أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي، إلَّا كان له من أمته حواريُّون وأصحاب، يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثمَّ إنَّها تخلف من بعدهم خُلُوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤمرون، فمَن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومَن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومَن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»[(١)].

فكلُّ حرام وكلُّ منكر يجب أن يقاوَم وأن يُجَاهَد بما يقدر عليه الإنسان من اليد، واللسان، والقلب، كما جاء في الحديث الصحيح: «**من رأى منكم منكرًا فليُغَيِّرْه...**»[(٢)].

فأوجب الإسلام على المسلم مقاومة الظلم سواء كان الظلم من الأغنياء للفقراء، أم من الملَّاك للمستأجرين، أم من أرباب العمل للعمال، أم من القادة للجنود، أم من الرؤساء للمرؤوسين، أم من الرجال للنساء، أم من الكبار للصغار، أم من الحكام وأولي الأمر للرعية والشعوب.

(١) سبق تخريجه (١/٤٤٠).

(٢) سبق تخريجه (١/٤٤٠).

QaradawiBooks.com

وفي الحديث الصحيح: «**انصُرْ أخاك ظالمًا أو مظلومًا**» قالوا: يا رسولَ الله؛ ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ فقال: «**تحجزه** ـ أو تمنعه ـ **من الظلم، فإنَّ ذلك نصره**»[١].

أوجب الإسلام مجاهدة الظلمة والطغاة على كلِّ مسلم، بما يقدر عليه: من اليد، أو اللسان، أو القلب، وهي المرتبة الأخيرة ـ الَّتي مَن تركها لم يبقَ معه شيء من الإيمان، وإن قَلَّ ـ وضرب له مثلًا بحبة الخردل على صغرها.

غير مرخصة للطباعة

والمطلوب في هذه المرتبة الأخيرة مرتبة القلب أن يَكره الظلم والمنكر بقلبه، ويكره مرتكبي الظلم، ومقترفي المنكر، وهذه لا يملك أحد أن يمنعه منها، لأنَّ قلب المؤمن لا سلطان لأحد عليه غير ربه الَّذي خلقه، روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**سيِّد الشهداء: حمزة بن عبد المطَّلب، ورجلٌ قام إلى إمامٍ جائر، فأمره ونهاه فقتله**»[٢].

وبهذا جرَّأ الرسول الكريم ﷺ أُمَّته أن تقول كلمة الحق في وجه السلاطين الظلمة المتجبِّرين، لا يبالون ما يصيبهم في سبيل الله؛ أن يقتلوا في سبيل الله.

وهذا ما يجعل هذه الفئة البصيرة تقاوِم الظلم والفساد والتجبُّر في الأرض، بالوسائل السِّلمية، دون أن تشهر سلاحًا، أو تثير فتنة في الأرض، وهي تحرص كلَّ الحرص على ألا تُزيل المنكر القائم، فتقع في

نسخة مجانية

(١) رواه البخاري في الإكراه (٦٩٥٢).

(٢) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (١٩٥/٣)، وصحَّح إسناده، وقال الذهبي: الصفار ـ أحد الرواة ـ لا يُدرَى من هو. والخطيب في تاريخ بغداد (٥٣/٦)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٧٤)، عن جابر بن عبد الله.

QaradawiBooks.com

منكر أكبر منه، من سفك دماء الأبرياء، وتدمير المنشآت الَّتي هي في النهاية ملك الأُمَّة، وإشاعة الخوف والرعب في النَّاس، والتضييق على الدعوة الإسلاميَّة، وإلقاء الألوف في السجون والمعتقلات، إلخ.

وإذا لم يقفوا في وجه الظالم كان هذا سبب خراب الدولة، وهلاك الأُمَّة كلها، صالحيها وطالحيها، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

غير مرخصة للطباعة

إنَّ خطر الفساد الداخلي إذا تفاقم يشكل خطرًا جسيمًا، وشرًّا كبيرًا على الأُمَّة، ولهذا يعتبر الإسلام الجهاد ضدَّ الظلم والفساد في الداخل مقدَّمًا على الجهاد ضدَّ الكفر والعدوان من الخارج، فإن الفساد الداخلي كثيرًا ما يكون ممهِّدًا للعدوان الخارجي.

إن الإنسان الرباني قد يتاح له الجاه والمنصب الحرام عن طريق موالاة المعتدين، أو معاونة الظالمين، أو السير في ركب الطاغين، فيأبى عليه دينه، وينهاه إيمانه، متذكرًا هذه الآية: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

* * *

نسخة مجانية

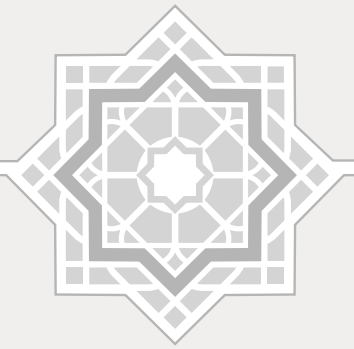
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



دروس في تفسير
سورة يوسف

نسخة مجانية
غير مرخصة

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الأوَّل
ممَّا تميزت به قصَّة يوسف

استمعنا في صلاة التراويح لهذه الليلة الكريمة من ليالي شهر رمضان الكريم إلى سورة يوسف، وسورة يوسف سورة كاملة في قصَّة واحدة، هي قصَّة هذا النبي الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قصَّة سمَّاها القرآن أحسن القصص، يقول الله تعالى في أوَّل سورة يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣]، ويقول تعالى في ختام السورة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

هذه القصَّة ذُكرت في التوراة وفي القرآن، ومن يقرؤها في التوراة ويقرؤها في القرآن يعلم أنَّ هذا القرآن كتاب الله حقًّا، عمل بعض المقارنة الأستاذ مالك بن نبي في كتاب «الظاهرة القرآنيَّة» وإن كان عليه ملاحظات، ولكن تجد مثلًا إنَّهم قالوا: ساعة ما رموه في الجب كان عمره ست عشرة سنة.

معقول أنَّ ابن ست عشرة سنة يخدعه إخوته ويرمونه في الجب، ويقولون لأبيهم: أكله الذئب؟ هذا لا يمكن؛ هذا شاب قويّ، قادر على أن

QaradawiBooks.com

يدافع عن نفسه ويهرب ويتخلص من إخوته، ثمَّ كيف يُرمى في البئر ابن ست عشرة سنة؟ كيف تخرجه السيارة بالدلو وتقول: يا بشرى هذا غلام؟

ثم التوراة تتكلم عن ملك مصر أنَّه فرعون، وهذا خطأ تاريخي. القرآن قال: قال الملك؛ لأن الَّذي كان يحكم مصر في ذلك الوقت لم يكن فرعونًا، لم تكن أسرة من أسر الفراعنة، بل كان الَّذي يحكم مصر هم ملوك الرعاة العمالقة، من العرب الَّذين ذهبوا إلى مصر وحكموها عدة قرون، وكان المصريون يسمُّونهم: «الهكسوس»، وظلوا إلى أن طردهم المصريون بقيادة الحاكم المصري أحمس. فلم يكن فرعون كما تقول التوراة، إنَّما القرآن يقول: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ ﴾ [يوسف: ٤٣]، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف: ٥٤]، بينما في قصَّة موسى يقول القرآن: قال فرعون؛ لأنَّه كان فعلًا حاكم ذلك الوقت فرعونا، من الأسر الفرعونيَّة.

من أين لمحمَّد بن عبد الله الأُمِّي بهذا؟ كيف صحَّح الكتب السابقة؟ هذا دليل على أنَّه يُلقَّى من لدن حكيم عليم.

سورة يوسف هي السورة الَّتي استوعبت قصَّة ذلك النبي الكريم، ولم تُستوعَب قصَّة لنبي في سورة واحدة إلَّا قصَّة يوسف، قصص الأنبياء وُزِّعت على السور، أمَّا قصَّة يوسف فقد جُمعت كلها في هذه السورة.

شخصيَّات قصَّة يوسف:

في هذه القصَّة عدَّة شخصيَّات، الشخصيَّة المحوريَّة في القصَّة يوسف عليه السلام، هو صاحب القصَّة، القصَّة بدأت به من طفولته وصباه وشبابه، وانتقلت به من محنة إلى محنة ومن بلوى إلى بلوى، سلسلة دامية الحلقات، يخرج من محنة ليدخل في محنة أخرى، يخرج من محنة إخوته ليدخل في محنة امرأة العزيز، ليدخل في محنة السجن،

QaradawiBooks.com

ليدخل في محنة المنصب، ولكن الله الَّذي ابتلاه بهذه المحن مكّنه بالصبر، ألقى عليه الصبر؛ انتصر على المحن كلها بصبره وتقواه، كما قال تعالى في نهاية القصَّة حيث ذكَّرنا القرآن المفتاح الكلّي حينما قال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

الأحرف المقطعة في أوائل السور القرآنيَّة:

سورة يوسف سورة مكيَّة، من السور الَّتي بدأت بالأحرف المقطّعة، وهذه الأحرف كما نعلم اختلف المفسرون في معناها، الأكثرون من المحققين على أنَّها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم.. إن هذا القرآن أعجز العرب أن يأتوا بحديث مثله، أو بعشر سور مثله مفتريات، أو بسورة مثله، وغُلبوا وانقطعوا، وحق عليهم قول الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨].

هذا القرآن مؤلَّف من هذه الأحرف الَّتي ينطق العرب بها، لم يجئ بأحرف من لغة أجنبية أخرى، هذا هو أشهر الأقوال الَّتي انتهى إليه الأمر في تفسير هذه الأحرف. وخصوصًا أنَّه يوجد ما يدل على ذلك: فهذه الأحرف إذا ذُكرت يُذكر بعدها شيء عن القرآن، كما رأينا في هذه السورة ـ سورة يوسف ـ بدأت بقول الله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]، والسورة الَّتي قبلها ـ سورة هود ـ بدأت بقوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، والسورة الَّتي بعدها ـ سورة الرعد ـ بدأت بقوله تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الرعد: ١]، وأول سورة في القرآن بعد الفاتحة ـ سورة البقرة ـ بدأت بقول الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢].

QaradawiBooks.com

وهذا ممَّا يُقوِّي هذا الرأي القائل بأنَّ الأحرف المقطعة إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، وأن هذا القرآن المعجز لكم معشر العرب هو مركّب من هذه الأحرف الَّتي تكوِّنون بها كلامكم، ولكن يبقى شيء لا بدَّ أن يُقال هنا، وهو يؤكد القول الآخر الَّذي يقول: هذه الأحرف سر من أسرار الله تعالى في القرآن، لأنَّه يظل السؤال قائمًا: لماذا كان أوَّل سورة البقرة «ألف لام ميم»، وأول سورة يوسف «ألف لام را»، والسور الأخرى بـ «كاف هاء يا عين صاد»، وأخرى بـ «حا ميم»، وأخرى بـ «طا سين»؟ ولماذا تبدأ سورة بـ «طا سين» وأخرى بـ «طا سين ميم»؟ مثل سورة يوسف «ألف لام را» والَّتي بعدها «ألف لام ميم را»، هذا أمر يصعب تفسيره؛ ولذلك نقول: هذا سرٌّ من أسرار القرآن لا يعلمه إلَّا الله تبارك وتعالى.

فسورة يوسف من السور المكيَّة الَّتي بدأت بـ «ألف لام را»، وهي تتناول هذه القصَّة الكريمة لهذا النبي الكريم، بل هو كما وصفه النبي ﷺ حينما سُئل عن أكرم النَّاس، فقال: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**»[1]. فيوسف نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي، عريق في النبوة، ومؤصَّل في الرسالة.

أحسن القصص:

هذه القصَّة الَّتي سمَّاها القرآن أحسن القصص، كما قال الله في أولها: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، وفي آخرها قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٩٠)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

الأدلَّة على نبوَّة يوسف عليه السلام:

بعض النَّاس أثار مرَّة سؤالًا وقال: لم يظهر في هذه السورة مرَّة أنَّ يوسف نبيٌّ أو رسول، ظهر أنَّه داع يدعو إلى الله، حتَّى في قلب السجن، حوّل السجن إلى ساحة من ساحات الدعوة إلى التوحيد، ولكن أين الدليل على رسالته؟

والواقع أنَّه في السورة إشارة إلى أنَّه نبي، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، وجاء في سورة الأنعام ذُكر يوسف ضمن ثمانية عشر نبيًّا، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۞ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ أي: لإبراهيم ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٨٦]، ثمانية عشر نبيًّا، ثمَّ قال تعالى بعد ذلك بآيتين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٨٩، ٩٠].

وأصرح من ذلك ما جاء في سورة غافر، حيث قال ذلك الرجل المؤمن من آل فرعون يخاطب قومه من أهل مصر: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦٓ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤]، فيوسف نبيٌّ رسولٌ من غير شكٍّ.

QaradawiBooks.com

الدرس الثاني

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٤، ٥]

خطر المعاصي القلبيَّة:

ممَّا قـرَّره العلماء: أنَّ أشـدَّ المعاصـي خطرًا، وأبعدهـا أثرًا، هي ما سَمَّوه: «معاصي القلوب».

فالمعاصي نوعان: معاصي أبدان، ومعاصـي قلوب. وهي ما يطلق عليها أيضًا: معاصي ظاهرة، ومعاصي باطنة. كلها معاصي، وكلها تؤدي إلى الجحيم والعياذ بالله، ولكن الأشد خطرًا هي معاصي القلوب.

فمعاصي الأبدان، مثل: الأكل الحرام، شرب الخمر، الزنى، وهي من كبائـر الذنوب ومن الموبقـات، ولكن الأخطر منها، وهـي الَّتي يغفل النَّاس عنها، ولا يلقون لها بـالًا، هي معاصي القلوب، والَّتي سـمَّاها الإمام الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين»: المهلكات. أي: الَّتي تهلك الفرد والجماعة في الدُّنْيا والآخرة. وقد أُخـذ هذا العنوان من الحديث الشـريف، الَّذي قال فيه النبي ﷺ: «**ثلاث مهلكات: شُحٌّ مطاع، وهوًى مُتَّبَع، وإعجابُ المرء بنفسه**»[1]. هذه الأشياء الخطيرة، وقد سمعتم الشيخ

(١) رواه البزار (٦٤٩١)، والطبراني في الأوسط (٥٤٥٢)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٦٥٤): =

QaradawiBooks.com

حسن عيسى عبد الظاهر، وهو يحدثكم أوَّل أمس، عن قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، فالإعجاب بالنفس، كاد أن يؤدِّي إلى هزيمتهم، ومثله الرياء، والحسد، والبغضاء.

وقد قال رسول الله: «**دبَّ إليكم داءُ الأممِ قبلكم، الحسدُ والبغضاء، والبغضاءُ هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدِّين**»[(١)].

ولذلك رأينا الأسر أبناء الرجل الواحد، يتقاتلون فيما بينهم، من أجل هذه المعصية الباطنة، المعصية القلبيَّة، معصية الحسد، وقد ذكر لنا القرآن في ذلك قصتين:

القصة الأولى: في سورة المائدة قصَّة ابني آدم عليه السلام، حيث يقول الله تعالى: ﴿**وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ**﴾ [المائدة: ٢٧].

أوَّل جريمة في الأرض كان سببها الحسد، وللأسف كان الحسد من أجل أمر ديني، وليس أمرًا دنيويًّا، فقد قرَّبا قربانًا إلى الله، فتقبل الله قربان أحدهما ونزلت النَّار لتأكله، ولم يُقبل قربان الثاني. فقال: لأقتلنَّكَ.

انظروا الظلم والعدوان، حسد أخاه لأنَّه تُقُبِّل قربانه! ولعلك أنت مرائي أو مخادع بعملك، فلم يُقبل منك، فلماذا تقتله؟!

= هو مروي عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى. وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٠٣٩)، عن أنس بن مالك.

(١) سبق تخريجه (١/٧٥٥).

QaradawiBooks.com

وكان ردُّ أخيه عليه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧، ٢٨]، وكانت النتيجة: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠].

أصبح من الخاسرين؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لا تُقتل نفس إلَّا كان على ابن آدم الأوَّل كفل منها**»[(١)]. يأخذ جزءًا من الإثم في هذه الجريمة.

فما يحصل في أفغانستان الآن، وفي فلسطين، وما حصل في الحروب العالميَّة، إلخ، ملايين القتلى، كل هؤلاء له في دمهم نصيب، لأنَّه أوَّل من سنَّ القتل، وهذا نتيجة تلك المعصية القلبيَّة، معصية الحسد، حسد أخاه على ما أتاه الله من فضله.

والقصة الثانية: استمعنا إليها اليوم في سورة يوسف، حين حسد إخوة يوسف أخاهم بلا ذنب ارتكبه، فقط لأنَّ أباه يحبه! وما ذنب يوسف؟ وقد قال الأعرابي قديمًا، لما سُئل: أي أولادك أحب إليك؟ قال: صغيرهم حتَّى يكبر، وغائبهم حتَّى يحضر، ومريضهم حتَّى يُشفى[(٢)].

وكان يوسف أصغر الإخوة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، ماتت أمه. فيستحق العطف؛ لأنَّه يتيم الأم هو وأخوه الآخر: بنيامين. ومن ناحية ثالثة: آتاه الله حظًّا من الجمال، والذكاء، ومثل هذا الطفل يجذب الانتباه، فأحب يعقوب يوسف وأخاه أكثر من غيره. فماذا قال إخوته: ﴿قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ۗ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۞

(١) سبق تخريجه (٦٨٥/١).

(٢) انظر: عيون الأخبار (١٠٥/٣)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.

QaradawiBooks.com

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٨، ٩]، من أجل أن نكسب وُدَّ أبينا لا بدَّ أن نغيِّب هذا الَّذي يشغله عنَّا تمامًا.

ولذلك كان من حكمة يعقوب عليه السلام، حينما قصَّ عليه ابنه الصغير يوسف الرؤيا الَّتي رآها، قال له: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]، لأنَّهم إذا عرفوا هذه الرؤيا، أيقنوا أن هناك مستقبلًا مبشرًا لك، فيكيدوا لك المكايد، ﴿فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ لأن الشيطان يقف للإنسان بالمرصاد، حتَّى لا يريد أن يبقي مودة بين أخ وأخيه، إن استطاع أن يوقدها نارًا مشتعلة بين الإخوة لا يدَّخر وسعًا، وهذا هو الشيطان.

فيعقوب عليه السلام من أوَّل الأمر، عرف أنَّ الإنسان هو الإنسان. فالله عزوجل وصف الإنسان بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ولذلك أخذ أبو الطيِّب المتنبِّي من هذا قوله:

والظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لَا يَظْلِمُ[1]

من شيم النفوس أن تظلم، ولذلك حذَّر يعقوب عليه السلام ابنه من أن يفشي هذه الرؤيا لإخوته، وقد قال الرسول ﷺ: «**استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسود**»[2].

---

(١) ديوان المتنبي صـ ٥٧١.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٩٤/٢٠)، وفي الأوسط (٢٤٥٥)، وفي الصغير (١١٨٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢١٥/٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٧٣٧): رواه الطبراني في الثلاثة وفيه سعيد بن سلام العطار. قال العجلي: لا بأس به. وكذبه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات، إلا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٩٤٣)، عن معاذ بن جبل.

QaradawiBooks.com

كان يعقوب عنده امرأتان: ماتت إحداهما، وتركت يوسف وبنيامين، والأخرى عندها عشرة من الأولاد.

حينما رأى هؤلاء العشـــرة أباهم يُعطي يوسف من الاهتمام والعناية أكثر منهم، حسدوه، وهذا هو شأن الإنسان دائمًا.

ضرورة حذر الآباء من عدم المساواة بين الأبناء في العناية والاهتمام:

وهذا يعطينا درسًـــا، أنَّ على الأب أن يكون حـــذرًا ويقظًا، ومتنبهًا، فلا يعطي العناية لبعض أبنائه ويهمل البعض الآخر، لأن أبناء الأنبياء لم يطيقوا هذا، أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فهم أولاد نبي ابن نبي ابن نبي. بيت من بيوت النبوة العريقة، ومع ذلك أفسدهم هذا الأمر.

ولذلك لا يجوز أن يُعطي بعض أولاده أكثر من الآخرين، خصوصًا إذا كان عنده زوجتان، فيهمـــل أولاد القديمة، ويهتم بأولاد الجديدة، أو يهتم بالذكور، ويهمل الإناث، أو يهمـــل الذكور القدامى، ويهتم بالذكر الأخير، «آخر العنقود سكر معقود»، كما يقولون.

لا بدَّ أن يُعنـــى الأب بهذا، حتَّى لا يُحدث مشـــكلة بيـــن أولاده، فالإنسان هو الإنسان ولو كان ابن نبي.

فيعقوب عليه السلام رغم أنَّه معذور في حبّه ليوســـف كما قلت لكم، لأنَّه صغير، ولأنـــه يتيم، ولكن لم يطق إخوته هـــذا، فقالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ [يوســف: ٨]، نحن الجماعـــة، نحن العُزْوة، نحن من يزرع ويقلع، ونحرث الأرض، نُهمَل، وهذا الولد الصغير، هو الَّذي يأخذ قلب أبينـــا! ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٨، ٩].

QaradawiBooks.com

نهج القرآن في ذكر الخير بجانب الشر:

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [يوسف: ١٠]، نهج القرآن دائمًا أيُّها الإخوة أن يذكر الخير بجانب الشر، فلا يوجد في الدُّنْيا شر محض، بل لا بدَّ أن يوجد في خلال الشر شيء من الخير.

فكل قصَّة يخرج فيها واحد من أهل الخير، مثل أصحاب الجنَّة، ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ [القلم: ٢٨]. لا بدَّ أن يخرج من بينهم من به بقايا من الخير، لا يمكن أن يكون النَّاس كلهم أشرارًا؛ لأنَّه لو كان النَّاس كلهم أشرارًا، فلا بدَّ أن تطهرهم السماء حتَّى لا يبقى على الأرض هذا الشر الكامل.

ولهذا تحرَّك قلبُ أحد إخوته، فقال لهم: لماذا نقتله، أليس المهمُّ أن نغيِّبه عن وجه أبينا، ارموه في أحد الآبار القديمة، فيمرُّ عليه أحد المسافرين، ويأخذه أحدهم ويبيعه بعيدًا عنكم، ويكون حصل المقصود. وكان هذا اقتراحًا طيبًا نجّى الله به يوسف عليه السلام.

وظل هذا الحسد الَّذي يغلي في قلوب إخوة يوسف غلي الماء في القِدر، يعمل عمله، حتَّى تحايلوا على أبيهم، ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۞ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۞ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۞ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [يوسف: ١١ ـ ١٤].

وما زال إخوة يوسف يُلِحُّون على أبيهم حتَّى قَبِل أن يأخذوه معهم، ومن استعجالهم على الشر أنَّهم لم ينتظروا أوَّل مرَّة، ثمَّ يتخلَّصوا منه في المرَّة الثانية، وإنَّما انتهزوا أوَّل فرصة، فتخلَّصوا منه، ورموه في البئر.

QaradawiBooks.com

وأخذوا من كلمة أبيهم: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣] معتمدًا لهم ومتكئًا ومبررًا في عدم عودة يوسف معهم، ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۞ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٦، ١٧]، جاؤوه بدموع التماسيح، ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]، جاؤوا بعنْزة فذبحوها، ثمَّ لطّخوا القميص من دمائها، وجاؤوا يبكون: يقولون: أكله الذئب. ولم يكن القميص مُمزَّقًا، فهل خلع الذئب قميص يوسف؟! ولذلك قال لهم يعقوب عليه السلام: إنَّ هذا الذئب لحليم إذ أكل يوسف ولم يخرق ثوبه[1].

أثر الجريمة:

وكما يقولون: لا توجد جريمة كاملة، فكل مجرم لا بدَّ أن يترك أثرًا لجريمته، فقال يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

وهؤلاء الإخوة الَّذين فعلوا في يوسف ما فعلوا أحوجهم الله إليه، ففي وقت الشدة والأزمة والمجاعة، السبع السنين العجاف، الَّتي أصابت المنطقة كلها، مصر وما حولها، وكانوا هم في فلسطين، ولم يجدوا مؤونة إلَّا في مصر.

وكان عزيز مصر في ذلك الوقت هو يوسف عليه السلام، الَّذي وُكل إليه أن ينفذ الخطة الَّتي أشار إليها حين قص عليه الملك قصَّة السبع بقرات العجاف والسمان، فجعله على خزائن الأرض، فكان بيده الزراعة والتموين والماليَّة والتخصيص، وهذه الأمور.

(١) راجع: تفسير الطبري (١٥/٥٨٠ ـ ٥٨٢).

QaradawiBooks.com

جاء إخوة يوسف إليه فعرفهم، ولم يعرفوه، وذلك لطول زمن بُعده عنهم، فقد وضعوه في الجبّ وهو طفل صغير لا يستطيع الدفاع عن نفسه، ولما بلغ مبلغ الرجال راودته الَّتي هو في بيتها عن نفسه، ثمَّ سجن فلبث في السجن بضع سنين، ثمَّ بعدما خرج مكث سنين الخِصب السبعة، ثمَّ بدأت سنين العجاف، فجاؤوه، وهذا يعني أنَّه بلغ الأربعين سنة أو قريبًا من ذلك، فتغير شكله، ولكنَّهم لأنَّهم كانوا كبارًا عنه، عرفهم وهم له منكرون.

غير مرخصة للطباعة

إكرام يوسف لإخوته:

أكرم يوسف إخوته، وقال لهم: ﴿ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ [يوسف: ٥٩]، ووصلت القصَّة إلى أن قال لهم أبوهم: ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ ﴾ [يوسف: ٨٧، ٨٨]، فقد كانوا يأتون ببضاعة يستبدلون بها ما يحتاجون من الطعام، فقالوا له: جئنا ببضاعة لا قيمة لها. ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [يوسف: ٨٨]، في قمة الانكسار.

فقال لهم يوسف راحمًا لهم: ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ [يوسف: ٨٩]، ومن كرم يوسف عليه السلام أنَّه التمس لهم العُذر، فقال: ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾، يعني أيام الطيش والشباب! فانتبهوا وقالوا له: ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۞ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠ ـ ٩٢].

QaradawiBooks.com

انظروا إلى الموقف أيُّها الأحبَّة، فهو قادر الآن أن ينتقم وأن يأخذ بحقِّه، ولكنَّه عفا وتسامح، وغَلبت الأُخُوَّة، والناس يقولون دائمًا: الدم لا يستحيل ماء. نسي يوسف ما أصابه طوال هذه السنين من الكيد والمحن، محنة وراء محنة، فمن محنة الجب إلى محنة البيع، إلى محنة الخدمة في البيوت، إلى محنة مراودة المرأة له عن نفسه، إلى محنة السجن، محن وراء محن، نسي ذلك كله، وقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وحينما جاء أبواه رفعهما على العرش وخرُّوا له سُجَّدا، وهنا قال يوسُف لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولم يقل: أخرجني من الجب، حتَّى لا يُحرج إخوته أو يذكّرهما بما مضى، ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، نسب كل ما حدث بينه وبين إخوته للشيطان.

هكذا تكون الأخوة أيُّها الأحبَّة، فيوسف عليه السلام ضرب لنا مثلًا، كيف يتعامل الأخ مع أخيه، وهكذا يجب أن يتعامل الإخوة بعضهم مع بعض، ليسوا وحوشًا يأكل بعضهم بعضًا، بل ينبغي أن يتسامحوا بعضهم مع بعض، وأن يتنازل كل منهم لأخيه، وأن يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحُمَّى والسهر.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الثالث
يوسف في بيت العزيز

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ۞ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٣ ـ ٢٥].

يوسف عليه السلام شابٌّ في رَيْعان الشباب، ومقتبل العمر، أُوتي من الشباب والجمال حظًّا كبيرًا، وامتلأ فتوَّة ونضْرة ونشاطًا، وقدَّر القدر له أن يُبتلى بالخدمة في بيت امرأة عزيز مصر، ولكن شبابه وجماله أغرى به المرأة الَّتي هو في بيتها، فراودته عن نفسه وغلَّقت الأبواب وقالت: هيت لك!

فُتنت به امرأة العزيز ودعته إلى نفسها بصريح العبارة، قالت: هيت لك. وكان يمكن ليوسف أن يفعل ما يفعله مَنْ يقع في مثل هذه البلوى، وهو شابٌّ مكتمل الشباب ليست عنده زوجة، وهو غريب وليس في بلده، لا يوجد أحد يستحيي منه، والمرأة الَّتي دعته، لم يدعها هو؛ فيمكن له أن يقع في الجريمة، ولكنَّه ردع المرأة بعدة روادع، قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، الرادع الأوَّل

QaradawiBooks.com

رادع ديني، ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾، والرادع الثاني رادع أخلاقي، ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾، والرادع الثالث رادع مصلحي، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

كان الموقف دقيقًا ولا ريب، فإنَّ الفتنة الَّتي عرضت ليوسف لم تكن من الفتن الَّتي تعرض للمرء ساعة في حياته ثمَّ تزول، إنَّما هي فتنة تصابحه وتماسيه، وتراوحه وتغاديه، لم تكن فتنة امرأة من بنات الليل وبائعات الهوى، بل كانت فتنة امرأة ذات منصب وجمال وحِلْيَة ومَقْدِرة، وهي سيدة البيت، وامرأة العزيز، ويوسف غلام عندها، اشتراه زوجها بثمن بخس دراهم معدودة، لا يعرف له أهل ولا بيت، إنَّه مجرد خادم في بيتها، من شأنه أن يُؤمر فيأتمر.

فالمرأة هي الَّتي تملكه؛ كما قال القرآن: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ [يوسف: ٢٣]، فهو عامل عندها، وهي الَّتي غلَّقت الأبواب بنفسها، ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾، هيأت الأسباب، وغلَّقت الأبواب، ولم تكتف بالتلميح، بل لجأت إلى التصريح، ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾.

نجاح يوسف في الامتحان:

فماذا صنع الفتى يوسف أمام هذا الإغراء وأمام هذه الفتنة؟ لقد كان امتحانًا عسيرًا، ولكنَّه انتهى بنجاح يوسف، كان صوت الغريزة القوي يدعوه أن يهمَّ بها، كما دعا المرأة أن تهمَّ به، ولكن صوت الإيمان في ضميره كان أقوى، لقد زجرها بهذه الكلمات الواعية: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، ذكَّرها بحقّ الله عليها: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾، وذكَّرها بحق زوجها: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾، فزوجها قد ائتمنه على بيته وزوجه، وقد أوصاها به حين قال: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١]، فلا ينبغي له أن يُقابل الائتمان بالخيانة، ولا الإحسان

QaradawiBooks.com

بالإساءة، ثمَّ ذكَّرها بنتيجة الخيانة، وأنَّه لا يمكن أن يفلح، لن يكون له مستقبل إن فعل ذلك: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

بعض النَّاس يفهم هذه الآية فهمًا مغلوطًا، وينسب إلى يوسف عليه السلام ما لا يليق به، وللأسف بعض المفسرين وقع في هذا، حيث نقل من الإسرائيليَّات ما لا يصح، ولكن القرآن يُظهر بوضوح أن يوسف عليه السلام لم يمل إلى الفاحشة قط، ولم يعزم عليها، ولم يقترب منها، ولم يفعل أي فعل في الشروع في هذه الناحية، بدليل أن امرأة العزيز حينما راودته عن نفسه بصراحة وقالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، وهو ردها ردًّا صريحًا حازمًا، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

المرأة حاولت أن تأخذه من نفسه وأن تفتنه، ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وقول الله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ يدل على أنَّ الشيطان لا سبيل له عليه، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال الله تعالى حكاية عن إبليس يخاطب رب العزَّة: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، فيوسف لا يمكن أن يدخل إليه الشيطان في هذا الموقف.

أمَّا المرأة فقد ظلت تريد منه أن يفعل بها الفاحشة، عندها رغبة جامحة، وأمَّا هو فقد ألهمه الله سبحانه وتعالى أن يفرَّ من موقف الرِّيبة.

ترجيح معنى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾:

وهنا كلام كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، إنَّما أقرب الكلام هنا أنَّ المرأة بذلت نفسها، وصرَّحت برغبتها، ونادته علانية، ثمَّ لما جاء هو يتركها ثارت ثائرتها

QaradawiBooks.com

وجُنَّ جنونها وهي سيدته ومالكته، فهمَّت أن تبطش به، همَّت أن تؤذيَه وتضربه، ثمَّ همّ بها أيضًا أن يكيل الصاع صاعين، هو رجل وهو أقوى، ولكنَّ الله ألهمه أنَّه لو فعل ذلك سيجلب على نفسه شرًّا، فأقرب شيء تقوله: إنَّه اغتصبني. فألهمه الله أن يترك الموقف، وفعلًا فرَّ من أمامها تجاه الباب، لعله يستطيع أن يخرج، هو يجري وهي تجري خلفه تريده ألَّا يخرج، فجذبته من قميصه فقدَّتْه وشقته من الخلف، ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾.

همَّت المرأة أن تبطش بيوسف عليه السلام بعد أن رفض طلبها بإباء وشمم، هاج هائجها، وثار غضبها، كيف وهي امرأة العزيز، وهي سيدته، وهو الخادم عندها، وهو في بيتها، وهي الَّتي تطلب منه بصراحة، كيف له أن يتأبَّى عليها؟!

هنالك ثارت لكرامتها المهدرة في هذه الحالة، فهمَّت أن تضربه، وأن تؤدِّبَه، وأن تنتقم لنفسها، وتثأر لكرامتها الَّتي أهدرها يوسف برفضه وإبائه، فقد أحرجها أمام نفسها، فلمَّا رأى يوسف منها العين الحمراء أراد أن يدافع عن نفسه، هَمَّ أن يضربها، ولكن الله سبحانه وتعالى ألهمه الفرار من الريبة.

معنى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾:

ألهمه الله أن يفرَّ من هذا الموقف ويهرب إلى الباب، خشية أن تتهمه المرأة بما ليس فيه، وهذا معنى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، أنَّ الله تعالى ألهمه الفرار من موقف الريبة. ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾.

وبعض العلماء قال: المقصود بكلمة: ﴿رَبِّهِۦ﴾، هنا ليس هو الله تبارك وتعالى، وإنَّما الرب هنا معناه السيد، كما في قول يوسف: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾، يقصد بالربِّ هنا السيِّد، إنَّه سيِّدي أحسن مثواي

QaradawiBooks.com

وأكرمني، كما قالت الآية: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١]، وكما في قول الله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، المقصود: اذكرني عند الملك، عند سيدك، وكما قال يوسُف في تعبير الرؤيا للفتيين: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٤١]، أي: الملك، وكما في قول يوسف أيضًا: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]، فأهل مصر في ذلك العهد كانوا يطلقون لفظ الرب على السيد، سيد البيت، أو سيد القصر، أو الملك، فالسورة استعملت الرب بمعنى السيد هنا، والمراد العزيز هنا، فقال: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، أي: رأى علامة موكب السيد قادمًا، أحس بقدوم الموكب.

فقد كان الموكب يأتي ومعه الحرس، ومعه الشرطة وغير ذلك، فلمَّا أحسَّ يوسُف بهذا بعد أن كان يريد أن ينتقم من المرأة ويضربها ليدفع عن نفسه تركها وأسرع إلى الباب، فأسرعت خلفه وجذبته من قميصه فقطعته، ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥].

وسواء قلنا بأنَّ برهانَ ربِّه إلهامُ الله له بالفرار من هذا الموقف، أو قلنا بأنَّ برهان ربِّه علامة قدوم موكب العزيز سيده، كلا الأمرين جائز ولا حرج فيه، وعلى كلٍّ تبقى صفحة يوسف ـ كما قلنا ـ نقيَّة بيضاء.

إنَّ الإنسان الربَّاني قد تتاح له الشهوة الحرام، تعرض عليه بلا رقيبٍ ولا حسيب من البشر، فيدعها حياء من الله، وحرصًا على أن يُظِلَّه الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلَّا ظلُّه، فيقول ما قال يوسف الصديق حين راودته امرأة العزيز عن نفسه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾.

QaradawiBooks.com

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۞ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٥ ـ ٢٩].

المُقَطِّعات أيدِيَهن:

ولكنَّ المرأة حينما يئست منه استعانت عليه بمجموعة من النسوة، ودَعَتْهن إلى دارها، وأرتهم هذا الفتى حينما بلغها أنهن قلن: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾، دَعَتْهن إلى مأدبة في بيتها، قدمتْ لهن طعامًا، وقالت ليوسف: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾، خرج عليهنَّ الفتى وهُنَّ يقطعن الفواكه والأشياء الَّتي قُدِّمت لهنَّ، فذهلن لرؤيته وقطَّعن أيديهن دون أن يدرين، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۞ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣١، ٣٢].

لكن ماذا يفعل يوسف عليه السلام أمام هذا التهديد الواضح الجليِّ؟ لقد خُيِّر يوسف بين محنتين: محنة في دنياه، ومحنة في دينه، فأيّ المحنتين يختار يوسف؟ كانت محنة دنياه أن يُسجن كما هدّدت المرأة ويكون من الصاغرين، أو يُفتن ويزني بالمرأة ويكون من الفاسقين، فآثر محنة الدُّنْيا على محنة الدين، ومحنة الدُّنْيا لا تساوي

QaradawiBooks.com

شيئًا بجانب محنة الدين، ولهذا علَّمنا نبيُّنا أن نقول: «**اللهمَّ لا تجعل مصيبتنا في ديننا**»[١].

اللجوء إلى الله:

هنا لجأ يوسف إلى الله ﷻ أمام هذا الكيد الجماعي من هؤلاء النسوة، وكيد النساء عظيم، كيد المرأة الواحدة عظيم، فكيف إذا اجتمعت مجموعة؟ لاذ يوسف بمولاه، وقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، فالقوي قد يضعف، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤]، صرف الله كيد النساء عنه، ولكن لم يصرف عنه السجن، ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

محنة السجن:

رغم أنَّ الدلائل والآيات والعلامات والبراهين واضحة ناصعة، بل قاطعة في براءة يوسف، إلَّا أنَّهم أرادوا أن يُسكِتوا ألسنة النَّاس، فقد أصبح موضوع يوسف ومراودة المرأة له والنسوة أصحاب الحفلة حديثَ المدينة؛ فلا بدَّ من كبش فداء.. لا بدَّ من ضحيَّة، من يكون الضحيَّة؟ يوسف المسكين، لكي يسكت النَّاس أدخلوا يوسف السجن، ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥].

فضّل يوسف عليه السلام السجن على ارتكاب الفاحشة، هذا هو العفاف، وهذه هي الإرادة الصُّلبة، أُلقي يوسف في السجن، محنة جديدة، محنة

(١) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٢)، وقال: حسن غريب. والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٢٣٤)، وحسَّنه الألباني في الكلم الطيب (٢٢٦)، عن ابن عمر.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

السجن، ولكن يوسف حوّل هذه المحنة إلى منحة، جعل من السجن ساحة ليدعو إلى الله بدعوة التوحيد، ويتَّخذ من الموهبة الَّتي أعطاه الله إياها ـ موهبة تفسير الأحلام وتعبير الرؤى ـ طريقًا للدعوة إلى الله ﷻ، يفسر الأحلام ويقول: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۞ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧، ٣٨].

من سلك طريق التوحيد استقامت نفسه، وخلص من المتناقضات، فلا يعبد آلهة متعدّدة، بل يعبد إلٰهًا واحدًا، ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، أيُّهما أولى أن تعبد إلٰهًا واحدًا تعرف ما يرضيه وما يسخطه، أم تعبد آلهة شتَّى؟ هذا يأمرك أن تُشرِّق، وهذا يأمرك أن تُغرِّب ولا تعرف أين تتجه.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

من اتَّخذ أحدًا من عباد الله شارعًا وحاكمًا، يأمر بما يشاء، وينهى عمَّا يشاء، ويُحلِّل ما يريد ويُحرِّم ما يريد، وأعطاه حقَّ الطاعة في ذلك ولو أحلَّ الحرام، وأسقط الواجبات. مَن اتَّخذ مثل هذا حَكَمًا وشارعًا، فقد جعله في الحقيقة ربًّا يُطاع في كلِّ أمر، ويُنقاد له في كلِّ ما شرع.

التوحيد يوحِّد الاتجاه، يجعل الإنسان سويَّ النفس، يعيش لغاية يعرفها، وعلى منهاج يعرفه تمامًا ويوقن به، ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، ولذلك كان التوحيد أساس الأمن

QaradawiBooks.com

النفسي، والطمأنينة الروحيَّة، وصدق الله العظيم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

الرؤى والأحلام عند السجناء:

وهكذا دخل يوسف عليه السلام السجن، وجعل من الرؤى وسيلة ليدعو النَّاس إلى الله، والَّذين عرفوا السجون والمعتقلات يعرفون أنَّ أهم شيء عند السجناء والمعتقلين هو الرؤى والأحلام، انقطعت عنهم الأخبار من الخارج فهم يصبحون في الرؤى والأحلام.

كنَّا في المعتقل، وكان معنا جماعة كنَّا نسميهم: «وكالة أبشروا»، كل يوم نقول: ماذا رأوا؟ يبحثون عن رؤيا يفسرونها، قلنا: يا إخوة ابشروا، الأخ فلان رأى رؤيا إن شاء الله كذا وكذا، هذا كما قال الشاعر قديمًا:

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنَ اهْلِهَا ... فَلَسْنَا مِنَ الْأَمْوَاتِ فِيهَا وَلَا الْأَحْيَا
إِذَا دَخَلَ السَّجَّان يَوْمًا لِحَاجَةٍ ... عَجِبْنَا وَقُلْنَا: أَجَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا؟
وَنَفْرَحُ بِالرُّؤْيَا فَجُلُّ حَدِيثِنَا ... إِذَا نَحْنُ أَصْبَحْنَا الْحَدِيثُ عَنِ الرُّؤْيَا[1]

فلذلك أوَّل ما دخل يوسف بدأ في الرؤى والأحلام، وقصة يوسف للرؤيا فيها مجال أي مجال.. بدأت برؤيا، ثمَّ رؤيا الفتيين هؤلاء، ثمَّ رؤيا الملك الَّذي كان هو سبب إنقاذ يوسف من السجن.

(١) الأبيات تنسب لصالح عبد القدوس. انظر: أمالي المرتضى (١٤٥/١). وهي في ديوانه صـ ١٣٧، تحقيق عبد الله الخطيب، نشر دار منشورات البصري، بغداد، ١٩٦٧م. وقد نسبها الجاحظ لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر. انظر: المحاسن والأضداد صـ ٧١، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

QaradawiBooks.com

الدرس الرابع
شخصيَّة يعقوب عليه السلام في قصَّة يوسف

يعقوب الصابر:

يعقوب عليه السلام هو الشخصيَّة الثانية المهمة في هذه القصَّة، وقد نزل عليه البلاء والامتحان كما نزل بابنه يوسف، يوسف أُبتلي وامتُحن هو أيضًا ابتُلي وامتُحن، كل ما أصاب يوسف فقد أصاب أباه.

يعقوب عليه السلام من الأنبياء والمرسلين الَّذين عُني القرآن بذكرهم، واهتم القرآن به اهتمامًا كبيرًا، قد وصَّى أبناءَه عند موته، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۞ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢، ١٣٣]، ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥]، «الأيدي»: القدرة على التنفيذ، و«الأبصار»: البصيرة النيِّرة. بعض النَّاس يعطى القدرة التنفيذيَّة ولكن لم يعط البصيرة، وبعض النَّاس يعطى البصيرة ولم يعط القوة، إنَّما يعقوب وإسحاق وإبراهيم جمع الله لهم بين البصيرة النيِّرة والقدرة التنفيذيَّة، فهم: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۞ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۞ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٧].

QaradawiBooks.com

شخصيَّة يعقوب عليه السلام شخصيَّة من الشخصيات العظيمة الربَّانية، الَّتي نراها موصولة الحبال بالله عزَّ وجلَّ في أشد الكربات، وكلَّما ادلهمّت الأزمات نجده يلجأ إلى الله. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وهذه هي العبرة من هذا الشيخ الكبير الَّذي ابتلاه الله بما ابتلاه به، فصبر صبرًا جميلًا، وكان مع الله، فكان الله معه.

يعقوب عليه السلام له مكانة في هذه القصَّة منذ المشهد الأول، حينما قصَّ عليه ابنه الصغير هذه الرؤيا العجيبة قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]. لا يخطر ببال أحد أن يرى غلام في الرؤيا أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر، إنَّما يفكر الغلام في اللهو واللعب، فماذا قال له أبوه؟ لقد عرف أبوه أن هذه القصَّة تشير إلى مستقبل عظيم، وغد مرجوّ لهذا الطفل، وأنَّه سيكون ذا شأن، عرف ذلك ببصيرته ونور النبوة، قال: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥].

أنواع الرؤى:

يبدو أنَّ هذا العصر كان عصر الاهتمام بالرؤى، الرؤى كانت لها أهميَّة كبيرة، نجد أوَّل ما بدأت القصَّة بدأت برؤيا، وبعد قليل نجد يوسف حينما يدخل السجن يأتيه سجينان معه ويقصَّان عليه رؤيا رآها كلٌّ منهما، ثمَّ يرى الملك رؤيا تفزعه ويسأل فيها السائلين والمُعبّرين؛

QaradawiBooks.com

كانت للرؤيا أهميَّة. والرؤى حق، ليست كل الرؤى أضغاث أحلام، ولا كل الرؤى رغبات مكبوتة كما يقول «فرويد» ومدرسة التحليل النفسي في الدراسات النفسية الحديثة؛ هناك تنبؤية مستقبليَّة؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**الرؤيا ثلاثة: فرؤيا صالحةٌ بشرى من الله، ورؤيا تحزينٌ من الشيطان، ورؤيا ممَّا يُحَدِّث المرءُ نَفْسَه، فإن رأى أحدُكم ما يكره فليقُمْ فليصلِّ، ولا يُحَدِّثْ بها النَّاس**»(١).

فالرؤى إمَّا ربّانيَّة، وإمَّا نفسانيَّة، وإمَّا شيطانيَّة، أي أن هناك رؤيا من الله ﷻ، وهناك رؤيا من الشيطان الرجيم، وهناك رؤيا من داخل النفس الإنسانيَّة؛ وبعض النَّاس تصدُق رؤاهم، وصدق الرؤيا ليس دليلًا على الإيمان، فالملك كان وثنيًّا ومع ذلك صدقت رؤياه، والفتيان اللذان دخلا السجن مع يوسف صدقت رؤياهما وما كانا من أهل الإيمان.

حسد الإخوة لأخيهم:

يوسف عليه السلام رأى رؤيا وقصَّها على أبيه، فقال له أبوه ناصحًا: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]؛ إذا سمعوا منك هذه الرؤيا يفهمون أنَّه سيكون لك شأن، وربَّما يدبِّرون لك أمرًا ويكيدون لك كيدًا وإن كانوا إخوة لك. كانوا إخوة من الأب، ولكن حتَّى الإخوة قد يحسدون أخاهم.

كما جاء في سورة المائدة، حيث تحدثت السورة عن ابني آدم اللذين قتل أحدهما أخاه، لا لشيء إلَّا للحسد؛ لأنَّهما قربا قربانًا فتُقبِّل قربان أحدهما ولم يُتقبَّل قربان الآخر، فقال الَّذي لم يقبل قربانه قال لأخيه: لأقتلنَّك. وفي هذا جاءت الآيات: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا

(١) رواه مسلم في الرؤيا (٢٢٦٣)، وأحمد (٧٦٤٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣٠].

هكذا حتَّى بين الإخوة، ولذلك سيِّدنا يعقوب ببصيرته وحكمته قال لـه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف: ٥]. ومن عداوة الشيطان أنَّه يمكن أن يوقع العداوة والبغضاء بين الأخ وأخيه، وهذا ما نـراه في الحياة، إخوة يكيد بعضهم لبعض، ويحقد بعضهم على بعض؛ الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين، ولذلك قال له: اكتم هـذا، لا تحدِّث به أحدًا من إخوتـك حتَّى لا يكيدوا لك كيدًا. وهذا من خصائص الإنسـان البصير أنَّه لا يذيع كل شـيء، هناك بعض الأشـياء تقتضـي أن يكتمها في نفسـه، كما جاء فـي الحديث: «**استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان؛ فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسود**»[1]. هناك أشياء تقتضي ألَّا تقولها لغيرك، ولا لأقرب النَّاس إليك، اكتُمْها.

استشراف المستقبل:

ثم بشَّره يعقوب بما يستشرفه من مستقبل له، قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: ٦].

فقد علَّم الله يوسـف عليه السلام وخصَّه بعلـم تأويل الأحاديـث: الرؤى والمنامات.

(١) سبق تخريجه صـ١٣٣.

QaradawiBooks.com

علم تأويل الأحاديث يقوم على الفطنة والفراسة:

وعلم تأويل الأحاديث الَّذي علَّمه الله ليوسف، ليس علمًا دينيًّا، بل هو علم يقوم على الفطنة والفراسة والحدس، فهو أقربُ إلى علوم الدُّنْيا منه إلى علوم الدين.

ولذا عبّر القرآن عنه بالظن في قوله عن أحد السجينين، اللذين دخلا معه السجن، وأوّلَ رؤياه بأنَّه سينجو ويخرج من السجن، ويسقي سيده خمرًا، كما كان يفعل، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢].

وقال تعالى في قصَّة يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

الحفظ والعلم عنصران أساسيان للولاية:

وهذا العلم آتاه الله ليوسُف مع الحُكْم ـ أي الحِكمة ـ ليس هو علم النُّبُوَّة، فلم يكن قد أوتيها بعْدُ، ولا علم الدين، فلم يكن في مصر في ذلك الوقت علم للدين يُحصّله أو يطلبه، إنَّما هو المعرفة والبصيرة بالأمور، والاعتماد على العقل في الاستنتاج واختيار البدائل ونحوها، وهذا العلم هو الَّذي اعتبره يوسف عليه السلام مرشِّحا أساسيًّا له لمنصب الولاية على خزائن أرض مصر، حين قال له ملكها: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٤، ٥٥].

فذكر يوسف عليه السلام سببَيْن يؤهِّلانه للمنصب، وهما الحفظ والعلم. والمراد بـ «الحفظ»: الأمانة الَّتي تجعله يحفظ ما ائتُمن عليه من أموال

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وأعمال، و«العلم»: يراد به المعرفة، والخبرة بما يحتاج إليه هذا المنصب المالي الاقتصادي الإداري، من خبرة بأمور الماليَّة، والاقتصاد، والزراعة، والإدارة، والتخطيط، والتموين، وخصوصًا في زمن الأزمة الاقتصاديَّة الكبيرة الَّتي تتوقعها مصر بعد سبع سنوات، وكيف يدّخر من سنوات الخصب لسنوات القحط.

ولا يمكن أن يُراد من صفة «عليم» الَّتي ذكرها يوسف: أنَّها تتعلَّق بعلم الدين ـ إذ لا دخل له في الترشيح للولاية على خزائن الأرض.

حبُّ يعقوب ليوسف:

المهمُّ يعقوب كان يحبُّ يوسف، وهذا أمر طبيعي؛ يوسف أصغر الأولاد، والصغير دائمًا يأخذ من حبِّ الأبوين أكثر من غيره، وخصوصًا الصغير اليتيم، هو وأخوه بنيامين ماتت أمهما، فهما أصغر الأولاد مع اليتم، ثمَّ لِما أوتي يوسف من الحُسن ومخايل الذكاء من الصغر؛ فكان من الطبيعي أن يميل الأب إليه أكثر، وهذا سبّب مشكلة في الأسرة.

الأولاد لاحظوا أنَّ أباهم يهتم بهذا الصغير وأخيه أكثر، فقالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨].

طبعًا لا يقصدون الضلال الدينيّ، لو كانوا يقصدون الضلال الدينيّ لكفروا، إنَّما يقصدون الضلال العقلي.. يعني لا يتصرف التصرف الحسن.. لا يضع الشيء في موضعه الصحيح؛ نحن عصبة، نحن الَّذين نكسب، نحن الَّذين نشتغل، نحن الَّذين نعمل، وأبونا يحب هذا الصغير أكثر منا؟! ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾.

QaradawiBooks.com

إبراز عناصر الخير:

دائمًا القرآن حينما يذكر المجتمعات يذكر العنصر الخيِّر فيها، لأن النَّاس ليسوا كلهم أشرارًا، في النَّاس دائمًا العناصر الخيِّرة، تجد في قصص القرآن يبرز هذا العنصر، في قصَّة موسى في أوَّل الأمر: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]، وبعد ذلك في قصَّة موسى أيضًا: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨].

وفي سورة يس: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، وفي قصَّة أصحاب الجنَّة في سورة القلم: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨].

فهنا برز عنصر الخير، ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾، المسافرون يأخذونه، ويخرجونه بعيدًا عنا.

وتحايلوا على أبيهم أن يأخذوا يوسف معهم، ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۞ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۞ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۞ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾، نحن عشرة، هو خائف عليه فطمأنوه، وظلوا وراءه حتَّى قَبِل أن يأخذوه معهم.

وافق يعقوب أن يذهب معهم يوسف، وفعلًا ذهبوا به، وكلمة الأب: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ فتحت لهم بابًا ليكذبوا به على أبيهم.. فالأرض كانت مذأبة.. أي فيها ذئاب كثيرة، فبيّتوا في أنفسهم أمرًا

QaradawiBooks.com

ونفّذوه، غلب الشر عليهم فألقوا أخاهم يوسف في غيابة الجب، ثمَّ لما رجعوا إلى أبيهم في آخر النهار قالوا له ما قالوا، ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ۞ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٦، ١٧].

دموع التماسيح:

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ﴾، دموع التماسيح الَّتي يقولون عنها، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾، نعرف أنَّك لا تصدِّقنا ولو كنَّا صادقين، ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾ [يوسف: ١٨]، ذبحوا شاة ووضعوا الدم على القميص، ثمَّ جاؤوا بالقميص، فنظر يعقوب للقميص فوجده سليمًا فعلم كذبهم، ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

ما كنتَ تخافه وقع، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۞ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٧، ١٨].

دلائل الجريمة:

يقول علماء الجنايات والتحقيق وعلم الجينات وعلم النفس الجنائي: ما من أحد يعمل جريمة إلَّا ويترك ما يدل عليها. مهما كان محترفًا وذكيًّا يترك حاجة تدل على أنَّه هو من فعل تلك الجريمة، إخوة يوسف فعلوا ذلك، جاؤوا بقميص يوسف غير ممزق، قميص سليم ملطّخ بالدم، هل خلع الذئب عن يوسف قميصه قبل أن يأكله؟!

QaradawiBooks.com

لذلك قال القرآن: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، وهنا قال يعقوب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، إنَّها النفوس السيِّئة الأمَّارة بالسوء هي الَّتي سوَّلت لكم ما سوَّلت، وليس أمامي إلَّا الصبر الجميل، الصبر الجميل هو الَّذي لا شكوى معه، إنَّما معه الرضا، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

الأنبياء لا يعلمون من الغيب إلَّا ما أعلمهم الله به:

قال لهم: أنا أعرف أنَّ أنفسكم الأمَّارة بالسوء هي الَّتي سوَّلت لكم شيئًا، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، وهو في هذه المرَّة صادق في تهمته لهم، وإن كان لا يعلم ما الَّذي سوّلتْه أنفسهم، ما هو هذا الشيء؟ هل قتلوه؟ هل تركوه يهلك في البريَّة؟ إنَّما هناك أمر، أحسَّ به ولكن لا يعرفه، حتَّى وإن كان نبيًّا.

ولكن في المرَّة الثانية لما قال لهم سيِّدنا يوسف: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٥٩] قالوا لأبيهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣]، وقال لهم يعقوب: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، وسيدنا يوسف كاد مكيدته ليأخذ أخاه إلى جانبه، فرجعوا إلى أبيهم وقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ۞ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۞ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ٨١ ـ ٨٣] هنا تهمته ليست صحيحة.

وهذا يدل على أنَّ الأنبياء لا يعلمون من الغيب إلَّا ما أعلمهم الله به، في المرَّة الأولى كانت تهمته صحيحة، وإنَّما في هذه المرَّة لم

QaradawiBooks.com

تُسوِّل لهم أنفسهم أمرًا، الأمر كان بأيدي غيرهم، هم لم يُدبِّروا شيئًا، التدبير من يوسف؛ ليأخذ أخاه، فيعقوب اتَّهمهم في ظاهر الأمر، ولكن كانت التهمة غير صحيحة، وقال: لا بدَّ أنكم فعلتم شيئًا مثل ما فعلتم مع أخيه من قبل، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

كان يعقوب مع الله دائمًا، حينما قال: هل آمنكم عليه إلَّا كما أمنتكم على أخيه من قبل؟ قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، ولما قالوا له: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۞ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ـ أي: عهدًا أن تعيدوا لي أخاكم ـ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۞ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٥ ـ ٦٧].

خوف يعقوب على أبنائه:

قيل: خشي عليهم العين، لكونهم أحد عشر ولدًا لرجل واحد. وقيل: خاف عليهم من الأمن، من الناحية السياسيَّة. أن يُتهموا بما يُعرف الآن بقلب نظام الحكم، فقال لهم: ادخلوا من أبواب متفرقة، حتَّى لا تُلفتوا الأنظار، ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾، والله أعلم.

القرآن لم يُبيِّن لنا ماذا خاف عليهم يعقوب، إنَّما رأى أن تفرُّقهم خير لهم، ثمَّ قال لهم: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧] دائمًا يرد الأمر إلى الله ﷻ.

وهنا حينما قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

QaradawiBooks.com

الصبر الجميل:

الصبر الجميل، هو: الَّذي لا شكوى معه. يعني لا يشكو الإنسان إلى النَّاس، وإنَّما يشكو إلى الله، ولا مانع من هذا؛ ولذلك نجد سيِّدنا يعقوب شكا إلى الله، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ﴾ [يوسف: ٨٦]، ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾، يعني يوسف وأخيه.

وكأنه على الرغم من هذه السنين الطويلة الَّتي ذهب فيها يوسف لم ييئس سيِّدنا يعقوب؛ عنده هاجس أن يوسف لا يزال حيًّا؛ فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾. و«عسى» للرجاء، فهو يرجو من فضل الله ورحمته أن يُجمِّع الشمل بعدما تفرَّق، وأن يجمع الأولاد مع أبيهم مرَّة أخرى.

طبعًا كان يوسف صبيًّا، رموه إخوته في الجبّ، والسيَّارة أدلوا دلوهم وأخذوه، وكان حينذاك صغيرًا، ثمَّ كبر حتَّى راودته الَّتي هو في بيتها عن نفسه، ودخل السجن بضع سنين، ثمَّ حكم سبع سنين الخصب، ثمَّ سبع سنين الجدب، فهذه سنين طويلة، ومع هذا لم ييئس يعقوب، بل قال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وحينما قال يعقوب: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾ تذكَّر حبيبه يوسف، ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ۝ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٤، ٨٥] ستظل تذكر يوسف؟ لم تُنسِك هذه السنون الطويلة؟ الشاعر يقول:

اختلافُ النَّهارِ واللَّيْلِ يُنسِي(١)

(١) قاله شوقي في سينيته، انظر: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (٤٥/٢).

QaradawiBooks.com

الشكوى إلى الله ﷻ:

وقد مضت ليال وأيام وسنون وعقود، ومضى هذا الزمن الطويل ولا تزال تذكر يوسف حتَّى تكون حرضًا أو تكون من الهالكين؟ قال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]، أنا لا أشكو إليكم، إنَّما أشكو بثي وحزني إلى الله.

الشكوى إلى الله لا مانع منها، بعض النَّاس يقول: لا تشتكي حتَّى ولا إلى الله، كما قال أحد الشعراء:

وَيَمْنَعُنِي الشَّكْوَى إِلَى النَّاسِ أَنَّنِي عَلِيلٌ ومَنْ أَشْكُو إِلَيْهِ عَلِيلُ
وَيَمْنَعُنِي الشَّكْوَى إِلَى اللهِ أَنَّه عَلِيمٌ بِمَا أَشْكُوهُ قَبْلَ أَقُولُ[1]

علمه بحالي يغني عن شكواي وسؤالي؛ فأنا لا أشكو، لا إلى النَّاس ولا إلى الله، ولكن الشكوى لغير الله مذلة، إنَّما الشكوى إلى الله لا حرج فيها. النبي ﷺ بعدما رجع من الطائف قال: «**اللهمَّ إنِّي أشكو إليك ضعف قوَّتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على النَّاس، يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربِّي**»[2].

سيدنا أيُّوب شكا إلى ربِّه، ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

لا مانع أن يشكو الإنسان إلى الله، إلى من يشكو الإنسان إذا لم

---

(١) من شعر الأمير تميم بن المعز. انظر: زهر الآداب وثمر الألباب (٤٨٢/٢)، نشر دار الجيل، بيروت.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٧٣/١٣)، وفي الدعاء (١٠٣٦)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٨٣٩)، وقال الهيثمي (٩٨٥١): فيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١١٨٢)، عن عبد الله بن جعفر.

QaradawiBooks.com

يشـــكو إلى ربِّه؟ الإنســـان بطبيعته في حاجة إلى أن يشـــكو، كما قال الشاعر[١]:

وَلَا بَدَّ مِنْ شَكْوَى إِلَى ذِي مُرُوءَةٍ يُوَاسِـــيكَ أَوْ يُسْـــلِيكَ أَوْ يَتَوَجَّعُ

يطمئنُّ قلبك بمجرَّد أن تجد من يشاركك في مأساتك إذا كان هذا ذا مروءة. الإنسان في حاجة إلى أن يشتكي إلى الله، وخاصَّة إذا ضاقت به الحال، كما قال الشاعر أيضًا:

شكوتُ وما الشكوى لمثليَ عادةٌ ولكنْ تفيضُ الكأسُ عِنْـــدَ امتلائِها[٢]

فأولى لك أن تشـــكو إلى ربِّك، الَّذي خلقك فســـوَّاك، والَّذي يعلم سرَّك ونجواك، والَّذي لا يخفى عليه خافيةٌ من أمرك، اشتكِ إليه.

ومن هنا وجدنا يعقوب عليه السلام يشكو بثّه وحزنه إلى الله، ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوســف: ٨٦]، كان يعقوب صبورًا، ومع الصبر الأمل والرجاء، لم يتسرب اليأس إلى قلبه أبدًا؛ ولذلك قال لبنيه: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٦، ٨٧]، وفعلًا أراد الله أن يفرّج الكربة، ويكشف الغمّة، ويزيل هذه المحنة، ويرد الابنَ إلى أبيه، فكان في هذه الرحلة أن انكشف القناع عن شـــخصيَّة يوســـف، وقالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

---

(١) وهو بشار بن برد، ذكره النويري في نهاية الأرب في فنون الأدب (٨٠/٣)، نشر دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ.

(٢) من شعر أبي تمَّام، كما في شرح ديوانه للتبريزي (٤٢٣/٢)، تحقيق راجي الأسمر، نشر دار الكتاب العربي.

QaradawiBooks.com

وقال يوسف: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٣ ـ ٩٥].

رائحة يوسف:

يعقوب يقول لبنيه: أنا أشمُّ رائحة يوسف، ولكنِّي أخشى من كلامكم، أخشى أن تقولوا: أنت تخرف وتهذي. ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤]، وفعلًا قالوا ما توقعه يعقوب، ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] طبعًا الضلال هنا ـ كما في أوَّل السورة ـ ليس الضلال الديني، وكما في قول النِّسوة في المدينة: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]، وإنَّما الضلال هنا: بمعنى غيبة العقل الحصيف، وسوء الرأي، أو الخطأ في الرأي.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦]، ألقى البشيرُ القميصَ على وجه يعقوب عليه السلام فارتدَّ بصيرًا، ذهب كل شيء، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦]. يعقوب عليه السلام كان يستشف الغد من وراء الغيب، قد لا يعلم التفاصيل، قد لا يعلم الصورة واضحة محددة، إنَّما لديه إحساس أن شيئًا ما سيحصل، وأن يوسف قريب، ولكنَّه لم يعرف ما الَّذي سيحصل.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۝ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٦ ـ ٩٨].

QaradawiBooks.com

واستغفر لهم، وجاء يعقوب وامرأته وأولاده، ودخلوا مصر آمنين مطمئنين، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۞ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: ٩٩، ١٠٠]، يعيده إلى المشهد الأوَّل: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] تحقَّقت هذه الرؤيا، ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾، فخرُّوا له سجَّدًا وانحنَوا له، ولم يكن الانحناء في زمنهم ممنوعًا كما هو ممنوع في ديننا، قيل لرسول الله ﷺ: يا رسولَ الله، أحدنا يلقى صديقه أينحني له؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «**لا**». قال: فيلتزمه ويقبله؟ قال: «**لا**». قال: فيصافحه؟ قال: «**نعم، إن شاء**»[1]. فالانحناء لم يكن ممنوعًا في ذلك الوقت، لا في شريعة يعقوب، ولا في شريعة يوسف عليهما السلام.

(١) رواه أحمد (١٣٠٤٤)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في الاستئذان والآداب (٢٧٢٨)، وحسَّنه، وابن ماجه في الأدب (٣٧٠٢)، عن أنس.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الخامس
لمحات عن شخصيَّة سيِّدنا يعقوب عليه السلام

يعقوب الأب والإنسان:

يقول الله تعالى في أوَّل سورة يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، ويقول الله عز وجل في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

فقصة يوسف عليه السلام هي أحسن القصص، وهي قصَّة فيها عبرة لذوي العقول وأولي الألباب وأرباب البصائر، وهي قصَّة الحياة.

ووقفتنا اليوم عن شخصيَّة سيِّدنا يعقوب عليه السلام، وليس نبي الله يوسف عليه السلام، فإن أبطال هذه القصَّة ـ كما في التعبيرات الحديثة ـ أولهم سيِّدنا يوسف عليه السلام، وهو البطل الأول، ومن أبطالها وظهر من أولها هو سيِّدنا يعقوب عليه السلام، إلَّا أنَّه ظهر في أوَّل القصَّة وفي آخرها، واختفى سنوات عدة، من قصَّة يوسف، منذ بيع يوسف بثمن بخس، وكان الَّذي اشتراه رجلًا من مصر هو عزيز مصر.

ومن هذه الفترة اختفى يعقوب، ولم يظهر إلَّا بعد سنوات عدَّة، حوالي ما يقرب من ثلاثين سنة، إذا قدَّرنا أن يوسف كان في السادسة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من عمره، بحيث إنَّه كان طفلًا رُمي في الجــبّ فلا يمكن أن يزيد عن هذا العمر، وربَّما لو كان أكبر من هذا، لولَّى هاربًا فرارًا منهم.

وحينما راودته المرأة عن نفســها، لا بدَّ أن يكون قد بلغ السادســة عشرة أو الثامنة عشرة، بلغ مبلغ الرجال.

ثم دخل السجن بضع سنين ســبعة أو تسعة، ثمَّ جاءت السبع سنين الخِصبة، الَّتي كان فيها الخصوبة، ثمَّ بدأت بعد ذلك ســنوات الجدب، الَّتي جــاء فيها إخوته إلــى مصر، ليأخــذوا منها المؤونــة، عن طريق المقايضة والتبادل، ففي هذه السنوات بدأ يظهر يعقوب من جديد.

شخصيَّة يعقوب:

نجد سيِّدنا يعقوب كما تظهر في السورة، شخصيَّة النبي، وشخصيَّة الإنسان، وشخصيَّة الأب.

فنجد شــخصيَّة النبيّ، حينما قال له يوسُف في أوَّل القصَّة: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، فأدرك يعقوب بما آتاه الله من النبوَّة والوحي، أن هذا يبشِّــر بمســتقبل عظيم ليوسف، الشمس والقمر والنجوم تسجدُ له.

فقال له: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ [يوسف: ٥]، وهنا أيضًا عاطفة الأبــوة، ينصحه بكتمان هذا الأمــر، وهنا نتذكر قول النبي ﷺ: «**اســتعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محســود**»[1]. فأحيانا تقتضي الأمور أن تكتمها حتَّى عــن أقرب النَّاس

(١) سبق تخريجه صـ١٣٣.

QaradawiBooks.com

إليك، فنهى يعقوب ابنه عن ذكرها لإخوته، لأنَّهم سيشعرون من هذه الرؤيا أنَّه سيكون لك شأن، فيكيدوا لك كيدًا ويحسدوك، فالأفضل أن تكتم هذا في نفسك؛ ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف: ٥]، حتَّى إنَّه يُفسد بين الأخ وإخوته.

ونجد شخصيَّة يعقوب النبي حين قال له: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ أي: تفسير الأحلام وتعبير الرؤى، ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [يوسف: ٦].

أثر العاطفة الزائدة في حب يوسف:

ثمَّ يأتي دور يعقوب الإنسان، الأب الإنسان، أحبَّ يوسف وأخا يوسف أكثر من سائر إخوته، ومع أنَّه يوجد له أكثر من أحد عشر ولدًا إلَّا أنَّه اختصَّ يوسُف وأخاه ـ الَّذي يسمُّونه في الإسرائيليَّات «بنيامين» ـ بمزيد من الحب، وهو في الحقيقة معذور في هذا، فالصغير بطبيعته محبوب، وخاصَّة إذا كان آخر العنقود، فأحبه أبوه، وزاد على هذا أن أمهما توفيت، فهو يريد أن يعوِّضهما عن أمهما، فازداد عطفًا عليهما، وحبًّا لهما، وهذه طبيعة البشر.

ولكن هذا علَّمنا درسًا مهمًّا، أنَّ هذه العاطفة الزائدة من يعقوب، سبَّبت مشكلة كبيرة لدى إخوته، فإخوته من الأم الأخرى العشرة، قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ [يوسف: ٨]، أي: نحن القوة، نحن العدد، نحن من يعمل ويكسب، ويوسف لا يزال صغيرًا، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨].

QaradawiBooks.com

المراد بوصف يعقوب بالضلال المبين:

والضلال هنا ليس الضلال الديني، وإلا كفروا والعياذ بالله، وإنَّما يقصدون الضلال في الرأي، يقصدون أنَّه لم يُقدِّر أنَّنا أصحاب القوة، وأصحاب العدد. والضلال بهذا المعنى ورد في هذه السورة ثلاث مرات، هذه هي الأولى، أمَّا الثانية: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]، ليس ضلالًا دينيًّا، لأنَّهم لا يفكرون في الدين، وإنَّما ضلال تفكير، أرادوا أنَّها تركت رئيس الوزارة وأحبَّت خادمها. والثالثة: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، أي: في خطئك القديم وهو إفراطك في محبته ورجاء لقائه على بُعد العهد.

﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩]، إذا أردتم أن تأخذوا حب وقلب يعقوب، تخلَّصوا من هذا الولد، الَّذي أخذ عقل أبيه وود أبيه.

الحسد من أخطر الآفات القلبيَّة:

وتصوروا كيف يصل الشر بالإنسان إلى حد التفكير في القتل، والتدبير للقتل، فالحسد آفة من الآفات القلبيَّة الخطيرة، ولذلك قالوا: إن أوَّل جريمة حدثت في السماء، وأول جريمة وقعت في الأرض كان سببهما الحسد، فأول جريمة وقعت في السماء كانت من إبليس، حيث حسد آدمَ على سجود الملائكة له، فحسده، وأول جريمة وقعت من ابن آدم، حين قتل الأخ الشرير أخاه الطيب، ﴿قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْأَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، حسده لأن الله تقبل قربانه، ولم يتقبل منه.

QaradawiBooks.com

فالحسد جعل الإخوة يفكرون في قتل أخيهم، وسبب هذا: أن يعقوب خصَّ أخاهم بمزيد من العواطف الجيَّاشة، الَّتي لا يصبر عليها النَّاس عادة.

أهميَّة التسوية بين الأولاد:

وهذا يعطينا درسًا في أهميَّة التسوية بين أولادنا، وقد كان سلف الأُمَّة يُسوون بين أولادهم حتَّى في القُبُلات، إذا قبَّل ولدًا يقبل الثاني، فالطفل عنده إحساس، وعنده إلهام بالغريزة والفطرة، عندما يراك تأخذ أخاه وتدلله فإنَّه يغلي قلبه، وتظنه جاهلًا، لا، إنَّه يفهم ويحس ويشعر.

فأخطأ يعقوب هذا الخطأ، الَّذي قصَّه القرآن علينا لنتعلم ونتربى ونستفيد، فهذه القصص ليست لمجرد التسلية، بل كما قال الله في نهاية السورة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ [يوسف: ١١١].

بدأ الإخوة يفكرون ويدبِّرون، ماذا يفعلون؟ لأن أباه لا يتركه أبدًا، فخطَّطوا خطَّة يستدرجونه بها، فذهبوا إلى يعقوب عليه السلام، وقالوا له: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ۝ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ۝ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: ١١ ـ ١٤].

ظلوا وراءه حتَّى أقنعوه، أو على الأقل رقَّ قلبه فتركه يذهب معهم، ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]، رموه في بئر مهجورة، وقالوا: لعلَّ أحد المسافرين على الطريق يأخذوه من البئر، ونتخلَّص منه للأبد.

QaradawiBooks.com

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ﴾ [يوسف: ١٦]، يسمُّونها دموع التماسيح، وعملوا تمثيلية على يعقوب، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۞ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾ [يوسف: ١٧، ١٨]، يعني مفضوح كذبه، فالقميص كان سليمًا غير مُقطَّع، فهل جاء الذئب فخلع عنه ثيابه ثمَّ أكله، أو أنَّه أكله دون أن يمس ثيابه بأذى، وكما يقولون: المجرم دائمًا يترك وراءه ما يدل على جريمته. ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

النفس الأمَّارة بالسُّوء هي الَّتي سوَّلت لكم ما فعلتموه بأخيكم، وليس أمامي إلَّا الصبر، ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، وهنا انطوت هذه الصفحة، ولم يأت ذكرٌ ليعقوب عليه السلام، إلَّا حينما أصبح يوسُف عليه السلام عزيز مصر. أصبح في يده الماليَّة والزراعة والتخطيط، بعد أن قال للملك: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۞ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٥، ٥٦]، فبعد أن كان تحت الأرض سجينًا، مكَّن الله له فيها وغدا مكينًا أمينًا.

هكذا سُئل الإمام الشافعي: أيهما أفضل للمؤمن: أن يمكَّن، أم يُبتلى؟! قال: لا يُمكَّن حتَّى يُبتلى، وإنَّ الله ابتلى يوسف ثمَّ مكَّن له[1].

والله ابتلى يوسف بمحن شتّى، محنته مع إخوتِه، ومحنته مع امرأةِ العزيز، ومحنته في السجن، ولكنَّ الله عزوجل أخرجه من هذه المحن كلها، معافى ومنتصرًا، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

(١) إحياء علوم الدين (٢٦/١).

غير مخصص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ظهور شخصيَّة يعقوب من جديد:

بدأت تظهر سيرة يعقوب عليه السلام، حينما جاء إخوته إليه، ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨]، هو عرفهم لأنَّهم كانوا كبارًا، فلا زال شكلهم معروفًا، ثمَّ إنَّ العشَرة معًا، فلو أخطأ في أحدهم، لا يخطئ في الكل، وهم طبعًا لا يعرفوه، ولم يخطر على بالهم أن يكون هذا هو يوسف الَّذي رُمي في الجب، إذ كيف يأتي إلى مصر، إلخ.

وأخذ يتكلم معهم، ويبدو أنَّهم أفصحوا له أنَّ لهم أخًا، فاستمسك يوسف بهذا وقال: ائتوني بهذا الأخ، ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۞ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ [يوسف: ٥٩ ـ ٦١].

ولما رجعوا إلى يعقوب، قالوا له: ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۞ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٣، ٦٤]، ذكَّرهم بما حدث مع يوسف، الَّذي وعَدُوا أيضًا بحفظه، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، أخذوا يُلحُّون على يعقوب ويقولون له: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: ٦٥]، وأخذوا يحدِّثونه عن الرجل الَّذي أكرمهم، وما زالوا بأبيهم حتَّى قال لهم: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: عهدا مُوَثَّقًا مؤكَّدًا، ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾، إلَّا أن يكون هناك أمر خارج فوق طاقتكم، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أي: أعطوه العهود والمواثيق، ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦].

ثم قال لهم بلسان الأب وروح الأب وعاطفة الأب: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟

QaradawiBooks.com

مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، أكثر المفسرين قالوا: إنَّه خاف عليهم العَيْن، فهم عشرة من الرجال، كلهم من أسرة واحدة، وإخوة، ولا مانع أن يأخذ الإنسان بالأسباب، ليتوقَّى العين، كما يتوقَّى أيَّ سبب من أسباب الشرِّ، والوقاية خيرٌ من العلاج. والأخذ بالأسباب لا يُنافي التوكُّل على الله.

وبعضهم قال: إنَّه خشي عليهم من الأوضاع السياسيَّة، أن يقال: ما هؤلاء العزوة، والعدد، لا بدَّ أن يكون لهم هدف. وأيًّا كان هو أراد أن يجنِّبهم الشرَّ قدر المستطاع، ولكن ما قضى الله كان، وحدث ما حدث، رغم تحذير سيِّدنا يعقوب عليه السلام.

وبعد ذلك أخذ يوسف أخاه بحيلته المعروفة، حيث وضع صُواع الملك في رحل أخيه حتَّى يؤخذ به.

ورجع إخوة يوسف إلى أبيهم يقولون له: ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١]، لم نكن نعلم ما سيحصل، لا ندري ما يحدث في المستقبل، ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَا ـ اسأل القافلة، ما كذَبنا عليك ـ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۞ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ٨٢، ٨٣]، وهذا يدلُّنا على أنَّ الأنبياء لا يعلمون الغيب، فالمرة الأولى كان كلامه صحيحًا حيث سوَّلت لهم أنفسهم أمرًا، أمَّا هذه المرَّة فهم لم يفعلوا شيئًا في الحقيقة، لم تسوِّل لهم أنفسهم سوءًا، ولكن قَدَر الله هو الَّذي حدث، فحكم يعقوب عليه السلام على الأمور بظواهرها، وقال: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌ﴾ استعان

QaradawiBooks.com

على القضاء في الأوَّل وفي الآخر بالصبر الجميل، والصبر الجميل هو الَّذي لا شكوى معه. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]، يعني رغم هذه السنين الطويلة لم ييئس من عودة يوسف عليه السلام مرَّة أخرى.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۝ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٤، ٨٥]، ألا تنسى هذا الموضوع، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

اصطحاب الأمل:

ثم قال لهم: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، لا بدَّ للإنسان أن يصطحب معه الأمل دائمًا، مهما اشتدَّت به الشدائد، ومهما ضغطت عليه المصائب والخطوب، يظل مشرقًا بنور الأمل، يظل قلبه موصولًا بالرجاء في رحمة الله، ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وفعلًا حدث في هذه المرة، وهذه الرحلة أن أفصح لهم يوسف عن نفسه، وقال لهم: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٣، ٩٤]، حينما كانت العير قادمةً من مصر إلى الشام، وبينهما ما شاء الله من المسافة، قال يعقوب: أنا أشمُّ والله رائحةَ يوسف، لولا أنِّي أخاف من كلامكم، ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، رأيك خاطئ.

QaradawiBooks.com

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٦، ٩٧]، وأظنُّ أنَّ الَّذين قالوا له: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] هم أحفاده؛ لأن أولاده كلهم كانوا في مصر عند يوسف، ولا يمكن أن يتخلَّف منهم أحد، حتَّى لا يُحرموا الكيل كاملًا، وهذا يدل على تفاوت الأجيال، ونظراتها إلى الأمور، واختلاف الأفكار والنظرات والمفاهيم والتقاليد، حتَّى جاءت القافلة وألقوا قميص يوسف عليه، فعاد بصيرًا.

بعض النَّاس يحلِّل هذا تحليلات نفسية، وغيرها، ولكن في النهاية هي آية من آيات الله، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٦، ٩٧]، والجد يقال له أب أيضًا، وهنا قال الإخوة والأحفاد جميعًا له: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۞ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٧، ٩٨].

وذهب يعقوب وأولاده إلى يوسف وهو عزيز مصر، وفتح لهم الأبواب، وفرش لهم البساط الأحمر، وقال: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]، لا خوف عليكم في هذا البلد، ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وزوجة يعقوب كانت خالة يوسف، ولذلك اعتُبرت أُمَّه، ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]، تحقَّقت الرؤيا، الشمس والقمر هما يعقوب وزوجته، والأحد عشر كوكبًا هم الإخوة، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، كان يعقوب من أهل البادية، لم يكونوا من

QaradawiBooks.com

أهل الحضر، ولم يقل لهم: أخرجني من الجب، حتَّى لا ينكأ الجراح القديمة، وهذا من فضل يوسف ولطفه، ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ [يوسف: ١٠٠]، أراد أن ينسب هذا إلى الشيطان ليخفِّف من وقع الكلام على إخوانه، يريد أن يزيل الجفوة، ويردم الفجوة، ويزيح الماضي بآلامه وآهاته وجراحه، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

هذه لمحات عن شخصيَّة سيِّدنا يعقوب عليه السلام الَّذي قال الله عنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨]، وقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۞ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۞ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٧].

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس السادس
تمكين الله ليوسف عليه السلام

استمعنا في هذه الليلة المباركة من ليالي شهر رمضان المبارك إلى سورة يوسف، وفيها يحكي الله أن يوسف عليه السلام فسر للملك الرؤيا الَّتي رآها، قال الله تعالى:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۞ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۞ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٧ ـ ٤٩].

عمّت مصر وما حولها مجاعة خانقة. يبدو أن ماء النيل قد نقص لعدّة سنوات أو كان يوشك أن ينقص، وقد رأى الملك رؤياه العجيبة، وهيّأ الله «يوسف» ليعبّر الرؤيا، وليضع الخطة، وليقوم على تنفيذها.

فقد أعلمه الله ـ ممَّا علّمه من تأويل الأحاديث ـ أنَّ مصر مقبلة على سنوات خِصبة سبع، وبعدها مثلها سبع عجاف، ثمَّ يأتي الغيث والفرج.

كان الملك قد رأى رؤيا واحتاج إلى أحد يفسرها له، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ۞ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٣، ٤٤].

QaradawiBooks.com

رأى الملك في منامه أن سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، ورأى سبع سنبلات خضر، وأخر يابسات، فسأل الملأ من حوله عن تفسيرها، فقالوا: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾، لكن الرجل الَّذي كان في السجن مع يوسف عليه السلام تذكَّر أن يوسف خير من يفسِّر الرؤيا، فقال للملك: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾، وذهب إلى يوسُف في السجن وطلب مقابلته، وقصَّ عليه رؤيا الملك، قائلا: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦].

ففسَّر يوسف عليه السلام الرؤيا، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۝ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٧ ـ ٤٩].

فأمر الملك أن يُؤتى بيوسف، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ [يوسف: ٥٠]، عندما جاء الأمر الملكي بالإفراج عنه، واستدعائه لمقابلة الملك بشخصه، فلم يطر لبُّه لهذا النبأ، ولم يفقد ثباته، رغم مرور السنين الطوال عليه وهو يعاني ظلم السجن وظلامه، بل طلب ـ قبل كلِّ شيء ـ التحقيق فيما نُسب إليه زورًا وبهتانًا، لتظهر للنَّاس براءة ساحته، ونصاعة صفحته، وهذا ما حدث بالفعل، قال يوسف لرسول الملك: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]، وفعلًا حقَّق الملك في الأمر وسأل النسوة: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١]، وهنا اعترفت امرأة العزيز بالحقيقة أمام الجميع: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

﴿بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥١ ـ ٥٣]، فصفحة يوسف عليه السلام بيضاء ناصعة.

وهكذا لم يبرح يوسف عليه السلام سجنه حتَّى ثبتت براءته، وعادت إليه كرامته، وازداد الملك إعجابًا به، وتقديرًا له، قبل التحقيق قال: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ﴾ فحسب. أمَّا الآن فهو يقول: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾. ممَّا يدل على زيادة اهتمام وتكريم. ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

خطة يوسف لإنقاذ مصر من المجاعة:

طلب يوسف عليه السلام من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، سواء كانت خزائن النقود، أو خزائن الحبوب والغلال والثمار، يعني يكون في يده التموين والاقتصاد والماليَّة، وخصوصًا في هذه الأزمة الخانقة، ولذا قال: ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، فهذه الأزمة تحتاج إلى رجل حفيظ أمين، لم يكتف يوسف بتفسير الرؤيا، بل وضع خطة مكوَّنة من خمس عشرة سنة، لإنقاذ مصر وما حولها من البلاد من القحط والشدَّة وخطر المجاعة، وهكذا شاء الله تعالى ليوسف عليه السلام أن يفسِّر الرؤيا للملك، وأن يضع الخطَّة بنفسه لتحقيقها، وأن يقوم بنفسه على تنفيذها، ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

مؤهلات المنصب:

ذكر يوسف عليه السلام سببين يؤهّلانه للمنصب، وهما: الحفظ والعلم. والمراد بالحفظ: الأمانة الَّتي تجعله يحفظ ما اؤتمن عليه من أموال وأعمال. والعلم: يراد به: المعرفة والخبرة بما يحتاج إليه هذا المنصب

QaradawiBooks.com

المالي الاقتصادي الإداري من خبرة بأمور الماليَّة والاقتصاد والإدارة والتخطيط، وخصوصًا في زمن الأزمة الاقتصاديَّة الكبيرة الَّتي تتوقَّعها مصر بعد سبع سنوات، وكيف يدَّخر من سنوات الخصب لسنوات القحط.

ولا يمكن أن يراد من صفة «عليم» الَّتي ذكرها يوسف: أنَّها تتعلق بعلم الدين. إذ لا دخل له في الترشيح للولاية على خزائن الأرض.

استنبط العلماء من قول يوسف للملك: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾: مشروعيَّة طلب الإنسان للولاية إذا علِم أنَّه لها أهل، وأن لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح، وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى ذلك فرضًا متعينًا عليه.

كما أخذ ابن تيمية وغيره من الآية الكريمة جواز تولِّي المسلم بعض المناصب والأعمال لسلطان كافر أو ظالم، إذا كان يرى في نفسه أنَّه قادر على إقامة العدل، وإزالة الظلم، ومقاومة الفساد، أو على الأقل تقليل شرهما، بقدر المستطاع[1].

ولذلك نجد هنا أنَّ يوسف عليه السلام واجه هذا الأمر بخطَّة من ثلاثة عناصر:

في السنوات السبع الأولى: زيادة وتنمية متتابعة ومستمرة للإنتاج، تحسُّبًا للغد، وتهيّئًا لاحتمالات المجاعة المقبلة، وهنا قال لهم: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾، الاجتهاد والزراعة الدائبة لزيادة الإنتاج، ثمَّ ما يُنتج لا يؤكل منه إلَّا القليل ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾، يُخزّن في سنبله بهذه الطريقة، حتَّى يبقى أطول مدّة ممكنة،

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٠/٣٥٧ ـ ٣٦٠).

QaradawiBooks.com

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾، وهذا ما يسمّيه النَّاس الآن: ترشيد الاستهلاك، أنتج كثيرًا واستهلك قليلًا لتواجه الأزمة.

وفي السنوات السبع الأخرى: يكون التخطيط، والأكل بحساب والاستهلاك بمقدار، ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾، وكأنّ السبع السنين العجاف سباع فاغرة أفواهها، لذا ينبغي أن يكون الاستهلاك هنا مقننًا

بحساب ومقدار، وليس مفتوحًا على مصراعيه، ومعنى قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ يشير إلى أمر مهم، أي: أحصنوا واحفظوا وادخروا بعض البذور، حتَّى إذا جاء الماء وجدتم شيئًا تبذرونه، وإلّا ما قيمة أن يأتي الماء وليس عندك بذر؟

العمل بالمصالح الشرعيَّة:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧]، هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعيَّة، الَّتي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال، فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يفوت شيئًا منها فهو مفسدة، ودفعه مصلحة، ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد النَّاس إلى مصالحهم الدنيويَّة، ليحصل لهم التمكُّن من معرفة الله تعالى وعبادته، الموصلتين إلى السعادة الأخروية.

من النَّاس من يتصوَّرون أو يُصوِّرون الدِّين في موقف المعارض أو المناقض لفكرة التخطيط العلمي للمستقبل. وهذا من أثر الفكرة القديمة الَّتي جعلت العلم مقابلًا للإيمان، فهما ضدان لا يجتمعان، أو خطان متوازيان لا يلتقيان.

QaradawiBooks.com

والحقيقة أنَّ فكرة الدين في جوهرها قائمة على أساس التخطيط للمستقبل. ففيه يأخذ المرء المتدين من يومه لغده، وبعبارة أخرى من حياته لموته، ومن دنياه لآخرتــه، ولا بد له أن يخطط حياته، ويضع لنفسه ـ في ضوء الوحي ـ منهاجًا يوصله إلى الغاية، وهي رضوان الله ومثوبته.

وفي القرآن الكريم قصَّة جعلهــا الله عبرة لأولي الألباب، وهي قصَّة نبي الله يوســف عليه السلام، وفيها يذكر القرآن لنا مشــروع تخطيط للاقتصاد الزراعي لمدة خمسة عشر عامًا، لمواجهة أزمة غذائية عامَّة.

عرف يوســف ـ بما ألهمــه الله، وعلمه من تأويــل الأحاديث ـ أنَّها ستصيب المنطقة كلها، وقد اقترح يوسف عليه السلام مشروع الخطة، ووكل إليه تنفيذها، وكان فيها الخير والبركة على مصر وما حولها.

واجه يوسف عليه السلام الأزمة بهذه الأمور:

١ ـ زيادة الإنتاج والإشراف عليه.

٢ ـ تقليل الاستهلاك وترشيده.

٣ ـ عدالة التوزيع: أنَّه لا يــدع الأغنياء يأخذون ما طاب لهم، ويدع الفقراء ضائعين، لا، لا بدّ من عدالة التوزيع، بحيث يســتطيع الفقير أن يصل إليه ما يحتاج إليه، ولو لم يكن معه ثمنه.

ولهذا حينما جاء إخوته من بعيد، ولــم يكونوا يعرفونه أنّه أخ لهم، ولكن نادوه فقالــوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨] هنا للصدقة مكانها ومجالها.

QaradawiBooks.com

الابتلاء طريق للتمكين:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٦، ٥٧]، سُئل الإمام الشافعي: هل الأولى للمؤمن أن يُبتلى أو يُمكَّن؟ قال: وهل يمكَّن إلَّا بعد أن يُبتَلى؟ إنَّ الله ابتلى يوسف ثمَّ مكّن له[١]. لا بدَّ أن يكون التمكين بعد ابتلاء، كما قال يوسف حينما كشف عن نفسه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، اتَّقى وصبر فلم يُضيِّع الله أجره، ومكَّن له في الأرض، وإخوته الَّذين أساؤوا إليه وظلموه احتاجوا إليه، ثمَّ اعترفوا بذنبهم: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩١]، فعفا عنهم وقال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وقد كان يوسف عليه السلام مثالًا للإنسان الحفيظ الأمين، فكان إذا أكل لا يشبع، ما كان يملأ بطنه وخزائن الأرض في يديه، فلمّا قيل له: تجوع وفي يدك خزائن الأرض؟! يردّ عليهم قائلًا: إنّي أخاف إذا شبعت أن أنسى جوع الفقراء[٢]!

ثم ذكرت لنا الآيات بعد ذلك مشهدًا من مشاهد إخوة يوسف:

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۞ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۞ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ

(١) إحياء علوم الدين (٢٦/١).

(٢) المصدر السابق (٨٥/٣).

QaradawiBooks.com

أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۞ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۞ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٥٨ ـ ٦٤].

جاء إخوته من بلاد فلسطين، والمنطقة كانت كلها في قحط، يحتاجون إلى الطعام، يوسف هو الَّذي وضع الخطة، ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾، يوسف كان طفلًا فتغير، ولكنَّهم كانوا كبارًا، فعرفهم وقال لهم: ﴿ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۞ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾.

أراد أن يأتي بأخيه وشقيقه بنيامين، وكانوا أشقاء، والعشرة من امرأة أخرى، فأراد أن يأتي بأخيه ويعيش هناك بدل أن يعيش في فلسطين وقد يؤذونه؛ وقال لفتيانه: ﴿ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ ﴾ البضاعة الَّتي جاؤوا بها ليشتروا بها، كل واحد جاء ببضاعة، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾، حتَّى نكتال ونزداد كيل بعير، هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا ولم يأخذوا منا شيئًا، فقال لهم أبوه: ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾، قالوا: إنَّا له لحافظون، كما قالوا عن يوسف.

أقسموا له أنَّهم سيحافظون عليه، ولن يُفرِّطوا فيه، وأنَّهم... وأنَّهم...، وأخيرًا ائتمنهم بعد أيمان وأقسام أقسموها له، ولما عادوا إلى يوسف آوَى

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

إليه أخاه، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ۝ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ۝ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ۝ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ۝ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ۝ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٩ ـ ٧٥].

وعمل الحيلة الَّتي أعاد بها أخاه إليه، جعل السقاية في رحله أخيه، ووُجد الصاع في رحل أخيه، فنادى مناد: ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ۝ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ۝ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ۝ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ۝ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ۝ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، الشخص الَّذي يثبت عليه الجرم يأخذونه فدية لها.

وُجد في رحله صواع الملك؛ فأصبح جزاؤه أن يؤخذ هذا الأخ إلى يوسف عليه السلام، فاحتاروا حتَّى قال كبيرهم: لن أرجع معكم؛ لا أستطيع أن أواجه أبي، ماذا أقول له؟ ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ۝ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾، اتهمهم سيِّدنا يعقوب، ولكنَّهم في هذه المرَّة لم يكونوا مخطئين، كانوا مصيبين، لم يُوحَ إليه بشيء، فقال: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾، عسى الله أن يأتي بيوسف وأخيه بنيامين وكبيرهم الَّذي بقي مع أخيه قائلًا لإخوته:

QaradawiBooks.com

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيٓ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]، ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]، لما رجع إخوة يوسف إلى أبيهم قال لهم أبوهم: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

اليأس من لوازم الكفر:

لا تيئسوا من العثور على أخيكم، فاليأس ليس من شيم المؤمنين، فالمؤمن لا ييئس أبدًا من روح الله، ولا يقنط من رحمة ربه يومًا، وإن ضاقت الدُّنْيا في وجهه، وغلِّقت الأبواب، وتقطعت الأسباب، فإن اليأس من لوازم الكفر، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، والقنوط من مظاهر الضلال، كما قال تعالى على لسان الخليل إبراهيم، ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

لا تيئس أن يكون يومك خيرًا من أمسك، وأن يكون غدك خيرًا من يومك، فإنَّ من سنن الله تعالى مداولة الأيام بين النَّاس، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وقد شاع على ألسنة النَّاس من قديم: الدهر قلّب، والدهر يومان: يومٌ عليك، ويومٌ لك، ودوام الحال من المحال.

وكم رأينا بأعيننا أناسًا انتقلوا من حال إلى حال: من فقر إلى غنى، ومن غنى إلى فقر، ومن ذلٍّ إلى عزٍّ، ومن عزٍّ إلى ذلٍّ، والله تعالى يقول: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، ويقول سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦].

QaradawiBooks.com

يقول ابن مسعود: لو دخل العسر جُحْرًا لتبعه اليسر حيث كان[١].

قال الشاعر:

ولربَّ نازلــةٍ يضيقُ بهــا الفتى ... ذرعًــا وعنــد اللهِ منهــا المَخْرَجُ
ضَاقَتْ فلمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُها ... فُرِجَتْ وكُنْتُ أَظُنُّهــا لا تُفْرَجُ[٢]

وقال آخر:

اشْــتَدِّي أَزْمَــةُ تَنْفَرِجِــي ... قَــدْ آذَنَ لَيْلُــكِ بِالْبَلَــجِ[٣]

المهمُّ أنَّ إخوة يوسف ذهبوا إلى يوسُف يلتمسون الميرة والمؤونة، وقد تردَّدوا على مصر مرَّة بعد مرَّة، وقالوا له في المرَّة الأخيرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨]، هنا كشف لهم يوسف عن نفسه، ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ۝ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٨٩، ٩٠].

ارتباط التَّقوى بالصبر:

التَّقوى والصبر معنيان أحدهما منوط بالآخر، لا يتمّ كل واحد منهما إلَّا بصاحبه، فمن كانــت التَّقوى مقامه كان الصبر حالــه، فصار الصبر أفضل الأحوال، من حيث كانت التَّقــوى أعلى المقامات، إذ الأتقى هو الأكرم عند الله، والأكرم على الله هو الأفضل.

(١) رواه ابن الجعد في مسنده (١٠٩٩).
(٢) أمالي المرتضى (٤٨٦/١).
(٣) المنفرجتان صـ ٤٣.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

التَّقوى والصبر هما اللذان ارتفعا بيوسف إلى أرفع المقامات. والتَّقوى معنى جامع لكل خير، والصبر معنى داخل في كل بر، فإذا اجتمعا في الإنسان كان من المحسنين، والله لا يضيع أجر المحسنين.

إنَّ الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، النبي ابن النبي ابن النبي ابن النبي، لم يغنِ عنه كرم أصله ولا عراقته في النبوة، إنَّما أغناه ونفعه التَّقوى والصبر.

وأي صبر؟ إنَّه صبر أرفع درجة من صبر أبيه يعقوب من قبل، وصبر أيُّوب من بعد، ولا سيَّما صبره عن الاستجابة إلى امرأة العزيز، برغم أنَّ كل الظروف من حوله تيسِّر له طريق الإغراء، وتدفع إليه دفعًا. ولكنَّه رفض بشمَم، واستعلى بإيمان، وقال لها وقد خرجت بالتصريح عن التلميح، بعدما هيَّأت الأسباب، وغلَّقت الأبواب: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

ومرة أخرى تهدّده أمام مجموعة من نساء القصور، وتقول لهُنَّ في حنق وغيظ: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

فماذا كان موقف يوسف إزاء الإغراء المُهدِّد، والتهديد المغري؟! لقد وجد نفسه مخيرًا بين محنتين: محنة في دينه: أن يزني ويكون من الفاسقين.. ومحنة في دنياه: أن يسجن ويكون من الصاغرين.

فاختار الثانية على الأولى، وضحَّى بدنياه من أجل دينه، وبحريته من أجل عقيدته، وقال قولته المعروفة يناجي بها ربه: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

لقد شاء الله سبحانه لأنبيائه أن يتألموا من صغرهم، لم نر نبيًّا ولد وفي فمه ملعقة من ذهب كما يقولون، الأنبياء جميعًا عانوا من يوم الميلاد.

يوسف عليه السلام عُذّب كثيرًا في حياته، حسده إخوته، وألقي يوسف في الجب كما تلقى الأحجار، وبيع كما تُباع الشياه، وخدم في البيوت كما يخدم العبيد، واتُهم بالفاحشة كما يُتهم الفسقة، وأُلقي في السجن بضع سنين كما يُلقى المجرمون، ولكن بعد هذا الابتلاء مكَّنه الله في الأرض، وصار عزيز مصر، وأصبحت له الكلمة النافذة، وصدق الله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

إحسان يوسف عليه السلام :

لقد ظهرت المحاسن والفضائل على يوسف في كل تصرفاته، في قوله، وفي عمله، وفي سره، وفي جهره، لمَّا راودته امرأة العزيز عن نفسه قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وفي السجن قال له الفتيان: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]، وإخوته قبل أن يكشف لهم عن نفسه قالوا له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨].

ولذلك كانت النتيجة أنَّ الله سبحانه وتعالى حفظ يوسف رغم ما أصابه من إخوته، ورغم ما أصابه من امرأة العزيز، ورغم دخوله السجن، ورغم ما دخل على حياته من آلام وأحزان، رغم هذا كله فإن الله سبحانه وتعالى قد عوّضه، لأنَّه اتقى الله، وصبر على البلاء، فعوّضه الله، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، الَّذين عندهم أخلاق، وعندهم فضائل، ويعاملون النَّاس بالحسنى.

QaradawiBooks.com

موقف العفو والصفح:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ۝ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩١، ٩٢]، إنَّ الإنسان الربَّاني قد يُتاح له أن يتمكَّن من خصمه، ويستطيع أن يشفي منه نفسه، وأن يردَّ له الصاع صاعين، ولكن ربَّانيته السَّمْحة تأبى عليه إلَّا أن يقف موقف العفو والصفح والسماح، فيقول ما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

ثم قال يوسف لإخوته: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣]، وذهبوا إلى يعقوب عليه السلام، وألقوا عليه القميص فارتدَّ بصيرًا، وذهب عن عينه كل ما كان فيها.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ۝ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩٩ ـ ١٠١].

وجاؤوا إلى مصر، الأب وزوجته وبنو يعقوب كلهم جاؤوا إلى مصر.. وقال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ۝ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾، ذكّر يوسف أباه بالرؤيا الَّتي قصَّها عليه وهو صغير حين قال له:

QaradawiBooks.com

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، ذكَّر أباه بالرؤيا، قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾، ولم يقل: أَخْرَجَني من الجب؛ حتَّى لا يُذكِّر إخوتَه بما فعلوه، لا يريد أن يثير القديم، يريد أن تبقى النفوس سليمة ومقبلة على المستقبل الطيب؛ فلم يذكر إلَّا السجن، ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

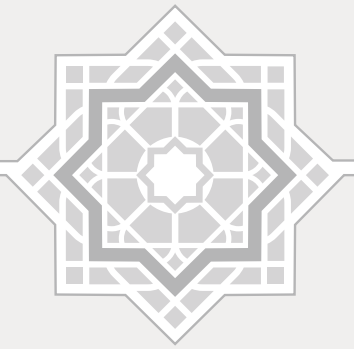
دخل يعقوب وأهله وأبناؤه وأحفاده جميعًا إلى مصر، وجمع الله الشمل، وقال لهم يوسف: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، دخلوا مصر، ورفع يوسف أبويه على العرش، وخروا له سجدًا، وقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾، هذه حقيقة رؤياي الَّتي رأيتها في صبايَ، فسجد له الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا ـ أبوه وامرأة أبيه كأنَّها أمه، فهي الَّتي ربته صغيرًا وإخوته الأحد عشر ـ قد سجدوا له وانحنوا له.

قال: حقَّق الله رؤيايَ وجاء بكم من البدو حيث حياتكم كانت في ضيق وضنك، وجئتم إلى هذه البلاد الواسعة ـ بلاد النيل مصر ـ وأخرجني من السجن، ولم يقل يوسف: وأخرجني من الجب، لأنَّه لا يريد أن يذكر ما فعله إخوته، يريد أن يفتح صفحة جديدة بيضاء تسع الجميع. وهناك دعا يوسف عليه السلام في آخر حياته: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، هكذا قال يوسف عليه السلام، وهكذا دعا.

* * *

نسخة مجانية
غير مرخصة للبيع
QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي



غير مرخصة للطباعة

دروس في تفسير

سورة إبراهيم



نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

نِعَم الله تعالى في سورة إبراهيم

فقد انتهينا من قراءة سور الرعد وسورة إبراهيم وسورة الحجر، وهذه السور تبدأ بـ﴿الٓر﴾ ﴿الٓمٓر﴾، وكلها سور مكيَّة، وإن كان هناك بعض العلماء قال: إنَّ سورة الرعد سورة مدنيَّة، ولكن هذا قول لا دليل عليه، كل ﴿الٓر﴾ وكذلك ﴿الٓمٓر﴾ سور مكيَّة، لأن سياقها وموضوعها وأسلوبها، هو نسق وموضوع وسياق السور المكيَّة.

وفي هذه الليلة نقف مع السورة الَّتي استمعنا إليها سورة إبراهيم، نقف عند قول الله تعالى. ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِىَ فِى ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ۞ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾ [إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤].

تسخير الكون للإنسان:

فالله ﷻ يعدِّد نعمه على الإنسان، فقد سخر للإنسان هذا الكون الكبير الواسع العظيم الهائل، في سماواته وأرضه، وبحاره وأنهاره، وشموسه وأقماره، كلها مسخرة لهذا الإنسان: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠]، الكون مسخر لخدمة

QaradawiBooks.com

الإنسان، فلمن سُخِّر الإنسان، الكون يخدم الإنسان، فمن يخدم الإنسان؟ الإنسان يخدم الرحمن، ولذلك المشركون قلبوا الحقائق، فجعلوا الكون المسخَّر للإنسان معبودًا للإنسان! الإنسان المفروض عليه تسخير هذا الكون بكل ما فيه، عبد هذا الكون، عبد الشمس والقمر، والنجوم والكواكب، عبد الشجر والحجر، عبد البقر والعنز، عبدوا كل شيء، حتَّى عبدوا الشيطان، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١] فقلب النَّاس الحقائق، الإنسان عظيم عند الله، قرأنا في سورة الحجر، أنَّ الله تعالى خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون، هذا هو الجانب الطيني، أو الجانب الأرضي، أو الجانب المادي في الإنسان، ولكن الله تعالى ميَّز الإنسان بشيء آخر، يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، أي الملائكة، وهي لم تسجد للطين والصلصال والحمأ المسنون، وإنَّما سجدت لهذا الإنسان الَّذي كرمه الله تعالى بهذه النفخة الروحيَّة الربانيَّة، الَّتي جعلته مخلوقًا مميزًا مستحقًا للخلافة في الأرض، هيأ الله تعالى هذا المخلوق ليكون خليفة في الأرض، وهو منصب اشرأبت إليه أعناق الملائكة، حينما قال الله تعالى لهم: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ نحن أوَّل بالخلافة من هذا المخلوق، فنحن ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، أي: ليست عندكم المؤهِّلات الَّتي تجعلكم أهلا لهذا المنصب؛ لأنَّكم روح خالصة، ليس عندكم ما يجعلكم تعمرون الأرض كما يفعل آدم وذريته، وليس عندكم العلم بهذه الكائنات الَّتي يتعامل معها آدم، ولذلك عندما عقد مسابقة أو اختبارا بينهم وبين آدم، نجح آدم ورسبوا، ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

QaradawiBooks.com

الأصل في الأشياء الإباحة:

هذا الإنسان سخر الله له هذا الكون كله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ رزقًا لكم، الثمرات الَّتي أخرجها الله تعالى في هذا الكون، كل ما نأكله، كل ما نتمتع به، هو مخلوق لنا، الله سبحانه يُطعِم ولا يطعم، والملائكة لا تطعم، فالرزق مخلوق لنا نحن الآدميين، ولذلك قال العلماء، الأصل في الأشياء الإباحة، كل ما خلقه الله مباحًا، إلَّا ما جاء نص بتحريمه، لماذا كان الأصل الإباحة؟ لأن الله تعالى خلق هذه الأشياء لمنفعة الإنسان، وما كان الله تعالى ليخلقها له، ثمَّ يحرمها عليه، فالأصل أنَّها مباحة إلَّا ما اقتضت الحكمة الإلٰهيَّة أن يحرمه على الإنسان لمصلحته، فهو لا يحل إلَّا طيبًا، ولا يحرم إلَّا خبيثًا.

نعمة نزول الماء من السماء:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: من جهة السماء، من السحاب، ناقشني بعض المشايخ في الخليج فقال لي: أنت تقول: إنَّ الماء ينزل من السحاب، فقلت: نعم، فقال: ولكن الله يقول إنَّه ينزل من السماء، نعم ينزل من السماء أي: من السحاب، والعرب تُسمى السحاب سماء، لأن كل ما علا الإنسان سماء، وفي سورة الحج يقول الله تعالى في شأن من آيس من نصر الله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى السقف، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ من يئس من رحمة الله، وظنَّ أنَّ الله تعالى لن ينصر عبده ودينه، فليربط حبلًا في السقف، ثمَّ يخنق به نفسه: ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥].

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

ولما ناقشني بعض العلماء، وذكر لي كلاما للإمام ابن تيمية والإمام ابن القيم، فقلت له: إن هؤلاء قالوا في ذلك بما يناسب معارف عصرهم، أمَّا نحن الآن نقطع بأن المطر نازل من السحاب، وقلت له: نحن نرى هذا، الأرض تكون مملوءة بالمطر، ثمَّ نركب الطائرة نخترق بها السحاب، ونجد الشمس ساطعة، ولا نرى سحابًا ولا أي شيء فوق السحاب، والأرض مغمورة بالمطر، هذا أمر أصبح بديهيا، والعرب أيضًا عرفوا ذلك، فقد قالوا عن السحب:

شَرِبْنَ بِمَاءِ البَحْرِ ثُمَّ تَرَفَّعَتْ مَتَى لُجَجٌ خُضْرٌ لَهُنَّ نَئِيجُ[1]

وقال شاعر يمدح رجلًا:

كالْبَحْرِ يُمْطِرُهُ السَّحَابُ وَمَا لَهُ فَضْل عَلَيْهِ لِأَنَّه من مَائِهِ[2]

لأن ماء السحاب من البحر، وقد عرف العرب ذلك من قبل، والقرآن يقول عن الأرض: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٠ ـ ٣١]، يعني أن أصل الماء من الأرض، ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾، فالشاهد أنَّ الله تعالى يمتن على عباده بأنَّه أنزل من السماء ماء، فأخرج به رزقا لهم ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]،

نعمة تسخير السفن:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾، الفلك السفن البواخر سخرها لكم، لتجري في البحر بأمره، شيخنا الشيخ الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، رجل

(١) من شعر أبي ذؤيب الهذلي. انظر: ديوان الهذليين (٥٢/١)، نشر الدار القومية، القاهرة، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م. والبيت به أكثر من شاهد نحوي، وهو مشهور في كتب النحاة.

(٢) من شعر عبد الله الأسطرلابي، كما في معجم الأدباء (٢٧٧١/٦)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

عنده حاسة لاقطة لمعاني القرآن، وأجهزة الإرسال والاستقبال عنده حساسة، فكان في مدينة الفجيرة بدولة الإمارات العربيَّة، ومدينة الفجيرة هذه تطل على المحيط الهندي، فنظر من الفندق الَّذي يقيم فيه، فوجد السفن الكثيرة في المحيط، ونظر فوجد كل سفينة ترفع علم الدولة الَّتي تنتمي إليها، هذه ترفع العلم البريطاني، وهذه ترفع الأمريكي، وأخرى ترفع العلم الفرنسي، وهناك ما ترفع العلم الإسباني، والعلم الاسترالي، والعلم الإيطالي، سفن كثيرة من بلاد مختلفة كلها ترفع علم بلدانها، ولكن ليس فيها علم لدولة إسلاميَّة، قال: فقلت في نفسي متحسرًا: هل هذه الأمة الَّتي خاطبها الله تعالى بقوله. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾؟ هل سخره فقط للأوربيين والغربيين فقط ولم يسخرها لهذه الأمة؟ كيف وهي الأمة الَّتي نزل في كتابها ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢] ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤] الأعلام يعني الجبال، كأن هذا يشير إلى البواخر الضخمة الَّتي تكاد أن تكون مدينة عائمة، ومنها الآن حاملات الطائرات وهذه الأشياء، أين الأمة الإسلاميَّة من ذلك؟ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ **المسلمون** في إندونسيا، وإندونسيا آلاف الجزر، يتنقلون بين هذه الجزر بعضها ببعض بالقوارب، وعندما ذهبت إليها الإرساليات التبشيرية الأوربية والأمريكية، صنعوا ستِّين مطارًا ليتنقلوا بين الجُزر بالطائرات الهليكوبتر، وكأن الأمة الإسلاميَّة لم يعد الكون مسخَّرًا لها، وإنَّما سُخِّر لهؤلاء الغربيين وأمثالهم، كأننا لم نعي ما ذكر الله لنا في القرآن، أنَّه سخر لنا هذا الأمر، وأول من يخاطب بالقرآن هم المسلمون هم أهل الإيمان.

QaradawiBooks.com

تسخير الثروة المائية:

سخَّر لكم الفلك، وأيضا سخر لكم الأنهار، الثروة المائية سواء كانت نهرية أو بحرية سخرها الله للأمة، وسخر ما فيها من ثروة سمكية، وأحياء مائية، كل هذا مسخر للأمة، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾.

تسخير الشمس والقمر:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ الشمس والقمر مسخَّر للإنسان، وفي آية أخرى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [النحل: ١٢]، ولذلك لا عجب أن يصل الإنسان إلى القمر، ما دام أنَّ الله تعالى سخر القمر للإنسان، فلا مانع أن يصل الإنسان إلى القمر، ليس هذا تجاوزًا لسلطان الله تعالى، بل هو ضمن سلطان الله، وكان البعض يقول: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] مستدلًّا بها على عدم إمكانية الصعود إلى القمر، لا، فقد قال لهم الشيخ الشعراوي حفظه الله: القمر ليس خارجًا عن الأرض، بل هو ضاحية من ضواحيها، فهم لم يخرجوا من الأرض، فما بالك بأقطار السماوات والأرض؟ على أنَّ الآية تقول: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ وبعض العلماء في عصرنا يقولون: السلطان سلطان العلم، أي: إذا كان عندكم من العلم ما تستطيعون به أن تخرجوا به وتصلوا إلى القمر فلا بأس.

رأيي في هذه الآية:

وإن كان عندي في هذه الآية ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: إن

QaradawiBooks.com

اســتطعتم أن تخرجوا من ملك الله فاخرجوا، ومن يخرج من ملك الله؟ وإذا خرج من ملك الله فإلى أين يذهب؟ فالمعنى لا تنفذون إلَّا بسلطان، ولا سلطان لهم في هذا.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِ﴾: سخَّر لكم الشمس، فلا مانع أن نستخدمها في الطاقة الشمسيَّة، ولا مانع أن نصل إلى القمر، يقولون. يريدون أن يصلوا إلى القمر ويقيموا عليه معسكرات، لا مانع أن يفعلوا ذلك، ويريحوا النَّاس من زحام الأرض.

غير مرخصة للطباعة

نعمة الزمن:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ الزمن مســخر لكم، والمكان مسخر لكم، أنعم الله تعالى على الإنسان بنعمة الوقت من أجل أن يعمل فيه، إنَّ الليل والنهار يعملان فيك فاعمــل فيهما، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ [الفرقان: ٦٢] الليل يخلف النهار، والنهار يخلــف الليل، فمن فاته العمل في أحدهما اســتدركه في الآخر بقدر ما يستطيع، كل هذا مســخر لكم، خمس مرَّات تكررت كلمة لكم في هذه الآيات.

نعم الله تعالى فوق العد والإحصاء:

من يســتطيع أن يحصي نعم الله عليه؟ نعم الله تعالى تغمرنا من قرننا إلى أقدامنا، منذ ولدنا وإلى أن نموت، بل حتَّى قبل أن نولد، وأنت جنين في بطن أمك، من الَّذي يرعاك؟ من الَّذي يمدك بماء الحياة ودم الحياة؟

قُــلْ لِلْجَنِينِ يَعِيشُ مَعْــزُولًا بِلَا رَاعٍ وَمَرْعًى مَا الَّــذي يَرْعَاكَا[1]؟

(١) للشاعر إبراهيم بديوي من قصيدة بعنوان: بك أستجير. في ديوانه البديويات.

QaradawiBooks.com

إنَّه الله، الله هو الَّذي يسر لك حالك؛ لتنال غذاءك وأنت في بطن أمِّك، وأن تتحرَّك وأنت في أحشائها، وقد جاء في بعض الآثار القدسيَّة: وعلمتك القيام والقعود في بطن أُمِّكَ، من علمه ذلك؟ من جعل له ميدانًا رياضيًّا داخل البطن يتحرَّك فيه، الله سبحانه هو الَّذي يعلمه هذا، حتَّى إذا خرج من الدُّنْيا تكون عنده دربة ما تكفيه للتعامل مع الحياة.

نعم الله تعالى قائمة لا تنقطع:

نعم الله على الإنسان دائمة لا تنقطع منذ أن كان جنينًا، وهي دائمة ومستمرة حين يولد، يخرج إلى الدُّنْيا ليس له سنٌّ يقطع، ولا يد تبطش، ولا قدم تسعى، فأنبت له عرقين رقيقين في ثديي أمه يخرجان له لبنًا خالصًا حارًا في الشتاء، باردًا في الصيف، خرج إلى الشتاء لا يستطيع أن يأكل، فخرج إلى الدُّنْيا وغذاؤه معه، ساعة ولادته هيأ الله تعالى صدر أمه لإرضاعه وتغذيته، ولا تملك أمه إلَّا إرضاعه، فلو استمر اللبن في صدرها يؤذيها، كأنَّها ترضعه رغما عنها، شيء عجيب، والغذاء كما قال القرآن الكريم: «لبنًا خالصًا»، معقمًا لا يحتاج إلى تعقيم، مكيفًا لا يحتاج أن يسخن في الشتاء، ولا أن يبرد في الصيف، فأي نعم هذه الَّتي تغمر الإنسان ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾.

جحود الإنسان لنعم الله:

فهل قابل الإنسان هذه النعم بالشكر؟ للأسف لم يفعل ذلك، بل الأمر كما قال القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وقال سبحانه: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ كفَّار بنعم الله ﷻ، لا يعترف بهذه النعم، ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾ [العاديات: ٦]، يعني جحود للنعمة،

QaradawiBooks.com

وجحود النعمة لا يليق بالإنسان المؤمن والإنسان العاقل والإنسان الكريم، المفروض والواجب عليه أن يقابل النعمة بالشكر، الَّذي يقدم لك خدمة ألا تقول له شكرًا؟ لا بدَّ أن تقول له، وإلا كنت قليل الأصل عديم الذوق، والله ﷻ يغمرك بهذه النعم كلها، ولا تحمد الله، ولا تشكر الله.

أثر الشكر والكفر في بقاء النعم وزوالها:

المفروض أن تقابل نعم الله تعالى بالشكر، حتَّى تُحفظ عليك هذه النعمة، ويزيدك الله منها، ولكن إذا كفرت وجحدت هذه النعم، لا يحفظها الله عليك، ولا يزيدك منها، بل يسلبك إيَّاها، وفي هذه السورة قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، تشكر النعمة يزيدك الله منها، يحفظ عليك النعم القديمة، ويزيدك نعمًا جديدة، الشكر يزيد النعم، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، وعذابي شديد ليس في الآخرة فقط، بل في الدُّنْيا قبل الآخرة، من كفر بنعمة الله ربَّما عوقب في الدُّنْيا قبل الآخرة، كما عاقب الله أهل سبأ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥ ـ ١٧]، فهؤلاء أعرضوا عن شكر النعمة، فبدَّل الله أحوالهم سوءًا.

وكذلك أهل مكَّة حينما كفروا بنعمة الله، وقد أرسل إليهم نبيَّه محمدًا ﷺ، وهذه من أعظم النعم، إرسال مُحَمَّد ﷺ وإنزال القرآن،

QaradawiBooks.com

فكفروا بهذه النعمة العظيمة، وجاء فيهم قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢] كفرت بأنعم الله، فسلب الله منها نعمة الأمن والرزق، وأبدلهما بالخوف والجوع، ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

وفي نعمة النبيِّ ﷺ يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٣] جاءهم رسول من جنسهم، فأمرهم بطاعة الله وشكره، ولكنَّهم كذبوه وأعرضوا عنه، فكانت نتيجة تكذيبهم وإعراضهم أن أخذهم العذاب العاجل الَّذي استأصل شأفتهم، والحال أنَّهم هم الظالمون لأنفسهم، لأن هذا العذاب ما نزل بهم إلَّا بعد أن كفروا بأنعم الله، وكذبوا رسوله.

ذكر النعم المفقودة:

يجب أن يتذكر الإنسان دائمًا نعم الله عليه، هناك من النَّاس من يذكر النعمة المفقودة، ولا يذكر النعمة الموجودة، دائمًا يقول: ينقصني كذا، أنا محتاج كذا، ليس عندي كذا، ولا يذكر أنَّه عنده نعم كثيرة.

روى ابن أبي الدُّنْيا بإسناده عن سلمان الفارسي، قال: إنَّ رجلًا بُسط له من الدُّنيا، فانتزع ما في يديه، فجعل يحمد الله ﷻ، ويثني عليه، حتَّى لم يكن له فراش إلَّا بوري، فجعل يحمد الله، ويثني عليه، وبسط للآخر من الدُّنيا، فقال لصاحب البوري: أرأيتك أنت على ما تحمد الله ﷻ؟ قال: أحمد الله على ما لو أعطيت به ما أعطي الخلق لم أعطهم إياه، قال: وما ذاك؟ قال: أرأيت بصرك؟ أرأيت لسانك؟

QaradawiBooks.com

أرأيت يديك؟ أرأيت رجليك[١]؟ وبإسناده عن أبي الدرداء أنَّه كان يقول: الصحَّة غنى الجسد[٢].

وعن يونس بن عُبَيد أنَّ رجلًا شكا إليه ضيق حاله، فقال له يونس: أيسرك أن لك ببصرك هذا الَّذي تبصر به مائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبيدك مائة ألف درهم؟ قال: لا، قال: فرجليك؟ قال: لا، قال: فذكره نعم الله عليه، فقال يونس: أرى عندك مئين ألوف وأنت تشكو الحاجة[٣].

مشكلة الإنسان في الطمع وليس في قلَّة النعم:

كل إنسان عنده نعم كثيرة، ولكن المشكلة في طمع الإنسان ينظر إلى ما يفقده، ولا ينظر إلى ما عنده، ينظر إلى ما عند غيره، ولذلك علمنا النبي ﷺ أن ننظر في الدُّنْيا إلى من هو أدنى منا، وأن ننظر في الدين إلى ما هو أعلى منا، في الدُّنْيا لا تنظر إلى من عنده الملايين والقصور الَّتي تمشي بجانبها السيارات عشر دقائق حتَّى ينتهي صور القصر، ولكن انظر إلى من يعيش في البدروم، وقد يشاركه في ذلك زوجته وأولاده، وأمه وأبوه، انظر إلى هؤلاء.

لا تنظر إلى أصحاب الملايين، ولكن انظر إلى من لا يجد قوت يومه حتَّى ترضى، فتقول: الحمد لله، أنا أحسن منه حالًا وأفضل، وفي أمر الآخرة، انظر إلى من هو أعلى منك، إذا كنت محافظا على الفرائض، ولكن فلان من النَّاس يحافظ على الفرائض والسنن فانظر إليه، إذا كنت محافظا على الفرائض والنوافل، فانظر إلى من يقوم الله ويتهجد فيه، إذا كنت تؤدي

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٠٠).
(٢) المصدر السابق (٤٩٤).
(٣) المصدر السابق (١٠١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الزكاة المفروضة، فانظر إلى من يخرج الزكاة، ولا يترك باب خير إلَّا أنفق فيه، في أمر الآخرة، انظر إلى من هو أعلى منك، حتَّى تقتدي به.

كيف يشكر العبد ربه:

المؤمن حتَّى يكون شاكرًا، يجب عليه أن يفعل ثلاثة أشياء:

الأول: أن تعترف بقلبك أن ما عندك من نعم إنَّما هي من الله ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، لا تقل مثل ما قال قارون. ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨] أنا بذكائي ومهاراتي جمعت هذه الأموال، وكما يقول المثل العامي: «اجري جري الوحوش، غير رزقك لم تحوش»، وكم من أذكياء لم يصلوا إلى شيء، ولو كانت الأرزاق والنعم بالذكاء لجاعت البهائم، وكما قال أبو تَمَّام[1]:

يَنَالُ الفتى من عَيْشِه وهْوَ جَاهِلٌ ... ويُكْدِي الفتى في دَهْرِهِ وهْوَ عَالِمُ
ولو كانتْ الأرزاقُ تجري على الحِجَا ... هَلَكْنَ إذنْ مِنْ جَهْلِهِنَّ البَهَائِمُ

وقال آخر:

وَلَوْ كَانَتِ الدُّنيا ثَوَابًا لِمُحْسِنٍ ... إذنْ لم يكنْ فيها مَعَاشٌ لِظَالِمِ
لَقَدْ جَاعَ فيها الأنبياءُ كَرَامَةً ... وقدْ شَبِعَتْ فيها بُطُونُ البَهَائِمِ[2]

وكما قال الشاعر:

لك الحمدُ مولانا على كُلِّ نِعْمَةٍ ... ومِنْ جُمْلَةِ النَّعْمَاءِ قَوْلِي: لَكَ الحَمْدُ[3]

---

(١) انظر: شرح ديوان أبي تمام للخطيب التبريزي (٨٧/٢)، تقديم وفهرسة راجي الأسمر، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٤م.

(٢) ذكره من غير نسبة القرطبي في تفسيره (٨٨/١٦).

(٣) من شعر محمود الوراق، كما في الفاضل للمبرد صـ ٩٥، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٣، ١٤٢١هـ.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

كل النعم يحمد العبد ربه عليها، ومن جملة النعم: أن يحمد العبد الله على نعمة الحمد، لأن الله تعالى هو الَّذي وفقه إلى أن يقول الحمد الله، فتعترف بقلبك أنَّ الله تعالى هو مصدر النعم.

الثاني: أن تذكر ذلك بلسانك، بأن تقول: الحمد الله، تقول: الحمد لله مهما أوتيت، الرسول ﷺ كان إذا أصابه خير قال: «**الحمد لله الَّذي بنعمته تتم الصالحات**». وإذا أصابه ما يسوؤه قال: «**الحمد لله على كلِّ حال**»[1]. وانظر إلى سيِّدنا إبراهيم عليه السلام عندما أعطي ولديه إسماعيل وإسحاق، رزقه الله بولديه وهو شيخ كبير فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] هو قال قبل ذلك. ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٠ ـ ١٠١]، بشره بإسماعيل، ثمَّ صبر على إسماعيل عندما طلب منه ربه أن يذبحه، ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فكافأه الله تعالى بأن بشره بإسحاق نبيًا من الصالحين، هو عرف هذه النعمة فقال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ فاعرف نعم الله تعالى عليك، واحمده على كل نعمة.

سيِّدنا عروة بن الزبير وكان من المحدثين والفقهاء والعباد والزهاد، أصيب يوم أحد ببليتين: ابتلاه الله تبارك وتعالى بإحدى رجليه أصابتها الأكلة فقرر الأطباء قطعها، وقطعت. وفي نفس اليوم جاء خبر أن فرسا رفست أحد أبنائه فمات. فنظر إلى رجله المقطوعة ورجله السليمة وقال: اللهمَّ إن كنت ابتليت فقد عافيت. ونظر إلى ابنه المقتول وأولاده الآخرين وقال: اللهمَّ إن كنت أخذت فقد أعطيت[2].

(١) سبق تخريجه (١٩/١).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٧٩/٢).

QaradawiBooks.com

وهكذا المسلم يحمد ربَّه في الضرَّاء كما يحمده في السراء.

الثالث: شكر الجوارح والأركان: الشكر بكيان الإنسان كله، بجوارحه وأركانه وبدنه. عليه أن يستعمل بدنه، ويستعمل جوارحه في طاعة الله، ويستخدم نعم الله تعالى في طاعته والقيام بحقه، ولا يستخدم نعمه في معاصيه.

لا يجوز أن ينعم الله تعالى عليك بنعمة فتستخدم نعمة الله في معصية الله.

الله آتاك مالًا، فلا يجوز أن تستخدم هذا المال فيما يغضب الله، في فعل الفجور وشرب الخمور، والذهاب هنا وهناك حيث مسارح المعاصي في بلاد الكفر وغيرها.

آتاك الله العقل، فلا تستخدم عقلك في إيذاء النَّاس، ولا في طريق الشر.

آتاك الله المنصب، فلا تستخدم نعمة المنصب في جلب المال الحرام، وفي جلب الرشا وهذه الأشياء من أجل أن تكسب أكبر قدر ممكن ممَّا حرَّم الله ﷻ مستغلا منصبك.

آتاك الله السيارة هذه الَّتي قرَّبت البعيد ـ بعد أن كنت تركب الحمار أو تركب الناقة ـ لم تصنع فيها مسمارًا للأسف، فاستخدمها في طاعة الله، لا تستخدمها في الذهاب إلى حيث حرم الله.

أُعطيت سفينة ـ أو يختًا أو قاربًا ـ فلا تستخدمها مع أصحابك في الذهاب إلى نزهات يحل فيها الحرام، وترتكب فيها الموبقات.

QaradawiBooks.com

اشـــكروا نعمة الله في التلفون، هذا الَّذي يجعلك وأنت في بيتك تكلم العالم في مشرق ومغرب. لا تستخدموه أيُّها النَّاس وأيها الشبان في معاكسة الفتيات والنساء، وفي المعاصي الَّتي تسخط الله ﷻ.

كم من أناس قلبوا نعمة الله إلـــى أدوات لمعصية الله، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

إنَّ الخطر كل الخطر: أن يســتخدم النَّاس نعم الله في معصية الله، وبذلك يكفرون بالنعمة فتزول عنهم.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي

غير مرخصة للطباعة

دروس في تفسير

سورة النحل

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الأول
من نعم الله على الإنسان في سورة النحل[1]

غير مرجعة للطباعة

سورة النعم:

فرغنا الليلة من تلاوة سورة النحل، وسورة النحل كان يُسَمِّيها كثير من السلف: سورة النِّعم.

فهناك بعض السور لها أكثر من اسم، فمثلًا سورة الإسراء، تسمى سورة بني إسرائيل، وسورة غافر تسمى سورة المؤمن، وسورة مُحَمَّد تسمى سورة القتال، وهكذا..

وسورة النحل تسمَّى سورة النعم؛ لأنَّ موضوعها يتحدث عن نِعَم الله تعالى على خلقه، نعم كثيرة أخذت السورة شوطًا، وسبحت سبحًا طويلًا في أوائلها، تتحدث عن نعم الله الَّتي خلقها للإنسان، مثل قوله تعالى:

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٥ ـ ٨].

نسخة مجانية

(١) من دروس تراويح ١٤٢٣هـ.

QaradawiBooks.com

توالي النعم يفقد الإحساس بقيمتها:

هذه كلها من نعم الله ﷻ يُذكِّر بها الناس؛ لأن توالي النعم على الإنسان، يُفقده الإحساس بقيمتها، وإنَّما يعرف قيمة النعمة، إذا فقدها وحُرم منها، ولذلك قالوا:

وبضدِّها تتميز الأشياء.

الإنسان الَّذي يعيش في نعم متتابعة متتالية، لا يكاد يحس بأن لها أي قيمة، هناك أناس تأكل ما لذَّ وطاب، في كل يوم وفي كل وجبة، لا تحسّ بهذه النعمة، لكنك تجد الإحساس بهذه النعمة عند الإنسان الفقير المعدم عندما ينال شيئًا من هذه النعم.

ولذلك كان من ضمن حِكَم تشريع الصوم، أن يشعر الإنسان بقيمة النعمة، قيمة الشِّبَع، ونعمة الرِّي، فإن توالي شِبَعه وريِّه لا يجعل لهذه النعم قيمة، فأراد الله أن يفرض عليه جوعًا إجباريًّا، شهرًا كاملًا، ليحس بالجوع والعطش، وخصوصًا في أيام الحر، فيدرك مدى نعمة الله عليه في النِّعَم والرِّي.

النعم الماديَّة والمعنويَّة الجماليَّة:

والنعم العظيمة الَّتي ذكرها القرآن في سورة النحل، نعم ماديَّة ونعم معنويَّة، حتَّى النعم الجماليَّة، يقول تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ يعني تستدفئوا بأصوافها وأوبارها ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ في ركوبها والحراثة بها، والنسل، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني تأكلون لحومها وتشربون من ألبانها.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ لو أن أحدهم رسم لَوْحَة وفيها أبقار وأشجار ومرعى وخضرة، تقول: ما أجمل هذه اللَّوحة.

QaradawiBooks.com

انظر إلى اللوحة الأصلية، الَّتي صنعتها يـد الخالق هذه، لماذا لا تُمعن النظر فيها؟ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾.

اهتمام سورة النحل بالعنصر الجمالي:

وهذه السورة اهتمت بالعنصر الجمالي، حتَّى قال سبحانه: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ ليس فقط الركوب بل والزينة، وهي العنصر التجميلي. وقـال كذلك: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أسـماك وجمبري ونحوهـا، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾: تسـتخرجون من البحـار اللؤلؤ والمرجـان، وهذا العنصر الجمالي في الطبيعة يمتنَّ الله به على العباد.

نعمة النقل ووسائل المواصلات:

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧، ٨].

وسـائل النقل والمواصلات، كانت الإبل الَّتي قال عنها: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وأيضًا: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾ فذكـر الله هذه المخلوقات الَّتي يستخدمها الإنسان للركوب، والتنقل، ثمَّ ختم الآية بقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: أنَّ هناك وسائل من وسائل النقل سـيخلقها الله تعالى، ويخلق منها ما لا تعلمـون. وقد صدَّق الواقع الكوني هـذه النبوءة الَّتي ذكرها القرآن، خلق لنا ما لم نكن نعلم، بل ما لم نكن نتخيل.

QaradawiBooks.com

فلو أنَّ الأقدمين قيل لهم: الإنسان يمكن أن يبتكر شيئًا يسبق الحصان، ويحمل كذا وكذا من البضائع، مثل السيارة أو القطار، ما كان يصدِّق، بل لو قيل له عن الطائرات الَّتي تسير في جوِّ السماء ما صدَّق ذلك. فالله يقول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩]، الآن صارت هناك طيور أخرى حديدية تسبح في جو السماء. بل هناك سفن الفضاء والصواريخ.. ونحوها. فهذه نعم أنعم الله بها، وكل هذه تدخل في قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وذكر القرآن إنزال الماء من السماء، وإنبات الشجر، وتسخير الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ [النحل: ١٢، ١٣] وقال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥، ١٦].

ثم قال بعد ذلك: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

للأسف! عبد المشركون من لا يخلق، عبدوا الأصنام والحجارة، ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١].

نعم الله لا تعد ولا تحصى:

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

نعم الله على النَّاس، لا تعدُّ ولا تُحصى، وقد عدَّدت السورة كثيرًا من هذه النعم، في أوَّل السورة، كما مرَّ معنا، وفي وسط السورة، قال تعالى:

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ۝ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ وتقي البرد طبعًا، ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡ﴾ أي: في الحروب، يعني تلك الأشياء الَّتي يلبسونها واقية في الحروب، من ضربات السيوف، أو طعنات الرماح، أو رميات السهام، مثل: المجنّ والدرع.. ونحوها ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٨٠، ٨١].

نعمة الألبان:

كما عدَّد القرآن في هذه السورة كثيرًا من النِّعم، كالألبان، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦] هذه نعمة عظيمة، نعمة الألبان، واللبن في الحقيقة خلقه الله للحيوانات، ليرضع صغارها من كبارها، وأباح الله للإنسان الانتفاع به، دون إضرار بالصَّغير، وهذه نِعم من الله ﷻ، يخرج اللبن سائغًا للشاربين، لا يحتاج إلى صناعة، إذا لم تمسه يد الإنسان وتلوِّثه، فهو بطبيعة خلقته خالصٌ سائغ للشاربين.

ويقول تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٧]، وسَكَرًا هنا: من مادة السُّكَّر، مثل المُربّات ونحوها.

العسل فيه شفاء للناس:

ويقول الله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

QaradawiBooks.com

وكم قامت دراسات على عسل النحل، قام بها أساتذة بيولوجيون متخصصون في علم الحيوان، أو في علم الحشرات، أو في علم النحل، وتكلَّموا عن خصائص هذا العسل، لأن القرآن يقول: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ فهو غذاء وفيه شفاء للناس، وهذه إشارة إلى أن من الأغذية ما يكون شفاء، فليس الشفاء فقط في الأدوية الرسمية، بل من الغذاء ما يكون شفاء، ومنها هذا العسل.

نعمة الموت:

وذكر القرآن أشياء كثيرة، مثل: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ نلاحظ هنا ـ أيُّها الإخوة ـ أنَّ الله سبحانه جاء بهذه الآية في معرض النعم، فهل يكون الموت نعمة؟ نعم الموت نعمة، فلو أنَّ النَّاس يولدون ولا يموتون، كيف ستكون النتيجة، فالكرة الأرضيَّة الآن رغم «الموت» فيها ست مليارات من البشر، ومن فترة قريبة بدأ المليار السابع، ويشكو النَّاس الآن من قلَّة الموارد، ومن شحّ الموارد، ويريدون تحديد النسل.. إلخ، ولو لم يكن كتب الله الموت على النَّاس، كان لا بدَّ أن يجتمع النَّاس، ويجتمع كل قرية ويبحثوا في مشكلة العدد الزائد من النَّاس، وربَّما وجد البعض الحلَّ أن نقطع رقاب كبار السنّ؛ حتَّى يتيحوا فرصة للجيل القادم، فلا يمكن إلَّا هذا، فسيقول الشباب: لماذا يحتل هؤلاء هذه الأماكن، ويحجزون عنَّا الترقّي، لماذا لا يدع هؤلاء أماكنهم للجيل الصاعد والواعد، حتَّى يأخذ حقه، ويحتل مساحته.. إلخ.

فالناس لا بدَّ سيتصرفون ليقضي بعضهم على بعض، وربَّما تحصل مشكلات واختلافات بين النَّاس، فتقول قبيلة: نترك شيوخنا حتَّى المائة، وآخرون يقولون: بل للثمانين، وآخرون: للسبعين.. قطعًا سيختلف

QaradawiBooks.com

النَّاس. فكان هذا الحل من الله تبارك وتعالى، بأن الموت يقضي على النَّاس أولًا بأول.

وفي القصص الإسرائيليَّة: أنَّه لما كثر أبناء آدم، قالوا: يا رب كيف تسعهم الأرض بعد حين؟! فقال لهم: إنِّي جاعلٌ موتَى. قالوا: كيف يعيش النَّاس إذا رأوا آباءهم وأبناءهم وإخوانهم يموتون أمام أعينهم؟! قال: إنِّي جاعل أملًا[1]! الَّذي يجعل النَّاس يَحْيون مع مرارة الموت، هو حلاوة الأمل. فرغم الموت يأمل الإنسان أن يعيش ما قُدِّر له أن يعيش، فهو يعيش فترة من الزمن، تطول ما تطول، ثمَّ تنتهي بالموت، ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

ولذلك يقولون:

الليل مهما طال لا بدَّ من طلوع الفجر والعمر مهما طال لا بدَّ من دخول القبر

هذه هي سُنَّة الله في الحياة.

ولذلك كان الموت نعمة، فربَّما يستغرب بعض النَّاس أن يذكر الموت في سورة النعم، أن يمتنَّ الله على النَّاس أنَّه يتوفاهم، نعم.. هي نعمة من الله تبارك وتعالى.

نعم الحواس وأدوات المعرفة:

ومن نعم الله الكثيرة: نعم الحواس، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، أدوات المعرفة، الَّتي تطل بها على الكون من حولك: السمع والبصر والفؤاد والعقل، كل هذا يحتاج منك شكر نعمة الله تعالى عليك.

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٦٣٧٠)، عن الحسن.

QaradawiBooks.com

شكر الله على نعمه:

والواجب على الإنسان أن يشكر ربَّه على نعمه، ولا يكفرها، كما ذكر الله لنا في هذه السورة، سيِّدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

فإبراهيم عليه السلام وصفه ربه بأنَّه «شاكرًا لأنعمه» يعرف قدر نعمة الله تبارك وتعالى عليه، والإنسان ينبغي أن يعرف نعمة الله عليه، وهي نعم كثيرة جدًّا، فلو فكر الإنسان في اللقمة الَّتي يأكلها، كم اشتغل فيها: الملائكة الَّذين سخَّرهم الله لتدبير بعض هذه الأشياء، فهناك مخلوقات غير معروفة، وهناك مخلوقات نعرفها: الفلَّاح الَّذي زرع القمح، وربَّما كان هذا القمح قادمًا من بلدة بعيدة غير بلادنا هذه، وكم شخص قد عمل من أجل أن تصل إليك، فالأرض الَّتي خرج منها هذا القمح، كم شخص اشتغل فيها، من يحرثها، ومن يبذر فيها، ومن يحصد منها.. بل هناك النجار الَّذي صنع المحراث، والحداد الَّذي صنع المحراث، فهناك آلاف اشتغلوا حتَّى وصلت إليك اللقمة، هذه كلها نعم.

عاقبة كفران نعم الله:

وأخطر شيء أن يكفر الإنسان بنعم الله، ولا يعرف قدرها، كالذين ذكرهم الله في هذه السورة، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۝ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣] هؤلاء هم أهل مكَّة، كانوا يعيشون في مكَّة آمنين مطمئنين، يعيشون في

QaradawiBooks.com

نعم الله، فكفروا بهذه النعم، والَّتي أعظمها بعثة مُحَمَّد ﷺ، يقول الله: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ وشر ما يصاب به مجتمع من المجتمعات، هاتان الآفتان: الجوع والخوف. ومن أفضل ما يناله مجتمع من المجتمعات: الكفاية والأمن؛ الرخاء والأمن. كما امتنَّ الله على قريش، فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾ [قريش: ٣، ٤].

فعلينا أن نشكر نعم الله ﷻ، نشكرها بلساننا فنقول: الحمد لله على نعمه، الحمد لله حمدًا يكافئ نعمه.

ونشكرها بقلوبنا، بأن نعترف بأنَّ كل هذه النعم، الَّتي نتقلَّب فيها ليل نهار، إنَّما هي من الله، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

ونشكرها بجوارحنا، فنستخدم نعم الله في طاعة الله، «**إنَّ الله ﷻ يحبُّ أن يرى أثر نعمته على عبده**»[1].

نسخة مجانية

(١) رواه الترمذي في الأدب (٢٨١٩)، وحسَّنه، والطيالسي (٢٣٧٥)، والحاكم في الأطعمة (١٣٥/٤)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وحسَّنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٢٦٠)، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

الدرس الثاني
من نعم الله على الإنسان في سورة النحل[1]

سورة النعم:

فرغنا الليلة من الاستماع إلى سورة النحل، وسورة النحل سورة مكيَّة، كان بعض السلف يسميها: سورة النعم، لأن الله تعالى يعدّد في هذه السورة نعمه الكثيرة على عباده، من أوَّل السورة ربنا عدَّد كثيرًا من النعم، الله تعالى يقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۞ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۞ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۞ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۞ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٣ ـ ٨].

ثم ذكر الله ﷻ إنزال الماء، وتسخير الشمس والقمر والنجوم وتسخير البحر، ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ۞ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۞ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ

(١) من دروس تراويح ١٤٢٤هـ.

غير مرخص للطبع
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٠ ـ ١٤]، إلى آخر هذه النعم، الَّتي ختمها بقوله: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١٧ ـ ١٨].

هيَّأ الله الإنسان للتعلم:

ولكن الآية الَّتي نريد أن نقف عندها قليلًا هي قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

في هذه الآية نعمة من نوع آخر: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، الطفل يولد من بطن أمه مادة خام لا يعرف شيئًا، ثمَّ يكتسب المعرفة، مزيَّة هذا الخلق أو هذا النوع من الخليقة أنَّ الله هيَّأه ليتعلم، وأعطاه الأدوات، أدوات التعلم، ما هذه الأدوات؟ قال: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾، الآذان تسمع، والأعين تُبصر، والعقول الأفئدة تُفكِّر، فهذه هي الأدوات الثلاث.

بالسمع يعرف الإنسان الأشياء الَّتي تُنقل عن الغير، ولذلك علوم الأولين نعرفها بطريق السمع، حتَّى العلوم الشرعيَّة يسمونها: العلوم السمعية، لأنَّها مسموعة ومنقولة بالوحي، وليس بالبصر، والعلوم الطبيعيَّة والكونيّة تعرف بالبصر بالمشاهَدة، العلوم القائمة على الملاحظة والتجربة، هذه وسيلتها البصر، فالإنسان يعرف العلوم الشرعيَّة والعلوم المنقولة عن الآخرين بواسطة السمع.

QaradawiBooks.com

كثيرًا ما يُقدَّم في القرآن السمع على البصر، لأنَّ الإنسان من أوَّل ما يولد يسمع، بينما يتأخر البصر، فتظل عينه مغلقة فترة من الزمن، ولذلك عندما يحتفلون بالأولاد الصغار فيما يعرف في مصر بـ «السبوع»، يريدون أن يدربوا الطفل على السمع فيدقون فيما يعرف بـ «الهون» ليدرب على الأصوات المزعجة، ويقولون له: «برجالاتك.. برجالاتك»، وكذا، فالسمع هو أوَّل حاسة تعمل، ثمَّ بعد ذلك البصر، ثمَّ بعد ذلك يأتي عمل العقل والتفكير.

غير مرخصة للطباعة

العقل الفطري:

يهب الله لكل إنسان عقلًا فطريًّا يُولَد معه، حتَّى أن بعض العلماء سُئل: متى عقلت؟ قال: منذ خلقني الله، احتجت إلى الرضاع فالتقمت الثدي. هذا نوع من العقل الفطري يجعله يبحث حتَّى يلتقم ثدي أمه، أمَّا العقل المميِّز يتأخر قليلًا، فيبدأ الطفل أوَّل ما يبدأ يميز بين أبيه وأمه، كان في البداية يراهم أناسًا كغيرهم، لا يفرق بينهم، ثمَّ يبدأ يميز بين أبيه وأمه، ثمَّ يبدأ يميز الحسيِّات من المعنويَّات.

الطفولة الحسيَّة، لا يعرف الطفل فيها الأمور المعنويَّة، ولذلك النَّاس الَّذين يُنكرون الماديَّات هم في طفولة بشريَّة، أشبه بالحيوانيَّة، فالحيوان لا يعرف غير الأمور الحسيَّة، عندما تُقدِّم له ما يُؤكل كالبرسيم أو الفول يعرفها ويأكلها، أمَّا الأشياء المعنويَّة لا يعرفها، لا يعرف معنى الصدق ولا معنى الحياة، ولا أن فيه إلٰهًا، ولا أن فيه آخرة، هذه أشياء لا يمكن للحيوان أن يعرفها، ولا الطفل أن يُدركها.

نسخة مجانية

عمل العقل:

الطفل يظل يرقى شيئًا فشيئًا حتَّى ينتقل من الحسّ إلى المعنى، وهنا يكون عمل الفؤاد، القرآن يسميه الفؤاد، وأحيانًا يسميه القلب، وأحيانًا

QaradawiBooks.com

يسميه اللب، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]، فالإنسان في هذه الحالة يُعمِل كل الأدوات الَّتي عنده، الأدوات الحسيَّة.

وبهذا الفؤاد أو هذا القلب، أو هذا العقل، يُسأل الإنسان أمام الله، كما قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، لا تمشي وراء ما ليس لك به علم، إنَّما اتبع الأشياء الَّتي تستطيع أن تعلمها وتُقيم عليها الحجة والدليل وتقتنع بها، لكن لا تمشي وراء كل شيء، أو تُصدِّق كل دعوى، لأن هذا معناه أنَّك تلغي عقلك، لماذا أعطاك الله العقل؟ لتوازن وتقارن وتستنتج وتقبل وترفض على أساس عقلي منطقي، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

الإنسان أُعطي أدوات يطل بها على الكون:

ولذلك المؤمنون يستعملون هذه الأدوات لأنَّهم يعلمون أنَّ الله سائلهم عنها، أمَّا الكفَّار فهم يعطلونها، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، جحودهم بآيات الله عطَّل هذه المنافذ الَّتي يطلون بها على الكون من حولهم، ويقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ما قيمة هذه الأدوات إذا كانوا لا يوظفونها فيما خلقها الله له! الله أعطاه القلب ولكنَّه لا يفقه بهذا القلب، وأعطاه العقل ولكنَّه لا يفهم

QaradawiBooks.com

بهذا العقل، لا يوظفه فيما خلقه الله له، يمكن يوظفه في الشر، يوظفه في المكائد، في الشهوات، عُطِل عقله تمامًا، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾، هي عيون مفتحة، ونظره قوي، قد يكون نظره ستَّة على ستَّة ولكنَّه لا يرى به آيات الله في الكون، فهو معطل إذا، ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، عطّل عقله، وعطّل بصره، وعطّل سمعه، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، كالذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]، سمع وما سمع، لأنَّه لم يسمع السماع الَّذي يتأثّر به، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

بكفرهم ختم الله على قلوبهم:

الله تعالى يقول عن الكفار: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، لم يخلقهم الله هكذا، بل هم بذنوبهم وإعراضهم وجحودهم تسبَّبوا في هذا، لمَّا قال اليهود فيما حكاه الله عنهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨]، أي: مغلقة لا تقبل الهدى، ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]، ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]، لم يخلقهم الله وقلوبهم غلف.

خلق الله كل القلوب مستعدّة للإيمان والكفر، وللخير والشر، وللفجور والتَّقوى، ولكن الإنسان بما منحه الله من اختيار إمَّا أن يوجهها

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

للخير فيستفيد، وإما أن يغشِّيها ويدسِّيها ويغطِّيها بتوجيهها إلى الشر، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠]، ولذلك الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، ألقى السمع أي: لم يعطّل السمع، وهو شهيد أي: حاضر، لأنَّه قد يكون الإنسان حاضرًا وهو غائب، وموجودًا وهو مفقود، وحيًّا وهو ميت، ما قيمة هذا؟

لا ينبغي أن نعطِّل هذه الأدوات الَّتي أعطانا الله إيَّاها لنتميز بها عن الحيوان الأعجم، بماذا تميزنا عن الحيوانات؟ بالأكل؟ لا، الحيوان يأكل أكثر من الإنسان، الإمام الغزالي يقول: الثور أوسع بطنًا منك[1]، هل تميَّز الإنسان بضخامة الجسم؟ لا، فالفيل أضخم منه، هل بالشجاعة؟ لا، فالأسد أشجع منه، بماذا تميَّز الإنسان إذن؟ تميز الإنسان بهذا العقل، بهذه اللطيفة الربانية.

فإذا عطَّل الإنسان هذه الأدوات وخرَّبها كانت حجة عليه، فسوف يُسأل عن تلك النعمة، ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، أضل من الأنعام، كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

(١) إحياء علوم الدين (٧/١).

QaradawiBooks.com

متى يكون الإنسان أضل من الحيوان؟

لماذا كانوا أضل من الأنعام سبيلًا؟ لأنَّ الأنعام لم تُؤت ما أُوتي الإنسان، لم يُؤتها الله هذه المواهب والملكات، لم يُؤتها هذا الفؤاد أو هذا العقل، ولم يبعث إليها رسولًا، ولم يُنزل عليها كتابًا، فهي معذورة إذا ضلت، فإذا ضل الإنسان يكون أضل منها.

ثم من ناحية أخرى: الأنعام تُؤدي مهمتها في الحياة، كل فرد من هذه الأنعام الإبل أو البقر أو الغنم أو الخيل أو البغال أو الحمير تُؤدي وظيفتها، هل رأينا بقرة تمرَّدت على أن تُحلب؟ أو حمارًا تمرَّد على أن يُركب؟ لا. بل تخدمنا وهي صحيحة، ونأكلها وهي ذبيحة، فهي تُؤدي مهمتها، وتقوم بوظيفتها، ولكن وظيفة الإنسان أن يعبد الله ﷻ، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولكن الإنسان تمرَّد على وظيفته، الأنعام قامت بواجبها وهو لم يقم بواجبه، لذلك كان أضل من الأنعام سبيلًا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

ثم بيَّن الله ﷻ السِّر وراء هذا كله فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الغفلة وراء هذا كله، الغفلة عن الله، الغفلة عن الدار الآخرة، الغفلة عن المصير الحتمي لكل إنسان، الغفلة عن الحساب والجزاء، عن الجنَّة والنَّار، الغفلة عن هذا كله هي سرُّ هذا الضلال الَّذي فاق ضلال الأنعام، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

المطلوب منا اليقظة، يقظة القلوب، لنكون مع الله دائمًا، ولنستذكر الآخرة دائمًا، ونستذكر الحساب والجنة والنَّار، نسأل الله أن يجعلنا من أهل اليقظة، وأن يجعلنا ممَّن قال الله فيهم: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِي

تفسير

سورة الإسراء

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

وصايا الحكمة الَّتي يُبنى عليها المجتمع المسلم

استمعنا الليلة إلى سورة الإسراء، وفي سورة الإسراء وصايا من الله تعالى، وهي تفصيل لوصايا جاءت في سورة الأنعام، يسمِّيها العلماء: «الوصايا العشر»، الَّتي جاءت في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ..﴾ وما بعدها من الآيات. فهي آيات ثلاث جاء في ختامها كلها: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ ومن كلمة ﴿وَصَّىٰكُم﴾ أخذ العلماء، اسمًا لهذه الآيات: الوصايا العشر.

وصايا سورة الإسراء تفصيل للوصايا العشر في الأنعام:

هذه الوصايا العشر فُصلت في سورة الإسراء، وزيد عليها، عدة أشياء لم تذكر في سورة الأنعام، من ذلك، قوله تعالى:

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

ومن ذلك أيضًا: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

---

(١) من دروس تراويح ١٤٢٢هـ.

QaradawiBooks.com

وأيضًا: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۞ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦، ٣٧].

وفي سورة الأنعام وصيَّة لم تُذكر هنا في سورة الإسراء، وهي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. فهي وصايا يكمِّل بعضها بعضًا.

وصايا الإسراء وصايا الحكمة:

أطلق بعض العلماء على هذه الوصايا اسم: «وصايا الحكمة»؛ لأن الله تعالى قال لرسوله في نهايتها: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩]. وسمِّيت بذلك أيضًا؛ لأنَّها وصايا معلَّلة؛ حيث ذكر الله فيها علة النهي مع النهي.

فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، فالعلة مذكورة، وقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]. وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، هذا التعليل جعلها من وصايا الحكمة.

وصايا الحكمة وتكوين العقيدة السليمة للشخصيَّة:

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢].

وهذه الوصايا تريد أن تُكوِّن الفرد المسلم، والأسرة المسلمة، والمجتمع المسلم. تريد أن تُكوِّن الفرد المسلم الَّذي عماد شخصيته العقيدة السليمة، والعقليَّة السليمة، والأخلاق الفاضلة، ولذلك بدأت هذه الوصايا بقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾، نهى

QaradawiBooks.com

عن الشرك، وفي ختامها: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩] الشرك هو الَّذي خرَّب الحياة البشريَّة، وأضل النَّاس عن طريق الله طوال التاريخ، ولذلك كانت مهمَّة الرسل الأولى: أن يحرِّروا النَّاس من الشرك، ويدعوا النَّاس إلى التوحيد، ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، فأول ما تُبنى عليه شخصيَّة الإنسان المسلم: التحرر من الشرك، والقيام على توحيد الله ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

وصايا الحكمة وتكوين العقليَّة السليمة:

﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وكذلك يُنشئ الإسلام المسلم على العقليَّة المتفتحة، العقليَّة المتطورة، العقليَّة الَّتي تنظر إلى كل شيء في ضوء البرهان، لا تستسلم للخرافات، ولا للأباطيل، ولذلك في هذه الآيات يقول الله: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾، لا تتبع أشياء ليس لها أساس علمي، لا تستند على شيء من عقل أو نقل ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾.

فالله أعطاك أدوات تطلُّ بها على الحالة، نوافذ تفتح بها آفاق المعارف، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، تستمع لتتعلم الأشياء المنقولة ـ خصوصًا المنقولة من الوحي ومن الدين ـ تُعرف بالسماع. وبالبصر: ترى أنَّ العلم الحديث قائم على الملاحظة والتجربة، على ما تشاهده بعينك في المختبرات والمعامل. والفؤاد: هو العقل، تُحاكِم كل شيء إلى المنطق، لا تستسلم للخرافات.

QaradawiBooks.com

سُئلت أكثر من مرة: إنَّ رمضان إذا وافق يوم الجمعة اليوم الخامس عشر من رمضان، يحصل كذا وكذا، ومن أين هذا الكلام؟ ومن المعلوم أصلًا: أنَّ رمضان كل كذا من السنوات يأتي يوم جمعة، وإذا جاء يوم جمعة، كان منتصفه يوم جمعة، فما الجديد الَّذي جئت به، إنَّها عمليَّة دورية، لأن السنة القمرية ٢٥٤ يومًا أو ٢٥٥ يومًا، عندما تقسم ٢٥٤ على ٧، ستجد الناتج: ٥٠ وستبقى ٤ أيام، وهم لا يكوِّنون أسبوعًا، فيكون رمضان هذه السنة يوم جمعة، والقادمة يوم أحد، والَّتي بعدها يوم الثلاثاء، وهكذا. فكل حوالي سبع سنوات، لا بدَّ أن يأتي رمضان يوم جمعة، فلا بدَّ أن نُعمِل عقولنا.

ومثل هذا: من يقول: إذا جاء يوم عرفة يوم جمعة، فيكون بسبعين حجة. ولا بد أن يأتي كل عدد من السنوات يوم جمعة، وهذا يعني أنَّ الإنسان لا يُعمِل عقله.

الله يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، فكِّر بعقلك، ولذلك الإسلام يريد أن يربي الشخصيَّة الَّتي تفكر بعقل، فالدين لم يأت ليلغي العقول، كما يظن بعض النَّاس، وليس عندنا في الإسلام كما في المسيحيَّة: اعتقد وأنت أعمى. أو أغمض عينيك ثمَّ اتبعني. لا، بل عندنا: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، والمحققون من علمائنا يقولون: إن إيمان المقلِّد غير مقبول، الَّذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] هذا مرفوض تمامًا في الإسلام، لا بدَّ أن يكون عندك دليل ولو على الأقل دليل إجمالي.

فحينما أقول لك: لماذا آمنت بالإسلام، تقول على الأقل: ومن خلقني؟ ومن خلق هذا الكون؟ ومن أبدع هذه الأشياء؟ وهذا يسمَّى

QaradawiBooks.com

دليل العِلِّية، أو السببية، والأعرابي قديمًا قال: البعرة تدلُّ على البعير، وخط السير يدلُّ على المسير. وهذه تُسمَّى أدلَّة إجماليَّة.

وصايا الحكمة وتكوين الأخلاق الفاضلة:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

فلا بدَّ للشخصيَّة المسلمة أن تتكون من العقيدة السليمة، ومظهرها التوحيد، والعقليَّة السليمة، والأخلاق الفاضلة، الَّتي نرى إشعاعها على النَّاس، مثل قولــه تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾. فتبدأ الأخلاق أوَّل ما تبدأ بالإشعاع على الأسرة، على الوالدين، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، تبدأ الأخلاق ببر الأبوين وخصوصًا في حالة الكبر.

ولذلك يقول النبــيُّ ﷺ: «**رَغِمَ أَنْفِه، ثمَّ رَغِــمَ أنفه، ثمَّ رغم أنفه**» قيل: من يا رســولَ الله؟ قال: «**من أدرك والديه عنــد الكبر أحدهما أو كليهما ثمَّ لم يدخل الجنَّة**»[1]. عند الكبر: ضيَّع هذه الفرصة، أن يخدم أبويه عند الكِبر، وشُغل بنفســه وامرأته وعياله، ونسي أباه أو أمه، أو أدخلهما دار العجزة، ثمَّ يقول: إنَّه لا يريد أن يأكل! وهل الإنسان أكل وشــراب فقط؟! إنَّه يريد أن يعيش معك ومع أولادك، يريد أن يحكي لأحفاده الحكايات.. تحرمه من جو الأسرة، وترميه في دار العجزة؟! هذه الأشــياء غريبة عن مجتمعاتنا، وقد عرفها المجتمع الغربي، لأن

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٥١)، وأحمد (٨٥٥٧)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

عندهم بمجرد أن يبلغ الفتى أو تبلغ الفتاة يذهب إلى حال سبيله، يبحث الولد عن صديقة، وتبحث البنت عن صديق، ولا يعرفون أبًا ولا أمًّا، ويأتون كل عام في عيد الأم فيرسل لأمه أو لأبيه زجاجة عطر، أو أي شيء من الهدايا، حتَّى إنَّه لا يذهب ليزوره، بل يرسلها له بالبريد. وهذه ليست حياة المسلمين.

لقد قال الله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ وانظروا إلى قول الله: ﴿عِندَكَ﴾ كأنهما أمانة عندك، ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ إيَّاك أن تجرح شعورهما بأيّ كلمة، حتَّى ولو بما ليس كلامًا، مثل «أُفٍّ»؛ لأنَّ الأب أو الأم في هذه المرحلة، في شدَّة الحساسية، فأيُّ إساءة مهما كانت بسيطة، يعتبرها أنَّها سهم موجه إلى صدره، فيتألم منه، فإيَّاك أن تؤلمه بمجرد إظهار التأفف. وليس الإيذاء بالشتم أو الضرب، فهذا مصيبة كبيرة.

يقول سيِّدنا الحُسين بن عليٍّ رضي الله عنه: لو علم الله في العقوق شيئًا أدنى من أف لحرَّمه[1]. فليس هناك أقل من أف، ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ قل لهما القول الحسن الجميل.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

إنَّ الله يحبُّ للمؤمن أن يكون عزيزًا، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ولكن هل يريد الله هنا أن يذل الإنسان لأبويه؟ نعم يذل لهم، فالذل هنا محمود.

(١) الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي (٣٥٣/٣)، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

إيَّاك أن تذل نفسك لأمير أو وزير أو رئيس، ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩] ولكن الذلَّة محمودة في موضعين في القرآن الكريم:

الأول: ذلَّة المؤمن على أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

والثاني: ذلَّة الإنسان لأبويه: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾، فمن رحمتك بهم ذلَّ لهم، وهذا هو العز الحقيقي، ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

ومهما عمل الإنسان فلن يفي بحق أبويه، وقد روى البزار أنَّ رجلًا كان يحمل أمه يطوف بها حول الكعبة، فقال للنبيِّ ﷺ: هل أدَّيتُ حقَّها؟ قال: «**لا، ولا بزفرةٍ واحدة**»[1]. يعني وهي تتألَّم من الطلق والولادة، كل ما تفعله لا يساوي شيئًا من هذه الآلام. فالله يقول: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، وقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥].

وربما يصدر من الإنسان شيء وهو بار بوالديه محسن لهما، فيغضب والديه، الله يقول عن ذلك: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ والأواب: الرجَّاع إلى الله، إن أذنب يستغفر

(١) رواه البزار (٤٣٨٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٣٩٥): فيه الحسن بن أبي جعفر وهو ضعيف من غير كذب، وليث بن أبي سليم مدلس. عن بريدة بن الحصيب الأسلمي.

QaradawiBooks.com

الله ويتوب إليه، ويخاف عذاب ربه، ويقول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وصايا الحكمة وتكوين الشخصيَّة المحسنة:

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]

هذه الوصايا تنشئ الشخصيَّة المسلمة البارة بوالديها، المحسنة إلى الأقارب والمساكين وأبناء السبيل: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ وقد أتى بالنهي عن تبذير المال في هذا الموضع، لأن الإنسان إذا أضاع المال، لم يجد ما ينفقه على الأقارب، ولذلك قيل: ما رأيت إسرافًا إلَّا وبجانبه حقٌّ مضيَّع[1]. إذا أسرفت في هذه النواحي، وخصوصًا النواحي المحرمة، لن تجد ما تنفقه على الأقارب والمساكين وابن السبيل.

وصايا الحكمة وتكوين الشخصيَّة المتواضعة:

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]

الإسلام ينشئ الشخصيَّة المتواضعة: لا تمشِ متبخترًا، كما في الأمثال: «يا أرض انهدِّي ما عليك قدِّي»، من أنت؟! وكم حوت الأرضُ من أمثالك. كما قال الشاعر:

ولا تمشِ فوقَ الأرضِ إلَّا تواضعًا ... فكم تحتَها قومٌ همو منك أرفعُ
وإن كنتَ في عزٍّ وحِرْزٍ ومَنْعَةٍ ... فكم مات من قومٍ هُمُو منكَ أمنعُ[2]

---

(١) ذكر منسوبًا لسيدنا معاوية في البيان والتبيين (١٧٧/٣)، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

(٢) البيتان لصالح بن جناح اللخمي. انظر: الأدب والمروءة صـ ٣٤، نشر دار الصحابة للتراث، طنطا، مصر، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

QaradawiBooks.com

والمَعَرِّي يقول:

صَاحِ هَذِي قُبُورُنَا تَمْلَأُ الرَّحْـ ... ـبَ فأينَ القبورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ؟
خَفِّفِ الوَطْأَ ما أظُنُّ أديمَ الـ ... أَرْضِ إلَّا من هذه الأجسادِ
سرْ إن استطعتَ في الهواءِ رُوَيْدًا ... لَا اخْتِيَالًا على رُفَاتِ العِبَادِ
فقبيحٌ بنا، وإن قدم العهـ ... ـدَ هَوان الآباء والأجدادِ[1]

يسأل المعرَّي إذا كانت جثثنا ملأت الأرض، فأين القبور من عهد عاد؟! لا شكَّ أنَّها إذا أصبحت ترابًا، نسير عليها.

لقد قدمتُ قطر منذ سنوات عديدة، من سنة ١٩٦١م، وكم من مقبرة فُتحت وأُغلقت، كانت هناك مقبرة قريبة بالسوق وأُغلقت، وفتحت مقبرة ناحية المطار وأغلقت، ثمَّ في أبو هامور، وتكاد تُغلق. فهذه القبور رأيناها تملأ الأرض، فأين القبور من عهد عادٍ؟

هذه الأرض الَّتي تمشي عليها لعلَّها قبور قديمة لآبائك وأجدادك وأنت لا تدري، فخفف الوطء، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾.

بهذه الوصايا ينشئ الإسلام الفرد المسلم الصالح، والأسرة المسلمة الصالحة، والمجتمع المسلم الصالح، الَّذي يتعامل بالحق في الكيل والميزان، وقُرب مال اليتيم بالَّتي هي أحسن، والوفاء بالعهد، ولا يقتل الأولاد خشية إملاق، ولا يقتل النفس الَّتي حرم الله إلَّا بالحق، ولا يقرب الزنى إنَّه كان فاحشة وساء سبيلًا.

هذا هو المجتمع الصالح، وهذه هي الأسرة الصالحة، وهذه هي الشخصيَّة الصالحة، الَّتي يربيها الإسلام بوصاياه.

---

(١) سقط الزند صـ ٧، نشر دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م.

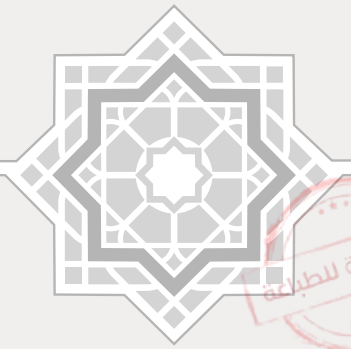
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



غير مرخصة للطباعة

دروس في تفسير

سورة الكهف



نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الأوَّل
حمد الله تعالى والثناء عليه في سورة الكهف

غير مرخصة للطباعة

سور بدأت بالحمد في القرآن الكريم:

سورة الكهف، إحدى سور خمس في القرآن الكريم، تبدأ بقول الله تعالى الحمد الله، أوَّل سورة بُدأت بالحمد لله: هي فاتحة الكتاب، ولذلك تُسمَّى سورة الحمد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢ ـ ٤].

وثاني هذه السور: هي سورة الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، صاحب الخلق، وصاحب الجعل، هو الله ﷻ.

وهذه هي السورة الثالثة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١]، المنَّة هنا في إنزال الكتاب والوحي ليهدي النَّاس ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

والسورة الرابعة سورة سبأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

والسورة الخامسة، سورة فاطر: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

QaradawiBooks.com

الصيغة الصحيحة لحمد الله تعالى:

هذه سور بدأها الله تعالى بالحمد، وبهذه الصيغة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، لم يقل كما يقول كثير من النَّاس في خطبهم الآن: إنَّ الحمد لله، أجد كثيرًا من الخطباء يبدؤون الخطبة بهذا، كأنهم يستدركون على القرآن، القرآن يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وهم يقولون: إنَّ الحمد لله، والمسلمون طوال العصور يقولون: الحمد الله، كل الكتب مبدوءة بالحمد لله.

غير مرخصة للطباعة

روايتان في صيغة الحمد:

جاء أناس في هذا الزمان يبدؤون خطبهم بقولهم: إنَّ الحمد لله، بناء على رواية في بعض الأحاديث، هناك رويتان، الأولى: أنِ الحمد لله، و«أنِ» هذه سمَّاها علماء النحو أنِ المفسرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

والثانية: إنَّ الحمد الله، اعتمدوا على هذه الرواية، وبدؤوا الخطب بـ «إنَّ الحمد لله»، وأتعجب من ذلك! القرآن مليء بالحمد الله، يعني هذه الكلمة أورثها لنا الإسلام، نقول إذا بدأنا الطعام: «**الحمد لله الَّذي أطعمنا وسقانا، وجعلنا مسلمين**»[(١)]، وإذا شربنا نقول: «**الحمد لله الَّذي جعله عذبًا فراتًا برحمته، ولم يجعله ملحًا أجاجًا بذنوبنا**»[(٢)]، وإذا استيقظ قال: «**الحمد لله الَّذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**»[(٣)].

نسخة مجانية

(١) سبق تخريجه (١٩/١).

(٢) سبق تخريجه (١٩/١).

(٣) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٢٥)، عن أبي ذر.

QaradawiBooks.com

حمد الله على كل نعمة:

وممَّا أورثه لنا الإسلام أن نقول في كل نعمة ندركها: الحمدُ الله، حتَّى إذا لم تدركنا النعمة، النبي ﷺ كان إذا ما ناله ما يحب، إذا ناله خير من الخيرات يقول: «**الحمد لله الَّذي بنعمته تتم الصالحات**». وإذا أصابه ما يكره يقول: «**الحمد لله على كل حال**»[1]، ولذلك نحن نقول في كلماتنا المتوارثة: الحمد لله الَّذي لا يُحمد على مكروه سواه، لا يحمد أحد على مكروه إلَّا الله، إنَّما نحمد الأشياء المحبوبة والسارة، الأشياء الَّتي نفرح بها، ولكن إذا أصابنا مكروه من الله نقول: الحمد الله، لأن الإنسان لا يعلم ما هو الخير وما هو الشر بالنسبة له، والله تعالى يقول: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، لأنَّك لا تعرف أين الخير، قد يكون الخير في طي الشر، وربَّ ضارَّة نافعة، وكم منحة في طي محنة، ولذلك الإنسان يحمد الله على السرَّاء وعلى الضرَّاء، ومن صفات المؤمنين ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]، يعني هم الَّذين يحمدون الله دائمًا في كل الأحوال، وعلى كل الأحيان يحمدون الله ﷻ، صفة من صفات المؤمنين أن تحمد الله.

معنى الحمد الله:

ما معنى حمد الله، أنَّك تصفه بكل كمال يليق به، وأيضًا الحمد يتضمَّن معنى الشكر، ليس هو الشكر، ولكنَّه جزء من الشكر، لأن الشكر على النعم، له مظاهر عدة، أو له مقومات.

---

(١) سبق تخريجه (١٩/١).

QaradawiBooks.com

المقوم الأوَّل: أن تعترف بـــأن صاحب النعم هو الله، هو واهبها، وما بكم من نعمة فمن الله، شكر بالقلب.

المقوم الثاني: شكر اللسان، أن تحمد الله وتقول: الحمد الله، فإذا أتاك الله نعمة، فقل الحمد الله، كما قال الله تعالى لسيدنا نوح: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنـــون: ٢٨]، الطوفان عمَّ الأرض، من فوق ومن تحت، الأرض فجرناها عيونا، والسماء ينزل منها ماء منهمر، والعالم يغرق، وأنت وحدك ومن معك في السفينة: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

سيِّدنا إبراهيم عليه السلام حينما وهبه الله على الكبر ولديه إسماعيل وإسحاق، بعد أن شاب وبلغ من الكبر عتيًّا، آتاه الله إسماعيل وإسحاق فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، هو يحمد الله على هذه النِّعمة، ويدعـــو الله بعد ذلك فيقول: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

سيدنا داود وســـليمان آتاهما الله علما، وعلَّمهما منطق الطير فقالا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

الله يستحقُّ الحمد بذاته ولذاته:

فشأن الإنســـان المؤمن أن يحمدَ الله دائمًا، يستشعر نعم الله وفضل الله وإحســـان الله وكمال الله، الَّذي يســـتحق الحمد بذاته ولذاته ولو لم يُسْدي إليك أي نعمة، هو يســـتحق الحمد، يستشـــعر هذا ويقول من أعماق قلبه: الحمد الله، ولذلك أمر الله رسوله في آيات كثيرة في القرآن بقول الحمد الله، كما في الآية الكريمة في أواخر ســـورة الإسراء: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإســـراء: ١١١]،

QaradawiBooks.com

وفي سورة النمل: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، وفي آخر السورة: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣].

المفاضلة بين الحمد والتهليل:

يجب أن نقول: الحمد الله، وهذه كلمة كبيرة، حتَّى أن بعضهم فاضلوا، أيهم أكثر فضلا وأكثر مضاعفة للثواب، كلمة التحميد، أم كلمة التهليل؟

كان الإمام سفيان الثوري يقول: كلمة التحميد أفضل؛ لأن الله بدأ بها كتابه، فقال: الحمد لله رب العالمين، وفي الحديث الصحيح: «**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان**»[1] كلمة الحمد لله تملأ الميزان، ولذلك أمرنا أن نختم الصلاة فنقول: سبحان الله ثلاثًا وثلاثين مرَّة، والحمد لله ثلاثًا وثلاثين مرَّة، والله أكبر ثلاثًا وثلاثين مرَّة، ونكمل المائة بـ: لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير[2]، انظر: حتَّى في التهليل نقول له الملك وله الحمد، نكرِّر ذكرها، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١]، ففي التهليل حمد، وكذلك التسبيح، ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ١ ـ ٣]، حتَّى التسبيح جاء مقرونًا بالحمد: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٨]، عند الضيق والكرب والأزمات، سبِّح بحمد ربك، وكذلك إذا جاء نصر الله لعباده المؤمنين، وفتحه لجنده الغالبين، فسبِّح

(١) رواه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، وأحمد (٢٢٩٠٢)، عن أبي مالك الأشعري.

(٢) رواه مسلم في المساجد (٥٩٧)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

بحمد ربك، فالتَّسبيح بحمد الله مطلوب في حالة النعماء وفي حالة الضرَّاء، في حالة الشدَّة، وفي حالة الرَّخاء، في حالة النصر، وفي حالة الانكسار، في كل هذه الحالات أنت مطلوب أن تسبح بحمد الله، والإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ ختم جامعه الصحيح بهذا الحديث: «**كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان**» ما هما هاتان الكلمتان؟ «**سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»(١).

ما أسهل هذه الكلمات وما أخفَّها! وما أحوج المسلم أن يرطب لسانه بهَا فهي أفضل وأعظم ممَّا يشغل الإنسان به لسانه ونفسه من كلام لا يفيد الإنسان شيئًا، بل ربَّما عاد ضرره عليه، نشغل أنفسنا وألسنتنا بالباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد الله، ولا إلٰه إلَّا الله، والله أكبر، فهذه هي الكلمات الَّتي اصطفاها الله من الكلام كله: «**إنَّ الله اصطفى من الكلام أربعًا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلَّا الله، والله أكبر، فمن قال: سبحان الله، كتب الله له عشرين حسنة، أو حط عنه عشرين سيئة، ومن قال: الله أكبر، فمثل ذلك، ومن قال: لا إلٰه إلَّا الله، فمثل ذلك، ومن قال: الحمد لله رب العالمين، من قبل نفسه، كتبت له ثلاثون حسنة، أو حط عنه ثلاثون سيِّئة**»(٢). فأكثر منها ما استطعت، الحمد الله، عود نفسك على هذا الكلام، سبحان الله، والحمد الله، ولا إلٰه إلَّا الله، والله أكبر، أهل الجنَّة حينما لقي النبي ﷺ ـ سيِّدنا إبراهيم ليلة الإسراء قال:

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٥٦٣)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٤)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٨٠١٢)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٦٠٨)، والحاكم في الدعاء (٥١٢/١)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٨٣٧): رجال أحمد رجال الصحيح. عن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة.

QaradawiBooks.com

«**قال: يا محمَّد، أقرئ أمَّتك منِّي السلام وأخبرهم أنَّ الجنَّة طيِّبة التربة عذبة الماء، وأنَّها قيعان، وأنَّ غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر**»[1]. فأكثروا من هذه الكلمات.

آخر دعاء أهل الجنة:

أهل الجنَّة آخر دعواهم الحمد لله ربِّ العالمين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۞ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٩ ـ ١٠]، وعندما يدخلون الجنَّة يقولون: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ۞ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥]، ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

أهل الجنَّة الحمد هو شأنهم باستمرار، يحمدون الله، والملائكة يحمدون الله ويسبحون بحمده دائمًا: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٥]، ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، وآخر دعاء أهل الجنَّة: ﴿أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

فاستكثروا أيُّها الإخوة من الحمد الله، استشعروا نعم الله تعالى عليكم، وفضله العظيم الَّذي يغمركم، منذ أن كنتم في بطون أمهاتكم، وإلى أن تودِّعوا هذه الدُّنيا، فضل الله لا يتركك لحظة واحدة، لو زال

(١) رواه الترمذي في الدعوات (٣٤٦٢)، وقال: حسن غريب. عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

عنك فضل الله ما عشت، فضل الله هو الَّذي يحييك، فضل الله هو الَّذي يهديك، وفضل الله هو الَّذي يحميك من كل سوء، فكن دائمًا على ذكر من هذه الحقيقة، واحمد الله علـــى كل حال، وقل: الحمد الله، الحمد لله في السراء، والحمد لله في الضراء، الحمد لله في الرخاء، والحمد لله في الشـــدائد، الحمد لله على النعمة، والحمد لله على البلاء، الحمد لله على الصحَّة، والحمد لله على المرض.

دخل أحدهم على رجل مريض لا يتحرك فيه شـــيء من جسده إلَّا لسانه فقط، فسمعه يقول: الحمد الله، فقال له: علام تحمد؟ لا يوجد فيك شيء سليم! فقال: يا هذا ويحك، أحمده أن جعل لي لسانًا أذكره، وقلبًا أشـــكره، ترك لي العقل واللســـان، فالحمد لله الَّذي آتانا نعمة الإسلام، الحمد لله على أعظم النعـــم نعمة الإيمان: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الحجرات: ٧ ـ ٨].

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الثاني
صور من النماذج البشريَّة «في سورة الكهف»[١]

سلكنا من شهر رمضان نصفه، وبدأنا النصف الثاني، وهكذا تنقضي الأيام سراعًا، تمر مرَّ السحاب، وكلها من أعمارنا، كما قال الشاعر:

يُسَرُّ المرءُ مَا ذَهَبَ الليالي وكان ذَهَابُهُنَّ له ذِهابَا[٢]

كلُّ ليلة تذهب هي صفحة تُطوى من عمرك، والسعيد من طُويت صفحاته وهي مليئة بالخير والصالحات، والشقي من لم يكن كذلك، ونسأل الله سبحانه أن يجعلنا من السعداء، وأن يجعل يومنا خيرًا من أمسنا، ويجعل غدنا خيرًا من يومنا.

كان بعض السلف يقول: من كان يومه كأمسه فهو مغبون، ومن كان يومه شرًّا من أمسه فهو ملعون. فالذي يستوي يومه مع أمسه مغبون لأنَّه لا يتقدَّم، كالتاجر الَّذي لا يربح، يوشك أن يضيع رأس ماله، أمَّا الَّذي يكون يومه شرًّا من أمسه فهذا ملعون والعياذ بالله، لأنَّه ينحدر ويهوي

(١) من دروس تراويح ١٤٢٢هـ.

(٢) شاهد نحوي يذكره النحاة من غير نسبة، انظر: المفصل للزمخشري صـ ٤٢٩، تحقيق د. علي بوملحم، نشر مكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، وقد عزاه البحترى في حماسته إلى عبد الرحمٰنِ بن أَسد الأسدي. انظر: حماسة البحتري صـ ٢٠٥، تحقيق د. محمَّد إبراهيم حُوَّر وأحمد محمد عبيد، نشر هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م. غير أن شطره الأول:

يَـوَدُّ المـرءُ لَـوْ نَفِـدَ اللَّيَالـي

QaradawiBooks.com

إلى الأسفل، فالواجب على المسلم أن يحاول ليكون يومه خيرًا من أمسه، وغده خيرًا من يومه، ولهذا ندعو دائمًا: اللهمَّ اجعل يومنا خيرًا من أمسنا، واجعل غدنا خيرًا من يومنا.

في وقفتنا اليوم مع القرآن، وقد ختمنا سورة الكهف، وسورة الكهف مليئة بالنماذج البشريَّة، ممَّا يُقدمه القرآن للنَّاس دائمًا، يقدم لهم المعاني والقِيَم، والمفاهيم والفضائل والرذائل، في نماذج بشريَّة، مجسَّمة متحركة، حتَّى يحسها النَّاس، فالناس لا تتعامل مع النظريات التجريديَّة، مع الفلسفة المجرَّدة، وإنَّما تتعامل مع الوقائع المحسوسة الملموسة، ولهذا يحرص القرآن الكريم أن يقدِّم لنا هذه النماذج في قصصه، فالقصص ليس المقصود بها التسلية، وإنَّما كل قصَّة بها عبرة، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يجسِّد لك في كل قصة، معنى من المعاني، ونموذج من النماذج.

وإذا رأينا وتأملنا في سورة الكهف، وجدنا فيها عددًا من النماذج البشريَّة، ودعونا ننظر في هذه النماذج خلال هذه الجلسة.

نموذج فتية أهل الكهف:

نموذج الشباب حينما يؤمن ويستقر الإيمان في قلبه، ويصبح الإيمان قضيته الأولى، وفي هذه الحالة، لا يبالي ما يصيبه من أذى، وما يناله من لأواء، ويقدِّم عنقه وروحه، فداء لعقيدته. هؤلاء هم فتية أهل الكهف.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ۝ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ هذه الآلهة المزعومة يعبدونها بلا أدلَّة ولا براهين ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٥].

QaradawiBooks.com

هذا النموذج من الشباب يحدثنا عنه القرآن، وتجده لا يهتم بالتفاصيل التاريخية، فالقرآن ليس كتاب تاريخ، ولذلك لم يذكر لنا من هم هؤلاء الشباب؟ وما هي أسماؤهم، وفي أيّ عصر كانوا، وفي أيّ زمن كانوا، وفي أيّ بلد كانوا؟ وما أعدادهم؟

وقد ذكرت الإسرائيليَّات أسماءهم، وعددهم، ولكن القرآن لم يهتم لهذا، حتَّى احتار البعض في أيّ بلد كان هذا الكهف! قالوا في الأردن، وقالوا في سوريا، وقالوا في تركيا، وفي كل هذه الأماكن قبور يقال عنها لأصحاب الكهف، والقرآن لم يهتم بذلك.

ولكن القرآن لم يذكر هذا، وقد اهتم بذكر الكلب الَّذي كان معهم، بل كرر ذكره أكثر من مرَّة، فقال: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾، وقال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وكأن الكلب أصبح واحدًا منهم، لأنَّهم هم القوم لا يشقى بهم جليسهم، ولو كان كلبًا، فالكلب دخل التاريخ لصحبته أهل الإيمان، فيذكره الله عدة مرَّات في كتابه الخالد.

أمَّا عددهم، فقد اختلفوا فيه، والله قال: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ لا تتعمق في الجدل في هذه القضيَّة، فإنَّها لا تستحق، ليعلقنا بالمعاني أكثر ممَّا يعلقنا بالأسماء، أسماء الأماكن، أسماء الأشخاص، وأعدادهم، وتواريخهم، إلخ، فالقرآن لم يهتم بهذا، إنَّما اهتم بالعبرة.

نموذج صاحب الجنتين:

بعد أن ذكر الله لنا في هذه السورة نموذج أصحاب الكهف، ذكر لنا نموذجًا آخر، نموذج الغني الفاجر، الغني الَّذي لا يشكر نعمة الله عليه،

QaradawiBooks.com

صاحب الجنتين، فقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۞ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٢، ٣٣] جنات وأنهار، وزرع وخضرة، ومع ذلك لم يشكر نعمة الله بل طغى وتكبَّر، كما قال الله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

يقول الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۞ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۞ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۞ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۞ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۞ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۞ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥ ـ ٤١] وقد كان، فقد أهلك الله هذه الجنَّة، وأصبح هذا الرجل ـ كما قال الله سبحانه ـ: ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢].

وقد يسأل أحد الناس: من هو هذا الرجل؟ وفي أي بلد كان؟ وفي أي عصر؟ وما اسمه؟ القرآن لم يهتم بهذا، لأنَّه أراد بهذه القصَّة أن يوصل لنا نموذجًا للغني الَّذي لا يعتبر المال نعمة من الله عليه، وأنَّه مستخلف فيه، وأنَّه أمانة في عنقه، وأن عليه أن يؤدي شكر هذه النعمة، وحق هذا المال، ويعترف لربه بما أتاه، ويقول ما قاله سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

نموذج الراحل في طلب العلم:

ذكرت لنا سورة الكهف نموذجًا آخر، نموذج الراحل في طلب العلم،

QaradawiBooks.com

وقد أُوتي علمًا كثيرًا، ولكن العلم بحر لا شاطئ له، ولا يشبع منه أحد، هذا النموذج هو: موسى عليه السلام، أحد الرسل الكبار، من أولي العزم من الرسل، والَّذين جمعهم الله في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] هؤلاء الخمسة هم أولو العزم.

فموسى عليه السلام الَّذي آتاه الله التوراة، وكلمه تكليمًا، واصطفاه برسالاته، وبكلامه، ومع هذا أراد أن يطلب العلم، حينما عرف من الله تعالى أن هناك عبدًا عنده من العلم ما ليس عند موسى عليه السلام، فلم يجمع أحد العلم كلَّه، ولكنَّه لما عرف أن هذا الرجل يعرف من العلم ما ليس عند موسى، وعرف مكانه، أخذ فتاه ورحل.

كان هذا المكان هو مجمع البحرين ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠] أين هو مجمع البحرين؟ لا نعلم. بعض العلماء قال: ما بين خليج العقبة وخليج السويس؛ لأن موسى عليه السلام كان في صحراء سيناء، فمن المعقول أن يكون مجمع البحرين، هي نقطة التقاء خليج العقبة مع خليج السويس. وعلى كل حال فلم يهتم القرآن بهذا، ولا يهمه تلك التفاصيل الجغرافية والتاريخية.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ۝ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦١، ٦٢] يبدو أنَّهم يسيرون على أقدامهم، فتعبوا وأنهكت قواهم. ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى

QaradawiBooks.com

﴿ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ۞ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ۞ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٣ ـ ٦٥] ما اسم العبد، لم يذكر ذلك القرآن، ولكن جاءت بعض الروايات الصحيحة تثبت أنَّ اسمه الخضر[1]، ولم يهتم القرآن أيضًا بذكر العبد الَّذي كان مع موسى؛ لأنَّ القرآن يهتم دائمًا بالعبرة من القصَّة. القرآن يهتم برؤوس العبر، والمسلمون للأسف يجعلون أكثر اهتمامهم بالتفاصيل.

قابل موسى عليه السلام هذا الرجل، وقال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، وانظروا إلى هذا الأدب النبوي العظيم، فلم يقل: أرافقك، ولا أصاحبك، وإنَّما قال له ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ أكون تابعًا لك، لأنِّي سأتعلم منك، وما دمت سأتعلم منك، فأنت سيدي وأنا تابع لك. وهذا يظهر مدى الأدب وحسن الخلق والتواضع عند موسى عليه السلام.

فردَّ عليه الخضر: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۞ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧، ٦٨] الإنسان عادة لا يستطيع الصبر على الشيء الَّذي لا يعرف اسمه وأصله، وحكايته، فرد موسى عليه السلام: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۞ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٦٩، ٧٠] واتَّفقا على ذلك.

وبالفعل لم يصبر موسى عليه السلام، وهو يرى العجائب الَّتي يفعلها هذا الرجل، من خرق للسفينة، وقتل للغلام، وبناء الجدار، ولكن الله هو الَّذي أرسله إليه، فلا بدَّ أن وراء هذه الأفعال حكمة، كما قال له في نهاية القصَّة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي بوحيٍ من الله. ولذلك فالقول الصحيح أن هذا العبد نبيّ من الأنبياء.

(١) من ذلك حديث ابن عباس المتَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧٤)، ومسلم في الفضائل (٢٣٨٠).

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

كان موسى عليه السلام يعترض ويسأل في كل مرَّة، ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾، ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾، ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

وكان الخضر يرد عليه، فقال في المرَّة الأولى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]، وفي الثانية: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥]، وفي الثالثة: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ..﴾ [الكهف: ٧٨].

بين الحقيقة والشريعة:

وهناك مسألة خاض فيها الكثير: هل نتبع الحقيقة أم نتبع الشريعة؟ والحق أنَّنا نتبع الشريعة، فلو حصل مثلًا أن ادَّعى أحد النَّاس أنَّه من الأولياء، وقتل شخصًا، أو خرق سفينة، ماذا يكون موقفنا؟ موقف موسى أم موقف الخضر؟ لا شك: أنَّنا سنقف موقف موسى، ونسأل: لماذا خرقتها؟ ولماذا قتلت هذا؟ لا بدَّ أن نُنكر. وهذا موقف الشريعة، فإن الخضر قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾، ولا يمكن لشخص بعد مُحَمَّد ﷺ أن يقول هذا، فإن الوحي انقطع بموته ﷺ. فموقفنا موقف موسوي، وأي شيء نراه مخالفًا للشرع لا بدَّ أن نُنكر عليه، ولا يوجد أحد يدَّعي أنَّه فوق الشرع، أو أن له شرعًا خاصًّا به؛ لأنَّه لا يوجد أحد له شرع بعد مُحَمَّد ﷺ.

نموذج الحاكم العادل:

والنموذج الأخير في سورة الكهف، هو نموذج الحاكم العادل، والَّذي يتمثَّل في ذي القرنين، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣] من هو ذي القرنين؟ القرآن لم يخبرنا بهذا.

QaradawiBooks.com

البعض قال: إنَّه الإسكندر المقدوني، ولكن هذا أيُّها الإخوة لم يكن مؤمنًا، بل كان وثنيًّا، ولما دخل مصر سجد لإلٰـه المصريين في ذلك الوقت «رع أو آمون رع». ولم يُعرف عنه أنَّه كان من المؤمنين.

ومنهم من قال: إنَّه من أذواء اليمن، من ذي يَزَن، إلخ

وهناك أقوال أخرى..

وأكثر الأقوال قبولًا وأرجحها عندي: هو ما انتهى إليه العلَّامة الهندي «مولانا أبو الكلام آزاد» وهو من كبار علماء الهند، كتب بحثًا من أعظم ما كتب عن شخصيَّة ذي القرنين في القرآن، وقال: هو «قورش» الملك الفارسي، الَّذي احتفل شاه إيران في نهاية حياته، بمناسبة مرور ٢٥ قرنًا على «قورش».

و«قورش» ذكر في التوراة، وهذا ما جعل اليهود يسألون النبي عنه، كما قال الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ..﴾، والظاهر: أنَّ اليهود هم الَّذين سألوا النبي ﷺ، عن ذلك وعن الروح وغيرها[1].

فذكر أبو الكلام أن له من الفتوح شرقًا وغربًا، وأتى بصورة تمثال له في إيران، وله جناحان، وقرنان، ليبين أن كلمة «القرنين» لها أصل.

وذكر عن قبائل يأجوج ومأجوج أنَّها قبائل هناك في بلاد الشرق، وأنها قبائل همجية، إلخ.

العبرة هنا: أنَّ الله ذكر لنا في القرآن نموذج الحاكم العادل، فرغم أنَّه وصل مغرب الشمس، ووصل مطلع الشمس، وآتاه الله من كل شيء

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/٣٠٠، ٣٠١). وسؤال اليهود عن الروح متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢٥)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٩٤)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

سببًا، ومكَّن له في الأرض، وخضعت له الأمم، ومع هذا كله، لم ينس ربه ﷻ، فكان مؤمنًا، يقول: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ..﴾، ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ..﴾.

وكان رجلًا عادلًا، يُثيب المحسن، ويُعاقِب المسيء، وهذه سنَّة الله في الكون، والحاكم العادل، لا بدَّ أن يُثيب من أحسن، ويُعاقِب من أساء، لأن النَّاس إذا أمنوا العقوبة أساؤوا الأدب، وأساؤوا التصرف.

أمَّا أن تترك النَّاس، فلا تشكر المحسن، والمسيء تتركه، وإذا كان له واسطة أو قريب يدفع عنه، لا يستطيع أحد أن يكلمه! فهذا هو سبب الفساد.

أمَّا ذو القرنين، فقالوا له: ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۞ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۞ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٦ ـ ٨٨].

وعندما جاءه جيران يأجوج ومأجوج: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤] من الشعوب المستضعفة، والَّتي تريد أن تدفع مالًا، وتترك غيرها ليدفع عنها، فقالوا له: ﴿نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾، ولكن ذو القرنين أراد أن يرتفع بمستوى هؤلاء القوم، الَّذين يريدون أن يدفعوا خرجًا ليدفع عنهم غيرهم، فقال لهم: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: ما يقدِّرني الله على فعله سأفعله، ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ اعملوا معي، أعينوني، ولهذا قيل: إذا تعاون الحاكم مع الشعب، كانت بلاده قوَّة هائلة، ومشكلة الحكام أنَّهم لا يتعاونون مع الشعوب، لا يستعينون بقوى الشعوب، والشعوب عندها قوَّة مذخورة، تحتاج إلى من يحركها ويستثيرها،

QaradawiBooks.com

ويستفيد منها، ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ اجمعوا لي قطع الحديد القديمة (الخردة)، ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي: بين الجبلين ﴿قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أعطوني نحاسًا مذابًا لأصبَّه على هذا الحديد المُذاب ليزداد قوَّة وصلابة، وأقام هذا السد العظيم بالتعاون بينه وبين الشعب، دون أن يأخذ منهم خرجًا أو شيئًا من ذلك. ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧].

ولما أقام هذا السد قال: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨] وهذه صفة الإنسان المؤمن، إذا آتاه الله نعمة، ومنَّ عليه بشيء كبير، يُرجع الفضل إلى الله، مثل سليمان عليه السلام، حين جاءه عرش ملكة سبأ في لمح البصر، ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

هذا نموذج رابع ذكرته آيات سورة الكهف، وعلينا أن نستفيد من هذه النماذج القرآنيَّة، في فهم هذا الكتاب العظيم، الَّذي أورثنا الله إيَّاه، عسى أن نكون من أهل القرآن، وعسى أن يشفع لنا القرآن، ويشفع لنا رمضان، فالقرآن والصيام يشفعان للعبد يوم القيامة، كما قال المصطفى ﷺ[1].

(١) رواه أحمد (٦٦٢٦)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده ضعيف. والطبراني (٣٨/١٣)، والحاكم في فضائل القرآن (٦٦٢٦)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٠٨١): رواه أحمد والطبراني في الكبير، ورجال الطبراني رجال الصحيح. عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

الدرس الثالث
تثبيت الإيمان بالغيب في مواجهة الماديَّات[1]

الإيمان في مواجهة الماديَّة:

انتهينا من الاستماع إلى سورة الكهف، هذه السورة الَّتي تُعنى بتثبيت الإيمان بالغيب في مواجهة الماديات، في مواجهة الجانب الحسي من الحياة، ولذلك رأينا قصَّة أصحاب الكهف، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، رأينا هؤلاء الفتية الَّذين قاوموا الشرك المتجبِّر، ولجؤوا إلى الكهف، ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦]، وظلوا في الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا، نيامًا تحسبهم أيقاظًا وهم رقود، ثلاثمائة سنة شمسيَّة، إذا حسبتها بالشمسيَّة ثلاثمائة سنة، وإذا حسبتها بالسنين القمرية تزداد تسعًا، لأن كل مائة سنة تفرق ثلاث سنين، ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا.

كيف عاش هؤلاء ثلاثمائة سنة بغير أكل، وبغير شرب؟ قضيَّة عجيبة، بعض الباحثين يقول: كأنَّ الكهف هذا كان مثل ثلاجة أو فريزر، الله أعلم، المهم أنَّ الله أبقاهم هذه المئات الثلاث من السنين ليكونوا آية لمن بعدهم، وليدلُّوا على أنَّ الله ﷻ قادر على أن يبعث النَّاس من بعد

(١) من دروس تراويح ١٤٢٤هـ.

QaradawiBooks.com

موتهم، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ [الكهف: ٢١]، هذه القصَّة دلت على الإيمان في مواجهة الماديَّة.

المؤمن في مقابلة من يملك الثروة:

وجاءت قصَّة صاحب الجنتين، المؤمن في مقابلة من يملك الثروة الهائلة ومن يُدِلُّ بماله ويغتر بثروته ويقول: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ۝ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦]، حتَّى لو قامت الساعة سأجد جنَّة أحسن من هذه الجنَّة، فهو يريد أن يكسب الدُّنْيا والأخرى بدون إيمان وبدون عمل وبدون شيء، لكن الله خيَّب ظنَّه، ونزل على جنَّته من السماء ما جعلها صعيدًا زلقًا، وأصبح ماؤها غورًا، فلن يستطيع له طلبًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٢].

غيبيَّات لا يعلمها الكثير من الناس:

وأيضًا وجدنا من القصص الإيمانية قصَّة موسى وصاحبه، هذا العبد الَّذي قال الله عنه: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [الكهف: ٦٥]، وهو الَّذي جاء فيه الحديث[1] فسمَّاه: «الخَضِر» عليه السلام.

وهذه قصَّة أيضًا دل فيها على أنَّ هناك غيبيات لا يعلمها الكثير من النَّاس، حتَّى بعض الأنبياء الكبار لم يُؤتوا علم هذه الأشياء، فموسى لا شكَّ أنَّه أفضل من الخضر، موسى من أولي العزم من الرسل، من الخمسة الكبار، من الأنبياء الَّذين جاء ذكرهم في قوله تعالى:

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٨٠)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ [الأحزاب: ٧]، وفيهم جاء قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، موسى الَّذي قال الله له: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

اصطفاه الله برسالاته وبكلامه، كلَّمه مباشرة بلا حجاب، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فمنهم من كلمه الله، والَّذي كلمه الله هو موسى، انفرد بهذا الأمر، كما قرأنا قول الله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢].

ومع هذا كان الخضر عنده من العلم ما ليس عند موسى، وجاء في الحديث أنَّ موسى قام في بني إسرائيل خطيبًا، وقال ليس في الأرض أعلم مني، فقال الله له: لا يا موسى، هناك في الأرض من عنده من العلم ما ليس عندك، قال: أين هذا؟ قال: اذهب لمكان كذا تقابله هناك، حيث تفقد الحوت الَّذي معك، وكان معه حوت أعده للأكل، أحياه الله وقفز في البحر، ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ۞ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ۞ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [الكهف: ٦٣ ـ ٦٥].

علَّمه الله ﷻ علمًا من لدنه، علم لا يُكتسب، ولا يُدرَّس في المدرسة، ولا يُؤْخذ عن شيخ، ولا بطريق الذكاء والاستنباط والاستنتاج العقلي تحصل على هذا العلم، ولا عن طريق الملاحظة والتجربة الَّتي

QaradawiBooks.com

قامت عليها العلوم الاستقرائية الحديثة كلها، لا، بل هو علم من لدن الله، ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

الأدب في تلقي العلم:

التقى به سيِّدنا موسى، وقال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، أنا أريد أن أتبعك، لم يقل أصاحبك، إنَّما قال: أتبعك، يعني: أتتلمذ عليك، أكون تابعًا لك، موسى عليه السلام يستأذنه ويقول له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾؟ هكذا المعلم.

كانوا زمان يقولون لنا: من علمني حرفًا صرت له عبدًا، الآن نجد الطالب يشتم المعلم ويتطاول عليه، وربَّما يضربه، يعني: لم يعد هناك احترام المعلم.

قالوا عن الإسكندر الأكبر كان يحترم معلمه، فقال له بعض الناس: نراك تحترم معلمك أكثر من أبيك؟ فقال لهم: إن معلمي سبب حياتي الباقية، وأبي سبب حياتي الفانية[1].

أبي يطعمني ويسقيني ويغذيني من أجل الحياة الماديَّة هذه كما يغذَّى الحمار، إنَّما معلمي يغذِّي عقلي، والحياة الباقية هي الَّتي تأتي عن طريق العقل والتفكير.

ولذلك قال الشاعر:

فهذا مُرَبِّي الرُّوحِ والرُّوحُ جَوْهَرٌ وذَاكَ مُرَبِّي الجِسْمِ والْجِسْمُ مِنْ صَدَفْ[2]

---

(١) انظر: شرح مقامات الحريري لأبي عباس الشُّريشي (٣٩٧/٣)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦م ـ ١٤٢٧هـ.

(٢) ذكره الميهي ولم ينسبه في حاشيته على شرح الرملي للستين مسألة من الفروض الواجبة صـ ٥، نشر دار الكتب العلمية، ٢٠١٤م.

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

زكاة العلم:

فموسى عليه السلام يقول لهذا العبد من عباد الله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾؟ تعلمني ممَّا علَّمك الله، والإنسان كما علَّمه الله عليه أن يُعلِّم غيره، كما آتاك الله من فيضه لا بدَّ أن تؤتي النَّاس ممَّا آتاك الله، كما قال: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، كما علَّمك الله عليك أن تعلِّم النَّاس، لو طلب منك أحد أن تكتب له ورقة أو كمبيالة أو نحو ذلك فلتكتب له، عليك أن تؤدي زكاة العلم، كما أنَّ المال عليه زكاة، العلم عليه زكاة، ولكن بشرط أن تكون تابعًا للمعلم، وأن تسمع للمعلم، وأن تكون تلميذًا للمعلم.

فموسى عليه السلام صاحب هذه المنزلة الكبيرة الَّذي أنزل عليه التوراة والَّذي واعده ربه ثلاثين ليلة، وأتمها بعشر فتمَّ ميقات ربه أربعين ليلة، وناجى ربَّه في الطور، يريد موسى أن يكون تلميذًا عند هذا الرجل الَّذي عرف من الله أن عنده من العلم ما ليس عنده، فيريد أن يستفيد من هذا العلم الَّذي عنده، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

الصبر في طلب العلم:

وهنا بيَّن العبد الصالح لموسى عليه السلام أنَّ الأمر ليس سهلًا، ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧]، أنا أخاف عليك ألَّا تطيق صبرًا على ما عندي من علم، وكل علم يحتاج أن يصبر الإنسان حتَّى يُحصِّله، ويصبر على معلمه حتَّى يفيده، لا يستعجل على معلمه، ولا يفرض عليه أن يعلمه في وقت دون وقت، لا بدَّ أن تكون مؤدبًا مع المعلم، هو يعطيك في الوقت المناسب، ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧].

QaradawiBooks.com

ثم التمس له العذر فقال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨]، كيف ستصبر على شيء لم تحط به خبرًا، لا تقدر على تفسيره ولا تعليله، ما عندك طريقة لتأويله وتفهمه، فكيف ستصبر عليه؟ قال موسى عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

هذه هي التلمذة الحقيقيَّة، الصبر مهم جدًّا في الحياة كلها، لا تستطيع أن تُحصِّل علمًا إلَّا بالصبر، ولا تستطيع أن تنجز عملًا إلَّا بالصبر، ولا تستطيع أن تقطع سفرًا إلَّا بالصبر، ولا تستطيع أن تنتصر في معركة إلَّا بالصبر، ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وقلَّ من جدَّ في أَمْرٍ يُحَاوِلُه ... واستصحبَ الصَّبْرَ إلَّا فاز بالظَّفَرِ[1]

فالصبر مفتاح كلِّ شيء، كما قيل:

الصَّبْرُ مِفْتَاحُ مَا يُرَجَّى ... وَكُلُّ صَعْبٍ بِهِ يَهُونُ
فَاصْبِرْ وَإِنْ طَالَتِ اللَّيَالِي ... فَرُبَّمَا أَسْلَسَ الْحَرُونُ
وَرُبَّمَا نِيلَ بِاصْطِبَارٍ ... مَا قِيلَ هَيْهَاتَ لَا يَكُونُ[2]

يقول له: يجب عليك أن تصبر، ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾، قال له: هناك شرط لا بدَّ أن تحققه، والَّذي أوله شرط آخره نور ـ كما يقولون ـ والمؤمنون عند شروطهم، قال: اشترط عليّ، ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠]،

---

(١) من شعر محمد بن يسير، كما في الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري، نشر دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

(٢) الأبيات تُنسب للشافعي، كما ذكر محمد بن أيدمر في الدر الفريد وبيت القصيد (١١٢/٤). وقال القاضي التنوخي: ووجدت بخط القاضي أبي جعفر بن البهلول التنوخي لبعض الشعراء. انظر: الفرج بعد الشدة للتنوخي (٦٧/٥).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

إذا رأيت شيئًا مستغربًا اصبر عليه ولا تسألني حتَّى أقول لك أنا على السر في هذه العمليَّة.

قال له: اتَّفقنا، لن أسألك عن شيء حتَّى تُحَدِّثني أنتَ عنه، ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]، ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾، في طريقهم في رحلة بحرية إلى مكان ما وبينما هم في السفينة وإذا بهذا المعلم يمسك بفأس ويخرق السفينة، تعجّب سيِّدنا موسى من ذلك، وقال: كيف يخرِّب هذا المعلم للنَّاس سفينتهم؟ ولم يطق صبرًا فقال للخضر: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧١، ٧٢].

النسيان من طبيعة الإنسان:

العبد الصالح قال: لم توفِّ بالشرط يا موسى، ألم أقل لك لا تسألني عن شيء؟ ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣]، الإنسان من شأنه النسيان، ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾، ربنا لا يؤاخذ النَّاس بالنسيان، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فلا تؤاخذني بما نسيت ولا تشدد عليّ وتساهل معي، قال له: طيب.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ [الكهف: ٧٤]، بلوى أكبر من الأولى، قال له: خرقت السفينة قلنا: لا بأس، لكن تقتل الغلام؟ ما ذنب هذا الغلام؟ أي ذنب ارتكبه لتقتله؟ ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]، أشد من الَّذي قبله، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥]، هنا زاد كلمة، قال: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾، في المرَّة الأولى قال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾.

QaradawiBooks.com

سيدنا موسى تذكَّر الشرط فقال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ۝ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧٦، ٧٧]، أناس غرباء وليس معهم زاد، وطلبوا منهم طعامًا، فكانوا قومًا بخلاء أشِحَّاء ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾، ناس مثل هؤلاء لا يستحقون معونة ولا يستحقون إكرامًا.

ولكن العبد الصالح وجد جـدارًا مائلًا يكاد أن يقع فأقامه، ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾، أعاده ورمَّمه وبناه من جديد، فاستغرب سيِّدنا موسى وقال له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، هؤلاء النَّاس الَّذين لم يكرمونا ولم يضيفونا فلا يستحقون منك كرمًا، المفترض أن تأخذ منهم أجرة على العمل الَّذي عملته لهم، ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨]، كما يقولون في المثل العامي: «التالتة تابتة»، خلاص صبرت عليك الأولى والثانية وهذه الثالثة، وهو قال له: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾، قال له: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨].

الحكمة من خرق السفينة:

سأفسر لك الحوادث الثلاث هذه، أمَّا السفينة هذه الَّتي قلتَ لي: أنتَ خرقتَها لتغرق أهلها ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، هناك ملك جبار كلَّما رأى حاجة جيدة يضمها إلى ملكيته، إذا وجد سفينة صالحة وجميلة وسليمة يطالب بضمها إلى الأسطول الملكي، ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، أردت أن أحدث بها عيبًا ليرى الملك أن بها عيبًا، فلا يأمر بضمها إلى ملكيته، إنَّني عملت هذا الفساد الجزئي لأنقذ السفينة كلها.

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

ارتكاب أخف الضررين:

ومن هنا أخذ العلماء من هذه القصَّة قاعدة: ارتكاب أخفّ الضررين، الضرر الأوَّل: أنَّ الملك يأخذ السفينة كلها، والضرر الثاني: أن تُخرق السفينة، فأيّ الضررين أخف وأهون؟ الخرق طبعًا، لأنَّنا نستطيع أن نصلحها بعد ذلك، إنَّما إذا أخذها لذهبت للأبد، فارتكاب أخف الضررين هذا منطق معقول، ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

الحكمة من قتل الغلام:

ثم بيَّن له الحكمة من قتل الغلام ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠]، أن هذا الغلام يؤدي إلى كفر أبويه، أو يقتل أبويه، أو يفعل الأفاعيل بأبويه، فأردنا أن نريح أبويه منه، ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١]، وهذا لا يكون من عنده، من أين عرف أنَّ الغلام سيكون كذلك وسيحصل له كذا؟ هذا لا يكون إلَّا بوحي، ولذلك قال في نهاية الأمر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢]، يعني هذا ليس بأمري ولا بهواي.

ولذلك سيِّدنا عبد الله بن عبَّاس كان يناقش الخوارج، والخوارج كانوا يقتلون النساء والأطفال وكل شيء، ويحتجّون بقتل الخضر للغلام، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ لم يكن يقتل الصبيان، فلا تقتل الصبيان، إلَّا أن تكون تعلم ما علم الخضر من الصبي الَّذي قتل[1]، من قال لكم إنَّ الولد سيكون كافرًا؟ هذا أمر لا يكون إلَّا بوحي، ولذلك هذا يحفظ ولا يقاس عليه.

(١) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٨١٢) (١٣٨).

QaradawiBooks.com

الحكمة من إقامة الجدار:

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]، وأمَّا الجدار الَّذي بناه هذا لم يبنه في الحقيقة إكرامًا لأهل المدينة البخلاء. هؤلاء الأشحاء الَّذين لم يرضوا أن يضيفوهما، وإنَّما بناه إكرامًا للغلامين اللذين يملكان هذا الجدار، ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾، لو وقع الجدار لانكشف الكنز فيأخذه أهل القرية، والغلامان صغيران لا يستطيعان الدفاع عن حقهما.

انتفاع الأبناء بصلاح الآباء:

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]. انظروا، الصلاح ينفع الذرية، وكما أنَّ السوء قد يصيب الذرية؛ فالصلاح ينفع الذرية، قال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢]، أراد الله أن يحفظ لهم هذه الثروة حتَّى يبلغا الرشد فيستطيعان التصرف فيها بحكمة وبعقل، ولا يتصرفا تصرُّف السفهاء.

الحفاظ على الثروات:

من المهم أنَّ الثروة تكون في أيدي راشدين، ولذلك بعض النَّاس يقولون: إنَّ الثروة النفطية هذه وضعت في أيدي أناس غير راشدين، يضيعونها بالمليارات هنا وهناك، وهي من حق الأجيال، وليست من حق هذا الجيل فقط، ليس من حق جيل واحد أن يستمتع بثروة خلقها الله لأجيال عدة، لا يجوز أن يسرف جيل على حساب أجيال قادمة، لا، أعط فرصة للأجيال هذه حتَّى تخرج وتجد هذا الكنز وتصرفه وهي راشدة، ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾.

QaradawiBooks.com

علم الشريعة وعلم الحقيقة:

قول الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾، إنَّما عن أمر الله، هذه قضيَّة مهمَّة جدًّا، بعض الصوفيَّة يقولون: علم الشريعة وعلم الحقيقة، وأولياء الله يعرفون علم الحقيقة، والمشايخ والعلماء يعرفون علم الشريعة، وإذا تعارضت الشريعة مع الحقيقة نقدم الحقيقة، كما في قضيَّة سيِّدنا موسى.

وهذا غير مسَلَّم، فإن الخضر حاول أن يفسر الأشياء بحيث تكون مقبولة في الميزان الشرعي، لأنَّه قال في المسألة الأولى: أنا فعلت هذا لأرتكب أخفّ الضررين، وفي المسألة الثانية: فعلت هذا خوفًا على مصلحة الآباء، فإذا تعارضت مصلحة الآباء ومصلحة الأبناء نضحّي بالأبناء، لكن يكون عن عِلم، وفي المسألة الثالثة فعلت هذا لمصلحة الأولاد في المستقبل.

فهو أراد أن يجريها على الميزان الشرعي، ولذلك الإمام ابن تيمية والإمام الشاطبي قالوا: إنَّ الشريعة هي الَّتي لها الحكم، ثمَّ إن سيِّدنا موسى لم يكن مبعوثًا للخضر، وإنَّما كان مبعوثًا لقومه، والخضر ليس من المطالَبين بأن يكون من أتباع موسى، فالخلاف الآن: كل النَّاس أولياء أو غير أولياء هم أتباع شريعة مُحَمَّد ﷺ، والشريعة حاكمة على الجميع.

حكم من خرج على الشرع:

فلو فرضنا أنَّ واحدًا يريد أن يعمل مثل عمل الخضر يكون موقفنا موقف سيِّدنا موسى، نُنكر عليه، لو قتل أو كذا، لو خرج على الشرع حاكمناه إلى الشرع، ولا يستطيع أحد أن يخرج على الشرع، ويقول: إن لي شريعة خاصَّة وأنا أعلم من الغيب ما لا تعلمون، لا، كلنا خاضعون

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

لشـــريعة مُحَمَّد ﷺ، لا يخرج أحد عن هذه الشـــريعة، لأنَّ محمدًا ﷺ مبعوث للعالميـــن، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فما من مسلم في شرق أو غرب أو شمال أو جنوب، مهما علا كعبه، ومهما ارتفعت منزلته، إلَّا وهو خاضع لحكم الشريعة، لا يعلو على الشـــريعة أحد، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الرابع
ذو القرنين نموذج الحاكم العادل

غير مرخصة للطباعة

من ذو القرنين؟

من الملوك الصالحين العادلين، ومن نماذج الحكام العادلين الَّذين ذكرهم القرآن: ذو القرنين ـ كما سمّاه القرآن في هذه السورة الكريمة ـ سورة الكهف ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣]، من الَّذين سألوا عن ذي القرنين؟ ومن هو ذو القرنين؟

يقال: إنَّ الَّذين سألوا النبيَّ ﷺ عن ذي القرنين هم اليهود، ويقال: إنَّ الَّذين سألوا هم قريش، حينما سألوا اليهود عن أمر محمَّد، فقال لهم اليهود: اسألوا محمدًا عن كذا وكذا، فسألوه عن ذي القرنين[١].

وأمَّا من ذو القرنين؟ فنجد المُفَسِّرين اختلفوا في أمر ذي القرنين، فمنهم من قال: إنَّه الإسكندر الأكبر، الإسكندر المقدوني، المعروف بفتوحاته وانتصاراته في المشرق والمغرب، وبعض المفسرين جزم بأنَّ ذا القرنين هو الإسكندر[٢].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣٠١/١، ٣٠٢)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢٧٠/٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٠٥/١٨)، والهداية إلى بلوغ النهاية (٤٤٤٨/٦)، تحقيق مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي، نشر مجموعة بحوث الكتاب والسُّنَّة، جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

QaradawiBooks.com

ولكن من يعرف سيرة الإسكندر يعرف أنَّه ملك وثني، كان يعبد الأصنام، لم يكن يعرف التوحيد، ولا النبوة، ولا يعرف كيف يعبد الله ﷻ، لا هو ولا مملكته في مقدونيا، وفي بلاد اليونان.

ولذلك يستحيل أن يكون هو الملك الَّذي مكَّن الله له في الأرض، والَّذي جاء في ذكره قول الله: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥]، وقوله: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]، ممَّا يدل على أنَّه ملك مؤمن، فلا يمكن أبدًا أن يكون هو الإسكندر المقدوني، ولا يكون ملكًا من ملوك اليمن في ذلك الوقت، لأنَّهم كانوا ملوكًا وثنيين.

يقول العلَّامة الهندي الشيخ أبو الكلام آزاد أحد كبار علماء الهند، وسكرتير حزب المؤتمر في الهند: ذو القرنين هو الملك قوروش الفارسي، وكان مؤمنًا، وأن فارس في ذلك الوقت ـ إيران ـ كانت مؤمنة، كان على دين زرادشت، وزرادشت قالوا إنَّه كان نبيًّا، وكان له كتاب، ولكن رُفِع كتابه، وكان يدعو إلى التوحيد، وإن حُرِّفت ديانته فيما بعد، وأُدخلت فيها الشركيَّات والوثنيَّات بحكم مرور الزمن.

ودلل الشيخ أبو الكلام على أنَّ هذا الملك كانت له فتوح في المشرق والمغرب والشمال، وامتدَّت فتوحاته، ووجدت له صورة فيها يداه كأنَّه ذو قرنين، وأشياء كثيرة تدل على أنَّه هو «خوروش» أو «قوروش»، أحد ملوك الفرس، الَّذين كان لهم موقف دافعوا عن اليهود، واستطاع أن يخرج اليهود الَّذين كانوا محبوسين في بابل منذ أخذهم الملك الَّذي يسميه العرب: «بختنصر» من فلسطين إلى بابل، بقوا سبعين سنة أو أكثر محرومين من أرضهم، محرومين من توراتهم، محرومين من التعبد كما يشاؤون بعبادتهم، فجاء هذا الرجل وفك أسرهم، وردَّهم إلى

QaradawiBooks.com

ديارهـــم، فكانوا مهتمين بهـــذا الملك الَّذي صنع لهم هـــذا الصنيع[1]، فلذلك سألوا عنه رسول الله ﷺ.

والقرآن لا يهتمُّ بما يهتم به المؤرِّخون، لا يهتم بذكر الحادثة في أي مكان كانت، أو في أي بلد وقعت، أو في أي تاريخ جرت أحداثها، ومن أصحابها، وما أســماؤهم، ومن هم الملوك، لا يهتــم القرآن بهذا، لأنَّه لا يريد أن يُدخلنا فيما يدخــل فيه أهل التاريخ، إنَّه يريد أن يفتح عقولنا على العبر الأساســيَّة، العبر الكبرى الَّتي تتخذ من هــذا التاريخ، فهذا ما جاء به القرآن الكريم.

المهمُّ أنَّ هذا الملك ملك مؤمن صالح عادل، ليس كالملوك الظلمة، ولذلك يقــول الله ﷻ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهـف: ٨٤]، وتمكين الله تعالى للمؤمنين لا يكون إلَّا بعــد أن يُبتلوا، بعض الصوفيَّة والصالحين اختلفوا فيما بينهم هل الأولى للمؤمــن أن يُبتلى أم يمكَّن؟ فقال الإمام الشــافعي: وهل يمكَّن إلَّا بعد أن يُبتلى، إنَّ الله ابتلى بني إســرائيل ثمَّ مكَّنهم، مكَّن لهم في الأرض بعد أن ابتلاهــم، ابتلاهم بفرعون وملئه فأذاقوهم من العذاب ما أذاقوهم، ثمَّ مكَّن الله لهم في الأرض.

سيِّدنا يوسف عليه السلام ابتلاه الله ابتلاءات شديدة، مع إخوته، ومع امرأة العزيز، وفي الســجن، ابتــلاءات بعد ابتــلاءات، ثمَّ قــال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

(١) ويســألونك عن ذي القرنين لأبي الكلام أزاد صـ ٨٤ ـ ٨٦، ١٢٦ ـ ١٤٠، نشــر دار الشعب، القاهرة، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

QaradawiBooks.com

فتمكين الله لعباده دلالة على رضاه عنهم، وأنَّهم من أهل الإيمان، فهذا الملك، الله هو الَّذي مكَّن له في الأرض، ممَّا يدل على أنَّه ملك مؤمن، انظروا إلى المُلك حين يكون في أيدي المؤمنين، ولذلك علينا أن نعمل على أن يكون المُلك في أيدي المؤمنين، أو أن ننقل الإيمان إلى قلوب الحاكمين، وربنا يهديهم.

هذه الآيات في سورة الكهف تدل على أنَّ الله هيَّأ له الأسباب، ومكَّن له في الأرض، ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ۝ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤، ٨٥]، أي أنَّ الله هيَّأ لهذا الملك الممكَّن الأسباب، فاتبع الأسباب، وسار وراءها، فقد ربط الله تعالى هذا الكون بشبكة من الأسباب والمسبَّبات، كل شيء في الدُّنْيا له سبب، هذه سنَّة الله ﷻ، فمن أراد أن يصل إلى الأشياء بدون أسبابها فقد أراد أن يخالف سنَّة الله، وسنَّة الله من خالفها لا يمكن أن تؤتيه شيئًا، الله هيَّأ لهذا الملك الأسباب، وآتاه إيَّاها، ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ۝ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤، ٨٥].

الرحلة الأولى لذي القرنين:

كان لهذا الملك العظيم رحلات ثلاث في الأرض، رحلة إلى الغرب، ورحلة إلى الشرق، ورحلة إلى الوسط في الشمال، أمَّا رحلته الأولى فكانت إلى الغرب، يقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦]، ومعنى بلغ مغرب الشمس أي: وصل في ناحية المغرب إلى مكان ينظر إليه الناظر فيُخيَّل إليه أنَّ الشمس قد غربت في هذه العين، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦]، أي فيها الحمأة أي: الطينة السوداء، هذا في نظر الرائي طبعًا.

QaradawiBooks.com

وفي قراءة أخرى صحيحة متواترة: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦]، فالشمس لا تغرب في عين، ولكنك حينما تكون أمام البحر يُخيَّل إليك أنَّ الشمس قد غطست في البحر، وحينما تكون في مكان آخر يُخيَّل إليك أنَّها دخلت في الخضرة، وهكذا، فهو خُيِّل إليه أنَّ الشمس دخلت في هذه العين الحمئة، الطينة السوداء، أو في العين الحامية الحارة.

المهمُّ أنَّ هذا الملك الصالح وجد عند هذه العين قومًا من الأقوام، أُمَّة من الأمم، ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦]، قالوا له ما يقال للأباطرة والملوك الكبار الفاتحين إذا فتحوا بلدًا، ماذا تعمل في هؤلاء الناس؟ هؤلاء النَّاس غُلبوا على أمرهم وسلَّموا للفاتحين، فماذا أنت فاعل فيهم؟ هل تعذبهم أم تتخذ فيهم حسنًا؟ تعف عنهم، وتفك أسرهم، وتجبر كسرهم!

من إقامة العدل: معاقبة المسيء وإثابة المحسن:

قال هذا الملك العادل: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٨٧]، من يستحق التعذيب فيهم، ممَّن أفسد في الأرض، ولوث الحياة، واقترف الآثام والجرائم، منهجنا أنَّنا لا نترك المسيء والمفسد، بل نأخذه بذنبه، ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ من هؤلاء النَّاس ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ في الدُّنيا، فنحن لا نملك إلَّا عذاب الدُّنْيا ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٨٧]، فالله ﷻ هو من يملك عذاب الآخرة، فهو ملك الدُّنْيا وملك الآخرة، وهو ملك كل شيء، ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ﴾ [غافر: ١٦].

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٨٧]، من أفسد في الأرض، من سرق الأموال، من نهب الأرزاق، وقطع الأعناق،

QaradawiBooks.com

قتل النســـاء والأطفال والشيوخ، وفعل وفعل، هذا يســـتحق عذاب الدُّنْيا وعذاب الآخرة، عذاب الدُّنْيا لنا، وأمَّا عذاب الآخرة فهو إلى الله.

كما وجدنا القرآن يقول عن قُطَّاع الطرق، الَّذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

هكذا قـــال ذو القرنين، فـــي الدُّنْيا نؤاخذه علـــى إجرامه، لأن ترك المجرمين دون عقوبة يزيد الفساد في الأرض، لا بدَّ أن تُعاقِب المجرم، من أمن العقوبة أســـاء الأدب، من أمن العقاب ازداد في الإفساد، فكان لا بدَّ أن يؤدب المجرمين ويكافئ المحسنين.

وأمَّا في الآخرة فنكل أمرهم إلى الله ﷻ، ونترك دينه لله ﷻ، فإن الله يعذبه عذابًا نكرًا، هذا لمن بقي على دينه وعلى شركه ووثنيته.

﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ﴾ بما آمنا به، آمن مثل إيماننا ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ فإيمان بلا عمل كشجرة بلا ثمر، أو كسحاب بلا مطر، لا بدَّ من الإيمان والعمل الصالح، فقد قرن الله في العشـــرات من آيات القرآن بين الإيمان والعمل، وليس أي عمل، بل العمل الصالح، وربط القرآن خيري الدُّنْيـــا والآخرة بالإيمان والعمل معًا ﴿فَلَهُۥ جَزَآءَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ وهي الجنَّة ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾ [الكهف: ٨٨].

لا بدَّ أن يكافئ المحسن، وأن يعاقب المســـيء في الدُّنيا، وأمَّا في الآخرة ﴿فَلَهُۥ جَزَآءَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الكهف: ٨٨]، والحســـنى هـــي الجنَّة، كما قال تعالى في سورة أخرى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنى هي الجنَّة، والزيادة هي رؤية الله تبارك وتعالى.

QaradawiBooks.com

الرحلة الثانية لذي القرنين:

بعد أن تعامل مع هـؤلاء النَّاس في المغرب اتخذ أسـبابًا أخرى ورحل إلى المشـرق، من المغرب إلى المشـرق، كان رجـلًا فاتحًا، والأرض ممهدة له، ينتقل من مكان إلى مكان، لم يكن هناك سيارات ولا قطارات ولا طائـرات، ممَّا نعرفه في هذا العصـر، بل كان النَّاس يتنقَّلون على أرجلهم، وعلى الدواب من الحيوانات، ولكنَّه كان ينتقل من مكان إلى آخر في شهور، أو في سنوات، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا﴾ [الكهـف: ٩٠]، أي: ليـس بينهم وبين الشمس سـاتر، والبعض يقول: كانوا عراة، كثير من النَّاس يعيشـون عراة، خصوصًا في أفريقيا وبعض هذه البلاد، على طبيعتهم وكما خلقهم الله ﷻ.

وحينما جاء الإسـلام هذه البلاد كسـاهم، علمهم أن ربنا ﷻ خلق النَّاس عراة وعليهم أن يكسوا أنفسـهم، وأنَّ الشيطان هو الَّذي يريد أن يعرِّي الإنسان، فالإنسـان لا يجوز أن يظل عاريًا، سـواء كان رجلًا أو امرأة، فعلمهم الإسلام أن يكتسـوا، وأن يلبسوا ملابس المفروض أنَّهم هم الَّذين يصنعونها، عن طريق المكُّـوكات[1] الَّتي كان النَّاس يعملونها في الريف قديمًا، وكُنَّا نراها بأعيننا.

وهكذا علَّم الله النَّاس من قديم أن ينسـجوا لأنفسهم الثياب، فوجد ذو القرنين قومًا ليس بينهم وبين الشمس شيء، أو كانوا عراة، كل هذا وارد، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا﴾ [الكهف: ٩٠].

(١) هو أداة صغيرة في ماكينة الخياطة.

QaradawiBooks.com

تعامل هذا الملك الصالح مع هؤلاء النَّاس بما يتعامل الفاتحون مع أهل البلاد المفتوحة، وخصوصًا إذا كان هذا الفاتح من أهل الإيمان كذي القرنين، فقد رأينا ماذا فعل هذا الرجل مع القوم الَّذين كانوا في المغرب، لم يظلمهم، ولكن عامل المجرمين منهم بما يستحقون، وكافأ المحسنين.

الرحلة الثالثة لذي القرنين:

هذا الرجل الملك الصالح ذو القرنين قام برحلة ثالثة، قالوا إنَّها كانت ناحية الشمال، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: ٩٣]، وصل هذا الملك إلى منطقة تقع بين سدين، ووجد قومًا لغتهم مختلفة عن لغات النَّاس، ليست لغة مكتوبة ولا مقروءة، ولذلك لا تستطيع أن تفهم منهم ما يقولون، وليس من السهل أن يعلموك لغتهم، وليس من اليسير أن تتعلَّم هذه اللغة إلَّا في زمن طويل، المهم أن هذا الملك فهم من هؤلاء القوم ـ على ما في لغتهم من صعوبات ـ ما يريدون.

﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤]، قال هؤلاء القوم للملك الصالح ذي القرنين: يأجوج ومأجوج هذه قبائل همجية، وقوم عندهم أسلحة ويغيرون على جيرانهم، يفاجَأ هؤلاء الجيران بهجمات هؤلاء القوم بين الحين والآخر، يهجمون على البلاد هجمات خطيرة، يقتلون الأنفس، ويأخذون المواشي، ويقتلعون المزروعات، ويُحرقون الأشياء، ويفسدون في الأرض فسادًا كبيرًا، نحن مبتلون بهؤلاء الَّذين يغيرون علينا بين الفينة والأخرى، ويفسدون لنا كل زرع زرعناه، ويقتلون كل حيوان ربيناه، ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ [الكهف: ٩٤]، هل توافق

QaradawiBooks.com

علـــى أن نجعل لك من المـــال ما تريد بشـــرط أن تحمينا من هؤلاء المفسدين؟ ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهـف: ٩٤]؟ فبماذا أجابهم؟

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥]، أي: أنا لســتُ محتاجًا إلى المال، فالله مكَّنني في الأرض، وأعطاني من الغنى ومن المال ما لســتُ معه في حاجة إليكم، فليس ذو القرنين من الَّذين يشتهون المال، ويركضون وراءه، سيِّدنا سليمان حينما أرسلت إليه ملكة سبأ بهدية، وقالت فيما حكى القرآن عنها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۞ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۞ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٥ ـ ٣٧].

ملوك الدُّنْيا يشــتهون المال، ويلهثــون وراءه، ولكن ملوك الآخرة، ملوك الدُّنْيا والآخرة، ملوك الدين والدنيا هؤلاء لا تتعلق قلوبهم بالمال، لذا قال ذو القرنين لهؤلاء القوم الَّذين لا يكادون يفقهون قولًا: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهـف: ٩٥]، لا أريــد منكم مالًا، ولكن أريدكم أن تتعاونوا معي.

الملوك والحــكام العادلون يحتاجــون دائمًا إلى معونة الشــعوب، فالملك مهما كان قويًّا لا يســتغني عن معاونة شــعبه في المشــروعات الكبرى، الَّــذي يظن أنَّه يســتطيع بما عنــده من مال وكــذا أن يعمل مشروعات وحده مخطئ، لا يستطيع ملك أن يقوم بأي مشروع ناجح إلَّا إذا كان الشعب معه، وكان وراءه، وكان يؤيده، بكل ما يستطيع، ولذلك قــال ذو القرنيــن لهــم: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهـف: ٩٥]،

QaradawiBooks.com

أنا محتاج إلى قوَّة من الشعوب، قوَّة من العمل، القوَّة في هذه الأشياء لا بدَّ منها، أمر مهم جدًّا، ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

هذا الرجل الصالح ذو القرنين طلب من هذه الشعوب أن تمده بقوَّة وتتعاون معه: ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥]، تعاونوا معي لأعمل لكم حاجزًا وردمًا وسدًّا منيعًا بينكم وبين هؤلاء القوم المفسدين الَّذين أتعبوكم طوال العقود والعصور الماضية.

ثم بيَّن القوَّة الَّتي يريد منهم أن يعينوه بها فقال: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦].

﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦]، اجمعوا الحديد القديم المنثور في الأرض، وهو ما نُسَمِّيه نحن: «الحديد الخردة»، اجمعوا لي هذه الأشياء القديمة من الحديد، عندكم محاريث، عندكم فؤوس، عندكم قواديم، عندكم أدوات كنتم تستعملونها، اجمعوا لي هذه القطع الحديدية الملقاة في الأرض في كل مكان فنحن نحتاجها الآن.

طلب هذا الملك الصالح من هذا الشعب أن يعمل معه، شغَّلهم، إنَّهم يريدون أن يدفعوا له المال مقابل أن يحميهم، وهذا عمل الشعوب الضعيفة، الَّتي تريد أن تدفع المال ولا تعمل، لكن هذا الملك الصالح أرادهم أن يشاركوه عمل السد، فطلب منهم جمع الحديد من كل مكان، ليستفاد منه بدل أن يُرمى به، يريدهم أن يعملوا ويحموا أنفسهم بأنفسهم، وساعدهم هذا الملك العادل.

﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦]، اجمعوا لي قطع الحديد، فجمعوها له، فقال لهم: أوقِدوا النَّار على هذه القطع الحديدية، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾

QaradawiBooks.com

أي الناحيتين ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ أي: أوقِدوا النَّـار حتَّى تجعلوا قطع الحديد نارًا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ حتَّى إذا صار هذا الحديد نارًا تتقـد أمامه يتطاير منه الشرر والحمرة ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ [الكهف: ٩٦]، ناولوني النحاس المذاب، وهو القطر، فـإن النحاس المذاب إذا وضع على الحديد المحمي ازداد قوَّة وصلابة ومتانة.

وهذا يدل على خبرة هذا الملك، وحسن سياسـته وإدارته للأمور، تعاون مع شعبه، وجعلهم منتجين، وأحسنوا الاستفادة من كل ما عندهم، حتَّى ولو كان قديمًا، استفادوا من قطع الحديد القديمة، وعملوا بأنفسهم لحماية أنفسـهم، أوقدوا النار، وناولوا الملـك النحاس المذاب ليفرغه على الحديد كي يصبح السد منيعًا، وأقام لهم فعلًا ذلك السد.

قـال الله: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُواْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ [الكهف: ٩٧]، ما استطاعوا أن يظهروه أي: يعلوا عليه، لأنَّه أصبح عاليًا، ليس بالسهل أن يصعد الشخص فوقه، ولا أن يحمل الأسلحة الَّتي كان يستعملها حين يغير على القوم، وما اسـتطاعوا أن ينقبوا فيه نقبًـا أو يفتحوا فيه فتحة يدخلوا منها، وذلك لأن هذا السد أصبح متينًا قويًّا متماسكًا.

هذا الملك العادل حينما بنى هذا السد لم يغتر، ولم ينتفخ، لم يفعل بعض النَّاس حينما يقيمون بعض المشـاريع يظن أنَّـه أصبح ملك الدُّنيا، وأنَّه صار قادرًا على كل شيء، هذا الملك الصالح ذو القرنين نسب الفضل في التوفيق لإقامة هذا السد لله ﷻ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٨]، الله رحمنا وأكرمنـا وتفضل علينـا ومكننا أن نقيم هذا السـد، وهـذا البناء المحكم، وهذا هو شأن المؤمنين دائمًا، ينسبون الفضل في كل شيء إلى الله ﷻ، كما فعل سـيِّدنا سـليمان عليه السلام حينما تمكن مـن أن يأتي بعرش

QaradawiBooks.com

بلقيس من اليمن إلى فلسطين في لمح البصر، ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وهكذا قال ذو القرنين، ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ [الكهف: ٩٨]، فيه وعد عند الله لا نعلمه، عندما يأتي هذا الوعد سيُدَك هذا السد، كما تدك الأرض كلها دكًّا، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١]، فهذا السد ليس سدًّا دائمًا إلى الأبد، الله أعلم كم يبقى هذا السد من السنين، المهم أنَّه إذا جاء وعد الله ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

هذا هو الملك ذو القرنين، الملك الَّذي أقام العدل وأنصف الشعوب المستضعفة، أنصفها من ظالميها، الَّذين تمكَّنوا منها وأفسدوا في الأرض، ويأخذون ما ليس لهم بحق، هذا هو شأن الملِك العادل ذي القرنين.

من يأجوج ومأجوج؟

اختلف العلماء في يأجوج ومأجوج من هم؟ وجاءت بعض الأحاديث في يأجوج ومأجوج، بعضها صحيح، وبعضها ضعيف، واتخذ النَّاس صورًا لهؤلاء القوم، ولكن الَّذي يلوح ما قاله العلَّامة المسلم الهندي مولانا أبو الكلام آزاد في تفسيره لذي القرنين، أنَّه اختار أن يأجوج ومأجوج هي قبائل مغولية تعيش في تلك البلاد، وأنَّه عمل سدًّا بالفعل، وحدد موقع هذا السد في أيامه، وأنَّ هذه القبائل هي القبائل الَّتي فيما بعد تناسلت وتكاثرت، وأصبحت تشكل خطرًا، وظهر خطرها بالفعل في أيام هجوم التتار المغول على العالم الإسلامي، حتَّى أودوا بالحضارة الإسلاميَّة[1].

(١) ويسألونك عن ذي القرنين صـ ١٦٢ ـ ١٦٨.

QaradawiBooks.com

وباتت الإنسانيَّة مهددة بفعل هؤلاء النَّاس البدائيين المتوحشين، الَّذين لا يقفون عند شيء، لا دين يردعهم، ولا نظام ولا قانون يمنعهم، ولا شيء إطلاقًا، ولهذا يرى البعض أن خروج التتار في ذلك الزمن هو خروج يأجوج ومأجوج.

وجاء في صحيح البخاري عن زينب بنت جحش، رضي الله عنهن أنَّ النبيَّ ﷺ، دخل عليها فزعا يقول: «**لا إله إلَّا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**» وحلق بإصبعه الإبهام والَّتي تليها، قالت زينب بنت جحش فقلت يا رسولَ الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»[1].

فلعل يأجوج ومأجوج هو هذا، أو لعلَّ يأجوج ومأجوج طائفة من النَّاس تظهر فيما بعد، أيضًا ممكن أنَّهم ينسابون على العالم ويحدث منهم أضرار وأشياء كثيرة، وذلك قرب قيام الساعة، ولا مانع من هذا.

وأمَّا التفصيلات، وما جاء في بعض الروايات فلا يمكن القطع بها، ومن هم بالضبط يأجوج ومأجوج؟ أيضًا هذا شيء لا نعرفه بالضبط.

إنَّما على كل حال يأجوج ومأجوج هم أقوام من النَّاس من بني آدم، ويعيشون على الأرض، وليسوا من الجن، وما يقال بأنَّهم من نسل يافث بن نوح عليه السلام فهذه أشياء لا يقطع الإنسان بها، وإن كان المشهور أنَّهم من نسل يافث.

* * *

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٦)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٠).

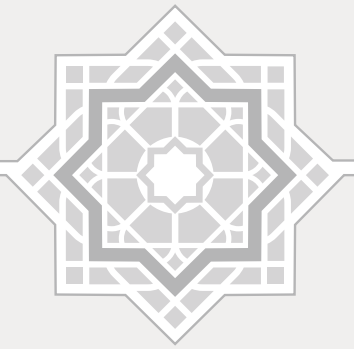
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



تفسير
سورة مريم

نسخة مجانية
غير مرخصة للبيع

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

سورة مريم

لا زلنا نعيش في رحاب رمضان، وفي رحاب القرآن الكريم، الَّذي تميَّز به هذا الشهر العظيم، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقد فرغنا من تلاوة شطر القرآن، وبدأنا في النصف الثاني من كتاب الله ﷻ، في الجزء السادس عشر، وفي هذا الجزء السادس عشر نقف عند سورة «مريم»، السورة الَّتي ذكر الله تعالى فيها بتفصيل قصَّة هذه المرأة.

ذكر اسم مريم في القرآن دون سواها من النساء:

المرأة الوحيدة الَّتي ذكرها القرآن باسمها، لم يذكر اسم امرأة أخرى غير مريم، لم يذكر اسم أم البشر حواء، ولكن قال لآدم: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ولم يذكر اسم زوجه، لم يذكر اسم زوجة إبراهيم حينما قال عن إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وكانت ذريته زوجته وابنه إسماعيل، لم يذكر اسمها، لم يذكر اسم أم موسى، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، ولا أخت موسى، ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١]، ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ [طه: ٤٠]، لم يذكر اسم أمِّ مُحَمَّد ﷺ

QaradawiBooks.com

آمنة بنت وهب، ولا اسم الصدّيقة الكبرى خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ولا اسم سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء رضي الله عنها بنت مُحَمَّد ﷺ.

لم يذكر القرآن اسم امرأة إلَّا مريم ابنة عمران، ذكرها القرآن أربعًا وثلاثين مرَّة، واحتفل بميلادها كما احتفل بميلاد ابنها، هناك سورة آل عمران، وآل عمران هم أسرة المسيح عيسى عليه السلام، مريم أم عيسى وابنها عيسى وجده لأمه عمران وجدته لأمه امرأة عمران، سميت سورة باسم سورة آل عمران.

غير مرخصة للطباعة

احتفال القرآن بحمل مريم وولادتها:

احتفل القرآن لا أقول بميلاد مريم بل بحمل مريم، ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥]، كانت تحسب أنَّ الحمل الَّذي تحمله ذكر، فنذرته ليخدم المعبد، وبعد ذلك اكتشفت أنَّ الحمل أنثى فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۞ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٦، ٣٧].

وذكر لنا القرآن كيف خاطبتها الملائكة في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣]، ولذلك يقول الإمام ابن حزم[1]: إنَّ مريم نبية من أنبياء الله، القرآن ذكر لنا نبيتين:

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (١٢/٥، ١٣).

QaradawiBooks.com

مريم، لأن الملائكة تخاطبها تقول: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣]، ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥]، والملائكة لا تخاطب إلَّا الأنبياء.

صحيح الرسل من الرجال، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ولكن الأنبياء يمكن أن يكونوا من النساء، ولذلك هو يقول: إنَّ القرآن ذكر لنا مريم نبية. وأم موسى نبية أخرى، ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، هكذا ارتفع ابن حزم بقيمة المرأة، وقال: إنَّ المرأة ممكن أن تكون نبية، ولا يوجد ما يمنع ذلك.

هكذا ارتفع الإسلام بقيمة المرأة، نحن الآن نتعبد لله، نحن استمعنا في صلاة التراويح إلى سورة مريم، نتعبد لله بتلاوة واستماع قصَّة مريم.

موقف الإسلام من النصرانيَّة:

هذا هو موقف الإسلام من النصرانيَّة ومن النَّصارى، يشيد بأمِّ المسيح عيسى ابن مريم ويذكرها أربعًا وثلاثين مرَّة في كتابه، ويشيد بالمسيح عليه السلام: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء: ١٧١]، ذكرنا أنَّ سورة آل عمران سمِّيت باسم أسرة المسيح وأمه، وسورة المائدة، المائدة الَّتي نزلت على المسيح عيسى آية من الآيات الَّتي أكرم الله بها سيِّدنا عيسى عليه السلام، ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤]، هذه الآية الَّتي

QaradawiBooks.com

أكرم الله بها سيِّدنا عيسى لا توجد في الأناجيل، قصَّة المائدة انفرد بها القرآن، وكم من آيات انفرد بها القرآن لا توجد في الأناجيل، أنَّ المسيح يخلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله، ثمَّ ينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، هذه معجزة وآية لم تذكر في الأناجيل.

فسورة آل عمران وسورة المائدة وسورة مريم كل هذا تمجيد للمسيح وثناء على المسيح وثناء على كتاب المسيح، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦]، وثناء على أمة المسيح: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

ذكر لنا القرآن في سورة مريم قصَّة حملها وولادتها، وهي قصَّة عجيبة حقًّا من عجائب الله في هذا الكون. الله تعالى من سننه المعتادة أن يخلق الإنسان من ذكر وأنثى، أب وأم، رجل وامرأة يلتقيان عن طريق سنة الله، الحيوان المنوي يخرج من نطفة الرجل إلى البويضة في رحم المرأة ويلقحها ويخرج من هذا مخلوق جديد يحمل خصائصهما، الجنين ثمَّ الطفل، ولكن الله ﷻ لا يحدُّ قدرته شيء، الأسباب تقيّدنا نحن ولكن قدرة الله لا يقيّدها سبب، الله يعمل بالأسباب وبغير الأسباب، هو خالق الأسباب ومُسبِّب الأسباب، هو الَّذي يستطيع أن ينفي الأسباب ويُبطلها، يخلق بشرًا بغير رجل ولا امرأة كما خلق آدم عليه السلام، آدم خلقه الله من تراب أو من طين أو من حمأ مسنون أو من صلصال، ونفخ فيه من روحه وأصبح بشرًا سويًّا، لم يخرج من أب ولا أم، ولا من رحم امرأة ولا من نطفة رجل، وهذه أعجب العجائب. وعجيبة قريبة منها وهي أن يُخلق الإنسان من أم بلا أب، من امرأة بلا رجل، من أنثى بلا ذكر، على خلاف السنن والأسباب، هذه قدرة الله، هذه عجيبة من عجائب الله، ولذلك أراد

QaradawiBooks.com

الله أن يُري النَّاس إحـدى عجائبه الكبرى، بعد أن نسـي النَّاس العجيبة الكبرى وهي عجيبة خلق آدم، وهم لم يروا آدم، آدم أوَّل رجل.

أراد الله أن يُعرِّف النَّاس بعجائب قدرته، فأراد أن يخلق هذا الإنسان عيسى عليه السلام من غير أب، واختار هذه المرأة الطاهرة العفيفة الصّدِّيقة الَّتي أنبتها نباتًا حسـنًا، والَّتي أعاذهـا وذريَّتها من الشـيطان الرجيم، والَّتي احتفل بمولدها في أعظم كتبه في القرآن الكريم، اختار هذه المرأة لهذا العمل العجيب.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ۞ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ [مريم: ١٦، ١٧]، أخذت مكانًا بعيدًا عن قومها وأهلها، ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾، أي: خلوة لتتعبد، وفي هذه الخلوة فاجأها رجل، ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: ١٧]، جاءها جبريل عليه السلام، ولكن جبريل لم يأتها في الصورة الملائكية، وإنَّما أتاها في صورة بشر سوي.

﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: ١٧]، انظر إلى فتاة في خلوتها، فتاه طاهرة بريئة تفاجأ برجل أمامها، ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [مريـم: ١٨]، خوَّفته من الله خشـية أن يكون قد جاء يريد أن يغتصبها، يريد أن ينال منها وليسـت من هذا النوع من النساء، ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [مريـم: ١٨]، والتقي مجرد أن يسـمع ذكر الرحمن يوجل قلبه ويخاف ويبتعد عن الحرام.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ [مريم: ١٩]، أنا لست واحدًا من النَّاس، أنا مبعوث العناية الإلٰهيَّة لكِ، جئت لمهمة مخصوصة، الله الَّذي بعثني، ربكِ الَّذي أرسـلني إليـكِ، ﴿أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾، غلامًا طاهرًا.

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

ردت مريم ببراءة وتلقائيَّة: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠]، كيف لي أن أنجب الغلام؟! والغلام يقتضي أن تتصل امرأة برجل عن طريق الزواج أو عن طريق الحرام، إمَّا من نكاح وإما من سفاح، وأنا لست مسافحة ولست متزوجة، ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم: ٢٠، ٢١]، ربك هو الَّذي قال هذا، والأمور كلها هيِّنة عند الله، فالله يخلق ما يشاء بسبب وبغير سبب، بنطفة وبغير نطفة، ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾، الله يريد أن يجعل هذا المخلوق آية من آياته، كما قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]، ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]، انتهى الأمر والقدر الإلٰهي حكم، وفعلًا نفخ فيها فحملت، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]. نفخ في فرجها فكان هذا بديل النطفة والحيوان المنوي وهذه الأشياء وحملت.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: ٢٢]: بعيدًا عن النَّاس، هل يا تُرى حملته مدَّة تسعة أشهر.. أربعين يومًا نطفة، وأربعين يومًا علقة، وأربعين مضغة؟ أم الأمر تم بأسرع من ذلك؟ القرآن كعادته في القصص لا يفصّل، لا يذكر المكان، ولا يذكر الزمان، ولا يذكر الأشخاص، ولا يذكر التفصيلات، يأتي برؤوس العبر فما ذكر لنا هذا، ويبدو أنَّها لم تبق تسعة أشهر؛ لأنَّ الله تعالى لا يريد أن يعذبها طوال هذه المدة تظل تحمل الهم تسعة أشهر تفكر ماذا ستقول لأهلها ولقومها عن هذا الحمل، يبدو أنَّه في مدَّة قريبة لا نعرف كم هي بدأت تشعر بالوحم والطلق وآلام الولادة.

QaradawiBooks.com

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٣]، دفعها المخاض وألجأها إلى أن تجلس عند جذع النخلة، أين جذع النخلة في فلسطين يا ترى؟ في الغور؟ لأن فلسطين ليس فيها نخل، لعلَّها كانت في الغور خصوصًا إذا كانت الولادة كما يقولون في شهر يناير وأواخر ديسمبر في شدَّة البرد، والبلح لا يكون في ذلك الوقت، هل هذا يدل على أنَّ الميلاد الَّذي جعلوه للمسيح في يناير هذا ليس بصحيح؟ يبدو فكل هذه أشياء ليس عليها أدلَّة قاطعة.

جاءت إلى جذع النخلة وأحست بالطلق بالمخاض، وهنا قالت الفتاة الطاهرة الَّتي لم يمسها بشر والَّتي لم تعرف الخنا في حياتها قط: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]، الإنسان يشعر بقلق هذه الفتاة وبشعورها كيف تواجه النَّاس بهذه المصيبة؟ تحمل من غير زواج؟ ماذا تقول للناس؟ ولذلك ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]، هكذا غلبت عليها البشريَّة وقالت هذا.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي﴾ [مريم: ٢٤]، المولود الجديد ناداها من تحتها مجرد ما نزل من بطنها وبسهولة وبدون قابلة «داية»، وبدون طبيب توليد، وبدون حضور أحد يساعدها، والفتاة تحتاج عند الولادة إلى من يساعدها خصوصًا الفتاة البكر أوَّل ولادة لها لم تعرف لها سابقة ولا تجربة، ولكن الله سهَّل عليها ذلك، ونزل الوليد وخاطبها من تحتها، الولد يتكلم! الجنين الَّذي وُلد لتوِّه أصبح يكلِّم أمه ويطمئنها ويبشِّرها! ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي﴾ [مريم: ٢٤]، لا تقولي: يا ليتني متُّ قبل هذا، لا تحزني، ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]، السري: جدول من الماء العذب، الله أجرى

QaradawiBooks.com

لكِ جدولًا من الماء تشربي منه، ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم: ٢٥]، يريد الله سبحانه منها أن تهز جذع النخلة لتأخذ بالأسباب، وربُّنا هو الَّذي ينزل الرُّطَب.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ قَالَ لِمَرْيَمٍ وَهُزِّي إِلَيْكِ الْجِذْعَ يَسَّاقَطِ الرُّطَبْ
وَلَوْ شَاءَ أَنْ تَجْنِيهِ مِنْ غَيْرِ هَزِّهَا جَنَتْهُ وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبْ[1]

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم: ٢٥]، المرأة النفساء محتاجة إلى أشياء تأكلها خصوصًا الأشياء السكرية والحلوة، في مصر يعملون للوالدة شرابًا ساخنًا يسمُّونه «المُغَاث»[2]، فالله سبحانه هيأ لها حاجة من السماء، هل يا تُرى كان وقت الرطب أم جاء به في غير وقته؟ الله أعلم.

﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٦]، إذا قابلتِ أحدًا من البشر ومعكِ طفل وانهالت عليك الأسئلة واللمز والغمز والقيل والقال، لا تبال بأحد ولا تردِّي على أحد، قولي: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ عن الكلام ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ۞ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ﴾ [مريم: ٢٦، ٢٧]، فوجئ القوم، ما هذا؟ مريم القديسة الَّتي كنا نقول عنها كذا وكذا تأتي بطفل ولم تتزوج؟!

﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾ [مريم: ٢٧]، هذا أمر افتريته، من أين جئتِ به؟ ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٨]، النَّاس عادة يقولون: يا أخا العرب،

---

(١) ذكره من غير نسبة أبو منصور الثعالبي في التمثيل والمحاضرة صـ ٢٦٩، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، نشر الدار العربية للكتاب، ط ٢، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

(٢) وينطقه أهل مصر على عادتهم بالتاء المثناة، وهو نَبَات بري ينْبت فِي جبال فَارس والموصل لَهُ جذور غِلَاظ تسحق ويضاف إِلَيْهَا المَاء وَالسكر وَالسمن ومواد أُخْرَى وَكَثِيرًا مَا تشربه النُّفَسَاء وزائراتها. المعجم الوسيط مادة (غ. و. ث).

نسخة محايدة

QaradawiBooks.com

يا أخا قريش، ينسبونه إلى قبيلته أو إلى إنسان مشهور في القبيلة، فهارون كان رجلًا مشهورًا بالصلاح، وذريته هم الَّذين يتحمّلون الشؤون الدينيَّة وشؤون المعبد وأمثال هذه الأمور، فقومها نسبوها إلى هارون وقالوا: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٨]، من أين جئتِ بهذا؟ يقولون: اكفي الآنية على فمها تطلع البنت لأمها. ويقولون: العصا من العصيَّة ولا تلد الحية إلَّا حيية. إنَّما أنتِ يا مريم من أسرة مشهورة بالصلاح طول عمرها فمن أين جئتِ بهذا الطفل؟

﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ۝ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ [مريم: ٢٨، ٢٩]، لم تتكلم هي نذرت للرحمن صومًا، أشارت لهم إلى الطفل كأنَّها تقول لهم: هذا هو صاحب القضيَّة، تعجّب القوم، ﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ [مريم: ٢٩]، أتسخرين منا؟ أم تضحكين علينا؟ أم تستهزئين بنا؟ ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾؟

أنطق الله تعالى الطفل وهو لا يزال في المهد صبيًّا، ودافع الطفل عن أمه وحامى عنها.

نُطْق المسيح في المهد هذا أيضًا ممَّا انفرد به القرآن، لا يوجد في الأناجيل أنَّ المسيح نطق في المهد، القرآن يذكر من آيات المسيح ومعجزات المسيح ما لم تذكره الأناجيل.

﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، هذا أوَّل شيء نطق به المسيح في المهد، ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾، كأنَّه يكذِّب مقدَّمًا الَّذين يؤلِّهونه، الَّذين يجعلونه إلٰهًا مع الله، أو يتَّخذونه وأمَّه إلٰهين من دون الله ﷻ، تعالى الله

QaradawiBooks.com

عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا، وجاء في سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧]، هذا يقوله يوم القيامة، وقاله في المهد صبيًّا: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾.

أنطق الله المسيح في المهد ليبرئ أُمَّه، ولم ينطق أحد في المهد غير المسيح إلَّا أفراد قلائل جاءت بها بعض الأحاديث[1]، لم ينطق نبيٌّ من الأنبياء في مهده غير عيسى، ولماذا نطق المسيح؟ لتبرئة أُمَّه حتَّى لا يتهمها النَّاس زورًا وبهتانًا كما قال اليهود عليها بعد ذلك، اليهود اتَّهموا مريم بالزنى وقالوا عليها قولًا عظيمًا، كما قال القرآن: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]، افتروا عليها افتراء عظيمًا اتهموها في عِرضها، فلذلك نطق المسيح ليبرئ أُمَّه.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠، ٣١]، لأن الصلاة والزكاة جاء بها الأنبياء جميعًا، استمعنا في هذه السورة إلى قول الله تعالى في شأن إسماعيل عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

---

(١) كما في حديث أبي هريرة أنَّ النبي ﷺ قال: «**لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج...**» الحديث. متَّفق عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

الصلاة والزكاة عبادات قديمة مستمرة مع النبوات جميعًا، وقال الله في قوم موسى الَّذين أخذ منهم الميثاق: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢]، وقال الله تعالى في أهل الكتاب: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

فالمسيح جاء بتثبيت الدعائم الَّتي جاءت بها النبوَّات من قبله، العقائد، التوحيد: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، لستُ إلٰهًا، ولا ابن إلٰه، ولا ثلث إلٰه كما يزعمون، ﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَىٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۞ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٢]، بر الوالدين من أصول الفضائل الَّتي جاءت بها الأنبياء جميعًا، كل الأنبياء جاؤوا بهذا البر، ولذلك وصف الله يحيى في نفس السورة: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤]، وهنا يقول المسيح: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۞ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٢، ٣٣].

ثم يقول القرآن: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ۞ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤، ٣٥]، هذا هو المسيح الَّذي غالى فيه الغالون، هناك أناس كذَّبوه واتهموا أُمَّه، وأناس رفعوه إلى مرتبة الألوهيَّة وهو عبد من عباد الله ورسول من رسله، ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، كونه جاء

QaradawiBooks.com

من غير أب فهناك من جاء بغير أب ولا أم، ولذلك القرآن يقول: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فآدم خُلق من غير أب ولا أم، وعيسى خُلق من أم، فيكون خلق عيسى أقل عجبًا من خلق آدم، فلماذا يُؤلِّه النَّاس المسيح وهو عبد من عباد الله؟!

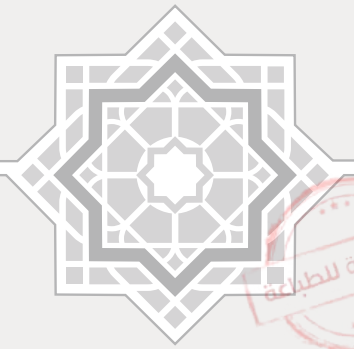
المسيح في الإسلام وفي القرآن نبي عظيم، ورسول من أولي العزم من الرسل، أكثر القرآن الثناء عليه وعلى أُمِّه وعلى كتابه الإنجيل وعلى من اتبعوه إلَّا الَّذين ظلموا منهم، ولكنَّه مع هذا التعظيم هو عبد من عباد الله ورسول من رسل الله من أولي العزم من الرسل، من الخمسة العظام من الرسل، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد الَّذين ذكرهم الله تعالى في كتابه قال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ ۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

* * *

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



غير مرخصة للطباعة

دروس في تفسير

سورة طه



نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الأوَّل
قصة آدم أبي البشر من سورة طه[1]

غير مرخصة للطباعة

الحروف المقطَّعة:

فقد فرغنا الليلة من سورة طه، وما معنى طه؟ بعض النَّاس فهم أن «طه» هو اسم من أسماء النبي ﷺ، كما أنَّهم فهموا أن «يس» كذلك اسم من أسمائه عليه الصلاة والسلام، وعلى هذا نجد كثيرًا من المسلمين، يسمون أبناءهم «طه» و«يس»، ولماذا لا تسمون «حم» و«طس»، لماذا اخترتم «طه» و«يس» وتركتم غيرها؟!

والحقُّ ـ أيُّها الإخوة ـ أنَّ «طه» و«يس» حروف مقطّعة، مثل «الم»، «الر» «طس» إلخ، وكلها حروف مقطعة تشير إلى إعجاز القرآن، وأنَّ القرآن مكوَّن من مثل هذه الحروف، القرآن الَّذي أعجزكم أيُّها العرب مكوَّن من «الم» و«حم» و«طس» و«ق» و«ن» إلخ، لا يخرج عن الحروف الَّتي تتكلمون بها، فكيف أعجزكم؟ فعليكم أن تتأملوا في هذا.

ولذلك فغالبًا ما يأتي ذكر القرآن بعد هذه الحروف، ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر: ١، ٢]، ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١]، ﴿يسٓ ۞ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس: ١، ٢]، ﴿طه ۞ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١، ٢].

(١) من دروس تراويح ١٤٢٣هـ.

QaradawiBooks.com

فهـذا معنى «طه» أحببتُ أن أنبّه أنَّ التسـمية بـ «طـه» و«يس» غير مستحبة، وكأنك تسمي شخصًا بحرفين، ولذلك بعض الإخوة كان اسمه «طه» ولما عرف هذه الحقيقة، ذهب وغيَّر اسمه، وسمَّى نفسه: «عبد الله».

سورة الكليم:

وسـورة طه ـ أيُّها الإخوة ـ من السـور المكيَّة، وكان بعض السلف يسميها: سورة الكليم؛ وهو موسـى عليه السلام؛ لأنَّها تحدثت عن قصَّة موسى من أوَّل ما وُلد، وفترات من حياته طويلة، وسبَحت في هذه القصَّة سبْحًا طويلًا، والعجيب أن موسى عليه السلام، هو أكثر الأنبياء ذكرًا في القرآن، وقصته أخذت من القرآن مساحة واسعة، حتَّى قال بعض المفسرين: كاد القرآن أن يكون لموسى وبني إسرائيل. ومع هذا لم توجد سورة تُسمَّى باسم موسى.

يوجد في القرآن سـور بأسـماء الأنبياء، مثل: يونس وهود ويوسف وإبراهيم ونوح.. ولكن لم توجد سورة تسمَّى باسم موسى عليه السلام، فبعض السلف كان يسمي سورة طه باسم الكليم.

نسيان آدم للعهد:

تحدَّثت هذه السـورة عن قصَّة موسـى عليه السلام، وتحدَّثت في آخرها حديثًا موجَزًا مركزًا، عن قصَّة أبي البشر آدم عليه السلام، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]

عهد الله إلى آدم، أن يسـكن الجنَّة، ويأكل من كل شيء فيها رغدًا، ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]. هذا هو عهـد الله إلى آدم، ولكنَّه ـ للأسـف ـ لم يلتزم بهذا النهج، كما قال الله: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾.

QaradawiBooks.com

سبب عصيان آدم لم يكن رفضًا لأمر الله، ولا تمرُّدًا على طاعة الله، وإنَّما كان نسيانا وضعف إرادة، ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾، النسيان والغفلة، عن أمر الله، وعن التحذير من هذا العدو إبليس، واستجاب لوسوسة إبليس اللعين، وقد قالوا:

وَمَا سُمِّيَ الإنسانُ إلَّا لنَسْيِهِ وما القلبُ إلَّا أنَّه يتقلَّبُ

بعض النَّاس يقول: الإنسان سُمِّيَ إنسانًا من النسيان، والبعض يقول: لا بل من الأنس؛ لأنَّ الإنسان يأنس بالإنسان، فإذا عاش وحده كان مستوحشًا، ولهذا تُعد أكبر عقوبة يُعاقب بها الإنسان، هي السجن الانفرادي. كفاكم الله شره. وقد قالوا: الإنسان مدني بطبعه. وقالوا أيضًا: الإنسان حيوان اجتماعي. يعني يألف ويؤلف، ويعيش مع غيره، ويكوِّن جماعة، ولهذا قالوا: سُمِّيَ الإنسان لأنسه بغيره.

وسواء كان المعنى هذا أو ذاك ـ فعلى كل حال ـ لقد نسي آدم وضعُف عزمه، واستجاب للشيطان وعصى أمر ربِّه.

بين معصية آدم وإبليس:

ومعصية آدم على خلاف معصية إبليس، فكلاهما عصى الله، ولكن فرق بين المعصيتين، فمعصية إبليس كانت رفضًا لأمر الله، قال: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣].

«لم أكن لأسجد» يعني: ما ينبغي لي أن أسجد. فهو إذا رفض لأمر

QaradawiBooks.com

الله، وكفر بـــه، ولذلك قـــال تعالـــى: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، رفض الأمر الإلٰهي، والحكم الإلٰهـــي، كفر. أمَّا الضعف عن هذا الأمر، والنسيان له، يعتبر معصية.

ففرق بين من تقول له: صـــلِّ. فيقول: ما الصلاة! نحن في القرن الحادي والعشرين، وما زلتم تقولون لنا: اركع واسجد.. إلخ. وهذا كفر.

تقول لهم: تعالوا نحكِّم شرع الله. يقولون: تريدون أن تعودوا بنا إلى أربعة عشـــر قرنًا مضت، لنقطع يد السارق، ونجلد شارب الخمر.. إلخ، إنَّها حرية شخصيَّة، ليستمتع الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، والرجال بالرجال، والنساء بالنساء.. ومن يقول هذا، لا شكَّ أنَّه كافر.

أمَّا لو زنى شـــخص؛ لأنَّ شـــهوته غلبت عليه، فاســـتجاب للغريزة الجنســـيَّة، وارتكب الفاحشـــة، وهو يعلم أنَّها حرام، فإذا حدثته بحرمة هذا، لا ينكر أنَّه وقع فـــي الحرام، فهذه معصية، وقـــد تكون كبيرة من الكبائر، لكنها لا تصل إلى حد الكفر.

ففرق بين معصية آدم وبين معصيـــة إبليس. معصية آدم من معاصي الجوارح، ومعاصي الجوارح هينة، أمَّـــا معصية إبليس فهي من معاصي القلوب، ومعاصي القلوب خطيرة.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۞ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٦، ١١٧].

هذا الَّذي نســـيه آدم، نســـي هذا التحذيـــر الإلٰهي، ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾، وقوله: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ المقصود به شقاء **الدُّنيا، والسعي في**

QaradawiBooks.com

الأرض، يزرع ويفلح ويحصد.. إلخ من المشقات؛ «وذلك معصوب برأس الرجل» كما يقول الزمخشري[١]. فالشقاء والكدح من أجل الرزق، الأصل فيه أنَّ الرجل مسؤول عن هذا، ولهذا قال: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾، فأنت في الجنَّة سعيد مرتاح، وكل ما تريد من الحاجات الأساسيَّة مكفية لك، وهي ما عبَّر عنها القرآن بقوله:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

الأكل والشرب واللباس، والكسوة، والمأوى من الشمس، فلا يضحى، المهم وسوس الشيطان لآدم، وتبعه آدم، وطمَّعه بالملك والخلد.

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

نسبة المعصية لآدم أمَّا حواء فهي تبع له:

وفي القرآن نجد أنَّ الله ينسب المعصية إلى آدم، والخطاب إلى آدم، لأنَّه هو الأساس، على خلاف ما تقول التوراة: إنّ الَّذي أغرى آدم بالمعصية، هو حواء امرأته، ظلت تغريه بالأكل من الشجرة حتَّى أكل منها.

والقرآن لم يذكر هذا أبدا، ونسب المعصية إلى آدم.

ولكنَّه قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾، يعني شاركته في المعصية، فلقيت جزاءه، فالمعصية الأساسيَّة لآدم، ومعصية حواء تبع لآدم، فما دام أنَّها شاركته فتتحمل المسؤوليَّة، لأن النهي لهما، وهذا أيضًا ممَّا

(١) الكشاف للزمخشري (٩٢/٣).

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

يدل على تكريم المـــرأة، أن أوَّل تكليف إلٰهي، كان للرجل وللمرأة معًا، قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ فالمرأة مكلفة مثل الرجل، ولذلك ما دامت أكلت وعصـــت الأمر الإلٰهي، ســـواء أكلت تبعًـــا أم أنَّها الأصل، كانت مسؤولة، ولا بد أن تتحمل المسؤوليَّة، ومن فضل الله تعالى أنَّه قال:

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۞ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

لم يرث البشر معصية آدم:

مُحيت الخطيئة، وغسلت بالتوبة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب لـــه، ولذلك لم يعد هناك مبـــرر لأن يقال: إن معصيـــة آدم يظل يرثها البشر، إلى قيام الساعة، ويتحملون هذه الخطيئة، وأنَّه محتاج إلى من يخلصه من أوزار هذه الخطيئة، وآثارها، فأرســـل الله ابنه ليضحي به، كي يطهّرهم من هـــذه الخطيئة، كما هـــي العقيدة المســـيحيَّة، وهذه عقيدتهم، ولكـــن ليس لها مبـــرر في منطق الإســـلام؛ لأن في منطق الإسلام، لا يتحمَّل أحد وزْر أحد، ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، فكيف يتحمَّل الإنسان خطيئة لم يعملها، هو ولا عملها أبوه، ولا جده الســـابع ولا العشـــرين، يحمل خطيئة من أوَّل البشريَّة؟!

وأمر آخر: أنَّ هذه الخطيئة غُسلت بالتوبة، وكأنَّها ما كانت.

وكانت النتيجة أن هبط آدم من هذه الجنَّة، ســـواء كانت الجنَّة، هي جنَّة الآخـــرة، أو جنَّة بربوة في الدُّنيا، حديقة في مـــكان عالٍ، وقال له: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ فهناك خلاف بين المفســـرين. ففي النهاية أنَّه هبط، ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ

QaradawiBooks.com

هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

هذا هو القانون الإلٰهي، ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ لا يضل في الدُّنيا، ولا يشقى في الدُّنْيا ولا في الآخرة. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ هذا في الدُّنيا، أمَّا في الآخرة: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الثاني
بين معصية آدم ومعصية إبليس[١]

قصة آدم في سورة طه:

ختمنا سورة طه، وسورة الأنبياء، من سور القرآن المكيَّة، ولنا وقفة فيما ذكرته سورة «طه»، من قصَّة آدم عليه السلام، وقصة آدم أبي الأنبياء تكررت في القران في عدة سور، في سورة البقرة، وفي سورة الأعراف، وفي سورة الحجر، وفي سورة الإسراء، وفي سورة الكهف، وفي سورة طه، وفي سورة ص، هذا على ما أذكر السور الَّتي قصَّت قصَّة الإنسان الأوَّل أبي البشريَّة آدم عليه السلام.

ولكن تتميز سورة طه بأسلوبٍ خاصٍّ في معالجة القصَّة، إذ كان التركيز فيها على آدم، السور الأخرى كان التركيز على آدم وزوجه، ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٥، ٣٦] وهكذا وجدنا التركيز في هاتين الآيتين على آدم وزوجه.

ولكن هنا في سورة طه كان المحور هو آدم عليه السلام، ممَّا يدل على أنَّه هو الأساس في القصَّة، وأن زوجه كانت تابعة له، حتَّى أنَّها لما أكلت من الشجرة أكلت تبعًا لزوجها، وهذا يخالف ما ذكرته التوراة من أنَّها

(١) من دروس تراويح ١٤٢٤هـ.

QaradawiBooks.com

حمَّلتْ حواء قصَّة شقاء البشريَّة، لأنَّها هي الَّتي وسوست لآدم أن يأكل من الشجرة، وأغرته بالأكل فاستمع لها وأكل من الشجرة، ولذلك النَّاس يقولون: المرأة هي سبب شقاء البشريَّة، هي الَّتي أخرجت الإنسان من الجنة.

لا، الأمر خلاف ذلك، فالقرآن يؤكد في كل السور أنَّ الَّذي وسوس لآدم هو إبليس لعنه الله، هو الَّذي وسوس لآدم، وأنَّ المرأة أكلت تبعًا لآدم، ولم تكن هي البادئة، ولا الموحية، ولا شيئًا من ذلك، هنا القرآن يقول: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]، فبرأ القرآن هنا المرأة ممَّا اتهمتها به التوراة، وحمَّلها مَن حمَّلها الوزْر، وما لاقته البشريَّة من الشقاء والعناء والحروب وغير ذلك.

القرآن ـ كما قلنا ـ يوجه الأمر لآدم، ففي أوَّل القصَّة يقول: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، فهو الأساس، عهدنا إليه ألا يأكل من الشجرة، يأكل من الجنَّة ما شاء الله له أن يأكل، ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾، هي شجرة واحدة فقط هي الَّتي نهاه الله تعالى عن الأكل منها، ولكن آدم نسي هذا النهي، لم ينتبه له، لم يضعه نصب عينيه، ولا في بؤرة شعوره وذاكرته، نسي، غلب عليه نسيان البشر، وغلب عليه ضعف الإرادة، أمام إغراء الشيطان، لذلك قال الله تعالى: ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾.

بين معصية آدم ومعصية إبليس:

والإنسان حينما يقع في الخطيئة من أجل نسيان أو خطأ، هذه تعتبر خطيئة بسيطة، بمجرد أن يقول: أستغفر الله وأتوب إلى الله تمحى، إنَّما الخطيئة الكبيرة والكبرى هي الَّتي تنشأ من إباء وتمرد، من رفض لشرع الله وأمر الله، وهذا شأن إبليس، ولذلك قال بعدها: ﴿وَإِذْ قُلْنَا

QaradawiBooks.com

لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [طه: ١١٦] يعني: رفض حكم الله، قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

فرق بين الأمرين، بين أن يقع الإنسان في المعصية نتيجة الضعف البشري، نتيجة نسيان وغفلة عن الأمر ولم يستحضره فوقع في المعصية، وبين من يقول: لا، أنا لا أطيعك، لذلك قال الله تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، ولذلك اعتبروا معصية آدم من معاصي الجوارح، معصية البطن، شهوة البطن، حب الأكل، إنَّما معصية إبليس من معاصي القلوب، وفرق بين معاصي القلوب، ومعاصي الجوارح، وكذلك طاعات القلوب، وطاعات الجوارح.

ومن أجل ذلك تاب آدم ولم يتب إبليس، آدم قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، إنَّما إبليس عاند، وركب رأسه، ووقف يتحدَّى الجبروت الإلٰهيّ، والكبرياء الإلٰهيّ، ويقول: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، ولذلك فرق كبير بين من نسي ولم يكن لديه عزم على المعصية، ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ وبين من أبى واستكبر، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾.

هل كان إبليس من الملائكة؟

هل كان إبليس من الملائكة أم كان من الجن؟ بعض العلماء قال: إنَّه كان من الملائكة، حتَّى إن بعضهم قال: كانوا يسمونه طاوس الملائكة، ولذلك لما صدر الأمر للملائكة بالسجود صدر الأمر إليه، ولكن

QaradawiBooks.com

المحققين من العلماء قالوا: لم يكن من الملائكة، ولكن كان من ضمن الملائكة، عايش الملائكة وعاشرهم حتَّى أصبح واحدًا منهم، كما قال المثل: من عاشر القوم أربعين يومًا صار منهم، وهذا عاش معهم آلاف السنين فأصبح واحدًا منهم، فحينما يصدر الأمر إليهم يصدر إليه.

ولكن الواقع أنَّه من الجن، ولذلك قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، والملائكة خلقوا من نور، وهو خلق من نار، قال تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]، والقرآن قال في سورة الكهف: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، فالأمر واضح، ثمَّ إنَّ الملائكة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، مفطورون على الطاعة، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، لكنَّ إبليس أبى واستكبر.

تحذير آدم من العدوِّ المتربِّص به وبذريَّته:

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]، حذَّرنا آدم بعدما تمرَّد على السجود له، وأبى أن يطيع أمر الله في تكريم آدم والسجود له، تكريمًا وتشريفًا كما أراد الله، حذرنا من هذا العدو المتربص به وبذريته، ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾، احذر هذا العدو؛ لأنَّه لك بالمرصاد، ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾.

لماذا لم يقل فتشقيان؟ بعض العلماء قال: لأنَّ الشقاء معصوب برأس الرجل[1]، الَّذي يسعى ويكدح ويتعب هو الرجل، والبعض يريد أن يأخذ من هذا أنَّ المرأة لا تعمل، وهذا في الحقيقة تكلُّف في الاستدلال، لأنَّه

(١) الكشاف للزمخشري (٩٢/٣).

QaradawiBooks.com

يمكن أن يكون هذا من باب الاكتفاء، ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾، يعني فتشقى أنت وزوجتك، طالما خرجتما من الجنَّة فقد خرجتما من دار الرفاهية والراحة، ولذلك لما قال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طـه: ١١٨، ١١٩]، هل هذا له فقط؟ طبعا لا، بل المرأة أيضًا نفس الشيء، كلاهما سيتعرَّض لذلك.

لكن إبليس اللعين ظلَّ يُوسوس لآدم ليخرجه من الجنَّة، كانت كل حاجاته مضمونة في الجنَّة، المأكل: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾، الملبس: ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾، المشرب: ﴿لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا﴾، المأوى: ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾، أي: لا تتعرض لضحوة الشمس وحرارتها، لأن عندك غرفا، وعندك أشياء تستظل فيها، والجنة ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾، وتخرج للدنيا تكدح وتعمل.

الجنة الَّتي كان فيها آدم:

هناك خلاف حول الجنَّة الَّتي كان فيها آدم وزوجه، هل هذه الجنَّة الَّتي كان فيها هي جنَّة المأوى الَّتي أعدَّها الله للمتَّقين؟ أم هي جنَّة بمعنى «جُنَيْنة» عظيمة، فيها من الخيرات ما فيها، مثل: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧]، ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢]، يعني حديقة عامرة مليئة بالفواكه وكل شيء؟ هذا محتمل، ولكن لا يترتب عليه حكم على كل حال.

الإنسان وغريزة حب الخلود:

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١١٧ ـ ١٢٠]، هناك شجرة لو أكلتَ منها

QaradawiBooks.com

ســتَخْلُد، وتكون من الخالدين، ولا يعتريك موت ولا شيء، والإنسان عنده غريزة حبِّ الخلود، أن يبقى ويعيش، هذه غريزة كامنة في الإنسان، إبليس استغلَّ هذه الغريزة عند آدم، وقال له: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾.

لذلك النَّــاس الآن يحاولون البحث عن أشــياء تؤخر الشــيخوخة ما أمكن حتَّــى تطول أعمارهم، هذه طبيعة البشــر، المهم ظل وراء آدم ودلّاه بغــرور، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعــراف: ٢١]، وحلف بالأيمان، وآدم من طيبته صدَّق إبليس، ما ظن أنَّه ســيحلف بالله كاذبًا، قالوا للحرامي: احلف. قال: جاءك الفرج. يحلف وما يهمه شيء، المهم ظلَّ يغريه حتَّى أكل من الشجرة.

﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١].

ذوق حواء بمشاركة زوجها آدم:

أكل آدم وتبعته زوجته، أنا أقول: إنَّ حواء كان عندها ذوق، لم ترض أن يأكل زوجها وهي لا تشاركه، أكلت معه لتفتح له شهيته، ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا﴾، أكل وأكلتْ معه، تبعًــا له، ﴿فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١]، بدأت تنكشــف العــورة، كأن الأكل هذا أظهر الآدمية مباشرةً، وانكشفت العورات، ورأيا ما يسوءهما انكشافه.

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]، ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ﴾، نسب المعصية لآدم لأنَّه هو الأساس والمرأة أكلت تبعًا له، ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾، الإنسان فيه ضعف، ولذلك ليس عجيبًا أن يقع في المعصيــة، لأنَّه ليس له ما عند

QaradawiBooks.com

الملائكة، الملائكة مفطورة على الطاعة، أمَّا الإنسان فلا، ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨]، لكن ربنا أعطاه هذه الممحاة، يمحو بها هذه المعصية، يغسل بها نفسه من الخطيئة، وهي التوبة، ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾، ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

غير مرخصة للطباعة

إبطال مزاعم النَّصارى:

ولذلك لا مجال لما يقوله النَّصارى: من أن خطيئة آدم ورثتها ذريته، وأن كل مولود يولد وفي عنقه خطيئة أبيه آدم، هذا في المنطق الإسلامي مرفوض، مرفوض لأمرين أساسيين: **الأمر الأوَّل**: أنَّ أحدًا لا يحمل خطيئة أحد، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٧]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، كلُّ إنسان مُعلَّق من عرقوبه كما يقولون، فكيف يحمل الإنسان وزرًا لم يره، ولم يشاهده ولم يحضره، لا هو ولا أبوه ولا جَدّه ولا جَدّ جدِّه، آلاف السنين الله أعلم بها، عشرات الآلاف، مئات الآلاف، لا ندري، ما عندنا هذا.

التوراة تحاول أن تجعل الأيام من آدم أيامًا معدودة كأنَّها سبعة آلاف سنة أو كذا، ليس عندنا كلام من هذا، ويقولون: آدم كان ستِّين ذراعًا[1]، وظلت الخليقة تنقص وتنقص حتَّى صارت كم مليون سنة، ما نعرف، الله أعلم، المهم كيف يحمل الإنسان وزر هذه الخطيئة القديمة جدًّا، هل

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٢٦)، ومسلم في الجنة (٢٨٤١)، عن أبي هريرة، ولفظ البخاري: «خلق الله آدم وطوله ستون ذراعًا».

QaradawiBooks.com

العدالة الإلٰهيَّة تقبل هذا! عدل الله لا يمكن أن يحمل البشر خطيئة لا يد لهم فيها، ولا شاركوا فيها لا من قريب ولا من بعيد، ولا حضروها، ولا رأوها، فهذا مستحيل.

الأمر الثاني: أنَّه حتَّى لو فُرض إنَّ الخطيئة هذه خطيئة وكذا، فقد انتهت، انتهت بتوبة آدم، وهذه خطيئة بسيطة، شخص أكل من الشجرة، فليست من الخطايا الكبرى، فقد انتهت على كل حال بالتوبة، ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾، ثمَّ هبط آدم من الجنَّة هو وزوجه، وربنا رسم لهما الطريق والمنهج الَّذي يجب أن يسيرا عليه، هما وذريتهما من بعدهما.

السعادة في الدُّنْيا والآخرة في اتِّباع هدى الله:

﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، اهبطا منها، اخضعوا لسنني في الأرض، ولكن هناك منهج أنتما ملزمان به، حينما يأتيكم هدى من الله، عن طريق أنبيائي ورسلي، ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ من اتبع هدى الله فلا يمكن أن يضل في فكره، ولا يشقى في حياته، فهو مستقيم الفكر، مستقيم السلوك، سعيد في حياته، بعيد عن الشقاء، لأن منهج الله ليس من ورائه إلَّا السعادة في الدُّنْيا قبل الآخرة.

وليست السعادة في الآخرة فقط، بل حتَّى في الدُّنْيا أيضًا، يسعد ويحيا الحياة الطيبة، كما قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ [النحل: ٩٧]، ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]،

QaradawiBooks.com

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ [الجن: ١٦]، ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ [المائدة: ٦٦].

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ من اتَّبع هدى الله لا يضلُّ ولا يشقى، بل يهتدي ويسعد، ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، من أعرض عن هذا الهُدى الإلٰهي، عن المنهج الربَّاني، واتَّبع الهوى، واتَّخذ الشياطين أولياء من دون الله، لن يكون من وراء ذلك إلَّا الشقاء في الدُّنْيا والآخرة، في الدُّنْيا المعيشة الضنك، ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾، معيشة ضيقة، تضيق عليه الأرض بما رحُبت، حتَّى وإن كان يملك المال، والقناطير المقنطرة من الذهب، والفضة، والخيل المسوَّمة، والحرْث، حتَّى مع هذا لن يكون سعيدًا، لأنَّ السعادة أوَّل ما تنبع تنبع من النفس، وهذه لا يمكن أن تثمر نفسه إلَّا شقاء.

نرى الآن النَّاس في بلاد الغرب وفي أمريكا الَّتي تملك من القوى العلميَّة والتكنولوجية ما تملك، واستطاع الإنسان أن يصل إلى القمر، وأن يغزو المريخ وغير ذلك، ولكنَّه لم يستطع أن يسعد على سطح الأرض، يعيشون عصر القلق والاكتئاب، والهموم، والغموم، واليأس، هؤلاء ليسوا سعداء؛ لأنَّهم أعرضوا عن ذكر الله، قد يكون الإنسان فقيرًا لا يملك إلَّا قوت يومه ولكنَّه سعيد، النبي ﷺ يقول:

QaradawiBooks.com

«**من أصبح آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه فكأنَّما حيزت له الدُّنْيا بحذافيرها**»[1]، فالله تعالى بقسطه وعدله جعل الروْح والفرح والراحة النفسية في الرضا واليقين، وجعل الهم والغم والحَزَن في السخط والشك.

فهؤلاء الَّذين أعرضوا عن ذكر ربهم أشقياء وإن ملكوا ما ملكوا، ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٥، ١٢٦]، كما نسيت آياتي الآن نتركك وليس لك أي اعتبار في الآخرة، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٤٦)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الزهد (٤١٤١)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٢٣١٨)، عن عبيد الله بن محصن الأنصاري.

QaradawiBooks.com

الدرس الثالث
قصَّة موسى في سورة طه

تكرار القصَّة القرآنيَّة:

هذه السورة الكريمة سورة طه ذكرت في قصَّة موسى ما لم يُذكر في سور أخرى، وهذا ليس تكرارًا مطلقًا، لأنَّه في كل مرَّة يُذكر شيء جديد يقتضيه السياق لم يذكر في السور الأخرى، فالقصَّة هي هي، مثل ما تأخذ صورة لشخص واحد، ولكن تأخذ له صورة وهو جالس، وصورة وهو واقف، وصورة وهو يبتسم، وصورة وهو مقطِّب الجبين، وصورة وهو يتحدث، كل صورة غير الأخرى، الشخص واحد، ولكن الصور مختلفة، فلا تظن أنَّ القرآن حينما يعيد قصَّة موسى أنَّه يكرر، ليس تكرارًا.

هنا في سورة «طه» نجد لمسات جديدة، ومشاهد جديدة، مثل: المناجاة الَّتي حدثت بين موسى وربه ﷻ، انظر إلى هذا المشهد العجيب الرهيب، موسى جاء من مدين وهو راجع إلى مصر في الصحراء ليس معه رفيق ولا أنيس، وفي جنح الليل وفي ظلمة الليل، وترك زوجته، وقال لها: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ إنِّي أرى نارًا من بعيد سأذهب إليها ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ أحضر جمرة من تلك النَّار نستدفئ بها من هذا البرد في هذا الشتاء القارس ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه: ١٠] أجد هاديًا يهديني الطريق.

QaradawiBooks.com

النداء الإلٰهي لموسى:

ويذهب موسى عليه السلام إلى جهة هذه النار، فإذا به يفاجأ بمفاجأة هائلة، إذا به ينادى، يناديه منـــادٍ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ ۞ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ [طه: ١١، ١٢]، يا لله، ما هذا؟ في هذا الليل الرهيب، في هذا الصمت، إذ بهذا النداء الإلٰهي، الله ينادي موســى هــذا الطريد المهاجر المسكين، ينادى من قبل السماوات ورب السماوات، ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۞ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۞ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۞ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۞ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ۞ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ [طه: ١١ ـ ١٦].

هذا النداء الأوَّل تصور موقف موسى في هذه الحالة، وهو يفاجأ بهذا النداء، لم يكن يخطر على باله أنَّه سيوحى إليه، أو أنَّه سيكون نبيًّا، أو أي شــيء من هذا، مثل مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام وهو في غار حراء جاءه جبريل، هنا موسى لم يأته جبريل، بل هو نداء إلٰهي مباشرة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، هذه مزية من مزايا سيِّدنا موسى عليه السلام، ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فمن مزية موســى أنَّ الله كلمه تكليمًا مباشرًا، وبعد هذه الرهبة أراد الله تعالى أن يؤنس موســى عليه السلام، ويخرجه من الرهبة والوحشة إلى جو المؤانسة فقال له: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۞ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ١٧، ١٨].

كان يكفي أن يقول ســيِّدنا موسى حينما سئل: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]؟ أن يقول: عصا، أو هي عصا، أو هي عصاي، أي: هي

QaradawiBooks.com

عصاتي أنا، لكنَّه استشعر الأنس بربِّه، فأحبَّ أن يجعلها سُلَّمًا للكلام مع ربِّه، فقال: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ [طه: ١٨]، ثمَّ أخذ يذكر من فوائد العصا وثمراتها، قال: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨]، وهل قال لك الله: ماذا تفعل بها؟! لكن موسى عليه السلام استشعر الأنس مع ربِّه، فذكر من شأن العصا ما ذكر، ولكنَّه عليه السلام أطال الحديث وبسطه لأنسه بربِّه، فاستشعر الأدب مع ربِّه فاختصر بقية الفوائد بقوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨]، عسى أن يسأله ربه عن المآرب الأخرى للعصا، لا بدَّ من الأدب مع الأكابر.

معجزة العصا واليد:

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ۞ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۞ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٩ ـ ٢١]، أراد الله أن يعد موسى لهذه الرسالة العظيمة الَّتي يحملها وسيلاقي بها فرعون المتكبِّر الجبار، الَّذي ادَّعى الربوبيَّة والألوهيَّة، وقال للناس: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فأراد الله أن يقوي قلبه، ويعده للقاء هذا الجبار المتأله، لما يرى من هذه الآيات، ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٣].

لتعرف أنَّك مسدَّد مؤيَّد، لا تخف من فرعون ولا قارون ولا هامان، ولا الجيش ولا الجنود، ولا شيء من هذا، أنت معك الَّذي يجعل العصا حية تسعى، انقلاب العصا حية هذا شيء ليس هينًا، هذا من أعظم المعجزات، بل لعلَّها أعظم المعجزات؛ لأن عيسى كان يحيي الموتى، ولكن الميت هذا هو إنسان حي أساسًا، وهو ميت من قريب، سيعيد الله إليه الحياة، إنَّما العصا هذه جماد، كيف يمنحها

QaradawiBooks.com

الحياة والحركة؟ حتَّى أن سيِّدنا موسى خاف، فقال له الله: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١].

مدَّ سيِّدنا موسى يده فأمسك العصا، وهي لا تزال حية تسعى فإذا بها تعود إلى حالتها الأولى، ثـــمَّ قال له الله: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ۝ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ [طـه: ٢٢، ٢٣]، ســيِّدنا موسى كان أقرب إلى السُّمْرة، فلمَّا أخرج يدَه كانت بيضاء ناصعة، ولكن قد يُظن أن هذا البياض مرض، فنفى الله ذلك الظن بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ﴾ [طـه: ٢٢]، فبيَّن أنَّهـــا بيضاء بدون مـــرض، معجزة أخرى من المعجزات لسيدنا موسى.

إعداد موسى لدعوة فرعون ومواجهة طغيانه:

أراد الله بذلك أن يعدّ سيِّدنا موسى، لذلك قال له بعد ذلك: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طـه: ٢٤]، الطغيان: مجاوزة الحد في الظلم والإســاءة إلى عبادة الله، فرعون طغى؛ كما قـــال الله عن فرعون: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخـــان: ٣١]، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [القصـــص: ٤] الأولاد الذكور يقتلهم، والنساءَ يستبقيهن ليستخدموا منهن ويستمتعوا بهن، فقال الله لموسى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]، اذهب برسالتي إلى هذا الطاغية، حاوِل أن تُحرِّر بني إسرائيل من ظلم هؤلاء الفراعنة.

الطغيان لا يمكن أن يُترك، ولا يجوز أن يُترك، لأنّ الطغيان إذا تفاقم واستمرَّ في الأرض فســـدت الحياة، وفسدت الأرض، ولذلك يرسل الله الرســـل عندما يحدث الطغيان والفســـاد، ولذلك كثر الرســـل في بني إسرائيل لكثرة الفساد فيهم، لأنَّهم كانوا كثيري الفساد، وكثيري العلو في

QaradawiBooks.com

الأرض، فتأتي الرسل لهدايتهم وردهم إلى الصراط المستقيم، ولذلك قال له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤].

الإعانة على أداء المهمة:

هنالك طلب موسى من ربه أن يعينه على أداء مهمته، قال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۞ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۞ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۞ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۞ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۞ هَٰرُونَ أَخِى ۞ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۞ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٥ ـ ٣٢]، وفي آية أخرى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۞ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٣، ٣٤].

بين موسى وبين فرعون ثأر قديم، فخاف إن قدم عليه أن يأمر فرعونُ بقتله ولا يمكنه من أداء رسالته، فطلب من ربّه الأدوات الَّتي تقوّيه على هذه المهمة، وتسند ظهره في مواجهة هذا المتألِّه الجبار فرعون، قال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۞ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۞ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۞ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۞ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى﴾ [طه: ٢٥ ـ ٢٩].

هذه أمور لا بدَّ منها للداعية، أن ينشرح صدره، وأن يتيسر أمره، وأن تُزال العقوبات من طريقه، وأن تنحل عقدة لسانه، وأن يكون قادرًا على البيان للناس، وأن يشدّ أزره بمن يحتاج إليه، وأول من يحتاج إليه أخوه.

معونة موسى بهارون عليه السلام:

ولهذا قال موسى عليه السلام حين كلَّفه الله بالرسالة: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۞ هَٰرُونَ أَخِى ۞ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۞ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۞ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۞ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۞ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٥]، فقال الله عز وجل في جوابه: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، وقال الله تعالى في سورة القصص: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ [القصص: ٣٥].

QaradawiBooks.com

وهذا يدلّنا على أنَّ الفرد مهما قوي، يحتـــاج إلى معونة غيره، حتَّى يشتد عضُده، وأصرح من ذلك وأوضح قول الله تعالى لرسوله مُحَمَّد ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]، فقد منَّ الله عليه بأنَّه أيَّده بنصره وبالمؤمنين المؤتلفة قلوبهم على غاية واحدة وعقيدة واحدة، أي: أيّده بالجماعة المؤمنة المترابطة.

ثم ذكـــر الله تعالـــى في هـــذه الســـورة الكريمة إرســـاله لموســـى وهارون عليهما السلام إلى فرعون فقال: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤]، يعلمنا ضرورة الرفق في معالجة المنكر، ودعوة أهله إلى المعروف.

وانظروا إلى هذا التعليل بحرف الترجي: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، برغم ما ذكره اللهّ تعالى مـــن طغيان فرعون: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طـــه: ٤٣]، ممَّا يدل على أنَّ الداعية لا ينبغي أن يفقد الأمل فيمن يدعوه مهما يكن كفره وظلمه.

فرعون رجل جبار، فقال موسى وهارون: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ [طـــه: ٤٥]، فيمكن أن يقتلنا في لحظة، فقال الله: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] لا تكونا شديدين عليه، ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ۝ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٧، ٤٨].

دعوة موسى لفرعون:

ولذلك خاطبه سيِّدنا موسى بهذه بالصيغة الاستفهامية: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩]؟

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

في هذه المقابلة دار بين سيِّدنا موسى وبين فرعون هذا الحوار: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٢].

قال سيِّدنا موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، الله تعالى أعطى كل شيء ما يحتاجه لبلوغ كماله، أعطى كل مخلوق ما يبلغه ذروة الكمال في هذا الكون، وأعطاه أيضًا الهداية.

هناك هداية عامَّة لمخلوقات الكون كلها، من الذرة إلى المجرة، هدى كل مخلوق إلى ما يحتاج إليه.

كل شيء في الكون قد خُلِق على الصورة الَّتي تناسب وظيفته، وتعينه على أدائها، فهو أيضًا قد هُدِي إلى ما خُلِق لأجله، وألهم غاية وجوده، ويُسِّر له الطريق ليدرك غاية الكمال الَّذي يناسبه.

هذه الهداية عامَّة مبثوثة في كل شيء في الكون، حي أو جامد، صامت أو ناطق، عاقل أو غير عاقل. فليست هي هداية خاصَّة بالمكلَّفين أو العقلاء، وليست مقصورة على الكائنات المتحركة بالإرادة كالناس والدواب والطيور والحشرات، فما من شيء في الوجود إلَّا أعطي هداه، كما أعطي خلقه.

مواجهة السحرة:

ثم انتهت هذه المحاورة بقول فرعون: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ۝ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾ [طه: ٥٧ ـ ٥٩].

QaradawiBooks.com

ما جئت به يا موسى هو السحر، وسوف نواجه السحر بسحر مثله، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۞ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طـه: ٥٨، ٥٩]، موعدنا أن نجتمع في اليوم الَّذي تتجمّلون فيه وتتزينون، ويجتمع النَّاس فيه بالآلاف المؤلفة، أوَّل مواجهة لموسى مع فرعون واجهه بالعصا واليد البيضاء، فانتهوا إلى أنَّهم سيجمعون السحرة من أنحاء مصر ليواجهوا هذا الساحر الكبير، فجُمِع السحرة من المشرق والمغرب، من الصعيد والوجه البحري، أُرسِل إلى النَّاس أن يأتوا بالسحرة، كل خبير في السحر، الماهر الَّذي عرف النَّاس مهارته في سحره، يأتون بهؤلاء المهرة من كل أنحاء مصر.

وتجمَّع السحَرة لمواجهة موسى، ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۞ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾ [طه: ٦٥، ٦٦].

فجاء السحرة وحلفوا بعزَّة فرعون الإله المتجبّر، الَّذي يملك الأرض، والذهب والفضة، والجنود والسلاح، ويتحكم في رقاب النَّاس، قالوا: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، جاؤوا والناس متجمعون، فرعون المتأله الجبار يتحدى ويقول: أنا أعلى منك ومن الله الَّذي خلقك، وخَلَقَنا، وخلق السماوات والأرض؛ فأرسل الله إليه رجلًا ليتحدى دعوته الباطلة، هذا موقف عظيم، النَّاس وقفوا ينتظرون ماذا سيحدث؟ قال السحرة لموسى: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۞ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۞ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٥ ـ ٦٧].

إبطال كيد السحرة:

مئات أو آلاف السحرة ألقوا حبالهم وعصيهم، وحبالهم وعصيهم في ظاهر الأمر تتحرك على الأرض، وموسى كبشر أصابته خيفة، فقال له الله

QaradawiBooks.com

تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨]، لا تخف من هؤلاء ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، وفي موضع آخر: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ۞ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١، ٨٢].

هذا موقف موسى بعد أن أصابه الخوف، استمسك وعرف أنَّه صاحب الحق، بعد أن ألقى السحرة حبالهم وعصيهم الَّتي ملأت الساحة الكبرى، ألقى موسى عصاه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۞ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ۞ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۞ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧ ـ ١٢٢].

وجد السحرة أمامهم شيئًا لا يمكن أن يكون سحرا؛ السحر يمكن أن يبطل السحر، ولكن تبقى أدوات السحر كما هي، مئات وآلاف من الحبال والعِصِي ألقَوْها، ولكن حينما ألقى موسى عصاه تحولت بقدرة الله إلى حيَّة ضخمة فابتلعت العصي والحبال كلها! عرف السحرة أن هذا لا يمكن أن يفعله ساحر، هذا ليس من شأن البشر، وإنَّما هو من شأن خالق القُوى والقُدَر، فخرَّ السحرة ساجدين، لم يملكوا إلَّا أن يعترفوا بالحقيقة، وأن يخروا لله ساجدين، ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠].

بين قوَّة المنطق ومنطق القوة:

هاج فرعون وسقط في يده، أعجزه قوَّة المنطق فلجأ إلى منطق القوة، لجأ إلى التهديد والوعيد الشديد، ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

QaradawiBooks.com

آمنتم من غير تصريحي؟! ظنَّ فرعون أنَّ الإيمان يحتاج إلى إذنه، هكذا شأن الجبابرة، المستكبرون في الأرض لا يريدون أن يؤمن قلب، ولا يعملَ عقل، ولا يتحرك جسد إلَّا بأمرهم وإذن منهم، ولكن القلوب لا تستأذن أحدًا.

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]، كيف علَّمهم وقد جئت بهؤلاء من أنحاء البلد كلها؟ لم يعرفوه، ولم يروه من قبل؛ فكيف علَّمهم؟ ولكنَّه الكبْر والمكابرة، وهكذا يقول الأفَّاكون والكذابون، حينما لا يجدون حجة تنهض بهم أو ينهضون بها، وحينما تعجزهم قوَّة المنطق يلجؤون إلى منطق القوة: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١]، سأفعل بكم الأفاعيل، سأقطّع أيديكم وأرجلكم، ولأقتلكم وأصلبنكم على جذوع النخل، تعرفون ما عندي من جنود، وما عندي من سلاح، وما عندي من قوَّة وجبروت.

فماذا قال هؤلاء السحَرة الَّذين جلبهم فرعون ليتقوَّى بهم على موسى فإذا بهم يصبحون مع موسى ضده؟ ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢].

جاءتنا بيّنات واضحات ودلائل من عند الله ﷻ باهرات، ترينا قدرة الله وترينا ضعفك وعجزك وهوانك، ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ [طه: ٧٢]، قبل دقائق كانوا يحلفون بعزَّة فرعون، الآن لم يحلفوا بعزة فرعون، وإنَّما حلفوا بالله الَّذي فطرهم، أي خلقهم على الفطرة، قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢]، احكم بما تحكم به، لن تستطيع

QaradawiBooks.com

أن تفعل شـــيئًا في حياة أخرى؛ فإنَّك لم تؤمن، فافعل ما شئت في هذه الحياة الدُّنيا، ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٣ ـ ٧٦].

قتل فرعون هؤلاء الســـحرة، والســـحرة هم أبناء مصـــر الأصليون، وكانوا الشهداء الأوائل من أتباع موسى عليه السلام، اُستشهِدوا في سبيل الله من أجل إيمانهم، ضحَّوْا بدنياهم من أجل آخرتهم، ضحوا بأنفسهم من أجل إيمانهم؛ فكانوا رجالًا أبطالًا، وكانوا قرة عين للمصريين.

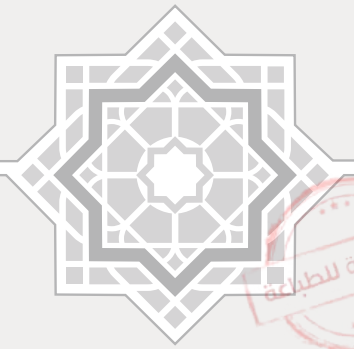
انتهت هذه الجولة الأولى بذبح فرعون لهؤلاء، واستمرت المعركة مع فرعون، هذه الجولة هُزم فيها فرعـــون، ومن أهم مظاهر هزيمته قتلُ هؤلاء المؤمنين، الَّذين استنجد بهم فلم يُنجِدوه، بل أنجدوا موسى عليه السلام، وكانوا معه.

* * *

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي



غير مرخصة للطباعة

دروس في تفسير
سورة الأنبياء



نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الأوَّل
عناصر التوحيد في سورة الأنبياء

سورة الأنبياء سورة مكيَّة، سُمِّيت بهذا الاسم لأنَّها اشتملت على قصَّة عدد من الأنبياء، ككثير من السور، مثل سورة هود والأعراف ويونس، ثمَّ يأتي بعد ذلك الشعراء، وكثير من السور تشتمل على قصَّة عدد من الأنبياء لما في ذلك من العبرة، الله تعالى حينما يذكر لنا قصص أنبيائه ورسله.. حينما يذكر الصراع بين المؤمنين والكفار وبين الرسل وأقوامهم المكذبين لهم.

يذكر لنا هذا لا للتسلية ولكن للإفادة، فالقصص في القرآن تُذكَر للعبرة، لأخذ العبرة والعظة والدروس، كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

ذكر الله لنا في سورة الأنبياء قصَّة عدد من الأنبياء على وجه الاختصار، وذكر مواقف معيَّنة لهؤلاء الرسل، وبيّن لنا معيَّة الله تعالى لهؤلاء الرسل، وأنَّه لم يتخلَّ عنهم في أوقات الشدائد والأزمات والمحن الَّتي تنزل بهم، سواء كانت من أجل الرسالة كما حدثت لسيدنا يونس ذي النون، ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

QaradawiBooks.com

أو كانت المحنة محنة شخصيَّة، كما حدث لسيدنا أيُّوب عليه السلام، ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۞ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

في سورة الأنبياء ذكر الله لنا كذلك حقيقة الملائكة الكرام، وأنَّهم مفطورون على طاعة الله، ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، وأنَّهم: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۞ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨].

هؤلاء الملائكة خلقهم الله، بحيث لا يحتاجون إلى طعام ولا إلى شراب، بخلاف البشر أبناء آدم، الَّذين خلقهم الله وركبهم بحيث يحتاجون في أصل خلقهم إلى طعامهم يغذيهم، وإلى شراب يسقيهم، ولا يمكنهم الاستغناء عنه، فالبشر وفي مقدمتهم الرسل بشر يأكلون الطعام، كما قال الله تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال القرآن في ردِّه على النَّصارى الَّذي جعلوا المسيح عيسى ابن مريم إلٰهًا: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

ثمَّ بيَّنت السورة أنَّ كل ما في هذا الكون العظيم: علويِّه وسفليِّه، صامته وناطقه، وكل ما في الكون من إبداع ونظام، يدلُّ على أن ربًّا واحدًا، هو الَّذي يدبِّر أمره، ويدًا واحدة هي الَّتي تدير رحاه، وتوجِّه دفَّته، وجعلتْ بينه التناسق والتعاون بين ممالكه المتنوعة، النبات يأخذ

QaradawiBooks.com

من الحيوان والحيوان يأخذ من النبات، والأرض متصلة بالسماء، هناك تناسق وتعاون وتوحُّد بين أبناء هذا الكون.

ولو كان وراء هذا الكون أكثر من خالق يدبِّـر، وأكثر من يد تُنظِّم، لاختلَّ نظامه، وأفلت زمامه، واضطرب ميزانه، وتهـدَّم بنيانه، تبعًا لما تقضي به الضرورة من اختلاف العقـول المتباينة الَّتي توجِّه، واختلاف الأيدي المتعدِّدة الَّتي تحـرك، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ويقول ﷻ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ويقول المثل: إنَّ المركب الَّتي لها رئيسان تغرق. فكيف بهذا الكون؟ إنَّه ليس هناك إلَّا إلٰه واحد في ربوبيته، فهو رب السماوات والأرض ومن فيهن وما فيهن، خلق كل شـيء فقدره تقديرًا، وأعطى كل شيء خلقه ثمَّ هدى، ولا يستطيع أحد من خلقه أن يدَّعي أنَّه الخالق أو الرازق أو المدبِّر لذرة في السماء أو في الأرض ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١١].

وهو سـبحانه واحد في إلٰهيته، فلا يستحق العبادة إلَّا هو، لا يُعبَد إلَّا الله، لا يجوز التوجه بخوف أو رجاء إلَّا إليه، لا خشية إلَّا منه، لا ذلَّ إلَّا إليه، لا طمـع إلَّا في رحمته، لا اعتماد إلَّا عليـه، ولا انقياد إلَّا لحكمه، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

والبشر جميعًا ـ سـواء أكانوا أنبياء وصدِّيقين أم ملوكًا وسلاطين ـ عبـاد الله، لا يملكون لأنفسـهم ضـرًّا ولا نفعًـا، ولا موتًـا ولا حياةً ولا نشورًا، فمن ألَّه واحدًا منهم، أو خشع له وحنى رأسه، فقد جاوز به قدره؛ ونزل بقدر نفسه.

QaradawiBooks.com

ولذلك جاء في سورة الأنبياء هذه قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وهذا هو التوحيد الَّذي جاءت به الرسل، وعُني الإسلام بتثبيته وتأكيده وحمايته، هذا التوحيد لا يتحقق ولا تترسخ جذوره، ولا تمتد فروعه إلَّا إذا توافرت له عناصر ثلاثة:

العنصر الأوَّل: إخلاص العبوديَّة لله وحده.

العنصر الثاني: الكفر بكل الطواغيت والبراءة ممَّن عبدها أو والاها من دون الله.

العنصر الثالث: اتِّقاء الشرك بكلِّ ألوانه ومراتبه، وسدُّ المنافذ إليه.

إنَّ من مقتضى التوحيد أن يخلص المرء عبوديته لله، ولا يتخذ وليًّا ولا ندًّا يحبه كحب الله، فالولاية لا تكون إلَّا لله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الشورى: ٩].

ومن مقتضى التوحيد: الكفر بالطواغيت والبراءة منها ومن كل من عبدها أو والاها من دون الله، حتَّى إنَّ القرآن الكريم قدَّم أحيانًا الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فالتوحيد الحق لا يتم إلَّا إذا انضم إلى الإيمان بالله وعبادته، والكفر بالطاغوت والبراءة من أوليائه، ومن أجل ذلك كان نداء الرسل جميعًا إلى قومهم ما عرفنا من قبل: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ومن مقتضى التوحيد ـ وهو العنصر الثالث لتحقيق التوحيد ـ اتقاء الشرك والحذر منه، وذلك يقتضي معرفة أنواع الشرك كله أكبره وأصغره،

QaradawiBooks.com

جليه وخفيه، والتحرر من كل شائبة للشرك، والحذر من منافذه ومداخله، فالأشـياء تتميز بأضدادها، فلهذا لا يعرف التوحيد خالصًـا متميزًا إلَّا بمعرفة ضده وهو الشرك.

الشرك الأكبر والأصغر:

الشرك.. أن يجعل المرء لله شريكًا فيما هو من خالص حقه سبحانه، كأن يتخذ مع الله إلٰهًا أو آلهة، يعبدها أو يطيعها أو يستعين بها أو يحبها أو نحو ذلك ممَّا لا يستحقه إلَّا الله جل شأنه.

وهذا هو الشرك الأكبر الَّذي لا يُقبل معه عمل صالح، بل لا يصلح معه عمل، لأن أوَّل شـرط لقبول العمل وصلاحه: أن يكون خالصًا لله، كما قال تعالـى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

والشرك الأكبر لا يغفره الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النسـاء: ٤٨]، ولا يدخل صاحبه الجنَّة أبدًا، والجنة حرام على المشرك، كما أنَّ النَّار مأواه ومثواه، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

والشرك الأصغر من كبائر الذنوب الَّتي يخشى على من اقترفها وأصر عليها أن يموت كافرًا، إن لم يتداركه الله برحمته فيتوب قبل موته.

ثم تحدث الله تعالى في هذه السورة سـورة الأنبياء عن المشركين، عن الحوائل الَّتي حالت بينهـم وبين الإيمان والاهتداء إلى ما أنزل الله، فقـال تعالـى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤].

QaradawiBooks.com

دائمًا الترف والغرق في متاع الحياة الدُّنْيا هو الَّذي يحول بين كثير من هـؤلاء وبين اتِّبـاع ما أنزل الله من الهـدى والبينـات، فمتعهم الله وآباءهم، فهو متاع موروث، والترف الموروث هذا يكون من شـرِّ أنواع الترف، لأنَّه نشأ في الترف وعاش فيه وربي فيه، فهؤلاء متعهم الله حتَّى طال عليهم العمر فنسوا وأنسوا وبعدوا عن الهداية.

وكثيرا ما ذكر القرآن أنَّ المترفين وقفوا ضـد الأنبياء وضد دعوات الأنبياء، كما قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤]، وقال في آية أخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، هذا شأن المترفين المنعمين، الَّذين يغرقون في متاع الدُّنيا، وينسون واجباتهم.

﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، ومعنى نقص أطـراف الأرض: أنَّ الله يديل من دولة لأخـرى، ويأخذ من الدولة الكبرى لحسـاب دولة صغيرة، الدولة تكون واسـعة فيضيقها الله ﷻ، أو يأخذ من دولة لدولة، عمليَّة المداولة بين النَّـاس، أن دولة تذهب ودولة تجيء، ودولة تتسـع ودولة تضيق، فهو يداول بين هـؤلاء وهؤلاء، كثيرًا ما تكون إمبراطورية واسـعة ثـمَّ ينقص من أطرافها ولا يـزال ينقص من أطرافها حتَّى تبقى لها رقعة ضيقة جدًّا، أو تـزول من على وجه الأرض، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وليس معنى نقص أطراف الأرض ـ كما يظن بعض الجغرافيين ـ أنَّ النقص من أطراف الأرض، وبعضهم يسـتدل بهذه الآيـة وأمثالها، أنَّ الأرض ليست مكورة تكويرًا تامًّا، ليست تامة التكوير، وإنَّما هي منبعجة

QaradawiBooks.com

بعض الشيء، أشبه بالبيضة ونحو ذلك، ورأيتُ بعض الجغرافيين الفلكيين يستدل بهذه الآية.

وهذا تعسف وتكلُّف، لأن الَّذين نزلت فيهم هذه الآية حينما قيل لهم: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، ما كانوا يفهمون هذا المعنى، ولا من الممكن إحالتهم عليه، ثمَّ نفس التعبير بالفعل المضارع ﴿نَأْتِي﴾ يدل على أن عمليَّة نقص الأرض عمليَّة مستمرة، وأن هذه العمليَّة من سنن الله ﷻ، أنَّه يداول بين النَّاس، وأنَّ الدول لا تدوم على حال، والبلاد لا تدوم على حال، فهي في زيادة ونقص مستمر.

ولذلك قال الله بعدها: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، أي إذا كان من قبلهم من الأكاسرة والقياصرة والأباطرة والملوك زالت دولهم، وضعفوا بعد قوَّة، وذلوا بعد عز، وافتقروا بعد غنى، أفهم الغالبون؟! أفتبقى لهم الغلبة أبد الدهر؟!

لن يبقى الغالب غالبًا، ولا القوي قويًّا، ما دام هذا هو حال الدهر، والدهر قلّب، والدهر يومان يوم لك ويوم عليك، ودوام الحال من المحال.

ثم بينت السورة الكريمة أنَّ السؤال والحساب حق وواقع ولا بد، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

سيحاسب الله ﷻ النَّاس على كل صغيرة وكبيرة، من طاعة أو معصية، والميزان يوم القيامة هو الحكم، حيث توضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة، ويتبين أيهما أثقل، فيكون إمَّا محسنًا أو مسيئًا، وعلى ذلك يترتب الثواب والعقاب.

QaradawiBooks.com

فالحساب والسؤال يوم القيامة، للجميع، حتَّى الرسل يُسألون، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]، الله تعالى سيسأل الرسل، وسيسأل الأمم الَّتي أرسل إليهم الرسل، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

الناس كلهم سيُحاسبون ويُسألون، إلَّا من استثناهم الحديث، وهم طائفة معينة يدخلون الجنَّة بغير حساب، وهم السبعون ألفًا الَّذين ذكر النبي ﷺ أنَّهم يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ[1].

الكل يحاسب لأجل أن تقوم عليه الحجة، ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٥٢)، ومسلم في الإيمان (٢٢٠)، عن ابن عباس.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الثاني
حوار إبراهيم قومه

ما زلنا نعيش مع سورة الأنبياء، في هذه السورة الكريمة ذكر الله تعالى قصَّة عدد من الأنبياء، إبراهيم ولوط، ونوح، وداود وسليمان، وأيوب وغيرهم عليهم السلام، وقصة إبراهيم ذكرت في عدد من السور، بدءًا بسورة البقرة، وسورة آل عمران، ومرورًا بسورة هود، وسورة إبراهيم، وسورة الحجر، وسورة النحل، وسورة مريم، وسورة الأنبياء ـ هنا ـ وفي سورة الشعراء، وسورة الصافات، وسورة الذاريات، وسورة النجم، وسورة الممتحنة، وسورة الأعلى.

وقد ذكر الله هنا حوار إبراهيم ومجادلته لقومه، وسيدنا إبراهيم من أئمَّة الحوار، آتاه الله الحجة على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]، آتاه الله الحجة، يحاور فَيغلِب؛ لأن الله سبحانه وتعالى آتاه المنطق القوي والحجة المقنعة والآية البينة؛ حاور الملك الجبار المتأله كما جاء ذلك في سورة البقرة، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

QaradawiBooks.com

هذا الملك ﴿حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، قال له إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أنا أحيي وأميت مثل ربك تمامًا، فجاء باثنين من عرض الطريق وحكم عليهما بالإعدام، ثمَّ أمر السيَّاف أن يضرب عنق أحدهما، فقال: هذا قد أمتُّه. ثمَّ عفا عن الآخر وقال: وهذا قد أحييتُه، فأنا أحيي وأميت مثل إلٰهك يا إبراهيم، لا فرق بيني وبين ربك[1].

فلم يجادله سيِّدنا إبراهيم في معنى الإحياء ومعنى الإماتة، والمقصود بالإحياء والمقصود بالإماتة، ولكن انتقل إلى برهان آخر وحجة أخرى لا يستطيع أن يتكلم فيها ولا أن يجادل، ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، قال إبراهيم: إلٰهي الَّذي أقام نظام هذا الكون يُطلع الشمس من هذه الناحية ناحية المشرق، فأطلعها أنتَ من تلك الناحية ناحية المغرب، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وحاور إبراهيم قومه، وحاور أباه كما في سورة مريم: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطًا سَوِيّٗا ۝ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ۝ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤٢ ـ ٤٦].

(١) انظر: تفسير الطبري (٥/٤٣٥، ٤٣٦).

QaradawiBooks.com

وحاور أباه وقومه معًا في هذه السورة سورة الأنبياء، وكذلك في سورة الشعراء: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۞ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۞ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۞ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٠ ـ ٧٤].

وفي سورة الصافات: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۞ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۞ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۞ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ۞ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۞ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۞ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۞ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ۞ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ۞ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۞ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٨٥ ـ ٩٦].

يقول الله تعالى هنا في هذه السورة حاكيًا حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۞ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۞ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۞ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۞ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٢ ـ ٥٦].

ثم توعّد هذه الأصنام وقال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧] سأدبِّر مكيدة لهذه الآلهة المزعومة، وكانت المكيدة أنَّه حمل فأسه وذهب إلى هذه الأصنام وأبرَّ قسمه، حطَّم الأصنام وفتَّتها، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، جعلها جُذَاذًا أي فُتاتًا، ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، ترك كبير الآلهة دون تكسير، ووضع الفأس على عنقه وتركه سليمًا، فلمَّا جاء القوم ورأوا أصنامهم قد تكسَّرت سألوا: من كسَّر هذه الأصنام؟ ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩].

QaradawiBooks.com

ذُكرت بعض التفاصيل في سورة الصافات فيما يتعلق بهذه القضيَّة، وذلك أن سيِّدنا إبراهيم لما انصرف القوم من عند آلهتهم، ذهب إلى هذه الآلهة، فوجد عندها أطعمة، من أطيب الأطعمة وألذِّها، والناس تموت جوعًا في الخارج، ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۞ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾ طبعًا لم يردوا عليه ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩١ ـ ٩٣].

المهم، القوم طبعًا جُن جنونهم؛ آلهتهم تُحطَّم وتُكسَّر وتُجعَل جذاذًا! ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٥٩، ٦٠]، الَّذين سمعوا إبراهيم يقول: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، قالوا: ﴿سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠].

وهذا يدل على أنَّ إبراهيم في ذلك الوقت كان فتى.. أي كان شابًّا، صاحب عزيمة قوية.. في فُتوّة الشباب، وهذا يدلنا على أنَّ المقولة المشتهرة عند أهل العلم وهي: «أن الأنبياء لا يُبعَثون إلَّا في سن الأربعين» هذا لا أعرف له دليلًا صحيحًا، من كتاب أو سنة. وقد ذكروا أنَّ المسيح رفعه الله إليه وكان عمره ثلاثًا وثلاثين سنة، والله تعالى قال عن يحيى بن زكريا عليه السلام: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ [مريم: ١٢].

المهم أنَّهم هنا قالوا عن إبراهيم: ﴿سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، فهو في سن الفتوة، في سن الشباب، وهذا يدل على أنَّ الشباب هم دائمًا العنصر الحي في الأُمَّة.. العنصر القوي الَّذي لا يرضى بالظلم، ولا يسكت على الباطل، يحمل الثورة على الطواغيت وعلى الأباطيل، وهذه الثورة ذهبت بإبراهيم إلى الأصنام فحطَّمها وجعلها جذاذًا.

QaradawiBooks.com

ولا يمكن أن نقول إن هذا حدث قبل النبوة؛ لأن القرآن يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]، ولما قال له قومه: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥]؟ قال لهم: ﴿رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦]، جاءهم بالحق، فهو نبي ورسول في هذه الآونة.

قالوا: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٠، ٦١]، عملوا له محاكمة على الملأ.. على أعين النَّاس، ليست محاكمة سرية، وإنَّما هي محاكمة علنية، على مرأى ومسمع من الجمهور، ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]؟ رد عليهم إبراهيم ساخرًا مستهزئًا: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، اسألوا كبير الآلهة هذا، فالفأس على عنقه، أداة الجريمة معلقة عليه؛ يا قوم حكِّموا عقولكم، لو كانوا ينطقون لردوا عليكم، فلماذا تعبدون ما لا ينفعكم ولا يضركم؟! غلبهم إبراهيم عليه السلام بهذه الحجة الدامغة، ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

هنالك رجعوا إلى الفطرة، وحكَّموا عقولهم قليلًا، ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤]، عادوا في لحظة من اللحظات إلى فطرتهم السليمة، ولاموا أنفسَهم، ورجعوا على أنفسهم باللائمة، قالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤]، ليس إبراهيم هو الظالم، نحن الظالمون؛ كيف نعبد هذه الآلهة؟!

لكن سرعان ما عادوا إلى كبريائهم وعنادهم، ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٦٥]، هذه اللحظة لم تستمر طويلًا، لم تبق الاستقامة،

QaradawiBooks.com

نُكِسوا على رؤوسهم، انقبلوا انقلابًا والعياذ بالله، فقالوا مبرِّرين عنادهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]، أنت تعرف يا إبراهيم أن هؤلاء الآلهة لا يتكلمون، ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۞ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧]؟! أليست عندكم عقول تدرك؟ أليست عندكم بصيرة ترى.

ماذا يقول القوم؟ لم يجدوا جوابًا لإبراهيم، إنَّهم يعبدون ما لا يضر ولا ينفع، وما لا يُبصر ولا يسمع، وما لا يُعطي ولا يمنع، وما لا يخفض ولا يرفع، وما لا يتكلم ولا ينطق، أي آلهة هذه؟ لم يستطيعوا أن يجدوا جوابًا، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، لم يجدوا عند أنفسهم قوَّة المنطق، فلجؤوا إلى منطق القوة.. القوَّة العمياء.. الحديد والنار.

وهذا شأن الظالمين والمستكبرين في الأرض، عندما يعجزون عن إقامة الحجة، أو مقابلة الحجة بحجة مثلها، وتعجزهم قوَّة المنطق، يلجؤون إلى منطق القوة، إلى النار، إلى الحديد، إلى السلاح، إلى التعذيب، وهذا شأن الكفرة والمكذبين طوال العصور.

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، هذا ليس له دواء إلَّا النار، نُلقيه فيها، وفعلًا جمعوا لإبراهيم نارًا هائلة، تأججوا هذه النَّار حطبًا ووقودًا. حتَّى قالوا: إنَّ المرأة كانت تتبرع بحليها ليشتروا حطبًا وأخشابًا؛ حتَّى يُؤجِّجوا نارًا عظيمة، ثمَّ يلقون فيها إبراهيم. قالوا: جاؤوا بمقلاع وقذفوا بإبراهيم من بعيد؛ لأنَّهم لا يستطيعون الاقتراب من النار، رموه من بعيد في قلب النار[1].

(١) انظر: المحرر الوجيز (٨٨/٤)، وتفسير ابن كثير (٣٥١/٥).

QaradawiBooks.com

وكان منطق النَّار أن تُحرق إبراهيم، أقل من هذه النَّار تستطيع أن تحرق إبراهيم وعشرات ومئات من أمثال إبراهيم، ولكن لم يحدث هذا؛ إنَّ الله تعالى الَّذي وضع في النَّار خاصية الإحراق جعل النارَ لا تُحرق إبراهيم؛ لأنَّه هو واضع الأسباب والمسبَّبات، فهو الَّذي يستطيع أن يجعل السبب لا يعطي أثره، هو خالق السبب وخالق آثار الأسباب، يستطيع أن يفصل السببَ عن مسببه.

القوانين الَّتي تعمل في هذا الكون وضعها الله ﷻ، وهو القادر على أن يعطِّلها، يجعل النَّار لا تُحرق، والسكين لا تقطع، والماء لا يُغرق، الإنسان لثقله لا يستطيع أن يطير في الجو، ولكن محمدًا ﷺ جيء بالبراق وذهب به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ومن المسجد الأقصى إلى السماوات العلى، هذا كله على خلاف الأنظمة والقوانين المعتادة.

﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، حوّل الله ﷻ النَّار إلى روح وريحان، وقال لها: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، نفذ قول الله، وصارت النَّار بردًا وسلامًا على إبراهيم.

ومن رحمة الله أنَّه قال: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فلو قال: ﴿كُونِى بَرْدًا﴾ فقط لهلك إبراهيم من شدَّة البرد، من الزمهرير، إنَّما قال: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، ثمَّ قال الله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠]، هو الأعلى وهم الأسفلون، نفذ كيد الله وبطل كيدهم، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٧].

ثم قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] لوط: ابن أخيه، نجيناه من هذه الأرض إلى أرض الشام، الَّتي

QaradawiBooks.com

بارك الله فيها للعالمين.. بارك فيها ماديًّا بالخصوبة والثمار والزروع والأشجار، وبارك معنويًّا.. أخرج فيها كثيرًا من الأنبياء؛ ولذلك سُمِّيت «أرض النبوَّات».

فالأرض الَّتي بارك الله فيها للعالمين هي أرض فلسطين، كما قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

ثم كافأه مكافأة ثالثة ـ بعد أن نجّاه الله من النار، وأبطل كيد أعدائه مكافأة له، ونجّاه الله مرَّة أخرى إلى الأرض الَّتي بارك فيها للعالمين ـ فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ۝ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢، ٧٣]، كل هذه مكافآت لإبراهيم عليه السلام.

كان إبراهيم مع الله فكان الله معه، نصر الله فنصره الله، دعا إلى الله فلم يتخلَّ الله عنه، قاوَم الطواغيت ولم يبال ما يصيبه في الله فدافَع الله تعالى عنه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨]، وهذه ثقتنا بالله عز وجل أنَّه مدافع دائمًا عن المؤمنين، وناصر دائمًا للمؤمنين، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ومُنجٍ دائمًا للمؤمنين، ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

ثمَّ استمرَّت السورة تُذكِّر ببعض الأنبياء، ذكرت سيِّدنا داود عليه السلام، وأنَّ الله قد علَّمه صناعة الدروع، وألان له الحديد، ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، ويقول في سورة أخرى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

QaradawiBooks.com

أشار القرآن إلى الكثير من الصناعات مبينًا أنَّها نعمة من فضله، كما قال الله ممتنًّا هنا على داود: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

لطائف الأدب في دعاء أيَّوب وذي النون:

ثم تحدثت السورة عن لطائف الأدب في نداء أيَّوب لربه من أنَّه لم يسأله شيئًا معينًا كالشفاء أو العافية، أو إعادة الأهل إليه، إنَّما اكتفى بأن ذكر نفسه بالحاجة والضعف، وذكر ربه بما هو أهله، ولم يزد على ذلك شيئًا: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

ومثل ما فعل أيَّوب فعل ذو النّون، أي: صاحب الحوت، يونس عليه السلام، ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

التقم الحوتُ يونسَ عليه السلام حينما خرج من قومه مغاضبًا لهم، لم يصبر عليهم وتركهم، فعاقبه الله بأن دخل السفينة وكان العدد فيها أكثر ممَّا ينبغي، وفي وسط البحر، قالوا: لا بدَّ أن نُلقي بعض الركاب من السفينة، عملوا القرعة، فخرج السهم عليه، أعادوه مرَّة ومرة، كل مرَّة يخرج السهم عليه؛ رموه في البحر فالتقمه حوت ضخم، حوت كبير.

كان المفروض أن يصبح هذا الحوت قبرًا له، ولكنَّه نادى في الظلمات، لم ييئس من روح الله، نادى في ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت، نادى في هذه الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، بهذه الكلمات الموجزة نادى يونس عليه السلام ربّه، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ توحيد ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيه، أي:

QaradawiBooks.com

أنزّهك عن الظلم ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اعتراف بأن الله لم يظلمه، وإنَّما هو من ظلم نفسه.

فكانت النتيجة أنَّ الله نجاه من الغمّ، وأخرجه من الكرب، ولفظه الحوت على الشاطئ نتيجة هذا الدعاء الخالص: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

ولذلك يقول النبي ﷺ: «**دعوة أخي ذي النون وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾** [الأنبياء: ٨٧]، **لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلَّا استجاب الله له**»[(١)].

وفي رواية: أنَّ رجلًا قال: يا رسولَ الله هل كانت ليونس خاصّة أم للمؤمنين عامّة؟ فقال: ألم تسمع إلى قول الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨][(٢)].

لا بد أن يعترف الإنسان على نفسه بالتقصير، وأن يقول ما قال آدم وحواء من قديم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، هكذا قال ذو النون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، إذا وقعوا في مثل ما وقع فيه يونس، ودعوا الله بمثل دعائه بحرارة وإخلاص وأمل، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

---

(١) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٥)، وسكت الترمذي عنه إلا أنَّه قال: ورواه جماعة عن إبراهيم بن محمد ابن سعد عن سعد فلم يقل فيه عن أبيه. والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٤١٧)، والحاكم في التفسير (٣٨٢/٢، ٣٨٣)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) رواه الحاكم في الدعاء (٥٠٥/١، ٥٠٦).

QaradawiBooks.com

الدرس الثالث
إجابة دعوات الأنبياء

لا زلنا نعيش في هذا الشـــهر الكريم في رحاب القرآن الكريم، هذا الكتاب العظيم الَّذي أنزله الله شفاء وهدى وبينة ورحمة للناس.

نعيش هذه الليلة مع سورة «الأنبياء»، وســـورة الأنبياء سورة مكيَّة، ولا زلنا منذ سورة يونس إلى اليوم إلى ســـورتنا هذه سورة الأنبياء مع السور المكيَّة، كل هذه السور مكيَّة، بعضهم قال: إن سورة الرعد مدنيَّة وأن ســـورة النحل مدنيَّة، ولكـــن الواقع من يعرف موضوعات الســـور المكيَّة وأسلوب السور المكيَّة يستيقن أن سورة الرعد سورة مكيَّة، وأن سورة النحل سورة مكيَّة، وكذلك سورة الأنبياء.

وإنَّما سميت سورة الأنبياء بهذا الاسم لأن النصف الثاني من السورة يتضمن قصص مجموعة من أنبياء الله تبارك وتعالى، بدأت بقصة إبراهيم، وقد فصلت هذه الســـورة في قصَّة إبراهيم ما لم تفصله سورة أخرى، ثمَّ تحدثت عن مجموعة من الأنبياء، تحدَّثت عن لوط وعن نوح وعن داود وسليمان، وعن أيوب، وعن إسماعيل واليسع وذا الكفل، وتحدَّثت عن ذي النون يونس، وعن زكريا، عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

ونحن هنا نكتفي بأن نقف وقفات عنـــد الأنبياء الَّذين وقعوا في مآزق فنادوا ربهم ﷻ فاستجاب الله نداءهم وأخرجهم من هذه المآزق

QaradawiBooks.com

ونجاهم من المهالك، لأنَّه ﷻ أقرب إلى النَّاس من حبل الوريد، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وخصوصًا من دعاه وهو في أزمة وهو مضطر فالله ﷻ يُجيب المضطر كما قال ﷻ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، وهذا جاء في سياق حديث سورة النمل عن الآيات الكونيَّة، حيث يقول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۞ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۞ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٠ ـ ٦٤].

وكأنَّ إجابة دعاء المضطرِّ آيةٌ من الآيات الكونيَّة، إجابة دعاء المضطرِّ سُنَّة من سنن الله ﷻ، ولذلك رأينا نوحًا عليه السلام حينما نادى ربه كما تقول السورة: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦]، استجاب الله له، ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾، كما قال الله تعالى في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥]، ما أسرع ما أجبنا دعوته.

QaradawiBooks.com

ونوح دعا دعوة موجزة بعبارة قصيرة حينما ضاق به الحال بعد ألف سنة إلَّا خمسين عامًا وقالوا: مجنون وازدجر، ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، انظروا إلى كلمة: ﴿مَغْلُوبٌ﴾، يا رب غُلبتُ على أمري وضاق ذرعي، ﴿فَٱنتَصِرْ﴾، أي فانتصر لي يا رب، اللهمَّ انصر عبدك، ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾، لم يُكثر من الدعاء ولا من الكلام، قال: ﴿مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، فجاء نصر الله، ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١ ـ ١٢]، أنزلت السماء ماءها، وخرجت والأرض ماءها، ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢]، وكان الطوفان الَّذي أغرق كل من لم يؤمن بنوح عليه السلام.

هكذا دعا نوح، نادى نوح ربه فاستجاب له ونصره، ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

ثم ذكرت السورة أزمة أخرى ومأزقا آخر لنبي آخر هو أيُّوب عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، هذا مأزِق من نوع آخر، مأزِق نوح وأزمة نوح ومحنة نوح كانت محنة الدعوة، أمَّا محنة أيُّوب فهذه محنة شخصيَّة، محنة في نفسه، أصابه من البلاء ما أصابه، كأن الله أراد أن يجعل منه مثلًا للبطولة الفرديَّة في الصبر.

أليس في الرياضات بطولات فرديَّة؟ هناك من يضرب الرقم القياسي في حمل الأثقال مثلًا، هكذا سيِّدنا أيُّوب عليه السلام ضرب الرقم القياسي في الصبر على البلاء الشخصي، أُصيب في نفسه، وأُصيب في أهله، وأُصيب في ماله، قالوا: كان صاحب خيل ودوابّ وأنعام وحرث، فأهلك الله هذا كله، وكان عنده أبناء وبنات ماتوا كلهم، وكان يتمتَّع بصحة وعافية جيدة فأصيب في صحته، حتَّى قالوا لم يبق إلَّا قلبه ولسانه.

QaradawiBooks.com

وبالغ المبالغون من قصص أهل الكتاب وقالوا: إنَّ جسمه كان يتناثر منه الدود بما لا يتَّفق مع مقام النبوة، علماؤنا قالوا: الأنبياء لا يجوز أن يُبتلوا بأمراض تُنفِّر النَّاس منهم، لأنَّ النبيَّ صاحب دعوة فكيف يصاب بأمراض تجعل النَّاس تبتعد عنه؟! ولذلك هذه أشياء لم يقم عليها دليل من كتاب الله ولا من سنة رسول الله، إنَّما هي المبالغات الإسرائيليَّة ومبالغات أهل الكتاب الَّتي دخلت على أهل التفسير وقَبِلها من قَبِلها وساقها من ساقها في كتبه.

المهمُّ أنَّه رغم ما أصاب أيُّوب من هذا البلاء العظيم، فماذا قال؟ وبماذا دعا؟ القرآن يقول: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، ما أعظم هذا وما أروعه، رغم هذا البلاء قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، لم يُرد أن يُكبِّر الأمر ويُضخِّمه، إنَّما قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، والمس هو الإصابة الخفيفة، لم يقل: يا ربِّ، أصابني كذا، ونزل بي كذا، وأنا كذا، هناك ناس يُكبِّرون الصغير، تصيبه «شوكة فيعمل حوله دوكة» كما يقولون، إنَّما سيِّدنا أيُّوب قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

الأنبياء الَّذين عرفوا مقام الله لم يكتفوا بوصفه بالرحمة وإنَّما بأنَّه أرحم الراحمين، سيِّدنا يعقوب يقول: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، وسيدنا يوسف يقول: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، وسيدنا موسى يقول: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

الله هو أرحم الراحمين، أرحم من الوالدة بولدها كما صحَّ في الحديث[1]، أرحم بالإنسان وأبر به من نفسه هو.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٩٩)، ومسلم في التوبة (٢٧٥٤)، عن عمر.

QaradawiBooks.com

فسيدنا أيّوب لم يقل: رب اشفني، ولا أنقذني من مرضي، وإنَّما قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، اكتفى بعرض حاله على الله، علمه بحالي يغني عن سؤالي، ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وبمجرد أن طرق الباب فتح الباب وأجيب الدعاء ولبّى الله النداء، ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، عوضه ربنا بضعف الأولاد الَّذين كانوا عنده، لو كان عنده سبعة أولاد فصار عنده أربعة عشر، لو كان عنده عشرة صاروا عشرين، ذكروا أنَّه كان عنده سبعة أولاد وثلاث بنات فأعطاه الله ضعفهم، هكذا يستجيب الله لعباده الصالحين.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، كانت هذه الاستجابة رحمة من الله لمن اعترف أنَّه أرحم الراحمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ واستجاب دعوته، ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾، كل من عبد الله وكل من عرف الله وأعطاه حقه من العبادة هذه ذكرى له ليعلَم أنَّ الله لا يضيع عباده، لا يتخلى الله عن عباده أبدًا، هو أقرب إليهم من حبل الوريد، وهو أسرع في الاستجابة لهم من والديهم ومن أقرب النَّاس إليهم.

ثم ذكر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عددًا من الأنبياء فقال: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]، إسماعيل من الصابرين المعروفين، وصبر إسماعيل نوع آخر من الصبر غير صبر نوح وغير صبر أيوب، إسماعيل صبر على طاعة الله وتنفيذ أمر الله وإن كان الأمر يتعلق برقبته، حيث قال له أبوه حين بلغ معه السعي وأصبح شابًّا يُرجى منه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ ـ أنا رأيتُ رؤيا أنِّي أذبحك، ورؤيا الأنبياء حق وصدق ووحي ـ ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فماذا

QaradawiBooks.com

قال الولد؟ لم يتردد ولم يتلعثم، ولكن قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ما دام هذا وحيًا من الله فنفِّذ أمر ربك، ولم يقل الولد لأبيه افعل بي ما تؤمر، لا، لم يذكر نفسه فني عن ذاته، نسي نفسه، إذا كان عندك أوامر نفذها دون أن تستشيرني، لا تأخذ رأيي، ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

ولذلك ذُكِر هنا إسماعيل أنَّه من الصابرين، ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]، إدريس نبي من الأنبياء ذكره الله تعالى في سورة مريم: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ۝ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٦، ٥٧]، أين كان إدريس في أي بلد؟ ومتى كان إدريس؟ لا نعلم مكان نبوته ولا زمان نبوته.

وبعضهم يقول: إنَّه قبل سيِّدنا نوح ما بين آدم ونوح، ولكن لم يقم على ذلك دليل هذا من الإسرائيليَّات، وكان الشيخ الباقوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ وزير الأوقاف المصري المعروف يقول: إدريس هو «أوزوريس» إلٰه المصريين، كان نبيًّا ولكن المصريين عظَّموه وقدَّسوه وجعلوه إلٰهًا.

ولكن ليس على ذلك دليل في الحقيقة، هو ظن أن إدريس هو أوزوريس لأنَّه على نفس النسق، لكن ليس على ذلك دليل، الحقيقة الَّتي جاء بها القرآن أن إدريس هو نبي من الأنبياء، وهو من الصابرين، لا بدَّ أنَّ الله ابتلاه فصبر عليه.

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]، وكذلك ذو الكفل من الصابرين، ذو الكفل بعضهم يقول: إنَّه كان رجلًا صالحًا وليس نبيًّا، وبعضهم يقول: إنَّه كان مَلِكًا عادلًا، ويذكرون أشياء أيضًا ليس عليها دليل من كتاب أو سنة.

QaradawiBooks.com

والذي يظهر لنا أن ذكره مع هؤلاء الأنبياء أنَّه واحد منهم، كذلك ذُكِر ذو الكفل في سورة «ص»: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ [ص: ٤٨]، فذو الكفل نبي من أنبياء الله وكان من الصابرين ومن الأخيار.

ثم ذكر الله ﷻ نبيًّا آخر وقع في ضيق ووقع في محنة ووقع في مأزق، ولكن أخرجه الله تعالى من المأزق بعد أن لاذ بجناب الله، لاذ بالحصن الحصين وبالركن الركين، واعتصم بالحبل المتين، هذا النبي هو سيِّدنا يونس عليه السلام، لأن القرآن قال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ [الأنبياء: ٨٧]، ما معنى ذا النون؟ ذو النون يعني صاحب النون، والنون يعني الحوت كما قال: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ [القلم: ٤٨]، صاحب الحوت أو ذو النون هذا هو سيِّدنا يونس عليه السلام.

يونس عليه السلام أرسله الله إلى قومه فدعاهم، فلم يستجيبوا له بسرعة فغضب منهم وتركهم، ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ [الأنبياء: ٨٧]، غضب من قومه وغضب على قومه فتركهم وأراد أن يخرج من بلدهم ويذهب إلى مكان آخر، وما كان له أن يفعل، ينبغي للنبيِّ أن يصبر على قومه، ينبغي للنبيِّ ألا يغضب بسرعة، ينبغي للنبيِّ أن يثبت على موقفه، وأن يقف على أرض صُلبة، وأن يتحمل الإعراض تلو الإعراض.

إذا كان نوح عليه السلام صبر على ألف سنة إلَّا خمسين عامًا، يقولون: نوح دعا على قومه فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]، صحيح دعا عليهم لكن بعد كم؟ بعد تسعمائة وخمسين سنة، يعني أجيالًا بعد أجيال، لو قلنا الجيل ثلاثون سنة مثلًا فيكون أكثر من ثلاثين جيلًا

QaradawiBooks.com

تعاوروا عليه، وكل جيل يأتي أســوأ من الَّذي قبله، الطينة من الطينة، والعجينة من العجينة، العصا من العصية ولا تلد الحية إلَّا حيية، ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [نوح: ٢٧].

صبر سيِّدنا نوح وقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُواْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ [نوح: ٥ ـ ٩]، فهذا نوع من الصبر.

يونس عليه السلام لم يصبر على قومه وخرج من قريته «نينوى»، وهي قرية قريبة من الموصل في أرض العراق، خرج من «نينوى» وذهب مغاضِبًا، ووصل إلى ساحل البحر ووجد سفينة فركب السفينة، ولما ركب السفينة تمايلت بركابها، قالوا: إنَّ الســفينة محمَّلة بأكثر ممَّا تحتمل، لا بدَّ من تخفيف الحمل، نرمي أحد الركاب، وكيف ذلك؟ قالوا نعمل قرعة ومن خرج ســهمه يرمى في البحر، عملوا قرعة فخرج ســهم يونس، فأعادوا الاقتراع مرَّة ثانية فخرج ســهم يونس أيضًا، فأعادوا مرَّة ثالثة أيضًا طلع ســهم يونس، فرموه في البحر، أُلقــي يونس في البحــر، القرآن يقول: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ۝ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ [الصافات: ١٤١، ١٤٢]، أي: كان ملومًا إذ خرج مغاضِبًا من قومه[1].

أُلقي يونس في البحر، ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ [الصافات: ١٤٢] أي: ملوم لمغاضبته لقومه، جــاء حوت من الحيتان الكبرى فالتقمــه أي ابتلعه كما يبتلع اللقمة، كان المفروض أنَّه ما دام الحوت ابتلعه ينتهي الأمر وييئس، ولكن ذا النون لم ييئس رغم التقام الحــوت له، لم ييئس يونس عليه السلام من

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٢٤/١٥).

QaradawiBooks.com

روح الله وهو في بطن الحوت، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ولم يقنط من رحمة ربه، ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، سبَّح الله وناداه، ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۞ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، فهو هو في بطن الحوت.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، نادى أي: دعا ربه، والقرآن عدد كلمة «النداء» لأن فيها نوعًا من الاستغاثة، ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، نادى يونس ربه في هذه الظلمات، ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، ظلمات ثلاث، ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠].

في هذه الظلمات نادى ربه، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، لم يقنط من رحمة ربه ودعا الله وناداه بهذه الكلمات، كلمات قصيرة ولكنَّها تضمنت مبادئ ثلاثة، المبدأ الأوَّل: التوحيد ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، أوَّل شيء إذا أصاب الإنسان محنة أو أصابته أزمة أو وقع في مأزِق أن يعترف لله تعالى بالوحدانيَّة، لا يقول يا سيدي فلان أو يا سيدتي فلانة، أو يا أم هاشم، ولا يا أبا فلان، وإنَّما يلجأ إلى الله، «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**»[1].

فالإنسان إذا نزلت به مصيبة ينبغي أن يعترف لله بالوحدانيَّة ويدعو الله وحده، ويقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، هذا هو أوَّل ما قاله يونس في بطن الحوت، هذا هو المبدأ الأوَّل في هذه الكلمات.

المبدأ الثاني: التنزيه، ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، والتسبيح هو تنزيه الله تعالى عن كل نقص، ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، سبحان الله.

---

(١) سبق تخريجه (٣٢/١).

QaradawiBooks.com

يقول النبي ﷺ عن هذه العبارة: «**وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماوات والأرض**»(١)، ويقول ﷺ: «**من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة**»(٢).

الملائكة تُسبِّح الله: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، وكل المخلوقات تسبح الله، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

المخلوقات كلها سبَّحت الله، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١]، والمخلوقات كلها تُسبِّح الله ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١].

فالإنسان عليه أن يُسبِّح الله دائمًا، من الكلمات الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلَّا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله. نحن نختم صلواتنا بسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر.

التسبيح تنزيه الله تعالى عن كل نقص، هناك أناس نسبوا النقائص لله، هناك من شبَّه الله بخلقه، وهناك من شبَّهوا المخلوق بالخالق، اليهود شبَّهوا الخالق بخلقه، والنَّصارى شبَّهوا المخلوق بالخالق، تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا، المسلمون يُنزِّهون الله تعالى عن هذا كله، وهكذا الأنبياء جميعًا.

---

(١) رواه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، وأحمد (٢٢٩٠٨)، عن أبي مالك الأشعري.

(٢) رواه الترمذي في الدعوات (٣٤٦٤)، وقال: حسن صحيح غريب. والحاكم في الدعاء (٥٠١/١)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٦٤)، عن جابر.

QaradawiBooks.com

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ﴾، وكأن يونس عليه السلام يقول: أنت لم تظلمني يا رب بما حدث لي، ولكن هذا جزاء ما قدمت يداي، أنا الَّذي أخطأتُ وأنا الَّذي ظلمتُ نفسي، وأنا الَّذي فعلتُ كذا فاستحققت هذا، ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أبرئك وأنزهك من كل نقص ومن كل ظلم.

﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، هذا هو المبدأ الثالث، فالمبدأ الأوَّل: التوحيد، والمبدأ الثاني: التنزيه، والمبدأ الثالث: هو الاعتراف، اعترف يونس أنَّه هو المذنب هو المفرط هو الظالم، ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أنا ظلمتُ نفسي، وهكذا ينبغي للإنسان إذا أخطأ أن يعترف بخطئه، أن يُقر بذنبه، كما فعل سيِّدنا آدم وأمنا حواء حينما أكلا من الشجرة، ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، هكذا ينبغي للإنسان أن يفعل.

سيدنا نوح حينما سأل ربه أن ينجِّي ابنه الكافر قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۞ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥ ـ ٤٧]، أنا أخطأتُ في هذا، وربنا يحاسب على الكلمة.

سيدنا موسى عليه السلام حينما قتل الرجل خطأ، هو لم يرد قتله، ولكن وكزه وكزة فمات الرجل، ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، قَتل موسى خطأ، ورغم ذلك: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

وهكذا قال سيِّدنا يونس ذو النون عليه السلام، قال: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ظلمتُ نفسي فاغفر لي يا رب هذا الذنب، فكانت هذه

QaradawiBooks.com

الكلمات الَّتي قالها في الظلمات في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، أي غم أكثر من هذا الغم الَّذي هو فيه، إنَّه في بطن الحوت، نجاه الله من هذا الغم ومن هذا الكرب، وهل النجاة من الغم خاصَّة بذي النون وحده؟ لا، ليست خاصَّة بذي النون وحده، كل من لجأ إلى الله، كل من طرق باب الله، كل من دعا الله مخلصًا له الدين، كل من كان قلبه مع الله، ونادى الله في ساعة العسرة وفي ساعة الشدة فإن الله مستجيب دعاءه مُلَبٍّ نداءه، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلَّا أنت سبحانك إنِّي كنت من الظالمين، فإنَّه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلَّا استجاب الله له**»[(١)].

ما من مكروب يدعو بدعوة ذي النون هذه إلَّا استجاب الله له وفرَّج عنه، فاحفظوا هذا الدعاء، إذا أحاطت بكم الخطوب والكروب، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتب بابًا في كتابه: «زاد المعاد في هدي خير العباد» سمَّاه: «هدي النبي ﷺ في علاج الكرب»، حينما ينزل بالإنسان الكرب والشدَّة يدعو بهذه الأدعية، في مقدمة هذه الأدعية دعوة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، في هذا الباب عدة دعوات موجودة، من يريد أن يعرف هذه الدعوات يقرأ أدعية الكرب في الجزء الرابع من كتاب: «زاد المعاد»[(٢)].

---

(١) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٥) وقال: رواه جماعة عن إبراهيم فلم يقل فيه عن أبيه. والحاكم في التفسير (٣٨٢/٢)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: زاد المعاد (١٨٠/٤ ـ ١٩٣)، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢٧، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

هكذا يستجيب الله لنا الدعاء ويلبي النداء، وهو أقرب إلينا من أحب النَّاس إلينا ومن أعزهم لدينا، بل هو أقــرب إلينا من حبل الوريد، وقد قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ما أحوجنا وخصوصًا في هذه الليالي المباركة من ليالي شهر رمضان أن نتضرع إلــى الله تبارك وتعالى وندعوه لأنفســنا ولأولادنــا وأقاربنا وأحبائنا، ما أحوجنا أن ندعو الله لأمتنا، هــذه الأُمَّة الَّتي نُكبت في هذا العصر بأعداء يختلفون فيما بينهم ويتفقون عليها، أُمَّة الإســلام في هذا العصر أُمَّة مهددة من أعدائها، ونحن نملك أســلحة كثيرة منها: الدعاء، فالدعاء ســلاح للمؤمنين في المعارك وفــي كل وقت، يدعون الله ﷻ: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقــرة: ٢٥٠]، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧، ١٤٨].

نســأل الله تبارك وتعالى لأمتنــا أن يُفرِّج كربتها، ويكشــف غمتها، ويجعل لها من عسرها يسرًا، ومن همها فرجًا، ومن ضيقها مخرجًا، وأن ينصرها نصــرًا عزيــزًا، وأن يفتح لها فتحًــا مبينًــا، وأن يهديها صراطًا مستقيمًا إنَّه سميع قريب، اللهمَّ آمين.

وصلى الله على سيِّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

* * *

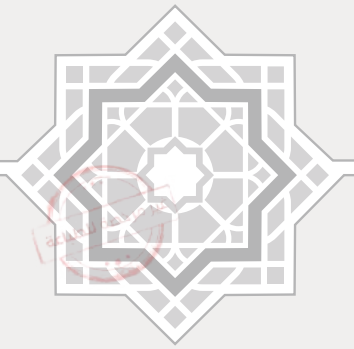
نسخة محاينة
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي



دروس في تفسير

سورة الحج



نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

من دروس سورة الحج
التذكير بيوم الحساب في سورة الحج[١]

يبدو لمن يقرأ القرآن الكريم، أو يستمع إليه، أنَّ من الموضوعات الأساسيَّة، والرئيسة، للقرآن العظيم، الحديث عن الآخرة، عن يوم القيامة، أو يوم الحساب، أو يوم الدين، أو يوم الزلزلة، إلخ، فلليوم الآخر أسماء كثيرة في القرآن.

وبهذا يريد القرآن أن يعلِّق أبصار النَّاس وقلوبهم بهذه الحياة الآخرة، ألَّا يظلوا مشدودين إلى الحياة الدُّنيا، وأن ترنو أبصارهم إلى الحياة العليا، أو الحياة الأخرى.

سور القرآن المكيَّة والمدنيَّة، حافلة بالحديث عن الآخرة، من جهات شتّى: البعث، وإمكان البعث، وقدرة الله على أن يُحيي الناسَ بعد موتهم، ويبعثهم من قبورهم، والتدليل على ذلك، كما سمعنا اليوم في سورة الحج:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا ﴾.

(١) من دروس تراويح ١٤٢٢هـ.

QaradawiBooks.com

ثم يدلل ببعض الظواهر الكونيَّة، ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٥، ٦].

الحديث عن إمكان البعث، وعن حكمة الله تعالى في هذا البعث، إذ يستحيل على الله العادل الحكيم، أن يسوِّي بين المؤمنين والكفار، وبين المتَّقين والفجار، ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]. حديث عن البعث والرد على منكري البعث، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، تحدث القرآن عمَّا يحدث قبل يوم القيامة، وما يحدث في يوم القيامة من أهوال، فلا يوجد كتاب من كتب السماء تحدث عن القيامة وأحوالها وأهوالها وما يجري فيها، كما تحدث القرآن الكريم، لأن هذا أمر مهم في تربية الأنفس وتزكيتها، وإعدادها للقاء الله، لا بدَّ للنَّاس أن ينشغلوا بمصيرهم، فالناس في عصرنا يقولون: لا بدَّ أن نهتم بالقضايا المصيريَّة. وهل هناك قضيَّة مصيريَّة في حياة الإنسان، أهم من قضيَّة الجنَّة والنار. هذه قضيَّة ليست كالوظيفة، أو النجاح، أو المال، أو الأولاد، فكل هذه قضايا هامشيَّة، أمَّا القضيَّة الخطيرة والكبيرة والأساسيَّة، قضيَّة المصير هذه: إلام تكون، وإلام تصير، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

من أهم ما يعرض له القرآن في الآخرة: قضيَّة الحساب والكتاب، فالله ﷻ، قادر أن يأتي بالناس ويقول لهؤلاء: أنتم من أهل النار، فاذهبوا إلى النار. وأنتم من أهل الجنَّة فإلى الجنة. لا يُسأل عمَّا يفعل، يتصرف كما يشاء، ولكنَّه سبحانه لا يفعل ذلك، فلا يدخل الإنسان الجنَّة،

QaradawiBooks.com

ولا يدخل النَّار إلَّا بعد الحساب، ونحن نقول دائمًا: إن يوم القيامة، هو اليوم الَّذي تُنصب فيه الموازين وتُنشر فيه الدواوين.

في الآخرة كل شيء بميزان، فحسناتك توضع في كفّة، وسيئاتك في كفّة، بغض النظر أنت من، وابن من، ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۞ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١ ـ ١٠٣]. فالميزان هو الَّذي يحكم عليك، لا نسبك ولا بلدك، ولا لقبك، ولا شهادتك، وإنَّما ميزانك وكتابك.

كتابك يحكم عليك أو لك ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۞ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

والعلماء يقولون: كل إنسان سيقرأ كتابه، سواء كان متعلمًا، أو أميًّا، وكيف يقرأ الأمي؟! نجد أنَّ العلم الحديث قرَّب لنا هذا الأمر، فأنت ترى الآن الأشرطة والتسجيلات، وكأن كتاب الإنسان يوم القيامة، مثل الشريط، يأتي بشريط حياته كلها أمامه، من بداية ما كُلِف، سيعرض عليه حياته كلها. كأن هذا الكتاب، هو شريط مسجَّل عليه كل أعمالك وأفعالك، ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤]. ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ حتَّى الأشياء الصغيرة الَّتي لم نتوقعها ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة: ٦]، أنت نسيت ولكن الله لا ينسى، و«الكتبة» قلم التسجيل

QaradawiBooks.com

الإلٰهي لم ينسوا هذا، ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠]، يسجّلون لك أو عليك كل شيء، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٦ ـ ١٨]. ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩]. كل شيء يُستنسخ ويسجَّل، فستقرأ هذا الكتاب، أو تسمع هذا الشريط، أو ترى هذا الشريط، فهو كتاب يقرؤه المتعلم والأمي.

في الفلسفة القديمة أو علم الكلام في القديم، كانوا يقولون: العرض لا يبقى زمانين. يقصدون الأشياء الَّتي تعد أعراضًا، كالكلام والأصوات والألوان.. وغيرها، يقولون عنها: إذا حدثت انتهت. فلا يمكن أن تبقى في زمن آخر.

ولذلك كانوا يقولون في قول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ [آل عمران: ٣٠]، قالوا: الَّذي يحضر هو جزاء العمل. وفي قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [الزلزلة: ٦]: أي: ليروا جزاء أعمالهم؛ لأن العمل لا يمكن أن يُرى.

أمَّا الآن فقد أثبت العلم الحديث، أن كل شيء موجود، حتَّى الكلام الَّذي نتكلمه الآن، موجود ويمكن أن تسمعها مرَّة أخرى، وتراها بالفيديو أيضًا، كما هي.

استمعنا إلى قول الله تعالى في سورة الأنبياء:

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

QaradawiBooks.com

كل أعمالك ستوزن، حتَّى ولو كانت حبَّة خردل، سواء في الحسنات أم في السيئات، لا يضيع عند الله مثقال ذرة، ولا مثقال حبة من خردل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠]. إذا كان مثقال الذرة هذا من الحسنات، الله لا يكتبها فقط، وإنَّما يضاعفها أيضًا، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ كل شيء ستحاسب عليه، ولذلك لا بدَّ أن تستعد، كما قال لقمان لابنه وهو يعظه، ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦]. فحضّر لهذا السؤال جوابًا، لأن الله سيسألك عن كل شيء، فلا بدَّ أن يكون عندك جواب، وتعرف ماذا ستقول لله تعالى في يوم القيامة.

ولذلك جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسولَ الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأضربهم وأسبهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**يحسب ما خانوك وعصوك ويكذبونك وعقابك إيَّاهم، فإن كان عقابك إيَّاهم دون ذنوبهم كان فضلًا لك عليهم، وإن كان عقابك إيِّاهم بقدر ذنوبهم كان كفافًا، لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إيَّاهم فوق ذنوبهم، اقتص لهم منك الفضل الَّذي بقي قبلك**» فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: «**ما له؟ ما يقرأ كتاب الله: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾** [الأنبياء: ٤٧]»

QaradawiBooks.com

فقال الرجل: يا رسولَ الله، ما أجد شيئًا خيرًا من فراق هؤلاء ـ يعني عبيده ـ إنِّي أشهدك أنَّهم أحرار كلهم[1].

أيها الإخوة:

مشكلة النَّاس في هذه الحياة، هو نسيان يوم القيامة، نسيان الآخرة، إنَّ الآخرة لم تعد على بال النَّاس، النَّاس تتصرف في الدُّنيا، وكأنهم مُخلَّدون فيها، وكأنَّه ليس بعد هذه الحياة موت، ولا كأن بعد هذا الموت بعثًا، ولا كأن بعد هذا البعث حسابًا وثوابًا وعقابًا، وجنة ونارًا. هذه المصيبة: نسيان الآخرة.

والذي يحل هذه المشكلة هو تذكر الآخرة، أن تجعل الآخرة نصب عينيك، أنَّك حي اليوم، وميت غدًا، ومبعوث بعد غد، فيا ليت الموت هو النهاية، يقول الشاعر:

وَلَوْ أَنَّا إذا مِتْنَا تُرِكْنَا ... لكان الموتُ راحةَ كلِّ حَيِّ
ولكِنَّا إذَا مِتْنَا بُعْثْنَا ... ونُسأَلُ بعدَها عنْ كُلِّ شَيِّ[2]

لو كان الموت هو نهاية الأمر لكان الموت راحة، ولكن بعد الموت بعث وسؤال عن كل شيء، وهذا هو الشيء الَّذي ينبغي أن يتذكَّره النَّاس باستمرار.

وكان سيِّدنا عمر رضي الله عنه يقول: «من اتَّقى اللهَ لم يفعل ما يريد، ومن خاف الله لم يشفِ غَيْظه، ولولا يوم القيامة لكان الأمر غير

(١) رواه أحمد (٢٦٤٠١)، وقال مُخَرِّجوه: حديث ضعيف. والترمذي في التفسير (٣١٦٥)، وقال: حديث غريب. وصحَّح إسناده الألباني في صحيح الترمذي (٢٥٣١)، عن عائشة.

(٢) نسبهما المبرد إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. انظر: الفاضل صـ ١٣، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٣، ١٤٢١هـ. وعزاه الخطيب إلى رؤيا رآها دلف ابن أبي دلف لأبيه. تاريخ بغداد (٤٠٧/١٤).

QaradawiBooks.com

ما ترون»[١]. لولا يوم القيامة لفعل كل إنسان ما يشتهي وما يقدر عليه، والقوي يفترس الضعيف، كالسمك الكبير يأكل الصغير، وكالغابة الأقوياء يفترسون الضعفاء، لا. هناك قيامة وهناك آخرة. فعلينا تذكر الآخرة باستمرار، أمامك غدًا لا بدَّ منه، وإن غدًا لناظره قريب.

ولا تستبعد الموت، وتقول أين أنا والموت، ما زلت شابًّا، ما زلت صغيرًا، فالموت أقرب إليك من شراك نعلك، يقول الشاعر:

كُلُّ امرئٍ مُصَبَّحٌ في أَهْلِه والموتُ أدنى من شِرَاكِ نَعْلِه[٢]

قد تخرج من بيتك، ولا تعود إلَّا بحادثة، وكان بعض النَّاس حريصين جدًّا، ولا يركب سيارة أبدًا، يخاف أن يعمل حادث، وفي يوم من الأيام، وهو يمشي على الطريق، خرجت سيارة ودهمته ومات.

تجد بعض النَّاس لا يركبون الطائرات، وتنزل طيارة فتأخذ قرية أو مجموعة من البيوت، هم جالسون في بيوتهم، لا ركبوا طيارة ولا سافروا، فالموت أقرب إلى الإنسان من كل شيء. ولذلك على الإنسان أن يذكر هذا، ويكيف نفسه على هذا الأساس، حتَّى يتقي الله ﷻ، ويلجم نفسه بلجام التَّقوى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۞ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۞ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر: ١٨ ـ ٢٠].

* * *

(١) رواه أبو داود في الزهد (٩٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٥٧/٨).

(٢) رواه البخاري في فضائل المدينة (١٨٨٩).

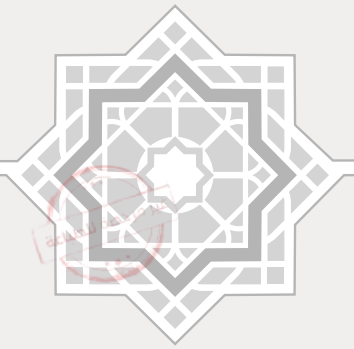
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي



دروس في تفسير

سورة المؤمنون



نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

المؤمنون المفلحون الوارثون للفردوس

سورة المؤمنون سورة مكيَّة تُعنى بما تُعنى به السور المكيَّة من تثبيت عقيدة التوحيد وعقيدة النبوة وعقيدة الآخرة، وتُعنى بتثبيت القِيَم الأخلاقيَّة وترسيخ جذورها في العقول والأنفس، وترسيخ أصول الحياة الإسلاميَّة والدينيَّة من عبادات ومعاملات وأخلاق، ولذلك بدأت السورة بالعناية بأوصاف المؤمنين، وأخذت حوالي إحدى عشرة آية في أوصاف المؤمنين وجزاء المؤمنين.

ابتدأ الله تعالى هذه السورة بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١١].

«قد» حرف يفيد التحقيق، أكد الله في مطلع هذه السورة الكريمة فلاحَ المؤمنين ونجاحهم في الدُّنْيا والآخرة، والفلاح: أن تظفر بما تحب وترجو، وأن تَسلم ممَّا تكره وتخاف، إذا ظفرت بما أحببت، وسلِمتَ ممَّا كرهت فقد أفلحت.

QaradawiBooks.com

والقرآن استعمل هذه الصيغة صيغة الفلاح ولم يستعمل صيغة أخرى يذكرها النَّاس وهي السعادة، النَّاس تطلب السعادة، لكن كلمة السعادة لم ترد في القرآن إلَّا في موضعين في سورة واحدة هي سورة هود، ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ﴾ [هود: ١٠٨]، إنَّما ورد أفلح وما اشتق منها كـ«أفلح» و«يفلح» و«مفلحون» و«تفلحون»، ورد أربعين مرَّة، ممّا يدل على أنَّ القرآن يركِّز على أن يكون الفلاح هدفًا للناس.

هناك واحد مفلح وواحد خائب وخاسر، ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، المؤمنون هم المفلحون، ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

والفلاح قد يكون في الدُّنيا، وقد يكون في الآخرة، فإذا قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فهذا يثبت فلاح المؤمنين وفوزهم المطلق في الدارين، في الحياتين، حياة الدُّنْيا وحياة الآخرة، حتَّى في الدُّنيا، صحيح قد نرى المؤمنين مصابين ومبتلين ببلايا شتَّى، ولكن المؤمن في حياة طيِّبة حتَّى وإن صُبَّ عليه البلاء صبًّا، الله تعالى يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، لأن البلاء الَّذي ينزل به والمصائب الَّتي تحل بساحته يفلسفها ويحوِّلها إلى نعم تستحق الشكر من الله ﷻ، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله: ما أصبت ببلاء إلَّا رأيت لله علي فيه أربع نعم:

النعمة الأولى: أنَّه لم يكن في ديني.

QaradawiBooks.com

وكل بلاء في الدُّنْيا يهــون، وكان من دعاء النبــيِّ ﷺ: «**ولا تجعلْ مصيبتنا في دِيننا**».

والنعمة الثانية: أنَّه لم يكن أكبر منه.

ما من بــلاء إلَّا وهناك ما هو أكبــر منه، وبعض الشــر أهون من بعض، النَّــاس يقولون: قضاء أخف من قضاء، ومــن رأى بلوى غيره هانت عليه بلواه.

والنعمة الثالثة: أنِّي لم أُحرم الرضا به، أنَّ الله رزقني الرضاء بالقضاء.

والنعمة الرابعة: أنِّي أرجو ثواب الله عليه[1].

جاء في الحديث الصحيح: «**ما يصيب المسلم من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حزنٍ ولا أذًى ولا غمٍّ، حتَّى الشــوكة يُشاكُها إلَّا كفَّر الله بها من خطايــاه**»[2]. فإن لم تكن لــه خطايا، تُكتب له حســنات، وتُرفع له درجات، فالمؤمن مثاب على كل ما يصيبه.

قد يكــون المؤمن ضيق الرزق، معســر الحال، لا يملــك القناطير المقنطرة، ليست عنده قصور فاخرة، ولا ملايين في البنوك، ولكنَّه رُزق القناعة والرضا. وهناك شــخص آخر عنــده الملايــين ولكنَّه لا يقنع، فلا بحلال يقنع، ولا بحرام يشــبع، هو كجهنم، يقال لها: هل امتلأتِ؟ فتقول: هل من مزيد؟

فَصَاحِبُ الْعَشْرِ يَبْغِي عَشْرَةً مِائَةً وَصَاحِبُ الْأَلْفِ يَبْغِي الْأَلْفَ مِلْيُونَا

---

(١) إحياء علوم الدين (١٢٩/٤).

(٢) متَّفــق عليه: رواه البخاري فــي المرضى (٥٦٤١)، ومســلم في البر والصلــة (٢٥٧٣)، عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة.

QaradawiBooks.com

فالدنيا لا يُشبَع منها، كلَّما شرب الإنسان منها ازداد عطشًا، المؤمن الَّذي رُزق القناعة والرضا يعيش في السعادة النفسية، كما قال بعض الصالحين: إنَّ سعادتي في إيماني، وإيماني في قلبي، وقلبي لا سلطان لأحد عليه غير ربي.

وقال بعضهم: إنَّنا نعيش في سعادة لو علِم بها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف[1]. إنَّها السعادة الروحيَّة.. سعادة أهل الإيمان، نحن المسلمين مستأثرون بهذه السعادة، ومن حسن حظِّنا أنَّ الملوك لا يعلمون قدر هذه السعادة، وإلا ما تركوها لنا، إنَّما نحن متمتعون بها وحدنا دون أن ينازعنا فيها أحد، هذا هو الفلاح في الدنيا.

الغربيون الآن وصلوا إلى ما وصلوا إليه، سخَّروا الطبيعة، ووصلوا إلى القمر، وحاولوا أن يغزوا الكواكب الأكثر بعدًا، مع هذا ليسوا سعداء.

كتب الأستاذ إحسان عبد القدوس في مجلة «روز اليوسف» مقالين تحت عنوان: «أهل الجنَّة ليسوا سعداء»، ويقصد بأهل الجنة: أهل «السويد»، وجد هناك مستوى المعيشة في غاية الارتفاع والضمانات الاجتماعيَّة الَّتي لكل منهم، ومع هذا يقول: إنَّهم أكثر النَّاس اكتئابًا، وأكثر النَّاس قلقًا، وأكثر حوادث العالم انتحارًا. لماذا؟ لأنَّهم لا يستندون إلى جدار الإيمان، لا يستندون إلى ركن ركين، ولا إلى حصن حصين، لم يُرزَقوا الإيمان، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، المؤمنون أفلحوا مرتين، أفلحوا في دنياهم بما رزقهم الله من حياة طيبة أساسها سكينة النفس، وأفلحوا في الآخرة، بدخول جنَّة أعدها الله لهم، أعد لهم فيها ما لا عين رأت،

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٧٠/٧)، من قول إبراهيم بن أدهم.

QaradawiBooks.com

ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال الله تعالى هنا في ختام الآيات هذه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

حقيقة الإيمان:

ولكن الإيمان ما هو؟ الإيمان ليس مجرد ألفاظ يلوكها اللسان، ليس مجرد كلمة تُقال، ليس مجرد شعار يُرفَع، ولا دعوى يدعيها الإنسان، فما أكثر الدعاوى وما أقل الحقائق.

والدَّعاوى ما لم تَقُمْ عليها بَيِّنَاتٌ أبناؤها أَدْعِيَاءُ[1]

الدعوى من غير بيِّنة لا قيمة لها، فدعوى الإيمان لا تنفع ولا تُنجي إلَّا إذا تحقق الإيمان بالفعل، ومن ينظر إلى القرآن الكريم يجد الإيمان في القرآن إنَّما يتجسد في أخلاق وفي أعمال ملموسة يراها النَّاس ويشهدها النَّاس ويحس النَّاس أثرها في الحياة، هذا هو الإيمان.

ليس الإيمان مجرد علم لاهوتي أو مجرد تفكير نظري، لا، هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، هو اعتقادات في القلب، تصورات في العقل، يعبّر عنها اللسان، وتعبّر عنها الجوارح أفعالًا، وتعبر عنها النفس فضائل وأخلاقًا، ولذلك السيِّدة عائشة رضي الله عنها سئلت عن خُلق النبي ﷺ، كيف كانت أخلاقه؟ فقالت لهم، وما أبلغ ما قالت! قالت: كان خُلُقه القرآن. ثمَّ قرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ

(١) ذكره ولم ينسبه محمد أمين المحبي في خلاصة الأثر (٣٧٨/١)، نشر دار صادر، بيروت.

QaradawiBooks.com

﴿ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١١][(١)].

هذا هو خُلق مُحَمَّد ﷺ، من أراد أن يعرف أخلاق مُحَمَّد ﷺ، فليقرأ القرآن، وقرأت لهم نموذجًا ممَّا جاء في القرآن، اقرأ أوَّل سورة المؤمنون، أوَّل سورة البقرة، أوَّل سورة الأنفال، صفات عباد الرحمن في آخر سورة الفرقان، صفات الأبرار في سورة الإنسان، صفات أولي الألباب في سورة آل عمران وفي سورة الرعد، اقرأ هذا كله تعرف خُلق مُحَمَّد ﷺ، فحينما نقرأ هذه الصفات نجد السيرة المحمَّديَّة.

أوصاف المؤمنين أهل الفلاح:

وصف الله هؤلاء المؤمنين المفلحين بجملة أوصاف، إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحسن إعراضهم عن اللغو، وعدم اشتغالهم بعيوب النَّاس، اشتغلوا بأنفسهم عن عيوب النَّاس، وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب غيره، وحفظهم فروجَهم عن الحرام، ورعاية العهود وأداء الأمانات لأهلها، وختم أوصافهم بما بدأها به، وهو أداؤهم للصلاة ومحافظتهم عليها.

الوصف الأوَّل: خشوعهم في الصلاة:

أول هذه الأوصاف أنَّهم: ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]، لم يقل: الَّذين هم لصلاتهم مؤدون، لأن أداء الصلاة وحده ليس محققًا للإيمان، لا بدَّ من إقامة الصلاة، وفرق بين أداء الصلاة وبين إقامة الصلاة، إقامة

(١) رواه النسائي في الكبرى في التفسير (١١٢٨٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٠٨)، والحاكم في التفسير (٣٩٢/٢)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي.

QaradawiBooks.com

الصلاة أن تؤديها قائمة مستوية منضبطة، أي: تؤديها على وجهها، ومن أوَّل حقائق الصلاة المطلوبة الخشوع فيها، روح الصلاة الخشوع، والخشوع خشوعان: خشوع قلب، وخشوع جوارح، وخشوع القلب: أن يستحضر المصلي رقابة الله ﷻ، ويستحضر عظمته، ويتدبر معاني ما يتلوه من آيات، أو ما يسمعه، وما يردده من أذكار، عندئذ يشعر فعلًا أنَّه يقف بين يدي الله ﷻ، وأنَّ الصلاة يجب أن تُنزه عن اللعب والعبث.

وخشوع القلب هو الأساس، وكان سيِّدنا عمر يستعيذ بالله من خشوع النفاق، قيل له: وما خشوع النفاق يا أمير المؤمنين؟ قال: أَنْ يُرَى الْبَدَنُ خَاشِعًا وَالْقَلْبُ لَيْسَ بِخَاشِعٍ[1]. فالمهم خشوع القلب.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢]، كان النبي ﷺ حينما يدخل الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل[2]، صوت غليان القدر فوق النَّار يسمع لصدره ﷺ، وكان علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب إذا توضأ اصفرَّ لونه، فإذا دخل في الصلاة ارتعدت فرائصه، فسئل عن ذلك فقال: أتدرون بين يدي من أقف[3]؟ هكذا كان السلف.

سُئل حاتم الأصم كيف يؤدي صلاته؟ فقال: أُكبِّر تكبيرًا بتحقيق، وأقرأ قراءة بترتيل، وأركع ركوعًا بتخشع، وأسجد سجودًا بتذلل، وأجعل الجنَّة عن يميني، والنار عن شمالي، والصراط تحت قدمي، والكعبة بين حاجبي، وملك الموت على رأسي، وذنوبي محيطة بي، وعين الله ناظرة

(١) مدارج السالكين (٣٦٥/١).
(٢) رواه أحمد (١٦٣١٢)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود في الصلاة (٩٠٤)، والنسائي في السهو (١٢١٤)، والحاكم في التأمين (٢٦٤/١)، وصحَّحه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، عبد الله بن الشخير.
(٣) رواه ابن سعد في الطبقات (٢١٦/٥).

QaradawiBooks.com

إليّ، وأعتبرها آخر صلاة لي، وأتبعها الإخلاص ما استطعت، ثمَّ أُسلِّم، ولا أدري أيقبلها الله مني، أم يقول: اضربوا بها وجه صاحبها[١].

مع هذا كله يخشى ألا تُقبل منه صلاته، يخاف أن يُقال اضربوا بها وجه من صلَّاها، هذا هو الخشوع، ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢].

ومرَّ سعيد بن المسيِّب على رجل يعبث في صلاته، فنظر إليه وقال: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه[٢].

ومر الحسن البصري برجل يسجد ويعبث بالحصى ويقول: اللهمَّ أدخلني الجنَّة وزوجني من حورها العين، فقال له: بئس الخاطب أنت؛ تخطب الحور العين وتعبث بالحصى[٣]؟! من يخطب الحسناء لم يغلها المهر.

هذا هو خشوع القلب، وأمَّا خشوع الجوارح فهو مكمل لخشوع القلب، ومظهر له، كما ورد في الأثر: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه».

فالخاشع لا يلتفت في الصلاة التفات الثعلب، ولا يعبث عبث الأطفال، ولا يتحرك حركات كثيرة تخل بالخشوع، وتذهب بروح الصلاة، وإنَّما يقف وقورًا بين يدي الله ﷻ، فهذا أيضًا مطلوب في الصلاة.

الوصف الثاني: إعراضهم عن اللغو:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]، اللغو: الباطل من الكلام، أو الَّذي لا فائدة منه لا في الدُّنْيا ولا في الدين، المؤمنون

(١) إحياء علوم الدين (١/١٥١).
(٢) رواه ابن أبي شيبة في صلاة التطوع (٦٨٥٤)، عن سعيد بن المسيب من قوله.
(٣) إحياء علوم الدين (١/١٥١).

QaradawiBooks.com

لا يشغلون أنفسهم لا بالكلام في اللغو ولا باستماع اللغو، ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٢]، لا يقفون عند اللغو، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

أوقاتهم ثمينة لا يصرفونها في لغو، الوقت لا يقدره إلَّا من يعرف أهميَّة الوقت، كان الشيخ حسن البنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: الوقت هو الحياة، والغربيون يقولون الوقت من ذهب، ونحن نقلدهم، لكن ما قيمة الذهب؟ الذهب إذا ذهب يُعوَّض، إنَّما الوقت إذا ذهب لا يُعوَّض.

يقول الحسن البصري: ما من يوم ينشق فجره إلَّا وينادي: يا ابنَ آدم أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزوَّد منِّي فإنِّي إذا ذهبتُ لا أعود إلى يوم القيامة[1].

فالكيِّس الذكي من يتزود من الوقت، إذا مضى الوقت وذهب لا يمكن إرجاعه، فالوقت ثمين، لذلك يقول الشيخ حسن البنا: الوقت هو الحياة.

ما حياة الإنسان؟ هي الوقت الَّذي تقضيه من المهد إلى اللحد، من صرخة الوضع إلى أنَّة النزع، حياتك هذه هي الوقت، الوقت هذا هو الحياة، فحينما تفرط في وقتك يعني فرطت في حياتك، النَّاس الَّذين يقولون تعال نقتل الوقت لا يدرون أنَّهم حينما يقتلون أوقاتهم إنَّما يقتلون أنفسهم، ينتحرون انتحارًا بطيئًا.

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كلام الليالي والأيام (٢٢)، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، نشر دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

هؤلاء المؤمنون وقتهم ثمين، بدل أن يشغل نفسه باللغو يقول: سبحان الله أو الحمد لله أو لا إلٰه إلَّا الله أو الله أكبر، أو يمسك حتَّى عن الشر فإنَّه له صدقة، لا يضيع وقته كما يضيع كثير من النَّاس أوقاتهم، وأمتنا الإسلاميَّة أكثر الأمم إضاعة لأوقاتها، أوقاتنا ضائعة في الهزل وفي الكلام الفارغ.

فيم يضيِّع المسلمون أوقاتهم؟ في الفوازير وفي المسلسلات في هذا الشهر، أكثر شهر فيه مسلسلات شهر رمضان، تجد الفنانين والممثلين والمصوّرين والمخرجين عاملين أزمة قبل رمضان من أجل مسلسلات رمضان، كأن هذه المسلسلات هي الَّتي ستُدخل النَّاس الجنَّة، أهذه هي الَّتي من فعلها إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه؟! هل هذه أُمَّة تهتم بالأوقات الثمينة وتستفيد منها؟ أكثر أُمَّة تضيِّع أوقاتها هي الأُمَّة الإسلاميَّة للأسف.

حسبوا متوسط عمل الفرد في بعض البلاد كم؟ فوجدوه سبعًا وعشرين دقيقة، هذه هي الخلاصة، طبعًا هذا هو المتوسط، وإلا فهناك واحد يظل يعمل إلى أن يموت، وواحد آخر جالس يشرب الشاي، أو يقرأ الجرائد، أو يتكلّم مع زميله، أو يتكلم في التليفون مع زوجته، أو يتكلم مع صاحبته أو يتكلم مع أصدقائه وهو في العمل، وهذا حرام، الَّذي يصرف أوقات العمل في غير العمل يرتكب حرامًا، وأكثر من ذلك أنَّه يضيِّع الأوقات، ووقته هو جزء من وقت الأُمَّة، لأن وقت الأُمَّة هي أوقات الأفراد، المؤمنون لا يفعلون ذلك لأن من أوصافهم أنَّهم ﴿عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣].

الوصف الثالث: إيتاؤهم الزكاة:

ثم بيَّن الله الوصف الثالث لهؤلاء المؤمنين المفلحين فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤]، أي يؤدُّون الزكاة، قال الحافظ ابن

QaradawiBooks.com

كثير في تفسير هذه الآية: الأكثرون على أنَّ المراد بالزكاة هنا زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكيِّة، وإنَّما فرضت الزكاة بالمدينة، في سنة اثنتين من الهجرة، والظاهر أنَّ الَّتي فُرضت بالمدينة إنَّما هي ذات الأنصبة والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبًا بمكة. قال تعالى في سورة الأنعام المكيَّة: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١][1].

وهناك عدد من السور المكيَّة أيضًا ذكرت هذا، مثل سورة النمل: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النمل: ٣]، ومثل سورة لقمان: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [لقمان: ٤]، ومثل سورة فصلت: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]، وكلها سور مكيَّة، فالمراد هنا الزكاة المطلقة، أي يبذلون قدرا من أموالهم من أجل الفقراء ابتغاء مرضاة الله.

وقرن الله تبارك وتعالى محافظة المؤمنين على إقامة الصلاة بخشوعهم فيها بإيتائهم للزكاة، وقلَّما يذكر القرآن الصلاة إلَّا ذكر الزكاة، في ثمانية وعشرين موضعًا، في القرآن قرن الله بين الصلاة والزكاة، فهؤلاء المؤمنون للزكاة فاعلون، يفعلون الزكاة، الزكاة تحتاج إلى فعل، إلى بذل إلى بحث عن الفقير الَّذي يستحق وإعطائه، أو إعطائها للدولة إذا كانت الدولة دولة مسلمة وتأخذ الزكاة من أغنيائهم وتردها على فقرائهم، وإذا لم يكن هناك دولة، فقد جعل الإسلام عليها ثلاث حراس: حارس الإيمان، وحارس المجتمع الضمير الاجتماعي، وحارس الدولة السلطان والقانون.

(١) تفسير ابن كثير (٤٦٢/٥).

QaradawiBooks.com

الوصف الرابع من أوصاف هؤلاء المؤمنين المفلحين:

ثم ذكرت السورة الفضيلة الرابعة الَّتي تجسد حقيقة الإيمان فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٥]، فانظر في هذه الفضائل فعل وترك، فالخشوع في الصلاة فعل، والإعراض عن اللغو ترك، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤] فعل، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٥] ترك.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٤]، يعني البعد عن الزنى، يحفظون فروجهم من أن ترتكب الحرام، ولا يجعلونها إلَّا فيما شرعه الله، الإسلام لا ينظر إلى الجنس نظرة استقذار لأنَّه غريزة فطريَّة، الله فطر النَّاس على هذا الأمر ولولاه ما بقيت البشريَّة، النوع الإنساني كيف يبقى إلى الآن؟ وكيف يبقى إلى يوم القيامة؟ يبقى عن طريق هذه الغريزة، هذه الغريزة بمثابة سوط يسوق الإنسان ويجعله يبحث عن تفريغ الشهوة، ولكن الله حظر الإنسان ومنعه أن يضع شهوته إلَّا في الحلال، والحلال عن طريق الزواج وبناء الأسرة المسلمة الصالحة.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ عن طريق عقد النكاح ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي عن طريق الرقيق والجواري يوم كانت عصور الجواري ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦].

عندما جاء الإسلام كان الرِّق نظامًا عالميًّا وأقرَّه الإسلام؛ لأنَّه لم يكن من الواقعيَّة في شيء أن يلغي هذا النظام والعالم كله يعمل به، والمسلمون كانوا في حروب مع أعدائهم مستمرة، فحينما يأسر الأعداءُ المسلمين يأخذونهم رقيقًا عبيدًا وجواري، الرجال عبيد والنساء جواري، والمسلمون لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا، إذا حرَّم الإسلام الرق معناه أن

QaradawiBooks.com

يستسلم المسلمون لأعدائهم يأسرونهم والمسلمون لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا، فأقرَّ الإسلامُ الرقَّ ولكن أبقى هذا المنبع الوحيد.

كانت هناك منابع كثيرة للرقِّ، المَدِين يُسترقُّ، المجرم الَّذي يُضبط متلبسًا بجريمته، يؤخذ في جريمته رقيقًا، ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ [يوسف: ٧٥]، وقد يبيع الواحد نفسه أو يبيع أولاده أو يبيع زوجته، كل هذا أبطله الإسلام، الاستعباد عن طريق الخطف أو الغزو بأن تُغير قبيلة على قبيلة فتأخذ نساءها سبايا، حرم الإسلام كل هذا، وأبقى فقط السبب الوحيد وهو أسرى الحروب الشرعيَّة، وهو على سبيل الجواز، لأن الأسير ليس من الضروري أن تسترقه، القرآن قال: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]، يمكن أن تمنَّ عليه وتُطلق سراحه لله، أو تفديه بمال أو تفديه بأسير آخر.

فأغلق الإسلام منابع الرق كلها ولم يستبق إلَّا منبعًا وحيدًا وهو أسرى الحروب الشرعيَّة، ومع ذلك فتح أبوابًا كثيرة للتحرير، منها أنَّه جعل مصرفًا من مصارف الزكاة الثمانية لتحرير الرقيق، يعني يمكن الزكاة تتحول في بعض الأحيان إذا قلَّ الفقراء أو انعدم الفقراء لتحرير الأرقاء، وهذا حدث في عهد سيِّدنا عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بعث إليه واليه على إفريقية، وإفريقية ما بعد مصر يعني ليبيا وتونس وهذه المناطق، كانوا يسمونها إفريقية، فبعث والي عمر يقول: يا أمير المؤمنين لم أجد عندي فقراء يستحقون الزكاة، ماذا أفعل؟ فقال له: اشتر بها رقابًا فأعتقها[1]. يعني كل حصيلة الزكاة تصبح بابًا لتحرير الرقيق.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لأبي محمد ابن عبد الحكم صـ ٦٥، تحقيق أحمد عبيد، نشر عالم الكتب، بيروت، ط ٦، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

QaradawiBooks.com

فالإسلام جعل من حقّ السيد الَّذي يملك هذه الأَمَة أن يتمتع بها ما لم يزوجها لغيره، يمكن أن يزوجها لأحد عنده، فإذا زوَّجها سيِّدُها لأحد غيره حرمت عليه، أمَّا إذا لم يزوجها لغيره فله أن يتمتع بها، وإذا أنجب منها ولدًا تُعتق بعد موته وتصبح أم ولد.

فالزواج بعقد صحيح، أو الاستمتاع بملك اليمين، هو السبيل الوحيد الَّذي أباحه الله تعالى للاستجابة لنداء الغريزة الجنسيَّة، وما وراء ذلك فقد حرمه الله تعالى.

فقد يثور دم الغريزة في الشاب فيلجأ إلى يده يستخرج بها المني من جسده ليريح أعصابه، يهدئ من ثورة الغريزة وهو ما يعرف اليوم: «بالعادة السرية»، وقد حرَّمها أكثر العلماء، واستدلوا بهذه الآية: ﴿**فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ**﴾ [المؤمنون: ٧]، والمستمني بيده قد ابتغى لشهوته شيئًا وراء ذلك.

وهناك من العلماء من أجازها من باب الرخصة، واعتبروا المني فضلة من فضلات الجسم، فأجازوا إخراجه كالفصد، وهذا جاء عن بعض السلف[١]، وذهب إليه وأيَّده ابن حزم[٢]، وهو مذهب الحنابلة، وقيد فقهاء الحنابلة الجواز بأمرين:

الأوَّل: خشية الوقوع في الزنى، فهو بهذا يرتكب أخفَّ الضررين، ويفعل أهون الشرَّين.

والثاني: عدم استطاعة الزواج، شاب ليس عنده زوجة، أو كان في

(١) وهو الإمام أحمد بن حنبل. انظر: تفسير القرطبي (١٠٥/١٢).

(٢) المحلى (٤٠٧/١٢)، نشر دار الفكر، بيروت.

QaradawiBooks.com

سن لا تسمح له بالزواج، أو ليس عنده مقدرة على الزواج، أو كان متزوجًا ولكنَّه في بلد وزوجته في بلد آخر، فقد يلجأ إلى هذا للضرورة.

وهذا ما أفتيتُ به من قديم في كتابي: «الحلال والحرام في الإسلام»، إذا خشي الإنسان على نفسه الوقوع في الحرام، وهاجت غريزته، والحرام ميسَّر في كثير من الأحيان، فالشاب أمامه فرصة ليرتكب المعصية، فهو لكي يطفئ هيجان الغريزة، ويطفئ هذه الشعلة المتَّقدة، يلجأ إلى هذا الأمر، ليخرج المني ويريح أعصابه، ويبعد عنه هذا التفكير.

فهذه رخصة، ولكن بشرط ألَّا تصبح عادة، لأن المشكلة هنا أنَّ النَّاس يسمُّونها عادة سرية، وهذا يعني أنَّها أصبحت عادة، ولا يجوز أن تكون عادة، لأنَّها متى أصبحت عادة كانت خطرًا على الصحة، لأنَّه يمكن أن يدمن هذا ويؤذي نفسه، وخطرًا على نفسية الشخص، لأنَّه يصبح عبدًا لها، فقد وصل الأمر ببعض النَّاس أنَّهم يرتكبون هذا الأمر حتَّى بعد زواجهم، يترك الرجل امرأته ويفعل هذه العادة السيِّئة، والمرأة في حاجة إلى الإمتاع والإحصان، فهو لأنَّه عاش مع هذه العادة زمنًا طويلًا أصبح مدمنًا لها.

لا يجوز للمسلم أن يلجأ لها إلَّا عند الضرورة أو الحاجة الشديدة، لإزالة العنت، أو لتجنب الوقوع في الفاحشة، كلَّما ثارت الغريزة وأصبح أمام خطر محقق يفعل هذا، لا أن يجعلها عادة، ويتخذها ديدنًا له، هذا الإدمان شر، الإدمان في كل قضيَّة خطر على الإنسان.

وأفضل من ذلك ما أرشد إليه الرسول الكريم الشاب المسلم الَّذي يعجز عن الزواج؛ أن يستعين بكثرة الصوم، الَّذي يربِّي الإرادة، ويعلِّم الصبر، ويقوِّي ملكة التَّقوى ومراقبة الله تعالى في نفس المسلم وذلك

QaradawiBooks.com

حين قال: «**يا معشرَ الشباب، من استطاع منكم الباءةَ فليتزوَّج؛ فإنَّه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنَّه له وجاء**»[(١)].

والعادون في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧] أي: المعتدون الظالمون المتجاوزون للحدود، فمن استمنى بيده فقد ابتغى وراء ذلك، فالفقهاء المحرمون للاستمناء استدلوا بالآية على أنَّ الَّذي يحاول استخراج المني ويحقق الشهوة ليس من هؤلاء المؤمنين المفلحين، لأنَّ هذا عمل خارج إطار الحلال (الزوجة وملك اليمين).

الوصف الخامس: رعاية الأمانة والعهد:

ثم وصف الله المؤمنين المفلحين بأنَّهم: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]، أي: يرعون العهود والأمانات، يؤدون الأمانات إلى أهلها، ويرعون العهود، سواء كان هذا العهد مع النَّاس أم مع الله، العهود الَّتي يؤدونها للنَّاس يستمسكون بها ولا ينقضونها ولا يغدرون.

فالغدر ـ كما ذكر القرآن ـ علامة من علامات النفاق، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥، ٧٦]، المنافق إذا عاهد غدر، ينقض عهده مع الله، وعهده مع النَّاس.

كما وصف القرآن اليهود كذلك بالغدر ونقض العهد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥، ٥٦].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠) كلاهما في النكاح، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

أمَّا المؤمنون فهم يوفون بالعهود، ويرعون الأمانات، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]، وصف الله تعالى أهل البر بقوله: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٧٧]، هذه جملة صفات أهل الإيمان.

ووصف سبحانه أولي الألباب بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: ٢٠].

ثم ختمت الآيات أوصاف المؤمنين بأنَّهم ﴿عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩]، فهم يحافظون على الصلاة ذات الخشوع، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩]، ولا غرو أن جعل القرآن الصلاة فاتحة خصال المؤمنين المفلحين وخاتمتها، فهذا دليل على مكانة الصلاة في حياة الفرد المسلم، والمجتمع المسلم.

هؤلاء المؤمنون المفلحون أفلحوا بإيمانهم الصادق في الدُّنيا، وأفلحوا في الآخرة أيضًا، ولذلك قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١]، والفردوس أعلى الجنان، كما قال النبي ﷺ: «**إذا سألتم الله الجنَّة فاسألوه الفردوس، فإنَّه أعلى الجنَّة، وفوقه عرش الرحمن**»(١).

هؤلاء المؤمنون أصابوا الفردوس الأعلى، وسعدوا في الدارين، وظفروا بالحسنتين، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، حصَّلوا الحسنتين بإيمانهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

---

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، عن أبي هريرة.

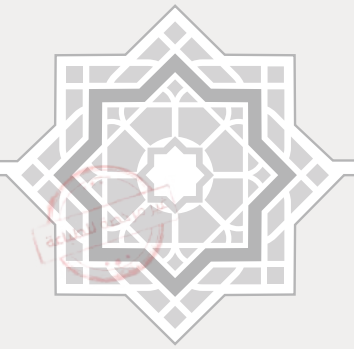
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِيِّ



دروس في تفسير

سورة النور



نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الأوَّل
من تشريعات الإسلام لحماية المجتمع من الفواحش[1]

بدأنا الليلة في الاستماع إلى سورة النور، وسورة النور سورة مدنيَّة، والسور المدنيَّة تُعنى بالأحكام والتشريع، وحماية المجتمع من الآفات والمخاطر الَّتي تهدد كينونته وبقاءه كمجتمع إسلامي متميِّز، السور الَّتي استمعنا إليها طوال الليالي الماضية من سورة يونس كلها سور مكيَّة إلَّا سورة الحج فقد اختُلف فيها: أهي مكيَّة أم مدنيَّة، والصحيح أن فيها المكي وفيها المدني، وممَّا لا شكَّ فيه أن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالإجماع لم تنزل إلَّا في المدينة، والسورة فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، وفيها بداية شرعية الجهاد: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، فهذه آيات مدنيّة، وفيها آيات مكيَّة كما يبدو من سياقها، مثل ما جاء في أوَّل السورة.

أمَّا سورة النور فهي سورة مدنيَّة، من أوَّل السورة بدأت هكذا: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ [النور: ١، ٢]، فعمليَّة العقوبات هذه أو التشريع العقابي، أو التشريع الجزائي كله نزل في المدينة، حينما أصبح

(١) من دروس تراويح ١٤٢٤هـ.

QaradawiBooks.com

للمسلمين مجتمع مخاطَب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وأراد الله ﷻ أن يبني هذا المجتمع على أسس سليمة، وأن يحميَ هذا المجتمع من الجرائم الموبقة.

ومن هذه الجرائم: الجرائم الَّتي تتعلق بالعِرض وبالغريزة الجنسيَّة مثل جريمة الزنى، هذه الفاحشة، ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٣٢]، ومثل الزنى جريمة عمل قوم لوط، أو كما يسمونه الآن: «الشذوذ الجنسي»، فأراد الله تعالى أن يحمي المجتمع من الإباحية الَّتي تدمِّر مجتمعات كثيرة.

الانهيار الأخلاقي في المجتمع الغربي:

المجتمع الغربي الآن رغم أنَّه مجتمع متقدم علميًّا وتكنولوجيًّا ولكنَّه مجتمع منهار أخلاقيًّا، تعمل فيه الإباحية عملها، ليتهم يرتكبوا الزنى ويقولون: إنَّه كبيرة من الكبائر، وأنَّه معصية من المعاصي، ولكنَّهم يستبيحونه، ويقولون: من حقّ الإنسان أن يستمتع، من حقّ كل جنس أن يستمتع بالجنس الآخر كما يشاء، بل أكثر من ذلك كانوا في أوَّل الأمر يقولون: من حقّ كل جنس أن يستمتع بالجنس الآخر، والآن أصبحوا يقولون: من حق كل جنس أن يستمتع بجنسه هو، فزوَّجوا الرجال بالرجال والنساء بالنساء، وأصبحت الأسرة ذات الجنس الواحد، والأسرة ذات التكوين الواحد، وأصبح هناك أنديةٌ للعراة، عري مطلق، وأصبح هؤلاء العراة والشُّذَّاذ يكوِّنون كُتَلا تؤثّر في الانتخابات، قالوا: الَّذي أنجح «كلينتون» هم هؤلاء، أصبحوا تكتلات كبيرة لها مطالب يريدون أن يضغطوا على القوانين حتَّى تبيح لهم كل شيء وتعطيهم ميزات، وغير ذلك.

QaradawiBooks.com

المجتمع الإسلامي مجتمع آخر، وكل المجتمعات الدينيَّة، حتَّى المجتمع اليهودي، حتَّى المجتمع المسيحي، اليهودية تحرم الزنى من غير شك، وفيها الرجم عندهم، والمسيح عليه السلام يقول في الإنجيل: قد كان من قبلكم يقولون لا تزني، وأنا أقول ـ والحقَّ أقول لكم ـ: من نظر بعينه فقد زنى[1]. هكذا يقول المسيح في الإنجيل الحالي نفسه، وهو يتفق مع الحديث النبوي: «**إنَّ اللهَ كتب على ابن آدم حظَّه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة، فزنى العين النظر، وزنى اللسان المَنْطِق، والنفس تَمَنَّى وتشتهي، والفرج يُصَدِّق ذلك كلَّه ويُكَذِّبه**»[2].

هناك زنى أصغر وزنى أكبر، كل عضو من الأعضاء يزني بطريقته، اليد تلمس، والشفة تقبل، والرجل تمشي، وهكذا، ثمَّ الزنى الأكبر معروف وهو الَّذي لا يحله الله إلَّا للرجل مع امرأته، فالإسلام جاء يحافظ على المجتمعات الإنسانيَّة من الانحدار في الشهوات، والانغماس في الملذات، ونسيان هذا الجانب الأخلاقي والجانب الإنساني، لئلا يصبح الإنسان كالحيوان يتسافد في الطرقات.

لكن حتَّى الحيوانات لا تبالغ مبالغات هؤلاء النَّاس، لأنَّ بعض الحيوانات مثل البقر والجاموس وهذه الأشياء الأنثى لا تحنُّ إلى الذكر إلَّا إذا أرادت أن تحمل، والناس الفلاحون يعرفون ذلك، فيأتون لها بالفحل أو الثور، وبعد ذلك إذا حملت انتهى الأمر ولم يعد لها رغبة في العمليَّة هذه، إنَّما هؤلاء النَّاس أضل من الأنعام، لا يقفون عند حد.

---

(١) إنجيل متَّى (٥/٢٧، ٢٨).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٤٣)، ومسلم في القدر (٢٦٥٧)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

الغريزة العاتية:

لذلك كان تنظيم الغريزة الجنسيَّة هذه أمرًا مهمًّا، وهي غريزة لها سلطانها القوي، حتَّى إن بعض علماء النفس مثل «فرويد» يقول: إنَّ الغريزة الجنسيَّة هي الَّتي توجِّه سلوك البشر، السلوك الاقتصادي، والسلوك السياسي، والسلوك الاجتماعي، يفسر أنَّ هذا كله غريزة جنسيَّة، وهذه مبالغة طبعًا، التفسير الواحدي للسلوك أو للتاريخ مرفوض.

الإنسان لا تحكمه غريزة واحدة ولا دافع واحد، هناك دوافع كثيرة، وغرائز كثيرة، مثل غريزة الاستعلاء، غريزة حب البقاء، وهناك اقتصاديَّة، وهناك دوافع عائليَّة، وهناك دوافع اجتماعيَّة، وهناك دوافع دينيَّة، وهناك دوافع روحيَّة، دوافع شتَّى، فالشاهد أن هذه الغريزة عاتية.

حتى إنَّ سيِّدنا يوسف حينما راودته المرأة بعد أن أحضرت النسوة وقالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]، سيِّدنا يوسف قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، وهذا يدل على قوَّة الغريزة، يا رب لو أنت لم تصرف عني هذه المصيبة سأقع فيها، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

جاءت سورة النور تنظِّم هذا الأمر، بعض النَّاس يظن أنَّ السورة تنظِّم حماية المجتمع من الفواحش ومن الزنى بإقامة الحد بالعقوبة، لأن السورة بدأت بعد الآية الأولى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، ولكن ليس صحيحًا أنَّ الإسلام يحارب الزنى أو يحارب الجرائم بمجرد العقوبة البدنيَّة، لا، العقوبة البدنيَّة سياج في النهاية ليعلن أنَّ الإسلام لا يقبل هذا الأمر.

QaradawiBooks.com

غض البصر:

إنَّما هناك وسائل أخرى اشتملت عليها هذه السورة الكريمة، ومنها وسائل تربوية مثل: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، يقول الإمام الغزالي: في هذه الآية تأديب وتنبيه وتهديد، أمَّا التأديب فقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾، وأمَّا التنبيه فقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾، هذا أطهر لهم وأفضل لهم وأحسن لحاضرهم ومستقبلهم، ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾، وأمَّا التهديد فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾، لا تخفى على الله خافية، ولا يغيب عنه سر ولا علانية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[1].

وكما أمر الله المؤمنين بغض البصر وحفظ الفرج، أمر المؤمنات بغضّ البصر وحفظ الفرج كذلك، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١]، وهذا تربية، أن يكون عند الإنسان وازع ذاتيّ، ورادع داخلي، وضمير ديني، يخشى الله ويتقيه، ولا يحتاج إلى وازع من خارجه، ما دام عنده هذا كفى بهذا الوازع واعظًا للإنسان وزاجرًا، كما قال: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣]، يستعف، يطلب العفَّة لنفسه والبعد عن الحرام حتَّى يُمكِّنه الله ويُقدّره على تكاليف وأعباء الزواج، هذه هي التربية.

الاستئذان قبل الدخول:

هناك أيضًا الآداب الَّتي يحيط بها الإسلام الفرد المسلم، والأسرة المسلمة، والمجتمع المسلم، آداب تحفظه وتحفظ عليه مشاعره وأخلاقه

(١) منهاج العابدين صـ ١٦١، تحقيق محمد مصطفى الحلاوي، نشر دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ٣، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقيمه الأخلاقيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧]، ترعى حرمات النَّاس، لا تدخل وتقتحم عليهم بيوتهم، قبل أن تدخل تستأنس وتسلم على أهلها.

حتى الأولاد كما في الآيات في أواخر هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ يكونوا نائمين وقد تنكشف عوراتهم ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾: وقت القيلولة والراحة، ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾ [النور: ٥٨]، لا يصح أن يدخل الخادم ولا الطفل أن يدخل هكذا بلا استئذان، أمَّا في الأوقات العادية فلا مانع أن يدخل، هذه كلها آداب.

الزينة الظاهرة:

والآداب من مهمتها أيضًا: تطهير المجتمع من الإغراء بالفواحش، كما قال الله تعالى في شأن المؤمنات: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، لا يجوز للمرأة أن تُبدي من زينتها إلَّا الزينة الظاهرة بطبيعة الحال وشأنها الظهور، وهذه الزينة الظاهرة فسَّرها ابن عبَّاس[١] وعائشة[٢] وابن عمر[٣] وبعض التابعين[٤] بأنَّها هي الوجه والكفان، وفسَّرها بعضهم: بالكحل والخاتم[٥]، يعني الزينة الخفيفة.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في النكاح (١٧٢٨١، ١٧٢٩٧).
(٢) رواه البيهقي في الصلاة (٢٢٦/٢).
(٣) رواه ابن أبي شيبة في النكاح (١٧٢٩٠)، والبيهقي في الصلاة (٢٢٦/٢).
(٤) انظر: مصنف ابن أبي شيبة (١٧٢٩٢ ـ ١٧٢٩٨).
(٥) رواه ابن أبي شيبة في النكاح (١٧٢٨٣)، عن عكرمة.

QaradawiBooks.com

وبعضهم فسَّر الزينة بموضع الزينة، أي لا يبدين موضع زينتهنَّ، وهو الوجه والكفَّان، أو هي نفس الزينة، مثل الخاتم والكحل، كما هو شأن الأشياء الخفيفة، إنَّما أن تضع المرأة المساحيق والمكياج وتذهب إلى الكوافير فهذا ما لا يجوز لها أن تفعله إلَّا لزوجها، أو أن تتزين في المجتمع النسائي، في حفلة نسائية يتزين النساء بعضهن لبعض لا مانع، إنَّما لكي يراها الرجال الأجانب عنها لا يجوز.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، الخُمُر جمع خمار، والخمار غطاء الرأس، كان نساء الجاهليَّة تضع غطاء على رأسها وتترك صدرها مفتوحًا، لأنَّها تلبس القلائد الذهبية والحلي وهذه الأشياء وصدرها مفتوح، فقال لها: يجب أن يغطي الخمار جيبك، فهذا هو الَّذي أمر الله تعالى به، ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

يقول الإمام ابن حزم: لو كان ستر الوجه واجبًا لقال الله: وليضربن بخمرهن على وجوههن، لكن الله لم يقل هذا، وإنَّما قال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[1]، فهذا دليل على أن ستر الوجه ليس فرضًا كما يقول بعض إخواننا من العلماء، حتَّى الإمام ابن قدامة وهو حنبلي المذهب يقول: المذهب ـ يعني مذهب الإمام أحمد، أي المعتمد فيه ـ أنَّ الوجه ليس بعورة، ودلل على ذلك بأشياء كثيرة[2].

ولو كان الوجه عورة ما كان هناك معنى لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، عن أيّ شيء سيغضون من أبصارهم؟ إذا كانت المرأة لا يرى منها شيء، إنَّما كونه يأمر بالغضِّ دليل أنَّ هناك شيئًا

(١) المحلى (٢٤٧/٢).

(٢) انظر: المغني (٤٣١/١)، (٩٧/٧)، نشر مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

QaradawiBooks.com

يفتن الرجل، فأمر الرجال بغض الأبصار، لأنَّه يمكن أن يرى وجهًا حسنًا، ولا مانع من ذلك، والبعض يقول: إذا كانت المرأة جميلة فعليها أن تغطِّي وجهها. كيف هذا؟ أنعاقبها أن خلقها الله جميلة ونلزمها بتغطية وجهها؟! إنَّ المرأة جعلها الله فتنة للرجال وابتلاء، حين يرى الرجل المرأة الجميلة يغضُّ بصره عنها، وهكذا فغض البصر أيضًا من الآداب المهمة في المجتمع المسلم.

في مسألة غض البصر قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾، وفي مسألة حفظ الفرج قال: ﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾، ولم يقل: ويحفظوا من فروجهم، لا، إنَّما قال: ﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾، غضّ البصر فيه بحبحة، كما قال: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]، هل معنى هذا أنَّك لا تتكلم؟! لا، تكلم لكن بصوت خفيض.

وبعد الأمر بغض البصر وحفظ الفرج قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، وهي الزينة الظاهرة، أمَّا الزينة الباطنة فلا يجوز إبداؤها إلَّا لبعولتهن، لا يجوز أن يكشف شيء من الزينة الباطنة كالذراع أو الرأس أو الساق أو الرقبة أو النحر لا يجوز أن يُرى إلَّا للزوج أو الأب أو أبو الزوج إلى آخر ما ذكره القرآن، اثنا عشر صنفًا كما في الآية: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١].

رخص القرآن في أن يرى هؤلاء الأصناف الزينة الباطنة، حتَّى لا يُضيِّق على المرأة في البيت، فلا تبقى مخنوقة في بيتها ليل نهار، بحبح

QaradawiBooks.com

الله لها في هؤلاء النَّاس الَّذين يعتبرون محارم، أو الَّذين ليس منهم خطر مثـــل: ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ﴾، واحد يخدمهم طـــول العمر وأصبح معهم وليس له أرَب في النســـاء، رجل كبير في السنّ تابع وليس له إربة، وكذلك: ﴿ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾، الأولاد الَّذين لم تنمُ عندهم المشاعر الجنسيَّة، لم يظهر عنده الشـــعور الجنسي، فإذا نما عنده هذا الشعور وبدأ يتطلع ولو كان عنده عشر سنين تبتعد المرأة عنه.

من مثل هذا يحمي الإســـلام المجتمع، من المغريات، ولذلك هذا السيل من المغريات في مجتمعاتنا كالأغاني العاطفية والرقص والمظاهر الَّتي تدغدغ الغرائز وتثير المشاعر الإنسانيَّة وتثير الشهوات هذا لا يجوز أن يكون في المجتمع المســـلم، لأنَّه كما قلنا: الغريزة الجنســـيَّة غريزة عاتية بطبيعتها وليســـت في حاجة إلى محركات، ليست في حاجة إلى صبّ الزيت على النار، ومن أجل هذا الإســـلام يمنع أن يختليَ الرجلُ بالمرأة، ويمنع المرأة من التبرج، من باب سد الذرائع إلى الفساد.

ترغيب الإسلام في الزواج:

يعالج الإسلام أيضًا هذه القضيَّة بالزواج، وهذا موجود في السورة؛ سورة النور، يقول: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [النـــور: ٣٢]، زوّجـــوا الأيامي، الأيِّم: من لا زوج له، ســـواء كان رجلًا لا امـــرأة له، أو امرأة لا زوج لها، كلٌّ منهما يســـمَّى أيِّمًا، ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ﴾، زوجوا الأيامي، ساعدوهم على الزواج، يسِّروا لهم أمر الزواج.

هل الأمر فـــي قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ﴾، خطـــاب للأولياء من الآباء والأمهات؟ يعني يقول للآباء: زوّج ابنك ولا تؤخره كثيرًا، وزوّج

QaradawiBooks.com

ابنتك ولا تؤخّرها حتَّى تضيع منها الفرصة، متى وجدتَ كفؤًا لها فسارع بتزويجه، هناك بعض النَّاس لا يبالي ولا يهمه أن تبقى ابنته السنين ويُضيِّع عليها الفرص، هذا لا يجوز.

المفروض أن يكون عند الآباء شعور وقلق على ابنته الَّتي جاءها وقت الزواج ولم تتزوج، بعض الآباء يبحث لابنته عن شخص طيب يناسبها، كما يقول الناس: اخطب لابنتك قبل أن تخطب لابنك، وابحث لها عن الرجل الصالح، قد يكون ذلك صاحبك من غير أن يعرف، هذا مطلوب.

فهل الخطاب هنا: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ﴾ للآباء؟ أولياء الشبان والشابات؟ أو هو خطاب لأولي الأمر من الحكام؟ ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾، ساعدوهم بصفتكم أولي الأمر ساعدوا الأيامى على الزواج، سيِّدنا عمر بن عبد العزيز كان يساعد على الزواج، كان كل يوم ينادي المنادي: أين الناكحون؟ يعني الَّذين يريدون النكاح والزواج، أين الغارمون؟ يعني المدينون، أين المساكين[1]؟ يزوج النَّاس حتَّى قال أحد أصحابه: تزوجتُ في عهد عمر وأنفق عليّ من مال الله شهرًا[2]، شهر العسل كما نقول نحن الآن، زوجه وأنفق عليه شهرًا من بيت مال المسلمين، هكذا كان أولياء الأمر من حكام المسلمين.

فالمطلوب أن يساعد المجتمع، ييسِّر الأمور ويزيل العقبات، يساهم في إيجاد شقق للعزاب الَّذين يريدون أن يتزوجوا، ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾، أو هو خطاب للأُمَّة كلها، وهذا معقول أيضًا، لأن الأُمَّة كلها مطالبة بتنفيذ

(١) البداية والنهاية (٦٩٦/١٢)، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر دار هجر للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

(٢) هذه قصة عاصم بن عمر بن الخطاب، لما زوّجه أبوه في أيامه أنفق عليه من بيت المال شهرًا. انظر: البداية والنهاية (١٣١/١٢).

QaradawiBooks.com

أحكام الله بالتضامن، الــكل، الآباء والأمهات والحــكام والمحكومون، والمجتمع كله عليه أن يتضامن في تنفيذ أحكام الشرع، ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾.

ابحث عن الصالح، «**إذا أتاكم مــن ترضون خُلُقه ودينه فزوِّجوه، إلَّا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**»[1].

ابحث عن الصالح لابنتــك، إذا زوَّجت ابنتــك فزوّجها ذا دين إن أحبَّها أكرمها وإن كرهها لــم يظلمها، ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، اليوم فقير غدًا يغنيه الله من فضله، لو أنَّ النَّاس الَّذين ذهبت عندهم لأتزوج منهم قالوا: أنت لا تملك إلَّا مرتبك، ما تزوجتُ، إنَّما يا أخي من كان اليوم في الدرجة السادســة غدًا يكون في الدرجة الخامســة ثمَّ الرابعة وقد يسهِّل الله له ويفتح له بابًا من الأبواب، ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

الناس يقولون فــي المثل: «خذوهم فقراء يغنكــم الله»، وهذا المثل مأخوذ من هذه الآية: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، فعلى النَّاس أن تســهِّل في أمر الزواج، وهذا هــو العلاج الأساســي لقضيَّة الغريزة الجنســيَّة وعلاج قضيَّة التحلل الَّذي يصيب المجتمع، وانتشــار الزنى والفواحش.

أول وسيلة لمقاومته: تيسير الارتباط الحلال، تيسير الزواج، لا يقاوم الحرام إلَّا بتيســير الحلال، وشــر ما يصاب به المجتمع أن يكون أمر

(١) رواه الترمذي (١٠٨٤) موصولًا ومرسلًا ـ وإنَّما يعني بقوله: مرسلًا، انقطاع ما بين ابن عجلان وأبي هريرة ـ وقد رجَّح البخاري المنقطع على المتصــل. وابن ماجه (١٩٦٧)، كلاهما في النكاح، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٠٢٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

الحلال معسرًا ومعقدًا، وأمر الحرام مسـهَّلًا وميسَّرًا، الحلال بينه ألف باب وباب ودونه ألف طريق وطريق، بينما الحرام ميسَّـر ومذلَّل وكأننا نغري النَّاس بالمعصية والعياذ بالله.

نسـأل الله تبارك وتعالى أن يفقهنا في ديننا وأن يعلِّمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علَّمنا إنَّه سميع قريب.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الثاني
دروس من حادثة الإفك

نحن الليلة مع سورة «النور»، والنور هو الله ﷻ، النور المطلق، الله تعالى مصدر النور كله؛ النـــور المادي والنور المعنـــوي، النور الديني والنور الدنيوي، كل الأنوار مـــن الله ﷻ، ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور: ٣٥]، ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

سورة النور ســـورة مدنيَّة، انتهينا من الســـور المكيَّة، وهذه السورة سورة مدنيَّة، لها مذاق السور المدنيَّة، وطعم السور المدنيَّة، وموضوعات السور المدنيَّة، وأسلوب السور المدنيَّة، تُعنى بالأحكام، وتُعنى بتفصيل الآداب وخصوصًا ما يتعلق بالأســـرة المسلمة وبالحفاظ على الأعراض والحُرمات والبيوت.

وســـنقف في هذه الســـورة عنـــد آيات تتعلـــق بما يُعرف فـــي تراثنا الإسلامي بحديث الإفك، بالآيات الَّتي تتعلق بحديث الإفك، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١١].

والإفك هو الكذب المختلَق، أن يفتري الإنسان كَذْبة لا أساس لها، وأكثر من ذلك أن يشـــيع هذه الكَذْبة وينشرها في النَّاس، الكذب مناف للإيمان، ليس من خلق المؤمن أن يكذب، روي في بعض الأحاديث أنَّه

QaradawiBooks.com

قيل لرسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جبانًا؟ فقال: «**نعم**»، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلًا؟ فقال: «**نعم**» ـ لأن هذه أشياء تتعلق بالغرائز والنفوس ـ فقيل له: أيكون المؤمن كذَّابا؟ فقال: «**لا**»[١].

المؤمن لا يكون كذابًا، لا يفتري الكـــذب، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]، هؤلاء هم الَّذيـــن يختلقون الأكاذيب ومثلهم المنافقون، «**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلـــف، وإذا اؤتمن خان**»[٢]. «**أربع من كنّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النفاق حتَّى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[٣]، وفي رواية لمسلم: «**آية المنافق ثلاث، وإن صام وصلى وزعم أنَّه مسلم**»[٤].

ويكون الكذب أشد إثمًا وأعظم خطورة عند الله وعند النَّاس حينما يتناول أعراض النَّاس وحُرمات النَّاس، مثل حديث الإفك الَّذي اختُلقت فيه أكذوبة على الصدّيقة بنت الصدّيق الطاهرة العفيفة المبرّأة عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما وعن أبيها، اختُلق عليها أكذوبة مع صحابي جليل من أطهر النَّاس وأفضلهم صفوان بن المعطَّل السُّلَمِي.

القصة كما حكتها عائشة رضي الله عنها تقول: ذهبتُ مع رسول الله ﷺ في غزوة

---

(١) رواه مالك في الكلام (٣٦٣٠) تحقيق الأعظمي. قال ابـــن عبد البر في التمهيد (٢٥٣/١٦): لا أحفظ هذا الحديث مسندا بهذا اللفظ من وجه ثابت وهو حديث حسن. عن صفوان بن سليم، مرسلًا.

(٢) سبق تخريجه (٨٤/١).

(٣) متّفق عليه: رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، كلاهما في الإيمان، عن عبد الله بن عمرو.

(٤) رواه مسلم في الإيمان (٥٩) (١٠٩)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

المريسيع بالقرب من نجد، وهذه الغزوة كان فيها عدد من المنافقين ومنهم رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، المنافقون ظنُّوا أن هذه الغزوة لن يكون فيها قتال ولن تكون فيها معركة ذات بال فخرجوا مع رسول الله ﷺ، والرسول كان إذا خرج في غزوة من الغزوات أو في سفرة من السفرات أقرع بين نسائه، ومن خرج سهمها خرجت مع رسول الله ﷺ، ففي هذه الغزوة خرج سهم عائشة فخرجت مع النبي ﷺ.

ولما انتهى الجيش من مهمته وأراد أن يعود إلى المدينة في أثناء الإعداد للعودة ذهبت عائشة لقضاء حاجتها البشريَّة في الصحراء، وظنت أنَّ القوم سينتظرونها، وفي عودتها من قضاء شأنها كان معها عقد تعتزُّ به كان عارية أو هدية من أختها أسماء فانفرط العقد منها فأخّرها ذلك، فلمَّا عادت وجدت القوم قد رحلوا، عادة النساء أنهن يجلسن في الهودج الَّذي يوضع فوق الجمل وهو مغلق لا يرى أحد من فيه، فظنَّ القوم أنَّها في هودجها، فحملوا الهودج وأركبوه فوق الناقة أو الجمل، وذلك أنَّ النساء في ذلك الوقت كنَّ خفافا لم يحملن اللحم لأنهنَّ كنَّ يأكلن العلقة من الطعام لقيمات لا يمكن أن تُحدث سمنًا، وعائشة كانت جارية صغيرة حديثة السن خفيفة اللحم فلم يستنكر القوم حين حملوا الهودج أنَّها عائشة ليست فيه، فوضعوا الهودج على الجمل ورحلوا.

فرجعت عائشة فلم تجد أحدًا من القوم، فأصابها من القلق والخوف ما أصابها، فقررت أن ترجع إلى مكانها الَّذي كانت فيه لعلَّ القوم يفقدونها فيرجعون إليها، وكان هناك أحد الصحابة وهو صفوان بن المعطَّل السلمي كان النبي ﷺ قد كلفه بتعقب آثار الجيش لعلَّ أحدًا سقط منه شيء، فجاء صفوان وكان الوقت لا يزال ليلًا فرأى سواد إنسان نائم فلمَّا اقترب من هذا السواد إذ به يجد عائشة أم

QaradawiBooks.com

المؤمنين زوج النبي ﷺ، تقول عائشة رضي الله عنها: فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يُضرب الحجاب علي، في هذا الوقت كان قد فُرض على نساء النبي الحجاب، ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، كانت قد أخذتها سنة من النوم، فلمَّا رآها استرجع، قال: إنَّا لله وإنا إليه راجعون، عائشة زوج النبي ﷺ وحدها؟ كيف تركها الجيش؟! تقول رضي الله عنها: فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتَّى أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها.

وانطلق صفوان يقود الناقة ماشيًا وهي فوق الناقة ليلحق بالقوم، وظل يقود الناقة إلى أن أدرك الجيش في اليوم الثاني في وقت الظهيرة، والقوم لا زالوا غير منتبهين أن عائشة ليست معهم، وإذا بهم يرون صفوان يأتي يقود ناقته وعائشة تركب فوقها، هنالك عبد الله بن أبي رأس النفاق انتهزها فرصة وقال: امرأة نبيكم تخلفت عن الجيش، وجاء بها رجل يقودها، والله ما أراها نجت منه ولا نجا منها.

وظل ابن أبيّ يهمس في أذن النَّاس الَّذين يثق بهم من أتباعه ومن القريبين منه ويشيع هذه الشائعة، وهناك نفوس مريضة ونفوس ضعيفة، حتَّى من نفوس بعض المسلمين الَّذين ليسوا من المنافقين تقبلوا هذا الكلام ولم يكتفوا بقبوله بل أشاعوه وذاعوه، مثل حسان بن ثابت شاعر النبي ﷺ ممَّن كان لهم دورهم في هذه القصَّة، ومثل مسطح بن أثاثة ابن خالة سيِّدنا أبي بكر رضي الله عنه من أقاربه ومن النَّاس الَّذين كان يعطف عليهم ويحسن إليهم، أيضًا لاك لسانه في هذه القضيَّة، ومثل حمنة بنت جحش شقيقة زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ وإحدى ضرائر عائشة، فكأنها

QaradawiBooks.com

تريد أن تخدم أختها بأنَّها تشنِّع عن عائشة لعلَّها تجد أن ذلك يكون في مصلحة أختها، كل واحد له هوى[١].

المهم أنَّهم أشاعوا هذا الكذب، وأخطر من الكذب: إشاعة الكذب وترويجه، ولذلك على الإنسان المؤمن أن يتثبت، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، وفي قراءة ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، التبين والتثبت واجب وخصوصًا فيما يتعلق بأعراض النَّاس.

العرب حتَّى في الجاهليَّة كان أمر العِرض أمرًا يهمهم جدًّا، ولذلك سيِّدنا أبو بكر لما سمع هذا الكلام قال: والله ما رُمِينا به في الجاهليَّة أفنُرمى به في الإسلام[٢]؟! أمر العِرض هذا خطير جدًّا، المؤمن يحافظ على عرضه ويصون حرمته، فإذا أصيب بشيء من هذا كان شيئًا قاسيًا جدًّا عليه، مثل الضرب بالسيوف والطعن بالرماح والرمي بالسهام، كما يقول الشاعر:

أَصُونُ عِرْضِي بِمَالِي لَا أُدَنِّسُه ... لا بارَكَ اللهُ بعدَ العِرْضِ فِي الْمَالِ
أَحْتَالُ لِلمَالِ إِنْ أَوْدَى فَأَجْمَعُه ... ولستُ للعِرْضِ إن أودى بمُحْتَالِ[٣]

الأعراض والحرمات لها أهميَّة كبيرة عند العرب والمسلمين، فكان هذا أمرًا خطيرًا، ولكن بعض المسلمين للأسف قبلوا هذا الكذب، ثمَّ روَّجوه في النَّاس، تسمع الكلام عن فلانة وفلان يروج عند بعض النَّاس،

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢٩٧/٢) وما بعدها، والبداية والنهاية (١٩٣/٦) وما بعدها.

(٢) انظر: من معارك الإسلام الفاصلة (٩٨/٣)، نشر المكتبة السلفية، القاهرة، ط ٣، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

(٣) من شعر الصحابي حسان بن ثابت. انظر: شرح ديوان الحماسة للتبريزي (٢٥٣/٢)، وديوان حسان صـ ١٩٢، شرح عبد مهنَّا، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

يتلذذون بـــه ويعتبرونه فاكهة المجالس، الغيبة والتكلم عن ســـيرة فلان وفلانة، وبعـــض النَّاس لا تبالي أكان هذا حقًّـــا أم باطلًا، بينما الواجب على المؤمن أنَّ المؤمن يتحرى ويتبين ويتثبت ولا يقول كلمة سوء عن مسلم أبدًا إلَّا بعد التحري.

جاء القرآن يؤدب المســـلمين أدبًا بليغًا في هـــذه القضيَّة، نزلت هذه الآيات، ولكن متى نزلت؟ نزلت بعد شهر كامل؛ ثلاثين يومًا، والألسنة تلوك في عِرض الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق عائشـــة رضي الله عنهما، النبي ﷺ لا يستطيع أن يقول شـــيئًا، ليس عنده يقين، هو بشـــر مهمـــا كان، يعتريه ما يعتري البشـــر، وهو زوج تعتريه الغيرة، ســـأل بعض النَّاس الَّذيـــن حوله مثل أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ وابن حبّه ومن أقرب النَّاس إليه، فقال أسامة رضي الله عنه خيرًا في عائشة، وســـأل علي ابن عمه ومكفوله وزوج ابنته، ســـأله في هذه القضيَّة فقال له: يا رسولَ الله إنَّ الله لم يضيِّق عليك النساء غيرها كثير، وسل الجارية تصدقك، إن أحببت أن تتأكد فاسأل الجارية، فهي تعلم من أحوالها ولن تكذب عليك، وفعلًا سأل الجارية فقالت له: والله يا رســـولَ الله ما أعلم عنها إلَّا أنَّها فتاة حديثة السنّ تنام حتَّى تأتي الداجن أي العنزة أو النعجة فتأكل الخبر وهي نائمة[1]، يعني بريئة ساذجة.

أبو بكر ظلَّ يغلي في هذه المدَّة هو وزوجته، والمسلمون يتحدثون، ســـيِّدنا أبو أيُّوب الأنصاري يقول لامرأته: يا أمَّ أيُّوب لو كنتِ في مكان عائشـــة كنتِ تفعلين ما يقوله الناس؟ تقول: معاذَ الله يا أبا أيُّوب، فيقول لها أبو أيُّوب: والله لعائشة خير منكِ، وزوجها خير من زوجك[2].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٦١)، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠)، عن عائشة.
(٢) الكشاف للزمخشري (٢١٨/٣)، ومفاتيح الغيب للرازي (٣٤١/٢٣).

QaradawiBooks.com

ظل مجتمع المدينة شهرًا كاملًا يعيش في هذه المأساة، والنبي ﷺ ينتظر الوحي من ربه، لو كان مُحَمَّد ﷺ صانع الوحي كما يدعي المُنَصِّرون والمختلقون على رسول الله ﷺ لفبرك لنفسه وحيًا وألف كم آية، إنَّما النبي ﷺ لا يملك من أمر الوحي شيئًا، أحيانًا يتأخر الوحي عليه ويبقى ينتظره مدَّة كبيرة، وأحيانًا يسألونه السؤال فلا يجد الجواب حتَّى ينزل الوحي، بل تأخر الوحي عنه مدَّة طويلة وظن أنَّ الله ودَّعه أو كرهه وقلاه، فنزلت فيه سورة الضحى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى: ١ ـ ٥]، ما كرهك ربك وما ودَّعك.

الوحي ليس بيده، النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام: «**ألا تزورنا أكثر ممَّا تزورنا؟**»، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾ [مريم: ٦٤][1].

بعد ثلاثين يومًا نزل الوحي من فوق سبع سماوات ليبرئ عائشة رضي الله عنها، برَّأها الله عزَّ وجلَّ، لما قالت لأبيها: أجب عني رسول الله ﷺ، فيما قال، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأُمِّي: أجيبي عَنِّي رسول الله ﷺ، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ[2].

المصيبة الَّتي نزلت بهم أخرست ألسنتهم، ماذا يقولون أمام هذه المؤامرة الكبيرة المحبوكة؟ فتاة صغيرة لا يمكن أن يخطر ببالها شيء، والرجل الَّذي اتهموه معها صفوان بن المعطَّل يقول: والله ما كشفتُ في

(١) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢١٨)، عن ابن عباس.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٦١)، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠) (٥٦)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

حياتي كنف أنثى قط[١]. الرجل يقول: أنا ما كشفت ستر امرأة غريبة عني. رجل بريء شريف، وامرأة بريئة شريفة عفيفة، فينزل الوحي ليبرئ عائشة ويبرئ الرجل المتّهم معها، ولما نزل القرآن ببراءتها قالت: والله أنا أعلم أنَّ الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحيًا يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله ﷻ فيّ بأمر يُتلى، ولكنِّي كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها[٢].

نزل القرآن ليبرئ عائشة ويبرئ صفوان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١]، هؤلاء الَّذين جاؤوا بهذا الإفك وهذا الكذب المختلَق الَّذي لا أساس له هم عصبة تجمعت للكيد والتآمر على هذا الدين، وعلى الرسول، وعلى بيت هذا الرسول ليلوثوه، والله تعالى يريد لهذا البيت أن يظل طاهرًا، كما خاطب الله نساء النبي في سورة الأحزاب فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١]، يظن بعض النَّاس أن هذه المصيبة شر كبير على الإسلام وعلى الرسول وعلى المؤمنين وعلى المجتمع كله، ولكن الله يقول: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١]، العرب يقولون: ربَّ ضارة نافعة. والصالحون يقولون: كم من منحة في طي المحنة. والحكماء يقولون: إن من الشر ما يأتي بالخير. كما قال الله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

(١) متّفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٥٧)، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠) (٥٧)، عن عائشة.
(٢) جزء من الحديث قبل السابق.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهنا يقول تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١]، لأن الله ﷻ كشف الأمر وبيَّن الحق من الباطل، وبرَّأ أمَّ المؤمنين، وبيَّن باطل المنافقين وكيدهم وتآمرهم، ووضع القواعد التشريعيَّة للمسلمين، ووضع حد القذف فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٤، ٥].

فحافظ على الأعراض بحدِّ القذف وهو ثمانون جلدة، وجعل لهذه الجريمة ثلاث عقوبات، عقوبة بدنيَّة وهي الجلد، ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤]، وعقوبة أدبية وهي إسقاط الشهادة، ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ [النور: ٤]، وعقوبة دينيَّة وهي الرمي بالفسق، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١]، الَّذين اشتركوا في هذه الجريمة كل واحد سيحمل نصيبه من الإثم كبر أم صغر على قدره، الَّذي اختلق له النصيب الأكبر، والَّذي صدَّق له نصيب، والَّذي أشاع له نصيب، والَّذي بالغ في الإشاعة والترويج له نصيب أكبر، ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١]، الَّذي تولَّى التَّبعة الكبرى، تولى معظم هذا الأمر له عذاب عظيم، إشارة إلى عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين، وقوله تعالى: ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١] معناه أنَّه سيموت ـ والعياذ بالله ـ على غير الإسلام، لأن العذاب العظيم في الآخرة لا يكون للمؤمنين، الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦، ٧]، فهذه عقوبة

QaradawiBooks.com

الكفار، فهذا يدل على أنَّ الَّذي تولى كِبْر هذا الأمر هو عبد الله بن أبي بن سلول، وليس حسان بن ثابت كما تزعم بعض الروايات، وليس علي بن أبي طالب كما تختلق بعض الروايات، فهذا كذب على هذا الصحابي العظيم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بل إنَّ الَّذي تولى كبْر هذا الأمر هو عبد الله بن أبي بن سلول، رأس النفاق، ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

ثم قال الله تعالى موجِّهًا المجتمع المسلم لما ينبغي فعله إذا نُقل إليه خبر يتهم أحدًا بسوء، قال الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، كان يجب على المؤمنين بمجرد أن يسمعوا هذا القول السيئ ألَّا يسيئوا الظن بأنفسهم، أخي مثلي هو منِّي وأنا منه فإذا أسأتُ به الظن فكأني أسأتُ الظن بنفسي، ولذلك القرآن يقول: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، أي: لا تلمزوا إخوانكم، فإذا لمزتَ أخاك فكأنَّما لمزتَ نفسك، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، أي: لا تقتلوا إخوانكم، لأنكم إذا قتلتموهم كأنَّما قتلتم أنفسكم، فهنا يقول: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]، بإخوانهم، بمجتمعهم، ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، هذا كذب مختلَق لا دليل عليه واضح الكذب والاختلاق، فكان عليهم أن يراجعوا أنفسهم وضمائرهم أوَّل الأمر، ستكذبهم ضمائرهم فهذا لا يمكن أن يحدث، ثمَّ إن هذا الأمر لا يُقبل بمجرّد الدعوى.

كان على من سمع هذا الإفك أن يظنَّ الخير بالمؤمنين والمؤمنات، وأن يرده ولا يقبله، هذا هو الواجب على من يسمع الإشاعة الباطلة أن يردَّها ولا يفسح لها صدره، ولا يفتح لها سمعه وقلبه، فإنَّ هذا هو الَّذي يشجع المبطلين والهدّامين.

QaradawiBooks.com

جاء رجل إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه يسعى في شأن رجل، يقول: فلان فعل كذا، وفلان فعل كذا، أو قال كذا. فقال: يا هذا، إن كنتَ كاذبًا عاقبناك، وإن كنتَ صادقًا مقتناك؛ لأنَّك نمَّام، وإن شئت أقلناك. قال: أقلني، يا أمير المؤمنين. أي: اتركني[1].

وذهب رجل إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل رحمه الله بمثل هذه السعاية والوشاية، فقال: انظر، فإن كنت كاذبًا عاملناك بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، وإن كنت صادقًا عاملناك بهذه الآية: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ [القلم: ١١]، وإن شئت تبت إلى الله تعالى وعفونا عنك. فقال الرجل: اعف عنِّي يا أمير المؤمنين، وأتوب إلى الله ولا أعود لمثلها أبدًا[2].

هذا ما ينبغي لمن يسمع الكلمة الباطلة، ويسمع إشاعة السوء عن المسلمين الَّذين لا يعلم عنهم إلَّا خيرًا؛ ولذلك يقول القرآن: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ [النور: ١٢]، لا ينبغي أن تُشاع الفاحشة في المجتمع المؤمن، إذا وقعت فاحشة ينبغي أن تُستَر وتُكتم ولا يُذاع أمرها؛ حتَّى لا تُجرِّئ النَّاس على الحرام، وحتَّى لا يفشو الحرام والكلام عن الحرام في المجتمع، فيسمع به مَن لا يسمع، ويخطر على بال مَن لا يخطر بباله.

ينبغي ألا تقع الفاحشة، فإذا وقعت حُصرت في أضيق نطاق، ولا يتحدَّث النَّاس بها، وينتقل هذا من واحد إلى آخر، ومن فلان إلى علان، ومن فلانةٍ إلى علانةٍ، وينتشر الحديث في المجتمع انتشار النّار

(١) إحياء علوم الدين (١٥٧/٣).

(٢) المصدر السابق (١٥٦/٣).

QaradawiBooks.com

في الهشيم بغير علم، لذلك قال القرآن: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

تظنونه أمرًا هينًا وبسيطًا، كلمة وقلتَها وانتهى الأمر. لا، الكلمة هذه تتناول أعراضًا وحرمات، وتسيء إلى أسرة، وإلى مجتمع، تسيء إلى نبي عظيم، تسيء إلى بيته وأسرته الكريمة، هذا الأمر يوحي أن هذا النبي لم يحسن الاختيار، كأن هذا الرسول لم يختر امرأة طيبة وإنَّما اختار امرأة خبيثة، ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦]، كيف هذا؟ كيف أحبها؟ كيف كانت أحب النَّاس إليه وأعزهم لديه؟ فهذا كأنَّه اتهام لرسول الله ﷺ، ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

ثم بينت الآيات أن جريمة الزنى لا تثبت في الإسلام إلَّا بأربعة شهداء، لأنَّها جريمة خطيرة تلوث الأعراض، وتتبرأ منها الأسر، ويحدث منها ما يحدث في المجتمع، ولذلك شدَّد القرآن فيها ما لم يشدِّد في غيرها، اشترط أربعة شهداء، ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور: ١٣]، في القتل يشترط شاهدين فقط، لكن في الزنى اشترط أربعة شهداء، ولن يأتوا، ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤]، من رحمة الله بكم أنَّه لم ينزل عليكم العقوبة بسبب تناول الألسنة لهذا الأمر وإشاعة هذا السوء بغير حق.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤، ١٥].

QaradawiBooks.com

ثم ذكرت الآيات ما الَّذي كان ينبغي، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]، كان ينبغي أن يكون هذا موقفكم، وليس أن تحطبوا في حبال الَّذين يدبّرون هذا الأمر وتسمعون لقولهم، هذا أمر خطير جدًّا أن يشيع النَّاس الأمر مجرد سماعه دون أن تتحرى ودون أن تتثبت وخصوصًا فيما يتعلق بالأعراض.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧]، الله تعالى يحذركم ويعظكم وينبهكم أن تعودوا لمثل هذا الأمر الخطير إن كنتم مؤمنين، المؤمنون لا يمكن أن يروج عندهم مثل هذا، ولا أن يروجوا مثل هذا الأمر في مجتمعهم، ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٨].

خطر إشاعة الفاحشة:

ثم ختم الله هذا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، إشاعة الفاحشة من أخطر الأمراض والجرائم الَّتي يكرهها الإسلام، الَّذين يحبون إشاعة الفاحشة في المجتمع بالفعل أو بالقول، حتَّى مجرد القول، المفروض أنَّ الفاحشة إذا وقعت في المجتمع تموت في مهدها، لا يتحدث النَّاس عنها، يتركونها تموت، لا يشيع النَّاس هذا الأمر.

إنَّ الرجل الَّذي شهد على سيِّدنا ماعز بن مالك رضي الله عنه، وقال للنبيِّ ﷺ: أنا الَّذي قلتُ لماعز يأتي ليشهد على نفسه عندك، فقال له ﷺ: «**لو كنت سترته بثوبك، كان خيرًا لك**»[1]. لأن الإسلام يريد

(١) رواه أحمد (٢١٨٩٠)، وقال مُخَرِّجوه: صحيح لغيره. وأبو داود في الحدود (٤٣٧٧)، والنسائي في الكبرى في الرجم (٧٢٣٤)، عن هزال.

QaradawiBooks.com

الستر في هذه القضيَّة، لا يريد أن تشيع ولا أن تروج بين النَّاس، لا نروجها بالفعل ولا نروجها بمجرد الكلام.

وقول الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، يدل على أن استصغار المعصية والاستهانة بها يجعل الصغيرة كبيرة، ويزيد الكبيرة كِبَرًا، بعض النَّاس يستهينون بالمعاصي، وشر من المعصية أن تستهين بها، جاء في حديث ابن مسعود: «**المؤمن يرى ذنبه كالجبل يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا وهكذا**»[1].

فمن الأشياء الَّتي تجعل الصغيرة كبيرة، وتزيد الكبيرة كبرًا وعظمًا: استصغار المعصية، لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى كبرياء من عصيت.

وبعد أن ذكرت الآيات العقوبة الدينيَّة الدنيويَّة لهؤلاء الَّذين جاؤوا بالإفك ذكرت من ناحية أخرى عقوبتهم الأخروية، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٣ ـ ٢٥].

وهكذا يصون الإسلام بهذه الآيات الأعراض والكرامات، والحرمات.

ثم قال الله ﷻ: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٨)، ومسلم في التوبة (٢٧٤٤).

QaradawiBooks.com

وقوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ...﴾ أي: الكلمات الخبيثات للخبيثين من النَّاس.

فالقول السيِّئ لا يصدر إلَّا عن إنسان سيء، والقول الطيب إنَّما يصدر عن إنسان طيب، ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨]، فالكلمات الخبيثات للخبيثين من النَّاس، والكلمات الطيِّبات للطيبين من النَّاس، لأن أحاديث الإفك عبارة عن كلام سوء انتشر من ناس أهل سوء، فكلامهم أشبه بهم.

الكلام يعبِّر عن صاحبه، وعن نفسية صاحبه، وعمَّا يدور بداخله، هو يقول: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور: ٢٦] الخبيثات ـ كما نقول نحن في اللغة العربيَّة ـ وصف، صفة لموصوف محذوف، فما هو هذا الموصوف؟

يمكن أن نقول: الكلمات الخبيثات ـ كما تقدم ـ لأن المقام مقام الكلام عن حديث الإفك، أي عن الكلمات الَّتي شاعت وانتشرت بالنسبة لهذا الأمر، فيقول: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور: ٢٦]، الكلام الخبيث للإنسان الخبيث، والإنسان الخبيث للكلام الخبيث أيضًا، هذا لذاك، وذاك لهذا، ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦]، أي ممَّا يقول هؤلاء عنهم من الكلمات الخبيثة، هذا أحد التفسيرين، وهو أشهرهما.

والتفسير الآخر هو: أنَّ الطيِّبات والخبيثات أيضًا صفة لموصوف، والموصوف هذا ليست كلمات، وإنَّما النساء والرجال، أي: النساء الخبيثات للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء.

ومعنى هذا أنَّ هذه قاعدة أغلبية، ليس من الضروري أن تكون قاعدة كلية، لأنَّه كما يقولون: كل قاعدة لها شواذُّ. ويقولون: ما من عام إلَّا

QaradawiBooks.com

وخُصِّص منه البعض. وكما يقول الفقهاء: إنَّ الأكثر له حكم الكل، والنادر لا حكم له، فالقرآن يتكلم عن الأغلب، حتَّى النَّاس يقولون في أمثالهم: ما جمَّع إلَّا ما وفق. وقالوا: إنَّ الطيور على أشكالها تقع. والواقع هكذا، الإنسان يبحث دائمًا عمَّا يناسبه، عمَّا يشاكله عادة، فلازم يكون فيه نوع من التناسب، الغالب هذا طبعًا، فكلام القرآن على حسب الغالب.

ولكن ليس معناه أن هذا أمر دائم، وإلا ما ذكر القرآن امرأة فرعون، فرعون هذا الرجل المتألـه المتجبر، الَّذي قال للناس: أنا ربكم الأعلى. والَّذي ذبح أبناء بني إسرائيل، واستحيا نساءهم، وامرأته امرأة فرعون الَّتي ذكر الله عنها أنَّها قالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]، وكانت إحدى كوامل النساء، كما جاء في الحديث الشريف عن النبيِّ ﷺ: «**أفضل نساء الجنَّة أربع: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة ابنة محمَّد، وآسية ابنة مزاحم**»[1].

وأيضًا عندنا امرأة نوح وامرأة لوط، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]، فإذن الكلام عن القاعدة الأغلبية، وإن شذّ عن ذلك بعض الأفراد.

ثم يكمل هذا المعنى الثاني، أنَّه لا يرضى بالخبيثات إلَّا الخبيثون، ولا يرضى بالخبيثين إلَّا الخبيثات، ولا يقبل الطيِّبات إلَّا الطيبون، ولا يقبل الطيبين إلَّا الطيِّبات، فهنا الكلام عن القبول والرضا.

---

(١) رواه أحمد (٢٩٥٧)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح. والنسائي في الكبرى في المناقب (٨٢٩٩)، وابن حبان في مناقب الصحابة (٧٠١٠)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (١١٣٥)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

فهل لو تزوجت امرأة خبيثة رجلًا طيبًا هل تكون راضية عنه؟ ولو تزوج رجل طيب امرأة خبيثة هل يكون راضيًا عنها؟ أو العكس، رجل خبيث تزوج طيبة، أو امرأة طيبة تزوجت رجلًا خبيثًا، هل سيكون هناك رضًا؟ لا شكَّ أنَّه لن يكون هناك رضا.

فالكلام هذا جاء يبين أنَّه لو كانت عائشة بنت أبي بكر الصديق خبيثة ما رضيها مُحَمَّد ﷺ، وما أحبها ولا أثنى عليها، فمثل هذه لا تكون امرأة خبيثة.

إذن معنى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور: ٢٦] هنا أنَّ المرأة الطيبة لو تزوجت أخبث مَنْ خلق الله من الرجال هل تكون راضية عنه؟ لا طبعًا، وكذلك لو أنَّ الرجل الطيب تزوج أخبث مَنْ خلق الله من النساء هل يكون راضيًا عنها؟ طبعا لا، فالطيب لا يرضى إلَّا عن طيب.

كانت عائشة رضي الله عنها أحب أزواج النبي ﷺ إليه، ولم يحبها النبي لمجرد أنَّها كانت حسناء وجميلة، فقد كان عند النبي ﷺ أكثر من زوجة حسناء مثل زينب وصفيَّة وجويرية وكذا رضي الله تعالى عنهن، ولكن عائشة رضي الله عنها كانت من أزكى النساء ومن أنبغ النساء، ولذلك روت عن رسول الله ﷺ أكثر من ألفي حديث، وكانت تفتي الصحابة وتروي أحاديث النبي ﷺ، اعتبرها ابن القيِّم من المكثرات من الفتوى في الصحابة[1]، واستدركت على بعض الصحابة في أحاديث رووها، وألف في ذلك الإمام بدر الدين الزركشي: «الإجابة لما استدركته عائشة على الصحابة»، هكذا ظلَّت عائشة بعد النبيِّ ﷺ تفتي وتروي.

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١٠/١)، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

هذه عائشة رضي الله عنها الَّتي لا زال بعض النَّاس إلى يومنا هذا يفترون عليها، لم يكفهم ما نزل فيها من قرآن، عائشة رضي الله عنها قالت: والله أنا أعلم أنَّ الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحيا يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فيَّ بأمر يُتلى، ولكنِّي كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها[1].

نزلت ببراءة عائشة آيات بينات محكمات، وقرآن يُتلى إلى يوم القيامة، ويُتعبّد بتلاوته، تولى الله سبحانه وتعالى بنفسه الدفاع عنها في كتابه العزيز، في آيات محكمات من سورة النور، من الآية الحادية عشرة إلى الآية السادسة والعشرين من سورة النور، نزلت تدافع عن أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق، عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها، أحب أزواج رسول الله إليه بعد خديجة، وتفصل في القضيَّة، وترد الأمور إلى نصابها، وتخرس كل لسان كذوب، وتبرئ ساحة الصديقة الطاهرة من كل سوء، وتخرج المسلمين من هذه المحنة القاسية المريرة، وتنفي ما أشاعه عنها المنافقون في هذه الحادثة «حادثة الإفك».

نسخة مجانية

(١) سبق تخريجه صـ٤١٢.

QaradawiBooks.com

الدرس الثالث
إقامة المجتمع الطاهر في سورة النور

أسأل الله تبارك وتعالى، أن يجعل هذا المسجد مركز إحياء دينيّ، وبعث إسلامي، لهذا البلد، وأن يجعله الله سببًا لاجتماع أهل الخير، وأهل الدين على كلمة سواء، يقفون جنبًا إلى جنب، في صفّ واحد كالبنيان المرصوص، يشدّ بعضه بعضا، يُعلون كلمة الله، ويرفعون لواء هذا الإسلام، ولله تعالى أسباب يسبّبها، فلعلَّ هذا المسجد يكون سببًا لهذا الخير المرجو، الَّذي ننشده بإذن الله تبارك وتعالى وتيسيره وتوفيقه.

في رحاب سورة النور:

يا أيُّها الإخوة، ما زلنا حيث كنا في المسجد السابق نعيش في رحاب سورة النور، من كتاب الله تبارك وتعالى، وقد وقفنا عند قول الله ﷻ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، صدق الله العظيم، سورة النور سورة مدنيَّة.

QaradawiBooks.com

سورة النور تُعْنى بإقامة مجتمع نظيف طاهر:

سورة النور تُعْنى بإقامة مجتمع نظيف طاهر، بعيد عن الرجس، عن الخنا والزنى، عن التلوث بهذه الأمراض، الَّتي أصيبت بها مجتمعات كثيرة في القديم والحديث، وفتكت بها الشهوات، وفعلت بها الإباحية أفاعيلها حتَّى هلكت في الهالكين، هذه السورة تريد إقامة مجتمع مسلم نظيف بعيد عن هذه القاذورات.

وسائل سورة النور لإقامة المجتمع الطَّاهر:

إقامة الحد:

وقد جعلت السورة وسائل لهذا الأمر، بدأت بإقامة الحد، ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢، ٣]، إلى آخر ما هناك، وليست هذه هي الوسيلة الوحيدة كما يظن بعض النَّاس، بعض النَّاس يتوهم، أنَّ الإسلام يحارب الزنى، ويحارب الفواحش بالعقوبات، بالجلد أو بالرجم، لا، هذا آخر شيء، آخر الدواء الكي، إنَّما قبل ذلك، يعالجه بوسائل أخرى.

التربية الإيمانية:

منها التربية، بل أولها التربية، تربية الإنسان المؤمن، الَّذي يخاف الله تبارك وتعالى ويراقبه في الخلوة والجلوة، في السر والعلن، فهو يخشى الله، ويبتعد عن المعاصي، يغض بصره، ويحصن فرجه، وربَّما تسعى المعصية إليه فيرفضها، ربَّما دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنِّي

QaradawiBooks.com

أخاف الله تعالى، وقال ما قال يوسف عليه السلام حينما راودته امرأة العزيز عن نفسه، وهي امرأة ذات منصب وجمال، وهي مالكته، وهو غلامها وعبدها، وهي تصابحه وتماسيه، وتراوحه وتغاديه، فتنة عظيمة أمامه، وقالت له بصريح العبارة، بعد أن هيّأت الأسباب، وغلقت الأبواب، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، هكذا كان موقفه.

إنَّ تربية الإنسان الَّذي يرفض المعصية، ويتعفف عن الفاحشة وإن أُتيحت له، في غفلة من النَّاس، ومن أعين الرقباء، هذه هي الوسيلة الأولى، هي الَّتي رأيناها في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

كل ما يخاطب به الرجال يخاطب به النساء:

والمعروف في القرآن، أن كل ما يُخاطب به الرجال يُخاطب به النساء، فإذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، كان هذا خطابًا للرجال وللنساء، ولكن القرآن هنا في سورة النور لم يكتف بمخاطبة الرجال وحدهم، والمؤمنين وحدهم، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، ثمَّ عطف على ذلك بالآية الَّتي تلوناها: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ

QaradawiBooks.com

﴿أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

الحكمة في تخصيص النساء بالذكر:

لماذا خص النساء بالذكر؟ وكان يكفي هنا أن يدخلوا مع المؤمنين، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾، هذا يشمل الرجال والنساء، أراد الله ﷻ، أن يوجه هذا النداء للمرأة المؤمنة، خاصَّة أنَّ النساء في هذه القضيَّة بالذات أهم، المرأة مصدر الإغراء، وسبب الإغواء، وهي الفتنة الَّتي تمشي على الأرض، والرجل ضعيف أمامها، خاصَّة أنَّ الناحية الجنسيَّة غريزة عاتية، بعض المفسرين فسر قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، أي: ضعيفًا أمام المرأة، وأمام الجنس، ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾.

من دوافع السلوك الإنساني:

وبعض علماء النفس، يجعلون الغريزة الجنسيَّة وحدها هي محور السلوك الإنساني، وهي الدافع الأوحد لسلوك النَّاس، في مدرسة التحليل النفسي، مثل فرويد وجماعته، ولكن ورغم اعترافنا بعتو هذه الغريزة في سلوك الإنسان، لا نقول إنَّها وحدها الَّتي تسيّر الإنسان، لا، هناك دوافع اقتصاديَّة، وهناك دوافع اجتماعيَّة، وهناك دوافع أخلاقيَّة، وهناك دوافع دينيَّة، وهناك دوافع كثيرة، تؤثر في سلوك الإنسان، ومن الخطأ تمييز دافع وحده وإعطاؤه الأولوية، أو الأوحدية دون غيره من الدوافع، ولذلك نحن نعتبر ونعترف بقوَّة هذا الدافع وبقوة هذه الغريزة، ومن أجل ذلك، أراد الله ﷻ أن يحمي الإنسان من هذا، لماذا يحميه، لم يُحرم عليه

QaradawiBooks.com

الاستمتاع بالجنس، لا، لم يجعل مجرد الاستمتاع الجنسي خطيئة، كما تنظر إلى ذلك بعض الأديان، وبعض المذاهب الفلسفية، كلَّا، إنَّما اعتبر أن هناك حلالًا وحرامًا، فحرَّم السفاح، وشرع النكاح، حرَّم تصريف هذه الطاقة في غير موطنها المشروع في سفاح، إنَّما أراد أن يكون لها طريق معين، هو طريق الزواج الَّذي تتكون به الأسرة، الإنسان يكوّن أسرة، عن طريق الأبوَّة والأمومة والبنوة والأخوة، ولا يأتي ذلك إلَّا عن طريق الزواج، ولكي يتم هذا الزواج الحلال، عوَّق طريق الحرام، وسد طريق الحرام، فلكي تفتح الطريق إلى الحلال، لا بدَّ أن تسد طريق الحرام، ومن أجل ذلك كانت هذه الاحتياطات كلها، وكان أمرُ المؤمنين بأن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم، وأمر المؤمنات خاصَّة أن يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهنَّ، وزاد على ذلك أوامر خاصَّة للنساء لم يقلها للرجال، للرجال قال: يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم، وللمرأة قال: يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن.

ما معنى ما ظهر منها؟

ثم قال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ المرأة تملك ما لا يملك الرجل، إنَّها تستطيع أن تغري الرجال بزينتها، سواء كانت هذه الزينة زينة طبيعيَّة، أو زينة مكتسبة، فالإنسان يمكن أن يُغرَى بهذه الزينة، ولذلك أُمرت المرأة ألَّا تبدي زينتها، إلَّا ما ظهر منها، لا يبدين زينتهن إلَّا ما ظهر منها، وما هو هذا الَّذي ظهر منه؟ ما معنى ما ظهر منها؟

هناك من المفسرين من مفسري السلف من تشدَّد وقال: ما ظهر منها الثياب ونحو ذلك، أو ما ظهر منها بحكم الضرورة، مثل أنَّ الريح تكشف شيئًا من ثيابها أو نحو ذلك، قالوا: إنَّ المرأة عليها أن تغطّي كل

QaradawiBooks.com

جسمها، وأخذ بذلك أيضًا بعض المذاهب، ورواية في هذا للإمام أحمد، وأخذ بذلك بعض المشددين في عصرنا، ولكن جمهور المفسرين والفقهاء منذ عهد الصحابة قالوا: ما ظهر منها هو الوجه والكفَّان وما فيهما من زينة، مثل: الكحل والخاتم، جاء ذلك عن ترجمان القرآن ابن عبَّاس رضي الله عنهما[١]، وجاء ذلك عن عائشة رضي الله عنها[٢]، وجاء ذلك عن أنس بن مالك رضي الله عنه[٣]، وجاء ذلك عن سعيد بن جبير[٤]، وجاء ذلك عن غيره من التابعين[٥]، ورجَّح ذلك شيوخ المفسرين وكبارهم، إلَّا ما ظهر منها الوجه والكفان، وقالوا: بأنَّ المرأة في حاجة للأخذ والعطاء، والبيع والشراء، والمشي في الطريق، والذهاب إلى المسجد، وغير ذلك، وهي في حاجة إلى أن ترى الطريق، وأن تعرف الأمور.

ولذلك فهي في حاجة إلى أن تكشف وجهها، وهي في حاجة إلى أن تكشف يديها أيضًا؛ لأن في أمرها بغطاء هذين تعسيرًا عليها، ولم يجعل الله في هذا الدين شيئًا من العسر، بل أراد الله به اليسر، ولم يرد به العسر، وما جعل فيه من حرج.

ولهذا قالوا: إنَّ المرأة لم تُؤمر في الصلاة أن تغطي وجهها، ولم تؤمر في الحج أن تُغطي وجهها، بل بالعكس، أُمرت في الحج ألَّا تنتقب، النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**ولا تنتقب المرأة المحرمة، ولا تلبس القفازين**»[٦]، لا تنتقب يعني: لا تلبس النقاب أو البرقع؛ لأنَّها لو فعلت غير ذلك تكون قد ارتكبت

(١) سبق تخريجه صـ٣٩٨.
(٢) سبق تخريجه صـ٣٩٨.
(٣) سبق تخريجه صـ٣٩٨.
(٤) سبق تخريجه صـ٣٩٨.
(٥) سبق تخريجه صـ٣٩٨.
(٦) رواه البخاري في الحج (١٨٣٨)، عن ابن عمر.

نسخة مجانية غير قابلة للطباعة
QaradawiBooks.com

محظورًا من محظورات الإحرام، فهذا الَّذي كان لها حلالًا من قبل، أصبح واجبًا عليها في الحج، تيسيرًا عليها. تستطيع أن تمشي وتذهب.

فإذا كان في العبادة لم تؤمر بتغطية الوجه والكفين، فكيف تؤمر في الحياة العادية، ولذلك جاء في حديث مرسل، أن أسماء بنت أبي بكر، ذات النطاقين، رضي الله عنها، أخت عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها، دخلت على النبيِّ ﷺ بثوب شفاف، فقال لها: «**يا أسماء إذا بلغت المرأة المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلَّا هذا وهذا**» وأشار إلى وجهه وكفيه[1]، إنَّ المرأة إذا بلغت المحيض لم يَحل أن يُرى منها إلَّا هذا وهذا، وأشار إلى الوجه والكفين.

والحديث وإن كان فيه ضعف، فقد قوّته أدلَّة وأحاديث أخرى ذكرها ابن حزم وغيره، مثل حديث المرأة الخثعمية، الَّتي كان ينظر إليها الفضل بن العباس رضي الله عنهما في الحج، ففي الحديث: كان الفضل رديف رسول الله ﷺ، فجاءت امرأة من خثعم، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، وجعل النبي ﷺ، يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر، فقالت: يا رسولَ الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخًا كبيرًا، لا يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: «**نعم**»[2]. قال: ولوى عنق الفضل، فقال له العباس: يا رسولَ الله، ما لك لويت عنق ابن عمك؟ قال: «**رأيت شابًّا وشابة فخفت الشيطان عليهما**»[3].

---

(١) رواه أبو داود في اللباس (٤١٠٤)، وقال: هذا مرسل، خالد بن دريك لم يدرك عائشة. والبيهقي في الصلاة (٢٢٦/٢)، وقال: مع هذا المرسل قول من مضى من الصحابة رضى الله تعالى عنهم، في بيان ما أباح الله من الزينة الظاهرة، فصار القول بذلك قويًّا. وحسَّنه الألباني في غاية المرام (١٨٧)، عن عائشة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٥١٣)، ومسلم (١٣٣٤)، كلاهما في الحج، عن ابن عباس.

(٣) رواه أحمد (٥٦٢)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده حسن. والترمذي في الحج (٨٨٥)، وقال: حديث حسن صحيح. عن على بن أبي طالب.

QaradawiBooks.com

التفت الفضل بن العباس إلى الفتاة بقوة، فلفت النبي ﷺ عنقه، وقال: خشيت الشيطان عليهما، وهذا كان في مِنى.

وهناك أيضًا أحاديث منها: فقامت امرأة سفعاء الخدين، كما في جابر بن عبد الله، قال: شهدت مع رسول الله ﷺ الصلاة يوم العيد، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة، بغير أذان ولا إقامة، ثمَّ قام متوكئًا على بلال، فأمر بتقوى الله، وحث على طاعته، ووعظ النَّاس وذكرهم، ثمَّ مضى حتَّى أتى النساء، فوعظهن وذكرهن، فقال: «**تصدقن، فإن أكثركن حطب جهنم**»، فقامت امرأة من سطة النساء سفعاء الخدين»[1]، الراوي يروي، فقامت امرأة سفعاء الخدين تقول: كذا..، فكيف عرف أنَّها سفعاء الخدين، دليل على أن وجهها كان مكشوفًا، ويوجد الكثير من الأدلَّة، تدل على أنَّ النساء لم يكنَّ يغطّين الوجوه ولا الكفين في عهد النبي ﷺ، إلَّا إذا كان أمهات المؤمنين رضي الله عنهن فلهن وضع خاص.

ترجيح المراد بما ظهر منها:

ولذلك نحن نرجِّح ما رجَّحه جمهور المفسرين والفقهاء، من أنَّ المراد بما ظهر منها الوجه والكفان، وحسبنا هذا. هناك بعض إخواننا الَّذين يتشددون في هذه القضيَّة، أنا أقول لهم: يا إخواننا، المعركة الآن لم تعد معركة الوجه والكفين، المعركة الآن معركة كشف الشعور، وكشف النحور والصدور، بل كشف الظهور، وكشف الساقين، والملابس الحديثة الَّتي يقولون عليها: العصرية، الموضة، «المِنِي جب»، و«المِيكرُوجب»، والأشياء الَّتي من هذا النوع، الَّتي نسمع عنها والَّتي

(١) رواه مسلم في صلاة العيدين (٨٨٥)، وأحمد (١٤٤٢٠).

QaradawiBooks.com

أُغري بها للأسف بعض نسائنا، وبعض بناتنا، الآن معركتنا مع هؤلاء، وليست معركتنا مع الفتاة الَّتي تلبس الثياب الشرعيَّة، ولكنَّها لا تغطي وجهها وكفيها.

ومعنى الثياب الشرعيَّة: أنَّها تغطي الجسم كله ما عدا الوجه والكفين، وهو ما ظهر منها، وتغطيه بما لا يشف ولا يصف، ما لا يشف ولا يصف، يعني لا تلبس شيئًا شفافًا، فيه بعض الثياب شفافة يظهر الجسم من ورائها، ملابس زجاجية.

غير مرخصة للطباعة

التحذير من التبرج:

وقد دخلت امرأة على عائشة رضي الله عنها تلبس شيئًا من هذا، فأنكرت عليها، وقالت: لم تؤمن بسورة النور امرأةٌ تلبس هذا[1]، فلا بدَّ أنَّه من يلبس شيئًا لا يشف ولا يصف، ولا يصف أي: لا يحدِّد مفاتن الجسم، بصورة تلفت الانتباه وتثير غرائز الرجال، ولذلك الملابس المحددة تبرز مفاتن الجسم بشكل شديد، وهذه مرفوضة، وهذه أولى ما ينطبق عليه الحديث الصحيح في صحيح مسلم، عن أبي هُرَيْرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**صنفان من أهل النَّار لم أرهما: قومٌ معهم سياطٌ كأذناب البقر يضربون بها النَّاس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البُخْت المائلة، لا يدخلن الجنَّة، ولا يجدْنَ رِيحَها، وإنَّ رِيحَها ليوجد من مسيرة كذا وكذا**»[2]، كاسيات عاريات، كان شُرّاح الحديث يتحيَّرون، كيف تكون المرأة كاسية عارية في الوقت نفسه، رأينا الآن هذا، كاسية

نسخة مجانية

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (١٨٢/٦) لسنن سعيد بن منصور، وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٤٤/١٤).

(٢) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢١٢٨)، وأحمد (٨٦٦٥)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

ولكن كل محاسن جسمها بيِّنة مثيرة، هذه هي الكاسية العارية، فمثل هؤلاء لا يدخلن الجنَّة ولا يجدن ريحها.

ومعنى هذا أنَّ مثل هذه الأمور كالكبائر، بعض النَّاس للأسف كتب مرَّة في مجلة من المجلات، وقال: مسألة اللبس والزِّي والطويل والقصير مسألة بسيطة، لأنَّها من صغائر الذنوب، الَّتي تكفِّرها الصلاة والصيام ونحو ذلك، ونسي أن هذه من الكبائر، لأن هذا حديث صحيح يجعل من فعل ذلك من أهل النار، صنفان من أهل النَّار لم أرهما، ثمَّ يَحْرِم من فعل ذلك من أن يشمّ رائحة الجنَّة، لا يدخلن الجنَّة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا، وقد ورد في الحديث الصحيح أن ريح الجنَّة يوجد من مسيرة خمسمائة عام، ونصُّه «**من ادعى إلى غير أبيه لم يرح ريح الجنَّة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام**»[1]، يعني ما أبعد هؤلاء من الجنَّة، فمن هنا كان التزام اللباس الإسلامي، والزيّ الشرعي واجبًا على المرأة المسلمة، ولذلك تحترم نفسها، ولا تكون سببًا في فتنة لغيرها، لا تكون فتنة لغيرها من الرجال، لماذا؟ لأنَّنا بذلك نصون المجتمع، ونصون المرأة نفسها، لأن الرجال إذا وجدوا الحرام ميسرًا، ماذا تكون النتيجة؟ ومعنى هذا، أنَّ الرجل إذا وجد الحرام لن يبحث عن الحلال، كما يحدث للأسف في كثير من البلاد الآن، لأن الحرام والمتعة المحرَّمة ميسَّرة وسهلة، ولها سماسرة كثيرون في بلاد كثيرة، مجرد أن ينزل الشاب من الطائرة، هناك الَّذين يختطفونه، ويُيسِّرون له أماكن الحرام، ماذا ستكون النتيجة؟ نتيجة

(١) رواه ابن ماجه في الحدود (٢٦١١)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١١٧/٣، ١١٨): إسناده صحيح لأن محمد بن الصباح وهو أبو جعفر الجرجاني التاجر قال فيه ابن معين: لا بأس به، وقال أبو حاتم: صالح الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات، وباقي رجال الإسناد لا يسأل عن حالهم لشهرتهم. عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

هذا، سيبتعد عن الزواج ويكتفي بالحرام، حتَّى لو تزوج، وبعض المتزوجين لا يكتفي بامرأته الحلال وإنَّما يريد أن يبحث عن أخرى وأخرى، ما دام قد ذاق الحرام فإنَّه لا يشبع، الحرام في الواقع كلَّما ازداد الإنسان منه شُربًا ازداد عطشًا، ولذلك كان هناك بعض النَّاس في وقت من الأوقات يقولون: إنَّ التزود في هذه القضايا يزيدها تعقيدًا، بحبحها شوية.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

حِلّ إبداء الزينة لهؤلاء:

فلا حرج على المرأة في إبداء زينتها ﴿لِبُعُولَتِهِنَّ﴾، يعني لزوجها، ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾، أي لوالدها، ﴿أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾، أي لوالد زوجها، ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ﴾، أي لأبنائها، ﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾، أي لأبناء زوجها، لأنَّها محرمة عليهم ومحرمون عليها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]، ولا حرج على المرأة أيضًا في إبداء زينتها لإخوتها، كما قال تعالى: ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾، سواء كانوا إخوانًا أشقاء، أو إخوانًا لأب، أو إخوانًا لأم، حتَّى الأخوة من الرضاعة، ﴿أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾، أبناء الإخوة، ابن الأخ بالنسبة لعمته، ﴿أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾، لأنَّها خالة لهم.

QaradawiBooks.com

ما المقصود بنسائهن؟

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾، نسائهن هنا أي: المسلمات، كما ورد عن الصحابة رضوان الله عليهم[١]، والتابعين[٢]، قالوا: المشركات لسن من نسائهن، الكافرات لسن من نسائهن، وبلغ عمر أن بعض النساء يدخلن الحمامات في بلاد الشام، فكتب إلى أبي عبيدة رضي الله عنه: بلغني أن بعض نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الكتاب، فمرهن ألَّا يفعلن ذلك، فإنَّه لا يجوز لامرأة أن تبدي عورتها إلَّا لأهل ملتها[٣]، يقصد ما دون السرة والركبة، ولذلك اعتبرت غير المسلمة مثل الرجل، هذا للأسف يتساهل فيه كثير من النَّاس، حتَّى جاء عن مكحول وعن بعض السلف: أنَّهم كانوا يكرهون أن تطبب المسلمةَ اليهوديةُ أو النصرانيَّةُ أو المجوسية[٤].

النهي عن وصف الزوجة لامرأة أخرى أمام زوجها:

وقالوا أيضًا: إنَّ من الخطأ أنَّ المرأة غير المسلمة إذا نظرت إلى نحر المرأة المسلمة أو أي من مفاتن جسمها، يُخشى من أن تصف ذلك لزوجها أو أخيها، فالمسلمة لا تفعل ذلك، لأن دينها يمنعها من ذلك، تعلم أن هذا حرَّمه الله، فلا يجوز أن تُنعت امرأةٌ أمام رجل، النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن ذلك فقال: «**لا تباشر المرأة المرأة، فتنعتها لزوجها كأنَّه ينظر إليها**»[٥]، إنَّ المرأة عندما تنعت امرأة لرجل كأنَّه يراها، فهذا محرم، تظل تصف له فيها، لأنَّه أحيانًا يغري إنسانًا، أو يفتح أمامه أفقًا للحرام كان

(١) عزاه ابن كثير في تفسيره (٤٧/٦) إلى عبد بن حميد في تفسيره عن ابن عباس.
(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٤٤١٥، ١٤٤١٦)، عن سعيد بن جبير ومجاهد.
(٣) رواه البيهقي في النكاح (٩٥/٧).
(٤) رواه الطبري في تفسيره (١٦٠/١٩).
(٥) رواه البخاري في النكاح (٥٢٤٠)، ابن مسعود.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غافلًا عنه، المسلمة تمتنع من هذا لأنَّها تعلم أنَّه حرام، أمَّا غير المسلمة ما الَّذي يمنعها، لا دين يمنعها ولا شرع حرَّم عليها هذا، فلذلك ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ معناها النساء المسلمات.

﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾، يعني جواريهن ولو كنَّ مشركات، ما دُمن ممَّا ملكت أيمانهنّ، هذا لأن ملك اليمين الجواري والخدم من هؤلاء لهن صفة خاصَّة، صفة الملازمة، ملك اليمين هذا، كانوا يسمونهم من قديم، الإماء أو الجواري، تلازم سيدتها طول عمرها، فلو ضُيّق عليهن في ذلك، كان في ذلك تشديد، فكونها تشعر بأنَّها سيدتها، هذا يخفف الأمر، فيجعلها لا يمكن أن تصفها للغير، أو تبوح بسرها، أو تفشي أمرها، وهذا معنى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾، وبعض العلماء أراد أن يجعل «أو ما ملكت أيمانهن» للرجال وللنساء، ولكن الجمهور على أن هذا للمرأة فقط، ولذلك كان سيد التابعين سعيد بن المسيب يقول: لا تغرنكم سورة النور فإنَّها في الإناث دون الذكور[1]. أو ما ملكت أيمانهن، لا يعني أنَّ المرأة تتساهل مع عبدها وغلامها، بتأويل ما ملكت أيمانهن، لا، ما ملكت أيمانهن للإناث وليس للذكور، أي للإناث وليس للعبيد، أو ما ملكت أيمانهن.

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾، أي: من كان من الأُجراء والأتباع والخدم، ممَّن لا أَرَب له في النساء، يعني هنا شرطان: أن يكون من أتباع البيت، الَّذين يعيشون فيه، أجيرًا خادمًا طاهيًا، واحدًا من هؤلاء، والشرط الثاني: أن يكون لا أَرَب له في النساء، لشيخوخة أو لعجز أو لمرض أو لعته أو لبلاهة، ولشيء من هذا، فلا يكن شابًّا قويًّا كما يتساهل

(١) رواه ابن أبي شيبة في النكاح (١٧١٨١، ١٧٥٦١).

QaradawiBooks.com

بعض النَّاس في الخدام والسائقين والطباخين، وغير هؤلاء، لا، لا بدَّ أن يكون من التابعين غير أولي الإربة، لا حاجة له ولا همّة له إلى النساء، يكون هذا معروفًا ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾، الأطفال الصغار الَّذين لم ينمُ فيهم الشعور الجنسي، أي: الطفل حينما لا تقوى شهوته بحيث يميز المرأة المُشتهاة من غيرها، ولا يثيره جسم المرأة، ولا يفكر في الناحية الجنسيَّة، وهذا يختلف من صبيّ لآخر، لأن بعض الأولاد ينمون بسرعة وبقوة، ويمكن أن يكون دون البلوغ، ولكنَّه مع هذا، بدأ يفكر في هذه الأمور، وبدأ يشتهي، فيجب أن نكون على بيِّنة مَن الطفل الَّذي يظهر على عورات النساء، ومَن الَّذي لا يظهر على عورات النساء، مَن الَّذي يهتم بهذه الأمور ومَن الَّذي لا يهتم بها، فإذا كان بالغًا أو مراهقًا أو قريبًا من المراهقة، وبدأ يظهر عليه الاهتمام بهذا الأمر، فينبغي أن تحتجب منه المرأة، ولا تُبدي له زينتها، المباح لهم بإبداء الزينة الأطفال الَّذين لم يظهروا على عورات النساء.

هذه الأصناف ليسوا كلهم في درجة واحدة:

هؤلاء الأصناف الاثنا عشر، استثناهم الله تعالى من عموم الآية الكريمة، لأنَّهم المخالطون للمرأة، وطبعًا ليسوا كلهم في درجة واحدة، لا، الزوج كما قلنا مباح له زوجته، «**احفظْ عورتك إلَّا من زوجتك**»[1]، فالزوج مباح له كل شيء، الأب ليس كغيره كأب البعل ـ الزوج ـ والابن ليس كابن البعل، ﴿أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾، فليس معنى هذا أن يكونوا جميعًا في منزلة واحدة ودرجة واحدة، يعني ممكن أن يرى ابنها مثلًا منها الصدر والذراع والساقين ومثل هذه الأشياء، مثل اللبس

(١) سبق تخريجه (٨٣١/١).

QaradawiBooks.com

والخلع بما لا يظهر الَّذي بين السرة والركبة، أمَّا ابن الزوج يجب أن تتحفظ هنا، فلا تعامل هذا كذاك، والمسلمة بفطرتها وبفقهها تعرف هذا من ذاك، وخاصَّة إذا كان هناك تقارب في السن.

كثيرًا ما يحدث من إنسان يكون كبيرًا ويتزوج فتاة صغيرة وتكون في سنّ ابنه، هنا ينبغي ألا نضعهم في مثل هذه المفاتن، وقد ذكر العلماء قاعدتين مهمتين جدًّا.

القاعدة الأولى: أنَّ كل ممنوع في هذه القضايا يباح عند الضرورة، فيمكن للمرأة أن تبدي زينتها للطبيب، حتَّى ولو كان الطبيب غير مسلم، إذا لم يكن هناك طبيب غيره للضرورة، عند الولادة، المفروض أنَّ المرأة لا تبيح للمرأة أن ترى عورتها، ولكن في الولادة هذا أمر اضطراري، فهذه القواعد عند الضرورة، الضرورات تبيح المحظورات.

القاعدة الثانية: أنَّ كل مباح هنا يُمنع عند خوف الفتنة، المباح يمنع عند خوف الفتنة، يعني إذا كان ابن الزوج هذا فيه خشية على امرأة أبيه، فلا داعي أن يختليا ببعضهما لمدد طويلة، ففي هذه الحالات عند خوف الفتنة سدّ الذرائع أولى، حتَّى قالوا في علاقة الشخص وخلوته مع حماته.

والفقهاء قالوا: لو كان زوج الابنة في سن صغير، والحماة في سنّه أو قريبة من سنّه، فقد يحدث أيّ شيء، ورغم أنَّها حماته ومحرَّمة عليه، حتَّى قبل أن يدخل بابنتها، ولكن يكون قد عقد، فالعقد على البنات يحرم الأمهات، وهي في منزلة أمه، إذا خاف الفتنة يجب الابتعاد، ولذلك يجب أن نفرق بين هذه الأصناف بعضها وبعض، ونذكر هاتين القاعدتين: أن كل مباح يُمنع عند خوف الفتنة، وكما ورد في المثل:

QaradawiBooks.com

«الباب الَّذي يأتي إليك منه الريح سدّه واسترح»، وكل محظور يُباح عند الضرورة، وبقدر الضرورة، والضرورة تقدر بقدرها.

وختم الله هذه الآيــة الكريمة بقولــه: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وختامًا نســأل الله تعالى أن يفقهنا في ديننا، وأن يقينا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يجعلنا من الَّذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الرابع

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾

نقف في هذه الليلة مع قول الله ﷻ:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٣٥].

هذه الآية آية النور، الَّتي من أجلها سُميت سورة النور بهذا الاسم، هذه الآية الكريمة لو أردنا أن نسهب ونفصل في تفسيرها لطال بنا المقام، ولكنَّنا نشير إشارات توضح المراد من هذه الآية الكريمة.

تبدأ هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، الله ﷻ هو نور السماوات والأرض، به سبحانه خرجت السماوات والأرض من العدم إلى الوجود، ولولاه سبحانه لبقيت في ظلمة العدم الصِرف، والفناء المحض، فالله تعالى هو نور السماوات والأرض، أي: منورهما وموجدهما وخالقهما، فلولا نور الله لبقيت الظلمة دائمة، فالنور لا يُرى ولكن تُرى به الأشياء.

والله ﷻ أراد أن يضرب لنا مثلًا بنوره في قلب المؤمن ـ كما قال

QaradawiBooks.com

ابن عبَّاس رضي الله عنه [١] ـ فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾، في قلب العبد ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، المشكاة هي الكُوَّة الَّتي يكون فيها المصباح، والكُوَّة ـ الفجوة تكون داخل الجدار وهي ما يعرف بـ «الطاقة»، والَّتي عوِّض عنها في عصرنا ما يعرف بـ «الرف»، والآن المصباح الكهربائي يعلق بالسقف.

المهم أنَّ المشكاة فيها مصباح، ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ﴾، هذه الزجاجة من صفائها وبياضها ونقائها ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾، إشراقًا ولمعانًا كلمعان الكوكب الدري في السماء.

ثم إنَّ الزيت الَّذي يُوقد منه هذا المصباح زيت ليس ككل الزيوت، وإنَّما هو زيت صاف نقي، ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، زُرعت زراعة خاصَّة، لا شرقيَّة ولا غربيَّة، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، هذا الزيت لصفائه ونقائه يكاد يضيء بذاته ولو لم تمسسه نار، يكاد يتوهج من نفسه بدون نار.

فالزيت صاف، والزجاجة صافية، والمصباح صاف، اجتمعت لهذا النور أسباب ومضاعفات عديدة تجعله نورًا متميزًا، نورًا صافيًا، نورًا خالصًا، تم له النصوع والصفاء والإشراق.

هكذا نور الله في قلب كل مؤمن، إنَّه نور اجتمع فيه نور الفطرة، ونور الإيمان، ونور الوحي، ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، أنوار بعضها على بعض، اجتمعت في قلب المؤمن، فازداد لهذا نور المؤمن وتضاعف، وأصبحت الأمور أمامه واضحة، وأصبحت السبل أمامه مرئية، ليس فيها التباس ولا اشتباه، بينما تلتبس الطرق على الآخرين.

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٨٢/١٩).

QaradawiBooks.com

فالنور الَّذي وضعه الله في قلب المؤمن ليس شيئًا واحدًا، بل هو نور فوق نور، نور الفطرة أولًا، ثمَّ جاءه نور الوحي فازداد إشـــراقًا وضياء، والله تعالى هو مصدر هذا النور، وهو واهبه ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

فهذا المثل ضربه الله ﷻ للناس، ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، هذه إشـــارة إلى المعنى الَّذي ترمي إليه هذه الآية الكريمة من كتاب الله ﷻ.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

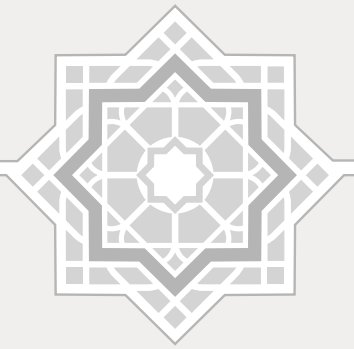
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



دروس في تفسير

سورة الفرقان

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

صفات عباد الرحمن

نحن نعيش في رحاب القرآن الكريم في هذا الشهر الكريم المبارك الَّذي أكرم الله به هــذه الأُمَّة وأنزل فيه القرآن هــدى للنَّاس وبينات من الهدى والفرقان، وفرض فيه الصيام وشرع فيه القيام، شرع لنا قيام الليل لنتعبد لله تبارك وتعالى بتلاوة كتابه والتضرع إليه.

من أعظم العبادات الَّتي يتعبد بها المسلمون نعمة التدبر في هذا القرآن الكريم، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

لوحات قرآنيَّة لنماذج بشريَّة:

نحن نتوقف هنا عند آيات ختمت بها ســورة الفرقــان المكيَّة، هذه الآيات تعرض لنــا لوحة قرآنيَّة لهــؤلاء الَّذين ســمَّاهم الله تعالى عباد الرحمن، ومــا أكثر اللوحات القرآنيَّــة الَّتي تصوِّر لنا النماذج البشــريَّة المثاليَّة الَّتي يحبُّها الله تعالى من عباده.

لوحات شتَّى في صور شتَّى، من أوَّل البقرة لوحة المتَّقين: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٣ ـ ٥].

QaradawiBooks.com

في أوائل سورة الأنفال لوحة المؤمنين: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

في سورة الرعد لوحة أولي الألباب: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۞ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۞ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٠ ـ ٢٢].

لوحة المؤمنين في سورة «المؤمنون»: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢ ـ ١١].

لوحة المحسنين في سورة الذاريات: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۞ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٩].

لوحة الأبرار في سورة الإنسان: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۞ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۞ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ٧ ـ ١٠].

لوحات قرآنيَّة تصور هذه النماذج البشريَّة الَّتي اكتملت إيمانيًّا، واكتملت أخلاقيًّا، واكتملت عقليًّا وسلوكيًّا، وهنا في هذه السورة سورة الفرقان يرسم الله لنا هذه اللوحة لعباد الرحمن.

QaradawiBooks.com

طبعًا هناك عبيد لأشـياء كثيرة، هناك ناس عبَّدوا أنفسهم للشيطان، وناس عبَّـدوا أنفسـهم للمال للدرهـم والدينار، كما جـاء في حديث البخاري: «**تعس عبد الدينـار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**»[1].

وهناك من عبَّدوا أنفسهم للكاس والطاس، وهناك من عبَّدوا أنفسهم للمرأة، وهناك من عبَّدوا أنفسهم للشـهوات، هناك عبيد كثيرون لأشياء شـتَّى، ولكن هؤلاء كلهم لا قيمة لهم ولا وزن لهم وهم حطب جهنم والعياذ بالله، المعوَّل عليهم هم هؤلاء الَّذين هم عباد الرحمن، ليس عبادًا لأي طاغوت من الطواغيت، ولا صنم من الأصنام، ولا لأي مخلوق من المخاليق، إنَّهم عباد الرحمن تبارك وتعالى.

اختار الله لفظة الرحمن لما تُوحي به من الرحمة الواسعة الَّتي وسعت كل شيء، وسعت الدُّنْيا والآخرة، وسعت المؤمن والكافر، وسعت البَرَّ والفاجر، فهم عبيد لهـذا الرحمن، هذا الرحمن الَّـذي لم يعرف قدره المشـركون حينما قيل لهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠]، لا يعرفون من هو الرحمن، هكذا قالت السورة قبيل هذه الآيات، فذكر الله عباد الرحمن الَّذين يعرفون مقام الرحمن ويقدرون قدر الرحمن.

عباد الرحمن هؤلاء لهم صفات تميزهم، من ينظر لهذه الصفات يجد فيها صفات إنسـانيَّة، وصفات ربَّانية، يجد فيها أخلاقًـا فرديَّة وأخلاقًا اجتماعيَّة، يجد وصـف حالهم بالنهار ووصف حالهـم بالليل، وصف حالهم في أنفسهم ووصف حالهم مع غيرهم.

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٦، ٢٨٨٧)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا:

أول ما بدأت هـذه الأوصاف قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

قد يقول قائل: أوَّل وصفة لعباد الرحمن أنَّهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، لم يقل الله تعالى عن عباد الرحمن أنَّهم صوَّام أو قوَّام أو كذا أو كذا، ولكن ذكر أنَّهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾؟ نعم ذكر الله هذه الصفة لأن لهذه الصفة دلالة كبيرة، إنَّها تعبير عن الشـخصيَّة، تعرف شخصيَّة الإنسان من مشيته.

الشـخص المغرور المتكبر المختال في نفسه المسـتعلي على غيره يظهر ذلك في مشيته، أمَّا الشخص الوقور المتواضع المعتز بالله وبإيمانه وليس بدنيا أو جاه أو مال أو أولاد هذا تراه في مشيته هينًا لينًا متواضعًا، الله تعالى قال في سـورة الإسـراء في الوصايا المعروفة بوصايا الحكمة ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسـراء: ٣٩]، قال في هذه الوصايا: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، مهما ضربـت برجلك في الأرض، لـن تخـرق الأرض، ومهما تمطيتَ وتماديتَ وارتفعتَ برأسك، لن تبلغ الجبال طولًا.

ولَا تَمْشِ فوقَ الأرضِ إلَّا تواضعًا فكـم تَحْتَها قومٌ همو منـك أَرْفَعُ[1]

الأرض هذه ضمت أناسًا كما قال أبو العلاء المَعَرِّي في قصيدته:

صَاحِ هَذِي قُبُـورُنَـا تَمْلَأُ الرَّحْـ ـبَ فأينَ القبورُ مِـنْ عَهْدِ عَـادِ؟
خَفِّـفِ الوَطْأَ ما أظُـنُّ أديـمَ الـ أَرْضِ إلَّا مـن هـذه الأجسـادِ

(١) الأدب والمروءة صـ ٣٤.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

سرْ إن استطعتَ في الهواءِ رُوَيْدًا لَا اخْتِيَـالًا علـى رُفَـاتِ العِبَادِ
فقبيـحٌ بنـا، وإن قـدم العهـد هَـوان الآبـاء والأجـدادِ[1]

ما تدري الأرض الَّتي تمشـي عليها لعلَّها من أجسـاد أناس قبلك، فلماذا يمشي الإنسـان على الأرض مرحًا وبطرًا وأشرًا واستكبارًا؟ لا، الواجب على الإنسان أن يمشـي على الأرض هونًا كما قال لقمان لابنه في موعظته: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمـان: ١٨، ١٩]، امـش المشـي القصـد المعتدل، ليس معنى أن تمشي هونًا أن تمشي متماوتًا كأنك مريض، لا، كان النبي يمشـي متواضعًا، ولكن كان كأنَّما ينحـدر من صبب، وكان يجهد من وراءه وهو غير مكترث كأنَّما تطوى الأرض له، كما قال سيِّدنا أبو هُرَيْرة رضي الله عنه: وما رأيت أحدًا أسرع في مشيته من رسول الله ﷺ، كأنَّما الأرض تطوى له، إنَّا لنجهد أنفسنا، وإنَّه لغير مكترث[2].

فامشِ بقـوَّة ولكن فـي تواضـع وسـكينة، ويـروى أن عمر بن الخطاب رحمه الله نظر إلى رجل مظهر للنسك متماوت، فخفقه بالدرة، وقال: لا تُمت علينا ديننا، أماتك الله[3].

رأت أم المؤمنين عائشة قومًا يمشون متماوتين فسألت: من هؤلاء؟ فقيل لها: هؤلاء النُّسَّـاك، فقالت: كان عمر إذا مشـى أسـرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وكان هو الناسك حقًّا[4].

---

(١) سقط الزند صـ ٧.

(٢) رواه أحمد (٨٩٤٣)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده حسـن. والترمذي في المناقب (٣٦٤٨)، وقال: حديث غريب. وابن حبان في التاريخ (٦٣٠٩).

(٣) الكامل في اللغة والأدب (١٢٢/٢)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار الفكر، بيروت، ط ٣، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

(٤) مدارج السالكين (٥١٧/١).

QaradawiBooks.com

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، قال رسول الله ﷺ: «**من تعظَّم في نفسه، أو اختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان**»(١).

فعباد الرحمن أوَّل ما يظهر من أخلاقهم هو هذا الخلق، التواضع للناس، ﴿يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾.

الصفة الثانية: وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا:

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، لا يقابلون السيِّئة بالسيِّئة، الأعمار أغلى عندهم من أن تضيع في المهاترات مع النَّاس، أن يسبّ من سبَّه ويشتم من شتمه ويعمل معارك كل يوم، الدُّنْيا لا تستحق هذا كله، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، لا يقابل السفهاء بمثل سفههم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، هذا يطفئ النار، بدل أن يقابل الكلمة بكلمة ويرد على الصاع بصاعين.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، هذا حالهم في نهارهم، فماذا يكون حالهم في ليلهم؟

الصفة الثالثة: يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا:

يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٤]، في النهار لا يقابلون السيِّئة بالسيِّئة، بل يعفون ويصفحون، ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وفي الليل هم مع الله، ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٤]، ساجدين، فأفضل حالة يكون عليها الإنسان

(١) رواه أحمد (٥٩٩٥)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح. والبخاري في الأدب المفرد (٥٤٩)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٥٤٣)، عن عبد الله بن عمر.

QaradawiBooks.com

هي حالة الصلاة، وأفضل ما يكون في حالة الصلاة حالة السجود، قال النبي ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**»[1].

حينما يضع رأسه على الأرض، حيث يطأ النَّاس الأرض هو يضع رأسه، لمن؟ لله وحده، العبوديَّة لله هي عين الحريَّة، هي عين السيادة، أن تكون عبدًا لله معناه أن تكون سيدًا في هذا الكون، وأبرز مظهر للعبوديَّة هو السجود، ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، أحيانًا ساجدون وأحيانًا يقومون يتلون كتاب الله ﷻ.

الصلاة هي قيام وقعود وركوع وسجود وتلاوة وذكر، فهم ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ [الفرقان: ٦٤]، المهم أن يكون هذا لربهم، تكون عبادته لله، وصلاته لله، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، لا يفعل هذا ليقول النَّاس عنه: هذا رجل عابد، من مثله يقوم الليل ويصوم النهار؟ لا، لا بدَّ أن تكون نيتك لله، أن تبيتَ ساجدًا وقائمًا لله وليس لشيء آخر، ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، كما وصف الله المحسنين في سورة الذاريات فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨] ووصف المؤمنين في سورة السجدة، فقال: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤ ـ ٦٦]، يبيتون في هذه الطاعة في قيام الليل يُنيرون ظلام الليل بهذه الطاعة لله ﷻ ومع هذا يخافون من عذاب الله، هذا شأن المؤمنين

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأحمد (٩٤٦١)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

دائمًا، يرجون رحمتــه ويخافون عذابــه، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ هذا شــأن المؤمــن ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، لا تغره طاعته، لا يقول أنا وصلتُ، من مثلــي؟ لا، دائمًا المؤمن يعمل الصالحات ويقول أخاف ألَّا تُقبل مني، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنــون: ٦٠]، يصلــي ويصــوم ويتصــدَّق ويعمل الصالحات ويخاف ألَّا يُقبل هذا منه، بخلاف المنافق فإنَّه يعمل السيئات ويقول: أطمع أن تغفر لي.

الصفة الرابعة: دعاؤهم: رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ:

فلذلك عباد الرحمن يدعون الله في سجودهم وقيامهم: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقــان: ٦٥، ٦٦]، يخافون من عذاب النار، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقــرة: ٢٠١]، دائمًــا جهنم نصب أعينهم، يخافون أن تمسَّــهم النار، لا يتَّكلون علــى أعمالهم أبدًا، لأنَّه ليس المهم أن تعمل ولكن المهم أن تُقبل، بعض الصالحين بكى عند موته، فقالوا له: ألســتَ أنت الَّذي صليت وصمت النهار وقمت الليل وتصدقت وعلَّمــت النَّاس وعملت كذا وعملت كــذا؟! فقال لهم: وما يدريني أن شــيئًا من هذا قد قبله الله؟ والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

فهذا ســرُّ إقبال هؤلاء النَّاس عباد الرحمن علــى الله ودعوتهم لله أن يصرف عنهم عذاب جهنَّم، كأنَّ جهنم تريدهم وتقصدهم وتلاحقهم، فهم يجأرون إلى ربهم في دعائهم في قيامهم وســجودهم أن يصرفها عنهم، ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقــان: ٦٥]، لأنَّ

QaradawiBooks.com

جهنم محيطة بالناس، ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ كلنا سنمرُّ على جهنَّم، ثمَّ هناك ناس يُطرحون فيها والعياذ بالله، وناس ينجون منها ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]، كان غرامًا أي: ملازمًا ودائمًا لأصحابها، ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦]، وأيّ سوء أسوء من عذاب جهنَّم والعياذ بالله؟ وجهنم ليس فقط فيها العذاب المادي الحسّي، بل فيها أيضًا العذاب المعنويّ الأدبي، فيها الحجاب عن الله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فيها الإهانة من الله: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فجهنم فيها عذاب حسّي وعذاب أدبيّ، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

الصفة الخامسة: إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا:

ثم ذكر الله ﷻ شأن عباد الرحمن في أموالهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، فعباد الرحمن ليسوا ناسًا فقراء معدمين، لا يملكون شيئًا، لا، بل يمكن أن يكون عندهم أموال، قد يكونون من الأغنياء، كما وصف الله روَّاد بيوته بقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧]، فهم رجال لهم تجارة، ولهم بيع، ولهم «business» كما يقولون، ولكنَّهم مع هذا هم من عشَّاق بيوت الله.

QaradawiBooks.com

فعباد الرحمن قد يكون عندهم أمـــوال، ولكن كيف يتصرَّفون في أموالهم؟ فقال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧]، الوسطيَّة والاعتدال شأنهم في حياتهم، فهم لا يبخلون على أنفسهم ولا على أهليهم مثل بعض الأشحَّاء يكون عنده المال ويَحرِم نفســه ويَحرِم أولادَه، فعبــاد الرحمن لا يبخلون، وكذلك لا يُبذِّرون الأموال ويصرفونها في الحرام، فالتبذير: النفقة في الحرام ولو كانت قليلة، ولا يُسرفون، والإسراف: النفقة في المباح أكثر ممَّا ينبغي، أي: لا يتوســعون أكثــر من الــلازم، والله تعالى يريد من المؤمنين ألَّا يتوســعوا أكثر من اللازم ولا يبخل على نفسه ولا على أهله، الله تعالى يقــول: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، فلا يتوسع أكثر من غيره وخصوصًا إذا كان المجتمع من حوله هناك من لا يجد القوت، لماذا تتوسع وغيرك من حولك لا يجد اللقمة الَّتي يأكلها، لا يجد الثوب الَّذي يســتره، لا يجد البيت الَّذي يســكنه، لا يجد الدواء الَّذي يعالجه، وأنت تُبعثــر المال ذات اليمين وذات الشمال.

علم عمر بــن عبد العزيز أنَّ أحد أقاربه وكان من الأثرياء أنَّه اشــترى خاتمًا فصه بألف درهم، فأرســل إليه عمر يقول له: بلغني أنَّك اشــتريتَ خاتمًا فصه بألف درهم، فإذا بلغك كتابي هذا فبعه وأطعم بثمنه ألف جائع واشتر خاتمًا فصه من حديد واكتب عليه: رحم الله امرأً عرف قدر نفسه[1].

فعباد الرحمن لا يسرفون ولا يقتُرون، هم وسط، وخير الأمور الوسط دائمًا، كما قــال الله تعالــى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ كناية عن

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٨٩/١٠).

QaradawiBooks.com

الشـــح والبخـــل ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ كناية عن الإســـراف والتبذير ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

الصفـة السادسـة: ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾:

ثم وصف الله هؤلاء العباد من الناحية الســلبية من ناحية المعاصي والكبائر فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨]، يجتنبون كبائر المعاصي، وأكبر الكبائر هـــو الشـــرك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

الصفتـان السـابعة والثامنـة: لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَـرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ:

وبعد ذلك القتل، قتل النفس الَّتي حـــرَّم الله إلاَّ بالحق، أكبر الكبائر بعد الشـــرك هو قتل الأنفس، وبعـــد القتل الزنى، يعنـــي الاعتداء على الدين، ثمَّ الاعتداء على النفس، ثمَّ الاعتداء على النسب والعِرض.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۞ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧١].

من مزايا أهل الإيمان أنَّ الله أعطاهم ممحاة يمحو لهم بها المعاصي إذا وقعت وهي التوبة النصوح الَّتي تغسل الإنسان من الذنب كما يغسل

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

الماء الجسم من الدرن والوسخ، ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧٠، ٧١].

الصفة التاسعة: لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ:

أيضًا من أخلاق عباد الرحمن أنَّهم لا يشهدون الزور: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢]، ما معنى لا يشهدون الزور؟ هل يشهدون هنا من الشهادة؟ أم من الشهود؟ تحتمل هذا وتحتمل هذا.

إذا كان ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢] من الشهادة، فالمعنى أنَّهم لا يشهدون الزور أي: لا يشهدون شهادة الزور، لا يشهدون على أحد زورًا، لأن شهادة الزور من أكبر الكبائر كما جاء في الحديث الصحيح: «**ألا أنبِّئكم بأكبر الكبائر؟**» ثلاثًا، قالوا: بلى يا رسولَ الله، قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**»، وجلس وكان متكئًا فقال: «**ألا وقول الزور**»، قال: فما زال يُكَرِّرها حتَّى قلنا: ليته سكت[(١)].

والقرآن قرن شهادة الزور بعبادة الأوثان، قال الله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقال رسول الله ﷺ: «**عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله**» ثلاث مرار، ثمَّ قرأ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۞ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١][(٢)].

عباد الرحمن لا يشهدون الزور ولا يقولون الزور، ولا يشهدون على

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٥٤)، ومسلم في الإيمان (٨٧)، عن أبي بكرة.
(٢) سبق تخريجه (٦٤٥/١).

QaradawiBooks.com

أحد زورًا وكذبًا أبدًا، وإنَّما يشـــهدون بالحق، لا يكتمون الشهادة، وإذا أدوْها أدوها على وجهها.

وإذا كان ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢] من الشهود، فالمعنى أنَّهم لا يشـــهدون الزور أي: لا يحضرون الزور، لا يحضرون هذه المشـــاهد الزور، مشاهد الخمر، مشاهد الميسر، مشاهد اللهو واللعب المحرم.

عباد الرحمن لا يشـــاركون في هذه الأشـــياء، ولذلك بعضهم قال: لا يحضرون أعياد المشركين، لا يحضرون مجالس اللهو والطرب، لأنَّها ليست فقط مجرد مجالس غناء بل كانت دائمًا تقترن بجارية لعوب تغني والخمر موجودة، كما ورد في بعض الأحاديث: يشربون الخمر ويسمُّونها بغير اسمها تضرب على رؤوســـهم القيان والمعازف، قال ﷺ: «**ليشربنَّ ناس مـــن أُمَّتي الخمر يســـمُّونها بغير اســـمها، يُعْزَف على رؤوســـهم بالمعازف والمغنيات**»[1].

فهم لا يشهدون هذه المشاهد، ولا يشهدون أيضًا مشاهد يسبُّ فيها الإسلام، أو يُســـتهزأ فيها بآيات الله، أي مجلس من هذا النوع يتنزهون عنه، ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النســـاء: ١٤٠]، فهم لا يشـــهدون الزور، لا يشـــاركون في مثل هذه المجالس، لو كانت هناك مجالس غِيبة وناس يتكلمـــون ويقعون في عرض فلان وفلانة فإن عباد الرحمن لا يجلسون معهم لأنَّهم ســـيكونون شركاء في الإثم، عباد الرحمن لا يشاركون في أي إثم من هذه الآثام.

---

(١) رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠٢٠)، وابن حبان في التاريخ (٦٧٥٨)، وقال الأرناؤوط: إســـناده ضعيف. وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٤٧)، عن أبي مالك الأشعري.

QaradawiBooks.com

الصفة العاشرة: إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا:

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٢]، لا يقفون عند هذا اللغو ولا يمكثون فيه؛ لأن أوقاتِهم ثمينة. لماذا يُضيِّعون أوقاتهم في اللغو؟! الوقت الَّذي تضيِّعه في اللغو يمكن أن تستثمره في عمل صالح، يمكن أن تستثمره في ذكر الله ﷻ، تسبيحة في صحيفة مؤمن خير من هذا اللغو كله، فلماذا يضيِّع وقته في اللغو؟ يمر باللغو مر الكرام، ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وصف الله جماعة من المؤمنين فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

الصفة الحادية عشرة: إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا:

ثم قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ [الفرقان: ٧٣]، عباد الرحمن إذا ذُكروا بآيات الله وقرئ عليهم القرآن تأثروا به، تأثرت عقولهم بالقرآن، تأثرت قلوبهم بالقرآن، فعمل القرآن في قلوبهم فدمعت عيونهم وخشعت قلوبهم، كما وصف الله بعض عباده فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]، ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ [مريم: ٥٨]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ۞ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ۞ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩]، ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

QaradawiBooks.com

عباد الرحمن يتفاعلون مع القرآن، ليسوا كالمشركين الَّذين إذا سمعوا القرآن خروا عليه صمًّا وعميانًا، كأنَّما ليس عندهم آذان تسمع ولا أعين ترى، صم عن الحق، عميان عن الحق، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، لأنَّهم خرَّبوا هذه الأجهزة الَّتي يستطيعون بها أن يعرفوا الحق لو أرادوا ولكنَّهم دمَّروا هذه الأجهزة في داخلهم فلم يعودوا يستفيدون منها، عباد الرحمن ليسوا كذلك، أجهزتهم حساسة وسليمة وواعية، أجهزة تستقبل القرآن إذا سمعته أو إذا قرأته، إذا ذُكِّروا بآيات ربهم ذُكِّروا، وليسوا كالمشركين الَّذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم خرُّوا عليها صمًّا وعميانًا.

عباد الرحمن ﴿إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، معناه أنَّهم إذا ذُكِّروا بآيات ربهم تذكَّروا، ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

الصفة الثانية عشرة: دعاؤهم بصلاح الأزواج والذريَّة والإمامة في الدين:

ثم وصف الله عباد الرحمن الوصف الأخير فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، يعني أن عباد الرحمن ليس همهم في أنفسهم، لا يكتفون بأنَّهم يمشون متواضعين، ويحلمون على من جهل عليهم، ولا يكتفون بأنَّهم يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا، ولا يكتفون بأنَّهم لا يدعون مع الله إلٰه

QaradawiBooks.com

آخر، ولا يقتلون النفس الَّتي حرم الله إلَّا بالحق، ولا يزنون، ولا يكتفون بأنَّهم لا يشهدون الزور، ولا يكتفون بأنَّهم يتفاعلون مع آيات الله وليسوا كالمشركين الَّذين يخرون لآيات الله صمًّا وعميانًا، لا يكتفون بهذا، فهم مع كونهم صالحين في أنفسهم هم يريدون كذلك إصلاح غيرهم.

وأول من يريدون صلاحه أهلوهم وأزواجهم وذرياتهم، ولذلك فهم حِراص كل الحرص على هداية الأزواج والذريَّة، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، تقر أعيننا بأولادنا، ومتى تقر أعينهم بأولادهم؟ إذا وجدوهم صالحين مطيعين لله متَّبعين لرسول الله، مهتمين بأمر الدين، ليس همهم فقط أن يكون أولادهم أصحاء في الجسم، لهم مسحة من جمال الوجه، نجباء في الدراسة ومتفوقين في العلم، هذا لا يكفي، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

ما يهم أن يكون ابنك يكون الأوَّل على أقرانه في كثير من المجالات ولكنَّه لا يصلي ولا يعرف الدين، ولا يعرف المسجد، ولا يعرف الآخرة، معناه أنَّه يكون في النهاية من أهل النار، من يسره أن يكون ولده وفلذة كبده من أهل النار؟ ولذلك كانت قرة أعينهم أن يروا ذريتهم صالحة، الابن الصالح ينفع في الدُّنْيا وفي الآخرة، ينفع نفسه وينفع أهله، لأن من الأشياء الَّتي تنفع الإنسان بعد موته ولد صالح يدعو له، كما قال النبي ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلَّا من ثلاثة: إلَّا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[1].

الابن الصالح ينفع والديه أحياء وأمواتًا، لأنَّه سيقول: رب اغفر لي ولوالدي، سيقول: ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]، سيقول:

(١) رواه مسلم في الوصية (١٦٣١)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ [الأحقاف: ١٥]، ويمتد صلاح عباد الرحمن وينتقل من الآباء إلى الأبناء ومن الأبناء إلى الأحفاد.

الإمامة في التَّقوى:

﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، اجعلنا أئمَّة في الخير يُقتدى بنا، اجعلنا رؤوسًا في الخير، هناك رؤوس في الشر وهناك رؤوس في الخير، هناك أئمَّة يهدون إلى الخير وأئمَّة يدعون إلى النار، كما قال الله عن فرعون وملئه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١]، المسلم لا يريد أن يكون من الأئمَّة الداعين إلى النَّار ولكن يريد أن يكون من الأئمَّة الداعين إلى الخير، عباد الرحمن يريدون أن يكونوا أئمَّة للمتقين.

جزاء عباد الرحمن:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الفرقان: ٧٥]، جزاؤهم الجنَّة بصبرهم على هذه الأعمال الصالحات، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢]، صبروا على الطاعات، صبروا عن المعاصي، صبروا على مشاقّ ومصاعب الدعوة إلى الله، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ تحلوا بأنواع الصبر، فالصبر هو باب الجنة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، تحيتهم في الجنَّة السلام، سلام من الملائكة: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وسلام من الله تعالى،

QaradawiBooks.com

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، لا يسمع أهل الجنَّة في الجنَّة إلَّا السلام، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۞ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢].

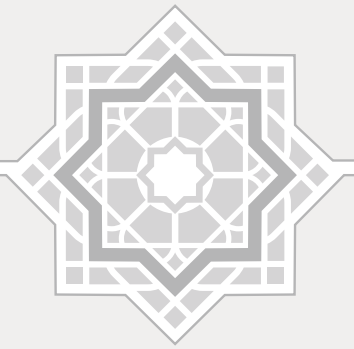
﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦]، هؤلاء هم عباد الرحمن الَّذين جلَّى الله ﷻ لنا صفاتهم وأخلاقهم الربَّانية والإنسانيَّة والدينيَّة والدنيويَّة، أخلاقهم الفرديَّة والاجتماعيَّة، أخلاقهم في أنفسهم، وأخلاقهم مع غيرهم، مع ربهم ومع النَّاس، وحالهم في أموالهم وفي حياتهم كلها.

* * *

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



دروس في تفسير

سورة الشعراء



QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الأوَّل

﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۞ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۞ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۞ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ۞ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ۞ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ۞ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۞ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۞ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۞ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۞ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۞ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۞ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۞ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۞ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ۞ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ۞ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٨ ـ ٢٢٦]

نقف في هذه الليلة مع سورة الشعراء، هذه السورة المكيَّة، سورة الشعراء من السور الَّتي عُنيت بقصص القرآن الكريم، كما عُنيت بذلك سورة الأعراف وسورة هود وسورة يونس وغيرها من السور، ولكنَّها لها أسلوب خاص، ونفَس خاصّ، وإيقاع خاص، منهج متفرد ومتميز.

هذه السورة ذات الآيات القصيرة، أطول سورة في القرآن بعد سورة البقرة بالنسبة لعدد الآيات، فسورة البقرة عدد آياتها: مائتان وست وثمانون آية، أمَّا سورة الشعراء فعدد آياتها: مائتان وسبع عشرون آية.

وتعرض لنا قصص الأنبياء والرسل مع أقوامهم، تعرضها لنا في صورة مقاطع معيّنة متشابهة ومتقاربة، ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥]،

QaradawiBooks.com

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠]، ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦].

تبدأ القصص ببيان تكذيب هؤلاء القوم لرسلهم، أنَّهم كذّبوا المرسلين، الله بعث الرسل بالبيّنات، بعث معهم الآيات الدالة على صدقهم، كل رسول معه من الآيات ما يبيّن أنَّه على الحق، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥]، أيًّا كانت هذه البيّنات.. معجزة حسيَّة، سيرة ذاتيَّة، دلائل عامَّة اجتماعيَّة أخلاقيَّة تدل على أنَّه رسول من عند الله، ومع هذا كذّبوا المرسلين.

تكذيب نبيّ واحد تكذيب بجميع الأنبياء:

يلاحظ هنا أنَّ السورة تقول: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠]، ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦]، إنَّهم كذّبوا رسولا واحدا، كذَّبوا نبيَّهم الَّذي أُرسل إليهم، لا سيما قوم نوح، فإنَّ نوحًا عليه السلام هو أوَّل النَّبيين وشيخ المرسلين، وذلك أن من كذّب رسولًا فكأنَّما كذّب سائر المرسلين جميعًا؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول، ولا نبي ونبي.

نحن لأنَّنا آمنا بمحمد ﷺ رسولًا، فنحن نؤمن بجميع رسل الله، ولا يتم إيماننا ولا يصح إسلامنا إلَّا إذا آمنا بكل كتاب أُنزل، وبكل نبي أُرسل، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وعاب القرآن على اليهود وعلى النَّصارى وعلى هؤلاء الَّذين يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ

QaradawiBooks.com

وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

وامتدح الَّذين آمنوا بالله ورسله فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٢].

ووجه اليهود والنَّصارى إلى الإيمان بالله ورسله فقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [النساء: ١٧١].

نحن المسلمين نؤمن بكل الرسل، نؤمن بكل كتاب أُنزل، وبكل نبي أُرسل، ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ [الشورى: ١٥].

ولذلك حكوا أنَّ أحد العلماء كان ناقشه أحدهم فقال له: مَن يدخل الجنة؟ النَّصارى أم اليهود أم المسلمون؟ فقال له: لو قال الله تعالى يوم القيامة لليهود: ادخلوا الجنّة وراء موسى فسيدخلها المسلمون، لأنَّهم يؤمنون بموسى، ولو قال الله للنصارى: ادخلوا الجنّة وراء عيسى فسيدخلها المسلمون، لأنَّهم يؤمنون بعيسى، ولكن لو قال الله للمسلمين: ادخلوا الجنّة وراء مُحَمَّد فلن يدخل اليهود ولا النَّصارى لأنَّهم لا يؤمنون بمحمد، فنحن المسلمين داخلوها إن شاء الله.

ثم يعرض القرآن دعوة رسلهم لهم، فيعرضها بهذا اللفظ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ [الشعراء: ١٠٥، ١٠٦]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴾ [الشعراء: ١٢٣، ١٢٤]، ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ ﴾ [الشعراء: ١٤١، ١٤٢]، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ ﴾ [الشعراء: ١٦٠، ١٦١]، ولم يخالف ذلك إلَّا في قصَّة أصحاب الأيكة، فنلاحظ أنَّ

QaradawiBooks.com

السورة قالت: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧]، لم يقل: قال لهم أخوهم شعيب؛ وذلك لأن شعيبًا عليه السلام لم يكن من أصحاب الأيكة، وإنَّما كان من مدين، كما قال القرآن في سور الأعراف وهود والعنكبوت: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥].

الأخوة القوميَّة بين الأنبياء وأقوامهم:

لكن كيف تكون بين الرسل وبين أقوامهم أخوة؟! بعض الإخوة المتشددين سمعوني أقول: إخواننا الأقباط. فتعجبوا وقالوا: كيف يقول الشيخ القرضاوي عن الأقباط إخواننا وهم ليسوا مسلمين؟! نحن مسلمون وهم نصارى؟! فكيف يكونون إخواننا؟! فقلتُ لهم: الأقباط أو النَّصارى إخوان لنا في الوطن، هم شركاء لنا في الوطن، هم إخواننا في الإنسانيَّة؛ لأنا نحن جميعًا أبناء رجل واحد هو آدم وأم واحدة هي حواء، فنحن مشتركون في البنوَّة لأب واحد وأم واحدة، كما قال القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، ونحن وهم مشتركون في العبوديَّة لرب واحد، كما أشار إلى ذلك الحديث: «**أيُّها النَّاس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد**»[(١)]، «**كلكم لآدم وآدم من تراب**»[(٢)].

---

(١) رواه أحمد (٢٣٤٨٩)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٦٢٢): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح. عن من سمع خطبة النبي ﷺ.

(٢) رواه أحمد (٨٧٣٦)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الأدب (٥١١٦)، والترمذي في المناقب (٣٩٥٥)، وقال: حديث حسن. عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

فأثبت القرآن هنا في سورة الشعراء الأخوة بين هؤلاء الرسل وبين قومهم الَّذين وصفهم بالتكذيب، كذّبوا ومع هذا أثبت الأخوة؛ لأنَّهم من أقوامهم، فهم جزء منهم؛ فالأخوة القوميَّة ثابتة لهم، فلا ينبغي أن نتشنج في ذكر هذه الأوصاف الَّتي تُقرِّب المسلمين من غيرهم.

فالأخوة هنا أخوة قوميَّة، إنَّه من جنسهم، من هؤلاء القوم، هم إخوان في الوطنيَّة، هم مواطنون مثل نوح وقومه، وهود وقومه، وصالح وقومه، هو أخوهم؛ لأنَّه منهم.

غير مرخصة للطباعة

رسالة الأنبياء واحدة:

سورة الشعراء حدَّثتْنا عن عدد من الأنبياء ابتداء من موسى ثمَّ إبراهيم ثمَّ نوح، وهؤلاء كلهم من أولي العزم من الرسل، وحدثتنا عن هود وصالح ولوط وشعيب، حدثت عن هؤلاء في سورة واحدة، بيّنت لنا أن غاية الأنبياء واحدة، وأن منهج الأنبياء واحد، وأن رسالتهم واحدة، كلهم دعاة إلى عقيدة واحدة، وإلى طريق واحد، فنجد القرآن يقول عن نوح: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥ ـ ١٠٩].

وكذلك قال هود لقومه، وكذلك قال صالح لقومه، وكذلك قال لوط لقومه، وكذلك قال شُعَيْب لأصحاب الأيكة، كلهم يدعون إلى أمرين مشتركين:

الأمر الأوَّل: توحيد الله وتقواه، هذا أمر عام للجميع، كل نبي منهم قال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، جاء يدعو إلى تقوى الله وطاعته، لم يقل: «اتقونِ»، التَّقوى لله، إنَّما الطاعة لله وللرسول، لأنَّه مبلّغ عن الله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، إنَّك إذا أطعت الرسول فقد أطعت

QaradawiBooks.com

المرسِل؛ الرسول لا يتحدَّث عن نفسه، وإنَّما يتحدَّث عن ربه، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]، ليس رسولنا مُحَمَّد فقط، كل الرسل جاؤوا ليبلِّغوا عن الله، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله.

الرسل جميعًا دعوا إلى تقوى الله، وطاعة رسوله الَّذي جاء بالمنهج الإلٰهي، فهم جاؤوا بهذا ولا يطلبون من ورائه من أحد جزاءً ولا شكورا، ولا يسألون أحدًا أجرًا، كل رسول منهم يقول: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، ويقول: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧]، أي: أنا مرسل إليكم بأمانة لا بدَّ أن أؤديها لكم، ولذلك علماؤنا قالوا: إن من الصفات الأساسيَّة للرسل: الأمانة والتبليغ. كل رسول أمين على رسالة ربه، على دعوته، على أداء هذه الرسالة لقومه، فهو أمين ومبلغ عن الله ﷻ.

ما جاء رسول يدعو النَّاس إلى عبادة نفسه، ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، ما جاء رسول إلَّا يدعو إلى الله، ما جاء يدعو النَّاس إلى أن يعبدوه أو يقدِّسوه، كلهم دعوا إلى الله وإلى تقواه.

الدعوة إلى إصلاح المجتمع:

هذا هو الأمر الأوَّل الَّذي يشترك فيه جميع الرسل، **والأمر الثاني**: هو الدعوة إلى إصلاح المجتمع، كلهم دعوا إلى إصلاح المجتمع، كل نبي من الأنبياء جاء لصلاح مجتمعه، شُغِل بإصلاح هذا المجتمع، بمقاومة الفساد الَّذي ينخر في عظام المجتمع، فلم يُعنَ فقط بالجانب العبادي، أو الجانب الروحي وحده، وينسى الجوانب الأخرى، الجانب الاجتماعي، أو الجانب الاقتصادي، أو الجانب السياسي.

QaradawiBooks.com

لذلك نجد هنا سيِّدنا هودًا عليه السلام يُنكر على قومه عاد كبْرهم واستعلاءهم على النَّاس فيقول لهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٠]، هذا الترف الَّذي تعيشونه وتبنون الآيات من الترف الفني، وتتخذون مصانع وقصورًا كأنكم مخلَّدون في هذه الدُّنيا، وبجواركم الفقراء الَّذين يئنون من الجوع أنين الملسوع، لا يجدون ما يمسك الرمَق أو يطفئ الحرق، وتتجبَّرون هذا الجبروت الَّذي يظهر في بطشكم بالضعفاء، ونكايتكم بالعجَزة والمسحوقين من النَّاس، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣١ ـ ١٣٥]، فما كان منهم إلَّا أن قالوا له: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ۝ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الشعراء: ١٣٦ ـ ١٣٩].

ونجد كذلك سيِّدنا صالح عليه السلام يقول لقومه ثمود: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۝ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٥٢]، كبراء القوم الَّذين يفسدون في الأرض ولا يصلحونها، ويريدون أن يبنوا قصورهم من جماجم البشر، ويزخرفوها بدماء الخلق.

ونجد كذلك سيِّدنا لوطًا عليه السلام يُعنى بمجتمعه أيضًا، سيِّدنا لوط عليه السلام وجد قومه يرتكبون ما يعرف الآن: بـ«الشذوذ الجنسي»، يعني الرجال يستغنون بالرجال، والنساء يستغنين بالنساء، فقال لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦]، أنتم قوم مبالغون في العدوان؛ لأنَّهم فعلوا ما لم يفعله أحد، تعدوا الحدود، وتجاوزوا قوانين الفطرة الَّتي فطر الله النَّاس

QaradawiBooks.com

عليها، وفي سور أخرى وصفهم بأوصاف أخرى، وصفهم بالإجرام: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۞ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: ٥٨، ٥٩]، ووصفهم بالإفساد: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]، ووصفهم بالجهالة: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، ووصفهم بالإسراف: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١].

حاول لوط عليه السلام الإصلاح في قومه فقال لهم: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، ربنا خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها، هذا شيء فطري، طبيعي، الله خلق الكون مزدوجًا، كما قال: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَاجٗا﴾ [النبأ: ٨]، فيه ذكر وأنثى، كيف يترك الإنسان زوجه الفطرية ويأتي الذكر؟ الذكر يأتي الذكر؟!

من أغرب مواقف قوم لوط عليه السلام الَّتي ظهر فيها اعوجاج فطرتهم، وفقدان رشدهم، وانحطاط أخلاقهم، وفساد أذواقهم، موقفهم من ضيوف لوط الَّذين كانوا ملائكة عذاب أرسلهم الله في صورة البشر؛ ابتلاء لأولئك القوم، وتسجيلًا لذلك الموقف عليهم، وهو ما حكاه القرآن، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ۞ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ۞ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٧ ـ ٧٩].

وكذلك نجد سيِّدنا شعيبًا عليه السلام يقول لأصحاب الأيكة: ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ۞ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ۞ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١ ـ ١٨٣]، وجد شُعَيْب عليه السلام أن أصحاب

QaradawiBooks.com

الأيكة مفسدين من ناحية أخرى، وجدهم مفسدين من الناحية الاقتصاديَّة، كانوا يطفِّفون في الكيل ويبخسون النَّاس أشياءهم، وكانوا يعثون في الأرض مفسدين.

وهكذا كل الأنبياء عُنُوا بهذين الأمرين، بالأمر الربّاني الَّذي يتعلَّق بتقوى الله تعالى وتوحيده، وبالأمر الأخلاقي الَّذي يتعلق بإصلاح المجتمع، وكل حاول إصلاح مجتمعه ومقاومة الفساد والظلم والمنكر فيه، وهذا شأن كل دين.

الذين يريدون أن يحصروا الدِّين في العلاقة بين المرء وربه في الصدر أو الضمير فقط، فإذا خرج من الضمير يبقى في المعبد فقط في داخل المسجد، حتَّى وهو في داخل المسجد لا يجوز له أن يتكلم عن شؤون الحياة، ليس له أن ينقد أوضاع المجتمع، ليس له أن ينقد المنكر، ولا أن يقول إن هناك ظلمًا أو فسادًا أو فواحش يجب مقاومتها.

ما كان الدين هكذا، ولا ينبغي أن يكون هكذا، كل دين سماوي ربَّاني جاء يحارب الفساد والطغيان والمنكر والظلم والكبر والاستعلاء، لهذا نجد الأنبياء الَّذين ذكرهم الله في هذه السورة يدعون إلى تقوى الله، وإلى صلاح المجتمع، وللأسف كذَّبت كل أُمَّة رسولها وقاوموه، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]، قوم نوح قالوا له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، وقوم لوط قالوا له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]، كما جاء في سورة أخرى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، ذنبهم أنَّهم أناس يتطهرون، يتعففون عن هذا الرجس، عن هذا

QaradawiBooks.com

القذر الَّذي يعيش فيه أولئك القوم. الطهارة أصبحت جريمة، في مجتمع القذارة تصبح الطهارة جريمة، ويجب أن ينفى من البلاد، وأن يُخرَج منها.

هذا هو شأن الأنبياء، جاؤوا بعبادة الله وتوحيده وتقواه، وجاؤوا بإصلاح مجتمعاتهم، لم يعيشوا في عزلة عن هذه المجتمعات، وجاؤوا يصدّق بعضهم بعضًا، كلهم على نهج واحد، تكاد تكون الصيغة واحدة بين كل رسول وآخر، على خلاف الفلاسفة.

رفق الأنبياء بأقوامهم:

الأنبياء يأخذون أقوامهم بالرفق: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، هذه الأداة في العربيَّة تسمى أداة عرض وتحريض، كما قال الله تعالى لموسى وهارون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤] ولما ذهب موسى إلى فرعون ماذا قال له؟ قال بصيغة الاستفهام: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩]، هكذا يقول الأنبياء: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، أمَّا آن الأوان أن تتَّقوا الله وأن تتوبوا إليه من شرككم وكفركم؟ ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧]، أنا آتيكم برسالة، وأنا أمين على هذه الرسالة، لا أخونها؛ لأنِّي لو خُنتها لخصمني الله ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٨]، لم يقل: «اتقوني»، التَّقوى لله ﷻ، والطاعة لرسوله، والطاعة لرسوله ليست لذاته ولكن لأنَّه مبلغ عن ربه ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

تنزه الأنبياء عن المكاسب الدنيويَّة:

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، أنا

QaradawiBooks.com

لا أريد منكم مالًا، ولا أريد منكم منصبًا، ولا أريد منكم عرضًا من أعراض الدُّنيا، لا أسألكم أي أجر على دعوتي، دعوتي لله وحده، إنْ أجري إلَّا على رب العالمين، ولذلك ذكرت سورة «يس»: يأتي مؤمن ويقول لقومه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۞ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠، ٢١] فهذا من المُرغِّبات، فالداعية الَّذي يطلب من النَّاس أجرًا يُنفِّر الناسَ منه، تخيَّلوا أن داعية ألقى درسًا أو موعظة ثمَّ قال في ختام موعظته: أنا رجل مسكين، أنا رجل مسافر. أي أحتاج لمساعدتكم، أضاع هذا الواعظ موعظته وما عادت لها قيمة، لأنَّها لم تكن لله، كانت لمد اليد ولطلب الأجر.

رسل الله وأنبياؤه لا يطلبون أجرًا من أحد، إنَّما أجرهم على الله، ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، إنَّهم يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويصلحون النَّاس، ويميطون الأذى عن الطريق، يعلِّمون الجاهل، ويهدون الحائر، ويرشدون الضال، لا يطلب جزاءهم إلَّا من الله، ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، إنَّه رب العالمين جميعًا وليس رب قومي وحدهم، ولا رب وطني وحده، بل هو ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وهذا يدل على أنَّهم يصدرون من مشكاة واحدة، ودعوتهم مصدرها واحد، تشابهت قلوبهم فتشابهت ألفاظهم وألسنتهم، واتحد مصدرهم فاتحدت أقوالهم، ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

سيدنا نوح عليه السلام قال لقومه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٨ ـ ١١٠].

QaradawiBooks.com

الدرس الثاني
دعوة نوح عليه السلام لقومه

ما زلنا نعيش في رحاب هذا الشهر الكريم شهر رمضان، **الَّذي** خصه الله تبارك وتعالى بنزول القرآن الكريم، والَّذي كان يتدارس فيه النبي ﷺ القرآن مع جبريل عليه السلام، ومـا أجدرنا أن نتدارس هـذا الكتاب العظيم، ونتدبر آياته في هذا الشهر الكريم، اقتداء بالنبي ﷺ، ونعيش الليلة في تدارس وتدبُّر هذه السورة الكريمة الَّتي اسـتمعنا إليها، سورة الشعراء، ونقف فيها مع دعوة نبي الله نوح عليه السلام لقومه.

من هو أوَّل المرسلين؟

نوح هو أوَّل النَّبيين شيخ المرسـلين، القرآن يقول: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣]، هناك خلاف بين العلماء هـل نوح هـو أوَّل المرسـلين أم آدم هو أوَّل المرسـلين؟ الجمهور على أنَّ آدم أوَّل المرسـلين، وأنَّ الله تعالى أرسله إلى بنيه بالدعوة. وهذا هو المعقول؛ لأن الرسـول هو من أوحي بشرع وأُمر بتبليغه، من الَّذي أَمر ذريـة آدم؟ لا بدَّ أن يكون هنـاك مبلغ لهم، فأبوهم هو المبلغ، والقرآن يقول في قصَّة آدم: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طـه: ١٢٣]، علـى كل حال

QaradawiBooks.com

هنـــاك خـــلاف، وحديث الشـــفاعة يـــدل علـــى أن نوحًا هـــو أوَّل المرسلين[1]، وهذه قضيَّة أخرى.

الدعوة إلى التَّقوى:

نوح عليه السلام قال لقومـــه: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١١٠]، وكثير من الرسل هنا في هذه السورة سورة الشعراء كرّر الدعوة إلى التَّقوى، فنجد صالحًا عليه السلام يقول لقومه عاد: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾ [الشـــعراء: ١٥٠ ـ ١٥٢]، احذروا أكابر القوم وقادة السوء الَّذين يضلونكم عن سبيل الله ويصدون عنها ويبغونها عوجًا.

موقف الكبراء من استجابة الضعفاء لدعوة الرسل:

وكذلك نجد نوحًـــا عليه السلام يكرر الدعـــوة إلى التَّقوى فيقـــول لقومه: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١٠، ١١١]، تريد أن نؤمن لك وأراذل النَّاس معك؟! كما جاء في سورة هود: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِۖ ﴾ [هـــود: ٢٧]، أنت معك الفلاحون والعمال والضعفاء من النَّاس، إنَّما الطبقة الأرستقراطية، عِلية القوم ليســـت معك. هذه التهمة هي الَّتي وجَّهوها إلى سيِّدنا نوح عليه السلام، وطلبوا منه إن أرادوا أن يدخلوا في دعوته أن يطرد المؤمنين، أبعد هؤلاء عن ســـاحتك ونحن نتبعك، إنَّما نكون نحن وهـــؤلاء الأراذل جنبًا إلى جنب، نحن أصحاب الطبقات العليا نجلس مع هذه الطبقة الدنيا!

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧١٢)، ومسلم في الإيمان (١٩٤)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

هذا هو الَّذي أفسد البشريَّةَ، تقسيم النَّاس إلى طبقات، حتَّى إن في الهند عندهم طبقات تولَد النَّاس عليها، كل طبقة تظل وتعيش في طبقاتها، لا تستطيع أن تترقى، هناك طبقة البراهمة، وهؤلاء أعلى الطبقات، وطبقات دونهم، التجار وغيرهم، وطبقات وسطى، وطبقات دنيا، يسمونهم: المنبوذين، لا يجوز أن تمسهم؛ لأنَّهم نجس، جماعة خُلقوا من فم الإلٰه، وجماعة خُلقوا من ذراع الإلٰه، وجماعة خُلقوا من أقدام الإلٰه، هذا التقسيم عجيب، وهو في ذهن النَّاس من قديم.

﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ۞ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۞ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ [الشعراء: ١١١ ـ ١١٣]، إن قيمة النَّاس بأعمالهم، وأنا لست عليمًا بأعمال النَّاس، إنَّ الَّذي يحاسبهم عليها هو الله تبارك وتعالى.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۞ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الشعراء: ١١٤، ١١٥]، ليس من شأني أن أطرد المؤمنين، كما قال في سورة هود: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩، ٣٠]، من يدافع عني أمام الله إن طردت المؤمنين من أجلكم أنتم؟

المسألة ليست بالمال، ولا بالجاه، ولا بالنقود، ولا بالمنصب؛ الإنسان لا يُقوَّم بالمظاهر الخارجية، إنَّما يُقوَّم بذاته، يُقوَّم بهذه المضغة الَّتي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب. كما جاء في الحديث الصحيح[1]، وفي حديث آخر: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[2]، وفي

(١) سبق تخريجه (١٠٧/١).

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٨٢٧)، عن أبي هريرة.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

حديث ثالث: «**إنَّه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة**» وقال: «**اقرؤوا:** ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]»[(١)].

المسألة ليست بضخامة الأجسام. كان عبد الله بن مسعود رجلًا نحيفًا نحيلًا ضعيفًا هزيلًا، وكانت ساقاه دقيقتين، طلع يومًا على شجرة فبدت ساقاه نحيفتين؛ فالصحابة ضحكوا، فقال النبي ﷺ: «**أتضحكون من دقة ساقيه، والَّذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من جبل أحد يوم القيامة**»[(٢)].

القرآن يقول عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، أجسام بلا أحلام، وأشباح بلا أرواح، العبرة ليست بالمظاهر، ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل.

سيدنا نوح أبى أن يطرد المؤمنين، وقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٤ ـ ١١٦]، نرجمك باللسان، نسبك ونُسمِعُك ما تكره من الألفاظ والكلمات، أو نرجمك بالحجارة، ونسلط عليك السفهاء والصبيان يرمونك بالأحجار.

صبر نوح على قومه ودعاؤه عليهم:

صبر عليهم نوح وصبر، صبر ألف سنة إلَّا خمسين عامًا، تتوالى عليه الأجيال، أكثر من ثلاثين جيلًا تعاوروا عليه، هذا لو حسبنا الجيل

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٢٩)، ومسلم في صفة المنافقين (٢٧٨٥)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٣٩٩١)، وقال مُخَرِّجوه: صحيح لغيره. والطبراني (٧٨/٩)، والبزار (٣٣٠٥)، وابن حبان في مناقب الصحابة (٧٠٦٩)، وحسَّنه الألباني في غاية المرام (٤١٦)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

ثلاثين سنة، يكون حوالي اثنين وثلاثين جيل، جاءت أجيال وذهبت أجيال، والجيل الَّذي يأتي شر من الَّذي يذهب، كما قال نوح عليه السلام في دعائه على قومه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]، الطين من الطين، والعجين من العجين، والعرب تقول: العصا من العُصَيَّة، ولا تلد الحيَّة إلَّا حيَّة.

دعا نوح ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ۝ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨] فأمره الله أن يصنع سفينة ويحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهله، ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، وصنع نوح السفينة، وجاء الطوفان، وهلك القوم الظالمون، وأنجى الله نوحًا والَّذين آمنوا معه، ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١١٩، ١٢٠].

ثم عقَّب الله على هذه القصَّة وعلى كل قصَّة في هذه السورة بهذا التعقيب: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٢١]، ففي كل قصَّة من هذه القصص عبرة أي عبرة، ودلالة أي دلالة، وذكرى أي ذكرى، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

آية الله في إهلاك المتجبرين:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ [الشعراء: ١٢١]، الآية والعبرة أنَّ الله أهلك المتجبّرين المحتقرين لغيرهم، ونجَّى نوحًا ومن معه من المؤمنين المستضعفين، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٠]، للأسف الأقليَّة هي الَّتي تؤمن،

QaradawiBooks.com

والأكثريَّة هي الَّتي تكفر، كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٢٢] الله تعالى هو العزيز، أي: الغالب الَّذي لا يُغلَب، والقاهر الَّذي لا يُقهَر، لا يُعجز اللهَ شيء في الأرض ولا في السماء لكمال علمه وكمال قدرته، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤]، ما أراده الله كان، أمره بين الكاف والنون، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٢٢]، فالله مع أنَّه العزيز فهو كذلك الرحيم، كيف تأتي الرحمة هنا وقد أهلك الكافرين وأنجى المؤمنين؟ إنجاء المؤمنين هو هذه الرحمة، وإهلاك الكافرين هو من هذه العزَّة، بل إهلاك الكافرين من باب الرحمة أيضًا؛ لأنَّ هلاك الكافرين المكذِّبين المستكبرين الباغين في الأرض بغير الحق رحمة بالمؤمنين ونعمة منه عليهم يجب أن يشكروه عليها، كما قال الله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، هلاك الظالمين نعمة، وهو باب الرحمة للخلق، إذا رأيت ظالمًا متجبرًا هلك وذهب أثره فاحمد الله؛ فقد رحم الله النَّاس من شره، فذلك هو العزيز الرحيم، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٢٢].

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الثالث
هلاك الله للمعاندين لدعوات الأنبياء في سورة الشعراء[1]

غير مرخصة للطباعة

أيها الإخوة والأخوات:

ونحن نتابع كتاب الله ﷻ، مستمعين إلى آياته، ومستمعين إلى سورة الشعراء، وكيف أنزل الله عقابه على الَّذين كذَّبوا رسله وتمردوا على دعوته، وآذوا المؤمنين، ووقفوا في سبيل الدعوة إلى الله، كيف أخذهم العذاب.

هلاك الله لفرعون وملائه:

تابعنا كيف أخذ العذاب فرعون وملأه، بعد أن رفضوا الاستماع لنبيهم، والاتباع لدعوته ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۞ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ۞ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۞ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۞ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٣ ـ ٦٨].

هلاك قوم نوح:

وتابعنا هلاك قوم نوح الَّذين طغوا وكذَّبوا وعصوا، وحاول نوح عليه السلام أن يردهم إلى الله بالدعوة سرًّا وجهارًا، ليلًا ونهارًا، فلم يزدهم دعاؤه إلَّا

(١) من دروس تراويح ١٤٢٢هـ.

QaradawiBooks.com

فرارًا، فما كان منه إلَّا أن قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ۞ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۞ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧ ـ ١٢٠] أخذهم الطوفان وهم ظالمون، السماء كانت تمطر وعيون الأرض تفيض، حتَّى أهلكهم الله بهذا الطوفان ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٢١، ١٢٢].

هلاك قوم عاد:

وبعد قوم نوح قوم عـــاد، ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠]. أهلكهم الله بريح صرصر عاتية، جعلتهم كأعجاز نخل خاوية، فهل ترى لهم من باقية، أرسل لهم هودًا يدعوهم إلى الله ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٣٩، ١٤٠].

هلاك قوم ثمود:

وبعد عاد جاءت ثمـــود، الَّذين حاول نبيُّهم صالح، وأخوهم صالح، أن يثنيَهم عن الكفر والتكذيب والفســـاد، واتِّباع المســـرفين المفسدين، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۞ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشـــعراء: ١٥٠ ـ ١٥٢]، ولكنَّهم لم يستجيبوا وكذَّبوا وعقروا الناقة، فأخذهم العذاب، أخذتهم الصيحة، ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ۞ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٥٧ ـ ١٥٩].

هلاك قوم لوط:

وبعدهم قوم لوط، الَّذين حاول سيِّدنا لوط أن يردَّهم إلى عبادة الله، وأن يثنيَهم عن الفاحشـــة، الَّتي ابتكروها وابتدعوها، ما سبقهم بها من

QaradawiBooks.com

أحد من العالمين، ولكنَّهم أرادوا أن يُخرجوه، ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]، سنخرجك من قريتنا، وقالوا بالفعل: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] ذنبهم الطهارة والنظافة، في مجتمع قذر، مجتمع معتد، كما قال لهم نبيهم لوط عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦] وصفهم بالعدوان.

كما وصفهم في سورة أخرى بالإفساد ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]، ووصفهم بالإسراف: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١].

ولذلك كان لا بدَّ أن يطهِّر الأرض من شرِّهم وفسادهم، فعاقبهم بعقوبتين: قلب القرية عليهم، ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤]، وأرسل عليهم حجارة من سجّيل ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٧٣ ـ ١٧٥].

وننتظر هلاك إسرائيل:

حينما نتابع هذه الآيات أيُّها الإخوة، نتمنى من الله عز وجل، أن يرينا آية من آياته في هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ [الفجر: ١١، ١٢]. في شارون وعصابته، الَّذين يفعلون ما يفعلون، بإخوتنا في أرض النبوات، وأرض الإسراء والمعراج، في أرض فلسطين، بجوار المسجد الأقصى، يفعلون ما يفعلون كل يوم، وإذا دافع إخواننا عن أنفسهم، قالوا: نحن نرد عليكم، يريدون أن يظهروا للعالم أنَّهم يدافعون عن أنفسهم.

وتقول واشنطن: إن من حق إسرائيل أن تدافع عن نفسها. إسرائيل في موقف الدفاع، إسرائيل الَّتي تقتل كل يوم من تقتل، وتذبح من

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تذبح، وتدمّر ما تدمّـر، وتحرّق ما تُحـرّق، ولا تدع شـيئًا إلَّا جعلته كالرميم، هي بذلك تدافع عن نفسـها في نظر سيدة العالم، أمريكا، في نظر واشنطن.

جاء شـارون من أمريكا ومعه الضوء الأخضر، معه بطاقة مفتوحة، لينتقم وليحمي إسـرائيل، من هجمات هـؤلاء الإرهابيين، الإرهابيون الَّذيـن يدافعون عـن أرضهم وعرضهم ومقدسـاتهم وقـوت أولادهم وضروريَّات حياتهم، هؤلاء هم إرهابيون، ودعاة العنف!

الذي يدافع عن أرضه أصبح من دعاة العنف، وأصبح إرهابيًّا، والَّذي جاء مـن بلاد بعيدة ليغتصب أرضًا ليسـت أرضه، ويطـرد أهلها منها، ويشردهم في الآفاق، بالملايين، هذا ليس إرهابيًّا.

أعظم إرهابي في العالم هو دولة إسرائيل:

إنَّ إسرائيل قامت من أوَّل يوم على الإرهاب، بل من قبل أن تقوم، فالعصابات الإجرامية الإرهابية، هي الَّتي فرضت وجودها على فلسطين، وعلى أهل فلسطين، وبمسـاعدة الانتداب البريطاني، الَّذي مكَّن لهؤلاء ليقتلـوا وليخرّبوا، وليدمروا، ولـم يُمكّن أبناء فلسـطين من أي قطعة سلاح، إسرائيل قبل أن تقوم قامت على الإرهاب، ومجازر «دير ياسين» وغيرها معروفة في التاريخ.

ثم قامت إسرائيل لتبقى كما قال العالم الغربي كله، أمريكا وبريطانيا وروسيا، كلهم قالوا: خُلقت إسرائيل لتبقى. وإسرائيل هذه، الَّتي لم يكن لها وجود في المنطقـة في أوائل هـذا القرن، حيـث كان اليهود آلافا معدودة، ثـمَّ جاءت الهجـرات الجماعيَّة، من أوربـا وأمريكا وغيرها، بمسـاعدة العالم الغربي عامَّة، وبريطانيا خاصَّة، ووعد بلفور المشؤوم

QaradawiBooks.com

والمشهور، الَّذي قال فيه بإنشـــاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وقال من قال بعد ذلك: إن من لا يملك وعد من لا يستحق. وعلَّق الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر على ذلك يومها بقوله: إن فلسطين ليست وطنًا بغير شعب، حتَّى تستقبل شعبا بغير وطن.

إسرائيل أو الصهيونية أرادت أن تفرض نفســها، ومنذ أكثر من مائة ســنة عقدوا مؤتمرهم في «بال» في سويســرا، بقيادة زعيــم الصهيونية الحديثة «هرتزل»، وقرروا أن تقوم لليهود دولة بعد خمسين سنة. وبالفعل قامت الدولة بعد خمسين أو واحد وخمسين سنة، كما خططوا.

المهم أيُّها الإخوة: اليهود يخططون، ولهم حكماء صهيون، ومشيخة صهيون، ونحن ليس لنا حكماء يخططون، اليهود يفعلون ما يشــاؤون، ونحن أُمَّة مضيّعة مبعثرة، وتصوروا ما يحدث اليوم، في فلسطين، الآن يضربون غزة، بالطائرات من الجو، وبالبوارج من البحر، وبالدبابات من البر، وضربوا مقر الرئيس عرفات، وحطَّمــوا طائرات عرفات، والدخان الأسود يتصاعد هنا وهناك، ولا زال في جعبتهم الكثير.

ومع هذا لم نر أحدًا تحرك، ماذا أصاب هــذه الأُمَّة، كأن هذه الأُمَّة صمتت صمت القبور، كأنَّما الأُمَّة قد ماتت، لم نر ردًّا على المســتوى الرسمي، ولا على المستوى الشَّــعْبي، حركة تنادي وتصرخ وتستغيث. فأين أُمَّة العرب؟ أين أُمَّة الإسلام؟

ومما يؤسف له، أنَّ أحد الإخوة أبلغني، أنَّ ممَّا نُسب إلى شيخ الأزهر في هذا اليوم، أنَّه قــال: لا يجوز قتل المدنيِّين، فــي أيّ بلد، ولا في أيّ دولة، ولو كان في إسرائيل، ولا أدري هل صدر هذا فعلًا من شيخ الأزهر؟ كيف يُجرِّم قتل هؤلاء المعتدين الغاصبين، من أبناء صهيون، كيف يعتبرهم

QaradawiBooks.com

مدنيين برآء عُزّل، وهم غاصبون، جاؤوا إلى هذه الأرض من بعيد، واغتصبوها رغم أهلها، وشرَّدوا أهلها، هذا شر استعمار عرفته البشريَّة، فهناك أنواع من الاستعمار، ومنها: الاستعمار الاستيطاني، الَّذي يريد أن يستوطن الأرض، مثل الاستعمار الفرنسي في الجزائر، أراد أن يتَّخذ من الجزائر وطنًا، ويستوطنها، ويعيش فيها، ويعتبرها جزءًا من فرنسا.

وشر من الاستعمار الاستيطاني، النوع الَّذي يسمى: الاستعمار الاستيطاني الاحتلالي، ففرنسا حين دخلت الجزائر، استعمرتها، ولكنَّها أبقت أهلها، لم تطردهم، عاشت معهم.

أمَّا اليهود، فهم يريدون استعمارها استعمارًا استحلاليًّا، يريدون طرد أهل البلاد، ويحلون محلهم، ويقومون مقامهم، وهذا ما حدث، فهذا شر مراحل الاستعمار، الاستعمار الصهيوني.

فهل مقاومة هذا الاستعمار، ومحاربة هذا الاستعمار، تعتبر إرهابًا، وأمرا مُجرَّمًا في نظر بعض المشايخ؟ إن هذا يُعد غفلة عن الواقع، وأنا أعيب كثيرًا من المشايخ، أنَّهم ينقصهم فقه الواقع، لا يعرفون أنَّ المجتمع الإسرائيلي كله مجتمع عسكري، ليس فيه مدنيون، الرجال مجندون، والنساء مجندون، ومن ليس جنديًّا في الجيش اليوم، يمكن أن يُستدعى للتجنيد غدًا أو بعد غد، كلهم جنود احتياط، رجالهم ونساؤهم، نحن هُزمنا سنة ١٩٦٧م من امرأة، هي «جولدا مائير»، فالرجال والنساء سواء.

كيف نغفل عن هذه الحقيقة؟ وكيف يقول شيخ الأزهر ـ إن صحّ ما نُسب إليه ـ إنَّه لا يجوز قتل المدنيين في أيّ بلد، حتَّى لو إسرائيل. إن إسرائيل كلها مغتصِبة ظالمة معتدية، دخلت أرضًا غير أرضها، وغزت أهلها، وتركتهم وشتتهم في الآفاق، فمن حق أهلها أن يدافعوا عن أنفسهم.

QaradawiBooks.com

وأعجب من بعض المشايخ الَّذين يغفلون عن هذا الواقع، ولا يفقهونه، ويصدرون هذه الفتاوى تخـذِّل المجاهدين والمقاتليـن، بدل أن يكونوا معهم، وأن يشـدوا أزرهم، وأن يقوُّوا ظهرهم بالفتـاوى، الَّتي تقول لهم: ضحّوا بأنفسكم في سـبيل الله، وخوضوا المعركة، وضعوا رؤوسكم على أكفكم، وقدّموا الشهداء، كما قال بعض رجال حماس اليوم: إنَّنا مستعدون أن نقدم الشهداء لمدة عشرين عامًا، شهداء وراء شهداء.

لا يمكن أن نحصل على دولة مستقلة، إلَّا بالجهاد:

لا يمكن أن ننتصر في هذه المعركة إلَّا بالشـهداء، أمَّا الدبلوماسية، والسياسة، والاسـتقلال الَّذي يُعطى منحة من شـارون وعصابته، ومن أمريكا ومن غيرها، دولة مستقلة اسمًا، ولكنَّها تحت السلطة الإسرائيليَّة، سماؤها مع إسرائيل، وأرضها مع إسـرائيل، وطرقها مع إسرائيل، وكل تحكماتها مع إسرائيل، كيف تكون هذه الدولة!

لا يمكن أن نحصل على دولة مسـتقلة، إلَّا بدماء الشهداء، ولذلك يريـدون أن يوقعوا الفلسـطينيين بعضهم ببعض، فمما يؤسـف له كل الأسف، ممَّا يندى له الجبين، وما تبكي منه العيون، وممَّا تنقطع له نياط الفؤاد، وتتفتت له الأكباد، أن نرى الفلسطينيين يقع بعضهم في بعض.

فالسلطة تقبض على الناشطين كما تسميهم من حركة حماس وحركة الجهاد، وأمثالها من الحركات.. ولحساب من؟! ألِحساب الصهيونية؟! أأعتقل إخواني وهم القوَّة الضاربة معي لحساب عدوي؟! هذا ما تريده إسرائيل وما يريده شارون، أن يصبح عرفات جلَّادًا لقومه، جلادًا لأمته، وسجانًا لأبناء شعبه.

QaradawiBooks.com

ووالله مهما عمل، لن يرضوا عنه، لو اعتقل من اعتقل، من أبناء الشعب الفلسطيني، ولو حاصر من حاصر، ولو تتبع من تتبع منهم، لن يرضى عنه شارون، ولن ترضى عنه الصهيونية.

إنَّ الواجب على أبناء فلسطين، أن يقفوا وقفة رجل واحد، كالبنيان المرصوص، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]. والواجب على أبناء العرب والمسلمين أينما كانوا، أن يقفوا هذه الوقفة.

غير مرخصة للطباعة

مهما تعددت قضايانا فقضيَّة فلسطين هي الكبرى:

إنَّ بعض القضايا الساخنة كثيرًا ما تنسينا قضيَّة المسلمين الأولى، وهي قضيَّة فلسطين، ما حدث في أفغانستان أنسانا قضيَّة فلسطين، وشغلنا عن قضيَّة فلسطين، وقضيَّة فلسطين هي القضيَّة الأم، هي القضيَّة المحورية، هي القضيَّة المركزية، فلا يجوز أن ننساها أبدًا، كثرة الهموم ينسي بعضها بعضًا، وكثرة المصائب يشغل بعضها عن بعض. ولكن لا يجوز أيُّها الإخوة، أن ننشغل عن إخوتنا في فلسطين، أن نكون معهم بقلوبنا، أن نكون معهم بألسنتنا، أن نكون معهم بأموالنا، أن نكون معهم بأيدينا، أن نكون معهم بأرواحنا، حتَّى يكتب الله لهم النصر، والنصر آت لا ريب فيه.

عندنا من البشائر أنَّ النصر لنا والغد لنا:

عندنا البشائر من أحاديث رسول الله ﷺ أنَّ هناك معركة آتية بيننا وبين اليهود، سينتصر فيها المسلمون، وهذا ثابت في الصحيحين، من

QaradawiBooks.com

حديث ابن عمر[١]، ومن حديث أبي هُرَيْرة[٢]، أنَّه لا تقوم الساعة حتَّى يتقاتل اليهود والمسلمون، فيقتلهم المسلمون، حتَّى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله.

هل ينطق الحجر بلسان الحال، أم بلسان المقال، ليس شيء بعيدًا عن الله، فالمعركة آتية، سيكون كل شيء حتَّى الحجر والشجر، مع أهل الإسلام يدل على اليهود، وينادي هذا يهودي ورائي، أي: يكشفه. مهما اختبأ فكل شيء يدل المسلمين عليه.

يجب أن نكون عبادًا لله مسلمين له لنحقق النصر:

ونحن في انتظار هذه المعركة، ولكن على أن ندخلها عبادا لله مسلمين، فالحجر والشجر يقول: يا عبد الله يا مسلم، العبوديَّة لله، ندخلها تحت شعار العبوديَّة لله، وتحت راية الإسلام. وحينها ينادي الحجر: يا عبد الله، يا مسلم، هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله.

أسال الله تبارك وتعالى أن يؤيد إخواننا بنصر من عنده، وأن يُنزل عليهم جندًا من جنده، وأن يفتح لهم فتحًا مبينًا، وأن يهديهم صراطًا مستقيمًا، وأن ينصرهم نصرًا عزيزًا، وأن يتم عليهم نعمته، وينزل في قلوبهم سكينته، وينشر عليهم فضله ورحمته، إنَّه سميع قريب.

وصلى الله على سيِّدنا محمَّد، وعلى آله وصحبه وسلم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٩٣)، ومسلم في الفتن (٢٩٢١).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٢٦)، ومسلم في الفتن (٢٩٢٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الرابع
نبأ إبراهيم ونِعَم الله الكبرى عليه

سورة الشعراء تتعرَّض لسلسلة من قصص الأنبياء، كأخوات لها من قبل من السور المكيَّة، مثل سورة الأعراف، وسورة هود، وهذه سورة الشعراء وإن كان هناك خلاف في الترتيب يقتضيه السياق.

يقول الله تبارك وتعالى مخاطبًا رسوله محمدًا ﷺ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩]، النبأ هو الخبر ذو الشأن، لا يقال نبأ إلَّا إذا كان خبرًا مهمًّا، ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۞ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١، ٢]، ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ [ص: ٦٧].

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩]، اتل على قريش والمشركين في مكَّة وبلاد العرب نبأ إبراهيم، هم يزعمون أنَّهم من أتباع إبراهيم، وأنَّهم على دين إبراهيم، وإبراهيم هو مُحَطِّم الأصنام، أوَّل صفة لإبراهيم أنَّه هو الَّذي حلف أن يفتّت الأصنام ويجعلها جذاذًا، فليس هو عابدَ الأصنام، فكيف يكونون على دين إبراهيم؟

فالله تبارك وتعالى يقول لرسوله ﷺ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩]، كما أمر الله النبي ﷺ في سور شتَّى أن يتلو على النَّاس قصصًا لمناسبات، كما قال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٢٧] ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: ٧١].

QaradawiBooks.com

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الشعراء: ٦٩]، من مهمَّة النبي ﷺ ومن الشُعب المحمَّديَّة المهمة تلاوة الآيات، كما قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢]، فأول شعبة من الشُّعب المحمديّة تلاوة آيات الله، اتل عليهم يا مُحَمَّد هذه الآيات بما فيها من نور، وما فيها من هداية، وما فيها من بيان للحق من الباطل والهدى من الضلال.

ما نبأ إبراهيم؟

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الشعراء: ٦٩]، ما نبأ إبراهيم؟ قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الشعراء: ٧٠]، إبراهيم بلّغ رسالة ربِّه إلى قومه، وأول من بلَّغه من قومه هو أبوه، كما جاء في سورة مريم محاورة طويلة بين إبراهيم وأبيه: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۞ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۞ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۞ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٥]، ظلَّ يحاور أباه ويدعوه إلى التوحيد ونبذ عبادة الأصنام.

فهنا أوَّل ما حاور أباه وقومه قال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الشعراء: ٧٠]؟ ما هذا الَّذي تعبدونه؟ هو يعرف ماذا يعبدون، لكن يريد أن يسمع منهم ليرتب على ذلك سؤالهم عن هذه المعبودات العجيبة، ﴿مَا تَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ [الشعراء: ٧٠، ٧١]، الأصنام هي حجارة منحوتة مشكَّلة، يأتون بحجر، ورجل نحَّات يعمل له وجهًا وعينًا وأنفًا وشفتين، وبعد ذلك صار هذا الحجر إلٰهًا يُرجى ويُخشى ويُقدَّس ويُدعى ويُتضرَّع

QaradawiBooks.com

إليه ويُطلب منه النفع وكشف الضر إلى آخره، وهو عبارة عن حجر لا يُبصر ولا يسمع، ولا يضر ولا ينفع، ولا يُعطي ولا يمنع.

﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١] نعكف عليها ونقيم على عبادتها، فقال لهم إبراهيم عليه السلام: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ۝ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢، ٧٣]؟ هذه الأصنام الَّتي اتَّخذتموها آلهة مع الله أو من دون الله ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ﴾ [الشعراء: ٧٢]؟ أوَّل شيء يطلبه الإنسان في الإلٰه أن يسمع له إذا دعاه، ما قيمة الإلٰه إذا لم يمكن أن يلجأ الإنسان إليه عند الشدَّة فيدعوه؟ وأن يسمعه إذا دعاه، ويقدر على الاستجابة له، ولكن هذه الأصنام لا تُبْصر ولا تسمع، كما قال إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤٢]، يعني العابد يُبصر ويسمع، والمعبود لا يُبصر ولا يسمع! كيف هذا؟!

﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ۝ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢، ٧٣]؟ هل يملك أن يضرك الصنم أو ينفعك؟ الواقع أنَّه لا يملك حتَّى لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولذلك قال الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ [الفرقان: ٣].

هذا الصنم الَّذي لا يخلق ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا كيف يُؤلَّه؟ كيف يُؤلَّه هذا المخلوق ويُعبَد مع الله أو يُعبَد من دون الله عزَّ وجلَّ؟!

﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ۝ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢، ٧٣]؟ لم يجيبوا عن هذا السؤال، ولكن أجابوا: ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]، لم يقولوا: لا تُبصر ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع،

QaradawiBooks.com

ولكن قالوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، إنَّهم ليس عندهم أي منطق ولا أيّ حجة إلَّا قولهم: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، يلغي الإنسان عقله وتفكيره ويصبح عبدًا لما كان عليه آباؤه وأجداده من قبل، ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

التقليد الأعمى للآباء والأجداد:

وهذا التقليد الأعمى للآباء والأجداد أو للسادة والكبراء هو الَّذي أضرَّ الأمم، ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وترك الإنسان عقله وما يهدي إليه عقله واتبع الأباطيل الَّتي كان عليها الآباء والأجداد.

كل الأنبياء وجدوا هذه المشكلة أمامهم، قوم هود قالوا له: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]، هذا منطق المشركين طوال التاريخ إنَّهم يتحجّجون ويتعلّلون بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم، القرآن يقول: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، تتبعونهم حتَّى وإن كانوا لا عقل لهم ولا هدى عندهم؟! هذا هو شأن الإنسان إذا فقد البصيرة وأهمل العقل، والمقلِّد ـ كما قال الإمام ابن الجوزي ـ على غير ثقة فيما قلد فيه، إنَّه أوتي العقل فعطله كمن أوتي شمعة فأطفأها ومشى في الظلمة[1]. وهذا المقلِّد أعطاه الله مصباحًا ينير له الطريق وهو هذا العقل، فأطفأ هذا المصباح ومشى يتخبط في الظلمات يمينًا وشمالًا.

﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٤ ـ ٧٧]، قال

(١) انظر: تلبيس إبليس صـ ٧٤.

QaradawiBooks.com

لهم أنتم وما تعبدونه أنتم وآباؤكم وأجدادكم الأقدمون أنا أعاديكم وأقف ضدكم لأنكم على غير الحق، لأنكم تمشون وراء الباطل، ﴿قَالُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۞ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۞ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧]، أنا أعادي هذه الآلهة المزعومة الَّتي تضل النَّاس عن عبادة الله ﷻ، كما قال سيِّدنا إبراهيم في سورة إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، هذه الأصنام المنحوتة أضللنَ كثيرًا من النَّاس، كما قال سيِّدنا إبراهيم في سورة الصَّافات: ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ۞ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦]، شيء تنحته بيدك، تصنع الإلٰه بيدك ثمَّ بعد ذلك تسجد له؟! أي جهالة وأي ضلالة أكثر من هذا؟! ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥]؟ أتعبد ما تصنع بيديك؟!

ولذلك قال سيِّدنا إبراهيم: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧]، أنا أعادي كل من عبدتم إلَّا رب العالمين، بعضهم يعبد الله مع آلهة أخرى، وربَّما كان بعض آبائهم الأقدمين يعبدون الله وحده قبل أن يدخل عليه الشرك، فاحتاط سيِّدنا إبراهيم: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۞ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۞ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧].

هو ربُّ العالمين، ربِّي وربُّكم، وربُّ السماوات والأرض، وربُّ العرش العظيم، هذا الإلٰه هو وحده الَّذي يستحق العبادة من خلقه بحكم الخالقيَّة لهم ولكل من حولهم ومن فوقهم ومن تحتهم، وبحكم الإنعام بالنعم الكبرى عليهم وأهمها نعمة الحياة، نعمة الوجود نفسها، ونعمة العقل ونعمة الهداية النعم الكبرى عليهم، هذا الإلٰه المنعم هو الَّذي يستحق أن يُعبد.

QaradawiBooks.com

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۞ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۞ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۞ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۞ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۞ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٨٢].

خمس نعم من نعم الله الكبرى:

ذكر سيِّدنا إبراهيم خمس نعم من النعم الكبرى الَّتي تجعل الله وحده هو المستحق للعبادة، لا يستحق العبادة أحد غيره، كما علمنا القرآن أن نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، لا نعبد أحدًا غيرك، ولا نستعين بأحد سواك، وهذا هو حقيقة التوحيد، أن تفرد الله وحده بالعبادة والاستعانة، فلا تعبد إلَّا الله، ولا تستعين إلَّا الله.

١ ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾

ذكر إبراهيم هذه النعم فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، الَّذي يستحق العبادة منِّي الَّذي خلقني، لم يخلقني أحد غيره، دائمًا القرآن يُذكِّر بهذه الخالقيَّة مع أوَّل آية نزلت من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١، ٢]، فالله هو الخالق، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، وترتب على خلقي أنَّه لم يتركني سدى ولا هملًا بل هو يهديني، فـ «الفاء» في قوله: ﴿فَهُوَ﴾ متفرعة على الخلق، كما قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣]، وكما سُئل سيِّدنا موسى من فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۞ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

الله تعالى هدى الخلائق جميعًا، كل مخلوق يهديه ربنا إلى المهمة الَّتي من أجلها خُلق، كل مخلوق عنده هداية إلٰهيَّة، إلهام إلٰهي، هذه

QaradawiBooks.com

الهداية العامَّة، وفيه هدايات أخرى: مثل هداية الحواس، هداية عن طريق السمع والبصر وهذه الحواس.

وهناك هداية عن طريق العقل، فالله أعطى الإنسان العقل الَّذي به يُفكِّر في أمور دنياه وأمور دينه، والعقل هو الَّذي يهدي الإنسان إلى الإيمان.

وآخر هداية هي هداية الوحي، الله تعالى هدى إبراهيم بالهدايات الأولى هذه، وهداه كذلك بالنبوة والرسالة، اصطفاه واجتباه.

٢ ـ ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨، ٧٩]، الَّذي يرزقني هو الله، ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ﴾ [الملك: ٢١]؟ إذا أمسك الله رزقه عن النَّاس من يرزقك؟ من يطعمك؟ من يسقيك؟ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا ـ غار في الأرض ـ فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك: ٣٠]؟ لا أحد إلَّا الله.

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ ـ من السحاب ـ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٧٠]، لذلك من الآداب المستحبة أن يقول المسلم إذا شرب الماء: «**الحمد لله الَّذي جعله عذبًا فراتًا برحمته، ولم يجعله مالحًا أجاجًا بذنوبنا**»[(١)].

٣ ـ ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾:

﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٩، ٨٠]، انظروا إلى أدب إبراهيم عليه السلام مع ربِّه ﷻ، لم يقل: والَّذي هو يمرضني

(١) سبق تخريجه (١٩/١).

QaradawiBooks.com

ويشفين، لأن الإمراض ليس مثل الإطعام، الإطعام هذا مستمر إنَّما المرض يأتي للإنسان في بعض الأحيان، ثمَّ إنَّ إبراهيم عليه السلام ما أحب أن ينسب المرض إلى الله، نسب الإطعام والسقاية إلى الله، إنَّما المرض قال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ ﴾، إذا أصابني المرض لأنِّي أهملت في سنن الله أو أفرطت في الطعام أو أكلت ما لا يجوز أن يؤكل، لأن الأمراض بأسباب وهي غالبًا من صنع الإنسان في الغالب، ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠]، إنَّما الشفاء نسبه إلى الله، الله هو الشافي.

٤ ـ ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾:

﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء: ٨١]، هل الموت نعمة؟ نعم الموت نعمة من الله، كما ذكر القرآن في سورة النحل وهي تسمَّى سورة النعم، يقول الله: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ [النحل: ٧٠]، انظروا لو أنَّ ربنا سبحانه لم يقدِّر علينا الموت، وظلت الأرض تتكاثر والناس لا يموتون ماذا تكون النتيجة؟ النتيجة أنَّ النَّاس سيفكرون في التخفيف، الجماعة الَّذين عاشوا ثلاثمائة سنة وأربعمائة سنة يجب التخلُّص منهم، تصوَّروا عندما يفكر الأبناء في التخلُّص من الآباء، أو الأحفاد في التخلُّص من الأجداد، فالأولاد يتعلمون ويحصلون الشهادة الجامعية، ويتخرَّجون ثمَّ لا يجدوا وظيفة، لأنَّ الآباء والأجداد يستولون على الوظائف، فالموت هذا نعمة لأنَّه يعطي فرصة للأجيال الجديدة.

والأرض أيضًا تضيق بأهلها، إذا كان الآن النَّاس يفكرون في تحديد النسل وأمثال هذه الأمور رغم أنَّ الموت يقوم بهذه العمليَّة نيابة عنهم.

﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ﴾ في الوقت الَّذي حدده وأجله، لأنَّ الله جعل لكل حي أجلًا، ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ [المنافقون: ١١].

QaradawiBooks.com

ولكن من فضل الله أنَّ الموت هذا ليس نهاية المطاف، بل هناك حياة أخرى تُجزى فيها كل نفس بما كسبت وتخلَّد فيما عملت، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فالله تعالى يميت الإنسان ثمَّ يحييه لدار أخرى هي دار الخلود.

٥ ـ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾:

﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، من نعم الله أنَّه غفار وتواب وعفو ورحيم ورؤوف، فهو يتوب على العصاة، ويعفو عن المذنبين، ويكفِّر السيئات، ويغفر الخطايا، ولذلك قال سيِّدنا إبراهيم: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، انظر إبراهيم عليه السلام الَّذي اتخذه الله خليلًا، والَّذي نذر نفسه وحياته لله، والَّذي عاش لله، هاجر من وطنه في سبيل الله، جاد بنفسه للنيران، وضحى بماله للضيفان، وضحى بولده للقربان، كانت حياته كلها لله ومع الله ومع هذا يقول: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

من عمل منَّا عملًا صالحًا، أو اعتمر عمرة، أو أنفق من ماله شيئًا ظنَّ أنَّه عمل ما لم يعمله أحد من العالمين، وإبراهيم رغم كل ما قدَّم لله يرى أن لديه خطايا، وأن هذه الخطايا محتاجة إلى المغفرة، وأنَّ الَّذي يغفرها هو الله عزَّ وجلَّ، ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

ولما ذكر هذه النعم الخمس دعا ربه عزَّ وجلَّ بأدعية خمسة، توجَّه إلى الله بالدعاء، فهو الإلٰه الحق الَّذي يُدعى فيستجيب ويُرجى فيحقِّق الرجاء، إذا كان هؤلاء الأصنام لا يسمعونكم إذ تدعون فالله تعالى يسمع من دعاه، ولذلك اتجه إلى الله بالدعاء، ودائمًا سيِّدنا إبراهيم يتَّجه إلى الله بالدعاء، ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى

QaradawiBooks.com

ٱلسَّمَآءِ ۞ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۞ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ۞ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٣٨ ـ ٤١].

الحكم والحكمة في القرآن:

هنا دعا إبراهيم ربه: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٣]، الحكم يعني الحكمة، كما قال الله عن يحيى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴾ [مريم: ١٢]، وقال عن يوسف: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ [يوسف: ٢٢]، وقال عن موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ [القصص: ١٤]، وقال عن لوط: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، وقال عن داود وسليمان: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقال عن الأنبياء جميعًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

فالحكم هو الحكمة، والله تعالى ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

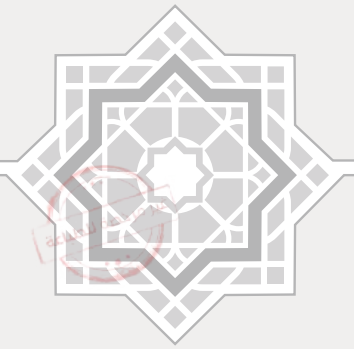
ندعو الله بدعوات الخليل إبراهيم عليه السلام، ونسأله عز وجل ألا يخزينا يوم يبعثون، ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

* * *

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي



دروس في تفسير

سورة النمل



نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

حقيقة العلاقة بين الجن والإنس(١)

فقد فرغنا فيما استمعنا إليه بالأمس واليوم، من سورة النمل، وأبرز ما في سورة النمل، قصَّة سليمان عليه السلام، وما آتاه الله من الملك، وما سخَّر له من العوالم، ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧].

وأريد أن أُعلِّق على جانب واحد من هذه القصَّة، وهو تسخير الجنّ لسليمان عليه السلام، لأنَّ أفكار النَّاس في علاقة الجن بالإنس، قد تفاوتت تفاوتًا بعيدًا، فهناك أناس تفرض الإيمان بالجن، وهناك أناس تُكذِّب الجن نهائيًّا، وهناك المنهج الوسط دائمًا.

نحن نؤمن بأنَّ هذا العالم فيه جانب مسطور غير منظور، وجانب مكشوف منظور، هناك عالم الغيب، وعالم الشهادة.

فعالم الشهادة الَّذي نراه نحن، قليل جدًّا بالنسبة لعالم الغيب الَّذي لا نراه، والقرآن يقول: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]، فالواقع أن ما لا نبصره أكثر بكثير ممَّا نُبصره، حتَّى إن علماء الكون والطبيعة، يقولون: إنَّنا لا نبصر من العالم المادي، بكل أدواتنا ـ الميكروسكوبيات وغيرها ـ إلَّا حوالي ٣٪ فقط، و٩٧٪ لا نراه، ويسمونه بالأعماق السوداء.

(١) من دروس تراويح ١٤٢٣هـ.

QaradawiBooks.com

ونحن نؤمن بـأن هناك عالَمًـا غائبًا عنـا، كالملائكـة، والعرش، والكرسي، ونحوها ممَّا لا نعرف عنه شيئًا.

وهناك عالم الشهادة، كعالم الإنسان، والحيوان والنبات والجمادات والأفلاك، الَّتـي بقدرتنا أن نراه. ويجب أن نعلـم ونوقن بأن عجزنا عن قدرة الشيء، ليس دليلًا على عدمه. فقد عاش النَّاس من أوَّل الخليقة إلى عهد قريب، لا يرون الميكروبات والفيروسات، إلخ، الَّتي أصبحنا نراها الآن، ويرى علماؤنا قطرة الدم، ويخبروننا عمَّا فيها من مليونات الخلايا.. وقطرة المنيّ وما بها من مئـات الحيوانات المنوية، إلخ، وأصبحت هذه الأشياء معلومة ومحسوسة للناس، تُرى بالمجاهر، والمُكبِّرات.

وهذا لا يعني أنَّها لم تكن موجودة، وإنَّما لم يكن أُعطي الإنسـان أشياء لإدراكها، فعدم وجود أداة ندرك بها الملائكة أو ندرك بها الجن، لا يعني أنَّهم معدومون، أو غير موجودين.

فنحن نخالف الماديين، الَّذين يُنكـرون كل ما هو وراء المادَّة، كل ما لا يدخل تحت دائـرة الحس لا يؤمنـون به، فما لا يمكـن إدخاله المختبر والمعمل لا يؤمنون به.

طفولة الماديين:

تقول لأحدهم: «الله». يقول لـك: أرأيته بعينك؟ أسـمعته بأذنك؟ أشممته بأنفك؟ أحسسـته بيديك؟ أذقته بلسـانك؟ فكيف تؤمن به؟! وهؤلاء الماديـون يمثلون الطفولة الإنسـانيَّة، فالحيـوان لا يؤمن بغير المادَّة، ولا يؤمن إلَّا بالشـيء الَّذي أمامه، فالجاموس والحمار وغيرها لا تؤمن بأكثر من الطعام الَّذي يوضع أمامها، والناس الَّذين حولها، وهذا هو عالمها.

QaradawiBooks.com

والطفل أيضًا، حين يولد لا يعرف إلَّا أُمَّه، فإذا زاد إدراكه قليلًا عرف أباه، فإذا زاد قليلًا عرف إخوته، ثمَّ أقاربه الَّذين يزورونه، ويرتقي شيئًا فشيئًا، ليعرف من حوله، ولكن هذا الطفل لا يعرف المعنويات، لا يعرف إلَّا الماديات، وكلَّما ازداد تمييزه بدأ يدرك من الأشياء ما غاب عنه، حتَّى يبلغ الرشد، فيعلم أن هناك أشياء تُدرك بالعقل، ولذلك فالماديُّون يمثلون الطفولة الإنسانيَّة.

وفي مقابل هؤلاء الماديين، مَن يمثلون المبالغات، فيؤمنون بالجن، وأنَّهم قادرون على كل شيء، وكأنَّه يؤله الجن، فهم يتصرفون في الإنسان وفي الكون، ويَركبون الإنسان ويدخلون فيه، ويتكلمون باسمه.

وكم رأينا من المسلمين، الَّذين يذهبون إلى أشخاص يقولون لهم: ركِبني جنيّ. ونلاحظ من أحوالهم، أنَّ الرجل تركبه «عفريتة»، والمرأة يركبها «عِفريت». وربَّما يكون العفريت فرنسي، أو أوربي، أو أمريكي، أو صهيوني، من أي جنسية... مبالغات كثيرة. وينصبون حلقات يسمونها «حلقات الزار» لمركوبي العفاريت هؤلاء.

فهل هذا الكلام صحيح موافِق للشرع؟!

والذي أراه ـ أيُّها الإخوة ـ أنَّنا يجب أن نوقن بأمور هامة:

أولًا: الإنسان هو أكرم مخلوقات الله تعالى عليه، فالله يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]. وسخَّر الله لهذا الإنسان ما في السماوات وما في الأرض، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، كل ما في الكون مُسخَّر لخدمة الإنسان ولمنفعته، أمَّا الإنسان نفسه فمُسخر لخدمة الرحمن.

QaradawiBooks.com

فكل ما في السماوات والأرض تجدها مصنوعة صناعة، ومُهيَّأة تهيئة، لخدمة الحياة الإنسانيَّة على الأرض، وأرسل الله رسله من البشر.

فكيف يَتمكن الجنّي، أن يُسخّر الإنسي، ويتحكّم فيه، يركبه ويدخل في جسده، ويتكلم باسمه، ولا يوجد دليل في القرآن على هذا كله.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، قال بعض المفسِّرين أنَّه في الآخرة[1]. ولو قلنا إنَّه في الدُّنيا، فالمسّ شيء، وركوب الإنسان ودخوله فيه، وتحكمه في تصرفاته، ونطقه على لسانه، وعدم تمكن الإنسان أن يفعل شيئًا أمامه، هذا شيء آخر.

فالمسُّ كما قال الله عن أيّوب عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]. بالوسوسة والإغراء والكلام السيئ، وهذا هو الَّذي يملكه الشيطان، وهذا ما قاله القرآن على لسان الشيطان نفسه في الآخرة، وقال الشيطان لما قُضي الأمر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢]. نفي مطلق، نكرة في سياق نفي، أنا أغريتكم ووسوست لكم، فاستجبتم لي، وليس لي عليكم من سلطان غير هذا. وهذا هو صريح القرآن.

ثالثًا: والَّذي نعرفه من القرآن أن بعض الإنس سخَّروا الجن، ولكن ما عرفنا أن جنيًّا سخَّر إنسيًّا، فسليمان عليه السلام ـ وهو من الإنس ـ سُخِّر له الجن، ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣]. كانوا يعملون له ما بين ﴿بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨]. وظلوا مسخَّرين حتَّى مات عليه السلام، ولم يكونوا يعرفون

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/٦، ١٠).

QaradawiBooks.com

بموته في بداية الأمر، فكانوا يعملون ويشتغلون ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

رابعًا: الإنسان بعلمه يمكن أن يكون أقوى من العِفريت: فسيدنا سليمان عليه السلام، حينما أراد أن يأتي بعرش ملكة سبأ «بلقيس»، ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨] والملأ: هم جلساؤه وحاشيته، الَّذين يجلسون في مجلسه، ويملؤون العين مهابة، هم أشراف القوم.

قال لهم: ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قبل أن ينتهي مجلس الحكم هذا ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾، هذا رأي العفريت وقدرته.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ لا بدَّ أنَّه من الإنس، لا يمكن أن يكون ملكًا من الملائكة، لأن الكلام موجه إلى «الملأ» الَّذين يجلسون معه، ولا يمكن أن يكون من الملائكة، قال هذا الإنسي: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قبل ما تغمض عينيك، بواسطة ما عنده من علم بالكتاب، وهذا يدل على أنَّ الإنسان بعلمه يمكن أن يكون أقوى من العِفريت، فالعفريت لم يستطع أن يفعل هذا، ونحن لا نعلم ما القوَّة الَّتي استخدمها هذا الإنسي، ولكنَّنا نستدل على أنَّ الجن ليس كما يتصور النَّاس.

فقد صارت عند المسلمين اعتقادات غريبة في الجنّ، بوجود الجنّ في كل مكان، حتَّى إن من التربية السيِّئة الَّتي يتربى عليها الأطفال، أن يُخوَّفوا بـ «العفاريت» و«أمِّنا الغُولة»، و«أبو رجل مسلوخة»... إلخ، ويحكي الأطفال بعضهم لبعض هذه الحكايات، فيمتلئ الطفل رُعبًا.

QaradawiBooks.com

كان في حارتنا مدرسة نتعلَّم فيها ـ ونحن أطفال ـ بالنهار، ولا نقربها بالليل؛ لأن في البدروم ـ كما فهَّمونا ـ العفريتة الَّتي تسمَّى «أم جلاجل»، فإذا جاء المغرب، واقترب أحد من المدرسة، كان يركض ركضًا سريعًا، خوفًا من العفريتة «أم جلاجل» هذه. إلَّا في رمضان، فالمشايخ والعلماء كانوا يُعلموننا أنَّ الشياطين والعفاريت مُصفَّدة، فكنا لا نخاف في رمضان.. فالعمليَّة نفسيَّة.

فموضوع أنَّ العفاريت تركب الإنسان وتتحكم فيه، لا يوجد عليه دليل من القرآن الكريم، ولا دليل صحيح من السُّنَّة النبويَّة، فهناك أحاديث ولكن ليس منها ما يصح بسند قطعي إطلاقًا.

خامسًا: ولماذا لا يتحكم الجانّ إلَّا في المسلمين، ويترك الأمريكان والصهاينة، فإن كان الجان الكافر يأتي إلى المسلمين، ألا يوجد جان مسلم يذهب إلى هؤلاء، ويكون عونًا لنا عليهم؟!

جاء رجل إلى الشيخ الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يشتكي فقال له: ما لك؟ قال الرجل: أنا مسكون. قال: ومن سَكَنك؟ قال الرجل: جنّي. قال: ولمَ لم تسكنه أنت، وأنت طويل عريض، لماذا تركته يسكنك؟!

أيها الإخوة:

نحن نؤمن بأنَّ الجن له قوَّة، ولكن لم يُسلِّطهم الله على بني البشر، إلَّا ما سلَّط به الشياطين من الوسوسة، كما حكى الله عنه قوله: ﴿... وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ۞ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٩، ١٢٠]، ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

QaradawiBooks.com

هذا النوع هو الَّذي سلَّط الله به الشياطين على الإنسان به، فهي مسألة نفسية، أمَّا أن يُسلِّطهم عليهم بما نعتقده هذا، لا دليل عليه، ولا ينبغي أن نثير هذا الاعتقاد، ومعظم هذه الأشياء أمراض نفسية، وعصبيَّة، مثل ازدواج الشخصيَّة، إلخ من الأمراض الَّتي لها أسماؤها عند الأطباء، وهي أمراض يمكن أن تُعالَج. ولكن الاعتقاد دائمًا يسود، فلو ذهبتَ به إلى الطبيب، ما دام معتقدا أنَّ العِفريت راكبه، فلن ينفع معه طبّ الطبيب، فالاعتقاد يَغلب، والإيحاء له أثره، في الشفاء والعِلاج.

وقد أحبَّ بعض الأطباء أن يُجرِّب مقدار تأثير الإيحاء على الإنسان، فوزَّع على بعض المرضى في عيادته حبة من الحلوى، وبعد قليل، قال لهم: لقد أخطأت فهذه ليست حلوى وإنَّما هي دواء يسبب القيء. وما إن أنهى كلامه إلَّا وقاء جميع من معه بالعيادة. مع إنَّها لا تسبِّب ذلك، وما هي إلَّا حبة من الحلوى. ولكنَّه تأثير الإيحاء على الإنسان.

وأنا أريد ـ أيُّها الإخوة ـ أن يتنزَّه العقل المسلم عن الأشياء الَّتي لا تقوم عليها الأدلَّة القطعية. وما يُروى عن بعض العلماء، أنَّه خرَّج جنِّيًّا من أحد النَّاس...، هذه تفسيرات واعتقادات عند بعض النَّاس، وهي نتيجة للإيحاء، كما قلت.

أمَّا الأدلَّة فلا يُوجد عندنا دليل قطعي على أنَّ الجِنّي، يَركب الإنسان ويَحكُمه ويتحكّم فيه، بل إنَّ عندنا من الأدلَّة، ما تُبيِّن أنَّ الإنسان هو الَّذي سخَّر الجن، وطوَّعه له، وهذا ما ينبغي أن نؤمن به وأن نربّي عليه أبناءنا وبناتنا.

* * *

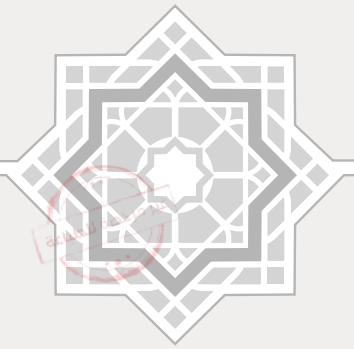
نسخة محايدة
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



من دروس التفسير

سورة القصص



نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الأول
قصة النبي موسى عليه السلام في سورة القصص[1]

الحكمة من تكرار القصص:

نقرأ الآن في سورة القصص، وسورة القصص تُعنى بقصة نبي الله موسى عليه السلام، ومن المعروف أن قصَّة موسى وبني إسرائيل تكررت في القرآن الكريم مجملة ومفصَّلة بعض التفصيل، ومفصَّلة كل التفصيل في سور كثيرة جدًّا، أكثر القصص تكرارًا في القرآن الكريم قصَّة موسى وقومه، حتَّى قال بعض المفسرين: كاد القرآن يكون لموسى وقومه.

هناك سورتان من أكثر سور القرآن اهتمامًا بقصة موسى، هما: سورة طه، وسورة القصص، نحن نجد في القرآن سورة نوح، وسورة إبراهيم، وسورة يوسف، وسورة يونس، وسورة هود، ولكن لا توجد سورة تُسمى سورة موسى، فبعض السلف يسمي سورة طه سورة الكليم، كليم الله موسى، لأنَّها أيضًا عُنيت بقصة موسى عليه السلام عناية بالغة، حوالي ثلاثة أرباع السورة في قصَّة موسى.

وكذلك عُنيت سورة القصص بقصة موسى، فنجد في أوَّل السورة: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٣].

(١) من دروس تراويح ١٤٢٤هـ.

QaradawiBooks.com

معاناة الأنبياء منذ الصغر:

فرغم أنَّ سورة القصص وسورة طه اشتركتا في أشياء، ولكن نجد سورة القصص عُنيت بأشياء لم تعن بها أيّ سورة أخرى من قصَّة موسى، ولا حتَّى سورة طه الَّتي فصلت في قصَّة موسى ما فصلت، وممَّا فصلته سورة القصص: طفولة موسى، هذه الطفولة الَّتي نجد فيها معاناة أنبياء الله من أوَّل يوم، هناك أناس يولدون وفي فمهم ملعقة من ذهب كما يقولون، وهناك أناس يعانون آلام الحياة بورودها وأشواكها وحلوها ومرّها، والأنبياء من هذا النوع.

الله تعالى يقول لسيدنا مُحَمَّد ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨]، أبوه مات قبل أن يولد، وأمه ماتت وهو ابن ست سنين، وجده مات وهو ابن ثمان سنين، ورعى الغنم، وذاق مشقة الحياة ولأواءها.

وسيدنا يوسف منذ كان صبيًّا صغيرًا يعاني، أراد إخوته أن يتخلصوا منه ورموه في الجب، وباعوه بثمن بخس، وخدم في البيوت، وتعرض للفتنة والإغراء ثمَّ رمي في السجن، هكذا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وهنا نجد سيِّدنا موسى في محنة من أوَّل يوم، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، انظروا إلى الوحي الإلٰهي وهو يقول لها: إذا خفت على ابنك ارميه في البحر ولا يهمك، ضعيه في صندوق وارميه في البحر ولا عليكِ، فسوف نرده إليكِ، ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾، وفعلًا استجابت الأم، ووضعته في التابوت وألقته في اليم كما أوحى الله إليها.

QaradawiBooks.com

إرادة الله نافذة:

هذه حياة موسى، بدأت بهذا لأنَّه نشأ في عهد ملك يذبح أبناء بني إسرائيل الذكور، ويستحيي نساءهم، أي: يستبقيهم أحياء للخدمة والاستمتاع وكذا، ولكن لكي تنفذ إرادة الله لأنَّه قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

لكن لتنفذ إرادة الله بتمكين هؤلاء المستضعفين في الأرض ويرثون الأرض، ويصبحوا هم سادة عليها ويُري الله فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون، كيف ينفذ الله إرادته؟ عندما يريد الله أن ينفِّذ إرادته ينفذها بطريقة عجيبة، فيشاء الله أن يكون هذا المولود الَّذي سيزول على يده ملك فرعون، يذهب إلى بيت فرعون، ويأخذه فرعون ويربيه في بيته، انظروا إلى القدر الإلٰهي عندما يسخر بالناس وبأفاعيلهم وتدابيرهم، يا فرعون يا من تقتل وتذبح وتعذب من أجل ألَّا يأتي المولود الَّذي سيزول ملكك على يديه أنت الَّذي تتولى تربيته في قصرك.

حتى عندما همَّ فرعون أن يقتل موسى الطفل الصغير سخَّر الله امرأة فرعون لتحنو على هذا الصغير، وتقول لفرعون: نحن لا ننجب فدعوه نتخذه ولدًا، ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩]، وهم لا يشعرون بما سيجري منه.

يقول الله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، اللام هذه يسميها علماء النحو: لام العاقبة، أو لام الصيرورة،

QaradawiBooks.com

هم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوًّا وحزنًا، بل التقطوه ليكون لهم قرة عين، لكن النتيجة والعاقبة أنَّه صار لهم عدوًّا وحزنًا، كما في قول أبي العتاهية:

لِدُوا للمــوتِ وابنُوا لِلخَرابِ فكُلّكُمُو يَصِيــرُ إلى ترابِ[1]

فهل يلد الإنسان من أجل الموت؟ وهل يبني من أجل الخراب؟ لا، ولكن النتيجة هي الموت، والبناء نتيجته الخراب في النهاية، كما جاء في الحديث: «**عِشْ ما شئتَ فإنَّك ميِّت، وأحببْ من شئتَ فإنَّك مفارقه**»[2].

سورة القصص عُنيت بشباب موسى:

شاء الله أن يذهب هذا الطفل ويربّى في بيت فرعون، المهمُّ أنَّ الَّذي نريــد أن نركِّز عليــه في هذه الســورة أنَّ هذه الســورة عُنيت بشــباب موســى عليه السلام، القرآن كلُّه لم يذكر لنا ما حدث لموســى في فترة شبابه، فهذه السورة عُنيت بهذه القضيَّة، وعُنيت بحادثة مهمَّة، وهي حين دخل المدينــة، ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

واحد من بني إســرائيل، والثاني من المصريِّين، ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾، سيِّدنا موسى كان قوي البنية، مفتول الذراعيــن، ضرب الرجل ضربة فقضــت عليه، ولم يكن

(١) الحماســة البصرية لصدر الدين البَصْري (٤٢٧/٢)، تحقيق مختار الدين أحمد، نشــر عالم الكتب، بيروت.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٤٢٧٨)، والحاكم في الرقائق (٣٢٤/٤)، وصحَّحه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٦٤٤): رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن. وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٧٣)، عن سهل بن سعد.

QaradawiBooks.com

يقصد سيِّدنا موسى قتلَ الرجل، كان يريد أن يخلص الرجل من شدته، ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾، أي: ضربه ضربة بجمع يده ليخلص الرجل من شره ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾، أي: مات الرجل، ويبدو أن هذه الضربة أصابت الرجل في مقتل فلم يتحملها، فأصيب بسكتة أو شيء من هذا فمات.

الأنبياء طلبوا المغفرة من الله:

فقال موسى: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٥، ١٦]، كل الأنبياء طلبوا المغفرة من الله ﷻ إذا أخطؤوا، سيِّدنا نوح قال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨]، وسيدنا إبراهيم قال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وسيدنا سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥]، وسيدنا موسى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

الاستغفار شأن الأنبياء، فموسى عليه السلام حينما ارتكب هذه الفعلة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، لأنَّه لم يكن متعمّدًا أن يقتل هذا الشخص، ثمَّ قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]، ربِّ بما أنعمتَ عليَّ بالقوَّة لن أكون ظهيرًا للمجرمين، لن أستخدم قوتي في تأييد المجرمين والظلمة، وهذا ميثاق من موسى لله ﷻ أن يكون مع الحق لا مع الباطل، وأن يكون مع العدل لا مع الظلم، وأن يكون مع الأخيار لا مع الأشرار، ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، لن أكون ظهيرًا ومعينًا للمجرمين، لن أكون عونًا ولا سندًا لهم.

QaradawiBooks.com

أعوان الظلمة:

القرآن كما حرَّم الظلم، حرَّم معاونة الظالمين، لا تكن ظالمًا، ولا تكن عونًا لظالم فتكون شريكًا له في الإثم، ولذلك وجدنا هذه السورة تقول: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨]، حتَّى الجنود، لماذا؟ لأن الجنود هم أدوات الظالم في طغيانه على المظلومين وبطشه بالضعفاء، الظالم بمَ يظلم؟ بهؤلاء الجنود، لذلك يقول الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠].

الجندي والقائد مشتركان في الإثم والوزر وفي دخول النار، طبعًا العقوبة ليست واحدة، ولكنهما مشتركان في الإثم، ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، فرعون وكبار معاونيه لهم أشدُّ العذاب، وأمَّا الآخرون فلهم شديد العذاب، إنَّما الكل معذبون، والقرآن يحذر أن تكون من أعوان الظلمة.

ومن الطرائف الَّتي تروى أنَّ الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين سُجن في عهد العباسيِّين، في المحنة الشهيرة في التاريخ الإسلامي محنة خلق القرآن.. القرآن مخلوق أم غير مخلوق؟ المهم أنَّ الإمام أحمد وهو في السجن سأله السجَّان فقال: يا أبا عبد الله، ما قولك في الأحاديث الَّتي وردت في أعوان الظلمة؟ قال: أحاديث صحيحة. قال فما تقول فيَّ؟ هل أنا من أعوان الظلمة؟ قال: لا، أنتَ لستَ من أعوان الظلمة، أعوان الظلمة من يخيط لك ثيابك، من يطهو لك طعامك، من يقضي لك حاجتك، أمَّا أنتَ فمن الظلمة أنفسهم[1].

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي صـ ٤٣٥، تحقيق حسن المساحي سويدان، نشر دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

QaradawiBooks.com

فالإسلام يريد من المسلم ألَّا يعين الظالمين أبدًا، ولذلك سيِّدنا موسى قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾، لكن سيِّدنا موسى لم يره أحد وهو يقتل الرجل، إلَّا أنَّ الخبر انتشر عن طريق واحد، أراد سيِّدنا موسى أن يبطش به فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]، فعرف سيِّدنا موسى أنَّ الخبر انتشر، ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨].

فجاءه من ينصحه بالخروج، ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]، النَّاس بلغهم أنَّك أصبحت تنتصر لقومك، فأدرك نفسك واخرج من المدينة، ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

الأخذ بالأسباب ليس مذمومًا:

وفعلًا سيِّدنا موسى أخذ بالأسباب خرج من المدينة خائفًا يترقّب، وهذا يدل على أنَّ الأخذ بالأسباب ليس مذمومًا، لم يقل موسى: ليكن ما يكون لن أخرج، لا، بل خرج فعلًا، لا مانع إذا وجد الإنسان الخطر أن يهرب منه، لماذا يواجه الخطر وهو لا يقدر على صدّه؟ إذا كان التيار أقوى منك فلماذا تقف ضده؟ ولذلك سيِّدنا موسى خرج، ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].

وتوجَّه تلقاء مدين، ناحية مدين، من ناحية سيناء إلى ناحية الأردن، ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢].

QaradawiBooks.com

ورود ماء مدين:

وفي طريقه إلى مدين حدثت له حادثة مهمَّة أثرت في مستقبل حياته، ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِّ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣]، مرَّ على ماء مدين، فوجد بئرًا يسقي النَّاس منه أغنامهم وإبلهم وبقرهم، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، وجد من بين النَّاس فتاتين تتبعان أغنامهما وتبعدهم حتَّى لا يختلطوا بأغنام النَّاس، فسألهما: لماذا لا تسقيان؟ ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾؟ لماذا تقفان بعيدًا ولا تشاركان القوم في سقي أغنامكما؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، قالتا: نحن ننتظر الرعاة حتَّى يفرغوا من سقي أنعامهم، ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾، يصدروا يعني: يسقوا أنعامهم ويرجعوا ويخلوا لنا المكان فندخل نحن.

عمل المرأة خارج بيتها:

وهذا يدل على أنَّه لا مانع من أن تعمل المرأة، ولكن لا تزاحم الرجال بغير مبرر وبغير ضرورة، لا، بل تنتظر ثمَّ تدخل، ثمَّ قالتا له: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، أي: أنَّ الَّذي جعلنا نأتي نحن بالأغنام ولا يأتي أحد غيرنا، أن أبانا شيخ كبير، ومعنى هذا: أنَّهما ليس لهما إخوة ذكور، وإلا لجاء إخوتهم الذكور، فهم أولى بهذا الأمر.

فسيدنا موسى بشهامته تطوَّع وسقى لهما، حاول أن يخلي لأغنامهم الطريق ويدخل بها، ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، قال: يا ربِّ أنا محتاج لخيرك ونعمتك، لأنَّه إنسان طريد من بلده، غريب عن هذه البلدة، ليس معه مال ولا زاد،

QaradawiBooks.com

ولا يعرف أحـدًا ولا يعرفه أحد في هذه الديار، كل أسـباب المسـكنة والفقـر والحاجة عنده، فلم يجـد إلَّا الله، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

لم يقل سيِّدنا موسى: يا رب أغنني، أو يا ربِّ هب لي مالًا أو كذا، لأن هناك دعاء من غير دعاء، سـيِّدنا أيُّوب مثلًا ماذا قال؟ قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، لم يقل: اشـفني يا رب، وإنَّما شكا حاله، وكذلك سيِّدنا موسـى، لم يطلب من ربه شيئًا إلَّا أنَّه عرض حاله على الله، ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

كلام الرجل مع المرأة:

وما إن قال هذه الكلمة حتَّـى جاءه الفرج، جاءتـه إحدى الفتاتين اللتيـن سـقى لهمـا، ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥]، كلَّمته، لا مانع أن تكلَّم المرأة الرجل، وسيِّدنا موسى كلَّمها، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾؟ وهذا يدلُّ على أن كلام الرجل مع المرأة، ورؤية الرجل للمرأة ليس فيها شـيء، ما دام بعيدًا عن الإثارة، وبعيدًا عن الفتنة.

القرآن يعرض هذه الأمور في غاية من التلقائيَّة والعفويَّة في أكثر من مـكان، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، كيف يدخل زكريا على مريم ويكلمها وتكلمه، ويراها وتراه، هو زوج خالتها، وزوج الخالة ليس محرمًا.

ملكة سبأ بلقيس قالت: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۞ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۞ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا

QaradawiBooks.com

﴿ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۞ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ۞ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۞ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٢٩ ـ ٣٥].

ولما جاءت عند سيِّدنا سليمان عليه السلام كلمها وقال لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢]، ليس هناك تحريم لكلام الرجل مع المرأة، ولا لرؤية الرجل للمرأة، من يقرأ القرآن لا يجد فيه هذا.

حتى إنَّ القرآن حينما قال لنساء النبيِّ ﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]، بيَّن أنَّ الممنوع هو الخضوع بالقول، ومعنى الخضوع بالقول: أن تتكسر المرأة وتتميّع في الكلام، الإغراء والإثارة، أن تكلِّم المرأة الرجل بطريقة تثير غريزته، ومعروف هذا، أمَّا الكلام الجادّ فلا مانع منه، ولذلك قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾، مرض الشهوة والغريزة، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، وحتَّى الآية الَّتي يستدلُّون بها على أنَّ المرأة لا تخرج ولا تعمل ولا تتعلَّم ولا كذا، وهي قول الله: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وهل يكون التبرُّج في البيت؟ إذا كانت المرأة لن تخرج من البيت أبدًا فكيف تتبرَّج؟

المهمُّ أنَّ شأن المرأة في القرآن هكذا، فكما حدث في هذه القصَّة، والقرآن عندما يقصُّ علينا هذه القصص لا يقصُّها لمجرَّد التسلية، لا، الله تعالى يقول بعد أن قصَّ علينا قصَّة سيِّدنا يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

QaradawiBooks.com

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]، قال له: أنت أصبحت في أمان الآن، وفي أرض غير الأرض، وفي دار غير الدار، ما عاد يُهِمُّك.

الرجل الكبير ليس شعيبًا النبيَّ:

بعض المُفَسِّرين يقولون: إنَّ الرجل هذا هو شُعَيْب النبيُّ، وهذا كلام لا دليل عليه، هذا الرجل ليس هو النبيَّ شعيبًا، فإنَّ بين شُعَيْب وموسى مسافة من الزمن، كما تدلُّ عليه القصص القرآنيَّة، فالقرآن وهو يقصُّ علينا قصص الأنبياء بعضهم وراء بعض، ذكر نوحًا، ثمَّ هودًا، ثمَّ صالحًا، ثمَّ إبراهيم ولوطًا، ثمَّ شعيبًا ثمَّ موسى، فموسى بعد شُعَيْب وليس معاصرًا له.

ثُمَّ لو كان هذا الرجل هو النبيَّ شُعَيْبًا فلماذا يُنَكِّره الله ويُجَهِّله؟ لا سيَّما وقد تمَّت بين هذين النبيِّين الكريمين مصاهرة، صحيح وردت روايات ضعيفة تقول: إنَّ هذا الرجل كان اسمه شعيبًا، وهذا معقول أن يكون أهل مدين يسمون شعيبًا؛ لأنَّ رسولهم كان شعيبًا فهم يسمون أولادهم على اسم نبيِّهم، يحتمل هذا، إنَّما ليس هو نبيَّ الله شعيبًا، فبعض النَّاس يقول: ابنة النبي شُعَيْب قالت كذا، أو ابنتا النبي شُعَيْب قالتا كذا، من الَّذي قال لكم إنَّهما ابنتا شُعَيْب عليه السلام ؟ هذا كلام لا دليل عليه، لذلك أنا دائمًا أقول: ابنة الشيخ الكبير، أو ابنتي الشيخ الكبير المذكور في سورة القصص، وليس ابنتي شعيب.

أسس اختيار الرجال للأعمال:

الرجل هذا كان رجلًا حكيمًا قال لموسى: ﴿لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ثمَّ طلبت إحدى البنتين من أبيها أن يوظف هذا

QaradawiBooks.com

الرجل عنده، ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

قالت البنت لأبيها: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾، يا أبت وظِّفه عندك، فهذا رجل قويٌّ أمين، وهو خير من استأجرتَ، الرجل الصالح للعمل لا بدَّ أن يشترط فيه شرطان: القوة، والأمانة، فالقوة تعني القدرة على العمل، ومعرفة العمل والمهارة فيه، والخبرة به، فهي صفة معرفيَّة إدراكية عمليَّة، والأمين صفة أخلاقيَّة، فقد يكون الشخص خبيرًا في العمل لكنَّه حرامي، فهذه مصيبة، لكن نحن نريد رجلًا أمينًا وخبيرًا في نفس الوقت.

ممَّا كان سيِّدنا عمر يشكو منه: عجز الثقة وجلد الفاجر[1]، الطيب الخلوق الثقة الصالح عاجز ليست لديه كفاءة، والقادر فاجر، فاجتماع القوَّة والأمانة في شخص شيء عزيز، فهذه الكلمة الَّتي قالتها هذه الفتاة عفوًا وضعت أسس اختيار الرجال للأعمال.

في كتب السياسة الشرعيَّة وغيرها عندما يتكلم ابن تيمية وغيره ويبين كيف نختار النَّاس يتكلم عن القوَّة والأمانة، فالذي وضع هذه الأسس هو هذه الفتاة، ابنة هذا الشيخ الكبير ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾.

ثم قال الشيخ الكبير لموسى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧] ﴿ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾، يعني ثمان سنوات.

(١) مجموع الفتاوى ابن تيمية (٢٥٤/٢٨).

QaradawiBooks.com

الحِجَّة (بكسر الحاء) هي السَـنَة، والحَجَّة (بفتح الحاء) هي المرَّة من الحج، فيقول الشـخص: أنا حججت ثلاث حَجَّـات، أو حججتُ خمس حَجَّات، أو عشـر حَجات، وهكذا، والحُجَّـة (بضم الحاء) هي الدليـل، فلدينا حِجَّـة، وحَجَّـة، وحُجَّـة، ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾، يعني ثمان سـنوات، ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٧، ٢٨].

وهذا من وعي وذكاء وحكمة سيِّدنا موسى عليه السلام، حيث لم يرضَ أن يُلزم نفسه بشيء قد لا يقدر عليه فيما بعد، ولذلك لما سُئل النبيُّ ﷺ أَيَّ الأَجَلَيْنِ وَفَّى مُوسَى؟ قَالَ: «**أَبَرَّهُمَا وَأَوْفَاهُمَا**»[1]، يعني قضى العشر سنين لكنَّه لم يُلزم نفسه بها، وهذا من الذكاء ألَّا يُلزم الإنسان نفسه بشيء قد يعجز عن الوفاء به بعد ذلك، اجعلها في نفسك، أن تعمل الأفضل، فإن عجزتَ فلا عليك.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، وقضى سـيِّدنا موسـى الأجل، وسـار بأهله، وحدث ما حدث في القصَّة.

لا عصبيَّة إلَّا للحق:

يكفينا هذا من هذه القصَّة الَّتي قصها القرآن علينا، قصَّة بني إسرائيل. ومن عجائب القرآن ـ أيُّها الإخوة ـ أنَّه يجرد المسلم من العصبيَّة، انظروا

(١) رواه البزار كما في كشف الأسـتار (٢٢٤٦)، والطبراني (١٣٤/١٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٧٤٠): رواه البزار، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه كلام، وبقية رجاله رجال الصحيح خلا عمر بن الخطاب السجسـتاني، وهو ثقة، ولم يضعفه أحد. عن عتبة السلمي مرفوعًا. ورواه بنحوه البخاري في الشهادات (٢٦٨٤)، موقوفًا على ابن عباس.

QaradawiBooks.com

نحن نقرأ الآن ونتعاطف مع بني إســرائيل حينما كانوا مستضعفين في الأرض، بنو إسرائيل هؤلاء يعذبوننا ويفعلون بنا الأفاعيل ونحن نتعاطف معهم ضد فرعون وهامان، والله أعلم يمكن فرعون هذا جد أحدنا، إنَّما القرآن يجردنا من العصبيَّة إلَّا للحق.

قد يكون الإنسان من ســلالة الفراعنة، ولكن إذا كان الفراعنة على الباطل وعلى الظلم نلعن فرعون ومن معه، وإذا كان بنو إسرائيل أعداءنا الآن ولكن كانوا مظلومين فنحن مع المظلوميــن، لأنَّه هكذا ينبغي أن يكون المؤمن مع المظلوم ضد الظالم، وكما قال سيِّدنا موسى: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧].

أسأل اللهَ تبارك وتعالى أن يُفَقِّهنا في ديننا، وأن يُعَلِّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علَّمنا؛ إنَّه سميع قريب.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الثاني
الدور الهامُّ للمرأة في قصَّة موسى عليه السلام[1]

إنَّ من يتأمَّل ويتدبَّر آيات القرآن الكريم، في قصص الأنبياء خاصَّة، يجد أن للمرأة دورًا هامًّا، في سيرة الرسل والأنبياء بصفة عامَّة، فلا تخلو قصَّة نبيٍّ من الأنبياء من وجود المرأة في سيرته، وفي حياته، وهذا أمر طبيعي؛ لأنَّ الله خلق الزوجين، الذكر والأنثى، ولا تقوم الحياة إلَّا باجتماعهما.

المرأة في قصَّة آدم عليه السلام :

نجد من أوَّل الخليقة، من أوَّل ما خلق الله أبا البشر، آدم عليه السلام، وأسكنه الجنَّة، قال له: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]؛ لأنَّه لا معنى لجنة يعيش فيها الإنسان وحيدًا فريدًا، لا أنيس ولا جليس، ما معنى هذه الجنة؟ أكل وشرب وفقط؟!

ولذلك خلق له من نفسه زوجًا ليسكن إليها، وأسكنها معه في هذه الجنَّة، وقال له: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ولما أصدر أمرًا تكليفيًّا، لم يكن هذا الأمر لآدم وحده، وإنَّما كان له ولزوجه معًا، ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾: فيها ألف التثنية، ﴿فَتَكُونَا﴾ كلاكما ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(١) من دروس تراويح ١٤٢٢هـ.

QaradawiBooks.com

دور المرأة في قصص الأنبياء يكون إيجابًا وقد يكون سلبًا:

فكانت المرأة مع الرجل، جنبًا إلى جنب، منذ خلق آدم عليه السلام، وكذلك رأينا دور المرأة في قصص الأنبياء، إيجابًا أو سلبًا، فأحيانًا تكون المرأة مُعينة للرسول، وأحيانًا تكون ضده، كما في موقفَي امرأة نوح وامرأة لوط ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

المرأة في قصَّة سليمان عليه السلام:

واليوم ونحن نقرأ قصَّة موسى عليه السلام، وجدنا للمرأة دورًا كبيرًا، وأمس حينما قرأنا قصَّة سليمان عليه السلام، في «سورة النمل»، وجدنا دور المرأة الَّتي حكمت قومها، ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ [النمل: ٢٣]، كما حكى الهدهد لسليمان، وذكر لنا القرآن ذلك، أنَّها كانت امرأة قائدة، وحكيمة، وسادت قومها، ووصلت بهم إلى خيرَي الدُّنْيا والآخرة، حينما جاءها كتاب سليمان عن طريق الهدهد، قالت: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: ٢٩ ـ ٣١] دليل على الجديَّة والإيجابيَّة، لم يُسهب رسول الله سليمان ولم يطل، ولم يكثر من المقدِّمات، وإنَّما أوصل الرسالة بكلماته البسيطة هذه: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ فعَرفَتْ أنَّ الأمر جِدّ لا هزل فيه.

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢]، كانت امرأة شورية، بلغة عصرنا «ديمقراطية»، تقول: لا أقطع في أمر حتَّى تحضرون، وتشاركوني فيه. ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣] أرادت أن تشاورهم، وهم

QaradawiBooks.com

سلموا إليها الأمر، وقالوا: نحن نملك القوة، لو وصل الأمر إلى الحرب، فنحن مستعدون.

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ إذا دخلوها فاتحين، وليس المقصود: أنَّ الملك إذا ذهب لزيارة قرية في مملكته يُفسدها. لا! ليس هذا المقصود كما يظن بعض النَّاس.

إنَّما المقصود إذا دخلوا البلد مستعمرين لها، أفسدوا البلاد، وأذلُّوا العباد. وهذا ما رأيناه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: هذه طريقتهم إلى يوم القيامة.

قال الله: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۞ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤، ٣٥].

سأختبر هذا الرجل، هل هو مثل ملوك الدُّنيا، نجذبه ونسيل لعابه بشيء من أموال الدُّنيا، فيبتعد عنَّا ويتركنا وشأننا، أم هو صاحب دعوة ورسالة، لا يغره المال ولا يكفيه.

وقد تبيَّن لها أنَّ سليمان من نوع آخر، ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۞ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٦، ٣٧].

المهم أنَّ القصَّة انتهت، بأن جنَّبت هذه المرأة الحكيمة قومَها الحرب، ودخلت في دين سليمان، ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وهذا يدلُّنا على أنَّ المرأة قد يكون عندها عقل، أفضل من عقول كثير من الرجال، ليس كما يظنُّ بعض النَّاس: «شاوِرُوهُنَّ

QaradawiBooks.com

وخالفُوهُنَّ»[١]، وبعضهم ـ للأسف ـ يضعه حديثًا، وليس كذلك، فقد شاور النبي ﷺ زوجته أم سلمة رضي الله عنها[٢]، والقرآن يقول: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

فالقرآن يذكر المرأة في سائر القصص، بما يدل على مكانتها، وعلى احترامها، واحترام إنسانيتها وشخصيتها، ليس كما هو سائد في مفهوم كثير من النَّاس، أنَّ المرأة مخلوق دوني، وأنها مخلوق لخدمة الرجل، ويقول أحدهم: المرأة كالنعل، ألبسها وقت ما أشاء، وأخلعها وقت ما أشاء، وليس في القرآن شيء من هذا.

بل إنَّ المرأة في القرآن مثل الرجل، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾: أي إنَّ الرجل من المرأة، والمرأة من الرجل، فهي تكمله، وهو يكملها، لا يستغني عنها، ولا تستغني عنه، وهذه هي المرأة في نظر القرآن. حتَّى أنَّ الله قال بعدها: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ أي: من الجنسين ﴿وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ ..﴾ من الجنسين، يعني أنَّ المرأة قد تقاتل، وقد تهاجر، وقد تُقتل..

ولذلك كان أوَّل شهيد في الإسلام امرأة وليس رجلًا، هي سميَّة أم عمَّار، زوجة ياسر رضي الله عنهم أجمعين[٣].

---

(١) قال السخاوي المقاصد الحسنة: لم أره مرفوعًا.. وقد استشار النبي ﷺ أم سلمة كما في قصة صلح الحديبية، وصار دليلًا لجواز استشارة المرأة الفاضلة لفضل أم سلمة ووفور عقلها (٥٨٥). وقال الألباني في السلسلة الضعيفة: لا أصل له (٤٣٠).

(٢) في صلح الحديبية، رواه البخاري في الشروط (٢٧٣١)، عن المسور بن مخرمة، ومروان.

(٣) أسد الغابة (١٥٢/٧)، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، نشر دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

كما كان أوَّل صوت ارتفع بتأييد النبيِّ ﷺ، كان صوت امرأة وليس صوت رجل، هو صوت خديجة رضي الله عنها[1].

المرأة في قصَّة عيسى عليه السلام:

للمرأة في قصَّة عيسى عليه السلام دور رئيسي، بل لم يستنكف القرآن أن ينسب عيسى عليه السلام إلى أمِّه «عيسى بن مريم»، ونجد أنَّ القرآن، ذكر لنا قصَّة مريم وأمِّها؛ جُدَّة عيسى عليه السلام، في سورة «آل عمران» وعمران هو أبو مريم، ومع أنَّ السورة سُمِّيَت باسم هذه الأسرة (أسرة عمران) لم يذكر الله شيئًا عن عمران، وإنَّما ذكر لنا عن زوجته، فهي سورة آل عمران، وكل الَّذي ذُكر امرأة عمران، ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٥، ٣٦].

ونجد في هذه القصَّة أيضًا، قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] يدخل زكريا على مريم، ويكلمها وتكلمه، وهو زوج خالتها، مع أنَّ زوج الخالة ليس مَحْرمًا، ما دام لا يوجد ريبة، يدخل عليها ويكلمها، ويطمئن على حالها، ما دامت الفتنة مأمونة، سواء بوجود أحد من النساء معه، أو في وجود رجال آخرين، وهذا ما يقصُّه لنا القرآن.

(١) كما جاء في حديث بدء الوحي، متَّفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٣)، ومسلم في الإيمان (١٦٠)، عن عائشة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

المرأة ـ أيُّها الإخوة ـ إنسان مخلوق مكرم، مثل الرجل، وهي شريك الرجل، كما جاء في الحديث: «**إنَّما النساءُ شقائقُ الرجال**»[1]. المرأة شقيقة الرجل، مكلَّفة مثله، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]. ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

غير مرخصة للطباعة

المرأة في قصَّة موسى عليه السلام:

وفي سورة القصص الَّتي استمعنا إلى جزءٍ منها اليوم، نجد أنَّ المرأة في قصَّة موسى عليه السلام، لها دور من أوَّل يوم، من أوَّل ميلاده عليه السلام نجد دور المرأة (الأم) في حياة موسى فاعلًا.

نحن لا نعرف شيئًا عن والد موسى، هل رأيتم شيئًا في القرآن عن والد موسى؟! لم يذكر لنا القرآن شيئًا عنه، وإنَّما ذكر لنا خبر أم موسى، والَّتي تمثل دور المرأة الأوَّل في قصَّة موسى عليه السلام، فقال تبارك وتعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

وحين ترى المعاناة الَّتي حدثت مع ميلاد موسى، نعرف أنَّ الأنبياء لم يكونوا من ذلك النوع الَّذي يُولد وفي فمه ملعقةٌ من ذهب، هم

(١) رواه أحمد (٢٦١٩٥)، وقال مُخَرِّجوه: حديث حسن لغيره. وأبو داود (٢٣٦)، والترمذي (١١٣)، وقال: وإنَّما روى هذا الحديث عبد الله بن عمر، عن عبيد الله ابن عمر، وعبد الله ضعَّفه يحيى بن سعيد من قبل حفظه. كلاهما في الطهارة، وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٥)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

يُقاسون الحياة من أوَّل يوم، فهذا يوسف عليه السلام كم لاقى من معاناة من صغره.. وموسى عليه السلام من أوَّل ما وُلد، يُرمى في اليم.

حينما يُوحى إلى أم، إذا خفت على ابنك ارميه في البحر، هل تفعل؟! لكنها أم موسى، المؤمنة الَّتي لم تُكذب وحيَ ربِّها، فألقته في اليمّ، كما أمرها الله. فوصل إلى بيت فرعون، فلمَّا رأته امرأة فرعون، تعلقت به، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [القصص: ٩].

وهذا دور أيضًا من أدوار المرأة في قصَّة موسى عليه السلام، وهو دور ليس قليلًا، فحينما يريد الله أن يهيئ أمرًا، هيَّأ له الأسباب، وأزال من طريقه الصعاب، فحين أراد الله أن ينجي بني إسرائيل ممَّا هم فيه من الذل والهوان، وأن ينتقم من فرعون وعلوه على النَّاس، وطغيانه في الأرض وفساده فيها، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۞ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ [القصص: ٤ ـ ٦].

فقال الله ﴿نُرِيدُ﴾ ومتى أراد الله، لا بدَّ أن يُنفِّذ وعده، بوسائل قد نعلم شيئًا منها، ولا نعلم الكثير منها، فلمَّا أراد الله ذلك، جعل تربية الرجل الَّذي سيزول ملك فرعون على يديه، في حِجْر فرعون، وفي قصر فرعون، وتحت سمعه وبصره. انظروا إلى عجائب أقدار الله.

فرعون حين عرف أن هناك فتى من بني إسرائيل سيزول ملكه على

QaradawiBooks.com

يديه، أخذ يذبح أطفال بني إسرائيل، فتجد الشخص الَّذي عليه العين، ينجو، بل يتربى عند فرعون نفسه أيضًا.

أراد فرعون أن يقتل هذا الطفل، حينما جاءه، فهيَّأ الله له امرأة يتعلَّق قلبها به، فتدفع عنه القتل، وقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩]. وكان هذا دور امرأة فرعون. ثمَّ يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١١، ١٢].

وجدنا في قصَّة موسى عليه السلام، دور أم موسى، ودور امرأة فرعون، ووجدنا كذلك دور أخت موسى، ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾: تتبعي أثره. ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ قالت لهم: أعرف امرأة تُرضعه، وهي أمينة عليه. ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١١ ـ ١٣].

فانظر دور المرأة في قصَّة موسى عليه السلام: أم موسى، وأخت موسى، وامرأة فرعون.

وتجد بعد ذلك حين خرج موسى من مصر خائفًا يترقّب، بعد أن حدثت حادثة القبطي الَّذي وكزه موسى فقضى عليه، وما كان يريد أن يقتله، فهو قتل خطأ، ولكن موسى اعتبر هذا من عمل الشيطان، وأنَّه تسرَّع، ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٥، ١٦]، ومع هذا يقول سيِّدنا موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من المغفرة على هذا الذنب.

QaradawiBooks.com

﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] لن أكون عونًا أبدًا للمجرمين، ولا سوطًا للظالمين، هذا عهد عاهد الله عليه، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

خرج موسى عليه السلام إلى مدين، وهنا نجد دورًا آخر للمرأة في حياة موسى عليه السلام، فحينما ذهب إلى ماء مدين الَّذي يتزاحم النَّاس عليه، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، تدفعان غَنَمهما بعيدًا عن مزاحمة الرجال. سألهما موسى ـ بشهامته الفطرية، مع أنَّه رجل غريب ـ فقال لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

عرّفتاه أنَّهما مضطرتان للعمل؛ لأن الأسرة محتاجة للعمل، ولا يوجد رجل في الأسرة، كما أنَّ الأب شيخ كبير. فماذا تفعلان إذن؟

فالمرأة تعمل، عند الحاجة، إذا كانت محتاجة إلى العمل، أو كانت أسرتها محتاجة إلى العمل، أو كان مجتمعها بحاجة إلى العمل، كأن تعمل مدرسة للبنات، طبيبة للنساء، أو ممرضة للنساء، أو بائعة الأغراض النسائية للنساء، فالمجتمع بحاجة إلى المرأة في مثل هذا. ولذلك ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٤، ٢٥].

وانظروا إلى القرآن، وهو يُصوِّر هذه العلاقة، بين الرجل والمرأة، علاقة فطرية طبيعيَّة، كلَّم موسى البنتين، وردَّتا عليه، ثمَّ ذهبتا لتحكيا

QaradawiBooks.com

لأبيهما عن ذلك، فأمر إحداهما أن تذهب لتأتي به، ولم يقل: لا تذهبي بمفردك، فذهبت بأدبها وحيائها، وكلمته بكل قوَّة وحياء أيضًا، فلم يدعها حياؤها لأن تخضع القول، وإنَّما قالت له بكل قوَّة وشجاعة: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

أساس اختيار الرجال للأعمال:

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

انظر كيف حكى القرآن عن هذه المرأة، كلمة من كلمات الحكمة، الَّتي وضعت أساس اختيار الرجال للأعمال، كيف نختار الرجال للأعمال الكبيرة، نختارهم على أساسين: «القوة والأمانة» القوة: القدرة على العمل، أن يكون كفؤًا للعمل، على علم به وبجوانبه. والأمانة: أن يؤدي حق الله فيه، ويخشى الله في عمله. فهو يجمع بين الجانب الفني، والجانب الأخلاقي والديني. لا بدَّ من الأمرين معًا، فلا تعطي العمل لسارق، وإن كان سيد الخبراء في تخصصه، كما يقولون في المثل: «حاميها حراميها». وكذلك لا تعطي العمل لرجل طيب، ولكنَّه مغفَّل، فيخرِّب الدنيا.

ولذلك كان السلف يشكون إلى الله، من ضعف الأمين، وخيانة القوي. فكان من دعاء سيِّدنا عمر: «اللهمَّ أشكو إليك عجز الثقة، وجلد الفاجر»[1]. وقالوا: قلَّما يجتمع في الناس: القوَّة والأمانة.

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٨/٢٥٤).

QaradawiBooks.com

كلمات خالدة للنساء:

فالمرأة قد تقول كلمات تصبح مثلًا في التاريخ، مثل ما قالت ملكة سبأ: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤]. ومثل ما قالت امرأة العزيز: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣]. هذه كلها كلمات قالتها بعض النساء، فالمرأة يمكن أن تكون حكيمة، وتصدر منها كلمات يسجلها التاريخ بحروف من نور، ويتعامل النَّاس على أساسها ما شاء الله من الأزمنة والقرون.

فهذه المرأة الَّتي معنا في قصَّة موسى عليه السلام، قالت كلمات تعد حِكمًا، صارت مثلًا، قالت: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وكانت النتيجة أن ارتبط موسى عليه السلام، بهذا الشيخ الكبير، وتزوج إحدى ابنتيه، ولعلها ـ غالبًا ـ هي صاحبة هذه الكلمات. وعاد بها إلى مصر بعد أن قضى الأجل الَّذي اتفق عليه مع والد زوجته، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ...﴾.

المقصود أيُّها الإخوة: أنَّنا يجب أن نتعلم من قرآننا، كيف نُعامل النساء، كيف نُعامل المرأة، فكثير من الرجال يحتقرون المرأة، ولا يرون أنَّ لها مكانة في دنيا النَّاس، أو في حياة النَّاس، وهذا ليس من القرآن في شيء، المرأة شقيقة الرجل، مكلّفة كالرجل، بعضكم من بعض، هي من الرجل، والرجل منها، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، فعلى الجنسين أن يعملا معًا، لإرضاء الله تبارك وتعالى، ولخدمة هذا الدين، ونصرة هذا الدين، حتَّى يحققوا الأهداف معًا، جنبًا إلى جنب.

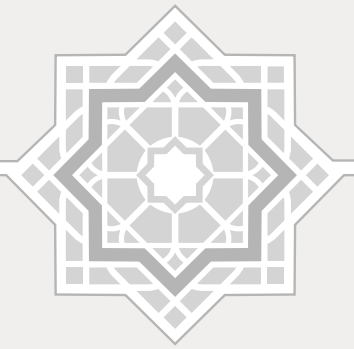
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



غير مرخصة للطباعة

من دورس التفسير

سورة العنكبوت

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الأول
مجادلة أهل الكتاب في سورة العنكبوت[١]

بدأنا من هذه الليلة، العشر الأواخر من هذا الشهر المبارك، وهي الَّتي كان النبي ﷺ، يستقبلها بعزم وحزم، فكان إذا دخل العشر شدَّ المئزر وأحيا ليله، وأيقظ أهله[٢]، أي: أحيا ليله كله بالطاعة والذكر لله ﷻ. وأيقظ أهله: أي: زوجاته؛ ليشاركنه في هذا الخير.

فالعشر الأواخر هي ختام هذا الشهر الكريم، والأعمال بالخواتيم، ولذلك من الأدعية الواردة: «**اللهمَّ اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك**»[٣].

فالمهمُّ أن يكون ختام عملك صالحًا، قد يعمل الإنسان الحسنات والصالحات، في أيام كثيرة من عمره، ثمَّ للأسف يُختم له بالشر، وهو نادر ولكنَّه يحدث، كما قد يحدث العكس، فتجد إنسانًا يظل بعيدًا عن الله، ثمَّ ينشرح صدره، وتحصل له اليقظة، فيتوب إلى الله، ويقرع باب

---

(١) من دروس تراويح ١٤٢٢هـ.

(٢) إشارة إلى حديث عائشة: كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله. متَّفق عليه: رواه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠٢٤)، ومسلم في الاعتكاف (١١٧٤).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٩٤١١)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (١٢١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٩٧٤): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه أبو مالك النخعي، وهو ضعيف. عن أنس بن مالك.

QaradawiBooks.com

الله، ويعود إليه، في أواخر حياته، وهذا ما حصل مع سحرة فرعون، آمنوا بموسى حينما رأوا آية الله واضحة أمامهم، ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۞ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٦ ـ ٤٨] ففي النهاية خُتم لهم بالخير.

فمن المهمِّ جدًّا أن نحرص على أن يُختم لنا بالخير، ولهذا أوصي إخواني وأخواتي، في هذه الليالي العشر، أن يحرصوا على صلاة التراويح، وعلى قراءة القرآن، وعلى ذكر الله، وعلى التسبيح، وعلى الصدقة، وبرِّ الوالدين، والإحسان إلى الجيران، والبُعْد عن اللغو والسفاسف، بقدر الإمكان، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]، ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

في العشر الأواخر، بدأنا قراءة الثلث الأخير من القرآن الكريم، وأول ما بدأنا واستمعنا إلى الشيخ عبد السلام، وهو يقرأ من سورة العنكبوت، بداية الجزء الحادي والعشرين، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۞ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦ ـ ٤٨].

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

«أهل الكتاب»: هم اليهود والنَّصارى. و«الكتاب» هنا: هو الكتاب السماوي الَّذي أنزله الله سواء كان هذا الكتاب منزلًا على موسى وهو

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

التوراة، أو منزلًا على عيسى وهو الإنجيل، وهؤلاء سماهم القرآن «أهل الكتاب»، وهذه التسمية لتقريبهم إلى المسلمين، وإيناسهم، وإزالة الوَحشة بينهم وبين المسلمين؛ ليقول: إنَّهم في الأصل أصحاب كتاب سماوي، موصولون بالسماء، ولهذا كان القرآن يخاطبهم بقوله: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾. ولم يخاطبهم بـ: يا أيُّها الكفار، فأهل الكتاب في نظر الإسلام كفَّار، لأن كل من لم يؤمن برسالة مُحَمَّد ﷺ فهو كافر، وهذه قضيَّة ـ للأسف ـ ملتبسة عند بعض النَّاس، فبعض النَّاس يظن أن أهل الكتاب مؤمنون، والقرآن يقول: ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠]. منهم من آمن برسالة مُحَمَّد مثل عبد الله بن سلام، ومثل كثير من النَّصارى الَّذين دخلوا في الإسلام، من الشام وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا، فقد كان معظم هذه البلاد نصرانيَّة وأسلمت.

فأهل الكتاب ليسوا مؤمنين أيُّها الإخوة، وهذه قضيَّة واضحة، فكل من لم يؤمن برسالة محمَّد، فهو كافر، فنحن نعدهم كفارًا، وهم يعدوننا كفارًا، نحن نعدهم كفارًا بالإسلام، وهم يعدوننا كفارًا بالنصرانيَّة الحالية، فنحن نؤمن بالنصرانيَّة الأصلية، الَّتي أنزلت على المسيح، والتوراة الَّتي أنزلت على موسى، حُرِّفت، والإنجيل الَّذي أنزل على عيسى لا وجود له. هناك أربعة أناجيل اختيرت من سبعين إنجيلًا، كتبها بعض حواريي المسيح، وبعض حواري حوارييه، وتلاميذ تلاميذه.

فالشاهد: أنَّنا ينبغي ألَّا نخلط بين أنَّهم أهل كتاب، وأنَّهم كفار بدين مُحَمَّد ﷺ، ومع أنَّهم كفار لا نقول: يا أيُّها الكفَّار، فلا يوجد خطاب للنَّاس بهذا إلَّا في آيتين، آية في الآخرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [التحريم: ٧].

QaradawiBooks.com

وآية أخرى في القرآن المكي: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١، ٢]. وهذا خطاب للمشركين في مناسبة معينة، أنَّهم كانوا يفاوضون النبي ﷺ، ليَعبد آلهتهم مدَّة من الزمن، وهو يعبد آلهتهم مدَّة من الزمن، فأراد القرآن أن يقطع هذه المفاوضات، وهذه المساومات، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦].

فالقرآن كان ينادي المشركين بـ «يا أيُّها الناس»، واليهود والنَّصارى يناديهم بـ «يا أهل الكتاب».

ففي هذه الآية يقول: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ إذا حاورتموهم فحاوروهم بالَّتي هي أحسن، كما قال الله تعالى في سورة النحل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

فالجدال أسلوبٌ من أساليب الدعوة، وهو أسلوبٌ يُستخدم مع المخالفين، أمَّا الدعوة والموعظة الحسنة، فتكون مع المُؤيّدين.

فنجادل المخالفين، وخصوصًا أهل الكتاب، بالَّتي هي أحسن، ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، ومعنى ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالطريقة الأحسن، المُوصِلة إلى القُلوب، والَّتي تُقرِّب النَّاس منك، اختار أحسن الألفاظ، وأرق الأساليب، وهذا ما علَّمنا إياه القرآن، ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. هذا أسلوب يسمّى: إرخاء العنان للخصم، وبعدها يقول: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥] وكان مقتضى المقابلة، أن يقول: لا تسألون

QaradawiBooks.com

عمَّا أجرمنا، ولا نُسأل عمَّا «تُجرمون» لا «تعملون» إنَّما لم يرد القرآن أن يُجادلهم بهذا، وينسب إليهم الإجرام، وهذا هو الجدال بالَّتي هي أحسن.

والقرآن دائمًا يدعو إلى الَّتي هي أحسن، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، يريد أن يجعل المسلم دائمًا يرنو إلى الأحسن، فهناك حسن وهناك أحسن، فإن استطعت أن تفعل الأحسن فافعل، كمن يقول: أريد فقط أن أحصل فقط على «مقبول» في الجامعة، يا أخي كن متطلعًا إلى الأفضل، فقل «جيد» أو «جيد جدًّا»، ولماذا لا تقول: «امتياز»؟ فالمفروض أنَّ الإنسان صاحب الهمة العالية، يطلب أحسن الأشياء، كما قال النبي ﷺ: «**إذا سألتم الله الجنَّة، فاسألوه الفردوس الأعلى، فإنَّه أوسط الجنَّة، وأعلى الجنَّة ـ أُرَاه ـ فوقه عرش الرحمن، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنَّة**»[1].

فالقرآن يقول: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، وهذا ما جعلنا نرحّب بالحوار، مع النَّصارى خاصَّة، وطبعًا القرآن يقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي: هؤلاء لا تجادلوهم بالَّتي هي أحسن. ولذلك نحن رفضنا الحوار مع اليهود؛ لأنَّهم ظلموا، وأيُّ ظلم أعظم من أنَّهم اغتصبوا الأرض، وشرَّدوا الأهل، وسفكوا الدماء، وهتكوا الأعراض، ودمَّروا البيوت، وقتلوا الأطفال والنساء والشيوخ، وفعلوا ما فعلوا.. فهؤلاء لا نقبل أن نحاورهم، أو نساومهم، ونُنكر على بعض النَّاس الَّذين حاوروا أو استقبلوا الحاخام الأكبر، وقلت: هذا لا يليق، نفتح بيوتنا، ومكاتبنا، وصدورنا لهؤلاء ونحاورهم، لا، ليس بيننا وبينهم

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

حوار الآن، حوارنا بالقتال وصد العدوان. فهذا موقفنا من الَّذين ظلموا منهم، ألا نجادلهم بالحسنى.

أمَّا من يسالمنا نحاوره، وإن كان بعض المسلمين يخافون من هذا الحوار، ويسألوننا: لماذا تذهبون إلى هؤلاء؟! نحن ـ أيُّها الإخوة ـ نقف على أرض صُلبة، لا نخاف، نحن أصحاب حق، وأقوياء بما عندنا، لا نخاف من الجدال، فالقرآن كله كتاب حوار.

لقد قرأنا في سورة الشعراء حوار الأنبياء مع أقوامهم، وفي سور شتَّى، ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: ٣٢]، ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣]. حتَّى إنَّ الله ﷻ، حاور خلقه، حاور الملائكة، ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. بل حاور الله شرَّ خلقه، إبليس لعنه الله، ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٤ ـ ١٨]. ولهذا نحاور أهل الكتاب، ونحن صامدون راسخون، راسخو القدم.

﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

في حالة الحوار، ينبغي أن نذكر الجوامع المشتركة، الَّتي تجمع بيننا وبينهم، فهناك نقاط تمايز واختلاف بيننا وبينهم، وهناك نقاط اتفاق، ففي حالة الجدال نؤكد على نقاط الاتفاق، ومنها ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾.

QaradawiBooks.com

وهذا ما نقوله ـ دائمًا ـ إنَّ بيننا وبين أهل الكتاب نقاطًا مشتركة، إنَّنا جميعًا نؤمن بالألوهيَّة، ونؤمن بالنبوة، وبالوحي، ونؤمن بالآخرة، ونؤمن بعبادة الله، ونؤمن بالقِيَم الأخلاقيَّة، وهذه أشياء مهمة، ونؤمن بالعدل، فكل الرسل جاؤوا بالعدل ضد المظالم، فلا مانع أن نقف معًا، لنقاوم الإلحاد، ونقاوم الإباحية، ونقاوم المظالم، وهذا ما يجعل بيننا أرضية مشتركة.

ولهذا شارك الأزهر، ورابطة العالم الإسلامي، وعدد من الجمعيات الإسلاميَّة، وممثلو جمهورية إيران الإسلاميَّة، في مؤتمر السكان في القاهرة، في صيف ١٩٩٤م، ووقفوا جنبًا إلى جنبٍ مع الفاتيكان، في مقاومة النزعة الإباحية، الَّتي كانت في الوثيقة الَّتي عرضتها الأمم المتحدة، تريد إباحة الإجهاض بإطلاق، وجواز الإباحية الجنسيَّة، ومنع سلطة الآباء والأمهات على الأطفال، وترك الحبل على الغارب، إلخ.

لا مانع أيُّها الإخوة، أن نتحاور مع المخالفين، ما دمنا واثقين من الحق الَّذي معنا، والمهم أن من يحاور ينبغي أن يكون من العلماء الأقوياء، لأن ـ أحيانًا ـ يضر الإسلامَ أناس يتحدثون باسمه، ولكنَّهم ضعفاء بالعلم الشرعي، وفي معرفة الواقع، وفي معرفة تيارات العصر، فهؤلاء نخاف منهم إن قابلوا غير المسلمين.

أمَّا العلماء الراسخون، الَّذين فهموا دينهم، وفهموا دنياهم، فلا حرج عليهم، أن يُحاوروا.

وأكتفي بهذا القدر؛ لأنَّ الآيات الأخرى تحتاج إلى كلام، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ ما هو الكتاب

QaradawiBooks.com

الأول، وما هو الكتاب الثاني! ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ وما هو هذا الكتاب الثالث؟ ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧، ٤٨].

كل كلمة من هذه لها معنى، وهذا ما يُسَمِّيه العلماء: المشترك في اللغة. يعني اللفظ الواحد يراد به معاني كثيرة، وإنَّما يُعرف المعنى المراد من السياق.

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الثاني
القرآن الكريم وموقف أهل الكتاب منه

تأمُّلاتنا القرآنيَّة في هذه الليلة حول آيات من سورة العنكبوت، وسمِّيت سورة العنكبوت لقول الله تعالى في السورة: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

ضرب الأمثال بالحيوانات والحشرات في القرآن الكريم:

كان المشركون من قريش ومن أهل مكَّة إذا سمعوا القرآن يتحدث عن العنكبوت، ويتحدث عن النمل، ويتحدث عن النحل، ويتحدث عن الذباب أحيانًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، كلَّما سمعوا أسماء هذه الحشرات قالوا: محمَّد يذكر في كتابه النمل والنحل والعنكبوت وهذه الأشياء ويضرب بها المثل! فنزل القرآن الكريم، يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

QaradawiBooks.com

عرَّفنا القرآن أيضًا أنَّ هذه الحشرات الَّتي يحتقرها النَّاس إنَّما هي أمم مثل الأمم البشريَّة كما قرر ذلك القرآن في سورة الأنعام: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فأُمَّة النمل مثل أُمَّة النحل مثل أُمَّة العنكبوت، أمم لها قوانينها ولها أنظمتها إلى آخر ما نعلم وما لا نعلم من أحوال هذه الكائنات.

في سورة العنكبوت نقف عند تلك الآيات من أوائل الجزء الحادي والعشرين، يقول الله تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۞ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۞ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧ ـ ٥٢].

كما أنزلنا على الرسل من قبلك أنزلنا إليك الكتاب، والكتاب هو القرآن، كما قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ [البقرة: ١، ٢]، ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۞ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١، ٢]، فالكتاب هو القرآن، بعض النَّاس المتعالمين في عصرنا قال: الكتاب شيء والقرآن شيء والفرقان شيء والذكر شيء.

QaradawiBooks.com

وهذا كلام ما أنزل الله به من سلطان، المصداق واحد، أي: الموضوع والمضمون واحد، يُعبَّر عنه أحيانًا بالذكر لأنَّه يذكّر، والكتاب لأنَّه يُكتب، وبالقرآن لأنَّه يُقرأ، وبالفرقان لأنَّه يفرق بين الحق والباطل، وكله شيء واحد، أحيانًا يذكر القرآن في سياق واحد يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ [فصلت: ٤١]، هذا الذكر كتاب عزيز، ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٢]، ثمَّ يقول: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾ [فصلت: ٤٤]، هذا الذكر أو هذا الكتاب ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت: ٤٤].

الكتاب هو الذكر هو القرآن هو الفرقان، ولكن مأساتنا في هذا العصر هم المتعالمون الَّذين يعرفون بعض القشور ثمَّ يقحمون أنفسهم على القرآن وحظهم ضئيل من العلوم الإسلاميَّة ومن الثقافة الإسلاميَّة ومن اللغة العربيَّة، ولكن كل علم يُحترم فيه التخصص إلَّا علم الدين علم الشرع، كل من هبَّ ودبَّ يريد أن يجعل من نفسه شيخ الإسلام، يُفسر القرآن كما يشاء ويشرح الدين كما يريد، ويحلِّل ويحرِّم ويشرِّع ويعمل دينًا جديدًا، فعلًا لو ترك الأمر هكذا كل واحد يعمل له دينا، لم يعد الدين أمرًا جامعًا ينشئ أُمَّة لها عقائدها، ولها مقوماتها، ولها خصائصها، ولها شريعتها، ولها منهجها، ولها غايتها، ولها منطلقاتها، كل واحد يعمل دينا على هواه فليس هناك أمر جامع.

دلالة قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

المهم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٧]، قلنا في درس سابق: إن كلمة «الذين آتيناهم الكتاب» صيغة مدح، وهكذا من يتتبع موارد هذه الصيغة في القرآن يجدها صيغة

QaradawiBooks.com

مدح، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]، هنا يقول: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٧]، كلمة: «آتيناهم الكتاب» ثناء عليهم، يؤمنون بهذا الكتاب، اتضح لهم أنَّه الحق فآمنوا به، لم يتبعوا الهوى، لم يقلِّدوا تقليدًا أعمى، بل أذعنوا للحق.

﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ من العرب من مشركي قريش ومن حولهم ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ أي بهذا الكتاب وهو القرآن الكريم ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧]، الكفر معناه التغطية والستر، الَّذين يغطون الحقائق وهي واضحة أمامهم يسترونها لا يريدون أن يروها هؤلاء هم الكافرون الجاحدون، كما قال الله في أمثالهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ [النمل: ١٤]، يعرفون الحق ويحيدون عنه هذا هو الكفر الحقيقي، ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، كل شيء يدل على أن هذا الكتاب الَّذي أُنزل إليك حق لأن هذا الكتاب تضمَّن من الهداية من جواهر الحكم ومن جوامع الكلم ومن روائع التشريع ومن حقائق العلم ومن ثوابت العقائد ما لا يمكن أن يأتي به أعظم الفلاسفة، لا يمكن.

نقرأ بعض ما جاء به اليوم أعظم الفلاسفة نجد أنَّ التلميذ في المدارس الابتدائية يعرف من المعلومات الصحيحة أكثر ممَّا كان يعرفه هؤلاء الفلاسفة الكبار، فكيف ومحمد كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب باعتراف الجميع، ولذلك قال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ﴾

QaradawiBooks.com

ما كنت تقرأ لأنَّك لا تحسن القراءة ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ لأنَّك لا تحسن الكتابة ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، لعلك لو كنت تقرأ أو تكتب لقالوا: إن محمدًا اطلع على الكتب القديمة ووجد هذه الأشياء، أنباء الرسل وأنباء الأقدمين وما في الصحف الأولى لعله عثر عليها فاستفاد منها وجاء يبثنا إياها، لا، مُحَمَّد ﷺ لم يحسن القراءة ولا الكتابة.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، مع أن ما في القرآن لا يستطيع أن يأتي به أحد من البشر لا أمّي ولا قارئ ولا أعظم عالم في هذه الدُّنيا، ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، هذا الكتاب هذا القرآن آيات بيّنات في صدور الَّذين أُوتوا العلم، آيات بيّنات واضحات الدلالة على أنَّه من الله ﷻ، ولكن هي بيّنات في صدور الَّذين أوتوا العلم.

الذين أوتوا العلم هم الَّذين يعرفون قيمة هذا الكتاب وما أودع الله فيه من نور، وما أودع الله فيه من هداية، وما أودع الله فيه من معارف، وما أودع الله فيه من تشريع، كل ما أودع الله فيه من خير وحق وهدى يعرفه الَّذين أوتوا العلم.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، القرآن مع أنَّه مكتوب في المصاحف هو محفوظ في الصدور، في صدور الَّذين أوتوا العلم، ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، الَّذين يعدلون عن الحق وهم يعرفونه، ظلموا أنفسهم، وظلموا الحقيقة، وظلموا النَّاس الَّذين ضلَّلوهم.

QaradawiBooks.com

تعنت المشركين في طلب الآيات من الرسل:

ثمَّ قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، دائمًا المشركون يطلبون آيات ويقصدون بها الآيات الكونيَّة، الخوارق الحسيَّة، لماذا لم يأت لنا مُحَمَّد بآيات مثل ما جاء به موسى؟ يلقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ويدخل يده في جيبه فإذا هي بيضاء للناظرين، لماذا لم يأت بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وأن يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله كما جاء عيسى؟ هكذا كانوا يطلبون ويقولون: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

ولكن القرآن لم يجبهم لأنَّ محمدًا ﷺ ظهرت على يديه عشرات ومئات الآيات الكونيَّة والخوارق الحسيَّة ولكنَّه لم يتحدَّ بها، لم تقع موقع التحدي، لم تكن إجابة على ما طلبه الكفار، يعني قالوا فيما حكاه القرآن عنهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۞ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣]، حينما رقي بالنبي ﷺ إلى السماء في رحلة المعراج بعد الإسراء لم يكن هذا استجابة لهم، لا، بل هذا تكريم من الله لرسوله ﷺ.

آيات نبوَّة مُحَمَّد ﷺ:

الآيات الَّتي أكرم الله بها محمدًا ﷺ آيات كثيرة جدًّا مئات الآيات، الإنباء بالغيوب شيء لا يحصى، الدعوات المستجابات لرسول الله شيء كثير جدًّا، كل هذا خوارق موجودة، ولكن هؤلاء مهما جئت لهم من خوارق

QaradawiBooks.com

لن يؤمنوا، القرآن يقول: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، سيقولون: سحرنا محمَّد، يعني لن يفيدهم شيء، والقرآن يقول: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

ولذلك القرآن يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، لست أنا الَّذي يُنزل الآيات، الَّذي يُنزل الآيات هو الله، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٣٨]، الرسول ليس هو الَّذي يتصرَّف في الكون، ولذلك سيِّدنا المسيح عيسى ابن مريم قال: ﴿أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، ليس بإذنه هو ولا بأمره، الله هو الَّذي يأذن بهذا، الأنبياء مهما أوتوا فهم ينفِّذون أوامر الله والله هو صاحب القدرة، ما يأتون بآية إلَّا بإذن الله، وما كان لهم من سلطان.

النذير المبين:

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، مهمتي أن أبلغ وأبشر وأنذر، وفي هذا المقام لم يذكر مقام البشارة لكن ذكر مقام الإنذار، لأن أمام التكذيب بآيات الله، وأمام الطلبات والمقترحات المعاندة المعتسفة والَّتي ليس المقصود منها إلَّا التعنت والإعنات لا ينفع أسلوب التبشير إنَّما يُجدي أسلوب الإنذار.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]، يطلبون آية وعندهم أعظم آية وأكبر معجزة وهي القرآن الكريم، القرآن هو الآية الكبرى والمعجزة العظمى لمحمد ﷺ، الآيات الحسيَّة آيات محدودة بمكانها

QaradawiBooks.com

وزمانها، لا يعترف بها إلَّا من شاهدها، المسيح أحيا ميتًا فالذين شاهدوا هذا الميت الَّذي أحياه المسيح هم الَّذين يؤمنون بهذه الآية، لو جاء ناس بعد ذلك وقيل لهم المسيح أحيا ميتًا لقالوا: نحن لم نر هذه الآية أو لم نر هذا الميت، ونحن لولا أنَّ القرآن ذكر لنا هذه الأشياء ما صدقنا بها.

القرآن ذكر آيات لم تذكرها الأناجيل مثل المائدة الَّتي أنزلها الله من السماء، ومثل خلق عيسى من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طائرًا بإذن الله، القرآن هو الَّذي أثبت ذلك، فالآية الحسيَّة والمعجزة الماديَّة لا يؤمن بها إلَّا من شاهدها، أمَّا النَّاس البعيدون في المكان أو البعيدون في الزمان والجيل الآتي بعد ذلك لم ير هذه الآيات، إنَّما المعجزة العقليَّة، المعجزة الأدبيَّة، هذه معجزة عامَّة وشاملة وخالدة تخاطب النَّاس جميعًا في كل قارة من القارات وفي كل قرن من القرون إلى أن تقوم الساعة، وهذه ميزة القرآن الكريم أنَّه معجزة عامَّة ومعجزة باقية.

التحدي بالقرآن:

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١]، ولذلك نحن نتحدَّى بهذا القرآن إلى اليوم، القرآن تحدَّى العرب أن يأتوا بحديث مثله أو بعشر سور مثله مفتريات أو بسورة من مثله فعجزوا وغلبوا وانقطعوا وحق عليهم قول الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، ونحن إلى الآن نتحدَّى بهذا القرآن. العلَّامة الشيخ مُحَمَّد رشيد رضا له كتاب اسمه «الوحي المحمدي» جدَّد فيه التحدِّي بالقرآن، وقال: نحن نتحدَّى ببلاغة القرآن كما كان يتحدَّى الأقدمون، ونحن نتحدَّى بما احتوى القرآن عليه

QaradawiBooks.com

من إعجاز تشريعي وإصلاحي للبشـــريَّة كلها في كل مجالات الحياة: في العقيدة، في التشريع، في إصلاح النفوس، في إصلاح الأسرة، في إصلاح المجتمع، في الإصـــلاح المالي، في الإصلاح السياســـي، في العلاقات الدولية، فـــي تحرير الرقيق، في إنصاف المـــرأة، ذكر هذا وبعد كل فصل يقول: ونحن نتحدَّى بهذا، نتحدَّى العالم وفيه الفلاســـفة والعلماء، وفيه المفكرون والَّذيـــن حصلوا على جائـــزة «نوبل»، نحن نتحـــدَّى هؤلاء، ومحمد ﷺ لم يكن يتلو من كتاب ولا يخطه بيمينه، فهذا هو القرآن[1].

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]، هذا هو الإعجاز الأدبي والعقلـــي والعلمـــي والتشـــريعي الَّذي جاء بـــه القـــرآن، ولذلك يقول النبي ﷺ: «**ما من الأنبياء نبي إلَّا أعطي ما مثله آمن عليه البشـــر، وإنَّما كان الَّذي أُوتيت وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»[2]. الأنبيـــاء قبل مُحَمَّد ﷺ أُوتوا من الآيات الكونيَّة والحســـيَّة، ولكن محمدًا ﷺ أُوتي وحيًا أُوتي كتابًـــا مبينًا حكيمًا، فهذا الكتاب هو حجة وبيِّنة وآية ومعجـــزة لكل الأجيال في كل زمـــان ومكان، ولذلك يرجو أن يكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة إن شاء الله.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١ ـ ٥٢].

---

(١) الوحي المحمدي صـ ٢٥٥، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١)، ومسلم في الإيمان (١٥٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

السرُّ في مخاطبة النبي ﷺ بـ: ﴿ قُل ﴾:

القرآن يخاطب النَّبيَّ ﷺ بهذه العبارة باستمرار «قل»، قل كذا، قل كذا، ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٢]، ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ [الأنعام: ١٤، ١٥].

كلمة «قل» تكررت في القرآن الكريم (٣٣٣) ثلاثمائة وثلاثةً وثلاثين مرَّة، وهذا يدل على أنَّ محمدًا ﷺ مأمور يُؤمر ويُنهى ويُخاطب، ولكن هناك من يقول: «قل»، ليس من كلامه ﷺ.

بعض النَّاس مرَّة تفلسف وقال: نحذف قل، بدل أن نقول: قل هو الله أحد، نقول: هو الله أحد؛ لأن ربنا قال للنبي: قل. والنبي قال لنا، فلا داعي أن نقول نحن: قل. نقول: هو الله أحد. ويكفي. نسي هذا الغافل وهذا الجاهل أن كلمة «قل» لها معنى وهو أن هذا أمر من الله، وكما أمر مُحَمَّد أن يقول: «قل» نحن نردد وراءه «قل» أيضًا[1].

﴿ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗا ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، بلِّغ هذا، ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل: ٦]، هناك سلطة تأمره وتنهاه، تقول له: قل كذا، افعل كذا، لا تفعل كذا.

(١) القائل: الرئيس الليبي السابق معمر القذافي.

QaradawiBooks.com

شهادة الله لنبيِّه مُحَمَّد ﷺ بصدق نبوته:

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، الإنسان إذا أقام دعوى على أحد، ماذا يحتاج لإثبات هذه الدعوى؟ يحتاج إلى شهود يشهدون له، فمحمد ادَّعى دعوى عظيمة كبيرة أنَّه رسول الله، وليس فقط رسول الله، بل رسول الله إلى النَّاس كافَّة، يقول: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، جاء لجميع الخلق، الشرق والغرب، العرب والعجم، الجيل الحاضر والأجيال الآتية، بل الإنس والجنُّ، دعوى كبيرة من يشهد لك يا محمَّد؟ ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، تكررت هذه العبارة في القرآن الكريم، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأحقاف: ٨]، في سورة الأحقاف هذه، وفي سورة الإسراء يقول: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٦]، في سورة النساء يقول: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦].

وفي سورة الرعد يقول: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٤٣].

وهنا يقول: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، إذا كنتم تبحثون عن شاهد يكفيني شهادة الله لي.

كيف شهد الله لمحمَّد؟ شهد الله لمحمَّد بالبيِّنات، أرسله بالبيِّنات، بالدلائل الواضحات، القرآن نفسه يحمل الدلائل على أنَّه كتاب الله، لأن القرآن نفسه آية، هو يحمل الدلائل العقليَّة على أنَّه كتاب الله، فالقرآن آية، وما شاهده النَّاس من أحواله آية، أخلاقه آية.

QaradawiBooks.com

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل النَّاس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ، فجئت في النَّاس لأنظر إليه، فلمَّا استبنْت وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذَّاب[1].

كان بعض الأعراب يقول: إنِّي لأتصوَّر الرجل من قفاه. إذا نظرتُ إلى قفاه أعرف هذا الرجل بخيل أم كريم، جبان أم شجاع، فقيل له: تعرفه من قفاه؟! فكيف لو رأيتَ وجهه؟ قال: ذاك كتاب أقرؤه.

انظروا، كان مُحَمَّد ﷺ يُعرف بأخلاقه بمجرد رؤيته، ما جاء بشيء يقول العقل: ليته لم يجئ به، وما نهى عن شيء يقول العقل: ليته أمر به، فكل ما جاء به ملائم للفطرة، مصدق للعقل، محقق للعدل، هذا ما جاء به مُحَمَّد ﷺ.

شهد الله له بأنَّه تركه يدعو إلى الخلق، لو كان كاذبًا ما خلى الله بينه وبين عباده يُضلّهم.

الله ﷻ يقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]، لو تقوَّل فقط بعض الأقاويل لقطع الله منه الوتين وهو عرق في العنق، فما بالنا لو تقوَّل كل الأقاويل! كيف يُمكِّنه الله من عباده ويتركه يُضلّهم ويؤيده بنصره ويُنزل عليه المعجزات وينصره في معركة بعد بعركة رغم قلَّة العدد وضعف العُدد وقلة الأنصار؟! كيف أمدَّه الله بهذا كله! هذه شهادة من الله ﷻ لرسوله.

(١) رواه أحمد (٢٣٧٨٤)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين. والترمذي في صفة القيامة (٢٤٨٥)، وقال: صحيح. وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٥١).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، ولذلك يقول: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦]، ولذلك لما قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، قال: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]، لم يملِ أحد هذا على محمَّد، ولو كان يملى عليه من كتب الأقدمين لوافقت القصص الَّتي ذكرها ما في كتب الآخرين، ولكنَّها مخالفة لكتب الأقدمين في أشياء كثيرة جدًّا، ومن يقرأ التوراة ويقرأ القرآن ويعمل مقابلات بين التوراة والقرآن يجد مخالفات كثيرة، القرآن صحح الأخطاء والأغلاط والمغالطات والأكاذيب الَّتي ضمت إلى القصص، فلا يمكن أن يكون مُحَمَّد اكتتب أساطير الأولين.

هم كانوا يقولون أشياء مثل: ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، كان في مكَّة بعض العمال والصنَّاع؛ لأن أهل مكَّة لم يكونوا يحسنون الصناعات، فكان عندهم نجَّار رومي، وحدَّاد فارسي، ناس من بلاد مختلفة، واحد نصراني وآخر يهودي وكذا، فقالوا: هؤلاء هم من علَّم محمدًا. كيف يُعلِّم محمدًا وهو لا يحسن العربيَّة؟! ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، اتهامات طفوليَّة، ومع هذا القرآن يردُّ عليهم ويُسكتهم ويُخرس ألسنتهم بالحقائق بالبراهين الَّتي لا تدع مقالًا لقائل.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢]،

QaradawiBooks.com

مثل هؤلاء المشركين للأسف آمنوا بالباطل، آمنوا بالأصنام، آمنوا بالطواغيت وكفروا بالله الَّذي خلقهم وخلق آباءهم وخلق السماوات والأرض، أشركوا بالله وعبدوا الطواغيت والأصنام، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، وأي خسران أكبر من خسارة الجنَّة، لم يدخلوا الجنَّة وإنَّما استحقوا النَّار، أي خسارة أعظم من هذه الخسارة، ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

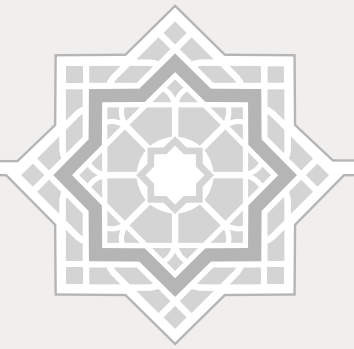
غير مرخصة للطباعة

* * *

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



من دروس التفسير

سورة لقمان



QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الأول

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ... ﴾[1]

الوقفة الَّتي نقفها اليوم مع كتاب الله، عند قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان: ٦، ٧].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾ لهو الحديث: هو ما يُلهي النَّاس ويُشغلهم. وفسره بعضهم بما كان يأتي به بعض العرب، وبعض رجال قريش من قصص الفرس وملوكهم، وكسرى، ونحو هذه البلاد، ويحكيها لهم، ليشغلهم عن سماع القرآن الكريم. وهذا أحد التفسيرات. فهو يأتي بهذه القِصص، ليشغلهم عمَّا أتى به القرآن من قَصص قوم عاد وثمود ولوط وإبراهيم، وموسى وعيسى إلخ. وهو يظن أن هذا بديل عن القرآن.

هل المراد بلهو الحديث: الغناء؟

وهناك من فسَّر لهو الحديث بالغناء. وجاء هذا عن ابن مسعود، وورد أنَّه أقسم أنَّ لهو الحديث هو الغناء[2]. وأخذ بعض النَّاس من هذا القول أنَّ الغناء حرام؛ لأنَّه لهو الحديث، وقد ذمَّه الله في الآية الكريمة.

---

(١) من دروس تراويح ١٤٢٣هـ.

(٢) رواه الحاكم في التفسير (٤١١/٢)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي.

QaradawiBooks.com

وهذا في الحقيقة لا يمكن أن يُستدل به على حرمة الغناء في حدِّ ذاته، لأنَّ الغناء يعني: صوت طيِّب، بكلام موزون مؤثّر في النفس. وهذا قد يكون فيه الحلال، وقد يكون فيه الحرام، وقد يكون فيه المكروه، وقد يكون فيه المستحب، حسب الموضوع وحسَب طريقة الأداء.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتناشدون الأشعار، ومن ذلك قولهم:

لاهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدَّقْنا ولا صلَّيْنا
فأنزلنْ سكينةً علينا وثبِّتِ الأقدامَ إنْ لَاقَيْنا[1]

وكان الصبيان الصغار، يخرجون لاستقبال النبيِّ ﷺ، ويُنشدون:

طلع البدرُ علينا من ثنيَّات الوداعْ
وجبَ الشُّكْرُ علينا ما دعا لله دَاعْ[2]

وهذه الأصوات والإنشادات، ليس فيها حرج، إنَّما الحرج في موضوع الغناء نفسه، وهدف الغناء. ففرق بين من يُغَنِّي، ويقول:

يَا رَبِّ سَبِّحْ بحَمْدَكْ كُلّ شيء حيّ[3]

أو:

ست الحبايب يا حبيبة يا رب يخليكي يا أمي[4]

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٢٨٣٧)، ومسلم (١٨٠٣)، كلاهما في الجهاد والسير، عن البراء.

(٢) رواه الخُلعي في الفوائد المنتقاة من الخُلعيات (٣٣٦/٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥٠٦/٢، ٥٠٧) من حديث عبيد الله بن محمد ابن عائشة، وإسناده معضل. قاله الحافظ العراقي في تخريجه على إحياء علوم الدين صـ ٧٤٩، وابن حجر في الفتح (٢٦١/٧).

(٣) من كلمات شاعر العامية بيرم التونسي.

(٤) وهي بالعامية المصرية، من كلمات حسين السيد.

QaradawiBooks.com

فمثل هذه الأشـــياء لا مانع فيها، لأنَّ موضوعها طيب. لكن لو غنّى أحد بقول أبي نُوَاس:

دعْ عنكَ لَوْمِي فـــإنَّ اللومَ إغراءُ وداوني بالَّتي كانت هِـــيَ الدَّاءُ[١]

ويقصد بذلك الخمر وهو القائل:

أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا وقُلْ لِي: هِيَ الْخَمْرُ[٢]

يعني: أحبُّ الخمر حتَّى اسمها.

أو لو غنَّى أحد بقول أحمد شوقي[٣]:

رَمَضَانُ ولَّى هَاتِهَا يَا سَـــاقِي مُشْـــتَاقَة تَسْـــعَى إِلَى مُشْتَاقِ

فموضوع هذه الأغاني والأشـــعار، لا يقره الإسلام؛ لأنَّ فيه مخالفة لأحكام الشريعة. ومثل ذلك التشكيك في العقيدة، مثل قصيدة الطلاسم لإيليا أبو ماضي، والَّذي قال فيها:

جئت، لا أعلم من أين، ولكنّي أتيتُ
ولقد أبصرت قدّامي طريقًا فمشـــيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟
لـــــســـــت أدري!

(١) ديوان أبي نواس برواية الصولي صـ ٥٣، تحقيق د. بهجت عبد الغفور الحديثي، نشر هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط١، ٢٠١٠م.

(٢) صدر بيت عجزه:

ولا تسقني ســـرًّا إذا أمكن الجهرُ

انظر: ديوان أبي نواس برواية الصولي صـ ٩٦.

(٣) انظر: ديوان إيليا أبو ماضي صـ ١٩١، نشر دار العودة بيروت.

QaradawiBooks.com

فهذه أغنية تشكِّك في الدين والألوهيَّة وفي الآخرة، وفي كل شيء، إنَّه يشك، ويشك أنَّه يشك. فمثل هذه الأغنية تشكِّك في العقيدة.

مثل هذه الأغنيات، لا يقر الإسلام موضوعها؛ لأن موضوعها ضد ما جاء به الإسلام، فيها تشكيك في العقيدة، وتشكيك في الشريعة. وهذا لا يُقبل.

الأغاني المحرَّمة:

ومثل ما يرفضه الإسلام أيضًا: ما كان مخالفًا للشريعة والسلوك الإسلامي، أن يكون كلامًا ضد ما جاء به الإسلام، كمن يقول: الدُّنْيا سيجارة وكاس. هذا لا يُقبل. ومن يقول: أبو عيون جريئة، فهذا يخالف قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، و﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

فهذا النوع من الأغاني الَّذي يكون موضوعه مخالفًا للعقيدة، ومخالفًا للشريعة، ومخالفًا للقيم الإسلاميَّة الَّتي جاء بها الإسلام، فهذا يُرفض.

ومن ناحية أخرى: إذا كانت الأغنية كلامها مقبول ديانة، وعقيدة، وشريعة، وأخلاقًا، ولكن طريقة الأداء طريقة مثيرة، فيها تكسر، وتخلُّع، وتميُّع، فهذا يحرم أيضًا. فالله تعالى يقول في الكلام العادي: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]، الخضوع بالقول يُطمع الَّذي في قلبه مرض الشهوة والغريزة، فما بالك إذا كان معه اللحن والنغم والموسيقى والإثارة، فهذا يكون أشد إثارة وأشد خطرًا.

ولا بد أيضًا أن يكون خاليًا من الاقتران بأيّ محرم، فلا يكون الغناء في مجلس خمر، أو مجلس خلاعة، أو رقص، والأغاني الآن الَّتي في التلفزيون، كلها مصحوبة بالرقص، لا بدّ أن يأتوا بجماعة يرقصون حول

QaradawiBooks.com

من يُغني، فكل الأغاني الَّتي فـي التلفزيون الآن، أصبحت حرامًا، لأنَّها لم تعد مجرَّد سماع، بل صارت رقصًا.

الإكثار من سماع الأغاني:

ولا بد ألا يُكثر الإنسان من سماع الأغاني، حتَّى لو كان موضوعها مباحًا، وخالية من المحرمات، فلا يجوز للإنسـان أن يُكثر من سـماع الأغاني، ويظل طول نهـاره، يتنقل من إذاعة إلى إذاعـة، ومن قناة إلى قناة، وكأن الإنسان ليس وراءه من عمل إلَّا أن يستمع فقط! وماذا لدينه؟ وماذا لدنياه؟ وماذا لأهله؟ وماذا لولده؟ وماذا لعمله؟ بل يكون كما قال الإمام علي رضي الله عنه: أَعْطِ الكلامَ من المَزْح، بمقـدار ما تُعطي الطعامَ من المِلْح[1]. يعني: لا تعطِ للمزح واللهو من كلامك، إلَّا مثل ما تعط الطعام من الملح، أي: يسيرًا. فاللهو لا بدَّ أن يكون بمقدار معين.

وإذا كان شـرعًا لا يجوز للإنسـان أن يغلو في العبـادة، وقد كان عبد الله بن عمرو بـن العاص يقوم الليل ويصوم النهـار، ويتلو القرآن، ولا يفرغ من عبادته، وشكاه أبوه عمرو إلى رسول الله ﷺ، فطلبه، فقال له: «**ألم أخبر أنَّك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة؟**» قال: بلى، يا نبي الله، ولم أرد بذلك إلَّا الخير. قال: «**فإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام**» قال: يا نبيَّ الله، إنِّي أطيق أفضل من ذلك. قال: «**فإن لزوجك عليك حقًّـا** ـ أي في المؤانسـة والإمتـاع ـ **ولزورك عليـك حقًّا** ـ أي المجتمع الَّذي حولك ـ **ولجسدك عليك حقًّا**» أي: في الراحة.

قال: «**فصُمْ صوم نبيِّ الله داود** عليه السلام، **فإنَّه كان أعبد الناس**» قال: يا نبي الله، وما صوم داود؟ قال: «**كان يصوم يومًا ويفطر يومًا**».

(١) اللطائف والظرائف للثعالبي صـ ١٥١.

QaradawiBooks.com

قال: «**واقرأ القرآن في كلِّ شهر**» قال: يا نبي الله، إنِّي أطيق أفضل من ذلك. قال: «**فاقرأْه في كلِّ عشرين**» قال: يا نبي الله، إنِّي أطيق أفضل من ذلك. قال: «**فاقرأْه في كلِّ عشـــر**». قال: يا نبي الله، إنِّي أطيق أفضل من ذلك. قال: «**فاقرأْه في كلِّ ســـبع، ولا تزدْ على ذلك؛ فإنَّ لزوجك عليك حقًّا، ولزورك عليك حقًّا، ولجسدك عليك حقًّا**»[١].

فينبغي أن يُعطي الإنسان كلَّ ذي حقٍّ حقَّه؛ لأنَّه إذا أعطى كل ذي حقٍّ حقَّه وبالغ فيه، لا يكون ذلك إلَّا على حساب الحقوق الأخرى، فلا بدَّ أن يكون الغناء بحســـاب، فبهذا لا مانع من أن يسمع النَّاس، وقد كان في بيت الســـيِّدة عائشـــة رضي الله عنها جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بمـــا تقاولـــت الأنصار يوم بعـــاث، فدخل ســـيِّدنا أبو بكر، فسمعهما، فقال: أمزامير الشيطان في بيت رسول الله ﷺ! وكان ذلك في يوم عيد، فقال رســـول الله ﷺ: «**يا أبا بكر، إنَّ لـــكلِّ قومٍ عيدًا، وهذا عيدنا**»[٢].

بعض النَّاس يقول: كانوا صغارًا ونحو ذلـــك. ولو كانوا صغارًا كما يقولون: ما غضب أبو بكر رضي الله عنه هذا الغضـــب، بل هذا دليل أنَّهما كبار، وأنهما فعلا شيئًا يستوجب الغضب.

لا دلالة في الآية على تحريم الغناء:

ولذلك أنا أقول: لا دلالة في القرآن على تحريم الغناء، وهذه الآية الَّتي معنا ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ ليســـت مجرَّد ذمّ للهو الحديـــث، وإنَّما ذمَّت من

(١) رواه البخاري في الأدب (٦١٣٤)، ومسلم في الصوم (١١٥٩) (١٨٢)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٩٥٢)، ومسلم في صلاة العيدين (٨٩٢)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

يشـــتري لهو الحديث ـ وليس من يســـمع لهو الحديـــث أو يقول لهو الحديث فقط ولكن من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوًا. فلو أنَّ أحدًا اتخذ الغناء ليضل النَّاس عن ســـبيل الله، ويصدهم عن القرآن وعن الإســـلام، فهذا هو المذموم. ويقول ابن حزم: وهذه صفة من فعلهـــا كان كافرًا، لأن الإضلال عن ســـبيل الله، واتخاذ آيات الله هزوًا، ويسخر منها، فهو يستحق الوعيد الَّذي في الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

ولذلك يقول ابن حزم: لو أنَّ إنسانًا اشـــترى مصحفًا؛ ليضلَّ به عن سبيل الله بغير علم، يكون مذمومًا ويدخل في الوعيد[1]. فما ذمَّت الآية من يستمع إلى الغناء ليروح به عن نفسه، فإن القلوب إذا أُكرهت عميت، وروِّحوا القلوب ساعة بعد ســـاعة، وإنَّ النفوس تمل كما تمل الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة. ساعة وساعة.

ولله منِّـــي جَانِـــبٌ لا أُضَيِّعُه ... وللَّهْوِ منِّـــي والبَطَالَةِ جَانِبُ[2]

فمـــا ذمَّ الله هـــذا، وإنَّما ذمَّ من يشـــتري هذا، ليُضِلَّ عن ســـبيل الله ويتَّخِذَها هزوًا، فهؤلاء لهم العذاب المهين.

موقف النَّاس من الغناء:

هذا أمر واضح، وللأســـف النَّاس في هذه القضيَّة، طرفان ووســـطًا، ناس تحرِّم كل شيء في الغناء، وناس تريد أن تبيحه، وتفتح الباب على مصراعيه، للغناء العاطل والباطل، والحلال والحرام. ونحن نريد الوسط.

(١) المحلَّى (٥٦٧/٧).

(٢) الكامل في اللغة والأدب (٧/٢).

QaradawiBooks.com

سألني أحدهم: الغناء حلال أم حرام؟ فقلت له: الغناء الحلال حلال، والغنـــاء الحرام حرام. يعنـــي كل أحد يعرف ما هو الغنـــاء الَّذي يُمكن سماعه، والغناء الَّذي لا يُمكن سماعه.

وفي شـــهر مثل شـــهر رمضان، أولى بالناس أن يكُفُّوا أنفسهم عن الأغاني وعن هذا اللهـــو، وأن يعكُفوا على كتـــاب الله، وعلى ذكر الله، وعلى التسبيح والاســـتغفار، والدعاء، وعلى عمل الخير، وخير العمل، فالأوقات المباركات أولى بها أن تُصان عن اللهو، حتَّى وإن كان مباحًا.

إذا كنت تستطيع أن تُنفق وقتًا في عمل مباح، ويمكن أيضًا أن تُنفقه في عمل تكســـب به أجرًا كالجبـــال، رصيدًا هائلًا، فكيـــف تضيِّعه؟! الجاهل والخائب من يضيِّع أوقاتًا يُباهي الله بها ملائكته، ورحم الله من أرى الله من نفســـه خيرًا، في هذا الشهر الكريم. والشـــقي فيه من حُرِم رحمة الله ﷻ.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يُفَقِّهَنا في ديننا، وأن يُعَلِّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بمـــا علَّمنا، إنَّه ســـميع قريب، أقول قولي هذا، واســـتغفر الله لي ولكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الثاني
التذكير بيوم القيامة[١]

ختام سورة لقمان:

خُتمت سورة لقمان بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [لقمان: ٣٣، ٣٤].

بهاتين الآيتين خُتمت السورة الكريمة، وفيهما يذكّر الله تبارك وتعالى عباده بيوم القيامة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾، الخطاب للنَّاس جميعًا، لأنَّه ليس خطابًا بتكليف معين يختص بالمؤمنين، لكنَّه خطاب لكل المكلفين، للنَّاس جميعًا، كما في أوَّل سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ [الحج: ١]، هذه الخطابات الإلٰهيَّة خطابات عامَّة لكلِّ البشر.

﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾، من المهم جدًّا أن يتذكر النَّاس هذا اليوم العظيم ويخشوه ويحسبوا حسابه، ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۞ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۞ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ ـ ٦].

---

(١) من دروس تراويح ١٤٢٤هـ.

QaradawiBooks.com

هذا اليوم يــوم هائل، يوم القيامة، يوم الســاعة، يــوم الزلزلة، يوم الحساب، يوم الدين، يوم الحاقّة، يوم القارعة، له أسماء كثيرة في القرآن، وكلها أســماء تُخيف وتُزلزِل، هذا يوم ليس يومًا عاديًا، لأن الإنسان فيه إمَّا إلى الجنَّة وإما إلى النار.

كيف يكون حال الطلاب عندما يكونــون منتظرين ليوم الامتحان؟ ومع ذلك مهما يكن فهم إمَّا ناجح وإما راسب، بخلاف يوم القيامة، ففي يوم القيامة الإنســان إمَّا ناج وإما هالك، إمَّا إلــى الجنَّة وإما إلى النار، لذلــك كان تذكر يــوم القيامة أمرًا في غايــة الأهميَّة فــي هداية النَّاس وتوجيههم إلى الخير.

الموت بداية رحلة لحياة أخرى:

شرُّ ما يصاب به البشر أن ينسوا يوم القيامة، يتصرَّف كلُّ واحد كأنَّه مُخَلَّد فــي الدُّنيا، ولن يموت، ولا يحصل لــه ما بعد الموت، والموت أشــد ممَّا قبله وأهون ممَّا بعده، فبعد الموت هناك القبر، وهناك البعث، والحشر، والحساب، وهناك الجنَّة والنَّار، لو كان الأمر يقف عند الموت، لــو كان الموت عدمًا محضًا، وفنــاء صرفًا، وانتهى أمر الإنســان لكان الموت راحة، إنَّما لا، المــوت ليس راحة، الموت بعده أشــياء كثيرة، ولذلك يقول الشاعر:

وَلَــوْ أَنَّــا إِذَا مِتْنَــا تُرِكْنَــا ... لَكَانَ الْمَــوْتُ رَاحَةَ كُلِّ حَيِّ
وَلَكِنَّــا إِذَا مِتْنَــا بُعِثْنَــا ... فَنُسْــأَلُ بَعْدَهَا عَنْ كُلِّ شَيِّ[1]

(١) سبق عزوه صـ٣٦٨.

QaradawiBooks.com

الموت ليس نهاية المطاف، بل هو بداية رحلة لحياة أخرى، تُوَفَّى فيها كل نفس ما كسبت، وتخلَّد فيما عملت، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، لذلك قال: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

كان بعض السلف يقولون: لولا يوم القيامة لكان الأمر غير ما ترون، لولا أن هناك يوم قيامة وهناك حساب على الصغيرة والكبيرة، وكل واحد سيقرأ كتابه، ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، ما ترك حاجة، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

هم نسوا لكن الله أحصاه، سيتذكر ويرى كل شيء أمامه، الكتاب الَّذي يقرؤه الإنسان هذا أشبه بشريط مسجل، يعرض أمامك فترى كل شيء، حتَّى ما كنت قد نسيته أو حاولت نسيانه تجده أمامك، لولا يوم القيامة لعمل الإنسان كل ما يريد، كان القوي يأكل الضعيف، والكبير يلتهم الصغير، وكل واحد يرتكب ما يشاء من موبقات، ويتَّبع ما شاء من شهوات، ما دام لا حساب ولا عقاب ولا جزاء، إنَّما المشكلة أن هناك قيامة، وحسابا، وجزاء ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾، لا أب ينفع ابنه، ولا ابن ينفع أباه، كل واحد يقول: نفسي، نفسي، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۞ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧].

QaradawiBooks.com

يوم القيامة لا يذكر أحد أحدًا:

وفي الحديث الصحيح عن عائشة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**تُحْشَرون حفاةً عُراةً غُرْلًا**»، قالت عائشة: يا رسولَ الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: «**الأمرُ أشدُّ من أن يُهِمَّهم ذاك**»[1].

يُحشر النَّاس حفاة بلا نعال ولا حذاء، عراة بلا ثياب، كما ولدتهم أمهاتهم، ﴿**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ**﴾ [الأعراف: ٢٩]، غرلًا غير مختونين، كما ولدوا، فقالت عائشة: واسوأتاه، وينظر الرجال إلى النساء يا رسولَ الله؟ قال: «**يا عائشة، الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضُهم إلى بعض**»[2]، ﴿**لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**﴾ [عبس: ٣٧].

كل امرئ عنده ما يشغله، من كانوا يلتهمون الغاديات والرائحات بنظراتهم المسمومة، ومن كانوا يضايقون ويعاكسون الفتيات الآن كل منهم مشغول بمصيبته، يا ترى سيدخل النار، أم سينجو، نجاة أم هلاك، «**الأمر أشدُّ من أن يُهِمَّهم ذلك**»، لذلك قال الله: ﴿**لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا**﴾، الأب الَّذي كان يقول: يا ربِّ، ارزقني بولد أو بنت أو كذا، فلذة كبده، وقرة عينه، ينسى كل هذا ﴿**يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ**﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٦]، امرأته وأولاده والكل، كل واحد يقول: نفسي، نفسي.

لو احتاج ابنك لحسنة لا تعطيه إيَّاها، والابن لو كان أبوه محتاجًا لحسنة لا يعطيه إيَّاها، يقول: لو نقص ميزاني حسنة أين سأحصل عليها؟ فلن يفرط أحد في حسنة من حسناته، لا لأمه، ولا لأبيه، ولا لأخيه، ولا لزوجته،

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٢٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٩).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري الرقاق (٦٥٢٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٩)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، هذا يـوم القيامة، ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ ـ ٦]، يوم عظيم.

مشكلات العالم في نسيان يوم القيامة:

مشكلة النَّاس نسيانهم يوم القيامة، يتصرَّفون وكأنَّه ليس هناك آخرة، لو كان الإنسان متذكرًا هذا باستمرار لحُلَّت مشكلات العالم كلُّها، إنَّما لا يذكر أحد يوم القيامة، النَّاس يحاولون نسـيان هـذا اليوم، لو تذكَّر القوِّي أنَّ هناك ربًّا سيحاسـبه في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلَّا من أتى الله بقلب سليم ما طغى على الضعيف، ما حاول أن يأكل حقه، لأنَّه عرف أنَّه سيحاسب في هذا اليوم.

بالعكـس كان المفروض أنَّ القوِّي يرحـم الضعيف، والغني يعطف على الفقير، كما وصف الله الأبرار يقول: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسـان: ٨، ٩]، لا نريد منكم مقابل ما فعلنا معكم، ولا حتَّى كلمة شـكر، ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٩، ١٠]، نحن حَسِبْنَا حساب هذا اليوم، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾، هو هذا الَّذي جعلنا نُنفق ونُطعم الطعام على حبِّه، أي: مع حبنا له وحاجتنا إليه آثرناكم على أنفسـنا، ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾، لا نريد منكم، بل نريد من ربنا أن ينجينا من هول يوم القيامة ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١١، ١٢].

دقَّة الحساب يوم القيامة:

خشية يوم القيامة هي حل مشكلات البشر الآن، لو أنَّ النَّاس وضعوا نُصب أعينهم هـذا اليوم وما فيه من حسـاب ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ

QaradawiBooks.com

﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، أي: سيأخذ كل واحد حقَّه.

جاء رجل إلى النبيِّ ﷺ وقال: يا رسولَ الله، إنَّ لي مملوكين ـ يعني: خدمًا، عبيدًا عندي ـ يَكْذِبُونني ويخونونني ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ قال: «**يُحْسَبُ ما خانوك وعَصَوْك وكَذَبُوك وعقابُكَ إيَّاهم، فإن كان عقابُك إيَّاهم بقدر ذنوبهم كان كفافًا، لا لك ولا عليك، وإن كان عقابُكَ إيَّاهم دون ذنوبهم، كان فضلًا لك، وإن كان عقابُك إيَّاهم فوق ذنوبهم اقتُصَّ لهم منك الفضل**»، يحسب هذا، ويحسب هذا، لعله في ضربه إيَّاهم زاد فأصبح الحق لهم، وإذا خفف يصبح الحق له. فتنَّحى الرجل، فجعل يبكي ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: «**أمَّا تقرأ كتاب الله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]؟!**». فقال الرجل: والله يا رسول الله، ما أجد لي ولهم شيئًا خيرًا من مفارقتهم، أُشهدك أنَّهم أحرار كلُّهم[1].

لا يضيع عند الله شيء، ألم تروا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]؟!

خوف السلف من يوم القيامة:

المساءلة يوم القيامة شيء عظيم، تصوَّروا أنَّ عمر بن الخطاب هذا الرجل الَّذي ضرب به المثل في عدله وحرصه على إقامة الحق، وعلى

(١) سبق تخريجه صـ٣٦٨.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أخذ الحق لصاحبه، وعدله في نفسه وأهله، كان من أشدّ النَّاس على نفسه، ومن أشدّ النَّاس على أهله، يلبس ثوبًا فيه بضعة عشر رقعة، بعضها من أَدَم ـ أي: جلد ـ عمر هذا يقول: «وددت أنِّي نجوت منها كفافًا، لا لي ولا عليَّ»[١]، يريد فقط النجاة يوم القيامة، كل هذا وتخاف يا عمر؟ ولما قالوا له: ألا تعهد بالخلافة لعبد الله بن عمر، ابنك، قال: بحسْبِ آل الخطَّاب أن يُسأل منهم واحد[٢]. يكفي أن يُسأل واحد منَّا عن هذه الأُمَّة.

عمر بن عبد العزيز بكى يومًا، فقالوا له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ قال: تذكرت يوم القيامة حين يسألني الله عن الصبي اليتيم، وعن المرأة الأرملة، وعن الرجل الفقير وعن الأسير وعن كذا وعن كذا وجعل يُعدد لهم في النَّاس أنِّي مسؤول عن هؤلاء أمام الله يوم القيامة، ماذا أقول إذا سألني الله عن هؤلاء؟ تذكرت هذا كله فبكيت رحمة بنفسي[٣]، أنا أحمل حملًا كبيرًا.

لو كان الحكام الَّذين يأكلونها ملتهبة هؤلاء، «وحاميها حراميها»، كما يقال، لو تذكروا هذا اليوم، وأن هذا اليوم آت لا ريب فيه، وأنَّه سيموت، ورأى من قبله مات، وأخذ هو الملك من بعده، ألا يعتبر؟ لو دام الملك لمن قبلك لم يصل إليك، ولكن أحدًا لا يعتبر، كأنَّه لا توجد آخرة، وكأنَّه ليس بعد الموت قبر، ولا بعد القبر بعث، ولا بعد البعث حشر، ولا بعد الحشر حساب، ولا بعد الحساب جنَّة أو نار،

(١) رواه البخاري في الأحكام (٧٢١٨).
(٢) تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل للباقلّاني صـ ٥٠٨، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، نشر مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٩٦/٤٥، ١٩٧).

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

ليت النَّاس يذكرون يــوم القيامة، لو ذكر النَّاس يــوم القيامة لانحلت مشكلات البشريَّة جمعاء.

نسأل اللهَ تبارك وتعالى أن يذكرنا بهذا اليوم العظيم، وأن يجعلنا ممَّن يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، وأن يجعلنا من الَّذين هم بالآخرة هم يوقنون، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].

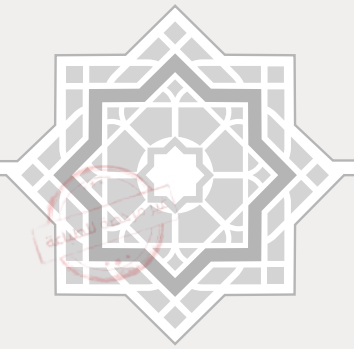
* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



من دروس التفسير

سورة الأحزاب



نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الأوَّل
قوانين النصر في القرآن الكريم[١]

نحن الآن قد بدأنا العشر الأواخر، وربَّما كانت التسع الأواخر، فغالبًا ما يكون شهر رمضان في هذا العام (٢٩).

ونحن في الليلة الحادية والعشـــرين، وهي أوَّل العشر الأواخر، وقد كان بعض الصحابة يعتبرها ليلة القدر، وأشار إلى ذلك الإمام البخاري في صحيحه[٢].

وعلى كل حال فهي بداية العشر، وقد قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر، شدَّ المئزر، وأحيا ليله، وأيقظ أهله[٣].

وشدُّ المئزر كناية عن التشـــمير والنشـــاط، مثل أن يقال: شمَّر عن ســـاعده. وأحيا ليله: يعني يقوم الليل، فقد كان قبل العشر يُحيي بعض الليـــل، أمَّا في العشـــر الأخيرة، فيُحيـــي الليل كلَّه بالطاعـــة وبالعبادة، وبالتلاوة وبالذكر وبالصحبة مع الله تعالى.

---

(١) من دروس تراويح ١٤٢٣هـ.

(٢) إشارة إلى حديث أبي سعيد الخدري المتَّفق عليه: استهلت السماء في تلك الليلة فأمطرت، فوكف المســـجد في مصلى النبي ﷺ ليلة إحدى وعشـــرين، فبصرت عيني رسولَ الله ﷺ، ونظرتُ إليه انصرف من الصبح ووجهه ممتلئ طينًا وماءً. رواه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠١٨)، ومسلم في الصيام (١١٦٧).

(٣) سبق تخريجه صـ٥٤١.

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

وأيقظ أهله: هنَّ أمهات المؤمنين، يوقظهنَّ ليشاركنه في الطاعة والخير، والإنسان الموفَّق يُحيي ليله ويوقظ أهله ليشاركنه في الطاعة، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

سرُّ الاهتمام بالعشر الأواخر لسببَيْن:

السبب الأوَّل: أنَّ العشر الأواخر ختام رمضان، والأعمال بالخواتيم، فقد يعمل أحد الأشخاص أعمالًا صالحة، ثمَّ يختم له بشرٍّ والعياذ بالله، فيضيع عمله، ويهدم ما مضى. وبالعكس أيضًا قد يكون إنسانًا مسرفًا على نفسه بالمعاصي، ضائعًا مضيِّعًا، ثمَّ يهتدي في المدة الأخيرة من حياته، ويشرح الله صدره للإيمان والاستقامة، فيستقيم على أمر الله، ويعمل بعمل أهل الجنَّة، ويكون من أهلها، فالعبرة بالخواتيم، ولذلك كان يقول النبي ﷺ: «**اللهمَّ اجعلْ خيرَ عمري آخره، وخيرَ عملي خواتمه، وخيرَ أيامي يوم ألقاك**»[1].

والسبب الثاني: أنَّها مظنَّة التماس ليلة القدر، فليلة القدر أرجى ما تكون في العشر الأواخر، وهي في رمضان قطعًا؛ لكنها أرجى ما تكون في العشر الأواخر، وأرجى ما تكون في ليالي الأوتار، وهي الليالي الفرديَّة، وغالبًا ما يختلف المسلمون في الليالي الفرديَّة، فمثلًا صامت ليبيا والبحرين وغيرهما هذه السنة قبلنا.. فالأوْلى أن يهتمَّ الإنسان في هذه الليالي جميعها، ويزيد من الطاعات، ولذلك بعض النَّاس يصلي التراويح، ويصلي القيام، وهم أصحاب الهمم.

على كلِّ حال ـ أيُّها الإخوة ـ أوشك رمضان أن ينتهي، وما أسرع أن ينتهي رمضان، فرمضان شهر خفيف جدًّا، وإن كان بعض النَّاس

(١) سبق تخريجه صـ٥٤١.

QaradawiBooks.com

يستثقلونه ويقولون: رمضان فراقه عيد. والحقيقة أن رمضان شهر خفيف المحمل، لطيف المعشر، ويمر مرَّ السحاب، ويبارك الله فيه. فلنحسن ختامه.

ونقف الليلة وقفة مع آيات من القرآن الكريم، فقد انتهينا من سورة الأحزاب، والَّتي جاءت تعقيبًا على غزوة الأحزاب، والَّتي غزت فيها قريش وغطفان، وأحابيشهما، ومن يتبعهما من القبائل، المدينة المنورة.

تجمعت هذه الأحزاب كلها، للهجوم على المسلمين في عُقر دارهم، تجمع حوالي ١٠ آلاف، وهم أضعاف أعداد المسلمين، مسلحون مجهزون، يريدون أن يستأصلوا المسلمين، ويقتلعوا الإسلام من جذوره.

وكان الأمر شديدًا على المسلمين، ففكر النبي ﷺ وأصحابه في خطّة يدفعون عنهم هذا الخطر، فأُشير على النبيِّ ﷺ في حفر خندق حول المدينة، ليعوق الفرسان الَّذين يركبون الخيل، فلا يستطيعون الوصول إليهم بسهولة، وقد كانت هذه فكرة لسلمان الفارسي رضي الله عنه[1].

وكان النبي ﷺ إذا أعجبته فكرة تخدم الإسلام والمسلمين أخذ بها، فقد كانت فكرة الخندق من أساليب الفرس، ولا مانع أن نأخذ بأساليب الفرس في القتال، أو أساليب الروم، أو أساليب الهنود، إذ لا حرج في ذلك.

زاد الأمر شدَّة على المسلمين، أن يهود بني قريظة الَّذين كانوا داخل المدينة وفي حِماها، وكانت بينهم وبين رسول الله معاهدة: أنَّه إذا هاجم عدو المدينة، يكونون معه ضد عدوه، بالسلاح وبالمال، وبالرجال. ولكن هؤلاء وجدوها فرصة فغدروا بالمسلمين، وانضموا إلى المهاجِمين.. فتخيَّل حين تجد عندك في دارك «طابورًا خامسا»،

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢٢٤/٢).

QaradawiBooks.com

فتكون بين عدوين: عدو من الخـــارج، وعدو يتربص بك من الداخل، ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۞ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١] أيّ زلزال أشد من هذا الزلزال؟!

حتى إنَّ النبيَّ ﷺ فكَّر أن يدفـــع لغطفان ثلث ثمار المدينة، على أنْ يتركوا القتال مع قريش ضدَّه ﷺ، يريد بهذا أن يفرِّق صف المهاجِمين.

وقبل عقد الصلح مع غطفان، شاور رسول الله ﷺ الصحابة في هذا الأمر، فكان رأيهم في عدم إعطاء غطفان شـــيئًا من ثمار المدينة، وقال السعدان ـ سعد بن معاذ، وســـعد بن عبادة ـ: يا رســـولَ الله أمرًا تحبه، فنصنعه، أم شيئًا أمرك الله به لا بدَّ لنا من العمل به، أم شيئًا تصنعه لنا؟ فقال: «**بل شـــيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلَّا لأنِّي رأيتُ العرب رمتكم عن قوسٍ واحـــدة، وكالبوكم من كلِّ جانب، فأردتُ أن أكســـر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما**». فقال له سعد بن معاذ: يا رسولَ الله، قد كُنَّا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلَّا قِرى أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإســـلام وهدانا له وأعزنا بك وبـــه، نعطيهم أموالنـــا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلَّا الســـيف، حتَّى يحكـــم الله بيننا وبينهم، فقال النبيُّ ﷺ: «**أنت وذاك**»[1].

وشاء الله ﷻ مع هذا كلِّه أن ينتصر المسلمون، وساق المولى ﷻ نُعَيْم بن مسعودٍ الغَطَفاني إلى رســـول الله ﷺ ليعلن إسلامه، وقال له: يا رســـولَ الله، إنَّ قومي لم يعلموا بإسلامي فمُرْني بما شئت، فقال له

(١) سيرة ابن هشام (٢٢٣/٢)، ودلائل النبوة للبيهقي (٤٣٠/٣).

QaradawiBooks.com

رسول الله ﷺ: «**إنَّما أنت فينا رجلٌ واحد، فخذِّلْ عنَّا إن استطعت، فإنَّ الحربَ خَدْعة**»(١).

فظلَّ نُعَيم رضي الله عنه، يفرق بين اليهود والقرشيين، وأبلى بلاء حسنًا.

ولكنَّ النصر الأعظم جاء من عند الله، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩]، وقال: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾ [الأحزاب: ٢٥] أرسل الله عليهم الريح أكفأت أوانيَهم، وخلَعت خيامهم وقدورهم، وأفسدت عليهم حياتهم، وقالوا: لا بقاء لنا، فأسرعوا بالعودة.

قوانين النصر في القرآن:

وهذا يعطينا لمحات عن قوانين النصر في القرآن. فلقد وضع القرآن قوانين للنصر:

أولًا: النصرُ من عند الله، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وفي سورة الأنفال: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]، فلا يُلتمس النصر إلَّا من الله وحده.

ثانيًا: إنَّ النصر لا يستحقه إلَّا من نصر الله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، ونصر الله إنَّما يكون بالإيمان به، والاستقامة على أمره، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

(١) سيرة ابن هشام (٢٢٩/٢).

QaradawiBooks.com

ثالثًا: أن من نصره الله فلن يُغلب أبـدًا، ولا يُخذل أبدًا، قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، فإذا نصـر الله عبدًا، لا يمكن لأحد أن يخذله.

رابعًا: أنَّ النصر يكون بوسائل شتَّى، وبطرق مختلفة، فلا يتحدد النصر بطريقة واحدة، فقد يكون النصر بأن يخيب الله رجاء العدو، ويُنجي المؤمن من كيده، كما نصر الله نبيَّه في الهجرة، يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ والنصر هنا أنْ نجَّاه من كيد الكفار، الَّذين أرادوا أن يقبضوا عليه ويقتلوه، فردَّ كيدهم في نحورهم، وأعاد سهامهم إلى صدورهم. فهذا نصر، يقول تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

ولذلك لما خشي أبو بكر على الرسول وعلى الدعوة، وقال: يا رسولَ الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا.

فقال له: «**يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إنَّ الله معنا**»[1]. ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾.

والقول الصحيح أنَّه لم يكن هناك حمام ولا عنكبوت ونحو ذلك؛ لأن مثل هذه الأشياء مرئيَّة، والله يقول: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾. فهذا نوع من النصر.

---

(١) متَّفق عليه، رواه البخاري في التفسير (٤٦٦٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨١)، عن أنس بن مالك.

QaradawiBooks.com

ومن أنواع النصر أيضًا: أن يردهم مدحورين، كما في غزوة الأحزاب هذه، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، فمن غير أن تقوم معركة، ودون أن يصطدم الجيشان ويتلاحم الفريقان ردَّ الله الَّذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا، فهذا يعتبر نوعًا من النصر.

وقد يكون النصر بالمصالحة، كما كان في الحديبية، اصطلح المشركون مع المسلمين، ووقَّعوا عقدًا، حتَّى كان بعض المسلمين كعمر رضي الله عنه، يرى أن فيه تنازلًا، وقال: لِمَ نعطي الدنيَّة في ديننا[1]؟!

ولكن الرسول كان أبصر من عمر بالعواقب، وكانت عاقبة هذا الصلح خيرًا، وأنزل الله فيهم سورة الفتح، قال تعالى: ﴿فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١ ـ ٣]، فهذا نصر عزيز، وليس ذليلًا.

وقد يكون النصر بالتقاء الجيشين وانتصار الجيش المسلم، كما حدث في بدر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، حينما يريد الله النصر ينصر مع قلَّة العدد والعُدد، وقوة العدو وحصونه المانعة المنيعة، كما في بني النضير، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجزية (٣١٨٢)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٨٥)، عن سهل بن حنيف.

QaradawiBooks.com

فإذا أراد الله النصر لا يقف أمامه مانع من الموانع، أو حائل من الحوائل، فالنصر للمؤمنين، بأي طريقة يريدها الله ﷻ.

خامسًا: ومن قوانين النصر أيضًا أنَّه يكون بالمؤمنين، فهو للمؤمنين وبالمؤمنين، كما يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۞ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

فالمؤمنون أداة من أدوات النصر، وهم سبب من أسباب النصر، فالنَّصر من عند الله، وإذا نصر الله أحدًا فلن يُغلَب أبدًا، ولا يستحق نصر الله إلَّا من نصر الله، ولكن نصر الله ليس بمجرد الكلام، وليس بمجرد الدعاء، وإنَّما يدعون الله بالنصر وهم في المعركة.

كان رسول الله ﷺ يدعو الله بالنصر يوم بدر، وهو في المعركة، كان يقول: «**اللهمَّ نصرك الَّذي وعدت، اللهمَّ أنْجِزْ لي نصرَك الَّذي وعدت**»[1].

والقرآن يحكي لنا عن أصحاب جالوت، وكيف دعوا الله ﷻ بالنصر، وهم في قلب المعركة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرًا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

ليس معنى قولنا: «النصر من عند الله، ومن ينصره الله فلن يُغلب» أن ننام على آذاننا، ونقول: سينصرنا الله، فإذا كنا لم نأتمر بأمر الله، فليس ممَّن نصر الله، فنصر الله أن تنصر أوامره، أن تهتدي بهدي كتابه، أن تسير في سُنَّة رسوله، فتُعد العدة، وتأخذ الحِذر، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]، ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ

(١) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٦٣)، وأحمد (٢٠٨)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٨١)، عن عمر.

QaradawiBooks.com

عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ١٠٢]، ويقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦].

كل هذا من أدوات النصر، فلا تقل: «نحن مؤمنون، فلماذا لا ينصرنا الله؟!»، المؤمنون الحقيقيون، لا بدَّ أن يكونوا مؤمنين بالصورة الَّتي صوَّرها القرآن، وبالأخلاق الَّتي بيَّنها القرآن للمؤمنين.

المؤمنون ليسوا جماعة بُلَهاء، أو غافلين، أو متفرقين، أو متنازعين، بل هم بُصَراء بأمر الدُّنيا، بُصَراء بأمر الدين، يعدُّون لأعدائهم ما استطاعوا، متلاحمون كالبنيان المرصوص، يشدُّ بعضه بعضًا، وبهذا سينتصرون على أعدائهم.

نسأل الله ﷻ، أن ينصرنا على عدوه وعدونا، وأن يرد كيدهم في نحورهم، اللهمَّ أعد سهامهم المسمومة إلى صدورهم، اللهمَّ رد عنَّا كيدهم، وفُل حدهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تجعل لهم سبيلًا على أحد من عبادك المؤمنين.

اللهمَّ انصرْ إخوتنا في فلسطين وفي العراق، وفي كشمير، وفي كلِّ أرض الإسلام، اللهمَّ افتح لهم فتحًا مبينًا، واهدهم صراطًا مستقيمًا، وانصرهم نصرًا عزيزًا.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الثاني
تثبيت الله للمؤمنين في غزوة الأحزاب[1]

الردُّ على دعوى المستشرقين أنَّ الإسلام انتشر بحدِّ السيف:

استمعنا الليلة إلى الآيات الكريمات من سورة الأحزاب، والَّتي تصور عناية الله وتثبيته للمؤمنين في غزوة الأحزاب، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾.. إلخ الآيات.

وغزوة الأحزاب ـ أيُّها الإخوة ـ من الغزوات الكبار، وتسمَّى أحيانًا: غزوة الخندق؛ لأنَّ المسلمين حفروا فيها خندقًا حول المدينة، وسمِّيت غزوة الأحزاب؛ لأنَّ قريشًا حزَّبت القبائل معها، لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين في عقر دارهم، ويقول المستشرقون: إنَّ الإسلام انتشر بالسيف، بل إنَّ الإسلام هو الَّذي انتصر على السيف، فالسيف رُفع في وجه الإسلام والمسلمين من أوَّل يوم. استخدمت القوَّة ضد المسلمين، لفتنتهم عن دينهم.

ولهذا نجد القرآن المكي يقول: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

(١) من دروس تراويح ١٤٢٢هـ.

QaradawiBooks.com

فالمسلمون تعرَّضوا للفتن في دينهم، طوال ثلاثة عشر عامًا، يعذَّبون، ويؤذَون، وتصبُّ عليهم سياط العذاب؛ ليفتنوا ويرجعوا عن دينهم، ولذلك لما شرع الإسلام القتال، قال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، أي: حتَّى لا يُفتن أحد في دينه، ويظل النَّاس أحرارًا، من أراد أن يسلم فليسلم، ولا يردُّه أحد، ولا يَفْتنه أحد.

لقد غُزِيَ الإسلام أكثر من مرَّة في عُقر داره، فغزوة بدر كانت محاولة لغزو المسلمين في عُقر دارهم، حينما سمعوا أنَّ الرسول قد تعرَّض لعيرهم وقافلتهم التجارية، جمَّعوا جموعهم، وحشدوا حشودهم، ليقابلوا محمدًا هناك في يثرب، في المدينة، ثمَّ عرفوا أن قافلتهم نجت، وحاول البعض منهم أن يُوقف القتال، ويعود بهم إلى مكَّة، لكن أبا جهل انتفض، ورفض العودة إلَّا أن يذهب إلى بدر بالقرب من المدينة، ويشرب الخمور، وينحر الجذور، وتعزف القينات، وتسمع بهم العرب، فلا يزالون يهابونهم أبد الدهر. فكانت تحديًا للمسلمين بالقرب من دارهم.

أمَّا غزوة أحد، فكانت في عُقر الدار بالفعل، حتَّى كان الرأي: أن ينتظروا في دورهم داخل المدينة، ثمَّ يضربونهم حين يدخلون المدينة في طرقاتها، وأزقتها.

ثم كانت المرَّة الآخرة في غزوة الأحزاب، حينما تجمعت قريش وغطفان، وأحابيشهما (من حولهم من الأتباع والقبائل الصغيرة)، فكان تحالفًا من المشركين ضد هذه الجماعة المؤمنة، الَّتي ظهرت في المدينة، وسمَّى القرآن هذا التحالف الكفري بـ «الأحزاب».

وهذه الغزوة كانت غزوة خطيرة، أرادوا بها أن يبيدوا خضراء المسلمين، وأن لا يبقوا لهم من باقية، أن يستأصلوا شأفة الإسلام في عُقر داره، وكما قيل: ما غُزي قوم في عقر دارهم إلَّا ذُلُّوا.

QaradawiBooks.com

كانت محنة كبيرة على النبيِّ ﷺ، وأصحابه، حيث كانت هناك أعداد كبيرة هائلة، جاءت تغزوهم في عُقر دارهم، كما حدث الآن في أفغانستان، تُغزى في دارها.

استشارة الجنود والأخذ بأصوب الآراء:

استشار رسول الله ﷺ أصحابه، فأشار عليه سلمان الفارسي بأن يحفروا خندقًا حول المدينة، ولم يكن هذا من أساليب العرب، فلم يكن عندهم صبر أن يحفروا شهرًا كاملًا لمثل هذا. ويسهُل عليهم المواجهة على ذلك.

ولكن رسول الله ﷺ استحسن هذه الفكرة، وهذا الواجب على القائد، أن يستشير جنوده، ويأخذ بأصوب الآراء أو أقربها إلى الصواب.

استحسن النبيُّ ﷺ فكرةَ الخندق، ولم تكن من مكايد العرب، حتَّى إنَّ المشركين حينما جاؤوا ورأوا ذلك، قالوا: إنَّ هذه مكيدة ما كانت لتكيدها العرب[1]. ولكن الإسلام جاء للعرب وللعجم، وللناس جميعًا، فهو يأخذ بأحسن الأساليب الممكنة، فحفر المسلمون الخندق، في الجهة الَّتي كانت غير محصَّنة بجبال ولا بهضاب، ولا بشيء من هذا، وظلوا فترة طويلة يحفرون، ويشاركهم النبي في الحفر، ويضرب بفأسه، وبشَّرهم فيها ببشارات، فتح اليمن، وبلاد بُصرى من الشام، وبلاد كسرى، وأخذوا ينظرون لبعضهم، ويقول بعضهم: مُحَمَّد يَعِدُنا كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن الذهاب للخلاء وحده. وفي هذا قال الله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢٢٤/٢).

QaradawiBooks.com

هذا التجمُّع الهائل الَّذي جاء من قريش وغطفان وأحابيشهما، أُضيف إليه تجمع آخر من الداخل، وهو تجمع «يهود بني قريظة»، وهي القبيلة الَّتي بقيت من قبائل اليهود الثلاثة، الَّتي كانت تعيش بضواحي المدينة (بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير).

بنو قينقاع أُجلوا في أوَّل الأمر، ثمَّ تبعهم بنو النَّضير، ولم يبق إلَّا بنو قريظة. وكانت الاتفاقية بين النبي ﷺ وبين بني قريظة، أنَّه: إذا أغار مغير على المدينة، أن يكونوا بأنفسهم وأموالهم مع الرسول وأصحابه؛ لأن المدينة لهم، فإذا أغار أجنبي، فبطبيعة الحال، الواجب عليهم الدفاع.

ولكن اليهود غلبت عليهم طبيعتهم، وغدرهم، وعدوانهم، ونقضوا العهد، وانضموا إلى الأعداء المغيرين على النبيِّ ﷺ وأصحابه، وبعثوا إلى المشركين يقولون لهم نحن معكم.

ولذلك صوَّر القرآن هذا المشهد بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠] وانظر حين يخاطب القرآن النبي وأصحابه، بهذا القول، هنا كانت ساعة الامتحان، ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١].

أي ابتلاء أصعب من هذا، ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾: وكلمة الزلزلة هذه تفيد الهز الشديد، ولم يقل زلزلوا فقط، بل ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾، كان الوقت عصيبًا عليهم، وكان امتحانًا رهيبًا، وكان زلزالًا شديدًا، ظهر فيه النفاق، وبرز للعيان، فئة تقول: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾، وطائفة أخرى تقول: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

هكذا ظهر النفاق، لأن هذه أوقات الامتحانات، يتميَّز فيها المؤمن من المنافق، والخبيث من الطيِّب، ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

بان الخبيث وظهر، وبان الطيب أيضًا: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

عندما اجتمع الأحزاب، لم يتخلَّف المؤمنون، وإنَّما ثبتوا وقالوا ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، وعدنا الله ورسوله أن هؤلاء لا يزالون يقاتلوننا حتَّى يردونا عن ديننا، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

المؤمن الحق يزداد يقينا عند نزول المحن:

﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ إنَّ المؤمن الحق يزداد يقينًا عند الشدائد، كالذهب الأصيل، لا تزيده النَّار إلَّا صفاء ولمعانًا، هذا هو المعدن الأصيل الحقيقي، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

كانت محنة عظيمة، هذه المحاصرة للمسلمين، حيث جاء المشركون بقضهم وقضيضهم، وحاصروا المدينة حصار السوار للمعصم، وأرادوا اقتحام الخندق، حتَّى إن بعضهم حاول ذلك مثل عمرو بن عبد ودّ، وغيره،

QaradawiBooks.com

ووقعت بينهم وبين علي بن أبي طالب وغيره من المسلمين، مناوشات، ونصر الله المسلمين، حتَّى إن عمرو بن عبد وُدٍّ من فرسان العرب المشاهير نصر الله عليه علي بن أبي طالب، وكان قد استهزأ به في أوَّل المعركة؛ لأنَّه كان صغيرًا في السن، وعمرو هذا من كبار القوم، ومن أشجع فرسان قريش. لكن الله الَّذي وعد المسلمين بالنصر، نصر عليًّا عليه.

دور نُعَيْم بن مَسْعُود في تخذيل المشركين:

وفي هذا الوقت نصر الله المسلمين بشيء يسير جدًّا، حيث أسلم نُعيم بن مسعود من غطفان، وجاء لرسول الله ليجنده عنده، فقال له الرسول ﷺ: «**اذهبْ فخذِّل عنَّا ما استطعتَ؛ فإنَّ الحرب خَدْعة**»[1].

ولقد قام نُعَيْم بدور كبير بين غَطَفان وبين اليهود، وزلزل علاقتهم ببعضهم، والقصَّة معظمكم يعرفها.

المهمُّ أن نعلم أنَّ جنديًّا واحدًا استطاع أن يقوم بدور يخدم المعركة، ويُوَجِّه النتيجة لصالح المسلمين، استطاع أن يُخذِّل عن المسلمين، ويوقع بين اليهود وغَطَفان.

ثم كان بعد ذلك وقبل ذلك يد الله، الَّتي عملت ووجَّهت النصر للمسلمين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾ أرسل الله عليهم عاصفة قلعت خيامهم، وقلبت قدورهم، وأفسدت شأنهم كله.

---

(١) سبق تخريجه صـ٥٨٧.

QaradawiBooks.com

جنود الله تشارك في ثلاث معارك:

﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾: في معارك ثلاث في القرآن الكريم، أرسل الله جنودًا لم يرها النَّاس، من الملائكة.

في غزوة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩، ١٠].

وفي غزوة الأحزاب هذه: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

وفي غزوة حُنَيْن: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۞ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

هذه جنود الله ﷻ، ينزلها في الوقت الَّذي يريد، وهذه الجنود الَّتي نزلت في بدر، وفي الأحزاب، ويوم حنين، ويوم الغار ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠] هي موجودة، ويمكن أن تنزل في أيِّ وقت، ولكن جنود الله لا تنزل ولا تتنزل على فراغ، إنَّما تتنزل على مؤمنين، والله يقول: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]، هؤلاء المؤمنون غُلبوا، فكان الأمر من الله بنزول الملائكة لتثبيتهم، أمَّا إذا لم يوجد الَّذين آمنوا، فعلى من تنزل الملائكة؟ لا بدَّ إذن أن يوجد الَّذين آمنوا، المؤمنون الصادقون.

ولذلك نزل جند الله، حينما كان المسلمون في حاجة إليه، عندما

QaradawiBooks.com

بذلوا ما عندهم، وقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾، واحتاجوا مددًا من السماء، فأنزله الله، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

ولذلك كانت النتيجة المحسومة للمؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

غير مرخصة للطباعة

الإسلام ليس متعطشًا للدماء:

ولنا وقفة عند هذه الكلمة ـ أيُّها الإخوة ـ يغفل عنها الكثيرون، ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ يدل على أن هذا الدين ليس متعطِّشا للدماء، لا يريد أن يقيم المعارك بين النَّاس، فلو فاتت معركة، وفاز فيها المسلمون بدون قتال، نقول: الحمد لله، كفى الله المؤمنين القتال، فهذه عبارة يجب أن نقف عندها، فهذا الإسلام لا يريد أن يحارب ولا يريد أن يسفك الدماء، هو الَّذي حُورب، ثلاث مرَّات يُغزى في عقر داره، ولذلك بعد هذه الغزوة طمأن رسول الله المسلمين، بأنَّه بعد هذه الغزوة سنغزوهم ولا يغزوننا، ولهم الحق، فلله سنن، والأيام دول، والدهر قلَّب، يوم لك ويوم عليك، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

علينا أن نعلم، أنَّ الإسلام لم يكن أبدًا متعطِّشًا للدماء، والنبيُّ ﷺ يقول: «**أحبُّ الأسماء إلى الله ﷻ عبد الله وعبد الرحمٰن، وأصدقها حارثٌ وهمَّام، وأقبحها حربٌ ومُرَّة**»[1]. فحتى كلمة الحرب كرهها الإسلام، وقد كانت من أسماء الجاهليَّة، فأبو سفيان هو ابن حرب.

(١) رواه أحمد (١٩٠٣٢)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الأدب (٤٩٥٠)، والنسائي في الخيل (٣٥٦٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٠٤٠)، عن أبي وهب الجشمي.

QaradawiBooks.com

فهل هذا دين متعطش للدماء؟ وهل هـذا نبي متعطش للدماء؟ هل مُحَمَّد كما يقولون جاء بالسيف يقطع رقاب النَّاس.

ولقد سمَّى الله صلح الحديبية فتحًا، فقال تعالى: ﴿فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، حتَّى سأل الصحابة رسول الله: أفتح هو يا رسولَ الله؟! «**نعم والَّذي نفس مُحَمَّد بيده إنَّه لفتح**»[(١)].

والقرآن يمتنُّ على رسوله وعلى المؤمنين، بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤]. فجعل من المنن الَّتي امتنَّ بها على المؤمنين، أن كفَّ أيديهم عن المشركين.

ما أحلى أن ينتشر الإسلام بالدعوة وبالحكمة، وبالسماحة وبالحريَّة، وهذا هو ديننا العظيم.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۞ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۞ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥ ـ ٢٧].

أسأل الله ﷻ أن يؤيِّدنا بنصر من عنده، وبجنود لا نراها، وأن يؤيدنا بنصر كنصر المؤمنين في الأحزاب، وكنصر المؤمنين في حنين، وكنصر المؤمنين في بدر، إنَّه سميع قريب.

---

(١) رواه أحمد (١٥٤٧٠)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الجهاد (٢٧٣٦)، وابن أبي شيبة في المغازي (٣٨٠٠٢)، والحاكم في قسم الفيء (١٣١/٢)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وضعَّفه الألباني في ضعيف أبي داود (٥٨٧)، عن مجمع بن جارية.

QaradawiBooks.com

الدرس الثالث
العشر الأواخر من رمضان وعِظم الأمانة الَّتي حملها الإنسان في سورة الأحزاب[1]

غير مرخصة للطباعة

الاختلاف في تعيين ليلة القدر:

ها نحن في هذه الليلة نفتتح العشر الأواخر من شهر رمضان، ما أسرع ما تمضي الأيام، تمر مرَّ السحاب، كأنَّها البرق الخاطف، كنا في الأمس القريب نتهيأ لاستقبال رمضان، ثمَّ استقبلنا شهر رمضان، ومضى العشر الأوائل والعشر الأواسط، وبدأنا في العشر الأواخر، وغالب الظن أنَّها لن تتم عشرًا، والغالب أنَّها ستكون تسعًا، لأنَّ بعض المسلمين بدؤوا العشر الأواخر من أمس، هذه الليلة ليلة الثاني والعشرين عندهم، وهنا عندنا في بلاد الخليج ليلة الحادي والعشرين.

وليلة الحادي والعشرين هي بداية العشر، وهي ليلة مهمة، كثير من العلماء يرى أنَّها ليلة القدر، يميل الإمام البخاري إلى أن ليلة الحادي والعشرين هي ليلة القدر، لحديث أبي سعيدٍ الخُدْري[2]، وبعض المذاهب ترى أنَّها ليلة القدر، عند الإباضية وعند الشيعة، وعند الكثيرين

نسخة مجانية

(١) من دروس تراويح ١٤٢٤هـ.

(٢) سبق تخريجه صـ٥٨٣.

QaradawiBooks.com

يرون أن ليلة القدر ليلة الحادي والعشرين، والمشـــهور عند أهل السُّنَّة عامَّة أن ليلة القدر ليلة السابع والعشرين.

والواقع أنَّنا لا نســتطيع أن نجزم بليلة القــدر أي ليلة هي، لا ليلة واحد وعشرين، ولا ليلة سبع وعشرين، ولكن أرجى ما تكون في العشر الأواخر، ولذلك يقول النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح: «**من كان متحرِّيًا ليلةَ القدر فليتحرَّها في العشــر الأواخر من رمضــان**»[1]، وخصوصًا في ليالي الأوتار، الليالي الوترية، ليلة واحد وعشرين، ليلة ثلاثة وعشرين، ليلة خمس وعشرين، ليلة سبع وعشرين، ليلة تسع وعشرين، ولكن إذا كان المســلمون مختلفين في البداية لا تستطيع أن نستيقن أن هذه الليلة هي ليلة واحد وعشرين أو اثنين وعشرين.

فضل ليلة القدر:

فالحزم والاحتياط أن يحيي الإنسان العشر الأواخر كلها، وأظن أن ذلك ليس بكثير، لو أنَّ الإنسان يحســبها، من يجيدون الحساب، إذا كنت ستكســب في ليلة واحدة ثلاثين ألف ليلــة، كثير من أصحاب المحلات التجارية يعملون في بعض الأوقات ما يســمى: «تنزيلات»، والكل يســارع حتَّى لا يفوت على نفســه فرصة «التنزيلات» الَّتي قد تكون ٢٠٪، أو ٥٠٪.

انظروا ـ أيُّهــا الإخوة ـ ليلة القدر تضاعف لــك الأعمال لثلاثين ألف مرَّة، أظن من يضيِّع هذا يكــون أحمق، ولذلك النبي ﷺ يقول: «**إنَّ هذا الشــهر قد حضركم وفيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرِمَها**

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في التهجد (١١٥٨)، ومسلم في الصيام (١١٦٥)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

فقد حُرِمَ الخير كله، ولا يحــرم خيرها إلَّا محروم»[١]، لأنَّه ضيَّع على نفسه شيئًا كبيرًا جدًّا بالكسل.

يمكنك أن تصلي صــلاة طويلة، صــلاة التراويح، أو صــلاة القيام والتهجد، ثمَّ تبقى بعدها في المسجد تسبح وتقرأ القرآن، مستصحبًا لنية الاعتكاف، وتصل أرحامك، وتبر والديك، وتصالح من قطعتهم، وتتصدق بما تستطيع من صدقة، هذا كله يستطيع الإنسان أن يعمله، وليس مستحيلًا ولا متعسِّرًا ولا متعذرًا حتَّى تضيع هذه الفرص الثمينة النفيسة.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۞ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۞ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [القدر: ١ ـ ٣]، ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾، أي: خير من ألف شهر ليس فيها ليلة قدر، خير من تســع وعشــرين ألف ليلة، أو ثلاثين ألف ليلة، ولذلك علينا أن نتهيَّــأ ـ أيُّها الإخوة ـ لهذه الليلــة، وقد جاء في الحديث: «**من صام رمضان إيمانًا واحتســابًا، غُفِرَ لــه ما تقدَّم من ذنْبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتســابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه**»[٢] «**من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه**»[٣].

وتقول عائشــة رضِي اللهُ عنها: كان النبي ﷺ إذا دخل العشر الأواخر شــد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله[٤]. وشــد المئزر: كناية عن النشاط والاستعداد والأهبة، وأحيا ليله، أي: يحيي الليل كله، قبل ذلك كان ينام جزءًا ويســتيقظ جزءا، أمَّا في العشــر الأواخر فكان يحيــي الليل كله،

(١) رواه ابن ماجه في الصيام (١٦٤٤)، والطبراني في الأوســط (١٤٤٤)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب (١٤٩١)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٣٣٣)، عن أنس.

(٢) سبق تخريجه (٣٣٣/١).

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في صلاة التراويح (٢٠٠٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٩).

(٤) سبق تخريجه صـ٥٤١.

QaradawiBooks.com

وكلمة: «أحيا ليله» توحي أنَّ الزمان من غير طاعة ميِّت، وأنت إذا أطعت الله فيه تحييه، يعني من الزمان ما هو ميِّت ومـا هو حي، ومن الأمكنة ما هو ميِّت ومنه ما هو حي، توجد بيوت ميِّتة وبيوت حية، البيوت الَّتي لا يذكر فيها اسـم الله ولا تقام فيها الصلاة ولا يتلـى فيها القرآن بيوت ميِّتة خربة، ولكن البيوت الَّتي يذكر فيها اسم الله ويُحمد ويُسبَّح ويُكبَّر ويُتلى فيها كتابه وتقام فيه الصلوات بيوت حيَّة.

فمن البيوت ما هو حيٌّ وما هو ميِّـت، ومن الأيام والليالي ما هو حيٌّ وما هو ميِّت، ومن النَّاس من هو حيٌّ ومن هو ميِّت، هناك أناس موتى وهم أحياء، موجود ويمشـي علـى الأرض ويقول: «يا أرض انهـدي ما عليكِ قَدِّي»، ولكن هذا ميِّت؛ لأن قلبه لا حياة فيه، حياة النَّاس إنَّما هي بقلوبهم، النَّاس إنَّما يحيـون بقلوبهم ويموتون بقلوبهـم، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعـام: ١٢٢]، ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطـر: ٢٢]، فالحياة حياة القلوب، وفي الصحيحين أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**ألا وإن في الجسـد مُضْغَة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، ألا وهي القلب**»[1].

فعلينا أن ننتهز هذه الليالي التسعة، علينا أن نحييها بطاعة الله، وبذكر الله، وبتلاوة كتاب الله، وبفعل الخيرات، وعمل الصالحات، والتسـابق على الحسنات، والبعد عن السيئات، سـيئات اللسان، وسيئات البصر، وسيئات السمع، وسـيئات اليد، وسيئات الرجل، وسيئات القلب، حتَّى النيات السيِّئة ابتعد عنها، ابتعد عن كل نيَّة سيئة، وعن كل خاطر سيء، ولنعش مع كتاب الله في هذا الشهر الكريم.

(١) سبق تخريجه صـ٤٧٨.

QaradawiBooks.com

التصوير القرآني للحقائق:

نحن ختمنا سورة الأحزاب، ختمناها بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، حمّل الله الإنسان أمانة عجزت السماوات والأرض والجبال وهذه الأجرام العظيمة أن تحملها، لأن الله لم يؤهلها لحمل هذه الأمانة.

هذا نوع من التصوير الفني في القرآن كما يقول الشهيد سيد قطب، لون من ألوان البلاغة والاستعارة، كأن الأرض قيل لها فتكلمت، كما تقول العرب في مثل هذه الأشياء: قيل للسمن أين تذهب؟ قال: أقوِّم العِوَج، يعني أصلح العيوب الَّتي في بعض النَّاس، فالشخص إذا سمن اختفت عيوب بدنه، «قال الخشب للمسمار: لماذا تشقني؟ قال له: سل من يدقني»، فهل الخشب تكلم أو المسمار تكلم؟ وكما يقول الناس: «قالوا للقرد هيسخطوك، قال يعني هيعملوني غزال!» فهل القرد تكلم؟ هذه كلها تصويرات للحقائق في صور محسوسة ليفهم النَّاس.

فإذا قال الله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾، وإذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فهذه كلها تصويرات للحقائق في صور محسوسة على القول الصحيح، وهو الَّذي يتواءم مع بلاغة القرآن العظيم وبيانه الَّذي أعجز النَّاس أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله.

مسؤوليَّة التكليف الَّتي حَملها الإنسان:

فهذا يدل على عِظم الأمانة الَّتي حملها الإنسان، فالسماوات

QaradawiBooks.com

والأرض والجبال أبَيْن أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، وهي مسؤوليَّة التكاليف.

إنَّ الله حمّل هذا الإنسان المسؤوليَّة، وكلَّفه أن يقوم بعبادته في الأرض، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، كلّفه أن يعمر الأرض، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، طلب منكم أن تعمروها، كلَّفه أن يكون في الأرض خليفة، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

فهذه الخلافة، وهذه العبادة، وهذه العمارة هي المسؤوليَّة الَّتي حَملها الإنسان، بأن يقوم بعبادة الله، وأن يسير على منهج الله الَّذي وضعه له، يحلّ حلاله، ويحرِّم حرامه، ويؤدي فرائضه، ويجتنب نواهيه، ويتحرى رضاه في كل صغيرة وكبيرة، في أمور حياته الشخصيَّة، حياته الأسريَّة، حياته الاجتماعيَّة، في أمور المجتمع علاقاته بعضه وبعض، الحاكم مع المحكوم، والغني والفقير، والعامل ورب العمل.

الناس جميعًا عليهم أن يتحرَّوا منهج الله، وهذا ليس بالأمر الهيّن، ولذلك أبت السماوات والأرض والجبال أن تحمل هذه المسؤوليَّة، إنَّها مسؤوليَّة كبيرة، ولذلك قال الله تعالى لرسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ٤]، لماذا هذا الإعداد الروحي؟ قال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

التزوُّد لحمل المسؤوليَّة:

فالإنسان يحمل مسؤوليَّة كبيرة، عليه أن يتهيَّأ لها، بالنية الصالحة، والعزيمة الصادقة، والتوكل على الله ﷻ، والاستعانة بالله، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، لا نعبد إلَّا إيَّاك، ولا نستعين على عبادتك

QaradawiBooks.com

إلَّا بك، أنت المعين لنا، إن لم تعنا لا نستطيع أن نقوم بهذا العبء، فالإنسان يستعين بالله على أداء هذه الأمانة، وهذه المسؤوليَّة الكبيرة الَّتي حملها الله للإنسان.

الحاجة إلى الشحنة الروحيَّة:

والإنسان في هذا الشهر يتزود لحمل هذه المسؤوليَّة، لأن هذه المسؤوليَّة تحتاج إلى شُحنة روحيَّة، لا توجد سيارة أو قطار أو طيارة تسير بدون أن تتزود بالوقود، السيارة مهما كانت من أجود المركبات، وفيها كل الامتيازات لا يمكن أن تسير بلا وقود «بنزين» لا يمكن أن تمشي؟ لا بدَّ من بطارية مشحونة، ووقود «بنزين» كافٍ حتَّى تستطيع أن تسير، كذلك الإنسان هو في أشد الحاجة إلى شحنة كهربائية، إلى بطارية تمتلئ، وإلى وقود يزوّده ويكفيه ويسيره، وهذه الشحنة وهذا الوقود هو الإيمان والتَّقوى، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

عليك في هذه الليالي العشر المباركة أن تحيي ليلك، وتوقظ أهلك، أيقظ زوجتك وأولادك ليصلُّوا معك الفجر، ليس معقولًا أن تصوم وتضيِّع صلاة الفجر، صلاة الفجر فريضة عظيمة فلا تضيِّعها، حاول أن تنظم وقتك، وتنظم نومك بحيث تستطيع أن تقوم للصلاة، صلّ الفجر ونم مرَّة أخرى لا مانع، المهم لا تضيِّع هذه الفريضة العظيمة، خصوصًا في هذه الليالي العظيمة الَّتي تُرجى فيها ليلة القدر، أَحْيِ ليلك، وأيقظ أهلك، ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، كان النبي ﷺ يحيي ليله، ويوقظ أهله، يوقظ زوجاته أمهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهن، يناديهن أن يستيقظن ويشاركن

QaradawiBooks.com

في هذا الخير العظيم، ويأخذن حظهن من هذا الموسم الكريم، ومن هذا المتجر، متجر الصالحين، وموسم المتَّقين، وهو شهر رمضان وخصوصًا لياليه العشر.

نسأل اللهَ ﷻ أن يجعلنا من المقبولين في هذا الشهر الكريم، ومن عتقائه من النَّار في هذه الليالي المباركة، ليالي العشر الأواخر، ربنا تقبل منا إنَّك أنت السميع العليم، وتب علينا إنَّك أنت التواب الرحيم، واجعل خير أعمارنا أواخرها، وخير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم لقائك، واختم لنا بالإيمان والسعادة يا رب العالمين، اللهمَّ آمين.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي

غير مرخصة للطباعة

من دروس التفسير

سورة فاطر

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

أُمَّة الدعوة وأُمَّة الإجابة
من سورة فاطر(١)

فرغنا بالأمس من تلاوة سورة فاطر، وممَّا ينبغي أن نقف عنده في هذه السورة، قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ۞ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣١، ٣٢].

أورث الله كتابه الأُمَّة المصطفاة، والأُمَّة المصطفاة هي أُمَّة مُحَمَّد ﷺ، أُمَّة الإسلام، أُمَّة الإجابة.

هناك أمتان: أُمَّة الدعوة، وأُمَّة الإجابة، فأُمَّة الدعوة هي البشريَّة كلها، العالم كله، هؤلاء مدعوُّون بدعوة مُحَمَّد ﷺ، عربهم وعجمهم، ومسلمهم وكافرهم، كل هؤلاء يدخلون في أمَّة الدعوة؛ لأنَّهم مخاطَبون بهذه الدعوة، وقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ولكن الَّذين أورثوا الكتاب هم أمَّة الإجابة، وهم المقصودون بقوله: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾.

(١) من دروس تراويح ١٤٢٣هـ.

QaradawiBooks.com

ورثوا الكتاب بعد أن ضيَّع اليهود التوراة، وضيَّع النَّصارى الإنجيل، أورث الله هذه الأُمَّة كتابًا لا يضيع، ولا يتغيَّر، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأن الله تولى حفظه، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾

واصطفاء هذه الأُمَّة ليس لعرق ولا لجنس ولا للون، فالإسلام لا يعترف بالعروق والأجناس، «**الناس لآدم، وآدمُ من تراب**»[١].

وخاطب النبيُّ ﷺ الناسَ في حجَّة الوداع فقال: «**أيُّها النَّاس، إنَّ ربَّكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب**»[٢].

فالأسرة كلها أسرة، تنتمي وتشترك في العبوديَّة لله، والبنوة لآدم، كلنا عبيد لله ﷻ، وكلنا أبناء آدم، لا يوجد العرق الآري، والجنس الأبيض، ولا عندنا تفاضل الأجناس كما كانت عند الغربيين وخصوصًا في القرن التاسع عشر، يعتبرون أن هناك جنسًا أفضل من جنس، وهذا موجود عند اليونانيين من قديم، أن هناك ناسًا خُلُقوا، ليسودوا ويحكموا، وناس آخرون خُلقوا، ليُسادوا ويُستعبدوا.

وعلى هذا الأساس قال الغربيون: نحن أحق بالسيادة والحكم، وقديمًا كان الفرس يقولون: الَّذي يجري في عروقنا هو دم الآلهة. وكان هتلر يقول: الجنس الآري هو أفضل أجناس البشريَّة، ويجب أن يحكم العالم، وقال: ألمانيا فوق الجميع. وقام موسوليني وقال: إيطاليا فوق الجميع. وفي بريطانيا: يا بريطانيا سودي واحكمي.

(١) سبق تخريجه صـ٤٦٨.

(٢) سبق تخريجه صـ٤٦٨.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

والإسلام ليس فيه شيء من هذا، بل فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم﴾ يعني الخالق واحد، ﴿مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ ومادة الصنع واحدة، أنا خُلقت من أب وأم، وأنت كذلك. وأبي خُلق من طين، وأبوك كذلك، لا يوجد أحد خُلق أبوه من ذهب أو ألماس. فبماذا يتفاضل النَّاس إذن؟! التفاضل بالتَّقوى والعمل الصَّالح: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾، حتَّى إنَّه قال: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، بحيث لا يأتي أحد ويقول: أنا أكرم منك، وأتقى منك، لا إن كنت تقيًّا فأنت أكرم عند الله، فهو ميزان غيبيّ لا يعلمه إلَّا الله؛ لأن «**التَّقوى هاهنا**» أي: في القلب[1]، ﴿تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ ولا يطَّلع عليها إلَّا الله.

فاصطفاء الله لهذه الأُمَّة، ليس لعرق ولا لجنس، لأنَّها أُمَّة مفتوحة، ليست مقصورة على العرب، بل كل الأمم يمكن أن تدخل في أُمَّة الإسلام، فدخل فيها الفرس، ودخل فيها الهنود، ودخل فيها الترك، ودخل فيها الأفارقة، ودخل فيها من كل أجناس العالم، فهي أُمَّة مفتوحة، واصطفاؤها لأنَّها حملت رسالة الإسلام والإيمان، ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أصناف الأُمَّة المصطفاة:

هذه الأُمَّة المصطفاة، الَّتي ورثت الكتاب، وحملت هذه الرسالة، هي ثلاثة أصناف، ليست كلها في درجة واحدة، ولا في مستوى واحد؛ لأن هذا خلاف الواقع، وخلاف الطبيعة؛ لأن النَّاس تتفاوت، فالطلبة في

(١) سبق تخريجه صـ٤٧٨.

QaradawiBooks.com

الجامعة يتفاوتون، منهم من يحصل على امتياز وهذا قليل، ومنهم من يحصل على جيد جدًّا، والأغلبية منهم جيد، ومنهم من ينجح على الحافة، بدرجة مقبول.

والناس أيضًا كطلبة الجامعة، ولذلك قال سبحانه:

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

الظالم لنفسه:

وهذه أحوال الأُمَّة المصطفاة، فالظالم لنفسه هو من الأُمَّة أيضًا، وهو الَّذي يضيِّع بعض الفرائض، ويرتكب بعض المحرمات، فهو من الأُمَّة المصطفاة، لا يخرج عنها، ليس كافرًا، ما دام ملتزمًا بهذا الدين، يقول: لا إلٰه إلَّا الله مُحَمَّد رسول الله. فهذا ظالم لنفسه، ونرجو أن يتوب الله عليه، فمن ظلم نفسه وتاب يغفر الله له، ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

فالظالم لنفسه هو الَّذي يُقصِّر في بعض الواجبات، ويرتكب بعض المحرمات، ولكنَّه إذا ترك واجبًا لا يُنكره، فهذا ليس خارجًا من الملة، وقد جيء لرسول الله برجل يشرب الخمر، فيُقام عليه الحد، ففي إحدى المرات قال أحد الصحابة: لعنه الله، ما أكثر ما يُؤتى به. فقال الرسول ﷺ: «**لا تلعنوه، فوالله ما علمت: إنَّه يحب الله ورسوله**»[1]، يعني رغم شربه للخمر، إنَّما الإيمان راسخ في أعماقه، فهو يحب الله ورسوله.

وفي رواية: «**لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم**»[2]؛ لأنَّك حينما

(١) رواه البخاري في الحدود (٦٧٨٠)، عن عمر بن الخطاب.

(٢) رواه البخاري في الحدود (٦٧٨١)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

تلعنه، فأنت تُنفِّره وتُبعده، فادع لـه بالهداية، بدلًا من اللعن. وهذا على خلاف الَّذين يُكفِّرون بالمعاصي.

فموجة التكفيـر الَّتي ظهرت في بعض البلاد الإسـلاميَّة في بعض الأوقات، هذه موجة خارجة عن منهج الأُمَّة الوسـط، ومنهج أهل السُّنَّة والجماعة، الَّذين لا يكفِّرون أحدًا بذنب.

الصنف الثاني: المقتصد:

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهذا مثل الَّذي ينجح بـ «جيد» على الوسط، يؤدّي الواجبات، ويترك المحرمات، ويقول: لا تطالبني بأكثر من ذلك. فمثل هذا لا يُلام؛ لأن بعض النَّاس يُشـدِّد على من يترك السـنن.. والنبي ﷺ جاءه أعرابي يسأل عن الإسلام، فقال رسـول الله ﷺ: «**خمس صلوات في اليوم والليلة**». فقال: هل عليّ غيرها؟ قال: «**لا، إلَّا أنْ تَطَّوع**». قال رسول الله ﷺ: «**وصيام رمضان**». قال: هل عليَّ غيره؟ قال: «**لا، إلَّا أن تطَّوع**». قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «**لا، إلَّا أن تطَّوع**». قال: فأدبـر الرجل وهـو يقـول: والله لا أزيـد على هـذا ولا أنقـص، فقال رسول الله ﷺ: «**أفلح إن صدق، أو دخل الجنَّة إن صدق**»[1].

فالإنسـان إذا حافظ على هذه الفرائض ولم يـزد عليها، ولم ينقص منها شيئًا يدخل الجنَّة، كما قال رسول الله ﷺ.

وفي رواية أخرى قال رسول الله: «**من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنَّة، فلينظر إلى هذا**»[2].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الصوم (١٨٩١)، ومسلم في الإيمان (١١)، عن طلحة بن عبيد الله.
(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٣٩٧)، ومسلم في الإيمان (١٤)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

الصنف الثالث من هذه الأمة المصطفاة: السابق بالخيرات:

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

وهناك صنف ثالث وهو صنف السابق بالخيرات، وهذا لا يكتفي بالفرائض، بل يزيد على النوافل، وفي الحديث القدسي ـ الَّذي رواه الإمام البخاري ـ: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ ممَّا افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتَّى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الَّذي يسمع به، وبصره الَّذي يُبصر به، ويده الَّتي يبطش بها، ورجله الَّتي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**»[1].

منزلة القرب ومنزلة الحب:

فهناك منزلتان: منزلة القرب، ومنزلة الحب. فمنزلة الحب تصل إليها بأداء الفرائض، «**وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ ممَّا افترضت عليه**». ومنزلة الحب وهي أعلى من منزلة القُرب فتكون بالزيادة على الفرائض بأداء النوافل، «**وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتَّى أحبَّه**». وهل هناك درجة أفضل من أن يحبك الله؟ أن تكون محبوبًا عند الله؟

الناس تتقرب إلى أصحاب المناصب العليا، من أمير أو وزير، أو صاحب المنزلة أو المقام، فكيف إذا وصلتَ إلى محبة الله.

فالسابق بالخيرات لا يكتفي بالفرائض، بل يزيد عليها بالنوافل والتطوع، فلا يكتفي بالخمس صلوات المفروضات، وإنَّما يزيد عليها

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

فيصلي الضحى، وقيام الليل، والسنن الراتبة، وغيرها. ولا يكتفي بصوم رمضان، بل يصوم ستَّة من شوال، والثلاثة أيام من كل شهر، والتسعة من ذي الحجة، وعاشوراء وتاسوعاء، وقد يصوم الاثنين والخميس، إلخ. عنده طموح للزيادة في الخيرات، وهي همم يتفاوت النَّاس فيها، فهو لا يريد فقط «جيد» بل يريد «جيد جدًّا»، بل «ممتاز»، بل «مرتبة الشرف»، فهي طموحات وهمم.

كان بعض السلف لا تجب عليه الزكاة، وهو من الأغنياء، لأنَّه كان كلَّما جاء إليه مال يتصدق به وينفقه، فلا يحول عليه الحول، وهذه منزلة عظيمة. ومنازل الخيرات تتفاوت تفاوتًا بعيدًا جدًّا.

والسابق بالخيرات في جانب المنهيات أيضًا لا يكتفي بترك الكبائر فقط، بل يترك الصغائر أيضًا، ولا يكتفي بترك الصغائر، بل يترك الشبهات كذلك، «**فمن اتقى الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعِرضه**»[1]، ولا يكتفي بترك الشبهات، بل يترك حتَّى المكروهات، ولا يكتفي بترك المكروهات، بل يترك خلاف الأولى، ولا يكتفي بهذا بل يترك بعض الحلال خشية أن يجرَّ رجله فيقع في المشتبهات والمكروهات.

كما قال أحد السلف: تركنا تسعة أعشار الحلال خشية الوقوع في الحرام. وفي الحديث: «**لا يبلغ الرجل درجة المتَّقين، حتَّى يدع ما لا بأس به حذرًا ممَّا به بأس**»[2].

(١) سبق تخريجه (١٠٧/١)، وفيه: «ألا وإن في الجسد مضغة».

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥١)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٢١٥)، والحاكم في الرقائق (٣١٩/٤)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وقال ابن رجب في فتح الباري (١٦/١): في إسناده بعض المقال. وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٤٣٥)، عن عطية السعدي.

QaradawiBooks.com

فالتسابق في درجات الخير هذا لا حدود له، لا يقف عند حد، والطامحون إلى العُلا والدرجات العلا، لا يُشبعهم شيء، كلَّما وصل إلى درجة، يريد ما هو أكبر منها، وما هو أعلى منها، والنبي ﷺ يقول: «**إذا سألتم الله الجنَّة، فاسألوه الفردوس الأعلى**»[1]، لا تقل يا رب أدخلني الجنَّة فقط، بل كن طموحًا واطلب أعلى الجنَّة، إنَّك تطلب من كريم، بل من أكرم الأكرمين، فاطلب أعلى شيء، أعلى الدرجات، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٢ ـ ٣٤].

حينما دخلوا إلى الجنَّة، حمدوا الله ﷻ، أن أذهب عنهم حَزَن الدُّنيا، وبلاء الدُّنيا، ومصائب الدُّنيا، ومتاعب الدُّنيا، وعادة أهل الإيمان يُبتلون في الدُّنيا، «**أشد النَّاس بلاء هم الأنبياء، ثمَّ الأمثل فالأمثل**»[2]، وخاصَّة إذا كانوا من حَمَلَة الرسالات، وأصحاب الدعوات، سيصيبهم البلاء الكثير، ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤].

ينسون هذا البلاء الكبير الَّذي أصابهم، عندما يدخلون الجنَّة، فيقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾. [فاطر: ٣٤].

---

(١) سبق تخريجه صـ٥٤٥.

(٢) رواه أحمد (١٤٨١)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده حسن. والترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى في الطب (٧٤٨١)، عن سعد بن أبي وقاص.

QaradawiBooks.com

والنبي ﷺ يقول: «**يؤتى بأشدّ النَّاس بؤسًا في الدُّنيا، من أهل الجنَّة، فيصبغ صبغة في الجنَّة، فيقال له: يا ابنَ آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مرَّ بك شدَّة قط؟ فيقول: لا، والله يا رب ما مرَّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدَّة قط**»(١).

غمسة واحدة في الجنَّة تنسيه الفقر، والجوع، والمرض، والجراح، والعذاب، والسجون، والمعتقلات، وكل ما أصابه في هذه الدُّنْيا من بلاء، فيقول: «**لا، والله يا رب ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدَّة قط**».

وعلى عكس هذا، يقول النبي ﷺ: «**يؤتى بأنعم أهل الدُّنْيا من أهل النَّار يوم القيامة، فيصبغ في النَّار صبغة، ثمَّ يقال: يا ابنَ آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله يا رب**»(٢).

غمسة واحدة في جهنم والعياذ بالله، تُنْسيه كل ما كان فيه من قصور، ومتاع، ودراهم، ودنانير، وخمر، ونساء، ينسى ذلك كله بغمسة واحدة في جهنم.

فالسابقون بالخيرات بإذن الله، حينما يدخلون الجنَّة، ويدخلون هذا النعيم الكبير، وهذا الملك العظيم، يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤] غفور: غفر لنا إساءاتنا وذنوبنا، وكفَّر عنَّا سيئاتنا. وشكور: تقبل أعمالنا، ولربما أعمالنا قليلة، لكنَّه سبحانه شكور، ومن فضله أنَّه يُثيب الثواب الجزيل على العمل القليل، ما دام فيه الإخلاص.

---

(١) رواه مسلم في صفة القيامة (٢٨٠٧)، وأحمد (١٣١١٢)، عن أنس بن مالك.

(٢) جزء من الحديث السابق.

QaradawiBooks.com

ولذلك فهم يحمدون الله على هذه النعمة، فيقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

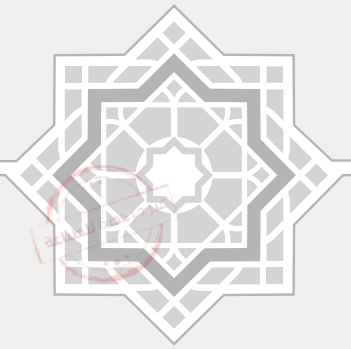
نسأل اللهَ أن يجعلنا من هؤلاء السابقين بالخيرات بإذن الله، وأن يُحلنا دار المُقامة من فضله، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب.

اللهمَّ صلِّ على عبدك وحبيبك محمَّد، وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليمًا كثيرًا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



من دورس التفسير

سورة الصافات



نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

امتحان إبراهيم وفداء إسماعيل

استمعنا إلى هذه الآيات الكريمة من سورة الصَّافَّات، ومن الجزء الثالث والعشرين من القرآن الكريم، وهي تتحدث عن قصَّة خليل الرحمن أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وإبراهيم قد امتحن في نواحي كثيرة في حياته، ممَّا امتحن به أنَّ قومه ألقوه في النار، ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۞ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٧، ٩٨]، جعله الله هو الأعلى وجعلهم هم الأسفلين، ورد كيدهم في نحورهم، وقلب الله النَّار إلى روْح ورياحين، وقال لها: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

بعد ذلك كافأ الله نبيه إبراهيم فبعد العسر يسر، وبعد المحنة منحة، وبعد اللفحة نفحة، وبعد الليل فجر، هذه سنّة الله تبارك وتعالى، ولهذا قال إبراهيم: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]، أهاجر إلى الله عز وجل، وهو الَّذي يهديني طريقي وييسِّر لي أمري، ثمَّ دعا ربه أن يهب له من الصالحين، أن يهب له ذرية صالحة، ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، وكان إبراهيم عليه السلام قد شاخ وكبر ولكنَّه لم يرزق الذرية، فدعا ربَّه لم ييئس من روْح الله، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، وهكذا يدعو الأنبياء وأتباع الأنبياء لا يريدون مجرد الذرية

QaradawiBooks.com

وإن كانت ذرية طالحة سيِّئة، وإنَّما الذرية المطلوبة هي الذرية الصالحة، ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، قال إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠].

الغلام الحليم:

فاستجاب الله دعاء نبيه وخليله إبراهيم وبشره عن طريق الملائكة، ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]، هذا الغلام الحليم هو إسماعيل عليه السلام الابن البكر لإبراهيم، فقد أُوتي إبراهيم ابنيه إسماعيل وإسحاق على الكبر، كما قال الله سبحانه وتعالى في سورة إبراهيم على لسان إبراهيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ولكن إسماعيل وُصف بأنَّه غلام حليم، وإسحاق وُصف بأنَّه غلام عليم، أبلغ ما يميز إسماعيل هو الحلم، وأبلغ ما يميز إسحاق هو العلم، ويتبين حلم هذا الفتى أو هذا الوليد في القصَّة الَّتي ذكرها القرآن عنه.

إسماعيل كان الابن البكر لإبراهيم والابن الوحيد في ذلك الوقت، ولذلك أحبه وشُغِف به وتعلَّق به فقد أُوتيه على الكبر، والإنسان إذا أُوتي على الكبر ذرية خصوصًا إذا كان ابنًا صبيًّا وكان مُبشَّرًا به من قِبَل الله، وبشره الله بأنَّه غلام حليم فبحكم الطبيعة الإنسانيَّة والأبوية لا بدَّ أن يتشبث به ويتعلق به، وكبر هذا الولد وكبر حب أبيه له، كلَّما نما الابن نما معه حبه في قلب أبيه، ومن هنا أراد الله سبحانه وتعالى أن يمتحن إبراهيم امتحانًا آخر هو من أبلغ الامتحانات الَّتي امتُحن بها، أراد الله أن يمتحنه في ولده وفلذة كبده وقرة عينه في ابنه الوحيد، ومتى؟ بعد أن بلغ معه السعي، أي بعد أن أصبح يمكن أن يرجى منه النفع وأن يقضي الحاجات، وأن يكون ردءًا لأبيه وذراعًا له.

QaradawiBooks.com

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، أصبح يسعى معه هنا وهناك، ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ورؤيا الأنبياء حق ووحي وخصوصًا إذا تكررت، لأن كلمة ﴿أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ﴾ فعل ﴿أَرَىٰ ﴾ هذا يفيد التجدد والتكرار، معناها أنَّه رأى أكثر من مرَّة أنَّه يذبحه ففهم الإشارة وفهم ما يراد منه.

وجاء إبراهيم بابنه إسماعيل يعرض عليه هذا الأمر: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾ [الصافات: ١٠٢]؟ عرض في غاية من الإيجاز والسهولة، ولكنَّه يتضمن أمرًا في غاية الخطر، وهو بذل الحياة والروح طاعة لله، ترى ماذا كان موقف الفتى وقد طلب منه تقديم عنقه للسكين، بعد أن اشتدَّ ساعده وصلب عوده، ونضر شبابه، وصار يرتجى منه النفع؟

هنا تتجلَّى الروْعة الإيمانية، روعة الابن، لم يكن أروع من موقف الوالد إلَّا روعة موقف الولد، والولد سر أبيه، ومن يشابه أبه فما ظلم، كما قال الشاعر، ماذا قال إسماعيل لأبيه إبراهيم؟ ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ [الصافات: ١٠٢]، افعل ما تؤمر، لم يتردد ولم يتلكأ ولم يتلعثم، افعل ما تؤمر به من قبل الله ﷻ، لم يقل افعل بي ما تؤمر، فني عن نفسه عن ذاته، نسي شخصه، كأن الأمر لا يتعلق برقبته وإنهاء حياته، قال له: لا تأخذ رأيي، ولا تنتظر مشورتي، نفذ ما عندك من أمر الله دون هوادة ولا إبطاء، نفذ الأوامر الإلٰهيَّة الَّتي عندك، أتشاورني؟ أتسألني؟! لقد حسم الفتى الموقف بجملتين قالهما لأبيه، خلدتاه في سجل الأنبياء الصابرين، وجعلتا منه قدوة للمؤمنين الصالحين، قال لأبيه: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وإن كان الأمر يتعلق برقبتي وإزهاق روحي وذبحي ولكن ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

QaradawiBooks.com

هنا يظهر الإيمان، لم يجعل الموضوع بطولة وادعاء للشجاعة ولكن قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، يعني بمعونة الله ومشيئته ستراني وتجدني من الصابرين، ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ما أروعه من موقف! هنالك كان لا بدَّ لإبراهيم أن ينفذ أمر الله ﷻ ويذبح ابنه على الرغم من شدَّة ذلك عليه باعتباره أبًا.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] أسلم الوالد ولده وأسلم الولد عنقه امتثالًا لأمر الله وابتغاء مرضاته، ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾، لمَّا أوقعه وصرعه على جبينه وتهيَّأ للذبح وأمسك بالسكين ليذبح جاء المدد من الله ﷻ وجاء الفرج من رب السماء والأرض، ناداه رب العالمين، ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥].

يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ونفذت ما طُلب منك، كان المقصود إظهار أيهما أحب إليك ابنك أم الله ﷻ؟ فظهر أن محبة الله في قلبك فوق كل شيء، فقد كنت مستعدًّا أن تضحي بابنك ومهجتك وفلذة كبدك في سبيل الله ﷻ، امتُحن الأب وامتُحن الابن ونجحا في الامتحان، لقد نجح الوالد والولد كلاهما في الامتحان، ليس المهمُّ إذن هو الذبح، المهم إذن هو الصدق وقد صدق كل منهما.

فلا غرو أن جاءت البشارة من الله: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٥، ١٠٦] الامتحان البيِّن العظيم، وأي امتحان أكثر من هذا الامتحان!

الفداء بذبح عظيم:

﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]، كبش، قالوا: إن جبريل نزل به وفداه الله بهذا الذِّبح العظيم السمين، وأصبحت سنة لإبراهيم وللمسلمين

QaradawiBooks.com

من بعده أن يُضحّوا، في عيد الأضحى لتذكُّر هذا الموقف الإنساني الإيماني الجليل من مواقف البشريَّة الرائعة.

جوزي إبراهيم الخليل عليه السلام على هذا الصبر وعلى هذه التضحية بهذا الفداء، ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]، فدى الله الذبيح إسماعيل عليه السلام بهذا الذبح العظيم، ووهب إبراهيم ولدًا آخر هو إسحاق عليه السلام، وهو نبي من الصالحين، ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢].

الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق:

اليهود حرفوا التوراة وجعلوا الذبيح هو إسحاق، ولكن كل الدلائل تدل على أنَّ الذبيح هو إسماعيل، لأنَّه الابن البكر لإبراهيم عليه السلام، ولأن الله كافأ إبراهيم على ذلك فقال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]، وقد نقل إلينا القرآن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، كافأ الله عز وجل إبراهيم على نجاحه في هذا الامتحان العصيب بأن أعطاه ابنا آخر هو إسحاق، بشَّره بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۞ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۞ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٦٩ ـ ٧١].

لماذا وقف إبراهيم هذا الموقف الخالد، هذا الموقف البطوليّ؟ ما السرّ وراء ذلك؟ السرّ وراء ذلك كما قال القرآن: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١١١٠، ١١١]، مفتاح هذا كله الإيمان، الإيمان بما عند الله، الإيمان بقدرة الله، الإيمان بلقاء الله، الإيمان

QaradawiBooks.com

بوعد الله ﷻ، الإيمـــان هو الَّذي يهوِّن العظائم ويهـــوِّن التضحيات ولو كانت التضحية بأعز الأبناء وأغلى البنين، هذا هو شـــأن الإيمان، وهذه هي العبـــرة من قصَّـــة أبي الأنبيـــاء الخليـــل إبراهيـــم وابنـــه الذبيح إســـماعيل عليهما السلام، ما أجدرنا أن نتعلّم من هذه القصَّة درسًا في التضحية والبذل لله، والصبر لله، والطاعة لله.

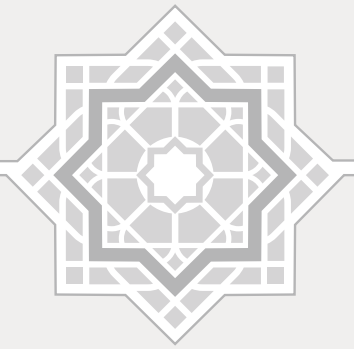
* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



غير مرخصة للطباعة

من دروس التفسير

سورة الزمر



نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

سعة رحمة الله من سورة الزمر[١]

غير مرخصة للطباعة

الأمل في عفو الله:

ختمنا الليلة سورة الزمر، وفي سورة الزمر لنا وقفة عند أوَّل الربع الأخير في هذه السورة، عند قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۞ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣ ـ ٥٥]، صدق الله العظيم.

يخاطب الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ بأن يبلغ النَّاس رسالة مهمَّة جدًّا تفتح لهم أبواب الأمل وساحات الرجاء في عفو الله تعالى ومغفرته ورحمته، وأنَّه تعالى لا يتعاظم عنده ذنب مهما كبر في نظر صاحبه، فعفو الله أعظم ورحمة الله أوسع، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، يخبر الرسول ﷺ عن الله أنَّه ينادي عباده الَّذين أسرفوا على أنفسهم ويقول لهم: أيُّها العصاة، أيُّها الَّذين ارتكبوا المحرَّمات، وانتهكوا الحرمات، واتَّبعوا الشهوات، وأضاعوا الصلوات، ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾.

نسخة مجانية

(١) من دروس تراويح ١٤٢٤هـ.

QaradawiBooks.com

ومن اللطائف أنَّ الآيــة تقول: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾، يعني رغــم أنَّهم عصاة وأسرفوا على أنفسهم بارتكاب المعاصي لم يحرمهم الله تعالى من شرف عبوديته، وشــرف الانتماء إليه، ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾، يعني: مهمــا عملتم فأنتم عبادي، ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾.

لا تيئســوا من رحمة الله، لا تظنوا أنَّ ذنوبكــم لا تُغفر، لا تظنوا أنَّ الباب قد أُغلق دونكم، ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾، كما قال الله على لسان ســيِّدنا إبراهيــم عليه السلام: ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجــر: ٥٦]، وكما قال الله على لسان سيِّدنا يعقوب لأبنائه: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوســف: ٨٧]، فلا يأس من روْح الله، ولا قنــوط من رحمة الله، فــإن اليأس من لوازم الكفر، والقنوط من مظاهر الضلال.

سعة رحمة الله:

المؤمن دائمًا آمل راج في رحمة الله تعالى، لأن رحمة الله واسعة جدًّا، كما قال تعالى على لسان ســيِّدنا موسى وهو يناجي ربَّه: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فالعذاب يخص، إنَّما الرحمة تعم، ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾، وسعت الإنسانَ والحيوانَ والنبات، ووسعت المســلمَ والكافر، والبر والفاجر، هؤلاء كلهم تســعهم رحمة الله، لو لم تســعهم رحمة الله ما رزقهم ولا يسَّــر لهم أمورهم ولا أعطاهم الأموال والأولاد، فهذا كله من رحمة الله عز وجل، ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾.

ولذلك يقول الله تعالى في دعاء الملائكة ـ الَّذي اســتمعنا إليه ـ في ســورة غافر: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ

QaradawiBooks.com

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

المؤمنون مشغولون بطاعة الله، والملائكة مشغولون بالدعاء لهم، يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾، فعلم الله يسع كل شيء، ورحمة الله تسع كل شيء، لأن ربنا يعلم ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، ويعلم الخير، ويعلم الشر، ويعلم الفجور، ويعلم التَّقوى، كل شيء يعلمه الله، فعلم الله يسع كل شيء، ورحمة الله تسع كل شيء.

الله تعالى أرحم الراحمين:

ولذلك القرآن يصف الله تعالى بأنَّه الرحمن الرحيم، تبدأ سور القرآن في المصحف بهذه الآية: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وفي الفاتحة نكرر اسمَي: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، مرتين في الركعة، وإذا كنا نصلي سبعة عشر ركعة في اليوم وهي الفرائض، فهذا معناه أنَّنا نكرر الاسمين الكريمين أربعا وثلاثين مرَّة، إذا زدنا عليها النوافل تتضاعف وتتضاعف، هذا كله لنشعر برحمة الله ﷻ.

وليس فقط ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، بل هو أرحم الراحمين، كما جاء ذلك على ألسنة الأنبياء، سيِّدنا يعقوب يقول: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، وسيدنا يوسف يقول لإخوته: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، وسيدنا موسى يقول: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]، وسيدنا أيوب: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، والله تعالى قال لنبيِّه مُحَمَّد ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

QaradawiBooks.com

فهو أرحم الراحمين، وهو خير الراحمين، لأنَّ رحمته لا حدود لها، والنبي ﷺ يقول: «**إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخَّر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عبادَه يوم القيامة**»[1]. كل هذا من أثر واحد على مائة من الرحمة، إنَّما تسعة وتسعون في المائة اذخره الله للآخرة، فرحمة الله تعالى واسعة.

هناك جماعة من المستشرقين والمبشرين يتهمون إلٰه المسلمين بأنَّه إلٰه جبَّار، وإلٰه قاس، ولكن هذا كذب في الحقيقة؛ لأن من يقرأ القرآن كله يجد أنَّ الله ﷻ هو الرحمن الرحيم، ويقول: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

مكفِّراتٌ للذنوب:

كل الذنوب قابلة للمحو وللمغفرة بالتوبة، حتَّى الشرك، الله تعالى يقول عن الشرك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، لا يُغفر للمشرك إذا مات دون توبة، إنَّما إذا تاب المشرك انتهى كل شيء، فالتوبة تمحوه، التائب من الذنب كمن لا ذنب له، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

ولذلك يقول العلماء: إنَّ الله أعطى الإنسان أنهارًا يغتسل فيها من المعاصي، كأن المعصية تنجس الإنسان، وكيف يتنظَّف ويتطهَّر منها، قالوا: هناك أنهار أو حمامات، حمام بعد حمام، فهناك التوبة، وهناك

(١) رواه مسلم في التوبة (٢٧٥٢)، وأحمد (٩٦٠٩)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

الاستغفار، وهناك الحسنات الماحية والطاعات كالصيام: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه**»[١].

وهناك القيام: «**من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه**»[٢]، وهناك الصلاة، «**أرأيتم لو أنَّ نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كلَّ يوم خمس مرَّات هل يبقى من درنه شيء؟**» قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: «**فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنَّ الخطايا**»[٣].

وهناك الحجُّ: «**من حجَّ لله فلم يرفُث ولم يفسُق رجع كيوم ولدته أمُّه**»[٤]، «**تابِعُوا بين الحجِّ والعمرة؛ فإنَّهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة**»[٥].

«**والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار**»[٦].

كل الطاعات تطهِّر الإنسان من السيِّئات، كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ**﴾ [هود: ١١٤]، وكما قال النبي ﷺ: «**وأتبع السيِّئة الحسنة تمحُها**»[٧].

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الصوم (١٩٠١)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٠)، عن أبي هريرة.

(٢) سبق تخريجه (١/١٤٥).

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٨)، ومسلم في المساجد (٦٦٧)، عن أبي هريرة.

(٤) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠)، كلاهما في الحج، عن أبي هريرة.

(٥) رواه أحمد (٣٦٦٩)، وقال مُخَرِّجوه: صحيح لغيره. والترمذي في الحج (٨١٠)، وقال: حسن صحيح غريب. والنسائي (٢٦٣١)، وابن خزيمة (٢٥١٢)، كلاهما في المناسك، عن ابن مسعود.

(٦) رواه أحمد (١٤٤٤١)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده قوي على شرط مسلم. والترمذي في السفر (٦١٤)، وقال: حسن غريب. وابن حبان في الصلاة (١٧٢٣)، والحاكم في الفتن والملاحم (٤/٤٢٢)، وصحَّح إسناده ووافقه الذهبي. عن جابر.

(٧) رواه أحمد (٢١٤٠٣)، وقال مُخَرِّجوه: حسن لغيره. والترمذي في البر والصلة (١٩٨٧)، وقال: حسن صحيح. والحاكم في الإيمان (١/٥٤)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧)، عن أبي ذر.

QaradawiBooks.com

وهناك نهر آخر، المصائب الَّتي تنزل بالإنسان، والمصائب هي أشياء تنزل بالإنسان بلا اختيار منه، ولكن الله جعلها فرصة لتكفير السيئات، يقول النبي ﷺ: «**ما يصيب المسلم من نصبٍ ولا وصبٍ، ولا همٍّ ولا حزن، ولا أذى ولا غمٍّ، حتَّى الشوكة يشاكها، إلَّا كفَّر الله بها من خطاياه**»(١).

وإذا لم يكف شيء من ذلك هناك القبر وضمَّته وسؤاله، فهذا أيضًا تطهير قبل أن يلقى الله تعالى في الآخرة، وإلَّا فهناك شفاعة الشافعين، وهناك عفو الله، ومن لم يطهِّره شيء من ذلك تطهِّره النار.

جانب العفو وجانب العقوبة:

جانب العفو عند الله وجانب الرحمة أكبر بكثير من جانب العقوبة والغضب، كما جاء في الحديث القدسي الصحيح: «**إنَّ رحمتي سبقت غضبي**»(٢)، يعني غلبتها، الرحمة تغلب الغضب وتسبقه، ولذلك نجد الحسنة بعشر أمثالها، والسيِّئة بواحدة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿**مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وجاء في بعض الآثار الإلٰهيَّة: «**الحسنة بعشر أمثالها أو أَزِيْدُ، والسيِّئة بواحدة أو أَغْفِرُ**»(٣)، يعني ليس فقط الحسنة بعشر أمثالها بل تزيد إلى سبعمائة ضعف، كما جاء في ثواب النفقة في سبيل الله: ﴿**مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ**﴾ [البقرة: ٢٦١].

---

(١) سبق تخريجه صـ٣٧٥.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٢٢)، ومسلم في التوبة (٢٧٥١)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (٢١٣١٥)، وقال مُخَرِّجوه: صحيح. والحاكم في التوبة والإنابة (٢٤١/٤)، وصحَّحه ووافقه الذهبي. عن أبي ذر.

QaradawiBooks.com

ثم بيَّن الله تعالى أنَّ التضعيف للحسنة لا يقف عند هذا الحد فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، الله يضاعف ثواب الحسنة فوق السبعمائة، كما جاء في ثواب الصوم، جاء في الحديث القدسي عن الله ﷻ: «**كلُّ عمل ابنِ آدم له إلَّا الصوم، فإنَّه لي وأنا أجزي به**»[(١)]، كم يكون ثواب الصوم؟ الله أعلم، لأنَّ أكرم الأكرمين هو الَّذي يعطي، والكريم إذا أعطى أجزل، فكيف بأكرم الأكرمين وهو الله ﷻ؟!

السيِّئة بواحدة والحسنة بعشرة أمثالها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، يضاعف ثواب الحسنة ويعطي من فضله شيئًا زائدًا، كم تكون هذه الزيادة؟ الله أعلم، ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، انظر للشيء الَّذي يصفه ربنا بأنَّه شيء عظيم، طبعًا لا يمكن أن يكون شيئًا تافهًا، ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

رحمة الله سبقت غضبه:

دائمًا نجد جانب الرحمة والفضل أوسع وأعظم من جانب العقوبة والعدل، نجد النبي ﷺ يقول فيما يرويه عن الله ﷻ في الحديث القدسي: «**أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرتُه في ملإٍ خيرٍ منهم، وإن تقرَّب إليَّ بشبرٍ تقرَّبت إليه ذراعًا، وإن تقرَّب إليَّ ذراعًا تقرَّبتُ إليه باعًا، وإن أتاني يمشي، أتيتُه هرولة**»[(٢)].

الشيء القليل من ناحية العبد يقابله شيء كثير جدًّا من ناحية الربِّ ﷻ، فمن أقبل على الله من عباده تلقَّاه من بعيد، ومن أعرض عنه

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١)، كلاهما في الصيام، عن أبي هريرة.
(٢) سبق تخريجه (٥٨٨/١).

QaradawiBooks.com

ناداه من قريب، خيره إليهم نازل، وشرُّهم إليه صاعد، يتحبَّب إليهم بنعمه وهو الغني عنهم، فيتبغَّضون إليه بالمعاصي وهم أفقر شيء إليه سبحانه.

ما أكرم هذا الرب سبحانه الَّذي لا ييئس عباده من فضله ولا من رحمته، يبسط نعمه عليهم ليل نهار وهم يعصونه، يقول النبي ﷺ: «**إنَّ الله ﷻ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتَّى تطلع الشمس من مغربها**»[1]، ورغم عصيانهم يقول لهم: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

غير مرخصة للطباعة

من القصص النبوي:

وهذه قصَّة في صحيح البخاري[2] قصَّها علينا رسول الله ﷺ، عن رجل من بني إسرائيل أسرف على نفسه في المعاصي، حتَّى أنَّه قتل تسعة وتسعين نفسًا، ثمَّ ندم وصحا ضميره، والإنسان مهما بلغ من الإجرام يأتي وقت من الأوقات يستيقظ ضميره، فهذا الرجل طلب من النَّاس أن يدلوه على أحد يسأله هل له توبة، فدله النَّاس على رجل عابد، أعبد أهل الأرض، فذهب إليه وقال له: لقد قتلتُ تسعةً وتسعين نفسًا فهل لي من توبة؟ انتفض العابد من قول الرجل، وقال: أعوذ بالله، قتلتَ تسعة وتسعين نفسًا وتريد التوبة! انصرف لا توبة لك، قال: يعني ليس لي توبة؟ قال: لا، لا توبة لك. فقال الرجل: ما دام ليس لي توبة، سأقتلك وأكمل بك المائة، وقتله فعلًا وأكمل به المائة.

---

(١) رواه مسلم في التوبة (٢٧٥٩)، وأحمد (١٩٥٢٩)، عن أبي موسى الأشعري.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٠)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٦)، عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

الإنسان إذا يئس يجعله اليأس يزداد في الإفساد، ويقول في نفسه: خسرانة خسـرانة، هي جهنم أو أكثر! فيتمادى في الإجرام والإفساد والمنكرات ولا يرده شـيء، فهذا العابد أيأس الرجل وسدَّ الباب في وجهه فقتله، ولكن مـع هذا أصر أن يعرف هل له توبة، فسـأل هذه المرَّة عن أعلم أهل الأرض، لا يريد واحـدًا عاديًا، فدلوه على أعلم أهل الأرض، فذهب إليه وقال له: قتلتُ مائة نفس فهل لي من توبة؟ فقال: نعم لك توبة، ومن يحول بينك وبين التوبة، وهنا انشرح صدر الرجل، لكن العالم قال له: اسمع هناك شرط لتقبل توبتك، قال: وما هو؟ قـال: أن تهجر هذه القريـة الَّتي أنت فيها، فإنَّهـا قرية معاصي ومظالم، واذهب إلى قريـة كذا وكذا فإن بها قومًـا أهل طاعة وأهل خير، فاعبد الله معهم.

فالرجل كان صادقًا في طلب التوبة، فحمل متاعه وخرج من ساعته من القرية الظالمـة، قرية المعاصي، وتوجَّه إلـى القرية الأخرى، القرية الصالحة، وفي منتصف الطريق أتاه الموت، وافاه الأجل، فلمَّا عرف أنَّه ميت، ألقى بنفسـه جهـة الأرض الصالحة، فجـاءت الملائكة لتقبض روحه، واختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ملائكة الرحمة تقول: الرجل خرج من بيته تائبًا مقبلًا على الله، وقد قصد وجهَ الله يريد الخير فنحن أولى بنزع روحـه، وقالت ملائكة العذاب: الرجل لم يعمل خيرًا قط، نحن أولى بنزع روحه.

فبعث الله ﷻ إليهم ملَكًا يفصل بينهم، فقال لهم: قيسوا المسافة الَّتي بين القريتين، المسـافة الَّتي قطعها الرجل والمسـافة الَّتي لم يقطعها، وانظروا إلى أيِّ القريتين هو أقـرب، وإذا كان أقرب إلى البلدة الظالمة يحسـب من أهلها، وتكون ملائكة العذاب أحقّ بقبض روحه، وإذا كان

QaradawiBooks.com

أقرب إلى الأرض بلد الخير والطاعة يكـــون ذلك دليل القبول، وتكون ملائكة الرحمة أحقّ بقبض روحه.

فقاسوا المســـافة الَّتي بين القريتين فوجدوا الرجلَ أقرب إلى القرية الصالحة بشبر، فجعل من أهلها، وقبضت ملائكة الرحمة روحه، وكتب الله له القَبول، على الرغم ممَّا فعله هذا الرجل كتب الله له القبول، فليس هناك شيءٌ كبير على الله ﷻ، مهما كانت ذنوبك عظيمة، فعفو الله أعظم منها، الشرك أو القتل أو الزنى، عفو الله أعظم من كل ذنب.

الله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ۞ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۞ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

حقيقة التوبة:

التوبة ليست باللسان، بعض النَّاس يقول للشيخ: توِّبني يا عمي الشيخ، فيقول له الشـــيخ: قل ورائي: تبتُ إلى الله، ورجعتُ إلى الله، وندمتُ على ما فعلتُ، وعزمـــتُ على أنِّي لا أعود للمعصية أبـــدًا، وبرئتُ من كل دينٍ يخالف دين الإسلام، إلى آخره، هل هذه توبة؟ لا، هذه ليست توبة.

التوبة شـــيء داخل النفس؛ لأنَّ الإنســـان عندما يتوب يتحسَّر على ما وقع فيه، ويندم ويحترق قلبه من أجل معصيته، يتنكد ويشعر بالحزن والقلق، وهذا النـــدم هو حقيقة التوبـــة، وهو ركنها الأعظـــم، كما قال النبي ﷺ: «**الندم توبة**»[1].

(١) رواه أحمـــد (٤٠١٢)، وقال مُخَرِّجوه: صحيـــح. وابن ماجه في الزهـــد (٤٢٥٢)، وابن حبان =

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والله تعالى ذكر لنا قصَّة الثلاثة الَّذين خُلفوا في غزوة تبوك ولم يذهبوا مع النبي ﷺ من غير أن يكون لهم عذر، فندموا، القرآن يصوِّر لنا هذا المشهد فيقول: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التوبة: ١١٨]، هذه هي التوبة، وهذه هي نفسيَّة الإنسان التائب.

ثم يجد إيمانه، فالمعاصي وخصوصًا الكبائر تخدش الإيمان، ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾، بعض النَّاس كالخوارج يقولون: المعاصي تضيِّع الإيمان، يكفر بها صاحبها، مرتكب الكبيرة كافر، خلافًا لمذهب أهل السُّنَّة والجماعة، والَّذي دلت عليه الآيات والأحاديث، في أنَّ المعاصي تخدش الإيمان ولكنَّها لا تمحو الإيمان، فالإنسان عليه أن يرمِّم إيمانه من جديد بعد التوبة، ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾، وكما قال النبي ﷺ: «**وأتبع السيِّئة الحسنة تمحها**»[1]، حاول أن تجعل مكان السيِّئة حسنة، كنتَ تغتاب النَّاس ـ مثلا ـ استغفر لهم، كنتَ تقول كلامًا فارغًا، اقرأ القرآن واذكر الله ﷻ، كنتَ تقرأ كتبًا تُغري بالمعاصي، اقرأ الكتب العلميَّة النافعة، كنت تذهب إلى المقهى أو كذا، اذهب إلى المساجد وإلى حلقات العلم، كنتَ تزور الأشرار، زر الأخيار، اعمل الحسنات وخصوصًا الحسنات الَّتي تقابل السيئات وتواجهها، كل شر تقابله بخير، ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

= في الرقائق (٦١٤)، والحاكم في التوبة والإنابة (٢٤٣/٤)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، عن ابن مسعود.

(١) سبق تخريجه صـ٦٣٥.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، فلا ينبغي للإنسان أبدًا أن ييئس من روح الله، النبي ﷺ يقول: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**»[1]. الله اسمه الغفار، لو كان النَّاس جميعًا لا يذنبون أو كانوا ملائكة فلمن يغفر؟ لماذا خلق هذا الخلق ولم يكتف بالملائكة؟ حتَّى تظهر تجليات اسم الغفار والعفو والتواب والرحيم، تتجلى آثار هذه الأسماء، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

الجمع بين الخوف والرجاء:

ثم أراد الله أن يدخل على الرجاء شيئًا من الخوف فقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، أدخل على الرجاء شيئًا من الخوف جريًا على سُنَّة القرآن في الجمع بين الخوف والرجاء، وبين الترهيب والترغيب، وذلك حتَّى تتوازن النفس، فلا يغلب على الإنسان الرجاء حتَّى يأمن من مكر الله، ولا يغلب عليه الخوف حتَّى ييئس من روْح الله، وإنَّما يكون متوازنًا كما قال القرآن: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، هذا شأن أهل الإيمان، ولذلك قال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

القرآن يعلم المؤمن اتِّباع الأحسن:

ثم قال الله تعالى بعد ذلك: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥]، دائمًا

(١) رواه مسلم في التوبة (٢٧٤٩)، وأحمد (٨٠٨٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

يريد القرآن أن يربط المؤمن باتباع الأحسن، يعني هناك الحسن، وهناك الأحسن، من النَّاس من يقول: يكفيني أن أعمل الحسن، أن أنجح بدرجة مقبول أو جيِّد. هذا إنسان ضعيف الهمَّة.

ينبغي أن يطلب المؤمن ما هو أحسن، درجة الامتياز، كما كان الصحابة رضوان الله عليهم يسألون النبي ﷺ عن الأحسن والأفضل دائمًا، فيقول أحدهم: يا رسولَ الله، أي العمل أفضل؟ فيقول له: «**إيمانٌ بالله ورسوله**»، ثمَّ يقول: فأيُّ الرقاب أفضل؟ فيقول: «**أعلاها ثمنًا، وأنفسها عند أهلها**»[١]، وسأله رجل أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**»[٢]، وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يسألون عن الأحسن والأفضل.

حتى في الدعاء وسؤال الله ﷻ علَّمنا النبيُّ ﷺ أن نسأل أفضل شيء، يقول النبيُّ ﷺ: «**إنَّ في الجنَّة مائة درجة، أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنَّه أوسط الجنَّة وأعلى الجنَّة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنَّة**»[٣].

قل: يا ربِّ، أعطني جنَّة الفردوس، لا تقلْ: يا ربِّ، أدخلني الجنَّة في آخر الصفِّ، لماذا؟ إنَّك تطلب من الكريم، فاطلبْ أحسن شيء، ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، وقرأنا في نفس السورة سورة الزمر قول الله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في العتق (٢٥١٨)، ومسلم في الإيمان (٨٤)، عن أبي ذر.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٧)، ومسلم في الإيمان (٨٥)، عن ابن مسعود.

(٣) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، وأحمد (٨٤٧٤)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

اتَّبع الأحسن، لو خيَّرك الله بين أمرين، أمر فاضل وأمر أفضل، كن في الأفضل، تطَّلع إلى الأفضل، إذا عجزت عنه أو انحطّت همّتك عنه كن دائمًا متطلِّعًا إليه، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، ليس العمل الحسن، بل أحسن عملًا ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

وفي الختام:

وما أجدرنا أيُّها الإخوة خصوصًا في هذه الأيام المباركات، والليالي الفضليات في أواخر شهر رمضان، ما أجدرنا أن نتطلَّع إلى الأحسن، نحاول أن نحيي ليالينا بطاعة الله ﷻ، ونستبق الخيرات، ونتسابق في عمل الصالحات، ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

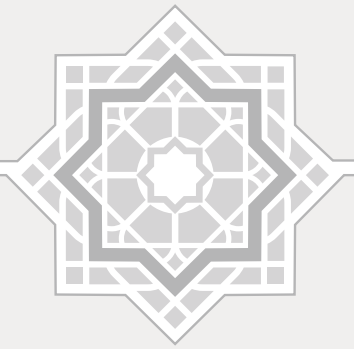
وصلى الله وسلم على سيِّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



من دورس التفسير

سورة غافر



غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الأوَّل
الرجل المؤمن في سورة غافر
مؤمن آل فرعون ـ ١ ـ

نعيش الليلة في رحاب سورة غافر، وبعض السلف يسميها: سورة المؤمن، لأنَّها تحدثت عن قصَّة ذلك الرجل المؤمن من آل فرعون، تناولت السورة قصَّة موسى عليه السلام في جانب منها، وقصة موسى تكررت في القرآن كثيرًا، حتَّى قال بعض المفسرين: كاد القرآن يكون كله لموسى وقومه.

ركزتْ السورة هنا على الجانب الشخصي لهذا الرجل المؤمن الَّذي ظهر في وقت الشدة وفي وقت الأزمة يواجه الباطل بالحق ولا يخاف في الله لومة لائم، وقف أمام هذه السلطة الطاغية سلطة فرعون، وما وراءه من قوَّة تؤيده: قوَّة سياسيَّة، وقوة ماليَّة، المتمثِّلة في «هامان وقارون».

هذه القصَّة تبدأ بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۞ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤].

فرعون هو هذا الملك الحاكم بأمره المتألـه في الأرض الَّذي اغترَّ بملكه وقال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۞ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢]،

QaradawiBooks.com

وقال للناس: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، فرعون الَّذي قال للناس: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

فموسى عليه السلام أُرسل إلى هذا الفرعون، وهامان هو وزير فرعون وساعده الأيمن في سياسة الظلم والطغيان، وقارون هو الَّذي يُمثل الرأسماليَّة الباغية الطاغية المتسلطة على عباد الله عن طريق المال، والرأسماليَّة الظالمة متعاونة مع المَلكيَّة الظالمة، فرعون وقارون، هامان هو الواسطة، هو يمثل السياسيين الَّذين كل همهم أن يحموا المَلكيَّة ويحموا الرأسماليَّة على حساب الشعوب المستضعفة في الأرض، قارون كان من قوم موسى للأسف، وقد ذكر الله قصته في سورة القصص، ولكنَّه بغى على قومه وانضمَّ إلى أعداء قومه، انضمّ إلى فرعون، ترك قومه وانضمَّ إلى أعدائهم، كما نرى دائمًا العملاء والخونة، يخونون أقوامهم ويخونون أهليهم وشعوبهم وينضمون إلى القوى المستكبرة والمستعمِرة والَّتي تريد أن تمتص تلك الشعوب، كان قارون من هؤلاء.

مصادر الشر في الأرض:

وهمزة الوسط بين الاثنين هو «هامان»، هذا الوزير الَّذي كان عضدًا لفرعون، وهو فعلًا حلقة الوسط بين القارونية الكانزة والفرعونيَّة المتألهة، وهؤلاء الثلاثة هم مصادر الشر في الأرض: الفراعين والهوامين والقوارين.

أرسل الله تعالى سيِّدنا موسى بالحق إلى مصادر الشر الثلاثة هؤلاء، فرعون وهامان وقارون، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ

QaradawiBooks.com

كَذَّابٌ ۞ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۞ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ۞ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٧].

اتِّهام الرسل بالسحر:

لما جاءهم سيِّدنا موسى بالآيات البينات قالوا: ساحر كذَّاب، على عادة الكفرة دائمًا والمشركين الَّذين يتهمون الرسل بالسحر، بالجنون، بالكهانة، بالشعر، إلى آخر ما عرفنا من هذه السلسلة منذ سيِّدنا نوح عليه السلام، ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ [القمر: ٩]، كذلك قال قوم موسى لمَّا جاءهم بالآيات البينات.

إحياء سُنَّة فرعون في ذبح أبناء بني إسرائيل واستبقاء نسائهن للخدمة:

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ﴾ [غافر: ٢٥]، لمَّا جاءهم سيِّدنا موسى أرادوا أن يحيوا السُّنَّة القديمة الَّتي استنَّها فرعون عند أيام ميلاد موسى، كانت سنة فرعون يومئذ أن يذبح أبناء بني إسرائيل ويستبقي نساءهم؛ لأنَّه قيل له ـ عن طريق نبوءة كاهن، أو رؤيا رائي أو أي شيء من هذا ـ بأن مُلكه سيزول على يد فتى من بني إسرائيل، فرأى أن يقتل الأبناء الذكور ويستبقي الإناث، ولكن انظروا إلى سخرية الأقدار بالناس أنَّ الفتى الَّذي يزول ملك فرعون على يده أنَّه يلتقطه فرعون ليتربَّى في قصر فرعون، ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص: ٨].

QaradawiBooks.com

المهمُّ أنَّهم أرادوا أن يعيدوا السيرة الأولى، ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ [غافر: ٢٥]، أعيدوا ما كان ماضيًا من قبل.

وهذا هو منطق الجبابرة المتألهين الَّذين يعجزون أمام قوَّة الحق، عندما يعجزون أمام قوَّة المنطق يلجئون إلى منطق القوَّة ـ إن صح هذا التعبير ـ لا يجدون أمام قوَّة المنطق إلَّا منطق القوة، كما قيل في شأن إبراهيم حينما أفحمهم بالحجة ومنطق الحق، لجؤوا إلى منطق القوَّة وقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، حينما لم يجدوا أي حجة يواجهون بها الحق، يقرِّرون التخلُّص من دعاته.

﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٢٥]، لأن كيد الله أكبر من كيدهم، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦].

ولم يكتف فرعون بقتل الَّذين آمنوا معه واستبقاء النساء للخدمة، لم يكتف فرعون المتألِّه المتجبر بهذا بل هدَّد بقتل موسى نفسه، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦]، وكلمة ﴿ذَرُونِىٓ﴾ هذه كلمة يقولها دائمًا من لا يستطيع أن يفعل شيئًا، الَّذي يجبن عن فعل شيء يقول لمن حوله: دعوني اتركوني. وهل يمنعك أحد؟! أنت الملك لهذه البلاد ولا يمنعك أحد، ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، كما قال في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣]، تريدون أن تُخرجوا النَّاس من بلادهم، تريدون أن تفسدوا البلاد والعباد. إنَّها دعاوى باطلة يحاول أن يتحصَّن بها أولئك الضالون المضلون المستكبرون في الأرض بغير الحق.

QaradawiBooks.com

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، انظروا إلى عجائب الدُّنيا، موسى يُظهر في الأرض الفساد، وفرعون يهدي النَّاس سبيل الرشاد! فرعون يظهر للشعب أنَّه مشفق عليهم، يقطر قلبه حنانًا على النَّاس، يريد أن يرعى مصالحهم، إنَّه يخاف على دينهم وعلى مصالحهم من أجل ذلك هو يريد أن يقتل موسى.

هكذا يريد فرعون، يريد أن يضلِّل الشعب بأن موسى مخرِّب، وأنَّه يريد أن يبدِّل الدين، ويريد أن يُظهر في الأرض الفساد، وللأسف يجد الفراعنة من يصدِّقهم، وقد قال الله تعالى عن فرعون: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]، يجد الفراعنة أحيانًا آذانًا صاغية تصدِّق ظلمهم وباطلهم، وتمشي في ركابهم.

بروز العناصر الخيرة في أوساط الشر:

ولكن الله ﷻ قيَّض لفرعون رجلًا من أهله، يدافع عن موسى حينما توعّد فرعون بقتله، دائمًا القرآن حينما يذكر المجتمعات يذكر العنصر الخيِّر فيها، لأنَّ النَّاس ليسوا كلهم أشرارًا، في النَّاس دائمًا العناصر الخيِّرة، تجد في قصص القرآن يبرز هذا العنصر، كما في سورة يس: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، وفي قصَّة أصحاب الجنَّة في سورة القلم: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨].

وهناك في سورة القصص في قصَّة موسى في أوَّل الأمر: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

وبعد ذلك كما هنا في قصَّة موسى أيضًا: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ

QaradawiBooks.com

مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۞ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۞ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۞ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۞ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٢٨ ـ ٣٣].

ظهر هذا الرجل الَّذي طالما كتم إيمانه، فالمؤمن قد يجد في كتمانه الإيمان منفعة، أحيانًا يجد أنَّه يخفي إيمانه، هناك من يُظهر الإيمان ويُخفي الكفر، وهناك من يظهر الكفر ويخفي الإيمان، هذا يُظهر للنَّاس أنَّه معهم في كفرهم، وهو في الحقيقة مؤمن، استقرَّ الإيمان في قلبه، وخالطت بشاشة الإيمان قلبه، ولكنَّه كتم هذا الإيمان لمصلحة.

أحيانًا المصلحة تقتضي كتمان حتَّى العقيدة، يعقوب عليه السلام قال لابنه يوسف عليه السلام: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، اكتم هذا ولا تقله، فالإيمان قد يُكتَم، ولكن يظهر عند اللزوم، عند الضرورة.

ومن العجب أنَّ من آل فرعون يظهر رجل مؤمن، ومن قوم موسى يظهر قارون، ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦] من قوم موسى يظهر قارون، ومن قوم فرعون، بل من آل فرعون ـ يعني من الأسرة ـ يظهر هذا الرجل المؤمن الَّذي لم يذكر لنا القرآن اسمه، لأنَّه ليس من المهم ذكر الأسماء.

ولا غرو فقد كانت امرأة فرعون مؤمنة، تصوَّر فرعون الكافر امرأته مؤمنة، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ

QaradawiBooks.com

﴿ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]، امرأة فرعون هي الَّتي هيَّأ الله لها أن تحمي موسى من بطش فرعون، قد أراد أن يقتله قالت: ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [القصص: ٩].

فالهداية من الله ﷻ، ترى الأب كافرًا والابن مؤمنًا، مثل إبراهيم وأبيه، والأب مؤمنًا والابن كافرًا، مثل نوح وابنه، والزوج مؤمنًا والزوجة كافرة، مثل لوط وامرأته، ونوح وامرأته، ممَّا يدل على أنَّ الهداية هي نفحة سماويَّة من الله ﷻ، ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القص: ٥٦]، تجد في البيت الواحد الصالح والطالح، وكلهم أبناء أب واحد وأم واحدة، وهكذا تجد في أسرة فرعون يظهر هذا الرجل المؤمن.

المفسرون حاولوا أن يذكروا اسمه، واختلفوا فيه، ولو كان في ذكر اسمه فائدة لذكره القرآن، بالعكس.. القرآن يريد أن يعلِّمنا أنَّ العبرة ليست بالأسماء، هذا جندي مجهول لا يهمنا ذكر اسمه، هو مسجل عند الله ﷻ، إنَّما المهم: الموقف، وهذا هو موقف هذا الإنسان الَّذي مكر به قومه وأرادوا أن ينالوا منه، ولكن الله حفظه ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥].

ولذلك للأسف نجد بعض النَّاس يقول: هذا الرجل المؤمن ما اسمه؟ أو ما اسم أمّ موسى؟ أو ما اسم أخت موسى؟ مرَّة كنت ألقي درسًا وجاء ذكر أخت موسى فقال لي أحد: ما اسم أخت موسى؟ قلت له: ما الَّذي يهمك منها؟ أتريد أن تخطبها؟ ليكن اسمها ما يكون، القرآن لا يهتم بمثل هذه الأشياء، أهم شيء أنَّه رجل مؤمن، فالإيمان هو جوهر القضيَّة كلها.

QaradawiBooks.com

هذا الرجل ظهر في لحظة مُعيَّنة، حينما هددَّ فرعون بقتل موسى وقال للملأ حوله: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، هذا الرجل المؤمن حينما وجد هذا الطاغية المتأله الجبار فرعون يريد أن يقتل موسى وقف في وجهه وقال: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ [غافر: ٢٨] لماذا يُقتل موسى؟ من أجل أن يقول ربي الله؟ إنَّه يُعلن أظهرَ حقيقة في الوجود، وأخلد وأبقى حقائق في الوجود، وهي أنَّ الله هو رب النَّاس، وهو رب العالمين، أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟ لم يرتكب جريمة ولم يقترف إثمًا فعلام يُقتل؟ أبمجرد أن يقول: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ تقتلونه؟! هكذا نرى البشريَّة حينما تضل عن الطريق وتسير في ركاب الفراعنة، حينما يسير الإنسان وراء الشيطان ويعمي عن الحق يقتل النَّاس من يقول: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، كما وجدنا قريشًا والمشركين يُخرجون المسلمين.. يُخرجون الرسول والصحابة من ديارهم وأموالهم بغير ذنب إلَّا أن يقولوا ربنا الله، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، الَّذي أخرج الصحابة ومعهم رسول الله ﷺ من مكَّة وهي أحب بلاد الله إلى الله وأحب بلاد الله إلى رسول الله وإلى أصحابه أنَّهم يقولون: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾.

تبعات كلمة: ربِّي الله:

كلمة: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ ليست مجرد كلمة تقال، إنَّها ليست مجرد كلمة، ماذا تعني كلمة: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾؟ إنَّها تعني أنَّ الله فوق الأرباب الزائفة كلها، من حجر أو بشر، أو من عبادة للذات، أو عبادة للأشخاص، فكلمة ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ الله ربي، ولا رب لي سواه، فهي ليست مجرد كلمة تقال.

QaradawiBooks.com

النبي ﷺ لما جاءه رجل يقول: قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، أو غيرك؟ أي: لخِّص لي الإسلام في كلمة أو في كلمتين؟ قال له النبي ﷺ: «**قل: آمنتُ بالله ثمَّ استقم**»، أو: «**قل ربي الله ثمَّ استقم**»[1].

وكان النبي ﷺ يدعو أمراء الأرض وملوكها وأباطرتها أن يُسلِموا ليَسلَموا، ثمَّ يختم رسائله إليهم بهذه الآية الكريمة: ﴿**قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ**﴾ [آل عمران: ٦٤]»[2].

لا أنت ربي ولا أنا ربك، كلنا عبيد لله، لا يتَّخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، مثل ما اتَّخذ اليهود والنَّصارى أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم، ﴿**ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا**﴾ [التوبة: ٣١].

ولذلك إذا قلت: ﴿**رَبِّىَ ٱللَّهُ**﴾ فلا بدَّ أن تتحمل تبعاتها، يمكن أن تُخرج من دارك، يمكن أن تُنفى من وطنك، يمكن أن تشرَّد من بلدك، من أجل ﴿**رَبِّىَ ٱللَّهُ**﴾ يمكن أن تقاتَل، من أجل ﴿**رَبِّىَ ٱللَّهُ**﴾، يمكن أن تتعرض للقتل كما حدث لسيدنا موسى، وكما حدث لرسول الله ﷺ.

في يوم من الأيام أراد بعض المشركين أن يؤذي رسول الله وهو عقبة بن أبي معيط، فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقًا شديدًا،

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٣٨)، وأحمد (١٥٤١٨)، عن سفيان بن عبد الله الثقفي.

(٢) سبق تخريجه صـ٨٤.

QaradawiBooks.com

فجاء أبو بكر رضي الله عنه ودفعه عن رسول الله ﷺ وقال ما قال مؤمن آل فرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨][1].

هذا المؤمن المصري من أسرة فرعون قال هذه الكلمة: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، أعلن عن نفسه وليكن ما يكون، وقد تُسبِّب له هذه الكلمة الأذى أو السجن أو القتل، إنَّما لا بدَّ منها، عندما يقتضي الموقف لا بدَّ للإنسان أن يقول قولة الحق، وإلا فما فائدة الإيمان الَّذي ظلَّ يكتمه أبد الدهر؟! هنا يأتي أوان إظهار ما كان مكتومًا.

عندما يقول هذا الكلام وهم لا يعرفون إيمانه يقبلونه، لأنَّه واحد منهم، كأنَّه يقول لهم: يا جماعة لماذا تقتلونه؟ ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾؟ واحد يقول: ربي الله، وجاءكم بالبينات الواضحات، جاءكم بتسع آيات، وضع العصا فصارت حيَّة، أدخل يده في جيبه خرجت بيضاء من غير سوء، ماذا تريدون أكثر من هذا؟ أتقتلونه من أجل أنَّه يقول: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾؟!

عاقبة الكاذبين والصادقين:

﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ [غافر: ٢٨]، إذا كان كذَّابًا فمصير الكذَّاب أن يفتضح مهما حاول أن يخدع النَّاس، أحد الحكماء يقول: تستطيع أن تخدع بعض النَّاس بعض الوقت، وتستطيع أن تخدع بعض النَّاس كل الوقت، وتستطيع أن تخدع كل النَّاس بعض الوقت، ولكنك

(١) رواه البخاري في أصحاب النبي ﷺ (٣٦٧٨)، عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

لا تستطيع أن تخدع كل النَّاس كل الوقت. لا بدَّ أن تنكشف في وقت من الأوقات، كما قال الشاعر العربي:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على النَّاس تُعلمِ[1]

فيقول هذا الرجل المؤمن: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ [غافر: ٢٨]، إن موسى يحذركم عذاب الله ونقمته، ستكون مصيبة كبيرة عليكم إن كان صادقًا وأصابكم بعض الَّذي يعدكم، وليس من الضروري أن يصيبكم كل ما يعدكم به، بل لو أصابكم بعض ما يعدكم به من العذاب تكون نكبة كبيرة عليكم.

يريد أن يأخذهم بالإقناع والتدرج والمنطق السليم والبديهي، ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾.

هذا الداعية الموفق أولًا استخدم «يا قوم»، وكررها، يعني أنتم لستم غرباء عني، ولست غريبًا عنكم، أنتم قومي وأهلي، أنا واحد منكم، أريد الخير لكم. وهكذا ينبغي للداعية ألا يستعلي على النَّاس وأن يجعل نفسه شيئًا غريبًا عن النَّاس.

من سنن الله في الضلال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ [غافر: ٢٨]، إذا كان هذا الرجل من أهل الإساءة والإسراف فإن الله لا يهديه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾، ليس من سنة الله أن يهدي الكاذب، بل يكشفه ويبين عوَره للناس، هذه سنة الله، سنة الله أنَّه ﴿لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]،

(١) وهو زهير بن أبي سلمى. انظر: شرح المعلقات التسع صـ ٢١٣، تحقيق عبد المجيد همو، نشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

﴿لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ [غافر: ٢٨]، لا يهديه الله ولا يُنير له الطريق ولا يؤيده أبدًا.

ثم أراد أن يُنَبِّههم على شيء وهو حرصهم على المُلك فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [غافر: ٢٩]، خافوا على مُلككم أن يزيله الله عنكم، ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ـ وغالبين على غيركم ـ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩]، من يحميكم ومن يمنعكم من عقوبة الله إذا نزلت بكم، إذا جاءنا العقاب السماوي من يقف محاميًا ومدافعًا عنكم أو حاميًا لكم؟ ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾؟

هذا الرجل المؤمن خوَّفهم على دنياهم وملكهم فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩].

منطق الطغاة الأعوج:

فماذا كان رد فرعون؟ هنا ظهر فرعون يكذب على قومه، ويُزيِّف دعواه لهم: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وهو في الحقيقة لا يهديهم سبيل الرشاد، وإنَّما يهديهم سبيل الفساد، سبيل الغي والباطل.

انظروا العجب العجاب، موسى يُظهر في الأرض الفساد، وفرعون يهدي سبيل الرشاد، ما هذا؟ هذا هو المنطق الأعوج، منطق الطغاة دائمًا والمستكبرين في الأرض، هم الَّذين يدعون إلى الخير، وإلى الحق، وإلى الهدى، وإلى الرشاد، وخصومهم من دعاة الحق وورثة الأنبياء يريدون أن يبدِّلوا الدين وينشروا الفساد! هذا هو منطقهم.

QaradawiBooks.com

الدرس الثاني
الرجل المؤمن في سورة غافر
مؤمن آل فرعون ـ ٢ ـ

غير مرخصة للطباعة

التذكير بعبر التاريخ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾ [غافر: ٣٠]، أراد هذا الرجل المؤمن أن يخوفهم بعبر التاريخ، الداعية الموفق يستفيد دائمًا من التاريخ، ويوظف دائمًا التاريخ في خدمة دعوته، فهو خوَّفهم بحوادث التاريخ ممَّا سمعوه من الطوفان الَّذي أهلك قوم نوح، ومن الريح الصرر العاتية الَّتي أهلكت قوم هود، ومن الصيحة الَّتي أخذت قوم صالح، هذه القبائل والشعوب الَّتي أهلكها الله جزاء عصيانهم لأنبيائهم وكفرهم بربهم، خوَّفهم أن ينزل بهم ما نزل بالآخرين، ليسوا أفضل منهم ولا أحسن منهم.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾ [غافر: ٣٠]، انظروا إلى كلمة ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، أي أنتم قومي، أنتم أهلي، أنتم منِّي وأنا منكم ولست واحدًا غريبًا عنكم، قد تقولون عن موسى أنَّه إسرائيلي، إنَّما أنا مصري مثلكم، ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣٠، ٣١]، إنِّي أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، والله تعالى لا يغفُل، إنَّه يُمهل ولا يُهمل،

QaradawiBooks.com

يُملي للظالم ثمَّ يأخذه أخذا أليمًا شديدًا، كما قال نبينا مُحَمَّد ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتَّى إذا أخذه لم يفلته**»، ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][1].

فالله يملي للظالم كما قال تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، فهو يملي ويُمهل ولكنَّه لا يُهمل ولا يغفُل، ستأتي ساعة تنزل فيها نقمته على هؤلاء الظالمين المكذبين الَّذين أصروا على ظلمهم وعلى تكذيبهم، وليس هذا ظلمًا من الله لهم ولكن جزاء ما قدَّمت أيديهم، ولذلك قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]، الله لا يظلم ولا يريد الظلم لأحد، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

التخويف من المستقبل:

ثم خوَّفهم من المستقبل، من الآخرة، بعد أن ذكّرهم بعقوبات الدُّنيا، ذكّرهم بعذاب الآخرة، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢].

يوم ينادي النَّاس بعضهم بعضًا، ينادي أصحاب النَّار أصحاب الجنَّة، وينادي أصحاب الجنَّة أصحاب النار، الله تعالى يقول: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٨].

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣]، خوَّفهم بالماضي،

(١) سبق تخريجه صـ٩٣.

QaradawiBooks.com

وخوَّفهم من المستقبل، وجمع لهم من العظات ما يحرِّك القلوب الجامدة، ويلين الأفئدة القاسية، ولكن كان القوم في واد وهو في واد آخر، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

موقفهم من سيِّدنا يوسف:

ثم ذكَّرهم بموقفهم مع يوسف من قبل فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤]، بعض النَّاس كان يُشكِّك أن سيِّدنا يوسف ليس رسولًا من الرسل وإنَّما هو نبي من الأنبياء ولا يوجد ما يدل على رسالته، لكن هذه الآية صريحة: ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾، وكل الَّذين ذكرهم الله في القرآن رسل، ولذلك قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

سيدنا يوسف جاءهم بالبينات، ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ ـ أي مات ـ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

ثم وعظهم موعظة بليغة، هذا المؤمن من آل فرعون كان داعية فصيح اللسان يعرف كيف يؤثر في المخاطَبين، يعرف كيف يستخدم الأسلوب الَّذي يقنع العقول ويحرك القلوب، وهذا كان مخزونًا عنده، ظهر عندما بدأ يظهر إيمانه، ماذا قال؟ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨]، أدلكم على الطريق الَّذي يوصلكم إلى الرشد، إلى الحق، إلى الله ﷻ، لأن أرشد الطرق هو ما يوصلك إلى الله ﷻ، ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

QaradawiBooks.com

قيمة الحياة الدنيا:

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾، هو عرف أنَّ الَّذي يغرهم ويخدعهم ويمنعهم من اتِّباع الحق هي الدُّنْيا فأراد أن يبيِّن لهم قيمة الدُّنْيا فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾، هذه الدُّنْيا متاع، ومتاع قليل، ومتاع الغرور، ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾، دار القرار والاستمرار، دار الخلود، الدُّنْيا دار ممر، والآخرة دار مقر، ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾، الآخرة هي دار القرار، دار الإقامة، دار الخلود، مشكلة كثير من النَّاس أنَّهم يَحيون في الدُّنْيا بعقليَّة الخالدين، يظنون أنَّ الحياة لهم دائمة، فإن لم تكن دائمة، فهم يحسبون أنَّ الموت عنهم بعيد، ودواء هذا كله، أن يُقصِّر النَّاس من آمالهم، وأن يعيشوا على ذكر من الآخرة، وأن يجعلوا الآخرة نُصب أعينهم، ومن أجل هذا يُوصي رسول الله ﷺ ابن عمر بقوله: «**كُن في الدُّنْيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»، وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذْ من صحَّتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[1].

فإنَّ من الخطر أن يتَّخذ الإنسان الدُّنْيا دار إقامة، ويتَّخذها وطنًا دائمًا، ويحسب أن لا رحيل له عنها، أو هكذا يُفكِّر، وهكذا يُعامل نفسه، وهكذا يُعامل النَّاس.

إنَّ عليه أن يعرف أنَّ الدُّنْيا دار ممرٍّ، لا دار مقرٍّ، كما قال العبد المؤمن الصالح، مؤمن آل فرعون، وهو يدعو قومه إلى الله، ويقول لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۞ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾.

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤١٦).

QaradawiBooks.com

الجنَّة وطن المؤمن:

فليكن الإنسان في الدُّنْيا على إحدى هاتين الحالتين: حال الغريب، أو حال عابر سبيل، فالغريب هو الَّذي يُقيم في أرض وهو يعلم أنَّها ليست أرضه، ويُقيم في بلد، وهو يعلم أنَّها ليست وطنه، فهو دائم الحنين إلى وطنه، دائم الحنين إلى أرضه، إلى مسقط رأسه، ومهد طفولته، ومهوى فؤاده، حيث يجتمع شمله بأحبائه وأصحابه، فهذا هو شأن المؤمن.

فوطَّن المؤمن ليس هو الدُّنيا، إنَّما هو الجنَّة، فإنَّ الله حينما خلق آدم أسكنه وزوجه الجنَّة، ثمَّ أهبطه منها، ووعده وذريته من الصالحين بالرجوع إلى المسكن الأول، إلى الجنَّة، ولهذا فإن المؤمن يحنُّ إلى الوطن الأول، يحنُّ إلى الجنَّة، الَّتي كان فيها أبوه وأمه من قبل، كما قال القائل:

كَمْ مَنْزِلٍ في الأرضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى وَحَنِينُهُ أبدًا لأوَّلِ مَنْزِلِ[1]

ورحم الله العلَّامة ابن القيِّم إذ يقول في ميميَّته:

فحيَّ على جَنَّاتِ عدنٍ فإنَّها مَنَازِلُكَ الأولى وفيها المخيَّمُ
ولكننا سَبْيُ العدوِّ فهل ترى نعودُ إلى أوطانِنَا ونُسَلَّمُ[2]؟

هكذا أوصى رسول الله ﷺ: أن يكون بلاغ العبد من الدُّنْيا كزاد الراكب، ولما دخل بعض الصحابة على رسول الله ﷺ ووجد الحصير قد أثَّر في جنبه، وقال: يا رسولَ الله، كسرى وقيصر ينامان على الديباج

(١) البيت لأبي تمام، انظر: البيان والتبيين (٢٠٧/٣)، وشرح ديوان أبي تمام للتبريزي (٢٩٠/٢).
(٢) انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح صـ ٢٨٤، نشر مطبعة المدني، القاهرة.

QaradawiBooks.com

والإستبرق، وأنت تنام على الحصير حتَّى يؤثر في جنبك؟ فقال: «**ما لي وللدنيا؟! إنَّما مثلي ومثل الدُّنيا، كمثل راكب قال ـ من القيلولة ـ في ظلِّ شجرة في يومٍ صائفٍ ثمَّ راح وتركها**»(١).

فهذه الدار دار مَقيل، وليست دار إقامة، ولكن النَّاس عن ذلك غافلون، إن هذه الحياة ليست حياة خلود أبدًا، لا تستحقُّ أن يفرح الإنسان بها، وكيف يفرح بالدنيا مَن تهدم ساعاته فيها يومه، وأيامه تهدم شهره، وشهوره تهدم عامه، وأعوامه تهدم عمره؟ وهكذا حتَّى تنتهي هذه الحياة، الَّتي عليها يتكالب النَّاس ويتنافسون!

الآخرة دار الجزاء:

وإنَّما كانت الآخرة دار الخلود والاستقرار؛ لأنَّ فيها الجزاء، فاليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل، الآخرة دار الجزاء، تجزى فيها كل نفس بما كسبت، وتوفى ما عملت، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، ولذلك قال: ﴿وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۞ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٣٩، ٤٠].

في هذه الدار ليس فيها ظلم، ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧]، لا يخاف أحد في هذا اليوم ظلمًا ولا هضمًا، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، إذا عملت عملًا صالحًا لن تُهضم، ولن تُظلم ولن تُحمَّل ظلم غيرك أو وزر غيرك، بل ستأخذ حقك وزيادة أيضًا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، فوق المضاعفة.

---

(١) رواه أحمد (٣٧٠٩)، وقال مُخَرِّجوه: صحيح. والترمذي في الزهد (٢٣٧٧)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الزهد (٤١٠٩)، عن عبد الله بن مسعود.

QaradawiBooks.com

الجزاء على السيِّئة بمثلها:

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠]، الجزاء في الآخرة على أعمال الدُّنْيا من عمل سيئة في الدُّنْيا فلا يُجزى إلَّا بمثلها في الآخرة، كما قال الله في الآية الأخرى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

معيار قبول الأعمالِ الإيمانُ:

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [غافر: ٤٠]، هذا هو الشرط، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، لا قبول للعمل ولا قيمة للعمل ما لم يتأسس على الإيمان.

معيار القبول عند الله لأيّ عمل صالح أن يكون مبنيًّا على الإيمان بالله، أمَّا إذا كنتَ كافرًا بالله ﷻ لا يجدي هذا العمل، لا يدخلك الجنَّة، قد تُجزى به بأن يخفف عنك العذاب، إنَّما إذا كفرتَ عن بيِّنة وشاققتَ الرسول المبعوث لك من بعد ما تبيَّن لك الهدى، واتبعتَ غير سبيل المؤمنين فلا يُقبل منك عمل، الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۞ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩، ٤٠]، وهكذا نجد

QaradawiBooks.com

القرآن يبيِّن أنَّ الإيمان أساس قبول الأعمال، ولذلك قال هذا الرجل المؤمن: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

بين الدعوة إلى النجاة والدعوة إلى النار:

ثم أنهى مؤمن آل فرعون موعظته بعقد هذه المقارنة بين الظلام والنور، والحق والباطل، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۞ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ۞ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۞ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤١ ـ ٤٤].

ختام الموعظة البليغة:

ثم ختم هذه الموعظة البليغة المؤثرة بهذه الكلمات: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]، ربَّما لا تذكرونها إلَّا بعد فوات الأوان، وهذا ما حصل لفرعون حينما أدركه الغرق، ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۞ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١]، وكما قال الله في ختام هذه السورة: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۞ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]، ما عاد ينفع التذكُّر، المهم أن تذكر حين ينفع التذكر.

QaradawiBooks.com

المهم أنَّه قال لهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ۞ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٤، ٤٥]، طبعًا بعد هذا الموقف لا بدَّ أن يكونوا قد فكَّروا مرَّات ومرات كيف ينتقمون منه، كيف يعاقبونه على هذا الموقف، ولكنَّهم مكروا ومكر الله، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس: ٢١].

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥]، كما قال الله في قوم صالح: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٠ ـ ٥٣].

أهلك الله فرعون وجنوده وأغرقهم أجمعين، كما قال في سورة أخرى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۞ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٥، ٦٦]، وليت الأمر وقف عند الغرق، بل كان مع الغرق الحرق، ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

من أدلَّة عذاب القبر:

قوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ يعني ما كانت الدنيا[1]، ولذلك قالوا: إن هذه من الأدلَّة على عذاب القبر، ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

(١) هو قول مجاهد. انظر: تفسير الطبري (٣٩٧/٢١).

QaradawiBooks.com

هذا هو جزاء الظالمين، ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۞ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٠ ـ ٤٢].

وقى الله مؤمن آل فرعون من سيئات ما مكر الماكرون من فرعون وملئه وأتباعه وجنوده، وحاق ونزل بهم سوء العذاب، عذاب الدُّنْيا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦]، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

* * *

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الثالث
من شروط الدعاء المستجاب
«من سورة غافر»(١)

غير مرخصة للطباعة

استمعنا الليلة، إلى الآية الكريمة من سورة غافر، حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [الآية: ٦٠].

نتوقف عند هذه الآية الكريمة، الَّتي يناديا الله فيها، بل يأمرنا أمرًا، أن ندعوَه، ويَعِدُنا بأن يستجيب لنا، ولذلك كثيرًا ما نبدأ دعاءنا بقولنا: «اللهمَّ إنَّا ندعوك كما أمرتنا، فاستجبْ لنا كما وعدتنا».

يقول الله تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ هذا شرط وجزاء، وهنا يسأل كثيرٌ من الناس: نحن ندعو ولا يستجاب لنا؟! دعونا على الأمريكان والبريطانيين، والصهاينة، وغيرهم من الظلمة المحاربين لنا، ولا زالوا يعيثون في الأرض فسادًا، لا زالوا يَطغَوْن في البلاد، ويُكثروا فيها الفساد، ولم يصبُّ عليهم ربُّنا سوط عذاب، ما بالنا ندعو فلا يُستجاب لنا؟!

هذه الأسئلة وغيرها، غالبًا ما تُحاك في صدور بعض النَّاس، فربما ظن بعضهم أنَّ الله أخلف وعده، أو أنَّ الله قال كلامًا لا ينفذ، ومعاذ الله،

(١) من دروس تراويح ١٤٢٢هـ.

QaradawiBooks.com

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، إنَّ الله لا يخلف وعده، ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥]، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

شروط استجابة الدعاء:

إنَّ الدعاء ـ أيُّها الإخوة ـ له شروط لاستجابته، ومن أهمِّ هذه الشروط:

غير مرخصة للطباعة

أولًا: أن يكون مطعم الإنسان طيِّبًا وحلالًا:

فلا يكون مكسبه من حرام، ومأكله من حرام، وملبسه من حرام، وغُذِّي بالحرام، ثمَّ يرجو استجابة الدعاء!

وفي الحديث الصحيح: يقول رسول الله ﷺ: «**أيُّها النَّاس، إنَّ الله طيب لا يقبل إلَّا طيبًا، وإنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، **وقال** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]». ثمَّ ذكر الرجلَ يطيلُ السفرَ أشعثَ أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمة حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك[1]؟!

«أشعث أغبر»؛ لأنَّ المسافر في الزمن الماضي، كان يركب المطيَّة، أو يركب رجليه، فلا يصل إلى مقصده إلَّا وهو أشعث أغبر، أشعث الرأس، أغبر القدمين.

نسخة مجانية

(١) رواه مسلم في الطهارة (١٠١٥)، والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٨٩)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

يقول النبيُّ: «**يمد يديه إلى السماء: يا ربِّ، يا ربِّ. ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك؟**» كيف يستجيب الله لمن هذا حاله؟!

ولذلك أوَّل ما يُطلب لاستجابة الدعوة: أن يكون مطعم الإنسان من حلال. وقد جاء سعد بن أبي وقَّاص فقال: يا رسولَ الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة. فقال له النبي ﷺ: «**يا سعد، أطبْ مطعمك، تكنْ مستجاب الدعوة**»[1].

فهذا أوَّل ما يُطلب من الإنسان، أمَّا أن يعيش الإنسان في المعاصي والذنوب، ويرجو استجابة الدعاء، فهذا غير مقبول. وكما قال الشاعر الصالح[2]:

نحن ندعو الإلٰهَ في كلِّ كربٍ ثمَّ ننساه عند كشفِ الكروبِ
كيف نرجو إجابةً لدعاءٍ قد سدَدْنا طريقها بالذنوب

فأول شيء: التطهر من الحرام، ومن الذنوب ومن المعاصي؛ لأنَّها تسد باب إجابة الدعاء.

ثانيًا: إخلاء القلوب من معاصي القلوب:

ومعاصي القلوب مثل: الرياء، والكبر، والغرور، والحسد، والأحقاد، وهذه الأشياء الَّتي تأكل الحسنات، كما تأكل النَّار الحطب.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٦٤٩٥)، وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢٦٠/١): فيه إسناده نظر. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨١٠١): رواه الطبراني في الصغير، وفيه من لم أعرفهم. وضعفه الألباني في الضعيفة (١٨١٢)، عن ابن عباس.

(٢) هو أبو غانم القصري، كما في الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق ماهر زهير جرار، نشر دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

QaradawiBooks.com

فرغ قلبك لله، طهِّر قلبك لله، اجعل قلبك عامرًا بحب الله وخشية الله، صِلْ ما بينك وبين الله، فلا تجعل بينك وبينه حواجز، ثمَّ تقول يا رب يا رب. فهذا كمثل إنسان أصابه حادث، فأراد أن يطلب الإسعاف، والنجدة، فأمسك بالتلفون ليتصل، وإذا به مقطوع الحرارة، فلو ظل ينادي.. ألو.. ألو.. لن يُستجاب له، ولن يجد ردًّا. فأعد توصيل الخط، ثمَّ اتَّصل تجد الإجابة، والنجدة إن شاء الله. فصِلْ ما بينك وبين الله.

وفي الحديث: «**لو عرفتم الله حقَّ معرفته، لزالت بدعائكم الجبال**»[(١)]. ولذلك فأهم شيء أن تصِل ما بينك وبين الله، قل «يا رب» بحرقة، كما كان رسول الله يدعو في غزوة بدر: «**اللهمَّ أنجزْ لي ما وعدتني، اللهمَّ آت ما وعدتني، اللهمَّ إن تهلكْ هذه العصابة من أهل الإسلام، لا تعبدْ في الأرض**» يناشد ربه بحرقة وحرارة، مادًّا يديه مستقبل القبلة حتَّى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثمَّ التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنَّه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله ﷻ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩][(٢)].

لا بد أن يحرص الإنسان على أن يكون ما بينه وبين الله موصولًا وحاضرًا، فإذا قلت: «يا ربّ، يا رب» قال لك: لبيَّك وسعديك، والخير في يديك. فمن المهمِّ أن نصل القلوب بالله ﷻ.

خرج أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم يومًا إلى السوق، وإبراهيم بن أدهم هذا من العبَّاد الزهَّاد، ترك إمارته وترك دنياه وقصوره، وزهد في

(١) رواه محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٨٠٢)، وقال العراقي في تخريج الإحياء صـ ١٦٢٧: إسناده فيه لين. عن معاذ بن جبل.

(٢) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٦٣)، وأحمد (٢٠٨)، عن عمر.

QaradawiBooks.com

الدُّنيا، وعاش راغبًا في الآخرة، يؤجِّر نفسه، ليعمل عاملًا من أجل أن يكسب قوته. عندما خرج إلى سوق البصرة، اجتمع النَّاس حوله، وسألوه: ما لنا ندعو فلا يُستجاب لنا؟ فقال لهم: لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء، وأخذ يعددها لهم، فقال: عرفتم الله ولم تؤدوا حقه، وتأكلون رزق الله ولا تشكرونه، وقرأتم كتاب الله ولم تعملوا به، وادعيتم عداوة الشيطان ووالیتموه، وادعيتم حبَّ رسول الله وتركتم أثره وسنته، وادعيتم حبَّ الجنَّة ولم تعملوا لها، وادعيتم خوف النَّار ولم تنتهوا عن الذنوب، واشتغلتم بعيوب غيركم وتركتم عيوب أنفسكم، وادعيتم أنَّ الموت حق ولم تستعدوا له، وتدفنون موتاكم ولا تعتبرون. فكيف يستجاب لكم[1]؟!

فأخبرهم أنَّ قلوبهم ماتت بهذه الأشياء العشرة، ولا يقبل الله الدعاء إلَّا من قلب حي، قلب موصول به، قلب يقول: يا ربِّ، فتتزلزل السماء.

ركب بعض النَّاس سفينة، فهاجت الرياح، وأحاط الموج بالسفينة من كلِّ مكان، وظنوا أنَّهم أحيط بهم، وانتظروا الموت، وأخذ النَّاس في مناجاة الله، وكثر الاضطراب فوق السفينة، وفي هذا الموقف وجدوا رجلًا جالسًا يذكر الله، فنظروا إليه وعاتبوه، وقالوا: كيف تسكت في هذا الموقف، وما هذا الهدوء الَّذي تعيش فيه، فنظر الرجل إلى السماء، وقال: اللهمَّ إنَّك قد أريتنا بطشك وقوَّتك، فأرنا عفوك ورحمتك. وما إن أكمل هذه الكلمات، حتَّى استقرَّت هذه السفينة.

بدعوة واحدة نجَّى الله أهل هذه السفينة من هذا الموت المحقَّق، ولكنَّها دعوة بإخلاص وصدق، وذلك مثل يونس عليه السلام، عندما نادى ربه

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٥/٨، ١٦).

QaradawiBooks.com

وهو في بطن الحوت، ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت، نادى ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

فنحن نريد نداء من قلوب حيَّة، تعرف الله ﷻ، فالمسلمون حينما استغاثوا بالله في بدر، استجاب لهم وأمدَّهم بجند من جنده، ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

نحن ندعو الله، ولكن الله لا يستجيب لنا؛ لأن شروط الإجابة غير متوفرة، فالقلوب ليست حية، المعاصي كثيرة، أكل الحرام شاع، كما قال النبي ﷺ: «**ليأتينَّ على النَّاس زمانٌ، لا يبالي المرء بما أخذ المال، أمن حلال أم من حرام**»[1]. كما يقول البعض: «إذا كان من حلال أكلناه، وإذا كان من حرام أكلناه» يعني لا يبالي. ومثل هذا إذا دعا كيف ينتظر الإجابة؟!

إجابة الدعاء كما يريد الله، لا كما يهوى البشر:

ومن ناحية أخرى: أقول أيُّها الإخوة: قد تتحقق الإجابة بما لا نهوى، فربما نريد الإجابة اليوم، ولكن الله أراد أن تكون بعد سنة أو سنتين، أو ثلاثة، فإن الله لا يعجل بعجلة أحد.

قالوا: لما دعا موسى على فرعون وملئه، وقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]،

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٠٥٩)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

قالوا: إنَّ الله استجاب لهما بعد سنين طويلة، قيل: أربعين سنة، وما أظن هذا، والمقصود: أنَّ الله يستجيب، ولكن ليس من الضروري أن تكون الإجابة عاجلة. فالله يُمهل ولا يُهمل، كما جاء في الحديث: «**إنَّ الله ليملي للظالم حتَّى إذا أخذه لم يُفْلِتْه**» قال: ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]»[(١)]. وكما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥]، بعض العلماء يقول: «سنستدرجهم» أي: كلَّما أحدثوا معصية، أحدثنا لهم نعمة، حتَّى يزدادوا طغيانًا[(٢)]، وكأن المعاصي تجلب النعم، وهذا من سخط الله عليهم.

وكما قالوا: إذا غضب الله على قوم، رزقهم من حرام، وإذا اشتدّ غضبه عليهم بارك لهم فيه. وهنا تكون المصيبة كبرى. وهنا يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ اتَّسعت أرزاقهم، وملكوا ما ملكوا، وأخذت أرضهم زخرفها، وازَّيَّنت، وظنوا أنَّهم قادرون عليها.. وهنا يقول الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

فأنت لا تحدد لله متى يستجيب لك، واترك القدر لله، فالإجابة ليست على هواك، وإنَّما هي بأجل مسمَّى، وبالحكمة الإلٰهيَّة، فكل شيء بأجل مسمى، ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

يقول النبيُّ ﷺ: «**يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل؛ يقول: دعوتُ فلم يُسْتَجَبْ لي**»[(٣)].

---

(١) سبق تخريجه صـ٩٣.

(٢) من قول أبي روق. انظر: التفسير الكبير للرازي (٦١٥/٣٠).

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٤٠)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٥)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

والدعاء عبادة ـ أيُّها الإخوة ـ كما قال رسول الله ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**» ثمَّ قرأ: «﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1]، قال: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ والسياق أن يقول: عن دعائي، فعبَّر بالعبادة على الدعاء. فأنت تتعبد إلى الله بالدعاء، واترك الله يصرف لك الأمور كيف يشاء.

الداعي رابح ولا بدَّ:

وفي حديث أبي سعيد الخُدْري، يقول النبيُّ ﷺ: «**ما من مسلمٍ يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم، إلَّا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إمَّا أن تعجل له دعوته، وإمَّا أن يدَّخرها له في الآخرة، وإمَّا أن يصرف عنه من السوء مثلها**» قالوا: إذن نكثر. قال: «**اللهُ أكثر**»[2].

«**إما أن تُعَجَّل له دعوته**» فأنت طلبت ـ مثلًا ـ أن يأخذ الله شارون، يأخذه فورًا، أو ينزل بالأمريكان عقابه، ينزل فورًا. طلبت أن يوسِّع الله رزقك، تجد السعة، إلخ.

«**وإمَّا أن يدخرها له في الآخرة**» قد يدَّخر الله لك ثوابها في الآخرة.

«**وإمَّا أن يصرف عنه من السوء مثلها**» كان يمكن أن يصيبك بلاء أو كارثة، أو مصيبة، فيصرف الله عنك هذه المصيبة بهذا الدعاء.

---

(١) رواه أحمد (١٨٣٥٢)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الصلاة (١٧٤٩)، والترمذي في التفسير (٢٩٦٩)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الدعاء (٣٨٢٨)، عن النعمان بن بشير.

(٢) رواه أحمد (١١١٣٣)، وقال مخرّجوه: إسناده جيد. وأبو يعلى (١٠١٩)، والحاكم في الدعاء (٤٩٣/١)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجا للرفاعي. ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في المجمع (١٧٢١٠): رجال أحمد وأبي يعلى وأحد إسنادي البزار رجال الصحيح، غير علي بن علي الرفاعي وهو ثقة.

QaradawiBooks.com

البعض يقول: وما الفائدة وما قدَّره الله سيكون؟! أقول: الله يقدِّر لك المسبَّبات بأسبابها، فحين يقدِّر لك أن تموت بحادث سيارة، فتسير في الشارع، لتأتي سيارة فتدهمك فتموت، فلن تموت إلَّا بهذا السبب. وكذلك الدعاء هو سبب من أسباب تحقيق الآمال، وتحقيق المطالب، ولذلك لما سُئل رسول الله ﷺ: أرأيت أدوية نتداوى بها، ورُقًى نسترقي بها، وتُقًى نتقيها، هل تردُّ من قدر الله شيئًا؟ قال: «**هي من قَدَرِ الله**»[1]. يعني أنَّ الدواء من قدر الله، والمرض من قدر الله. وهو الَّذي قدَّر الداء، وقدَّر الدواء، فأنت تدفع قدرًا بقدر، والمؤمن الفقيه في دينه، هو الَّذي يدفع الأقدار بعضها ببعض. فالدعاء هو سبب من الأسباب لدفع الأقدار عنك. كما قال سيِّدنا عمر بن الخطاب: نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله، وندفع قدر الله بقدر الله[2].

إذن فالدعاء عبادة، قد يعجِّله الله في الدُّنيا، وقد يكفُّ عن صاحبه من السوء مثله، وقد يدَّخره لصاحبه في الآخرة.

قال الصحابة: إذن نكثر يا رسولَ الله. ما دامت العمليَّة رابحة رابحة، فلماذا لا نكثر من ذلك الخير؟!

فقال النبيُّ ﷺ: «**الله أكثر**»: ما عند الله أكثر ممَّا تطلبون، ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠٠]. فخزائن الله مليئة، لا تنفد.

---

(١) رواه أحمد (١٥٤٧٢)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده ضعيف على خطأ فيه. والترمذي (٢٠٦٥)، وقال: حسن. وابن ماجه (٣٤٣٧)، كلاهما في الطب، وحسَّنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (١١)، عن أبي خزامة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٢٩)، ومسلم في السلام (٢٢١٩).

QaradawiBooks.com

وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم، قاموا في صعيدٍ واحد، فسألوني فأعطيتُ كلَّ إنسان مسألته، ما نقص ذلك ممَّا عندي، إلَّا كما يَنْقُص المِخْيطُ إذا أُدخل البحر**»[1]. والمِخيط: هي الإبرة. فهل إذا أدخلت الإبرة في ماء البحر، تُنقص منه شيئًا؟! لو كانت شيء من «القطن» لقلنا لعلَّها تأخذ شيئًا، لكنَّه شبه ذلك بالإبرة، وهذا دليل على أن خزائن الله لا تنقص.

فهنا قال الصحابة: إذن نكثر يا رسولَ الله. ما دمنا سنكسب من الدعاء ولا بدَّ، فقال لهم النبي ﷺ: «**الله أكثر**»، يعني أكثروا، وأخلصوا الدعاء، ادعوه مخلصين له الدين، وادعوه وأنتم موقنون بالإجابة، ولا تقيِّدوا الدعاء، فلا تقل: اغفر لي وارحمني إن شئت يا رب، بل قل: يا ربّ اغفر لي وارحمني، وأنت على كل شيء قدير، فإنَّ الله لا مُكره له.

وفي هذا الشهر الكريم «رمضان» ينبغي ألا نغفل عن هذه العبادة «الدعاء»، فندعو الله لأنفسنا، وندعوه لمن نُحب، وندعوه للمسلمين، فلا يختصر الإنسان الدعاء لنفسه، فإن الله علَّمنا في سورة الفاتحة، أن نقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، لماذا لا نقول: اهدني الصراط المستقيم؟! يعلمنا الله أن ندخل في سياق الجماعة، أنت تتحدث عن لسان الجماعة، ولعلَّ عندك من الذنوب ما تمنعك من الإجابة، وتحول بينك وبينها، أمَّا إذا دعوت لنفسك وللمسلمين، كنتَ واحدا منهم، فتغمرك رحمتهم، وتشملك فضائلهم، فيستجيب الله لك معهم.

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧)، وأحمد (٢١٤٢٠)، عن أبي ذر.

QaradawiBooks.com

ولذلك ادع لإخوانك المسلمين، وادع بحرقة وحرارة لإخوانك في فلسطين، وانتظر أن يجيب الله دعاءك، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

إنَّ الدعاء من أعظم العبادات، الَّتي ينبغي للمؤمن أن يحرص عليها دائمًا، وخصوصًا في ساعات معينة، مثل ساعات الأسحار، ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وفي السجود، كما قال المصطفى: «**أقربُ ما يكون العبدُ من ربِّه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**»(١).

وبين الأذان والإقامة، وفي شهر رمضان، وخصوصًا عند الإفطار، كما قال النبي ﷺ: «**للصائم عند فطره دعوة لا ترد**» وكان ابن عمرو ـ راوي الحديث ـ يقول إذا أفطر: اللهمَّ إنِّي أسألك برحمتك الَّتي وسعت كلَّ شيء أن تغفر لي(٢).

أسأل الله تبارك وتعالى أن يفقهنا في ديننا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علَّمنا، وصلِّ اللهمَّ على سيِّدنا محمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

* * *

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأحمد (٩٤٦١)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه ابن ماجه في الصيام (١٧٥٣)، والحاكم في الصوم (٤٢٢/١)، وقال: إسحاق ـ أحد الرواة ـ هذا إن كان ابن عبد الله مولى زائدة فقد خرج عنه مسلم، وإن كان ابن أبي فروة فإنهما لم يخرجاه. وقال البوصيري في الزوائد (٦٣٦): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. عن عبد الله بن عمرو.

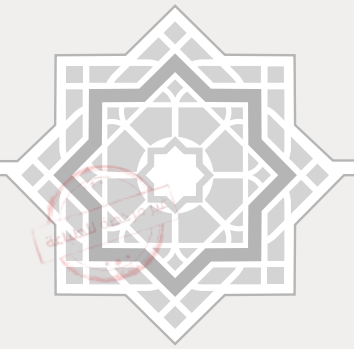
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



من دروس التفسير

سورة الشورى



نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

آيات في شأن الألوهيَّة

نحن في هذه الليلة نعيش في رحاب سورة الشورى، وسورة الشورى سورة مكيَّة تُعنى بما تُعنى به السور المكيَّة من ترسيخ أمر العقيدة، ما يتعلق بالله تعالى وبالجزاء في الآخرة وبالنبوة والوحي وبالأصول الأخلاقيَّة والعبادية وأصول الحياة الإسلاميَّة كما عُنيت بالشورى لأنَّها أصل من أصول الحياة الإسلاميَّة، كما عُنيت بالانتصار من البغي، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]، وهذا يعدّ تمهيدًا لتشريع الجهاد.

نحن في هذه السورة نقف عند آيات تتعلق بشأن الألوهيَّة حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۞ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۞ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۞ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ۞ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۞ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٢٥ ـ ٣١].

QaradawiBooks.com

قبول توبة التائبين:

ذكر الله تبارك وتعالى أنَّه من شأنه أن يقبل توبة التائبين، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥].

الله ﷻ من شأنه أن يقبل التائبين إذا رجعوا عن ضلالهم، إذا رجع المشركون عن شركهم تاب عليهم، وإذا رجع العصاة عن عصيانهم تاب عليهم، وإذا رجع المبتدعون عن بدعهم تاب عليهم، كل من تاب يتوب الله تبارك وتعالى عليه، هذه سُنَّة من سنن الله، ويقول الإمام الغزالي: إن هذا أشبه بالأشياء الطبيعيَّة مثل الماء الساخن إذا نزل على الوسخ تزيله[1]، فالتوبة النصوح الصادقة الَّتي استجمعت شرائطها لا بدَّ أن تزيل أثر الذنوب.

هذه من سنن الله ﷻ، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥]، فهو حينما يتوب ويعفو ويمحو ويغفر السيئات ويبدلها حسنات يعلم ما تفعلون، هناك قراءة الجمهور: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾، وقراءة عاصم وحفص: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾، على سبيل الالتفات كما يقول البلاغيون.

استجابة دعاء المؤمنين وزيادته من فضله:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ۝ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾، يستجيب لهم دعاءهم وسؤالهم، ويحقق لهم رجاءهم، وأكثر من ذلك يحقق لهم أكثر ممَّا يدعون به وما يرجونه وما يطلبونه ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾.

---

(١) إحياء علوم الدين (١٣/٤).

QaradawiBooks.com

القرآن دائمًا يذكر زيادة فضل الله كما يقول: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٣]، ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [النور: ٣٨]، ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ [فاطر: ٣٠]، يزيد على ما يستحقه الإنسان بعمله الصالح حسب موازين العدل الإلٰهي، هناك موازين الفضل وهناك موازين العدل، وفضل الله دائمًا أوسع وأعظم من العدل، العدل أنَّ الإنسان كما يُجازى على السيِّئة بمثلها، يُجازى على الحسنة بمثلها أيضًا، لكن الفضل أنَّ الله يجازي بالفضل فيجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله، هذا هو الفضل.

﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾، وبعض المفسرين يقول: قول الله تعالى: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يشفّعهم في إخوانهم، ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ يشفعهم في إخوان إخوانهم، درجة أوسع، هذا كله من فضل الله ﷻ، ولا حرج فكل هذا يشمله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾.

﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾، هذا للمؤمنين، أمَّا الَّذين كفروا بالله ورسوله، وكذَّبوا الله ورسوله، وساروا في ركاب الشيطان لهم عذاب شديد، ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾.

حكمة الله في عدم بسط الرزق لعباده في الدنيا:

﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى: ٢٧]، إذا كان الله عنده من الفضل الواسع الكبير ما يوسِّع به على عباده في الآخرة أفلا يُوسع على عباده في الدُّنْيا ويبسط لهم الرزق

QaradawiBooks.com

ويعطيهم ما يشاؤون من السعة والرغد؟ الله قادر على ذلك، ولكنَّه لا يفعل ذلك؛ لأن هذا ليس في مصلحة عباده.

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، الإنسان بمجرد ما يرى نفسه قادرًا ومالكًا كما يقول النَّاس في أمثالهم: القادر فاجر. القدرة تجعله يفجر على غيره، شعوره بالاستغناء يجعله يطغى على غيره، ولذلك يعطيهم الله بقَدَر، ليس معنى يعطيهم بقَدَر يحرمهم ويفقرهم، إنَّما كما قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]، لم يعطهم الماء بحيث يغرقهم، لأنَّه يمكن أن يترك الماء ينزل فيغرق النَّاس، لا، ولا يمنع الماء عنهم بحيث يموتون عطشًا، وإنَّما ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ﴾ [الشورى: ٢٧]، وكل تصرفات المولى ﷻ في الكون بقدر، ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، كل شيء محسوب بحساب، ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]، ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

كل شيء في الكون مقدر تقديرًا دقيقًا لا يتفلَّت منه شيء أبدًا، كلُّ ما في الكون، في الأرض، في السماء، في الأحياء، في النباتات، في البحار، في الأفلاك، في الجمادات، كله مُسَيَّر بقدر.

فهنا يقول: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾، يعني خذ مثلًا الله ﷻ بسط الرزق شيئًا ما لأمريكا أعطاها قارة كبيرة تذهب فيها يمينًا وشمالًا، يعني انظر إلى بنجلاديش، مائة وسبعون مليونًا في قطعة أرض صغيرة جدًّا، وأمريكا تزيد عن بنجلاديش حوالي مائة مليون أو شيء، وعندها قارة كاملة بكر، فهذا جعلها تتأله على النَّاس، وتريد أن تفرض سلطانها على المجتمع، ولا تُسأل عمَّا تفعل،

QaradawiBooks.com

ولا تحاسَب على ما تقول، تستكبر في الأرض بغير الحق، تفرح وتمرح في الأرض بغير الحق، هذا نتيجة أنَّها بُسط لها بعض الشيء.

فلو بسط الله للنَّاس جميعًا فستكون فتنة ولا يستطيع أحدٌ أن يسخّر أحدًا، الآية الَّتي سمعناها في صلاة التراويح من سورة الزخرف: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، يوسِّع على هذا ويضيِّق على هذا ويرفع هذا ويُنزل هذا حتَّى تستقيم الحياة، فالحياة أشبه بمصنع كبير، يوجد فيه المدير العام، ورئيس القسم، والمهندس، والعامل الفني، والحارس «الناطور»، والكنَّاس، كل هؤلاء يحتاج إليهم المصنع، لا بدَّ أن تكون فيه هذه المراتب وكل واحد من دونه، وإلا لا تستقيم الحياة، فيه مثل يقول: لو أنت أمير وأنا أمير فمن يسوق الحمير؟!

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]، يعلم ما يُصلح عباده وما يُفسدهم، فمشيئته مرتبطة بحكمته، لا يشاء إلَّا ما فيه الحكمة، ليس كما يقول البابا: إن مشيئة الله عند المسلمين غير مقيَّدة بشيء لا بالعقل ولا بشيء. لا، مشيئة الله عند المسلمين بالإجماع مقيَّدة ومرتبطة بحكمته، لا يشاء الله إلَّا ما فيه الحكمة وما فيه الخير.

إنزال الغيث من بعد قنوط الناس:

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨]، من صفات الله ﷻ أنَّه ينزل الغيث من بعد ما يقنط النَّاس، الماء هو سر الحياة، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ولكن أحيانًا الماء لا ينزل، وماذا يفعل النَّاس إذا لم ينزل الماء؟ ليس

QaradawiBooks.com

عندهم قدرة على التحكم فيما ينزل من السماء، ليس أمامهم إلَّا أن يسألوا الله من فضله أن يُنزل عليهم الماء.

الإسلام شرع صلاة الاستسقاء، أي طلب السقيا من الله، اللهمَّ إنَّا نستغفرك إنَّك كنت غفارًا، فأرسل السماء علينا مدرارًا، ونصلي ونسجد لله ونتضرع إليه أن يسقينا ويسقي أولادنا، ويسقي مواشينا وأرضنا وزروعنا، ولكن لا نملك شيئًا، فعندما يقحط النَّاس وتجف الأرض وتصبح ميتة، فالأرض تموت كما يموت الإنسان، تموت الأرض بامتناع الماء عنها، إذا لم ينزل عليها الماء ماتت، وتحيا بنزول الماء عليها، ماذا يفعل الناس؟ لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا.

الله هو الَّذي ينزل الغيث، ليست الكواكب كما يعتقد أهل الجاهليَّة أنَّ الكواكب لها دخل في الأمطار والأنواء تتدخل، لا، الله وحده ينزل الغيث، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى: ٢٨]، واختار هنا كلمة «الغيث» وهي من أسماء المطر، لم يقل: ينزل المطر لأن النَّاس في حاجة إلى غوث، هو غيث لأنَّه يغيث لهفتهم من بعد أن أصابهم القحط وأصابهم القنوط.

جاء رجل إلى سيِّدنا عمر فقال: يا أمير المؤمنين قحط المطر وقنط النَّاس. قال: إذن مُطرتم. ثمَّ تلا قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨][1]، عندما تشتد الأزمات يأتي الفرج.

اشْتَدِّي أَزْمَةُ تَنْفَرِجِي قَدْ آذَنَ لَيْلُكِ بِالْبَلَجِ[2]

(١) رواه الطبري في التفسير (٢١/٥٣٧).

(٢) المنفرجتان صـ ٤٣.

نسخة مجانية غير مدققة
QaradawiBooks.com

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ١١٠]، فبعد القنوط يأتي فرج الله، تأتي استجابة الله، الله يريد أن يُري النَّاس عجزهم، أنتم أعجز أن تنزلوا مطرًا حينما تقحطون، أنتم بدون رحمتي وبدون قدرتي لا تستطيعون أن تفعلوا شيئًا، هذا من سنن الله أن يأتي الفرج بعد اشتداد الأمر.

وَلَرُبَّ نَازِلَـةٍ يَضِيقُ بِهَـا الْفَتَى ذَرْعًـا وَعِنْـدَ اللهِ مِنْهَـا الْمَخْرَجُ
ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا فُرِجَتْ وَكُنْتُ أَظُنُّهَـا لَا تُفْرَجُ[1]

هنا نزل الغيث بعد القنوط، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨]، الماء الَّذي يحيي الأرض بعد موتها، ويشيع الخضرة والنضرة والنبات، ويسقي الزرع ويدر الضرع، وتنطلق الحياة من جديد بسبب هذا الغيث ـ المطر ـ كما عبَّرت عنه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]، هو وليكم، هو الكافي لأمركم والراعي لشأنكم، ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمود في ذاته، والمحمود في صفاته، والمحمود في أفعاله، والمحمود على كل حال.

خلق السماوات والأرض:

تكلَّم الله تعالى عن الشأن الإلٰهي، وتكلَّم عن نزول المطر بعد القنوط وهو نعمة من جهة، ورحمة من جهة، وآية من جهة أخرى، آية دالة على قدرة الله ولطفه ورحمته بعباده، ثمَّ ذكر الله تعالى آية أخرى من آياته فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]، من آيات الله: خلق السماوات والأرض، كثيرًا

(١) أمالي المرتضى (٤٨٦/١).

QaradawiBooks.com

ما ذكر القرآن هذه الآية، آية خلق السماوات والأرض، هذه العوالم العلويَّة والسفلية، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، السماوات هذه شيء كبير جدًّا.

يقولون: إنَّ أرضنا هذه جزء من المجموعة الشمسيَّة، والمجموعة الشمسيَّة هي مجموعة من ملايين المجموعات في مجرة من المجرات، المجرة الَّتي نعيش فيها يُسمُّونها «سكَّة التبَّانة»، أي السكَّة الَّتي يسير فيها من يحملون التبن على دوابهم فتتناثر ذراته في الطريق، كذلك النجوم هذه المجرة لا حصر لها، وهذا كله في مجرة من المجرات، وهناك ملايين المجرات، وهناك هذا الكون يتسع كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٩]، ونحن لا نرى من هذه السماوات إلَّا السماء الدُّنيا، نرى المصابيح الَّتي زيَّن الله بها هذه السماء، ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [فصلت: ١٢]، الله تعالى ذكر لنا أنَّه زيَّن بمصابيح السماء الدُّنيا، بالكواكب وبالنجوم، ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]، ومعنى هذا أن كل ما نراه ونعرفه من هذه المصابيح أو النجوم هو في السماء الدُّنْيا الَّتي نراها، والَّتي يصل إلينا شعاعها بعد دقائق أو بعد سنين، أو بعد ملايين السنين الضوئية، بل يزعم العلماء اليوم أن بعض النجوم لم يصل إلينا شعاعها بعد، رغم ملايين السنين فيما يقولون، نحن لا نعرف إلَّا هذه السماء الدنيا.

هناك عالم فوق السماوات والأرض، والسماوات حتَّى الآن لا نعلم حقيقتها ما هي؟ ما السماوات؟ كان الجنُّ يصعدون إلى جهة السماء، فيركب بعضهم بعضًا إلى أن يدنو الأعلى، بحيث يسمع الكلام، فيُلقيه

QaradawiBooks.com

إلى الَّذي يليه، إلى أن يتلقاه مَن يلقيه فـي أُذن الكاهن، فيزيد فيه فلمَّا جاء الإسلام ونزل القرآن حُرست السماء من الشياطين، وأُرسلت عليهم الشُّهُب، فبقي من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ ـ ١٠]، وفي سـورة أخرى يقول: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

هذا الكون متسع جدًّا، كان النبي ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع، قال: «**اللهمَّ ربَّنا لك الحمد، ملءَ السماوات وملءَ الأرض، وملءَ ما بينهما، وملءَ ما شئت من شيء بعد**»[1]. هذا الكون الواسع، ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]، علمـاء الكون يقولـون: إن ما نُبصره من الكون المادي ثلاثة في المائة، وسـبعة وتسـعون في المائة من الكون المادي لا نُبصره، ليس عندنا وسائل لنبصره ونراه.

الله تعالى يقـول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]، وفي سورة الروم يقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، وفي سـورة آل عمـران: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]،

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٧٨)، وأحمد (٢٤٤٠)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

هذا الكون لم يُخلق باطلًا أبدًا إنَّما خُلق بالحق، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

الإنسان والحيوان وكل ما يدب على الأرض من الدواب:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [الشورى: ٢٩]، والدابة كل ما يدب على الأرض، وهذا يشمل الإنسان فهو دابة من الدواب، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فنحن داخلون ضمن الدواب الَّتي تدب على الأرض، وعلى الله رزقنا كما يرزق الحيوانات، وكما يرزق الدواجن، وكما يرزق الطيور أيضًا، لأن الطيور أيضًا تدبُّ على الأرض لأن الطائر يحلِّق بجناحيه في جو السماء ولكن يحتاج أن ينزل إلى الأرض ليلتقط الحب بمنقاره ويبحث عن رزقه ويشرب من الماء، فهو يدب على الأرض، إنَّما الملائكة لا تدخل في هذا.

ليست الملائكة من الدوابِّ:

الإمام الحافظ ابن كثير يقول: الملائكة والجنُّ والإنس كل هؤلاء من الدوابِّ[١]. وكان المفسِّرون القدامى يقولون بأنَّ الملائكة من الدوابِّ؛ لأنَّ الآية جاءت هنا بصيغة التثنية: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [الشورى: ٢٩][٢]، وليس في السماء دوابُّ، فيكون الَّذي يدبُّ في السماء هم الملائكة، وجعلوا الملائكة من الدوابِّ.

لا، لا يستقيم هذا، الملائكة ليست من الدواب؛ بدليل قوله تعالى

(١) تفسير ابن كثير (٢٠٧/٧).

(٢) انظر: تفسير مجاهد صـ ٥٩٠.

QaradawiBooks.com

في سورة النحل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩]، فجعل الملائكة غير الدواب، وهذا يوحي بأن في العوالم العلويَّة دوابًّا.

وبعضهم قال هذا على سبيل التغليب، غلَّب الأرض على السماء، ولكن نحن لا نرى مانعًا من ذلك، العلم الطبيعي والعلم الكوني الآن يقول: إنَّ هناك احتمالات للحياة في بعض الكواكب الَّتي نعتبرها من السماء حسب اللغة العربيَّة، يقولون: يمكن أن يكون المريخ فيه حياة أو الزهرة فيها حياة، وبعض هذه الكواكب، ونحن لا مانع عندنا، وظاهر الآية يدل عليه.

قدرة الله على حشر المخلوقات يوم القيامة:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]، حينما يشاء الله أن يحشر هذه المخلوقات كلها كما قال: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] يجمع الجميع في يوم الجمع لا ريب فيه، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦].

نزول المصائب بما كسبت أيدي الناس:

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، كأن هذا إشارة إلى أنَّ القحط الَّذي يصيب النَّاس حتَّى يقنطوا لا بدَّ أن يكون ذلك بما قدمت أيديهم، وبسبب سوء أعمالهم، فإن المصائب لا تنزل إلَّا بأعمال النَّاس، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

QaradawiBooks.com

الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، ما يصيبكم من ضر وبأس وأمراض وقحط وأشياء من هذا ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، بسبب سوء أعمالكم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، وهو لا يصيبكم بكل ما فعلت أيديكم، يقول: **وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾، ما أعظم فضل الله، ولذلك يقول: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ [الروم: ٤١]، لا يذيقهم بكل ما عملوا، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: ٦١]، ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨]، لا يؤاخذهم بكل كسبهم وسيئاتهم، ولا يؤاخذهم بكل ظلمهم، لأنَّه من شأنه أن يعفو عن كثير.

فهذا من فضل الله تبارك وتعالى، ولكن إذا تمادى النَّاس في الظلم والطغيان والفسوق والعصيان هنا تكون الحكمة الإلٰهيَّة تقتضي أن يؤدَّبوا وأن يعاقَبوا، ليس انتقامًا منهم ولكن كما قالت الآية: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، يعني هذا تذكير من الله لهم، تذكير للناسين، تنبيه للغافلين، تعليم للجاهلين، إذا رأوا المصائب تنزل بهم إذا كان عندهم شيء من العقل يفكرون به، يتفكرون في أمرهم، يراجعون مواقفهم، يراجعون حساباتهم، فلا بدَّ أن يغيِّروا سلوكهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

فالله ﷻ ينزل المصائب بسبب ما كسبت أيدي النَّاس ويعفو عن كثير، من فضل الله علينا أنَّه لا يعاقبنا بكل ما نعمل وإلا ما تركنا نحيا ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، حتَّى الحيوانات تهلك بشؤم معاصي

QaradawiBooks.com

الإنسان، فلو عاقبَنا بكل ما نعمل لم يُبقِ إنسانًا ولا حيوانًا، لأن هذه المخلوقات خلقت لخدمة الإنسان، فإذا الإنسان نفسه عصى واستحقَّ الهلاك كما هلك قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح فما قيمة أن تبقى الدواب والحيوانات بعد ذلك، ولذلك يقول: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠، ٣١]، أنتم لن تعجزوا الله تعالى، أنتم أعجز من ذلك، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ما أنتم بقادرين على أن تقاوموا الأقدار، أن تقاوموا القحط، أن تقاوموا الزلازل، أن تقاوموا البراكين، أن تقاوموا المصائب الَّتي تنزل، أنتم أعجز من ذلك، ولذلك الأولى أن تلجؤوا إلى القوي القدير، إلى العلي الكبير، أن تلجؤوا إلى ﴿مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، أن تلجؤوا إلى من أمره بين الكاف والنون، إذا أراد شيئًا يقول له كن فيكون، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، الأوْلى أن تلجؤوا إلى هذا الولي النصير، لأنكم إذا لجأتم إلى غيره ما لكم من دون الله من ولي ولا نصير، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [الشورى: ٣١].

نسأل الله تبارك وتعالى أن يكون ولينا ونصيرنا وأن يخفف عن هذه الأُمة وأن يرفع عنها الضر والبلاء والبأس، وألا يحاسبنا على سوء أعمالنا، اللهمَّ إنَّا عبيد إحسان لا عبيد امتحان، اللهمَّ لا تهلكنا بما فعل السفهاء منَّا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا، واعف عنَّا واغفرْ لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين، وصلى الله على سيِّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

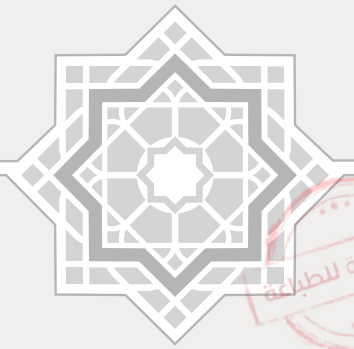
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



غير مرخصة للطباعة

من دروس التفسير

سورة الزخرف

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الأوَّل
موقف الجاحدين من رسالة النبيِّ الخاتم ﷺ

استمعنا إلى آيات من سورة الزخرف، وسورة الزخرف من «الحواميم» كما يسمِّيها القراء، الَّتي تبدأ بـ «حم»، وبعضهم يسميها «عرائس القرآن»، هذه السور تتحدث عن العقائد الإسلاميَّة من الألوهيَّة والرسالة والمعاد، وهنا تتحدث هذه الآيات عن موقف هؤلاء المشركين من رسالة النبي الخاتم مُحَمَّد ﷺ، وما أنزل الله عليه من الهدى والحق. هذه الرسالة الَّتي قامت البيّنات والدلائل القاطعة على صحتها، وأنها من عند الله، ولكن للأسف، هؤلاء النَّاس غرَّهم متاع الحياة الدُّنيا، فما كانوا فيه من متاع، وما كانوا فيه من غنى ومال، ألهاهم عن الحق، وشغلهم عن النظر في حقيَّة هذه الرسالة، ولذلك قال الله تعالى: مبيِّنًا موقف هؤلاء الجاحدين: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٩ ـ ٣٢].

متَّع الله هؤلاء بما متَّعهم به من المال والبنين والعمر من متاع الدُّنْيا كما متَّع آباءهم من قبل، وظلوا في هذا المتاع حتَّى جاءهم الحق ورسول مبين.

QaradawiBooks.com

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩]، الحق هو: الإسلام، أو هو القرآن الَّذي أنزله الله على عبده ورسوله مُحَمَّد ﷺ، فهو كتاب حق، ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، بل هو الحق بعينه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١]، وقال سبحانه: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]، فالقرآن هو الحق وهو الهادي إلى الحق.

غير مرخصة للطباعة

الرسول المبين:

﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩]، الرسول المبين هو: مُحَمَّد ﷺ، مبين أي بيِّن واضح بما أنزل الله عليه من البينات، رسالته واضحة بيِّنة، قامت الأدلَّة المتكاثرة على أحقيتها، فهو رسول الله حقًّا دلت على ذلك سيرته الطاهرة العاطرة، دلت على ذلك الآيات الكونيَّة الَّتي لا تُحصى، دل على ذلك ما أنبأ به من غيوب تحققت ولا زالت تتحقق، دل على ذلك ما أجاب الله من دعوات، دلَّ على ذلك أعظم آياته وهو القرآن الكريم، هو رسول بيّن الرسالة، قامت الأدلَّة على صدق هذه الرسالة، هو بيِّن ومبين فيما يدعو إليه، أنَّه جاء بالكتاب المبين وبالرسالة الواضحة البيِّنة، سمى الله هذه الرسالة نورًا، ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩]، وكان مقتضى ذلك أن يؤمن النَّاس بهذا الحق الَّذي جاء وبهذا النور الَّذي بدا، ولكنَّهم وقفوا موقفًا آخر للأسف.

نسخة مجانية

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٠]، ما أسرع ما تنكَّروا لهذا الحق وكذَّبوه وعاندوه، وقالوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾،

QaradawiBooks.com

لم يجدوا شيئًا يقولونه إلَّا أن يقولوا: إنَّه سحر يؤْثر بعد أن قال قائلهم: إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمُغْدِق، وإنَّه يعلو ولا يعلى، وإنَّه ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن.. إلى أن قال: إنَّه سحر يؤثر[1]، كما أشار القرآن إلى ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٨ ـ ٢٥].

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٠]، نكفر به ونجحده، ومعنى هذا: أنَّهم لا يؤمنون بهذا الكتاب الَّذي أنزله الله ﷻ، ولا يؤمنون بأنَّه حق، ولكنَّهم سرعان ما نُكسوا على رؤوسهم ونَكصوا على أعقابهم، وقالوا قولة أخرى، قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

معنى هذا أنَّ العيب ليس في القرآن المنزَّل، ولكن في الشخص المنزَّل عليه، العيب في النبي المنزَّل عليه القرآن، لقد قلتم من قبل: إنَّه سحر، والآن تقولون: لا عيب فيه، وإنَّما العيب فيمن أُنزل عليه، فهذا القرآن عظيم وشريف، كان ينبغي أن ينزل على رجل عظيم وشريف من أصحاب القريتين تكافئ عظمته عظمة هذا القرآن، وشرفه شرف هذا الكتاب؟!

والقريتان هما مكَّة والطائف، فالقرآن حين يتحدث عن القرية، لا يقصد بها ما نقصده نحن، فالقرية في مصطلحاتنا هي: البلدة الصغيرة. وفي القرآن: القرية هي المدينة، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]، وقد كانوا في مصر، في عاصمة مصر. وسمَّى الله مكَّة: أم القرى.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

---

(١) رواه الحاكم في التفسير (٥٠٦/٢)، وصحَّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، والبيهقي في دلائل النبوة (١٩٨/٢)، وجود إسناده العراقي في تخريج الإحياء صـ ٣٢٤، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

أي من مكَّة أو الطائف، وعنوا بالعظيم الَّذي قصدوا إليه: الوليد بن المغيرة في مكَّة، أو عروة بن مسعود الثقفي في المدينة، وهما من ذوي المال والثراء والجاه، فالعظمة عندهم تتمثل في المال والجاه، والمنظر الرائق عند النَّاس، والعزوة، ووجود النَّاس حوله. هذه هي العظمة.

والوليد بن المغيرة، هو الَّذي أنزل الله فيه قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۞ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۞ وَبَنِينَ شُهُودًا ۞ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۞ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۞ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ۞ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١١ ـ ١٧]. وهو والد خالد بن الوليد.

فهم يريدون رجلًا صاحب مال وثراء ومنزلة وجاه.

مقياس العظمة الحقيقيَّة:

وصدقوا، إنَّ الكتاب العظيم يجب أن ينزل على رجل عظيم، ولكن ما العظمة؟ لقد أساء هؤلاء النَّاس تقدير العظمة، لقد وزنوها بالميزان المادي البحت، حسبوا أقدار الرجال بما يملكون من مال وما عندهم من بنين، ولذلك قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، مكَّة أو الطائف، عظيم من عظمائها المعدودين أصحاب المال والثراء والجاه من أمثال الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة في مكَّة، ومن أمثال عروة بن مسعود الثقفي أو ابن عبد ياليل في الطائف، هؤلاء هم العظماء، العظماء عندهم هم أصحاب الأموال والبساتين والعقارات، أمَّا مُحَمَّد الَّذي نشأ يتيمًا وعاش فقيرًا وليس من أصحاب الثراء المعروف فليس عظيمًا في نظرهم، لقد ساء تقديرهم، وكبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون كذبًا.

QaradawiBooks.com

لقد أخطأ هؤلاء فهم العظمة حقيقة، فهموا أن عظمة الإنسان في ماله وجاهه، وهذه لا تُكسب الإنسان عظمة، والله يقول: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. ولذلك جعل الله الأنبياء ذوي عُقول ناضجة، وذوي إرادات سابقة، وذوي أخلاق فاضلة، وبهذا يتفاضل النَّاس، لا بالأموال ولا بالجاه، فإن الله يعطي الدُّنْيا من يحب ومن لا يحب، ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

فليس المال دليل العظمة، ولا الجاه، والمنزلة الاجتماعيَّة، ولا المركز السياسي والاقتصادي، كل هذه الأشياء ليست دليلًا للعظمة، وإنَّما تنبع العظمة من النفس البشريَّة نفسها، فالإنسان العظيم تنبع عظمته من نفسه ومن أخلاقه ومن عقله، ومن علمه، ولذلك وصف الله محمدًا ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٤]، هنا تتجلى العظمة حقًّا، عظمة في الأخلاق، والرسل جميعًا، اختارهم الله من خيار النَّاس، من أفاضل النَّاس، ليقوموا بالرسالة.

صفات الرسل الأربع:

ولذلك قال العلماء: يشترط في الرسل صفات أربع: الصدق، والأمانة، والتبليغ، والفطانة.

«الصدق، والأمانة» من الناحية الأخلاقيَّة. و«التبليغ»: ليكون قادرًا على تبليغ دعوته بالفصاحة وحسن التعبير، و«الفطانة»: الذكاء وحسن التصرف، ووضع الأمور في مواضعها بحكمة. وهكذا كان الأنبياء جميعًا صلوات الله عليهم أجمعين.

QaradawiBooks.com

ولمحمد ﷺ النصيب الأوفى، والقِدْح المُعلَّى، وهذا معقول؛ لأن كل رسول بُعث إلى قومه، كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود: ٢٥، المؤمنون: ٢٣، العنكبوت: ١٤]. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ [البقرة: ٥٤]، ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]، ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦]، ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الصافات: ١٢٣، ١٢٤].

فكلُّ نبيٍّ أرسل إلى قومه فقط، أمَّا النبي ﷺ، فقد بُعث للعالمين، بُعث للنَّاس كافَّة، كما قال الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال النبي ﷺ: «**وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصَّة، وبعثت إلى النَّاس كافة**»[(١)].

إعداد الرسول ﷺ للرسالة العامَّة الخالدة:

فما دام أنَّ هذا الرسول سيكون مبعوثَ الله للعالمين، كان لا بدَّ أن يعده الله ويهيِّئه، لتحمُّل هذه الرسالة العامَّة في المكان، والعامَّة في الزمان أيضًا، لأنَّه ليس بعد مُحَمَّد نبيّ، ولا بعد القرآن كتاب، ولا بعد الإسلام شريعة، ولا بعد أُمَّة محمَّد أُمَّة، فهي الأُمَّة الخاتمة والرسالة الخاتمة.

فهذا الرسول الَّذي أُوتي هذه الرسالة العامَّة الخالدة، لا بدَّ أن يمنحه الله من المواهب والقُدر والملكات والطاقات، ما يكافئ هذه الرسالة.

(١) رواه البخاري في الصلاة (٤٣٨)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢)، عن جابر بن عبد الله.

QaradawiBooks.com

ومن هنا كان مُحَمَّد ﷺ أفضل النَّاس، وأعظم النَّاس، في أخلاقه، واستعداداته، وملكاته، ومواهبه، العقليَّة والروحيَّة، بعض النَّاس يظن أنَّ النبيَّ ﷺ، هو فقط يُوحى إليه. يتصرف بالوحي، وكأنَّه ليس له شأن. وهذا خطأ، فهو نعم يُوحى إليه، لكن له تصرفات واجتهادات، يجتهدها بعقله ورأيه وحكمته، ولذلك وجدنا من المسلمين من يؤلفون في هذه العظمة المحمَّديَّة، فالعقاد رَحِمَهُ اللَّهُ ألَّف كتابًا سمَّاه «عبقرية محمد»، وأراد أن يقول: إن محمدًا رسول ونبيٌّ يُوحى إليه، ومع ذلك هو عبقري من العباقرة في العالم، وذكر عبقرية مُحَمَّد في أمور حياته كلها، عبقرية مُحَمَّد الزوج، الأب، المدير، الرئيس، الصديق، القائد، حتَّى إنَّه عقد مقارنات بين مُحَمَّد ﷺ، وبين نابليون، الَّذي اشتهر في العالم بقيادته العسكريَّة، وبعبقرياته وانتصاراته.

ووجد أن محمدًا ﷺ أفضل في كثير من المجالات من نابليون، مع أن محمدًا ﷺ، قبل أن يخوض هذه الحروب، لم تكن له تجربة بذلك، فلم يحضر حربًا أبدًا، إلَّا وهو صغير، حضر حربًا تُسمى «حرب الفِجار» كانت بين قريش وكنانة.

ورأينا حتَّى من العسكريين، مثل اللواء الركن محمود شيت خطاب العراقي، ألَّف كتابًا سماه «الرسول القائد»، وألَّف اللواء جمال الدين محفوظ من العسكريين في القاهرة عن عبقريات الرسول في غزواته، وألَّف الكثيرون عن جوانب العظمة من حياة النبي ﷺ.

الرسول مُحَمَّد ﷺ هو القمة في كل ناحية:

وإنك إن أردت التحدث عن الرسول القائد، أو الرسول الداعية، أو الرسول المعلم، أو الرسول الأب، أو الرسول القاضي، أو الرسول الرئيس أو السياسي.. ستجد أنَّه ﷺ هو القمة في كل ناحية.

QaradawiBooks.com

وأحد الغربيين ألَّف عن المائة العظماء في التاريخ، وجعل الأوَّل هو مُحَمَّد ﷺ، مع أنَّه ليس مسلمًا، لكنَّه حينما قاس بمقاييسه البشريَّة، الَّتي يُقاس بها العُظماء، فوجد أن محمدًا هو الأوَّل في عظماء التاريخ.

ولكن هؤلاء المساكين، الَّذين قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، نظروا إلى مسألة واحدة فقط، هي المال والجاه، إنَّما الإسلام لا ينظر إلى عظمة النَّاس بالمال، ولا بالجاه، ولا بالأجسام الضخمة، وفي الحديث الصحيح: «**إنَّه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة**»، وقال: «**اقرؤوا**: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥][1]. قال الله عن بعض المنافقين، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤] فالمسألة ليست بالأجساد.

فعبد الله بن مسعود كان من عظماء الصحابة، ومن أئمَّة العلم والهدى، ولكنَّه كان نحيفًا نحيلًا، صعد شجرة يومًا ليأتي لرسول الله بسواك من أراك، وكان في ساقيه دقة، فضحك القوم، فقال النبي ﷺ: «**ما يضحككم من دقَّة ساقيه، والَّذي نفسي بيده إنَّهما أثقل في الميزان من أحد**»[2].

فالأمور ليست بالمهن، ولا بالحرف، ولا بالأموال، فرسول الله ﷺ يقول: «**ربَّ أشعثَ مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبَرَّه**»[3].

وفي الحديث الصحيح عند البخاري، أن رجلا مرَّ على رسول الله ﷺ، فقال: «**ما تقولون في هذا؟**» قالوا: حَرِيٌّ إن خطب أن

---

(١) سبق تخريجه صـ٤٧٩.

(٢) سبق تخريجه صـ٤٧٩.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

ينكح، وإن شفع أن يُشَفَّع، وإن قال أن يُسْتمع. قال: ثمَّ سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين، فقال: «**ما تقولون في هذا؟**» قالوا: حريٌّ إن خطب ألَّا ينكح، وإن شفع ألَّا يُشَفَّع، وإن قال ألَّا يستمع. فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا**»[1].

هذا الَّذي تحتقرونه لفقره، وقلة ماله، هو خير عند الله من ملء الأرض مثل هذا.

فبهذا يُقاس النَّاس، لا بما له من رصيد، كم مليون.. أو كم قصر من القُصور، أو كم عنده من الخدم والحشم، أو كم وراءه ممَّن يطوف به ويلوذ به، وكم.. وكم.

الله سبحانه يوزع رحمته وهباته وفضله على من يشاء من عباده:

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، القرآن يرد عليهم ويقول: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، أهم يتولون قسمة رحمة الله بين العباد ويوزعونها على من يشاؤون حسب أهوائهم؟ إنَّهم ليسوا أهلًا لذلك، لأنَّهم لا يعرفون من يستحق رحمة الله ممَّن لا يستحقها، من يستحق فضل الله ممَّن لا يستأهله، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، أعطى هذه الرسالة لأعظم رجل كان يستحقها، الله أعلم بالشاكرين، ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

---

(١) رواه البخاري في النكاح (٥٠٩١)، عن سهل بن سعد الساعدي.

QaradawiBooks.com

الله يعطي منصب الرسالة من هو أهل له، وليس هناك أحد أولى بهذه الرسالة الخالدة العظيمة من مُحَمَّد ﷺ، الله هو صاحب الحق وحده في أن يوزع رحمته وهباته وفضله على من يشاء من عباده، ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

تسخير التنظيم والإدارة:

وكما قسَّم رحمته المعنويَّة على من يشاء من عباده، واختص برحمته من يشاء، كذلك قسَّم رحمته الماديَّة ونعمه الماديَّة، ولذلك قال: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الزخرف: ٣٢]، المعيشة، الأموال، الأمور الماديَّة قسَّمها الله بين عباده، ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ [الزخرف: ٣٢]، جعلنا هذا أغنى من هذا، هذا يملك أكثر من هذا، لماذا؟ لأن نظام الكون يقوم على هذا الأساس، ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾ [الزخرف: ٣٢]، أي: ليسخر بعضهم بعضًا.

وهذا التسخير ليس تسخير القهر والإذلال، وإنَّما هو تسخير التنظيم والإدارة، فالحياة كمصنع كبير، المصنع فيه المدير العام، وفيه نائبه، وفيه رؤساء الأقسام، وفيه المهندسون، وفيه مساعدو المهندسين، وفيه العمال المهرة، وفيه العمال غير المهرة، وفيه الحارس، وفيه الخفير، وفيه الكنَّاس، وكل هؤلاء يقوم بهم المصنع، لا يقوم بالمدير وحده، ولا بالمهندس الكبير وحده، الكل يساهم، وكل واحد يسخر من دونه، ولكن لينتظم الجميع وليس ليقهره أو يذله، لا، ما يريد الإسلام أن يقهر أحد أحدًا، أو يذل أحد أحدًا.

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾ [الزخرف: ٣٢]، وأشارت آية أخرى لأن هذا من الابتلاء الَّذي قام عليه هذا الوجود: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ [الأنعام: ١٦٥]،

QaradawiBooks.com

أي: ليمتحنكم الله ويختبركم فيما آتاكم من نعم وأموال ليعرف من يشكر ومن يكفر، ومن يتبع ومن ينكص على عقبيه، ومن يطيع الله تعالى ومن يعصيه.

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، وليس معنى هذه الآية وما شابهها أن بعض النَّاس يَفضُل بعضهم بعضًا بحيث إنَّ ناسًا يملكون الملايين والبلايين والآخرون لا يملكون قوت يومهم، ما يريد الإسلام هذا، لأنَّ هذا ليس من التفضيل في شيء، معنى فضَّل بعضكم على بعض أنَّ الجميع يشتركون في شيء واحد، ولكن بعضهم أفضل من بعض، لا يقال العسل أفضل من البصل، لا بدَّ أن يكون هناك قدر مشترك بين المفضَّل والمفضَّل عليه، أي أنَّ الجميع يملكون ولكن بعضهم يملك أكثر من بعض، هذا ما يريده الإسلام، الإسلام يريد العدالة وإقامة التكافل في الحياة.

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، رحمة الله ورزقه الروحي خير من كل هذه الدُّنْيا الَّتي يجمعها النَّاس، فإنَّها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولذلك قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

نسأل الله ﷻ أن يفقهنا في كتابه، وأن يجعلنا من عباده ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]، إنَّه سميع قريب، وصلى الله على سيِّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

QaradawiBooks.com

الدرس الثاني
الاستمساك بالوحي والحرص على الصحبة الصالحة

نقف في هذه الليلة الكريمة مع آيتين ممَّا استمعنا إليه من هذه السورة الكريمة سورة الزخرف.

الوقفة الأولى مع قول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤].

المسلم كما يعتز بانتمائه إلى الإسلام، ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، ويعتز بانتمائه إلى «الأمة الوسط»، ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، يضيف المسلم العربي إلى هذا الاعتزاز اعتزازًا آخر، بأنَّه ينتمي إلى أهل رسول الله ﷺ ويتكلم بلغة القرآن، يفهم عن الله ورسوله دون ترجمان، ويعيش في أرض تُعتبر مأرز الإسلام، ومعقله، قريبًا من مقدسات الإسلام، ومساجد الإسلام الكبرى، الَّتي لا تُشَد إلَّا إليها الرحال، وفي هذا يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤].

معنى قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أي: فخر وشرف ومجد وعز لك وَلقومك، تذكركم به الأمم. ويقول سبحانه: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا

QaradawiBooks.com

فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠]، أي فيه شرفكم وفخركم ومجدكم وعزكم تذكرون به أبدًا.

ينبغي أن يكون اعتزاز العربي المسلم بالإسلام قبل أي شيء آخر، قبل العرق والقبيلة، والإقليم والطبقة، وأن ينشد مع العربي القديم:

أَبِي الإسلامُ لا أبَ لي سواهُ إذا افتخروا بقَيْسٍ أَوْ تَمِيمِ[1]!

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].

وإنَّما كان لهذا القول: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ قيمة، لأنَّه يقوله معتزًّا مغاليًا بمبدئه، مباهيًا بدعوته، كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٣].

والوقفة الأخرى مع قول الله ﷻ: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

الأخلاء جمع خليل، الخليل: الصديق، الصادق، الصاحب، ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥]، يقول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذًا خليلًا غير ربي، لاتخذت أبا بكر خليلًا**»[2]. فخليل الإنسان من تخلل محبتك في قلبه.

---

(١) من شعر نهار بن توسعة اليشكري، كما في الكامل في اللغة والأدب (١٣٣/٣).

(٢) متّفق عليه: رواه البخاري في أصحاب النبي ﷺ (٣٦٥٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٢)، عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

يوم القيامة يوم الفرديَّة والأنانية:

يوم القيامة لا خُلة فيه ولا شفاعة، لا أحد ينفع فيه أحدًا، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۞ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧]، يوم الفرديَّة، الأنانية البحتة في هذا اليوم، لا أبوة ولا بنوة ولا أخوة ولا زوجيَّة، كل واحد يقول: نفسي.. نفسي، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

يوم القيامة الأصل فيه أنَّه يوم الفرديَّة، ولكن مع هذا الخليل المؤمن التقي ينفع خليله، الأخلاء من غير أهل التَّقوى لا ينفع بعضهم بعضًا، كل واحد يهرب من الآخر، يفر منه كما يفر السليم من الأجرب، وليس فقط يفر منه، بل بعضهم لبعض عدو، ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ صاحبك الَّذي كان في الدُّنْيا يصابحك ويماسيك، ويراوحك ويغاديك، ويؤاكلك ويشاربك، هذا الشخص يوم القيامة يعاديك، كما قال سيِّدنا إبراهيم: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، ويتبرأ بعضهم من بعض، الأتباع والمتبوعون كل واحد يحاول أن يلقي المسؤوليَّة على الآخر، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

كل الَّذين عاشوا في الدُّنْيا من أجل أوثان يعبدونها، أو شهوات يتبعونها، جمعتهم الشهوات في الدُّنْيا تفرقهم في الآخرة، جمعتهم

QaradawiBooks.com

المصالح في الدُّنْيا في الآخرة تشتتهم، الَّذين كانوا يجتمعون على المصالح، على الشهوات، على الموائد الخضراء، على الليالي الحمراء، على هذه الأشياء في الدُّنيا، هؤلاء يعادي بعضهم بعضًا، أين الصداقة؟ أين الخُلة؟ أين المودة؟ هذا كله ذهب، يعادي بعضهم بعضًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ من الحسرة والندم ﴿يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨]، أي: ليتني لم أصاحب فلانًا! هو الَّذي أرداني في النار. كم من صاحب يقودك إلى جهنم! وكم من صاحب يقودك إلى الجنَّة، فالصاحب ساحب. كما يُقال.

الأصدقاء ضرب لهم النبي ﷺ مثلين: «**مَثَلُ الجليسِ الصالح والسوء، كحامل المِسْكِ ونافخِ الكِير، فحاملُ المِسْكِ إمَّا أن يُحذِيَك، وإمَّا أن تبتاع منه، وإمَّا أن تجد منه ريحًا طيبة. ونافخ الكير إمَّا أن يحرق ثيابك، وإمَّا أن تجد ريحًا خبيثة**»[1] فاحذرْ إذنْ من جليس السوء ومن صاحب السوء، واحرص على الصاحب الَّذي يدلك على الله رؤيته، ويذكِّرك بالله كلامه، ويسوقك إلى الخير عمله، هو أسوة لك، تستفيد من عمله، احرص على هذا الإنسان، هو الَّذي ينفعك في الدُّنْيا والآخرة. كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه يقول: استكثروا من إخوان الخير؛ فإنَّهم ينفعون في الدُّنْيا وفي الآخرة، ألا ترون قول أهل النَّار ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

إنَّما أخو الخير وصديق الخير ينفعك في الدُّنْيا والآخرة، لأنَّه لم يرتبط بك من أجل مصلحة ماديَّة، إنَّما ارتبط بك لله وفي الله، وما كان لله

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الذبائح والصيد (٥٥٣٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٨)، عن أبي موسى.

QaradawiBooks.com

دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل، ولذلك من السبع الَّذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلَّا ظله: «**رجلان تحابَّا في الله** ﷻ، **اجتمعا عليه وتفرَّقَا عليه**»[١].

ليس معنى «رجلان» أنَّ النساء خارجة عن الموضوع؛ «رجلان» يعني: اثنان، يمكن لامرأتين أن تتحابا في الله وتتآخيا في الله، الحب في الله للرجال وللنساء.

معنى الحبِّ في الله:

الحبُّ في الله أن تحبَّ الشخصَ لا تحبُّه إلَّا لله، لا تحبه لدنيا تُصيبها، ولا لمنفعة تحصِّلها من ورائه، أو مغنم يأتيك منه، كما قال يحيى بن معاذ: الحبُّ في الله لا يزيده البرُّ ولا ينقصه الجفاء[٢]. لو كنت تحبُّ في الله فلا يزيد الحب إذا زارك، وإن لم يزرك لم ينقص شيء، لأنَّك لم تحب من أجل الزيارة، أنت أحببت لله، أحببتَ لأنَّه إنسان يطيع الله، يحب الله، يدعو إلى الله، يجاهد في سبيل الله، أنت أحببته لأجل هذا سواء زارك أم لم يزرك، هذا معنى الحب في الله.

منزلة الحبِّ في الله:

الحب في الله منزلة عظيمة، «**أوثق عرى الإيمان الحبُّ في الله والبغض في الله**»[٣]، أن تحب في الله وأن تبغض لله، هذان الأمران لا بدَّ منهما، لا يستكمل الإيمان إلَّا بهذا. كما جاء في الحديث عن النبيِّ ﷺ:

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، عن أبي هريرة.

(٢) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (٤٣/٢).

(٣) رواه أحمد (١٨٥٢٤)، وقال مُخَرِّجوه: حديث حسن بشواهده. وأبو داود الطيالسي (٧٨٣)، عن البراء بن عازب.

QaradawiBooks.com

«**من أحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[١]. من فعل ذلك فقد استكمل الإيمان.

ويقول ﷺ: «**ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان.. وذكر منهن: أن يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلَّا لله**»[٢]. وحدَّث النبي ﷺ أصحابه عن قوم يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة، بمكانهم من الله تعالى، فقال الصحابة: يا رسولَ الله: أخبرنا من هم. قال: «**هم قوم تحابُّوا برُوح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموالٍ يتعاطونها، فوالله إنَّ وجوههم لنور، وإنَّهم على نور، لا يخافون إذا خاف النَّاس، ولا يحزنون إذا حزن الناس**». ثمَّ قرأ قول الله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢][٣].

أحبَّ بعضُهم بعضًا لله؛ فلذلك كان الله معهم، النبيُّ ﷺ يقول: «**قال الله ﷻ: وجبت محبَّتي للمتحابِّين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين والمتباذلين فيّ**»[٤].

ويقول ﷺ: «**من عاد مريضًا أو زار أخًا له في الله، ناداه مناد من السماء أن طبتَ وطاب ممشاك، وتبوَّأت في الجنَّة منزلًا**»[٥].

---

(١) رواه أبو داود في السُّنَّة (٤٦٨١)، والطبراني (١٣٤/٨)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٢٩): حسن صحيح. عن أبي أمامة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) كلاهما في الإيمان، عن أنس.

(٣) رواه النسائي في الكبرى في التفسير (١١١٧٢)، وابن حبان في البر والإحسان (٥٧٣)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٢٣): صحيح لغيره. عن أبي هريرة.

(٤) رواه أحمد (٢٢٠٣٠)، وقال مُخَرِّجوه: حديث صحيح. والترمذي في الزهد (٢٣٩٠)، وقال: حسن صحيح. وابن حبان في البر والإحسان (٥٧٥)، وصحَّح إسناده في رياض الصالحين (٣٨٢)، عن معاذ بن جبل.

(٥) رواه أحمد (٨٥٣٦)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في البر والصلة (٢٠٠٨)، =

QaradawiBooks.com

وفي صحيح مسلم: «**أنَّ رجلًا زار أخًا له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته ملكًا، فلمَّا أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها؟ قال: لا، غير أنِّي أحببته في الله ﷻ. قال: فإنِّي رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته**»[1].

فمحبَّة الله للمتحابِّين فيه، وللمتجالسين فيه، وللمتزاورين فيه، وللمتباذلين فيه، كلُّ واحد منهم يبذل لله، وهذا شأن الصديق الحقِّ، كما قال الشاعر الصالح:

إنَّ أخاك الصدقَ من كان معك ... ومن يضرُّ نفسَه لِيَنْفَعَكْ
ومَن إذا رَيْبُ الزمانِ صَدَعَكْ ... شَتَّت فيك شَمْلَه ليَجْمَعَكْ[2]

من صور الإيثار:

هذا هو أخو الصدق، لا يهرب منك ساعة الشدة، تجده معك، يفديك بنفسه، يتعب لترتاح، يعرض نفسه للرصاص ليحمي أخاه، كما كان المسلمون في الزمن الأول.. كل واحد يحاول أن يفدي أخاه. في إحدى معارك الفتح الإسلامي، أصيب جماعة من المجاهدين بجراح، والمجروح يكون ظمآنا إلى الماء عند ساعة الموت، واحد سمع الأنين فذهب إليه معه القدح، ليشرب المجروح، فسمع إلى الجوار منه أخًا ينادي في نزعات الموت الأخيرة، فقال له: اذهب إلى أخي هذا لعله

= وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الجنائز (١٤٤٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٤٥)، وابن حبان في الجنائز (٢٩٦١)، وحسَّنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١٨٤)، عن أبي هريرة.

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٧)، وأحمد (٩٢٩١)، عن أبي هريرة.

(٢) من شعر أبي العتاهية. انظر: أنس المسجون وراحة المحزون صـ ١٧٢، تحقيق محمد أديب الجادر، نشر دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

أحوج مني، فذهب إليه، فقال له: أسمع بجواري أنين أخ، لعله أشد منِّي عطشًا، فاذهب إليه، واستمرَّ هكذا حتَّى ذهب إلى السابع، فوجد السابعَ مات، فرجع إلى الأوَّل ووجده مات، وذهب إلى الثاني فوجده ميتًا، كلهم ماتوا عطاشًا، وكل واحد يؤثر أخاه بشربة الماء على نفسه.

هذه هي الأُمَّة الَّتي انتصرت على العالمين، على كسرى وقيصر، على الفرس والروم.. على أعتى قوتين في العالم، بهذه النفسية، بهذه الشخصيَّة المسلمة المؤثرة، ليس الإنسان الأناني، لا، كل واحد يؤثر أخاه على نفسه ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] هؤلاء الَّذين تحابوا بروح الله ﷻ على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، هم يكونون يوم القيامة وجوههم نور، ولباسهم نور، وهم على نور، ويفزع النَّاس يوم القيامة وهم لا يفزعون، وهم على يمين الرحمن ﷻ وكلتا يديه يمين، يظلهم الله في عرشه يوم لا ظلَّ إلَّا ظلُّه.

وتظل هذه المحبة معهم حتَّى يدخلوا بها الجنَّة، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، ليسوا متدابرين، الَّذين يكرهون بعضهم بعضًا، كل واحد منهم يدبر للثاني، إنَّما الَّذين يتحابون كل واحد منهم ينظر إلى أخيه.

من أجل هذا أنا أقول دائمًا في الرمضانات المختلفة، أوصي إخوتي المصلين وأقول بعد ختام الصلاة: تعرَّفْ على إخوانك من حولك، اكسب أخًا لك في الله، حاولْ أن تحب أخًا لك في الله، أنت عرفته في المسجد، عرفته في رحاب الإيمان، في رحاب هذا الشهر الكريم، في رحاب هذه النيّات الطيبة والعمل الصالح المرجو إن شاء الله، في صلاة القيام، في دروس رمضان، في هذه التراويح. تعرَّفْ على إخوانك في

QaradawiBooks.com

الله، فإنِّي لأرجو أن يكون رواد هذا المسجد على خير، أرجو أن يكونوا من المغفور لهم.

تتحابوا أيُّها الإخوة فـــي الله، وقوُّوْا هذه الصلة، وأديموها.. اجعلوها مستمرة حتَّى بعد انقضاء رمضان، ليس هناك أفضل من الأخوة في الله، من المحبة في الله، من أن تجتمع مع إنســـان على الله. النَّاس في الدُّنْيا يجتمعون على الباطل، فما أحوجنا أن نجتمع على الحق! والحق هو هذا الإسلام، هو هذا الدين، هو هذا القرآن، هو هذه السُّنَّة، هو هذا الإيمان.

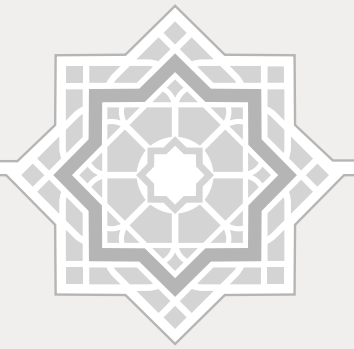
* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



غير مرخصة للطباعة

من دروس التفسير

سورة الأحقاف

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

وصيَّة الله تبارك وتعالى بالوالدين من سورة الأحقاف[1]

نقف ـ أيُّها الإخوة ـ فيما استمعنا إليه الليلة عند آيتين من سورة الأحقاف، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٥، ١٦].

تكرر الوصيَّة بالوالدين في القرآن:

كثيرًا ما تكررت وصيَّة الله تبارك وتعالى لعباده بالوالدين، كما في سورة لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، وكما في سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨]، وهنا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾.

(١) من دروس تراويح ١٤٢٤هـ.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

جاءت بصيغة الوصيَّة، وجاءت بصيغة الأمر أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، وجاءت بصيغة القضاء والحكم، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وكثيرًا ما تأتي الوصيَّة بالوالدين بعد الحديث عن توحيد الله تبارك وتعالى والإيمان به وحقه على عباده، كما جاء فيما قبل هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣]، ثمَّ قال تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًا﴾.

الطفولة الإنسانيَّة:

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، من حيث هو إنسان ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾، فمن خصائص الإنسان: أنَّه يحتاج إلى الرعاية في الكبر كما يحتاج إلى الرعاية في الصغر، الطفولة الإنسانيَّة أطول الطفولات، الحيوانات كلها تلد، ولكن الَّذي يولد من الحيوانات لا يحتاج إلى رعاية كما يحتاج الطفل البشري، البقرة تلد العجل فينزل من بطنها يمشي على قدميه وينتهي الأمر.

كذلك الكتكوت، يقولون: الكتكوت الفصيح من البيضة يصيح، مجرد ما يطلع الكتكوت من البيضة يأكل ويشرب وهكذا، أمَّا الإنسان فهو الَّذي يحتاج إلى هذه الرعاية الطويلة، طفولة مبكرة وطفولة متأخرة، ينزل من بطن أمه ليس له سن تقطع، ولا يد تبطش، ولا قدم تسعى، ولا عقل يميز، هو في حاجة إلى رعاية أبويه.

ربنا أراد هذا ليظل في حضانة الأبوين مدَّة طويلة يُعَلِّمانه ويُعَوِّدانه، الإنسان يتعلَّم شيئًا فشيئًا، يتعلَّم أولًا كيف يحبو، ثمَّ كيف ينهض أو يقف، ثمَّ كيف يمشي شيئًا فشيئًا، وعندما يمشي يفرح الوالدان، ثمَّ يعود النطق والكلام والعادات وهكذا.

QaradawiBooks.com

معاناة الأمِّ أكثر وأثقل:

فالطفولة الإنسانيَّة تحتاج إلى رعاية طويلة، وخصوصًا التعب الأكبر والمعاناة الأثقل للأم، الأبوان كلاهما يتعب، هذا يتعب في الخارج وهذا يتعب في الداخل، ولكن الأم تتحمَّل أكثر، ولذلك هنا قال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، مشقة، وفي السورة الأخرى يقول: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]، ضعفًا على ضعف، ومشقّة على مشقّة، وشدّة على شدّة.

الحمل والوحم، والوضع وآلام الوضع شيء صعب، لو كنتَ متزوجًا وحضرتَ امرأتك ساعة تلد، وهي تصرخ عندما يصيبها الطلق، وكأنَّها تقول: لن أعود لتلك المصيبة مرَّة أخرى، ولكنَّها بعد أن تلد وترى ابنها يلعب أمامها تفرح به، وتنسى المعاناة، وتريد ولدًا ثانيًا وثالثًا ورابعًا، وتسمي النساء هذه المتاعب: الهم المنسي. وتلك حكمة الله وسنته.

روى الإمام البزار أنَّ رجلًا كان يحمل أمه على كتفيه ويطوف بها الكعبة، حملها لعجزها عن المشي، ولا يوجد كرسي متحرك كما يوجد الآن، وطاف بأمه سبعة أشواط، ثمَّ جاء عند النبي ﷺ وقال يا رسولَ الله هل أديتُ حقها؟ قال: «**لا، ولا بزفرة واحدة**»[1].

لا يساوي هذا زفرة من زفرات الطلق، أو صرخة من صرخات الوضع، وجاء رجل إلى سيِّدنا عمر وقال له: لقد بلغ من بري بأمي أن أصبحتُ أعمل لها ما كانت تعمل لي وأنا طفل رضيع، حتَّى إنَّها تقضي حاجتها وظهري لها مطيَّة، فهل تراني أديتُ حقها؟ قال له: لا، لأنَّك

(١) سبق تخريجه صـ٢٣٣.

QaradawiBooks.com

تفعل بها ذلك وتنتظر موتها غدًا أو بعد غد، ولكنَّها كانت تفعل بك ذلك وتتمنَّى لك عمرًا طويلًا[١].

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، في آية سورة لقمان يقول: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، فطامه في عامين كما قال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فالحمل والفصال كلاهما في ثلاثين شهرًا، سنتان ونصف، ومن هاتين الآيتين أخذ سيِّدنا علي بن أبي طالب أنَّ أقلَّ الحمل ستَّة أشهر، ما دام الفصال في عامين، والحمل والفصال ثلاثون شهرًا، فبقي ستَّة أشهر هي أقل مدَّة للحمل، ويكون قد دخل في شهره السابع، فيمكن أن يحدث الحمل ويعيش.

سر عناية الإسلام بالأمِّ:

كان الحديث في الوصيَّة بالوالدين أكثر عن الأمِّ، ولذلك يقول العلماء: الأمُّ لها ثلاثة أرباع البرِّ، الربع للأب والثلاث أرباع للأم، وأخذوا هذا من الحديث الَّذي يقول: أنَّ رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، من أحقُّ النَّاس بحُسْن صحابتي؟ قال: «**أمُّك**» قال: ثمَّ من؟ قال: «**ثُمَّ أمُّك**» قال: ثمَّ من؟ قال: «**ثُمَّ أمُّك**» قال: ثمَّ من؟ قال: «**ثُمَّ أبوك**»[٢].

فقد أوصى بالأمِّ ثلاث مرَّات وبالأب مرَّة واحدة، لأنَّ الأمَّ تعبتْ أكثر من الأب من غير شك، ولأنَّ الأمَّ أحوج إلى البرِّ من الأب، فالأب يمكن أن يكسب ويتعب، أمَّا الأمُّ فهي المحتاجة أكثر، ثمَّ إنَّ الأبناء قد

(١) البر والصلة لابن الجوزي صـ ٤٠، تحقيق عادل عبد الموجود، وعلي معوض، نشر مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

(٢) سبق تخريجه (٢٧٩/١).

QaradawiBooks.com

يجترئون على أمَّهاتهم ما لا يجترئون على آبائهم، فلذلك كانت الوصيَّة بالأمِّ أوكد وأوثق، الأمُّ لها حقٌّ عظيم.

في الأدب العربي أنَّ رجلًا مرض وطال مرضه، مرض قريبًا من الحول حتَّى أصبح ميؤوسًا منه، فملّت امرأته طول خدمته، وكان يحبُّها ويكرمها، ويفضّلها على أهله، فلمَّا سألوها عنه قالت: هو لا حيٌّ فيرجى، ولا ميت فينسى. يعني: لا هو حي حياة حقيقيَّة يرجى منه شيء، ولا هو ميت فنستريح منه وننساه، وكانت تسمى: «سليمى»، بينما أمه لما سئلت عنه قالت: نحن بخيرٍ ما رأينا سواده بيننا، فأنشد هذا الرجل أبياتًا من الشعر يقول فيها:

أرى أُمَّ صخر لا تملُّ عيادتي ... وملَّت سُلَيْمى مَضْجَعِي ومكاني
فأي امرئ ساوى بأمٍّ حليلةً ... فلا عاش إلَّا في شَقًى وهَوَانِ
لعَمْري لقد نبَّهتُ من كان نائمًا ... وأسمعتُ من كانت له أذنانِ[1]

بعض النَّاس يطيع زوجته ويعقُّ أمَّه، ويدني صديقه ويجفو أباه، وهذا من أسباب البلاء في الأمة، ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾.

برُّ الوالدين من أصول الفضائل:

برُّ الوالدين هذا من أصول الفضائل الَّتي جاءت بها النبوات جميعًا، ولذلك نجد القرآن يقول عن سيِّدنا يحيي: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤]، والمسيح عيسى ابن مريم يقول: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]، برُّ الوالدين متَّفَق عليه بين الأديان جميعًا،

(١) هذا الشعر لصخر بن عمرو بن الشريد، أخي الخنساء. انظر: العقد الفريد (٣١/٦).

QaradawiBooks.com

وأكَّد عليه الإسلام أشد التوكيد، حتَّى جاء في الحديث: «**رَغِمَ أنفُه، ثمَّ رغم أنفُه، ثمَّ رغم أنفُه**» قيل: من؟ يا رسولَ الله، قال: «**من أدرك والديه عند الكبر، أحدهما أو كليهما، ثمَّ لم يدخل الجنَّة**»[١]. دعا عليه النبيُّ ﷺ ثلاث مرات: «**رغم أنفه، ثمَّ رغم أنفه، ثمَّ رغم أنفه**»، الَّذي حصَّل هذه الفرصة ولم يستفد منها، أنَّه وجد أبويه أو أحدهما عند الكبر ولم يدخلاه الجنَّة بإكرامهما وبرهما.

ولذلك يقول الله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، حتَّى كلمة: ﴿أُفٍّ﴾ لا يقولها لأبويه، ليس السب أو الشتم أو الضرب، بل حتَّى الكلمة الَّتي تدلُّ على التضجر والملل من الوالدين لا ينبغي أن تُقال لهما: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾، لذلك قال سيِّدنا علي: لو علم الله في العقوق شيئًا أدنى من: «أُف» لحرمه[٢].

بر الوالدين من خصائص المجتمع المسلم:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾، هذا ممَّا اختص به المجتمع المسلم بر الآباء والأمهات، على حين نجد المجتمع الغربي الآن مجتمع العلم والتكنولوجيا والصعود إلى القمر والكواكب والتقدم الهائل هذا المجتمع لا يعرف مسألة بر الوالدين هذه ولا صلة الأرحام.

الولد في المجتمع الغربي بمجرد أن يبلغ يترك أباه وأمه ويبحث له عن صديقة، والبنت تبحث عن صديق، كلّ منهما يبحث له عن صديق، وينسى أباه وينسى أمه، لا يكاد يعرف أبويه إلَّا يومًا في السنة، وهذا

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٥١)، عن أبي هريرة.

(٢) تنبيه الغافلين للسمرقندي صـ ١٢٤، والفردوس بمأثور الخطاب للديلمي (٣٥٣/٣).

QaradawiBooks.com

ما اضطرهم إلى أن يجعلوا يومًا للوالدين أو ما يسمونه: «عيد الأم»، ومع هذا يكتفي الابن وتكتفي البنت بإرسال رسالة للأب ورسالة للأم معها زجاجة عطر، أو بعض الورود والأزهار أو شيء من هذا، وهما في بلد وابنهما في بلد آخر، ولا يسأل عنه، في غير هذا اليوم.

قد حكى لي بعض الإخوة في أمريكا أن امرأة كانت تعيش في شقة، وكان جيرانها يرونها كل يوم، وفي يوم من الأيام افتقدوها، ولا حظوا أنَّها لم تعد تخرج من شقتها، ولا يراها أحد، إلَّا أنَّهم بعد مدَّة أحسُّوا برائحة منتنة تنبعث من داخل هذه الشقة، فأبلغوا الشرطة، وجاءت ودخلت البيت، فوجدت المرأة قد ماتت من عدة أيام، وسألوا عن أسرتها فوجدوا أن لها أبناء وبنات، وأحفادًا وحفيدات، منهم المهندس والطبيب، وكذا وكذا، ولكن ما قيمة هذا؟ والكل مشغول بنفسه، ولعل هذه المرأة كانت تحتاج قبل موتها إلى من يسقيها شربة ماء، أو يقدم لها دواء، أو شيئًا فلم تجد أحدًا.

خطر إيداع الوالدين دار المُسِنِّين:

ولذلك أنا أُحَذِّر ممَّا يحدث الآن في بعض البلاد العربيَّة من أن أحدهم إذا كَبِرت أمُّه أو كَبِرَ أبوه أودعه ما يسمَّى «دار المسنِّين» أو «بيت العجزة»، وظن أنَّه بذلك قد قام بكل ما عليه نحوه، فهناك يأكل ويشرب، لا. الأكل والشرب ليسا كل ما يحتاجه الإنسان، الجد هذا إنسان يريد أن يرى أبناءه وبناته، يريد أن يرى أحفاده وحفيداته، يكلمهم ويكلموه ويضحك معهم، ويحكي لهم «الحواديت» أحاديث قبل النوم، وهكذا، فلماذا يُترك الأب، أو الأم هناك في «دار المسنين» أو «بيت العَجَزة»، وتنقطع صلته بالأسرة؟ لا ينبغي أن يتسلل هذا إلى مجتمعاتنا فنفقد خصائصنا.

QaradawiBooks.com

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾، إذا بلغ الأشُد، ويمكن الإنسان أن يبلغ الأشُد في سن الحادية والعشرين، أو في سن الثلاثين، ويكتمل عند بلوغ الأربعين، ولذلك يبعث الله الأنبياء في سنّ الأربعين في الغالب، لأنَّه اكتمل وبدأ يقترب من الشيخوخة، ولذلك على الإنسان في هذه الحالة أن يصلح من نفسه، ويراجع حسابه، وينظر ماذا قدَّم وماذا أخَّر، ويتوب من ذنوبه، ويعدِّل من سيره، هذا هو شأن الإنسان.

ولذلك قالوا: إذا بلغ الرجل الأربعين ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار، ويقولون: إذا بلغ الإنسان الأربعين وظل في طريق الشر وطريق الغَواية أمسك إبليس بلحيته وقال: وأبي لن تفلح أبدًا، فلا بدَّ للإنسان عند سن الأربعين أن تكون له وقفة.

سؤال الله شكر النعمة:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾، يسأل المؤمن ربه ثلاثة أشياء مهمة، ﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾.

أولًا: يسأل الله أن يلهمه شكر نعمته، ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾، وليس فقط النعمة الَّتي عليه، بل ونعمة الله على والديه، لأن النعمة الَّتي على الوالدين نعمة على الإنسان أيضًا، ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾، يكفي أنَّك جعلتَ والديَّ مسلميْن فنشأتُ مسلمًا بإسلامهما، يكفي أنَّك يا رب وفقتهما لحسن تربيتي وحسن تعليمي، كلها نعم، نعمة عليه وعلى والديه، ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾، وشكر هذه النعمة يستوجب بقاءها وحفظها،

QaradawiBooks.com

ويستوجب المزيد منها، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، هذا أوَّل شيء يطلبه من الله.

شرط قبول العمل عند الله:

الشيء الثاني: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾، وفقني يا رب وأعني أن أعمل صالحًا ترضاه، وانظروا إلى كلمة: ﴿صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾، لأنَّه من الممكن أن تعمل شيئًا صالحًا في ظاهر الأمر ولكن غير مرضيّ عند الله. لماذا؟ لأنَّه شابه الرياء، وحبّ المحمَدة والشهرة، فليس خالصًا لوجه الله، وإنَّما يقبل الله من العمل ما ابتغي به وجهه، وإنَّما لكل امرئ ما نوى، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، ﴿أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

ولذلك سيِّدنا سليمان حينما سمع النملة تحدِّث أخواتها من النمل وتقول لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾، ادخلوا جحوركم وتخفوا ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ [النمل: ١٨، ١٩]، طلب من ربه أن يلهمه ويوفّقه أن يعمل عملًا صالحًا مقبولًا عند الله، خالصًا لوجهه، مستوفيًا شرائطه وأركانه وآدابه، فهذا هو العمل الصالح الَّذي يرضاه الله، ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، هكذا دعا سليمان.

الدعاء للذريَّة:

الشيء الثالث: الدعاء للذريَّة، ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، ليس همه نفسه فقط، وإنَّما همه أيضًا ذريته، الجيل القادم هذا له حق، سأل الله أن يصلح له في هذه الذرية.

QaradawiBooks.com

دائمًا الآبـــاء مشـــغولون بأولادهم، والله تعالـــى يقول: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريـــم: ٦]، هل يكفـــي أن يُطعم الأب أولاده ويكســـوهم ويُنفق عليهم ويعلِّمهم ثمَّ يكـــون مصيرهم جهنم؟ ماذا فعلتَ؟ إذا كنتَ تحرص أن يصل ابنك إلى أرقى الشـــهادات، ويتســـنّم أعلى الدرجات، ولكنك لم تهتم بدينه، فينشـــأ مع الشـــباب الفاســـد الضائع، لا يعرف معروفًـــا ولا ينكر منكرًا، ولا يحـــل حلالًا ولا يحرم حرامًـــا، فما قيمة الشهادات والدكتوراه إذا كان ابنك مصيره إلى النار؟

تفتخر أنَّ ابنَك أصبح دكتورًا أو أســـتاذًا فـــي الجامعة، ولكنك لم تعلمه أن يخاف الله ويتقيه، سيكون مصيره النار، أيسرك أن يكون ابنك مـــن أهل جهنـــم؟ ولذلك قـــال: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾، هكـــذا ينبغي للإنسان المسلم.

سيدنا إبراهيم يقول: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيـــم: ٣٥]، ثمَّ يقـــول: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ۝ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠، ٤١].

انظروا، عين على الذريَّـــة، وعين على الوالديـــن؛ للذرية يقول: ﴿ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، يعنـــي: اجعـــل ذريتي مقيمين للصلاة، ولم ينس حق الوالدين فقـــال: ﴿ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾، الجيل الَّذي مضى له حق، والجيل القادم له حـــق، وهكذا ينبغي أن يكون الإنسان المؤمن، ولذلك يقول: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾، مهموم بهذه الذرية.

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

ضرورة الاهتمام بالذريَّة:

وما أجدر أن يهتم الإنسان بذريته، وخصوصًا في هذا العصر، لأن في هذا العصر يشاركك في توجيه ذريتك وأبنائك وبناتك المجتمع كلُّه، ما عاد الأب هو الَّذي يوجِّه وحده أولاده، لا. هناك التلفزيون والصحافة والمجلات والإذاعة والشارع والمدرسة والأصدقاء، هناك أجهزة وأدوات كثيرة تشاركك في تربية أولادك.

ولذلك لا ينجو من هذا إلَّا من وفقه الله وأسعده، استعن على هذا بالدعاء، وقل: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾،

هذا النموذج الطيب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾، أحسن ما عملوا يتقبله الله منهم، ويتجاوز لهم عن سيئاتهم، هؤلاء في ضمن أصحاب الجنة.

هؤلاء الأبرار الأوفياء وعدهم الله تعالى بالجنة، ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾، واللهُ إذا وعد فلن يُخلف وعده؛ لأن الله لا يُخلف الميعاد، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦]، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠]، ولذلك قال: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾.

نسأل اللهَ أن يجعلنا من هؤلاء، وأن يجعلنا من الأبرار الأوفياء، إنَّه سميع قريب، وصلى الله على سيِّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

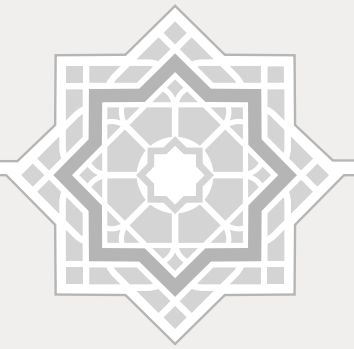
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



من دروس التفسير

سورة محمد

نسخة مجانية
غير مرخصة للبيع

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الأول
سورة مُحَمَّد وسورة القتال

هذه السورة الكريمة «سورة محمد» سمِّيت باسم نبينا الكريم مُحَمَّد ﷺ، وليست هي السورة الوحيدة الَّتي انفردت بذكر هذا الاسم، فقد ذُكِر هذا الاسم الكريم بعدها في سورة الفتح، في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وذُكِر قبل ذلك في سورة الأحزاب: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، كما ذُكِر قبل في سورة آل عمران: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وجاء في بعض الأحاديث تسميتُها بسورة «الذين كفروا»[1]، كثيرًا ما تسمَّى السورة باسم أولها، مثلًا «سورة براءة»، «سورة قل أوحي إلي»، «سورة قد سمع»، وهكذا، وهنا كذلك تسمى سورة محمد: «سورة الَّذين كفروا» أي: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ١].

(١) عن ابن عمر، أنَّ النبي ﷺ قرأ بهم في المغرب بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. رواه ابن حبان في الصلاة (١٨٣٥)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والطبراني في الأوسط (١٧٤٢)، وقال الهيثمي في المجمع (٢٧٠٣): رواه الطبراني في الثلاثة ورجاله رجال الصحيح. عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

وبعضهم سمَّاها: «سورة القتال»؛ لأن الله تعالى ذكر فيها قتال الكفَّار بعد أن قسَم النَّاس إلى قسمين: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، فهناك من كفر ووقف عند كفره، ولكن هناك من كفروا وصدوا الآخرين عن سبيل الله.

الصد عن سبيل الله:

وقفوا في طريق الدعوة، يفتنون النَّاس في دينهم، يستضعفون المؤمنين، ويصبون عليهم سياط العذاب، كما فعل المشركون من قريش، فالمشركون من قريش لم يكفروا بدعوة مُحَمَّد ﷺ فقط، ولكنَّهم آذوا المؤمنين إيذاءً شديدًا، وخصوصًا المستضعفين منهم، ممَّن ليسوا من قبائل تحميهم، وليس لهم ظهر يسندهم، مثل بلال وعمار وصهيب، وهؤلاء النَّاس، الَّذين أوذوا إيذاء وابتلوا ابتلاء شديدًا في سبيل الله.

فكانت مشكلة قريش أنَّهم ليسوا مجرَّد كفَّار، لو كانوا مجرد كفار فليذهبوا إلى جهنَّم، إنَّما هم كفَّار ويقفون بالمرصاد لمن آمن، يفتنونهم في دينهم، والفتنة أشد من القتل، وأكبر من القتل، كما قال القرآن: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ﴾ [البقرة: ٢١٧].

الفتنة من ناحية الكيف أشد من القتل، ومن ناحية الكم أكبر من القتل، فتنة النَّاس في دينهم، اضطهاد النَّاس من أجل عقيدتهم، لماذا؟ لأن القتل اعتداء على الجسد، والفتنة اعتداء على الضمير وعلى الروح، تعتدي على عقل الإنسان وإرادته، وهذا هو الاعتداء الحقيقي على حقيقة

QaradawiBooks.com

الإنسان، ولذلك اعتبر القرآن هذه الفتنة أشد من القتل وأكبر من القتل، وشرع القتال لصدها ومقاومتها، ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

ولذلك هنا حينما ذكر هؤلاء الكفَّار ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: أحبطها وأبطلها، قال بعد ذلك: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ۝ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾، من أجل هذا سميت السورة: «سورة القتال»، ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾.

كيف يكون القتال وأسر الأعداء؟

يُشرِّع الله تعالى هنا القتال للمسلمين، ويبين لهم كيف يكون القتال، ومتى يقاتلون، ومن يقتلون، ومتى يأسرون، فليس الباب مفتوحًا لقتل النَّاس، هناك حدٌّ محدد، ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، خطاب للمؤمنين. ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾، أي: هؤلاء الَّذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وفتنوا النَّاس في دينهم، إذا لقيتموهم فاقتلوهم، ما معنى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؟ ليس المقصود إذا قابلتموهم في عُرض الطريق فاضربوا رقابهم، لا، كلمة «لقاء» هنا معناها اللقاء في الحرب، إذا لقيتموهم أي: واجهتموهم وجهًا لوجه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، فالمراد باللقاء هنا: اللقاء في المعركة، يعني بلغة عصرنا: إذا قامت المعركة ابدؤوا الهجوم، يعني كلمة: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ كناية عن القتل، وربَّما الحرب في عصرنا لم تعد تقتضي لقاءً بين الأبطال، ويتبارزون بالسيوف،

QaradawiBooks.com

ويطعنون بالرماح، ويرمون بالسهام، ربَّما لم تعد الحرب تقتضي هذا الأمر، فالحرب بعد تطور آلياتها وبعد تغير أدواتها أصبحت شيئًا آخر، إذا تقررت المعركة لن يكون هناك ضرب للرقاب، وإنَّما سيكون هناك هجوم بقذف الصواريخ، بغارات جوية، بدبابات برية، بأدوات كثيرة، فكلمة «ضرب الرقاب» كناية عن بدء القتال مع هؤلاء الَّذين كفروا.

لماذا نقاتل الكفار؟

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، نحن لا نقاتل الَّذين كفروا لكفرهم، وإنَّما نقاتلهم لعدوانهم، لو سالمونا لسالمناهم، نحن لا نقاتل كل الكفار، في سورة الممتحنة يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، وفي سورة النساء: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ٩٠]، وفي الآية الَّتي بعدها: ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ٩١].

فالذين كفروا في ذلك الوقت كانوا هم المشركين المعتدين على المسلمين دائمًا، كان المسلمون هم الضحايا، وكانوا في مكَّة ثلاثة عشر عامًا يأتون إلى النبي ﷺ ما بين مضروب ومجروح ومشجوج ومكسور ويقولون له: يا رسولَ الله ائذن لنا أن ندافع عن أنفسنا. فيقول لهم: كفُّوا أيديكم وأقيموا الصلاة. إلى أن كانت الهجرة ونزل قول الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ

QaradawiBooks.com

﴿ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، أذن الله لهم في القتال والدفاع عن أنفسهم.

فهنا حينما يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [محمد: ٤]، فهم ليسوا مجرد كفَّار، بل كفروا وصدُّوا عن سبيل الله، كما قال الله تعالى في أوَّل هذه السورة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [محمد: ١]، فهم كفار يصدون عن سبيل الله، يفتنون المسلمين في دينهم، من دخل الإسلام وخصوصًا من المستضعفين، من ليس له ظهر يحميه، ليس له سند من قريش، ليس له قبيلة تشد أزره وتحمي ظهره هؤلاء يتعرضون للفتنة وللعذاب، مثل عمار بن ياسر وأبوه ياسر وأمه سمية، ومثل بلال بن رباح، ومثل خباب بن الأرت والكثيرين من هؤلاء تعرضوا لفتنة الإيذاء والعذاب.

والفتنة من ناحية الكيف أشد من القتل، ومن ناحية الكم أكبر من القتل، فتنة النَّاس في دينهم، اضطهاد النَّاس من أجل عقيدتهم، لماذا؟ لأن القتل اعتداء على الجسد، والفتنة اعتداء على الضمير وعلى الروح، ولذلك القرآن حينما شرع القتال قال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، فلا يُفتن أحد في دينه، فإذا قال الله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [محمد: ٤] أي هؤلاء الكفَّار الصادِّين عن سبيل الله الَّذين يتعرّضون للمؤمنين بالفتنة والإيذاء يحاولون أن يخرجوهم من دينهم.

ومن أجل ذلك حينما شرع القرآن القتال قال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، فلا يُفتن أحد في دينه، فإذا قال الله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [محمد: ٤] أي هؤلاء الكفَّار الصادِّين عن سبيل الله الَّذين يتعرّضون للمؤمنين بالفتنة والإيذاء يحاولون أن يُخرجوهم من دينهم.

QaradawiBooks.com

والله تعالى لم يقل: القـوا الَّذين كفروا، ولكن يقول: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [محمد: ٤]، ونحن لا نلقاهم إلَّا في مثل هذه الحالات الَّتي شرعها القرآن وشرحها لنا، ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [محمد: ٤]، وكانت هناك أسباب للقـاء هؤلاء، للدفـاع عن دينكـم وعقيدتكـم، للدفاع عـن عرضكم وحرماتكم وأهليكـم، للدفاع عـن أرضكم ومقدسـاتكم، للدفاع عن المستضعفين منكم ومن غيركم.

ولذلـك اعتبر القرآن هذه الفتنة أشـد من القتل وأكبـر من القتل، وشـرع القتال لصدها ومقاومتها، ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

إلى متى يظل ضرب الكفار:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمـد: ٤]، ولكن إلـى متى يظل ضرب الكفار؟ نظل نضرب في المشركين إلى ما شاء الله لا نتوقف أبدًا؟ لا، يقـول الله: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ [محمـد: ٤]، أي: اقتلوا منهم إلى أن تُثخنوهم أي: تُضعفوهم، تُضعفوا قوتهم وتكسـروا شوكتهم، تُحطموا قوتهم العسكريَّة فلا يسـتطيعون بعد ذلك أن يُغيروا عليكم ويهاجموكم ويفتنوكم عن دينكم، في هذه الحالة شدوا الوثاق.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ [محمـد: ٤]، ما معنـى شـدوا الوثاق؟ الوثاق يعني القيد، قيِّدوهم، من استسـلم منهم فأسـروه، من استسلم خذوه أسيرًا، فالقتل إذن ليس مفتوحًا إلى الأبد، ولكن إلى حد الإثخان، قبل الإثخان لا يجوز أن يكون كل همنا الأسر، وبعد الإثخان لا ينبغي أن يكون كل همنا القتل.

QaradawiBooks.com

الله تعالى عاتب المسلمين بعد غزوة بدر على استكثارهم من الأسرى قبل أن يُثخنوا فيهم، خصوصًا وأن موقعة بدر كانت أوَّل معركة، وكان لا بدَّ من الإثخان حتَّى يُظهروا عجز خصومهم ويُحطموا قوتهم، فسارع المسلمون إلى الأسر، وقال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۞ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨]، ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾؟ تريدون أخذ فداء الأسرى وكسب المال؟! ما ينبغي أن يكون هذا هو هدفكم.

فهنا نجد القرآن يجعل للقتل حدًّا ومدى وغاية وهو إثخان العدو، تحطيم شوكة العدو، في هذه الحالة نكتفي بالأسر، وهنا نجد فرقًا كبيرًا بين شريعة القتال في القرآن وشريعة القتال في التوراة، التوراة الَّتي يؤمن بها اليهود والنَّصارى جميعًا، حتَّى النَّصارى، النَّصارى عندهم الكتاب المقدس، ما هو الكتاب المقدس؟ هو العهد القديم والعهد الجديد، العهد القديم التوراة وملحقاتها من نبوات الأنبياء، والعهد الجديد هو الأناجيل الأربعة وملحقاتها من رسائل الرسل والحواريين.

فاليهود والنَّصارى يؤمنون بشريعة التوراة، وشريعة التوراة شريعة قاسية جدًّا، شريعة القتال، شريعة الحرب في التوراة لا نظير لها، من قرأ سفر التثنية من أسفار التوراة الخمسة وقرأ الفِقْرات الَّتي تتحدث عن القتال قتال الشعوب الَّتي تسكن البلاد والمدن البعيدة عن أرض فلسطين من الأموريين والكنعانيين واليبوسيين وغيرها ست شعوب، يقول سفر التثنية في التوراة: إذا حاربتم هؤلاء إن استسلموا لكم وصالحوكم فكل من في هذه البلاد يكونون عبيدًا لكم، وإن لم يستسلموا ويطلبوا الصلح فحاربوهم، فإذا انتصرتم عليهم ودخلتم هذه البلدة فاضربوا جميع ذكورها بحد السيف.

QaradawiBooks.com

لم يستثن سفر التثنية في التوراة طفلًا صغيرًا، ولم يستثن شيخًا كبيرًا، بل يأمر بأن يُضرب جميع ذكورها بحد السيف، لم يعرض عليهم الدخول في الدين الجديد، ادخل في ديننا ونحن نعفو عنك، لا، لم يفعل ذلك، لم يعرض عليهم أن يدفعوا مبلغًا من المال ويعفيهم من القتل، لا، وإنَّما اضربوا جميع ذكورها بحد السيف.

هذا ما يقوله سفر التثنية في البلاد البعيدة، أمَّا في البلاد القريبة الَّتي يسمُّونها أرض الموعد أو أرض الميعاد، القريبة من أرض فلسطين أو من هم داخل أرض فلسطين هذه فيقول سفر التثنية في التوراة: إذا دخلتم هذه البلدة دمروها عن بكرة أبيها ولا تستبقوا فيها نسمة حية. أي لا تدعوا فيها مخلوقًا حيًّا، بل دمروها تدميرًا كاملًا، استأصلوهم وأبيدوهم.

فعمليَّة الإبادة والاستئصال شريعة توراتية أخذها عنهم الأوربيون والغربيون، حينما دخلوا أمريكا أرادوا أن يبيدوا سكان أمريكا الأصليين وهم الهنود الحمر، وفعلوا بهم أفاعيل غير أخلاقيَّة وغير إنسانيَّة وغير دينيَّة، لا يقرها دين ولا يقرها خلق ولا يقرها عرف ولا يقرها قانون، استعملوا معهم أشياء لإبادتهم، وأبادوا أكثرهم، وكذلك فعل البريطانيون حينما دخلوا إلى استراليا، أبادوا السكان الأصليين لم يستبقوا منهم أحدًا، طبقوا شريعة التوراة تمامًا، لا تستبقوا فيها نسمة حية.

وهذا خلاف ما جاء به القرآن الكريم، فكرة الإبادة والاستئصال لأيّ جنس من الأجناس مرفوضة في القرآن، القرآن لا يقر إبادة أي جنس حيواني حتَّى أجناس الحيوانات، وحينما اشتكى بعض الصحابة من الكلاب الضالة الَّتي كانت تؤذي النَّاس وأرادوا أن يقضوا عليها فقال

QaradawiBooks.com

النبي ﷺ: «**لولا أنَّ الكلاب أُمَّة من الأمم لأمرتُ بقتلها**»[1]. فالكلاب أُمَّة من الأمم، كما أشارت إلى ذلك سورة الأنعام في قول الله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ٣٨]، أُمَّة النمل، أمل النحل، أُمَّة العنكبوت، أُمَّة الكلاب، أُمَّة القطط، كل جنس من هؤلاء أُمَّة لا يجوز أن يُباد جنسه، لماذا يُباد؟ لماذا خلقه الله؟ كأنك تعترض على خلق الله، لله حكمة في إيجاد هذه الأجناس، فلماذا نُبيدها؟! هذه هي النظرة الإسلاميَّة.

الإسلام لا يجيز سفك الدماء إلَّا لضرورة، لم يجز من سفك الدماء إلَّا ما اقتضته الضرورة لصلاح حياة النَّاس وصلاح الخلق وصلاح المعيشة، وإقامة الأمن والسلام في الأرض، ولذلك عند القصاص، ﴿**وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ١٧٩]، عند الفساد في الأرض، ﴿**إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [المائدة: ٣٣]، عند الاعتداء على الآخرين، ﴿**وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ**﴾ [البقرة: ١٩٠]، بدون هذا يكون القتل جريمة كبرى، ﴿**مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا**﴾ [المائدة: ٣٢].

---

(١) رواه أحمد (١٦٧٨٨)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. وأبو داود في الصيد (٢٨٤٥)، والترمذي في الأحكام (١٤٨٦)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الصيد (٣٢٠٥)، عن عبد الله بن مغفل.

QaradawiBooks.com

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ ﴾ [محمد: ٤] أي إذا أضعفتموهم وكسرتم شوكتهم، ففي هذه الحالة كفُّوا أيديكم عن القتال، وشدوا الوثاق.

وشدُّ الوثاق هو أن تأسر الشخص وتقيده عندك، ما عاد لك حاجة إلى القتال، وهذا يدل على أنَّ الإسلام ليس متشوفًا لسفك الدماء، ولا متعطشًا لإزهاق أرواح النَّاس، هذه ضرورة الحرب تدفعه أن يقتل.

عندما تنتهي المعركة بغير قتال وبغير دماء فالحمد لله، كما حدث في غزوة الأحزاب، حينما أرسل الله ريحًا وجنودًا لم يرها المسلمون على المشركين، خلعت خيامهم، وأطفأت نيرانهم، وأكفأت قدورهم، وجعلت حياتهم غير ممكنة، فرحلوا وردهم الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، كفى الله المؤمنين القتال، يمتنّ الله بهذا.

المسلمون ليسوا هواة حرب، إنَّما هم يخوضون الحرب على كره كما قال القرآن: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، إذا فُرضت الحرب علينا فلا بدَّ من خوضها مكرَهين، يقول النبي ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموه فاصبروا، واعلموا أنَّ الجنَّة تحت ظلال السيوف**»[(١)].

نحن لا نتمنى القتال، إذا قاتلنا نقتل بقدر الضرورة، ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾، ولكن ليس الباب مفتوحًا لعمل مجازر بشريَّة لا تنتهي إلى حد، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾، إذا وصلوا إلى مرحلة

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٣٠٢٤)، ومسلم (١٧٤٢)، كلاهما في الجهاد والسير، عن عبد الله بن أبي أوفى.

QaradawiBooks.com

من الضعف، وانكسرت شوكتهم، كفُّوا أيديكم عن القتل، ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾، شدُّوا الوثاق أي: ائسروا في هذه الحالة.

معاملة الأسرى:

ثم بيَّن الله ماذا نفعل بالأسرى، فقال: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾، لنا مع الأسير واحدة من اثنتين: إمَّا أن نمنَّ عليه لوجه الله، لنرغِّبه في الإسلام، ونحبِّبه في الإسلام، نتركه لله، ولا نأخذ منه شيئًا، ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ﴾، هذه هي الحالة الأولى، أن نمنَّ عليه بإطلاق سراحه، والثانية: ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾، أي: نقبل منه الفدية، كأن يُفدي نفسه بمال إذا كان عنده مال، وهذا ما فعله المسلمون في غزوة بدر، فقد أسروا سبعين من كبار قريش وصناديدهم، وكانوا في حاجة إلى المال فكل واحد يطلب منه ألفين أو ثلاثة أو كذا حسب موقع الرجل وما يملك من مال.

ولما أسر أبو عزيز بن عمير، وهو أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه، أسره محرز بن فضلة، فقال مصعب لمحرز: اشدد يديك به، فإن له أمًّا بمكَّة كثيرة المال. أي اطلب أكثر في فدائه، بدل أن تطلب ألفًا اطلب ألفين، بدل أن تطلب ألفين اطلب أربعة وهكذا، إن أُمَّه غنية ستفديه بمال كثير ينفع المسلمين، فقال له أبو عزيز: هذه وصاتك بي يا أخي؟ فقال: إنَّه أخي اليوم دونك. فبعثت أُمُّه عنه بأربعة آلاف[1]. الأخوة الدينيَّة غلبت الأخوة النسبية.

ومن ليس عنده مال ولكنَّه يَقدِر على أن يؤدي خدمة للمسلمين نقبل منه الخدمة، كما قَبِل النبي ﷺ من بعض أسرى المشركين في بدر، من

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٦٤٦/١).

QaradawiBooks.com

كانوا يعرفون الكتابة قَبِل منهم أن يعلِّم الواحد منهم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة، وهذا أوَّل مشروع لمحو الأميِّة، النبي الأمي يمحو الأميِّة، لو اتبع المسلمون هذه الطريقة من قديم ما كان في المسلمين عشرات الملايين من المسلمين أميُّون لا يعرفون الكتابة.

الأميِّة في العالم الثالث ـ ومعظمهم من المسلمين ـ في بلاد المسلمين، البلاد الَّتي نزلت أوَّل آية فيها تأمر بالقراءة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، أُمَّة «اقرأ» لا تقرأ، لا تُحسن القراءة والكتابة.

فإما فداء أي تفدي الأسير بمال أو تفدي أسيرًا بأسير، أسير بخمسة أسرى، بعشرة، بأكثر، كما يفعل إخواننا في لبنان وفي فلسطين، هذه سُنَّة الحرب، ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤].

النبي عليه الصلاة والسلام منَّ على أهل مكَّة فقد كانوا أسرى في يده، وقال لهم: يا أهل مكَّة ما تظنون أنِّي فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. الجبابرة المستكبرون في الأرض يقولون هذا القول الهين اللين: نظن بك خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. فعفا عنهم وأطلق سراحهم بلا مقابل وقال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[1].

حكم قتل الأسرى واسترقاقهم وقتل مجرمي الحرب:

﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ أي تنتهي تمامًا، وما ذكره القرآن هنا: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤] هو منهج القرآن، ولكن ذُكر أيضًا في السيرة النبويَّة وفي السنن الصحيحة أنَّ النبيَّ ﷺ قتل بعض الأسرى، وأنَّه سبى بعض النساء واسترقَّهم، وكما قال ابن القيم:

(١) انظر: السيرة النبويَّة لابن هشام (٤١٢/٢)، عن ابن إسحاق: فحدثني بعض أهل العلم.

QaradawiBooks.com

لم يسترق ذكرًا بالغًا قط[١]. سبى الذرية النساء والأطفال، لكن الصحابة سبوا من بعده وأسروا واسترقوا وعاملوهم معاملة الرقيق، فهل هذا خروج عن المنهج القرآني؟ لا، المنهج القرآني هو الأصل، هناك خلاف طبعا بين المذاهب والفقهاء بعضهم وبعض، ولكن هدي القرآن وما نستشفه ونراه من توجيهات القرآن أنَّه يرى أنَّ المن أو الفداء هو الأصل وهو الأساس، ولكن قد يُخرَج عن هذا الأصل بسبب من الأسباب، قد يرى أنَّه لا بدَّ من القتل، كما يرى القانون الدولي المعاصر، هناك أناس من الأسرى لا يعفى عنهم، يسمونهم: «مجرمي الحرب»، فمجرمو الحرب لا بدَّ أن يحاكموا وقد يحكم عليهم بالإعدام، كما فعل النبي ﷺ ذلك في غزوة بدر مع أمثال عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث[٢]، وفي فتح مكة قال في حق بعض النَّاس: «**اقتلوهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة**»[٣]. حاكمهم على جرائم ارتكبوها قبل الحرب، أساؤوا إلى المسلمين وآذوهم وفعلوا بهم الأفاعيل، فكان لا بدَّ أن يجعل منهم عبرة لغيرهم، هذا هو الحزم.

مجرمو الحرب لا يُمن عليهم، لو أسرنا شارون ـ مثلًا ـ هل نمن عليه لوجه الله؟! أو نطلب منه أن يدفع لنا كذا مليون؟! لا طبعًا، بل نقطع رقبته، ونفصل رأسه عن جسده.

---

(١) زاد المعاد (٦٠/٥).

(٢) روى الطبراني في الأوسط (٣٨٠١) عن ابن عباس قال: قتل رسول الله ﷺ يوم بدر ثلاثة صبرًا، قتل النضر بن الحارث من بني عبد الدار، وقتل طعيمة بن عدي من بني نوفل، وقتل عقبة بن أبي معيط. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٠١٩): فيه عبد الله بن حماد بن نمير، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٣) رواه أبو داود في الجهاد (٢٦٨٣)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠٦٧)، وصحَّحه وابن الملقن في البدر المنير (١٥٣/٩)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٧٢٣)، عن سعد بن أبي وقاص.

QaradawiBooks.com

ولذلك نحن نقول للإخوة الَّذين يخطفــون الرهائن: هؤلاء الرهائن أصبحوا أسرى في يد خاطفيهم، فيعاملون معاملة الأسرى، ولا يجوز أن يقتلوهم، إلَّا إذا كانوا جواسيس، أو كانوا مجرمي حرب، كانوا مجرمين يؤذون المسلمين، وعملوا معهم أشياء فظيعة، فهؤلاء في هذه الحالة لهم وضعهم الخاص.

إنَّما الأسير العادي أو المخطوف العادي فهذا لا يجوز أن يُقتل، بل يعامل معاملة الأسرى، ما لم يكن جاسوسًا أو متورطًا في عمل كبير ضد المسلمين أو شيء من هذا.

غير مرخصة للطباعة

قتل يهود بني قريظة:

أيضًا يهود بني قريظة الَّذين انشــقوا على المسلمين وغدروا بهم في أحلك الساعات وأشــدها حرجًا، انضموا إلى المهاجمين للمدينة قريش وغطفان، عشرة آلاف مقاتل جاؤوا يريدون اســتئصال المسلمين واقتلاع جذورهم، غزوهم في المدينة في عقــر دارهم، وكان اليهود مفترضًا فيهم أنَّهم حسب الاتفاقية الَّتي عقدها معهم النبي ﷺ أن يكونوا مع المسلمين يؤيدونهم بالمال والرجال والســلاح، فعكسوا الآية وغدروا وانضموا إلى المهاجمين والمغيرين، وقالوا: هذه فرصة للخلاص من مُحَمَّد وأصحابه، فهؤلاء المهاجمون قوَّة كبيرة هائلة مسلحة وجاءت لتُغِير على المدينة فلو كنا مع هذه القــوَّة لا يمكن أن يفلت مُحَمَّد وأصحابــه منها، فهذه فرصة لا يمكن أن نضيعها، ولذلك كان النبي ﷺ شــديدًا مع هؤلاء، تسامح مع أهل مكَّة قريش ولم يتســامح مع هؤلاء، وقال لهم: «**حكِّموا من شئتم**»، فحكَّموا سعد بن معاذ، وسعد كان حليفهم في الجاهليَّة، فقال سعد حينما انتظروا أن ينطق بالحكم الَّذي يحبونه: لقد آن لسعدٍ ألَّا تأخذه في الله لومة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

لائم، أحكم بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم. أي سبي نسائهم وأطفالهم وشيوخهم الكبار، فقال ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الملك**»[١].

ولو طبقنا على هؤلاء شريعة التوراة وحكمنا فيهم كتابهم ما استبقينا فيهم نسمة حية، النبي ﷺ عرض عليهم الإسلام، بينما هم في شريعتهم الَّتي ذكرناها قبل قليل لا يعرضون عليهم الدخول في الدين، الرسول عرض عليهم الإسلام فلو قبلوا لسامحهم وعفا الله عمَّا سلف، لم يقبلوا الإسلام، فكان لا بدَّ من عقابهم هذا العقاب، فهذا من عقوبة مجرمي الحرب، ليس لأنَّهم أسارى، لا، هؤلاء مجرمون ارتكبوا جريمة كبرى أشبه بالخيانة العظمى إذا اعتبرناهم مواطنين في المدينة لأنَّهم كانوا شبه مواطنين وفيه اتفاقية فنقضوا الاتفاقية وغدروا، ولو تحقق ما حلموا به ما بقي من المسلمين من باقية.

فنقول: إنَّ الأصل هو المن والفداء ولكن يمكن القتل في بعض الأحيان، ولكن الأصل الحظر كما جاء عن عطاء[٢] وعن الحسن البصري[٣] أنَّ القتل محظور، الآية تَحظُر القتل، وأنا أقول الآية تَحظُر القتل إلَّا بسبب من الأسباب مثل هذه الأسباب الَّتي ذكرناها، والأصل عدم الاسترقاق إلَّا أن يكون العالم يتعامل بالاسترقاق.

الاسترقاق معاملة بالمثل:

في أيام البعثة المحمَّديَّة كان الرق نظامًا عالميًّا، وكان استرقاق الأسير معمولًا به في الدول المختلفة، فلا يجوز للمسلمين أن يفكوا أسر

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨)، كلاهما في الجهاد والسير، عن أبي سعيد الخدري.
(٢) رواه عبد الرزاق في الجهاد (٩٣٨٩)، وابن أبي شيبة في السير (٣٣٩٤١).
(٣) رواه عبد الرزاق في الجهاد (٩٣٩٣).

QaradawiBooks.com

أعدائهـــم، وأعداؤهم يأخذون أســـراهم رقيقًا، العـــدل يقتضي المعاملة بالمثل، فإذا زال هـــذا النظام وانزاح هذا العـــرف وتغيرت أنظمة النَّاس ـ كما في عصرنـــا ـ وقالوا: لا داعـــي للرق ويجب أن نلغـــي الرق كان الإسلام أوَّل من يرحب بإلغاء الرقيق.

الإســـلام ضيَّق فـــي أبواب ومصـــادر الاســـترقاق، كانـــت مصادر الاسترقاق متعددة، المدين الَّذي لا يستطيع دفع دينه يُسترق، من ارتكب جريمة يُسترق، ممكن الواحد يبيع ابنه رقيقًا، كانت هناك النخاسة خطف الأولاد من بلادهم وبيعهم في سوق النخاسة، أشياء كثيرة، أبطل الإسلام كل هذا تمامًا وأبقى الأســـير في حرب شرعية على وجه الجواز لا على وجه الوجوب، والأمر الجائز أو المباح يمكن أن نمنعه أو نقيده إذا كانت هنـــاك مصلحة شـــرعية للإســـلام ولأمتـــه وراء ذلك، وحتَّـــى لا يتهم المسلمون أنَّهم هم الَّذين يهوون الاسترقاق دون العالم منع الإسلام باب الاســـترقاق وفتح أبواب التحرير في الرقاب، أشياء كثيرة جدًّا من فعلها يحرر رقبـــة أي يعتق عبدًا أو أمَـــة، وجعل من مصارف الـــزكاة الثمانية مصرفًا سماه: «في الرقاب».

أرسل يحيى بن ســـعيد والي عمر بن عبد العزيز على أفريقيا أرسل إلى سيِّدنا عمر يقول: جمعت أموالًا من الزكوات ولم أجد من يستحقها. النَّاس أغناهم الله فلم يجد فقيرًا، قال له عمر: اشـــتر بها رقابًا فأعتقها[1]. يعني بعد أن حرَّر الإســـلام النَّـــاس من الفقر شـــرع يحررهم من الرق، فالإسلام دين تحرير.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ ٦٥.

QaradawiBooks.com

القول بنسخ هذه الآية:

وهناك مَن جعل آية: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾: منسوخة، يعني: موجودة في المصحف لفظًا، معدومة معنى، وهناك مَن جعلها ناسخة لما يعارضها في المعنى.

والذين يدَّعون نسخها يقولون: نسخها قول الله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وهذه الآية إنَّما نزلت بخصوص مشركي العرب، الَّذين نزلت سورة براءة ـ وخصوصًا أوائلها ـ في البراءة منهم، ونبذ معاهداتهم المطلقة، وإمهالهم مدَّة أربعة أشهر، يختارون فيها لأنفسهم، ثمَّ قال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وهي أشهر الإمهال الأربعة.

ونحن نرى إذا تأمَّلنا: أن مضمون هذه الآية من سورة براءة: لا يناقض آية: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾، حتَّى نقول: إن هذه الآية نسخت تلك الآية.

فآية سورة التوبة في شأن القتل، وآية سورة مُحَمَّد فيما بعد القتل، وهو الأسر، والتعامل مع الأسرى، والنسخ إنَّما يكون عند التعارض المقطوع به، بين مضمون كلٍّ من الآيتين.

والذي أراه، وأرجِّحه: أنَّ الحكم الأساسي في معاملة الأسرى هو ما قرَّره القرآن بعبارات صريحة فيما جاء في «سورة محمد» في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]، فقرَّر القرآن واحدة من خصلتين في معاملة الأسرى بعد شدِّ وثاقهم:

QaradawiBooks.com

إحداهما: المنُّ عليهم بإطلاق سراحهم لوجه الله تعالى، بلا مقابل، إلَّا ابتغاء مثوبة الله ورضاه، وتحبيب الإسلام إليهم، حين يرون حسن معاملة المسلمين لهم.

والثانية: مفاداتهم بمال، كما قَبِل النبي ﷺ فداء أسرى بدر بالمال، وكانوا نحو سبعين أسيرًا، أو بأسرى من المسلمين، كما فعل النبي ﷺ في غزوات أخرى.

ودعوى بعضهم أن هذه الآية من سورة محمَّد، «منسوخة» إنَّما هي: دعوى بلا برهان، فالأصل في آيات القرآن هو «الإحكام» وادِّعاء النسخ لا يُقبل إلَّا بدليل يقطع الشكَّ باليقين، وإلا لأبطلنا النصوص الإلٰهيَّة بالظنون، وهي لا تُغني من الحقِّ شيئًا.

وقد منَّ الرسول الكريم ﷺ على ثُمامة بن أَثَال، وأبي عَزَّة الشاعر أوَّل مرَّة، وأبي العاص بن الربيع «زوج ابنته زينب»، وقال ﷺ في أُسارى بدر: «**لو كان المُطعم بن عديٍّ حيًّا، ثمَّ كلَّمَني في هؤلاء النَّتنَى، لتركتهم له**»[(١)].

ومنَّ ﷺ على أهل مكَّة يوم الفتح، وقال لهم كلمته الشهيرة: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[(٢)]، ومنَّ على سبي هَوَازِن[(٣)]، وهم جمٌّ غفير.

سنة الله في القتال وخوض المعارك:

﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [محمد: ٤]، لماذا كلفنا الله القتال وخوض المعارك؟ كان من الممكن أن ينتصر منهم بعقوبة قدرية، أو

(١) رواه البخاري في فرض الخمس (٣١٣٩)، عن جبير بن مطعم.

(٢) سبق تخريجه صـ٧٤٦.

(٣) رواه البخاري في المغازي (٤٣١٨)، عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة.

QaradawiBooks.com

بآية سماويَّة تهلكهم كما أهلكت من قبلهم، يهلكهم بالطوفان الَّذي أغرق قوم نوح، أو بالريح الصرصر العاتية الَّتي أهلكت قوم هود، أو بالصيحة الَّتي أخذت قوم صالح فجعلتهم في ديارهم جاثمين، كان من الممكن أن ينزل الله عليهم عقوبة ولا يكلف المسلمين الجهاد، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، الله يريد أن يمتحن بعضكم ببعض، يمتحن المؤمنين بالكافرين والكافرين بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠]، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، يعاملكم معاملة من يختبركم، الله يعلم بدون حاجة إلى الاختبار ولكن يريد أن يعلم هذا علم ظهور حتَّى لا يحاسبنا على ما في علمه، وإنَّما يحاسبنا على ما يقع منا بالفعل.

﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، كما قال تعالى فيما استمعنا في هذه السورة ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، هذا هو الابتلاء، الاختبار ليعلم الله من يتَّبع الرسول ممَّن ينقلب على عقبيه، من يثبت في الجهاد ويصبر على حر القتال ويبذل النفس والنفيس في سبيل الله، ومن يبخل بنفسه ومن يضنّ بماله، يتميز هذا، حتَّى يميز الخبيث من الطيب، ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

QaradawiBooks.com

فضل الشهادة في سبيل الله:

﴿وَلَكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٤]، طبعًا نتيجة القتال ونتيجة المعارك لا بدَّ من ضحايا، لا بدَّ من شهداء، هؤلاء الشهداء لا يعتبرون خسارة، لا نقول: خسرنا في المعركة كذا، لا، لا يعتبر الشهيد خسارة، لأن للشهيد منزلته عند الله، ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۞ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۞ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦]، هؤلاء لم يذهبوا هدرًا، لا، هؤلاء لهم المنزلة العظيمة عند الله تبارك وتعالى، الشهيد عند الله له مقام عظيم، لا يتسع الوقت للحديث عن منازل الشهداء ومناقب الشهداء، وما للشهداء عند ربهم.

قانون النصر الإلٰهي:

ثم التفت القرآن إلى المؤمنين ليقول لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، إذا أردتم أن يكون لكم النصر وعلو الكلمة والغلبة على أعدائكم في المعارك بينكم وبينهم فانصروا الله، وإذا نصركم الله فلن تُغلَبوا أبدًا، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

QaradawiBooks.com

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، هذا قانون من القوانين الإلٰهيَّة، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤]، ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، هذه قوانين إلٰهيَّة، مثل: «من جدَّ وجد، ومن زرع حصد»، فهذا قانون إلٰهي: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، إذا وجدنا أنفسنا في معركة من المعارك مهزومين فلنرجع باللوم على أنفسنا أنَّنا لم ننصر الله.

بماذا ننصر الله؟ ننصر الله بأن ننصر دينه، نقيم حدوده، ننفذ أحكامه، نطبقها على أنفسنا على أهلينا على من حولنا، ندعو إليها ونجاهد في سبيلها، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

نسأل اللهَ أن ينصرنا نصرًا عزيزًا، وأن يفتح لنا فتحًا مبينًا، وأن يهدينا صراطًا مستقيمًا، وأن يثبت أقدامنا وينصرنا على القوم الكافرين، وصلِّ اللهمَّ على عبدك ورسولك مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الثاني
صلة الأرحام من سورة محمد[1]

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾

ومن هاتين الآيتين نأخذ عبرة مهمة، وهي اهتمام الإسلام بترابط الأسرة، فالأسرة هي الخليَّة الأولى في المجتمع، واللَّبِنة الأولى في بناء المجتمع، ولا يصلح المجتمع إلَّا إذا صلحت الأسر، ولا يصلح الأفراد إلَّا بصلاح الأسر.

بين الأسرة الضيقة والموسعة:

ففي ظلّ الأسرة يتربَّى الأبناء ويتربَّى البنات، الأسرة الصالحة تُنبت الأولاد الصالحين، والأسرة الفاسدة تُنبت الأولاد الفاسدين، ولهذا عُني الإسلام بالأسرة، والأسرة في الإسلام هي الأسرة الموسعة، الأسرة الممتدة.

الغربيون لا يعرفون الأسرة الموسعة، وإنَّما يعرفون الأسرة الضيّقة، أسرة الإنسان عندهم هي زوجته وأولاده، وحتَّى هذه الأسرة مفككة غاية التفكيك، فبمجرد أن يبلغ الولد، أو تبلغ البنت، يذهب كل منهما لحال سبيله، ويمشي كما يقولون «على حل شعره»، الولد يبحث له عن

(١) من دروس تراويح ١٤٢٣هـ.

QaradawiBooks.com

«girlfriend» والبنت تبحث لها عــن «boyfriend» كما يقولون، ولا يعرف أباه ولا أُمَّه ولا أســرته، إلَّا في يوم من أيام السنة يُسمُّونه عيد الأب أو عيد الأم، يزورهم فيه، أو حتَّى لا يزورهم، وإنَّما يرســل لهم في البريد هدية، زجاجة عطر ونحوها، وهذه هي الأسرة في الغرب.

ونحن تقليدًا لهم نعمل عيد الأم، والحقُّ أنَّنا لسنا بحاجة إلى هذا، فكل يوم عندنا ينبغي أن يكون عيدًا للأم، وإذا كان لا بدَّ من أعياد فهي عيد الفطر وعيد الأضحى، يســتغلهما المسلم في المبالغة بإكرام والديه على غير عادته في الأيام الأخرى.

فالأسرة عند الغربيين للأسف، هي أســرة ضيِّقة وهي أسرة مفككة على ضيقها، وقد حكى لي أحد الإخوة أن امرأة عجوزًا كانت تســكن بجوارهم، فافتقدوها فترة من الزمن، فأطرقوا عليها الباب فلا يرد أحد، قالوا: لعلَّها ســافرت عند أولادها، ولكن بعد فترة أحسوا برائحة كريهة تخرج من شــقتها، فبلَّغوا الشــرطة، وجاءت الشــرطة وفتحت الشقة، فوجدوها قــد ماتت من عدة أيام، وأنتنت، وصــارت جيفة. ولما بحثوا عنها وجدوا أن لها بنتًا مهندســة، وأخرى طبيبة، وابنا مفتشًــا، ولكنَّهم تفرَّقوا عنها، وتركوها ماتت وحدها. ولعلها كانت في حاجة إلى شــربة ماء ولم تجد من يعطيها.. وهذه هي الأسرة في الغرب.

وعندنا للأسف بدأنا نقلد هؤلاء، فصار بعض النَّاس حينما يكبر أبوه أو أمه يضعه في بيت المســنين أو العَجَزَة، وربَّما يسأل عنه في العيد أو غير ذلك، والإنســان أيُّها الإخوة ليس بحاجة فقط إلى الأكل والشرب والإيواء، بل هو في حاجة إلى أن يرى أولاده، وأحفاده ويســتمتع بهم، ويأنس بهم، ويتأنسوا به، ويســمعوا لحكاياته، الإنسان ليس مجرد آكل وشارب، بل له حاجات نفسيّة واجتماعيّة أكبر من هذا.

QaradawiBooks.com

حق الأرحام وأولي القربى:

المهم أنَّ الإسلام يهتم بالأسرة الموسعة، وليس الأب والأم فقط، وإنَّما الأسرة في الإسلام تشمل: الزوج والزوجة والأولاد، والأب والأم، والأخ والأخت، والعم والعمة، والخال والخالة، وأولاد الخال وأولاد الخالات، كل هؤلاء لهم حقوق تسمى حقوق ذوي القربى، ذوي الأرحام، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥].

فحق ذوي القربى حق مقدّس، ولما أمر الله بثلاثة أشياء قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، من الأساسيات إيتاء ذي القربى هذا.

ولهذا في الآية الَّتي معنا يقول الله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ يُرجى منكم أن تفعلوا إن توليتم هذه الأمور: أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا هذه الأرحام، وكأنكم ممسكون بسكين تقطعون الأوصال، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ الَّذين يقطّعون الأرحام هم الملعونون. كما قال في آية أخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]، ما أمر الله به أن يُوصل من الأرحام، الَّذين يقطعون أرحامهم، ويعادون أقاربهم، ويجفون إخوانهم وأخواتهم، وأعمامهم وعماتهم، وأخوالهم وخالاتهم، هؤلاء ليسوا من أهل الإيمان الكامل؛ لأن صلة الرحم من شعب الإيمان الأساسيَّة، و«**إن للرحم حجنة متماسكة بالعرش تكلم بلسان ذَلِق: اللهمَّ صل من وصلني واقطع من قطعني**»[1].

(١) رواه البزار (٦٤٩٤)، وحسَّن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٠٩)، والهيثمي في =

QaradawiBooks.com

وفي الحديث القدسي: «**يقول الله تعالى: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها اسمًا من اسمي، فمن وصلها وصلتُه، ومن قطعها قطعتُه**»[١]. ومعنى وصلتُه: وصلتُه بجودي وإحساني وكرمي وفضلي وخيري، ومن قطعها: قطعتُ عنه بري وكرمي وفضلي وإحساني. فيكون النَّاس على حالين: إنسان موصول بالله، وآخر مقطوع عن الله.

من بركات صلة الأرحام:

والنبي ﷺ يقول في الحديث الصحيح: «**من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه**»[٢].

من أراد أن يطوَّل له عمره، ويوسَّع رزقه، فلْيَصل رحمَه، والعمر محدود، إنَّما توسيع العمر بأسباب، ومن أسباب إطالة العمر: أن يصل رحمه، يقولون له: ربنا يطول عمرك، فيستجيب الله لهم. وإنَّما هناك من يُقال له: ربنا يأخذك. وهناك فرق بين الدعوتين.

وقد يكون معنى طول العمر أن يبارك له فيه، فقد يعيش أحد النَّاس مائة سنة، ولا خير فيها، لم يعمل فيها خيرًا، وآخر يعيش ثلاثين سنة أو أربعين سنة، ومليئة بالخيرات والبركات والأعمال الصالحات، كما يقول ابن عطاء الله: رُبَّ عمر ضاقت آماده واتَّسعت أمداده[٣]. المهم المدد الَّذي يأتي في هذا العمر، فربما يعيش أحد النَّاس عمرًا، ويعيش بعد هذا

= مجمع الزوائد (١٣٤٤٨). وحسَّن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٠٩)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٤٤٨). عن أنس.

(١) سبق تخريجه (٢٨٠/١).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٨٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٧)، عن أنس.

(٣) شرح حكم ابن عطاء الله للشيخ زروق صـ ٤٣٨.

QaradawiBooks.com

العمر أعمارًا كثيرة، لأنَّه ترك صدقة جاريــة، أو علمًا ينتفع به، أو ولدًا صالحًا يدعو له، فهذه تظل من بعده. كما يقول شوقي رَحِمَهُ اللَّهُ [1]:

دقَّــاتُ قلــبِ المــرءِ قائلــةٌ له إنَّ الحيــاةَ دقائــقُ وثــوانِ
فارفعْ لنفســكَ بعد مَوْتِكَ ذِكْرَها فالذِّكْــرُ للإنســانِ عُمــرٌ ثَــانِ

فأنت تســتطيع أن تُطيل عمرك بعد حياتك، بما تتركه من أعمال صالحة، وللأســف إن كثيرًا من النَّاس، تجد علاقاتهم بأقاربهم على أسوأ ما تكون، وعلاقاته بالناس الآخرين جيدة، وهذا خلاف الأصل، فالأصل أن أوَّل ما يبدو حســن علاقتك يكون مع أقاربك، حتَّى وإن أســاؤوا إليك، فإن هم عصــوا الله فيك فأطع الله فيهــم، ومن مكارم الأخلاق أن تَصِل من قطعك، وتَبذل لمن منعك، وتُعطيَ من حرَمك، وتعفوَ عمَّن ظلمك، وتُحســنَ إلى من أســاء إليك، حتَّى أقاربك إن أساؤوا إليك فأحسن إليهم.

بين ولَدي آدم:

وانظر إلى ابن آدم الخيِّر وابن آدم الشــرّير: فهذا ابن آدم الشرّير يقول لأخيه: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، فردَّ عليه: لم تقتلني؟ أَمِن أجل أنَّ الله تقبل قرباني ولم يتقبل قربانك؟ ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧، ٢٨].

قال له الخيِّر حتَّى لو مددت إليَّ يدك بالأذى، فلن أمدها إليك بالأذى.

وللأسف لم يزجر الشرير هذا الكلام، ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]، أصبح من الخاســرين لأنَّه باء

(١) انظر: الشوقيات صـ ٦٠١، تعليق يحيى شامي، نشر دار الفكر العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

بإثم كل من قتل نفسًا ظلمًا، فقد قال النبي ﷺ: «**ما من نفس تُقتل ظلمًا إلَّا كان على ابن آدم الأوَّل كفلٌ منها**»[١]، يعني هذه الحروب العالميَّة، الَّتي قُتل فيها عشرات الملايين، يتحملها هذا الشرير؛ «**لأنَّه أوَّل من سنَّ القتل**»[٢]، و«**من سنَّ سُنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عَمِل بها**»[٣].

موقف يوسف من إخوته:

سيدنا يوسف عليه السلام أساء إليه إخوته، كادوا له، وألقوه في غيابت الجب، وباعوه بثمن بخس دراهم معدودة، وتسبَّبوا في غربته، وخدمته في البيوت، ودخوله إلى السجن، كل هذا بسبب إخوته.

ولما مكَّنه الله وأصبح بيده القدرة للانتقام منهم، لم يفعل ذلك، ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ يُقدِّم لهم العذر قبل أن يجيبوا، يعني أيام الجهل والطيش، يلتمس لهم العذر ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٩ ـ ٩٢].

هكذا ينبغي أن يكون الإنسان مع أقاربه، بل إنَّ يوسف عليه السلام وهو يكلِّم أباه، قال له: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾ لم يذكر أخرجني من الجب، حتَّى لا ينبش في الماضي، بل قال السجن، ثمَّ ألصق التهمة بالشيطان:

---

(١) سبق تخريجه صـ١٣٢.

(٢) جزء من الحديث السابق.

(٣) رواه مسلم في العلم (١٠١٧)، وأحمد (١٩١٥٦)، عن جرير بن عبد الله.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾ يعني الشيطان هو الَّذي تسبَّب فيما حدث من فرقة وعناء وسجن ومحن.

وهذه مكارم الأخلاق، فالإنسان لا بدَّ أن يستعليَ على الأنانية وعلى الأحقاد، وخصوصًا مع أقاربه، سيِّدنا علي يقول للحسن ابنه: «**صلْ أرحامك، فإنَّهم أصلك الَّذي إليه تصير، وجناحك الَّذي به تطير**»[١].

ويقول الشاعر:

أخاك أخاك إنَّ من لا أخا له ... كساعٍ إلى الهَيْجا بغير سلاحِ
وإنَّ ابنَ عمِّ المرءِ فاعلمْ جَنَاحَهُ ... وهل يَنْهضُ البازي بغَيْرِ جَنَاحِ[٢]

هل يحارب الإنسان بغير سلاح، وهل ينهض البازي بغير جناح؟! كذلك الإنسان من غير أخيه وابن عمه وأقاربه.

ولما قتلت قبيلة من القبائل ابن أحد ساداتها، ماذا كان رد أخيه؟ هل ينتقم من القبيلة أم ماذا يفعل؟!

يقول هذا الأخ[٣]:

قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيم أخِي ... فإذا رمَيْتُ يُصيبني سَهْمي
فلَئِنْ عَفَوْتُ لأَعْفُوَنْ جَللًا ... ولَئِنْ سَطَوتُ لأُوهِنَنْ عَظْمِي

ماذا أفعل: إذا عفوت أعفو عن شيء عظيم وصعب، وإن رميتهم سأوهن عظمي، فكان العفو أولى.

---

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٤/٢٥٣، ٢٥٤).

(٢) من شعر مسكين الدارمي، انظر: الأمثال لأبي عبيد صـ ١٨١، تحقيق د. عبد المجيد قطامش، نشر دار المأمون للتراث، ط١، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

(٣) وهو الحارث بن وعلة الجرمي. انظر: الأمالي لأبي علي القالي (١/٢٦٢).

نسخة معاينة
QaradawiBooks.com

وهكذا الأمر بين الأقارب بعضهم وبعض، فالإسلام ربط الأرحام بعضهم وبعض بأحكام، كأحكام المواريث، يرث الأقارب بعضهم بعضًا.

وكأحكام النفقات، يُنفق الأقارب بعضهم على بعض، في نظام معين إذا كان القريب موسرًا والآخر معسرًا، هناك نظام تختلف فيه المذاهب، إنَّما هو كله من أجل حق الرحم.

وهناك نظام العاقلة، إذا ارتكب أحد أفراد القبيلة قتلًا خطأ، فتقوم القبيلة بدفع الدية عنه في ثلاث سنوات، من أجل أن تكون القبيلة مترابطة، وتؤدب أولادها، وتعرف أنَّها سيصيبها في النهاية شرر نيران الفاسد فيها.

كل هذه أحكام لربط الأسرة الموسَّعة، وليست الأسرة الضيّقة، فهكذا ينبغي أن يكون تعاملنا، لا ينبغي أن يتعامل النَّاس بالأحقاد، فالمسلمون كانوا يرعى بعضهم بعضًا، الأقارب يرعى بعضهم بعضًا، ويودُّ بعضهم بعضًا.

والآن رأينا النَّاس ـ للأسف ـ في عصرنا امتدَّت إليهم العدوى، عدوى القطيعة والجفوة، والنبي ﷺ يقول: «**لا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيُعرض هذا ويُعرض هذا، وخيرهما الَّذي يبدأ صاحبه بالسلام**»[1].

الآن يهجر الأخ أخاه ليس لثلاث أيام، بل لثلاثة أشهر، وثلاث سنين، ويظلا أعمارًا متقاطعين، متخاصمين، أي أسرة هذه؟ أي أخوة هذه؟ أي قرابة هذه؟ والقطيعة هذه موجودة.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٣٧)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٠)، عن أبي أيوب الأنصاري.

QaradawiBooks.com

إن القطيعة بين النَّاس تجلب اللعنات عليهم، وخصوصًا في مثل هذه الأيام، أيام رمضان، وأيام العيد، وأيام المواسم والخيرات، ينبغي للنَّاس أن يترفَّعوا عن أحقادهم، ويذهب الإنسان لأخيه ويسلِّم عليه.

لماذا يتخاصم الناس؟!

على أيِّ شيء؟ على الدُّنيا، وللأسف أكثر من يتفرقون ويتخاصمون، ليس الفقراء، بل الأغنياء، الدُّنْيا تفرقهم أكثر ممَّا تفرق الفقراء. علام هذا؟!

أصبح النَّاس يقولون: الأخ فخ، والعم غم، والولد كمد، والخال وبال، والأقارب عقارب.. وهكذا، فأصبح النَّاس يسيء الظن بعضهم ببعض، وليس هذا من الإسلام في شيء.

الإسلام يقول للإنسان: صل رحمك حتَّى وإن جفوت، فكن أنت صاحب الفضل، والشاعر العربي يقول:

وَإِنَّ الَّذي بَيني وَبَينَ بَني أَبي ... وَبَينَ بَني عَمِّي لَمُختَلِفٌ جِدّا
أَراهُم إِلى نَصري بِطَاءً وَإِن هُمُو ... دَعَوني إِلى نَصرٍ أَتيتُهُم شَدَّا
فَإِن يَأكُلوا لَحمي وَفَرتُ لحومَهُم ... وَإِن يَهدِموا مَجْدي بنيتُ لَهُم مَجدَا
وَإِن ضَيَّعوا غَيْبي حَفظتُ غُيوبَهُم ... وَإِن هُم هَوَوا غَيِّي هَوَيتُ لَهُم رُشدَا
وَإِن زَجَروا طَيرًا بِنَحسٍ تَمُرُّ بي ... زَجَرتُ لَهُم طَيرًا تَمُرُّ بِهِم سَعدَا
وَلا أَحمِلُ الحِقدَ القَديمَ عَلَيهِمو ... وَلَيسَ كَبيرَ القَومِ مَن يَحمِلُ الحِقدَا[1]

(١) من شعر المقنَّع الكِنْدي، كما في الأغاني (٧٣/١٧)، مع تقديم وتأخير واختلاف يسير، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

الإنسان الكبير والإنسان العظيم لا يحمل حقدًا، وخصوصًا على قومه، وعلى أهله، فهو يعاملهم على غير ما يعاملونه، وهكذا ينبغي أن يكون الكبراء من النَّاس، ويجب أن يكون أهل الفضل من النَّاس.

ونحن نعرف قصَّة أبي بكر ومسطح ابن خالته، الَّذي أقسم ألا يُعطي مسطحًا مالًا بعد ما خاض في عرض ابنته عائشة رضي الله عنها، فنزل القرآن يقول له: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

يا أيُّها الإخوة: علينا أن نصل الأرحام، وأن نُحسن إلى ذوي القربى، وأن نتسامح فيما بيننا، حتَّى من أساء إليك فأحسن إليه، وصِلْه وإن قطعك، صِله لله، اجعل ذلك لله، ليس للدنيا، فهنا تكسب مرضات الله تبارك وتعالى، وتكسب سكينة نفسك، وراحة ضميرك، أنَّك فعلت ما عليك، وسيسهل الله لك في دنياك، ويشرح لك صدرك، وييسر لك أمرك، ويُوسع عليك رزقك، ويُطيل عمرك، ويُبارك في ولدك، ويُبارك في صحتك، وكل هذا بسبب صلة الرحم.

أسأل اللهَ عزَّ وجلَّ أن يوفقنا إلى صلة أرحامنا، والمودة فيما بيننا، إنَّه سميع قريب، وصلى الله وسلم على سيِّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

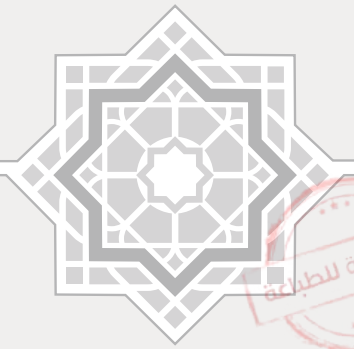
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



غير مرخصة للطباعة

من دورس التفسير

سورة الفتح



نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الأوَّل
حاجتنا إلى فتح الدعوة والفكر
«الآية الأخيرة من سورة الفتح»

غير مرخصة للطباعة

استمعنا إلى الآية الأخيرة الَّتي ختم الله بها سورة الفتح، وسورة الفتح نزلت في غزوة الحديبية، وصلح الحديبية، سمَّاه الله تعالى فتحًا، وقال لرسوله ممتنًّا عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، فسأله الصحابة: أفَتْح هو يا رسولَ الله؟! قال: «**نعم، هو فتح**»(٢).

وكأن الصحابة استبعدوا أن يكون هناك فتح بدون قتال، وبغير حرب، ولكن كان فتحًا سلميًّا، فكان هذا تشريعًا لنا، ونموذجًا للفتح السلمي، فيمكن أن تفتح العقول والقلوب، دون أن نحارب، وهذا ما ينبغي أن نعوِّل عليه في جهاد عصرنا، فقد لا نحتاج إلى الجيوش في عصرنا، جهاد الطلب لا جهاد الدفع، لأن جهاد الدفع سيظل جهادًا بالسيف، وبالقوة، إلى يوم القيامة، أن تُقاوم من يحتل أرضك، ومن ينتهك عرضك، ومن يسفك دمك، ومن يعتدي على حرماتك ومقدَّساتك، وهذا ما يسمِّيه العلماء «جهاد الدفع» وبلغتنا «المقاومة».

نسخة مجانية

(١) من دروس تراويح ١٤٢٢هـ.
(٢) سبق تخريجه صـ٦٠٠.

QaradawiBooks.com

أمَّا جهاد الطلب، فأن تتبع العدو لتُبلغه دعوة الإسلام، وهذا ما حاوله الصحابة، والتابعون، والمسلمون في عصور الفتح الإسلامي، فحاربوا الفرس والروم في هذه البلاد، لا لشيء إلَّا ليفتحوا الطريق للدعوة، لأن المشكلة في العصر الأول، أنَّ الملوك والقياصرة والأكاسرة، والأباطرة، ما كانوا يسمحون لشعوبهم، أن تسمع أي دعوة جديدة، فكان النَّاس على دين ملوكهم، ولذلك حينما أرسل رسول الله كتابًا إلى كسرى، وقال له: «**أسلمْ تَسلمْ، يؤتك الله أجرك مرَّتين، فإنْ لم تفعلْ فإنَّما عليك إثم المجوس**»[1]؛ وذلك لأنَّه كان سببًا وحائلاً بينهم وبين الدعوة الجديدة، فيتحمل أوزارهم.

وكذلك قال لقيصر: «**عليك إثم الأَرِيسِيِّين**»[2]، وقال للمقوقس: «**عليك إثم القبط**»[3]، فحمَّلهم إثم رعيتهم؛ لأنَّهم هم الَّذين يحولون بين الرعية، والاستماع إلى الدعوة الجديدة.

ونحن في عصرنا لسنا مطالبين بجيوش تفتح هذه البلاد، وإنَّما نحن بحاجة إلى جيوش من الدعاة والعلماء، والإعلاميين، والتلفازيين، والقادرين على إبلاغ الدعوة، بالطرق المسموعة، والمقروءة، والمرئية، وغيرها.

نحتاج إلى جيوش جرارة من هؤلاء؛ لنبلغ الدعوة عن طريق الإذاعات الموجهة، عن طريق القنوات الفضائية، الَّتي تُسمع صوتها للعالم كله، عن طريق شبكة الإنترنت، عن طريق الرسائل المقروءة، عن

(١) رواه الطبري في التاريخ (٦٥٤/٢)، وحسَّنه الألباني في تخريج أحاديث فقه السيرة صـ ٣٥٦.
(٢) سبق تخريجه صـ ٨٤.
(٣) رواه الزبير بن بكار في المنتخب من كتاب أزواج النبي ﷺ صـ ٥٥، تحقيق سكينة الشهابي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.

QaradawiBooks.com

طريق الدعاة الَّذين ينتشـــرون في الأرض ســـلميًّا، كما فعل المبشرون، فالمبشرون لهم حوالي ٤ ملايين و٧٥٠ ألف مبشر ومبشرة منتشرون في أنحاء العالم، وهذا من عدة سنوات، ولعلهم الآن وصلوا إلى ٥ ملايين، أو يزيد، فهم منتشـــرون في أنحاء العالم، ويعملون على نشر النصرانيَّة، حتَّى في البلاد الإسلاميَّة، بكل الأســـف، ولذلك فنحن بحاجة إلى أن نحذو حذوهم.

منذ ســـنوات ســـنة ١٩٧٨م اجتمع العتاة من المُنصِّريـــن، في ولاية كولورادو، تحـــت عنوان «تنصير المســـلمين في العالم»، وقبلها بســـنة اجتمعوا في سويسرا لتنصير العالم، وفي هذه السنة (١٩٧٨م) عقدوا هذا المؤتمر، حضره ١٥٠ مُنصِّرًا من الكبار، وقدموا ٤٠ بحثًا، من أجل تنصير المسلمين في العالم، وبالفعل انتشروا في العالم، فماذا فعلنا نحن؟

عندما قـــرأت هذا الموضـــوع، حاولـــتُ أنْ أُقَدِّم شـــيئًا، فدعوتُ المسلمين إلى أن نقيم مشروعًا، لا لنشر الإسلام في العالم، أو أسلمة العالم، كما يريدون هم تنصيره، وإنَّما لحماية الوجود الإسلامي، أمام هذه الهجمـــات التنصيرية الجديدة، وقلت: إنَّهـــم رصدوا ألف مليون دولار، ونحـــن نرصد ألف مليون دولار لحماية المســـلمين، وأن هذا ممكن وبسهولة، فالمسلمون أكثر من ألف مليون، حوالي ١٣٠٠ مليون، نفترض أنَّهم ١٠٠٠ مليون فقط؛ لأن هناك حوالي ٣٠٠ مليون لا يستطيع أحـــد الوصول إليهم، فلو أن كل مســـلم من ألف مليـــون دفع دولارًا واحدًا، لجمعنـــا الألف مليون دولار. ومن أجل ذلك، رفعت شـــعارًا يقول: ادفع دولارًا تنقذ مســـلمًا. وقد جاء هذا الشـــعار، من حكاية أنَّ اليهود في أوائل ما أرادوا أن يقيموا دولتهم في إسرائيل، رفعوا شعارًا فيما بينهم: ادفع دولارًا تقتل عربيًّا.

QaradawiBooks.com

أقول لكم وبكل بصراحة: لم نستطع أن نجمع الألف مليون دولار، ولا حتَّى خمسمائة مليون دولار، بل ولا مائة مليون دولار، ولعلنا ـ تقريبًا ـ لم نصل إلى ٥٠ مليون دولار؛ لأنَّنا حيل بيننا وبين الوصول إلى المسلمين، وقف الحكام أمامنا، إذ كيف نصل إلى المسلمين في أنحاء العالم، والحكام وقفوا دوننا، فبعض البلاد لم يسمحوا لنا بدخولها.

وقد كنتُ أنا والشيخ عبد الله الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أهل العلم هنا بقطر، وأبو بدر عبد الله المطوع، والأستاذ يوسف الحجي من الكويت، وشكَّلنا وفدًا لذلك، ولكن لم يُسمح لنا إلَّا بدخول قطر والبحرين. ومنعتنا كل البلاد.

أمَّا الآن أيُّها الأحبة، فنستطيع أن نصل إلى النَّاس من خلال الفضائيات، والإنترنت، ونستفيد من هذه الأدوات والوسائل العصرية.

ولقد أقمنا موقعا اسمه «اسلام أون لاين» هنا في قطر، وله مكتب في القاهرة، ومكتب في أمريكا، لننشر الإسلام عن طريق الإنترنت، ولكن نحن في حاجة إلى أموال تساعد، وإلى رجال تساند، فلا تقوم المشروعات الكبيرة إلَّا بالمال وبالرجال، والمسلمون ـ للأسف ـ لا يُساعدون إلَّا في بناء المساجد.

فمعظم الأغنياء إذا قلت له نريد أن نبني مسجدًا، تجده يساعد، أمَّا إذا قلت له: نريد أن نبني رجالًا، أو دعاة، أو نريد أن نُقيم مراكز لنشر الدعوة الإسلاميَّة في العالم، لترجمة معاني القرآن إلى لغات العالم، كما فعل النَّصارى مع الإنجيل، حيث تُرجم الإنجيل إلى آلاف اللغات، وآلاف اللهجات، والقرآن ليس له ترجمة واحدة إلى اللغة الَّتي يتكلم بها مئات الملايين من المسلمين، وهي اللغة الانجليزية، الَّتي لا توجد ترجمة

QaradawiBooks.com

مرضي عنها حتَّى الآن، فترجمة يوسف علي عليها مآخذ وملاحظات، فما بالك باللغات الأخرى؟ فنحن بحاجة إلى جهود طائلة، وأموال وأموال.

ولا أدري أذكرت لكم هذه القصَّة أم لا! ولكن اسمعوها ولو لمرة أخرى: اجتمعنا في «كمبالا» في مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلاميَّة، الَّتي مقرها الرئيسي الخرطوم، نتحدث عن نشر الدعوة في أفريقيا، وغيرها، فقام لواء متقاعد في الجيش السوداني، وقال سأحكي لكم قصة: حينما استقل السودان، ذهبنا إلى الجنوب، لنزور قرى جنوب السودان، فدخلنا قرية، لم ير أهلها في حياتهم كلها سيارة، وكانت معنا سيارة «جيب» فلمَّا رأوها خافوا وفزعوا وهرولوا، ما هذا الشيء الَّذي يمشي وليس بغلًا ولا حمارًا ولا دابة، إلخ.

يقول: فأخذنا نجمعهم، وندعوهم إلى عدم الخوف، ونقول لهم: نحن سودانيون مثلكم، وقد جئنا لمصلحتكم، و. إلخ، فأنسوا بنا، واستمعوا إلينا، وبينما نحن نكلمهم، إذ بجرس يدق، فقلنا لهم: ما هذا الجرس؟ أتوجد هنا مدرسة؟ قالوا لا! هذه القرية لا توجد بها مدرسة ولا كُتَّاب، ولا يوجد شخص هنا يعرف القراءة ولا الكتابة.

ـ فما هذا الجرس؟

ـ هذا أبونا.

ـ من أبوكم؟

ـ رجل يأتينا مرتين في الأسبوع.

فذهبنا لنعرف من أبوهم هذا، فوجدنا مبشرًا من النَّصارى، فسألناه:

ـ من أين أنت؟

ـ من بروكسل (بلجيكا).

QaradawiBooks.com

ـ كم سنة لك هنا؟

ـ من ثلاثين سنة.

ـ كم مرَّة في هذه السنوات الثلاثين زرت بلدك؟

ـ ولا مرَّة.

ـ ومتى تنوي العودة إلى بلادك.

ـ ما هذه الأسئلة الغريبة؟ أنا وطني هنا، ورسالتي هنا، وعيشي هنا، وموتي هنا، وقبري هنا.

فهو رجل جاء لمهمة ورسالة، يأتي كل أسبوع إلى هذه القرية، بدراجة هوائية، يطوف حوالي أربعين قرية، بدراجته الهوائية هذه، ومعه شنطتان: الأولى بها حلوى للأطفال، والثانية: أدوية خفيفة (إسعافات أوليَّة).

يجلس يحدث النَّاس عن العذراء والمسيح، ويسمعه النَّاس، ثمَّ يذهب إلى قرية أخرى، فيطوف كل يوم عدة قرى.

هذا الرجل ـ أيُّها الإخوة ـ جاء من بلجيكا، من بروكسل، ترك الماء والكهرباء، والأزرار الأوتوماتيكية، ليعيش في بلد لم تر سيارة في حياتها، ليعيش في هذا، ويقول: وطني هنا، ورسالتي هنا، وعيشي هنا، وموتي هنا، وقبري هنا. فمَن مِن المسلمين يستطيع فعل هذا؟!

أنا أعلم: أنَّ هناك من المسلمين من هو مستعدٌّ للموت في أفغانستان، أو فلسطين، أو البوسنة، فنحن نحسن فنَّ الموت، ولا نحسن فنَّ الحياة.

كثير من المسلمين مستعدٌّ لأن يضحي بنفسه في سبيل الله، ولكن قليلًا منهم من هو على استعداد لأن يعيش في بلد مع النَّاس لينشر الإسلام بينهم. وهذه مشكلاتنا، أنَّنا بحاجة إلى الفتح السلمي.

QaradawiBooks.com

وقد قلتُ وأنا في الجزائر منذ سنوات، وذكرتُ لهم الحديث عن فتح رومية، بعد فتح القسطنطينية، وقلت لهم: ليس من الضروري أن يكون فتح رومية بالسيف، فقد يكون بالدعوة والفكر، فلو نشطنا في الدعوة، لفتحنا هذه البلاد؛ لأنَّها أحوج ما تكون إلى رسالة الإسلام، لأن الإسلام هو الَّذي يعطيها الدين، ولا يأخذ منها الدُّنيا، يعطيها الإيمان، ولا يسلب منها العلم، يعطيها الروح، ولا يحرمها من المادَّة، يجمع لها بين الحسنيين.

إنَّ رسالة التوازن والوسطيَّة هي في هذا الدين، ولكن هذا الدين في حاجة إلى رجال، رجال يعيشون على أنفاس أصحاب رسول الله ﷺ، الَّذين خَتَم الله سُورة الفتح بأوصافهم، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ كما وصف الله المؤمنين في آية أخرى، فقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. هم أشداء على الكفار، رحماء بينهم، على خلاف حالتنا نحن الآن، فنحن أشداء على أنفسنا، رحماء بغيرنا، أذلة للآخرين، أعزة على المؤمنين، وهذه مصيبتنا.

نحن بحاجة إلى أناس يسيرون خلف أصحاب مُحَمَّد ﷺ، هذا الجيل النموذجي، الَّذي لم تكتحل عين الدُّنْيا برؤية مثله، لا يوجد أصحاب نبي مثل هؤلاء.

فقد ذكر لنا القرآن أصحاب موسى عليه السلام، ورأينا ما فعلوا، حين قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ انظروا رغم هذا الأمر، والإغراء والتهديد، فأخبرهم أنَّها أرض كتبها الله لكم، وما دام ذلك فسيعينكم، وهي الأرض المقدسة، وليست أي أرض، وهددهم بأن لا يرتدوا على أدبارهم فينقلبوا خاسرين،

QaradawiBooks.com

مع هـذا قالـوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾، وهـل هناك مـن يترك أرضه، لتدخلها هكذا باختياره.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا﴾ بحسـن الإدراك والمعرفة، ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ يقولـون: الضربة الأولى هي نصف المعركة. فهؤلاء قالوا: اهجموا عليهم، وبالهجمة الأولى سـتتفتح لكم الأبواب، ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فماذا كان ردهـم؟ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢١ ـ ٢٤] انظر إلى كلامهم: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ وكأنَّه ليس ربهم.

وأين هذا ممَّا قاله أصحاب محمَّد، وهـم قلَّة يوم بدر، قلَّة خرجت للعير فإذا هو النفير، قالوا: «يا رسول الله، إنَّا لا نقول لك كما قالت بنو إسـرائيل لموسـى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربُّك فقاتلا، إنَّا معكما مقاتلون»[1].

وقال سـعد بن معاذ: «امضِ يا رسـولَ الله لمـا أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو اسـتعرضت بنا هذا البحـر فخضته، لخضناه معك ما تخلَّف منـا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنـا عدونا غدًا، إنَّا لصبر في الحرب صدق في اللقاء، لعلَّ الله يريـك منا ما تقر به عينك، فسِر بنا على بركة الله». فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشَّطه ذلك، ثمَّ قال: «**سيروا وأبشـروا، فإنَّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله**

(١) سبق تخريجه (٧٢٧/١).

QaradawiBooks.com

لكأنِّي الآن أنظر إلى مصارع القوم»[١]. هؤلاء هم أصحاب محمَّد، وهؤلاء هم الَّذين ربَّاهم مُحَمَّد ﷺ.

حتى أصحاب عيسى عليه السلام، خانه أحدهم، ودلَّ الأعداء على مكانه، مع أنَّهم كانوا قلَّة قليلة، لا يتجاوزون الخمسة عشر شخصًا.

فأين هؤلاء من الَّذين ربَّاهم مُحَمَّد ﷺ، وفي حجة الوداع كان خلف النبي ﷺ حوالي ١٠٠ ألف يحجون مع النبي ﷺ.

ولذلك أثنى الله عليهم في هذه الآية الأخيرة من سورة الفتح، وفي أواخر سورة الأنفال، وفي سورة التوبة قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فحتى الَّذين اتبعوهم بإحسان لهم منزلة، فما بالك بهم؟

وفي سورة الحشر: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨، ٩].

والأحاديث الَّتي تُثني على الصحابة كثيرة أيضًا: «**خير النَّاس قرني، ثمَّ الَّذين يلونهم...**»[٢].

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٣١/٣)، وصحَّحه الألباني في تخريج فقه السيرة صـ ٢٢٣.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في فضائِل أصحاب النبي (٣٦٥١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٣٥٩٤)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

«لا تسبوا أصحابي...»[١].

والتاريخ يقول: من الَّذي فتح الفتوح؟ ومن الَّذي نشر الإسلام في العالم؟ ومن الَّذي حفظ لنا القرآن ونقله بعدهم جيلًا بعد جيل؟ ومن الَّذي نقل لنا سنَّة النبي ﷺ؟ إنَّهم الصحابة.

موقف الشيعة من الصحابة:

ومن نقاط الخلاف الَّتي بيننا وبين الشيعة: موقفهم من الصحابة، فكيف يمكن أن نسب الصحابة، أو نقول فيهم سوءًا، والقرآن يقول عنهم هذا، ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ والمؤمن لا يمكن أن يغتاظ من الصحابة أبدًا.

إنهم أعظم جيل رأته عين الدُّنيا، ربَّاهم مُحَمَّد ﷺ، فأحسن تربيتهم، وهم الَّذين شهدوا معه المشاهد، وغزوا معه الغزوات، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، المهاجرون والأنصار، المهاجرون الَّذين قال الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]، ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

الأنصار الَّذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠) كلاهما في فضائل الصحابة، عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] **والَّذين** وصفوا: بأنَّهم يكثرون عند الفزع، ويَقِلُّون عند الطمع[١]. هذه فئة مختارة لم تر الدُّنْيا مثلها.

لا يمكن أيُّها الإخوة أن ننصر الإسلام وننشره في العالم إلَّا بصحابة جُدد، يحملون روح الصحابة، وعزم الصحابة، ونيَّات الصحابة، وليس هذا ببعيد، فالصحابة لم يكونوا ملائكة ولا أنبياء، وإنَّما كانوا بشرًا مثلنا، ولكن تربوا في حضانة الإسلام، وفي مدرسة مُحَمَّد ﷺ.

ومدرسة مُحَمَّد ﷺ، باقية ومستمرة ما دام القرآن باقيًا، وما دامت سنة رسول الله وسيرته باقية، فالمدرسة مستمرة.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من تلاميذ هذه المدرسة النجباء، وأن يجعلنا من المقتدين، الَّذين اقتدوا بهذا الجيل فاهتدى، اللهمَّ آمين.

(١) ذكره الخطابي في غريب الحديث، وقال: يرويه الواقدي عن ابن أبي حبيبة عن داود بن الحصين عن محمود بن لبيد. انظر: غريب الحديث (٦٨٢/١)، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، نشر دار الفكر، دمشق، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

QaradawiBooks.com

الدرس الثاني
محمد رسول الله والَّذين معه في سورة الفتح

استمعنا إلى هاتين الآيتين الكريمتين من سورة الفتح الَّتي خُتمت بهما هذه السورة الَّتي نزلت بعد صلح الحديبية، وقد سمَّاه الله تعالى فتحًا مبينًا، هذه الآية من الجزء السادس والعشرين من القرآن الكريم تحدثنا عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه الغر الميامين، خير الأجيال، الَّتي لم تكتحل عين الدُّنْيا برؤية مثل هذا الجيل الَّذي تربَّى في حضانة رسول الله ﷺ، وتخرج في المدرسة المحمَّديَّة فكانوا أطهر النَّاس قلوبًا، وأزكى النَّاس أعمالًا، وأعظم النَّاس بلاءً في سبيل هذا الدين، لا عجب أن أكرمهم الله ﷻ فذكرهم في كتابه بأعظم ما يُذكر به البشر من الخلائق.

ذكرهم الله تعالى في هذه السورة في ختام سورة الفتح، وذكرهم الله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وذكرهم الله تعالى في هذه السورة سورة الفتح أيضًا فقال: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وذكرهم الله تعالى في سورة الحشر: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟

QaradawiBooks.com

مِن دِيَـٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٨، ٩].

حدَّثنا القرآن في آيات كثيرة عن أصحاب رسول الله ﷺ، كما حدَّثنا النبي ﷺ عن هؤلاء الصحابة وقال: «**لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا، ما أدرك مُدَّ أحدهم، ولا نصيفه**»[1].

ولا عجب أن نستمع إلى هذه الآية الكريمة تحدثنا عن رسول الله ﷺ وعن صحابته الكرام:

﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ مبتدأ وخبر كما يقولون، أي: إن هذه الآية تخبر عن رسالة رسول الله ﷺ، مُحَمَّد هو رسول الله لا شكَّ في ذلك، فهو رسول الله للعالمين، كل الأدلَّة تدلُّ على أنَّه رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق كما مر في الآية الَّتي قبل هذه الآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾ [الفتح: ٢٨].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٦٧٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٠)، عن أبي سعيد.

QaradawiBooks.com

ثم عطفت الآية على ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، عطف جملة على جملة؟ أم أنَّ المقصود ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ صفة لمحمد أو عطف بيان كما يقولون؟ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، أي ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ صفة للنبيِّ ﷺ والصحابة معه، أم هي صفة للصحابة بعد أن أخبر الله عن مُحَمَّد بأنَّه رسول الله؟ الاحتمالان قائمان.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] الجميع، أو أن هذه الصفة من أوصاف أصحاب رسول الله ﷺ الَّذين معه، هذه المعية وهذه الصحبة لها فضلها وآثارها، هذه المعية أكسبتهم نورًا من نور النبوة، فقد عايشوا رسول الله ﷺ، وعاشوا بين ظهرانيه وجبريل روَّاح غدَّاء بآيات الله، شاهدوا أسباب التنزيل، وشاهدوا آيات الله، وشاهدوا المعجزات، وشاهدوا نصر الله وتنزل الملائكة في بدر والخندق وحنين، هؤلاء الصحابة كانوا مع النبي ﷺ، ولذلك فضَّلهم الله تعالى وفضَّلهم رسوله ﷺ.

الشدة على الكفَّار المعتدين المحاربين للمسلمين:

وصفهم الله تعالى بهذه الصفات: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، كما قال الله تعالى في آيات أخرى في وصف أولئك المؤمنين المرجوين لنصرة الإسلام عندما يرتد الناس: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، هذا شأن المؤمنين الصادقين أنَّهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، أشداء على الكفَّار رحماء بينهم، وليس المقصود كل من ليس بمسلم، فالكافر المسالم الَّذي يعيش بين ظهراني المسلمين من أهل الذمَّة له

QaradawiBooks.com

ما للمسلمين وعليه ما عليهم في الجملة، ولم ينهنا الله أن نبرَّ هؤلاء، وأن نقسط إليهم، كما قال الله ﷻ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، وقد كان النبي ﷺ يُحسن إلى جيرانه من اليهود ومن غيرهم، وكان الصحابة يفعلون ذلك، وعمر أمر أن يُفرض ليهودي ما يكفيه هو وعياله من بيت مال المسلمين.

فالمقصود بالكفار هنا المعادون للمسلمين الَّذين يحاربون المسلمين، فهؤلاء الصحابة أشداء عليهم ولو كانوا أقرب النَّاس إليهم، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، رأينا في بعض الغزوات يقاتل الأب ابنه والابن أباه والأخ أخاه.

في غزوة بدر أُسر أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير، مصعب الداعية الإسلامي الأوَّل مبعوث النبي ﷺ إلى المدينة، مرَّ مصعب فوجد أخاه أبا عزيز في الأسر، قد أسره أحد الأنصار، فقال مصعب لأخيه من الأنصار: اشدد يديك عليه فإن له أمًّا غنية ذات مال كثير. أي: اطلب مالًا كثيرًا في فدائه فأُمُّه غنية تستطيع أن تفديه بمال كثير، فقال أبو عزيز لمصعب: أهذه وصاتك بأخيك يا مصعب؟! فقال مصعب: يا أبا عزيز إنَّه اليوم أخي دونك[1]. هو أخي ولستَ أنت، جمعتنا أخوة الإسلام، وباعَد بيني وبينك الشرك، هكذا كان الصحابة.

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، فيما بين بعضهم وبعض رحماء إلى حد ما يوصف بالذلة على المؤمنين.

(١) سبق تخريجه صـ٧٤٥.

QaradawiBooks.com

مدح الذل في القرآن في موضعين:

الله سبحانه لم يمدح الذل في القرآن إلَّا في موضعين: ذل الإنسان لأبويه، ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، وذل الإنسان لإخوانه المؤمنين، ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، هذه هي الرحمة المطلوبة، ولكن حينما تنعكس الآية وتنقلب الأوضاع يصبح المسلمون أشداء بعضهم على بعض، رحماء على غيرهم من أعدائهم، وهذه هي المصيبة أن يصبح المسلمون مع الأعداء في غاية أرقَّ من الحرير، وبعضهم مع بعض أشد من الحديد.

علاقتهم بالله ﷻ:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح: ٢٩]، العلاقة فيما بين بعضهم وبعض الرحمة والشدَّة على الآخرين، وعلاقتهم بالله علاقة التعبد، وثيقو الصلة بالله ﷻ ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾، أي أنَّهم مؤدين للصلاة، وخير ما يُعبِّر عن الصلاة الركوع والسجود، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح: ٢٩]، كما قال الله تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٤]، ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح: ٢٩]، يؤدون هذه الفريضة الَّتي تجعلهم دائمًا على موعد مع الله ﷻ.

إخلاصهم لله ﷻ:

ثم وصفهم الله تبارك وتعالى وصفًا آخر، فبعد أن بيَّن أنَّهم في ظاهرهم راكعون ساجدون، بيَّن أنَّهم في باطنهم مخلصون لله ﷻ فقال: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ [الفتح: ٢٩]، قد يصلي الإنسان وقد يقوم بالعبادات، ولكنَّه يرائي النَّاس بما يفعل، ولكن هؤلاء لا يبتغون رضا

QaradawiBooks.com

أحد ولا الشـــهرة عند أحد ولا السمعة من بشـــر، إنَّما يبتغون فضل الله ورضوانه في الدُّنْيا والآخرة ويسعون إلى هذا.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]، أي إن هذا النور الَّذي في الباطن ينضـــح على الظاهر، ما في القلوب يظهر على صفحات الوجوه وفلتات الألســـن كما جـــاء عن علي بن أبي طالب[١].

بعض الناس يظن هذا الأثر في الوجه الذي يســـمونه «زبيبة الصلاة» هو المقصود بهذه الآية وهذه الســـيما المذكورة في الآية، وقد قال ابن عبَّاس: أمَّا إنَّه ليس بالَّذي ترون، ولكنَّه ســـيما الإسلام وسَحْنته وسَمته وخشوعه[٢].

وقال مجاهد بن جبر: هو الخشـــوع، فقال له بعض تلامذته: هو أثر السجود. فقال: إنَّه يكون بين عينيه مثل رُكْبَة العَنْز وهو كما شاء الله[٣].

كم من إنســـان عنده هذا الأثر وقلبه أقســـى من الحجر! يعني ليس المقصود أنَّ الإنســـان عنده علامة أو «زبيبة صلاة» في جبهته، لا، إنَّما تعرفهم بسيماهم.

لَا تَسْـــأَلِ الْمَـــرْءَ عَـــنْ خَلَائِقِـــهِ وَفِي وَجْهِهِ شَـــاهِدٌ مِـــنَ الْخَبَرِ[٤]

---

(١) انظر: صبح الأعشـــى للقلقشـــندي (٢٦٧/٧)، نشـــر دار الكتب العلمية، بيروت. ولســـيدنا عثمان بن عفان قول قريب من هذا: ما أسر أحد سريرة، إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه. انظر: مجموع الفتاوى (١١٠/١٤).

(٢) تفسير الطبري (٢٦٤/٢٢).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) من شعر سلم بن عمرو. انظر: التمثيل والمحاضرة صـ ٧٧.

QaradawiBooks.com

صفة أصحاب رسول الله في التوراة:

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [الفتح: ٢٩]، ربنا يقول: هذه صفتهم في التوراة، لأن الله سجل أوصافهم في الكتب السابقة لإظهار فضل أصحاب رسول الله ﷺ، ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي فراخه ﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ﴾ قوي ومتن ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي: على سيقانه ونما وترعرع ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد قال الزجَّاج: الزُّرَّاع محمَّد ﷺ وأصحابه الدُّعاة إلى الإسلام رضوان الله عليهم[1].

غيظ الكافرين:

﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾، أعداء الإسلام كلَّما رأوا هذا الزرع نابتًا مترعرعًا، سخاءهم ذلك وأحزنهم، فكلما كان المسلمون أقوياء، غاظ ذلك أعداءهم، وكلَّما كانوا ضعفاء مهازيل مُمَزَّقين سَرَّ ذلك أعداءهم.

وعد الله للصحابة رضي الله عنهم:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿مِنْهُم﴾ «من» هذه بيانيَّة، أي هؤلاء الصحابة لهم هذا الفضل ولهم هذا التسجيل في كتب الله السابقة، ولهم في الآخرة هذه المغفرة وهذا الأجر العظيم من الله تبارك وتعالى بفضل صحبتهم لرسول الله ﷺ

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢٩/٥)، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، نشر عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

QaradawiBooks.com

وجهادهم بين يديه، هؤلاء الصحابة لهم فضل علينا ينبغي ألَّا يُذكروا إلَّا بخير، وأن نترضَّى عنهم، وألا نتناول ما اشتجروا فيه وتخالفوا فيه فذلك نتركه إلى الله تبارك وتعالى.

هؤلاء الصحابة لولاهم ما عرفنا الإسلام، هم الَّذين نقلوا إلينا القرآن، وهم الَّذين روَوْا لنا السنن، وهم الَّذين نشروا الإسلام في الآفاق وفتحوا الفتوح، لولا عمرو بن العاص ما كان الإسلام في مصر، لولا عقبة بن نافع ما كان الإسلام في بلاد المغرب، لولا الصحابة ما عرفنا الإسلام.

غير مرخصة للطباعة

نسأل الله تبارك وتعالى أن يرضى عنهم وأن يجزيهم عن الإسلام والمسلمين خيرًا، وأن يجعل لنا من ورائهم القدوة والأسوة، اللهمَّ آمين، وصل اللهمَّ على سيِّدنا وإمامنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

نسخة مجانية

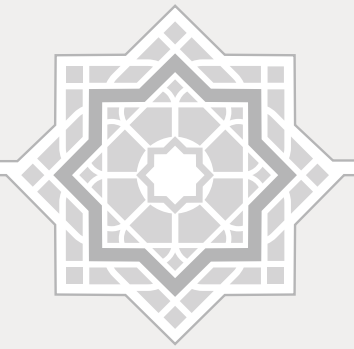
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



غير مرخصة للطباعة

من دروس التفسير

سورة النجم

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الأول
رحمة الله ومغفرته وسعت كل شيء
«من خلال سورة النجم»[١]

غير مرخصة للطباعة

ما أسرع ما تمرُّ الأيام! إنَّها تمرُّ مرَّ السحاب، وخصوصًا أيام الخير والفضل والنفحات، مثل أيام رمضان ولياليه المباركة.

فبالأمس القريب كنا نستقبل هذا الشهر، وما أسرع ما مرَّ علينا، وها نحن في الليلة السابعة والعشرين منه، ونسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل حظَّنا منه الرحمة والمغفرة والعتق من النار.

وهذه الليلة «ليلة السابع والعشرين من رمضان» هي من ليالي العشر الأواخر، الَّتي تُلتمس فيها «ليلة القدر»، كما قال النبي ﷺ: «**التمسوها في العشر الأواخر من رمضان**»[٢]، فهي أرجى ما تكون في هذه العشر الأواخر، وفي الليالي الأوتار منها، وهي الليالي الفرديَّة (٢١، ٢٣، ٢٥، ٢٧، ٢٩).

والمشكلة ـ أيُّها الإخوة ـ أنَّ المسلمين يختلفون في بدايات الشهور، فنحن الآن في ليلة (٢٧)، وفي وبعض بلاد المسلمين هي ليلة (٢٦)، ولذلك فالمطلوب من المسلم الَّذي يريد أن يخرج من هذا الشهر بمغفرة ورحمة،

مجانية

(١) من دروس تراويح ١٤٢٢هـ.

(٢) رواه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠٢١)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

التماسًا للأجر الَّذي في الحديث: «**من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه**»[١]، «**ومن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه**»[٢].

فلكي يضمن المسلم أنَّه سيقوم ليلة القدر، فعليه أن يعمل شيئًا، وأن ينشط في الليالي العشر كلها، فما أكثر ما نضيع أوقاتنا، وما تضيع إلَّا في لهو ولغو، لا يفيد في الدُّنْيا ولا في الآخرة، وقد وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]، فالأوقات ثمينة جدًّا، ولكن النَّاس يضيعونها.

وبعض الحكماء يقول: الوقت من ذهب، ولكن الأستاذ الإمام حسن البنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، له كلمة يقول فيها: الوقتُ هو الحياة. فالذهب يمكن أن يُعوَّض، وقيمته محدودة، أمَّا الوقت أغلى من الذهب وأغلى من الماس، وأغلى من أيِّ جوهر نفيس، لأن الوقت هو الحياة، والحياة: هي الوقت الَّذي تقضيه من مهدك إلى لحدك، من ساعة الميلاد إلى ساعة الوفاة، من صرخة الوضع إلى أنَّة النزع. وهذا الوقت هو حياتك، وإذا ضيَّعت وقتك ضيَّعتَ حياتك. ولذلك الَّذين يقولون: تعالوا نقتل الوقت، إنَّهم يقتلون أنفسهم، ينتحرون وهم لا يشعرون، ولذلك فعلينا أن ننتفع بالوقت، وخصوصًا في الأيام المباركة، الَّتي نتعرض فيها لنفحات الله، كما قال النبي الكريم ﷺ: «**ألا إنَّ لله في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها**»[٣].

---

(١) سبق تخريجه (٣٣٣/١).

(٢) سبق تخريجه (٣٣٣/١).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٢٣٣/١٩)، والأوسط (٢٨٥٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٧١٢): فيه من لم أعرفه، ومن عرفتهم وثقوا. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٩١٧)، عن محمد بن مسلمة.

نسخة محايدة
QaradawiBooks.com

وكان أُبَيّ بن كعب يحلف بأن ليلة السابع والعشرين هي ليلة القدر، وابن عبَّاس وابن عمر يقولان بذلك أيضًا. وخالفهم غيرهم.

فعلينا أن ننتفع بهذه الأوقات في الطاعات، والسيدة عائشة رضي الله عنها قالت: يا نبي الله، أرأيت إن وافقت ليلة القدر، ما أقول؟ قال: «**تقولين: اللهمَّ إنَّك عفو تحب العفو، فاعف عني**»[1]. فأفضل ما يُطلب من الله العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة.

وبقي أن نقف وقفة مع بعض ما استمعنا إليه من آي القرآن، في هذه الليلة، وأقف معكم عند قول الله تعالى من سورة النجم:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ [النجم: ٣١، ٣٢].

الله له هذا الملك «ملك السماوات والأرض»، وقد أقامه ليجزي الَّذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الَّذين أحسنوا بالحسنى.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾

فمن مقتضى ملك الله عزَّ وجلَّ، ومن مقتضى هذا الملك لهذا الكون، أن يُجزى المحسن على إحسانه، والمسيء بإساءته، وهذا مقتضى ملك الله، وإلا كانت الأمور فوضى، فيقتل القاتل، ويظلم الظالم، ويسرق السارق،

(١) رواه أحمد (٢٥٣٨٤)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح. والترمذي في الدعوات (٣٥١٣)، وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه في الدعاء (٣٨٥٠)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٦٤٣)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

وينهب الناهب، ثمَّ ينفض هذا السرادق كله، ولا يأخذ المظلوم مثوبته، ولا الظالم جزاءه.

فيعمل شارون وعصابته السفّاحون ما يريدون، يقتلون ما يقتلون، ويسفكون ما يسفكون، وتكون نهايتهم والمقتولين واحدة. فهل هذا معقول؟!

إن الله يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۞ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨]. هل من المعقول أن يصبح المتقون كالفجّار، والمؤمنون كالكفّار، والَّذين عملوا الصالحات كالذين عملوا السيّئات؟! ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]. لا يمكن أن يستوي هذا، فأين العدالة الإلٰهيَّة؟! فمقتضى الملك: أن يكون الملك عادلا، ومن مقتضى العدل: أن يأخذ الظالم عقوبة ظلمه، والمظلوم يأخذ مثوبته، وعامل الصالحات يُثاب، وعامل السيئات يُجزى بسيئاته. هذا هو مقتضى العدل الإلٰهي فكان لا بدَّ أن يجزي الله ﴿ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾.

قيمة هؤلاء المحسنين عند الله:

إنَّ كل إنسان يحب أن يكون من الَّذين أحسنوا، يحب أن يكون من المحسنين، لما لهم من منزلة عند الله، فهو سبحانه يحب المحسنين، ويزيد المحسنين، ولا يضيع أجر المحسنين، كما قال تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨]، ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧]، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

QaradawiBooks.com

من المحسنون؟

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾.

للمحسنين مقام عظيم عند الله. فمن هم هؤلاء؟ يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾.

فما أعظم مغفرة الله، وما أوسع أبواب الله، فالمحسنون هؤلاء ليسوا ملائكة مطهَّرين، ولا أنبياء معصومين، إنَّهم أناس لهم ذنوب، ولهم معاصي، قد تزل أقدامهم، وقد يتورطون في بعض السيئات، لكنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، كما قال الله في سورة الشورى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٦، ٣٧].

فهؤلاء المؤمنون المتوكلون هم الَّذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، أمَّا الصغائر فلم يسلم منها أحد، فيرغبنا الله في الابتعاد عن الفواحش، والموبقات من الزنى والخمر والسحر والعقوق، وشهادة الزور، وقذف المحصنات، إلخ، لأن بتركها يغفر الله الصغائر، الَّتي لا يخلو منها أحد، وهذا فضل عظيم من الله ﷻ.

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾

فسَّر العلماء «اللَّمم» بتفسيرين:

التفسير الأوَّل: إمَّا أن يكون صغائر الذنوب، وهي عادة ما تكون مقدمات الكبائر، فالزنى ـ مثلًا ـ من الكبائر، وله مقدمات: النظر بشهوة إلى المرأة الأجنبية، أو لمسها.. فتعد هذه من الصغائر، فلو منعت نفسك عن الكبيرة، يغفر الله لك هذه المقدّمات، وهذا ما صرَّح به القرآن، ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [النساء: ٣١].

QaradawiBooks.com

وفي صحيح مسلم، يقول النبي ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر**»[١]. فابتعد عن هذه المهلِكات، وسيغفر الله لك هذه الصغائر بالصلوات والجمع وصيام رمضان إن شاء الله.

بل أكثر من ذلك: أنَّ المصائب الَّتي تنزل بالإنسان تكفِّر هذه الصغائر، حتَّى الشوكة يُشاكها، يكفِّر الله بها من الخطايا. فجعل الله لك أنهارًا تغتسل فيها، نهرًا بعد نهر، فالصلوات الخمس نهر تغتسل فيه من بعض أوساخك، والجمعة كذلك، والصدقات، والتوبة، والتسبيح، والتهليل، والتكبير، وصلة الرحم، إلخ، وبعد ذلك: المصائب الَّتي تنزل بك، وعذاب القبر يكفِّر.. وهكذا، ومن لم تطهِّره هذه المُطهِّرات كلها، لا يُطهِّره إلَّا النَّار، والعياذ بالله، إلَّا أن يعفو الله عنه.

فجانب العفو والرحمة من الله، جانبٌ واسعٌ جدًّا، وهو أقوى من جانب العدل، ولذلك جاء في الحديث القُدسي: «**إنَّ رحمتي سبقتْ غضبي**»[٢]. ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. ولذلك يُجازي الله على السيِّئة بمثلها أو يعفو، أمَّا الحسنة فبعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، أو يزيد، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]. فلا يضع عليك سيئات غيرك، ولا يضيع حسناتك ليأخذها غيرك، بل يعطي الحسنة بعشر أمثالها، وليس هذا فقط، بل ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

---

(١) سبق تخريجه (٤٧٩/١).

(٢) سبق تخريجه صـ٦٣٦.

QaradawiBooks.com

تغليب بعض الفرق لجانب العدل عند الله على جانب الرحمة:

هذه القضيَّة غفل عنها الخــوارج والمعتزلة، ومن لفَّ لفهم، وقالوا: وعيد الله لا بدَّ أن يُنفَّذ، وأن مرتكب الكبيــرة خالد في جهنم. فأخرجه الخوارج من الملة، وكفَّروه بكبيرة واحــدة. وأمَّا المعتزلة فقالوا: يدخل في جهنم لا يخرج منها، ولكنَّه في منزلة بين المنزلتين. ولذلك: أنكروا الشفاعة، إلَّا شفاعة رفعة الدرجات.

ووقع في هذا الخطأ، أخونا الدكتور مصطفى محمود، فأنكر الشفاعة في الآخرة، واعتبرها ضربًا من المحســوبية والمحابــاة، وليس عند الله محسوبية ولا محاباة. ونســي جانب الرحمة من الله تعالى، غلَّب جانب العدل ونسي جانب الفضل.

وأنا أقــول له: هذه الشــفاعة أشــبه بلجــان الرأفة، فــي لجان الامتحانات، فقد يكون الطالب بحاجة إلى درجة أو درجتين لينجح، على شــفا حفرة كما يقولون، ويحتاج إلى درجتين أو ثلاثة لينجح، فتقول لجنة الرأفة: أعطوهم له لئلا يعيد هذه السنة. فهذه رأفة البشر للبشر. فكيف والله هو الرؤوف الرحيم، وهو أرحم الراحمين، فلماذا تُنكرون هذا؟

المحسنون ليسوا معصومين من الذنوب:

فالذين أحسنوا هم ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾، أي: ليسوا هم المعصومين من الذنوب، فالله حين وصف المتَّقين، قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعــراف: ٢٠١]، يعني هذا أنَّ الشيطان يُمكن أن يمسَّ هؤلاء المتَّقين، ولكن ســرعان ما يعودون، ويتوبون، وتســتيقظ ضمائرهم، يمكــن أن يقع في

QaradawiBooks.com

الفاحشة والمعصية، كما وصف الله المتَّقين، في سورة آل عمران: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۞ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٥]. وهل يفعل المتقون فاحشة؟! نعم.

ولذلك لما سئل الجُنيد ـ وهو المربّي الصوفي الكبير ـ أيزني الولي؟! فأطرق برأسه إلى الأرض، ثمَّ قال: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورٗا﴾ [الأحزاب: ٣٨][1]، يمكن كل شيء يقع، ولذلك قال الله هذا عن المتَّقين، والأولياء هم المتقون. ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

المحسنون لا يستمرئُون المعصية:

فالله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ ميزة هؤلاء أنَّهم لا يستمرؤون المعصية، ولا يسيرون في طريقها، فالمعصية ليست خطا أساسيًّا في حياتهم، وإنَّما واقعة يقعون فيها، ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ فميزة المتَّقين أنَّهم لا يصرُّون على المعاصي، ويستدركون على أنفسهم، وسرعان ما يرجعون، ويقرعون أبواب الله، ويقولون ما قال آدم وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣١٨/٢).

QaradawiBooks.com

هذا هو التفسير الأوَّل لـ «اللمم»: أن يكون المقصود به: صغائر الذنوب والسيئات، الَّتي يقع فيها الإنسان، ولا يخلو منها إنسان، كما جاء عن النبيِّ ﷺ أنَّه كان يقول:

«إِنْ تَغْفِرْ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا؟!»[1]

يا ربِّ، إن تغفر، تغفر الجم والكثير من الذنوب، وأي عبد من عبادك لم يلم بالذنوب؟

أمَّا التفسير الثاني لـ «اللمم»: أنَّه الكبيرة يقع فيها العبد تزل قدمه مرَّة أو مرتين، فهو رجل مستقيم، ولكن تقع له أحيانًا، تتعرض له فتنة فينسى نفسه ويضعف، ويتمكن الشيطان منه، فيقع في حُفرة المعصية، ثمَّ سرعان ما يستيقظ، ويستدرك على نفسه، ويرجع إلى ربِّه، ويتوب إلى الله ﷻ. ويدل عليه ـ كما مر معنا ـ قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾

فانظروا فضل الله ﷻ، فالذين أحسنوا هم: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ ومن سعة مغفرة الله، أنَّه أدخل عباده هؤلاء في عباده المحسنين، ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ رحمته وسعت كل شيء، فليس هناك ذنب يستعصي على مغفرة الله، مهما كان هذا

(١) رواه الترمذي في التفسير (٣٢٨٤)، وقال: حسن صحيح غريب. والحاكم في التفسير (٤٦٩/٢)، وصحَّحه على شرطهما ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٧٩). عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

الذنب، فإذا كان ذنبك عظيمًا، فإن مغفرة الله أعظم وأوسع، وهو يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾

من سعة مغفرته أنَّه يعلم بضعفكم، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أنتم مخلوقون من طين، والطين لا يخلو من الكدر، ومن ينتظر أن يكون الطين صافيًا صفاء البلور؟! لم يخلقكم من الماس ولا من البلور، ولا من غيرها وإنَّما من الطين، وما دام الإنسان من الطين، فلا عجب أن ينزع إلى الطين، ويُخلد إلى الأرض، ويرجع إلى أصله، ويقع في المعصية، ولكن المهم ألا يستمر في طريق المعصية.

ولأن الله أعلم بنا كما قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ يعرف ضعفَنا منذ نشأتنا، وسَّع مغفرته لنا، ورحمته بنا.

فعلينا أن نعرف عظمة هذه المغفرة، وسعة هذه الرحمة، لنقبل على الله ﷻ، إذ ليس معنى هذا أن نقول: رحمته وسعت كل شيء. ثمَّ نسير في طريق المعاصي، وركْب الشيطان.

بل يجب أن نذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فعلينا أن نكون بين الرجاء والخوف دائمًا، نحذر الآخرة، ونرجو رحمة ربنا، كهؤلاء الَّذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، لا نيئس من رَوْح الله، ولا نقنط من رحمة الله، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

QaradawiBooks.com

نسأل الله تبارك وتعالى، في هذا الشهر الكريم، وفي هذه الليالي المباركة، وفي هذه الليلة العظيمة، أن يغفر لنا ويرحمنا، ويتقبَّلنا في الصالحين من عباده، ويتوب علينا توبة نصوحًا، ويتمَّ علينا نعمته، وينزل في قلوبنا سكينته، وينشر علينا فضله ورحمته، وينصر إخوتنا المجاهدين في سبيله، ويخذل أعداءنا أعداء الإسلام، ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧] اللهمَّ آمين.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الثاني
الإحسان من سورة النجم[1]

حكمة خلق السماوات والأرض:

قرأنا في سورة النجم قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ۝ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣١، ٣٢].

مِلك السماوات والأرض، ومُلك السماوات والأرض، وخلْق السماوات والأرض، هذا الكون خلقه الله لحكمة، لم يخلقه عبثًا، ولم يخلقه باطلًا، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۝ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨].

هذا ظن الَّذين كفروا، ظن الَّذين كفروا أنَّنا نسوِّي بين المحسن والمسيء، وبين التقي والفاجر، وبين المؤمن والكافر، وبين الخيِّر والشرير، وبين العادل والظالم، هذا مستحيل في عدل الله تعالى

(١) من دروس تراويح ١٤٢٤هـ.

QaradawiBooks.com

وحكمته، ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، ساء هذا الحكم، وساء هذا الظن، وساء هذا التقدير، أن يُظَن أنَّ الله يسوِّي بين الأمرين، أين العدل؟! وأين الحكمة؟!

إذا كانت الدُّنْيا يحدث فيها أحداث، يظلم الظالم، وينهب الناهب، ويسرق السارق، ويقتل القاتل، ويطغى الطغاة، ويتجبرون في الأرض بغير الحق، ويسفكون الدماء، ويهتكون الأعراض، وينتهكون الحرمات، ويفعلون كل الأفاعيل، وفي النهاية يموتون ولا تقتص منهم يد العدالة في الدنيا؟!

لماذا؟ لأنَّ العدالة أحيانًا لا تصل إلى كل مجرم، بعضهم كان يقول: أصل القانون هذا حمار، أنا أضحك على القانون، ويتحايل على القانون، أحيانًا يكون حارس القانون هو من يسرق، المفروض يحاسب المجرمين، ولكنَّه هو المجرم، كما يقولون: حاميها حراميها.

وراعي الشاةِ يحمي الذئبَ عنها فكيف إذا الرعاةُ لها ذئابُ[1]؟!

الإنسان إذا عاش في الدُّنْيا ينهب النَّاس ثمَّ ينتهي بالموت، فأين العدل الإلٰهي؟ ماذا أخذتُ أنا أيُّها المظلوم؟ إذا قُتلتُ أنا ظُلمًا فمن يأخذ لي حقي؟ قد يقال: يكفي أن من ظُلم يشعر بالسكينة النفسية، والسعادة الروحيَّة، نعم لكن هذا الَّذي قُتل مظلومًا لم يأخذ شيئًا، أين تكون العدالة؟

(١) انظر: الدميري في حياة الحيوان الكبرى (٥٠٤/١).

QaradawiBooks.com

العدل الإلٰهي:

العدالة في الدار الأخرى، مستحيل أن ينفض سوق هذا الكون ولا يأخذ الإنسان حقه، لا يأخذ المجرم حقه ولا يأخذ المظلوم حقه، لا يوفَّى كل إنسان ما كسب، ولذلك كان لا بدَّ من الدار الآخرة، هذا مقتضى مُلك الله تعالى لهذا الكون، مقتضى خلق السماوات والأرض، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٤٠].

فالحق الَّذي خلق الله به السماوات والأرض أن يُجزى الَّذين أساؤوا بما عملوا، ويُجزى الَّذين أحسنوا بالحسنى، ولذلك حينما قال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، ثمَّ قال: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢].

هذا مقتضى الحق الإلٰهي الَّذي خلق به السماوات والأرض، وقامت عليه السماوات والأرض، هذا هو العدل، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾، لا بدَّ أن يُجزي كلَّ إنسان بما عمل، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ولذلك نقرأ هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٩]، مِلكًا ومُلكًا.

QaradawiBooks.com

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، الَّذين أساؤوا يُجزون بإساءتهم لا يظلمهم الله، لا يُظلم أحد عند الله، ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

في جانب السيِّئة العدل، وفي الجانب الآخر الفضل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠]، بعد المضاعفة يؤتي أجرًا منه فضلًا من عنده.

المهم لا يُظلم أحد عند الله، لا يخاف أحد عنده ظلمًا ولا هضمًا، ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾ [طه: ١١٢]، لا يُظلم بأن يُحمَّل سيئات لم يعملها، ولا تضيع حسناته الَّتي عملها ولا يأخذها غيره، يأخذ حقه، كما قرأنا في السورة نفسها، سور النجم قول الله: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ۝ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ۝ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾ [النجم: ٣٦ ـ ٤١].

كل واحد يأخذ حقه، ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾ [النحل: ٣٠]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٦]، قال المفسرون: الحسنى هي: الجنَّة، والزيادة هي: أن ينعموا برؤية الله تعالى ورضوانه، ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾، الإساءة تكون إمَّا بترك المأمور، أو بفعل المحظور، أن يأمرك الله بأمر فتتركه، كالذين يتركون الصلاة، أو يمنعون الزكاة، أو لا يصومون رمضان، أو لا يحجون البيت، أو لا يبرون

QaradawiBooks.com

الوالديـــن، أو لا يصلون الأرحام، أو لا يكرمـــون الجيران، ولا يقومون بحقوق الله ولا بحقوق النَّاس، تركوا المأمور، كل ما أمر الله به.

أو فعلوا المحظور، ربنا حرم أشـــياء فانتهكـــوا هذه المحرمات، حرم الزنى، حرم شـــرب الخمر، حرم السرقة، حرم الغش، حرم أكل أمـــوال النَّاس بالباطل، حرم الرشـــوة، حرم أشـــياء كثيرة، محرمات الأيدي، ومحرمات اللســـان، ومحرمـــات الأذن، ومحرمات العين، ومحرمات البطن، هناك محرمات هم ارتكبوا هذه المحظورات، إمَّا تركوا المأمور، أو فعلوا المحظور، هذه هي الإســـاءة، ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾.

مجالات الإحسان:

﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، من هـــؤلاء الَّذين أحســـنوا؟ الَّذين أحســـنوا العمل، أدوا ما أمرهم الله تعالى به، وانتهوا عمَّا نهاهم الله عنه، ﴿ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾، المحسنون، كلمة: «محســـن» كلمة عظيمة، ليس فقط المحســـن هو الَّذي يتصدق على المحتاجين، هذا من الإحســـان، إنَّما الإحســـان كلمة أكبـــر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحـــل: ١٢٨]، ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الحـــج: ٣٧]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

الإحسان شيء عظيم، حتَّى أنَّ النبيَّ ﷺ لما سُئل عن الإحسان قال: «**الإِحْسَـــانُ أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك**»[1]، وهذا إحسان في العبادة، ولكن الله كتب الإحسان على كل شيء، كما جاء في

(١) متَّفق عليه رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

الحديث الصحيح، حديث الأربعين النووية: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبح، وليُحِدَّ أحدكم شَفْرَتَه، فَلْيُرِحْ ذبيحته**»(١).

ما معنى الإحسان؟ الإحكام والإتقان، إحسان الشيء أن تجعله حسنًا متقَنًا، تؤديه كما ينبغي تمامًا، «**إنَّ الله يحبُّ إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه**»(٢).

لأن المحسن يتخلق بأخلاق الله، فالله ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ**»، أي: فرض الإحسان، «**على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبح**»، حتَّى من يقتل ـ طبعًا لا يجوز القتل إلَّا بحق ـ لا يجوز له أن يعذِّب من ينفِّذ فيه حكم الإعدام، ولذلك يحرم القتل إلَّا بسيف حاد صارم، وفي ذبح الحيوان قال: «**وليُحِدَّ أحدكم شَفْرَتَه، فَلْيُرِحْ ذبيحته**»، يضجع الذبيحة ويريحها، ويُحد السكين، ولا يحد السكين ولا يَسنها أمامها، لأنَّها تحس وتتألم، وكذلك لا يذبح بهيمة أمام أخرى، وهكذا، هذا كله من الإحسان.

الخطأ من شأن الإنسان:

﴿لِيَجۡزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِىَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، هل هؤلاء الَّذين أحسنوا لا يقعون في خطأ قط؟ ولا في معصية قط؟ هل هم معصومون؟ هل هم ملائكة مطهرون؟ هل هم رسل عصمهم الله من كل

(١) رواه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، وأحمد (١٧١١٣)، عن شداد بن أوس.

(٢) رواه أبو يعلى (٤٣٨٦)، والطبراني في الأوسط (٨٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٢٩)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٠)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

معصية وخطيئة؟ لا. هم بشر، وما داموا بشـــرًا فالبشر خُلقوا من طين، والطين لا يخلو من الكدر، هم أبناء آدم، وآدم عصى ربه، وإذا كان آدم قد عصى فليس عجيبًا أن يعصي أولاده وذريته من بعده.

لكن ميزة آدم أنَّه عصى وتاب، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، غسل نفســه من خطيئته حينما تاب وتاب الله عليه، ﴿قَالَا﴾، أي قال آدم وزوجته: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولذلك قال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

فالإنسان إذا أساء عليه أن يغسل الإساءة بالتوبة، ولذلك القرآن فسر ﴿ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ في الآية الَّتي بعدهــا فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]، الَّذين أحسنوا ليسوا أنبياء وليسوا ملائكة، بل هم بشر يمكن أن يقعوا في الذنــوب، المهم أن يجتنبوا كبائر الإثــم والفواحش. وفي سورة الشورى الله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشــورى: ٣٧]، هنا أيضًا في وصف الَّذين أحسنوا قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾.

تعريف اللمم:

ما هو اللمم؟ المفســرون ذكروا في معنى اللمم تفســيرين: التفسير الأوَّل: أنَّ اللمم صغائر الذنوب، المهــم ألا تقع في الكبيرة، يعني مثلا الزنى هو الكبيرة، إنَّما ما قبل الزنى يعدّ من الصغائر، فلو عصمتَ نفسك ولم تقع في الزنى، وتركتَ هذا لله ﷻ، ربنــا يعفو عن المقدمات هذه

QaradawiBooks.com

كلها، كما جاء في كتاب الله في سورة النساء: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

لأنَّ الصغائر لا يخلو الإنسان من أن يلم بها، كما جاء في الحديث: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»[١]، كلكم خطَّاء يقع في الخطيئة، والنبي ﷺ كان يقول: «**إن تغفر اللهمَّ تغفر جمًّا، وأي عبد لك لا ألمًّا**»[٢].

مَن هذا العبد الَّذي لم يلمُّ بصغيرة من هذه الصغائر؟! هذا تفسير، وهو جاء عن ابن عبَّاس، واستدل بالحديث: «**لكلِّ بني آدمَ حظٌّ من الزنى، فالعينان تزنيان وزناهما النظر، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرجلان تزنيان وزناهما المشي، والفم يزني وزناه القُبْلة، والقلب يهوى ويتمنَّى، والفَرْجُ يُصدِّق ذلك، أو يُكَذِّبه**»[٣]، فالزنى الحقيقي زنى الفرج، وما عدا ذلك فهي من المقدمات كما يفسرها ترجمان القرآن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، هذا هو التفسير الأول.

والتفسير الآخر: أن يلم بالكبيرة ثمَّ يتوب، يعثر ويقع في الكبيرة ولكنَّه لا يصر عليها. ولذلك سئل الإمام الجنيد وهو شيخ المريدين، ومربي الصوفيَّة الكبير، قالوا له: أيزني الولي؟ فأطرق رأسه ثمَّ قرأ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨][٤]، حتَّى الولي يمكن أن يزني، لكن لا يستمر في المعصية بل سرعان ما يستيقظ ضميره وسرعان ما يقرع باب ربه ويقول: رب اغفر لي وارحمني.

---

(١) سبق تخريجه (٤٦٨/١).

(٢) سبق تخريجه صـ٧٩٩.

(٣) سبق تخريجه صـ٣٩٥.

(٤) سبق تخريجه صـ٧٩٨.

QaradawiBooks.com

الواحد مهما علا كعبه في التَّقوى ومهما كان قدره من الصلاح يمكن أن يغره الشيطان، لكنَّه يرجع سريعًا إلى ربِّه، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فالإنسان قد يلم بكبيرة ثمَّ يتوب ويستغفر الله تعالى منها ولا يستمر في غلوائه، ولا يستمرئ طريق المعصية ويسير في ركْب الشيطان ويسلم زمامه له، هذا هو الخطر.

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾، فقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾، يبين أن ربنا قدَّر بها الضعف الإنساني، إنَّ الإنسان ضعيف، ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، فـ ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾، لا تضر بالإحسان، بل يظل الإنسان من الَّذين أحسنوا، ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾، يسع هذا اللمم ويغفره، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، هو عالم بضعفكم، أنتم أصلكم نشأتم من الأرض، من الطين، والطين لا يخلو من الكدر كما قلنا، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، خلقكم من ضعف.

﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، كن دائمًا في عفو الله، متوكلًا على عفو الله، لا تتوكل على عملك، ولا تزكي نفسك، ولا تمدح نفسك وتقول: أنا وأنا وأنا، ولكن قل دائمًا: يا رب، يا رب اعصمني من المعصية حتَّى لا أقع فيها، فإن وقعتَ فيها قل: يا رب اغفر لي ما وقعتُ فيه، كن مع الله دائمًا، لا تزكي نفسك، ولكن احمد ربك وسبّحه بالعشي والإبكار، فالله هو أعلم بأهل التَّقوى من أهل الرياء، أهل الإخلاص من أهل الشهرة والمحمدة.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يتقبلنا ويقبلنا، ويغفر لنا ما مضى، ويصلح لنا ما بقي، ويجعلنا من الَّذين أحسنوا، الَّذين يجزون الحسنى وزيادة، إنَّه سميع قريب. وصلى على سيِّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي

من دروس التفسير

سورة الرحمن

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الصلة بالقرآن في رمضان

نحن في ليال كلها خير وبركة تُلتمس فيها ليلة القدر، وهي خير من ألف شهر، لأنَّها الليلة الَّتي أنزل فيها أعظم كتاب على أعظم رسول لأعظم أُمَّة بأعظم شريعة، الليلة المباركة، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۞ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٣، ٤]، لأنَّها نزلت بالقرآن الَّذي يفصل الأحكام ويشرع القوانين والقواعد لإقامة العدل بين البشر، ولتعريف النَّاس بما يهديهم إلى الله ويهديهم إلى الجنَّة، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

ومن فضل الله على المسلمين في شهر رمضان أنَّه يصلهم بهذا القرآن العظيم اقتداءً بما كان يفعله النبي ﷺ مع جبريل حينما ينزل جبريل ويتدارسان القرآن، أمين أهل السماء وأمين أهل الأرض يتدارسان القرآن[1]، فنحن نتدارس القرآن ونحاول أن نتدبر القرآن معًا كما علَّمنا الله تعالى وكما أرشدنا بقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]،

(١) كما جاء في الحديث عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ أجود النَّاس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة. متَّفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٠٨).

QaradawiBooks.com

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

ولقد عشنا مع القرآن الكريم خلال ليالي هذا الشهر كله، وحاولنا أن نقطف من ثمار القرآن ومن أزهاره الكريمة، ونقتبس من أنوار هذا الكتاب العظيم ما يفيدنا في ديننا ودنيانا وآخرتنا.

سورة الرحمن سورة مكيَّة:

نحن في هذه الليلة نقف عند آيات من سورة الرحمن، وسورة الرحمن سورة مكيَّة وإن قال بعض الرواة إنَّها سورة مدنيَّة، وجعلوها بعد سورة الرعد وقبل سورة الإنسان، وجعلوا السور الثلاثة هذه مدنيَّة، والحق أن هذه السور كلها مكيَّة، سورة الرعد مكيَّة، وسورة الإنسان مكيَّة، وسورة الرحمن مكيَّة، موضوعها مكي، أسلوبها مكي، نفَسُها مكي لا شكَّ في هذا.

بداية المفصل وتحزيب القرآن:

وسورة الرحمن من سور المفصَّل، وكان سيِّدنا عبد الله بن مسعود الإمام العالم القارئ الَّذي أوصى النبي أن نأخذ عنه القرآن[1]. عبد الله بن أمِّ عبد كان أوَّل المفصل عنده سورة الرحمن، إنَّما القول المشهور والصحيح أنَّ المفصل يبدأ بسورة ق، فقد جاء في الحديث الَّذي رواه أبو داود وغيره عن أوس بن حذيفة أنَّ النبيَّ ﷺ أبطأ عليهم

(١) كما ورد في الحديث المتَّفق عليه، عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود ـ فبدأ به ـ وسالم، مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب». رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٠٨)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٦٤).

QaradawiBooks.com

ليلة فسألوه: ما الَّذي بطَّأك علينا يا رسولَ الله؟ قال: «**إنَّه طرأ عَلَيَّ حزبي من القرآن، فكرهت أن أقطعه حتَّى أفــرغ منه**»، يقول أوس بن حذيفة: ســألنا أصحاب رســول الله ﷺ كيف يحزِّبون القــرآن؟ فقالوا: ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة، وما بين «ق، والقرآن المجيد» إلى آخر المفصل[1].

أي أنَّ الصحابــة حزَّبوا القرآن ثلاث ســور، وبعدها خمس ســور، وبعدها سبع ســور، وبعدها تســع ســور، وبعدها إحدى عشرة سورة، وبعدها ثلاث عشرة سورة، فيكون العدد ثمانية وأربعين سورة، ثمَّ يأتي بعدها المُفصَّل، بعد الثمانية وأربعين تأتي سورة ق، فهذا هو الصحيح، فهو تحزيب الصحابة.

بعد ذلك حزَّب النَّاس تحزيبات أخرى، حزَّبوه تحزيبًا كَمِّيًا، حزَّبوه ستِّين حزبًا، كل طائفة من الآيات جعلوها حزبًا، وبعدها قسَّموا الأحزاب أربعة أرباع، كل حزب أربعة أرباع، وبعدها عملــوه أجزاء، كل حزبين جزء، فأصبح القرآن ســتِّين حزبًا وثلاثين جــزءًا، وأصبحنا نعرف هذه الأجزاء وهذه الأحزاب، ولكن هذا كله تقســيم المتأخرين، يعني ليس تقسيم الصحابة ولا تقسيمًا توقيفيًّا، وهناك بعض الأجزاء تبدأ بداية غير موفقة وكذلك بعض الأرباع.

مثلًا من ينظر إلى الحزب الخامس من القرآن الكريم يجده يبدأ بقول الله تعالــى: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النســاء: ٢٤]،

(١) رواه أحمد (١٦١٦٦)، وقال مُخَرِّجوه: إســناده ضعيف. وأبو داود في الصلاة (١٣٩٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٤٥)، وحسن إسناد ابن ماجه العراقي في تخريج الإحياء صـ ٣٢٧. عن أوس بن حذيفة.

QaradawiBooks.com

يعني لم يكمل المحرَّمات الَّتي بدأت بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٢٣]، ثمَّ يبدأ الجزء بالآية الَّتي تلي هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤].

وأحيانًا نجد الربع أيضًا يبدأ بداية غير موفقة، كالربع الَّذي يبدأ بقوله تعالى على لسان الكفار: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۞ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٦ ـ ٣٨]، فبدأ بكلام الكفار، وهذه تقسيمات ليست توقيفية، فمن حقنا أن ننظر فيها.

مخاطبة الجن والإنس في سورة الرحمن:

كان الجن أحسن مردودًا وتجاوبًا من الإنس مع النبي ﷺ، لأن السورة تخاطب الثقلين، ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣١، ٣٢]، الخطاب في هذا المثنى لمن؟ للجن والإنس، ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣٣، ٣٤].

اسم «الرحمن»:

بدأت السورة بهذا الاسم الكريم: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الرحمن: ١]، كما قلتُ لكم في تفسير الفاتحة في أوَّل درس لنا في هذا العام أن «الرحمن» عَلَم على

QaradawiBooks.com

الذات الإلٰهيَّة مثل «الله»، هذان الاسمان عَلَم على الله ﷻ، ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، بخلاف «الرحيم» فهذا الاسم صفة، إنَّما «الرحمن» عَلَم، ولهذا جاء في القرآن في سورة الفرقان: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ [الفرقان: ٦٠]، فكانت هذه السورة ردًّا على هؤلاء المشركين الَّذين جهلوا الرحمن، لم يعرفوا من هو الرحمن، ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، أراد الله أن يعرِّفهم بعظمة هذا الاسم وصاحب هذا الاسم، والنعم الَّتي أفاضها الله على عباده، وهي نعم تغمر النَّاس من رؤوسهم إلى أقدامهم، نعم دينيَّة ونعم دنيويَّة، نعم روحيَّة ونعم ماديَّة، ينبغي للنَّاس أن يعرفوا قيمة هذه النعم الَّتي أنعم بها الرحمن.

ذكرت كلمة «الرحمن» سبعة وخمسين مرَّة، منهم الَّتي في بداية الفاتحة، ولكن لم يحسب الشيخ مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي في كتابه: «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» هذا الكتاب المهم لمن يريد أن يتعرف على القرآن لم يذكر ما جاء في فواتح السور في البسملة، لأن هناك مائة واثنتا عشرة سورة بدأت بالبسملة إذا استثنينا الفاتحة، فالبسملة آية منها، وسورة التوبة لم تُكتب في أولها البسملة، فينبغي أن نضيف السبعة وخمسين مرَّة الَّتي ذكر فيها اسم «الرحمن» على المائة والاثني عشر موضعًا فيكون عدد المواضع الَّتي ورد فيها ذكر اسم «الرحمن» مائة وتسعة وستين موضعًا.

ذكر اسم الرحمن مفردًا ومقرونًا:

أحيانًا يذكر «الرحمن» فقط كما في هذه السورة، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٠]، وكما في قوله ﷻ:

QaradawiBooks.com

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وأحيانًا يقرن اسم «الرحمن» باسم «الرحيم»، كما جاء في البسملة، وفي الفاتحة، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢].

يريد الله تعالى أن يشيع جو الرحمة، فليس الإسلام دين العنف كما يقول بابا الفاتيكان، وكما يقول المُنَصِّرون والمستشرقون بأن الإسلام دين العنف، لأن عقيدتهم قائمة على العنف، إنَّهم لا يعرفون الله إلٰه المحبة كما يقولون في التوراة، بل الإلٰه في الإسلام ـ كما يزعمون ـ إلٰه الجبروت والانتقام، تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا.

طبعًا نحن ذكرنا أن هذا افتراءً على هذا القرآن وعلى هذا الإسلام، لأن اسم «جبَّار» لم يرد في القرآن إلَّا مرَّة واحدة في سورة الحشر، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، هو جبَّار على من؟ هو جبَّار على الظلمة والطغاة والمتألهين في الأرض والمستكبرين على الخلق، هؤلاء يحتاجون إلى جبَّار، فهو جبروت في موضعه، وتقتضيه الحكمة ويقتضيه العدل.

إشاعة جو الرحمة والتذكير بالنعم الدينيَّة ثمَّ الدنيويَّة:

بالعكس الإسلام بعقيدته وشريعته يُشيع في نفس المسلم جو الرحمة، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ومن آثار رحمانية الله تعالى ما ذكره في هذه السورة الكريمة سورة الرحمن.. بدأ بذكر النعم الدينيَّة قبل النعم الدنيويَّة، والنعم الروحيَّة قبل النعم الماديَّة فقال تبارك تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢]، أوَّل نعمة امتنَّ الله بها وعرف خلقه بها ودلَّهم

QaradawiBooks.com

عليها تعليم القــرآن، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾، التذكير بتعليم القرآن أهم من التذكير بخلق الإنســان وإيجاد الإنســان؛ لأن القرآن هو الَّذي يهدي إلى الله، وهو الَّذي يهدي إلى الصراط المستقيم، وهو الَّذي يهدي إلى الَّتي هي أقوم، وهو الَّذي يأخذ بيد الإنسان إلى الجنَّة وإلى رضوان الله وإلى النعيم المقيم، فكان تعليم القرآن هو أعظم النعم.

الله علَّم القــرآن لنبيِّه مُحَمَّد ﷺ، ومحمــد ﷺ يُعلِّم الأمة، ليس الَّذي علَّم القرآن لمحمد بشرًا كما زعموا وقالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ ـ فردَّ الله عليهم ـ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ﴾ [النحل: ١٠٣]، كان في مكَّة بعض النجارين والحدادين من بلاد شــتَّى من غير العرب من أجناس شــتَّى، وبعضهم كان من النَّصارى، فقال المشركون: يبدو أنَّ النصراني هذا لأنَّه يعرف الإنجيل أو يعرف التوراة هو الَّذي علَّم محمدًا. وهو لا يعرف العربيَّة فكيف يعلِّم محمــدًا ﷺ؟! الَّذي علَّــم محمدًا القرآن هــو الله ﷻ، الله هو المعلِّم. كما قال أمير الشعراء شــوقي في قصيدته الشهيرة في فضل المعلم الَّتي قال فيها:

قُــمْ للمُعَلِّــمِ وفِّــه التبجيــلا ... كاد المعلِّــم أن يكــونَ رســولَا

ثم قال:

ســبحانَك اللهــمَّ خيــرَ معلِّــمٍ ... علمتَ بالقَلَــمِ القُــرُونَ الأُولَى
أرسلتَ بالتوراة موســى مُرْشِدًا ... وابــنَ البَتُــولِ فعَلَّــم الإنجيــلَا
وفَجَرتَ ينبــوعَ البيــانِ محمَّدًا ... فســقى الحديثَ ونــاول التنزيلَا[1]

(١) أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١/١٨١، ١٨٢).

QaradawiBooks.com

الله هو الَّذي يُعلِّم، علَّم آدم الأسماء كلها، وعلَّم كثيرًا من الأنبياء كما قال عن سيِّدنا يعقوب: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨]، وكما قال سيِّدنا يوسف: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١]، وكما قال الله عن الخضر: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [الكهف: ٦٥]، فالله هو الَّذي يعلِّم عباده، هو الَّذي يُفيض عليهم من علمه، هو الَّذي يُنير لهم الطريق، هو الَّذي أعطاهم أدوات التعلم كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، لأنَّه لولا العقل الَّذي أعطاه الله للإنسان ما أمكنه أن يتعلَّم، التعلم من خاصية الإنسان، لذلك فالله هو المعلم الأوَّل لعباده.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾، علَّم هذا الكتاب العظيم، ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقد قال الله لرسوله مُحَمَّد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٖ﴾ [النمل: ٦]، هو الَّذي يعلمك ويلَقِّيك هذا القرآن.

خلق الإنسان وتعليمه البيان:

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤]، الله تعالى هو الَّذي خلق هذا الإنسان، خلقه في أحسن تقويم، ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤]، وكرَّمه أحسن تكريم، ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٠]، وصَوَّره فأحسن صُوَره، ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٤]، وميَّزه بالعقل، وعلَّمه البيان.

QaradawiBooks.com

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]، الإنسان مزاياه أنَّ الله علَّمه البيان، علَّمه كيف يبين عن نفسه، كيف يعبِّر عن نفسه بالمنطق الفصيح، هذا من خصائص هذا المخلوق.

والبيان نوعان: هناك بيان نطقي، وهنـاك بيان خطي، البيان النطقي عن طريق الحنجرة واللسان والشفتين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴾ [البلد: ٨، ٩]، والبيان الخطي عن طريق الكتابة بالقلم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ٤، ٥]، هذا نوع من البيـان، العرب يقولون: القلم أحد اللسـانين. كيف يسـتطيع الإنسـان أن يبين عن نفسـه ويعبِّر عن مكنونه لمن بعد عنه؟ بالقلم، سيِّدنا سليمان أراد أن يخاطب ملكة سبأ فأرسل إليها رسالة، ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمـل: ٢٩ ـ ٣١]، هـذا الكتاب مـن رجل يدعى سـليمان، ومضمون كتابه: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمـل: ٣٠، ٣١]، فهذا الخطاب للبعيد، ونقل العلم من جيل إلى جيل، وكيف تتوارث الأجيال العلـم؟ تتوارثه عن طريق البيان الخطي أي: الكتابة، ولذلك كان القرآن كتابًا، فهو قرآن لأنَّه يُقرأ، هو كتاب لأنَّه يُكتب، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

فهناك البيان النطقي، والبيان الخطّي، بل لعلَّ البيان الخطّي هو أدل على إنسانيَّة الإنسـان، لأن حتَّى الحيوانات والدواب والحشرات لها نوع ما من البيان الصوتي يُفهم به بعضها بعضًا، القـرآن ذكر أن قول النملة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمـل: ١٨]،

QaradawiBooks.com

وقول الهدهد: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۞ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۞ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۞ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٢ ـ ٢٦].

المهم أنَّ الهدهد شرح لسيدنا سليمان عليه السلام قصَّة ذهابه إلى سبأ ومعرفته بما هناك بلغة وأصوات لكنَّه لا يعرف أن يبين عن طريق الكتابة، ولذلك الكتابة بيان مهم، ولهذا من أوَّل الآيات الَّتي نزلت قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٣ ـ ٥]، ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۞ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤]، هذه نعمة عظيمة، وبهذا البيان يستطيع أن يفسِّر القرآن ويدعو إلى القرآن، ما دام الله علَّم القرآن، فهذا أيضًا من لوازم تعليم القرآن ومن ثمرات تعليم القرآن.. أن يعطيه البيان ليبين القرآن، الرسول يبين القرآن كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وعلى الأُمَّة أن تبيِّن بعده القرآن.

الشمس والقمر يجريان بحساب:

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]، ما معنى ﴿بِحُسْبَانٍ﴾؟ يعني بحساب، الشمس والقمر يجريان بحساب، ليس هناك شيء فوضى، لا، كل شيء بنظام وحساب وقانون، كما قال تعالى في آية الأنعام: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى

QaradawiBooks.com

جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥]، ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۞ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۞ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٨ ـ ٤٠].

الأمور منضبطة تمام الانضباط، أمر الشمس والقمر وأمر الأرض وأمر النجوم كلها في فلك محدد لها، في مدارات معلومة، لا يصطدم كوكب بكوكب ولا نجم بنجم، يستطيع علماء الفلك أن يحدِّدوا لك أوائل الشهور لآلاف السنين القادمة، ويستطيعون أن يقولوا لك في آلاف السنين القادمة متى يحدث الكسوف والخسوف، الكسوف الكلي والكسوف الجزئي والكسوف الحلقي، وخسوف القمر في أي مكان من العالم، وفي هذا المكان يكون كسوفًا مقداره كذا، وفي القارة الأخرى كذا وكذا، هذا كله من الحساب.

سجود النبات والشجر لله تعالى:

﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ [الرحمن: ٦]، بعضهم يقول: هو النجم الَّذي في السماء، ولكن جاء عن ابن عبَّاس وعن مفسري السلف أنَّ النجم هو النبات الَّذي لا ساق له، والشجر ما كان له ساق[1]، ما ليس له ساق: مثل الحشائش مثل البطيخ والخيار والطماطم وهذه الأشياء، والأشياء الَّتي لها ساق هي الشجر، ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾، أي ما كان له ساق وما ليس له ساق كله يسجد لله.

(١) تفسير الطبري (١١/٢٢).

QaradawiBooks.com

سجود الكون لله تعالى:

هذا الكون كون ساجد لله، كل ما في هذا الكون خاضع لسنن الله منفذ لأمره، لا يخرج شيء عن إرادته ولا عن قوانينه الَّتي وضعها لهذا الكون، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩].

هذا الكون كله ساجد لله، مسبّح بحمد الله، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

رفع السماء ووضع الميزان:

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]، الله رفع السماء بلا عمد ترونها، من غير أعمدة، الإنسان لا يستطيع أن يقيم خيمة إلَّا بأعمدة تسندها، ولكن الله ﷻ رفع هذه السماوات الَّتي لا نرى منها إلَّا السماء الدُّنْيا ولا نعرف عن السماوات الأخرى، لا نعرف عنها شيئًا، هذه السماوات كلها مرفوعة بلا أعمدة.

البعض يقول: إنَّ السماوات مرفوعة بأعمدة غير مرئية، بقانون الجاذبية كما يسمونه، قد يكون قانون الجاذبية من هذه الأشياء، المهم أنَّ الله رفع هذه السماء بغير عمد، هذا السقف المرفوع بلا عمد يسنده، قرأنا الليلة في سورة الطور قول الله: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ [الطور: ٥]، السقف المرفوع هو هذا السماء من فوقنا، السماء هي هذا السقف المرفوع والمحفوظ أيضًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، الله رفع السماء بغير عمد وحفظها وأمسكها

QaradawiBooks.com

بقدرته، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١].

الميزان الكوني والشرعي:

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]، هناك ميزان وضعه الله لهذا الكون، كل شيء فيه ينبغي أن يكون خاضعًا لهذا الميزان: ميزان كوني وميزان شرعي، ميزان قدري وميزان أمري، عالم الخلق وعالم الأمر كله يسير بميزان، ليس الميزان كما يتصور النَّاس أنَّه فقط الَّذي له كفتان، لا، هذا أيضًا نوع من الموازين يبيع به النَّاس ويشترون دون أن يظلم بعضهم بعضًا، هذا نوع من الميزان.

ولكن الميزان المراد في هذه الآية ميزان هذا الكون، بعضهم يفسر الميزان بالعدل الَّذي قامت به السماوات والأرض، والبعض يقول: هو التوازن في هذا الكون، حتَّى علماء البيئة الآن يقولون: إنَّ هناك توازنا بيئيًّا إذا اختلَّ التوازن البيئي تحدث أشياء خطيرة، هناك الغابات وهي تقوم بعمليَّة توازن مع البيئة من حولها، إذا أزال النَّاس الغابات تحدث حرائق وتحدث أشياء، فالله أوجد التوازن في هذا الكون.

فهناك في هذا الكون توازن كوني، والناس أحيانًا يخلون بالتوازن الكوني ممَّا سبب عمليَّة طبقة الأوزون وارتفاع حرارة الأرض وهذه الأشياء الَّتي يشكو النَّاس منها، وذلك لأن النَّاس لم يحافظوا على هذا الميزان الكوني والتوازن الكوني.

ميزان الشرع:

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]، الله وضع الميزان في

QaradawiBooks.com

الكـــون والميـــزان فـــي الشـــرع، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: ١٧]، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الحديـــد: ٢٥]، الكتاب هو النصوص الإلٰهيَّة، والميـــزان هو الموازين العقليَّة الَّتي يرجع إليها النَّاس وتوارثوها من النبوات والرســـالات، كل هذه تفيد النَّاس في الوقوف على الحقائـــق، ومطاردة الأباطيـــل والخرافات، حتَّى يكونوا مع العدل ضد الظلم، ويُقيموا الاعتدال ويبتعدوا عن التطرف، هذا هو الميزان، ميزة الميزان هنا: البعد عن التطـــرف إلى اليمين، أو التطرف إلى اليسار، أو عن الغلو والتسيب.

ولذلك قال: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمـــن: ٧ ـ ٩]، هـــذا الميزان يوحي إلى النَّاس ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾، إياكـــم والطغيان في الميزان، وإياكم والإخسار كذلك في الميزان، لا طغيان ولا إخسار، هذا ما نسميه منهج الوسطيَّة الَّذي جاء به الإســـلام، لا طغيان في جانب وإخسار في جانب، بل هو الاعتدال والتوازن، هو الصراط المستقيم، ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦].

الصراط المســـتقيم هو الطريق الموصل للغايـــة، هو أقرب الطرق لأن الَّذي يتعرج يمينًا وشمالًا يُطوِّل على نفسه المسافة، إنَّما الصراط المستقيم يصل إلى الهدف بسرعة، هذا هو الصراط المستقيم، هو وسط بين الطرق الملتوية والمتعرجـــة، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، هذا هو الوسط، لا طغيان ولا إخسار.

الأمة الوسط منهجها منهج وسط، هو هذا الَّذي أمر الله به، نهى عن الطغيـــان وعن الإخســـار فقـــال: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ

QaradawiBooks.com

﴿بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٨، ٩]، لا تطغوا أي: لا تتجاوزوا الحد، لا تخرجوا عن سواء الصراط، لا تجنح إلى الطغيان والغلو ولا إلى الإخسار والتسيب، لا إفراط ولا تفريط.

هذا هو منهج الإسلام العظيم الَّذي جاء به مُحَمَّد ﷺ، ولذلك نهى عن الغلو، وعاب على أهل الكتاب الغلو في دينهم، فقال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وقال النبي ﷺ: «**إيَّاكم والغلو في الدين، فإنَّما هلك من كان قبلكم بالغلوِّ في الدِّين**»(١).

وقال ﷺ: «**هلك المتنطعون**»، قالها ثلاثًا(٢). والمتنطعون هم: المبالغون المغالون المتعمِّقون الَّذين يشددون على أنفسهم وعلى خلق الله، والإسلام لا يريد التشديد وإنَّما يريد التيسير، النبي ﷺ قال: «**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**»(٣). وقال: «**إنَّما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين**»(٤).

هذا هو النهج النبوي، المنهج المحمدي، منهج التوازن والاعتدال، لا طغيان ولا إخسار، هذا هو الميزان الَّذي جاء به القرآن، ودعا إليه

(١) رواه أحمد (١٨٥١)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والنسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وابن خزيمة (٢٨٦٧)، ثلاثتهم في المناسك، عن ابن عباس.

(٢) رواه مسلم في العلم (٢٦٧٠)، وأحمد (٣٦٥٥)، عن ابن مسعود.

(٣) متّفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد (١٧٣٤)، عن أنس.

(٤) رواه البخاري في الوضوء (٢٢٠)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

الإسلام: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩].

وهذا ما ندعو إليه أمتنا، أمتنا في هذه المرحلة من حياتها ضاعت، وضاعت فيها الحقائق وضاع فيه الحق والعدل بين الإفراط والتفريط، بين الغلاة والمتسيبين، بين المتشددين والمتحللين، ونحن لا نحب التحلل ولا التشدد، نريد المنهج الوسط الَّذي يقفنا عند حدود الله، ويفهم الإسلام فهمًا صحيحًا، ويقدمه كما أنزله الله، وكما دعا إليه مُحَمَّد ﷺ، وكما فهمه الصحابة ومن تبعهم بإحسان.

هذا هو المنهج الَّذي نقدمه والَّذي لا خلاص لأمتنا إلَّا به، طوق النجاة لأُمَّة الإسلام، وسفينة الإنقاذ لأُمَّة الإسلام أن تتمسك بالمنهج الوسط، وتبتعد عن الجفاء والغلو، أو عن الغلو والتقصير، أو عن التشدد والتسيب، بهذا وحده تسير الأُمَّة على هدى نبيها مُحَمَّد ﷺ، وعلى نور كتابها القرآن العظيم، وهذا وحده هو الَّذي يرفع شأن الأُمَّة ويخرجها من سجن التخلف إلى باحة التقدم، ومن ظلمة الأمية إلى نور العلم، ومن الانحراف إلى الاستقامة، ومن الظلم إلى العدل، ومن الضعف إلى القوة، ومن الظلمات إلى النور.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي



غير مرخصة للطباعة

من دروس التفسير

سورة الحديد



نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الأول
إرسال الرسل بالبينات
والحكمة من إنزال الميزان والحديد

غير مرخصة للطباعة

استمعنا إلى هذه الآية الكريمة من سورة الحديد من الجزء السابع والعشرين، والَّتي يقول الله تبارك وتعالى فيها: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

هذه الآية تتحدث عن إرسال الله تعالى رسله على توالي العصور وعلى اختلاف الأمم، الله ﷻ يقول: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، ويقول: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

أرسل الله رسله للنَّاس مبشرين ومنذرين؛ لئلا يكون للنَّاس على الله حجة بعد الرسل، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]، ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨، ٤٩].

QaradawiBooks.com

وقد كان من حكمة الله تعالى ألَّا يترك النَّاس سدى وألَّا يدعهم تائهين، وإنَّما كان من فضله ورحمته أن يرسل إليهم رسله هداة ومعلمين، صحيح أنَّه آتاهم العقول ولكن هناك أشياء لا يكفي فيها العقل وحده، كثيرًا ما اختلفت عقول البشر بعضها مع بعض، كثيرًا ما استحسن النَّاس أشياء هي من قبائح الأعمال، حتَّى قتل النَّاس أولادهم من إملاق أو خشية إملاق، حتَّى استباح النَّاس كثيرًا من الحرمات والمنكرات، العقول وحدها لم تعد كافية وخصوصًا أنَّ العقول لا تعرف الطرق إلى الله، ماذا يحب الله ويرضاه؟ وما الَّذي يكرهه ويسخطه، فكان لا بدَّ من إرسال الرسل.

الرسول للمجتمع البشري كالعقل للفرد البشري، النبوة هي عقل النوع الإنساني كما يقول الإمام مُحَمَّد عبده[1]، كان النَّاس في حاجة إلى الرسل فأرسل الله إليهم رسله بالبينات، ابتداء من آدم كما يرى بعض العلماء، أو من نوح كما يرى آخرون أنَّه أوَّل من أرسله الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣].

الرسل يمثلون الإرادة الإلٰهيَّة:

فالرسل أرسلوا، أرسلهم الله بالبينات، والدلائل الواضحات، والبراهين القاطعات الَّتي تدل على أنَّهم لا يمثلون أنفسهم وإنَّما يمثلون الإرادة الإلٰهيَّة من فوقهم، وأنَّهم لا ينطقون عن أهوائهم إنَّما ينطقون عن الوحي الإلٰهي، فما من رسول إلَّا أيَّده الله ببينة تدل على صدقه وتدل على أحقيَّة رسالته، كلُّ نبيٍّ أُوتي من البينَّة ومن الدلائل ما يناسب زمنه،

(١) انظر: تفسير المنار (٥٣/١).

QaradawiBooks.com

وقد قال النبيُّ ﷺ: «**ما من الأنبياء نبي إلَّا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنَّما كان الَّذي أُوتيت وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(١).

كل الأنبياء أُوتوا من الدلائل أو ما يسميه العلماء المعجزات ما يؤمن بمثله البشر ويقنعهم ويدل على أنَّهم جاؤوا من عند الله، وكل الآيات المعجزات الَّتي سبقت النبي ﷺ كانت معجزات حسية، مثل قلب العصا حية لموسى، مثل إبراء الأكمه والأبرص أو إحياء الموتى لعيسى، مثل ناقة صالح، ولكن معجزة مُحَمَّد ﷺ الكبرى الَّتي تحدَّى بها النَّاس هي القرآن، معجزة أدبية معنويَّة، لأنَّ المعجزات الحسيَّة تنتهي بمجرَّد وقوعها، أمَّا المعجزة العقليَّة الأدبيَّة فتبقى، ولذلك لا نجد الآن معجزات الأنبياء، إنَّما المعجزة الباقية الَّتي كتب الله لها الخلود والبقاء وضمن لها الحفظ هي القرآن الكريم، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

الأنبياء أُوتوا البيِّنات، وأُوتي مُحَمَّد ﷺ البيِّنة الكبرى القرآن الكريم، ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، ﴿ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾ [الحديد: ٢٥]، أنزل الله مع الأنبياء الكتاب، النص الإلٰهي المقدس الَّذي يرجع النَّاس إليه إذا اختلفوا، ويحتكمون إليه إذا تنازعوا، فهو سلطة النص الإلٰهي، ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

---

(١) سبق تخريجه صـ٥٥٧.

QaradawiBooks.com

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾، الله تعالى أرسل الرسل وأنزل معهم الكتب، وأنزل الميزان، ما هو الميزان؟ هل هو الميزان العادي الَّذي تُوزن به الأشياء؟

بعض المُفَسِّرين قال: نعم هو الميزان العادي الَّذي يزن النَّاس به الأشياء، لأنَّه مهم في المعاملات بين النَّاس بعضهم وبعض حتَّى لا يجور بعضهم على بعض، سواء كان هذا الميزان بكفتين أو ميزان قباني، أو بنحو ذلك، فالمراد بالميزان هذا الميزان العادي أيا كانت صورته.

والبعض الآخر من المفسرين قال: الميزان الَّذي أنزله الله وقرنه بالكتاب أحيانًا وبرفع السماء حينًا أكبر من هذا، وهو الَّذي جاء في سورة الشورى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]، وجاء في سورة الرحمن: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩]، هو ميزان معنوي وليس مجرد الميزان المادي، إنَّه العدل الَّذي قامت به السماوات والأرض، إنَّه المعايير المعنويَّة والقِيَم الَّتي توارثتها الإنسانيَّة من النبوات الهادية، أصبحت هذه معايير وموازين يحتكم إليها البشر.

قيام النَّاس بالعدل هو هدف الرسالات السماويَّة:

﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، هذا هو هدف الرسالات السماويَّة جميعًا، أن يقوم النَّاس بالقسط أي: بالعدل، أن يقوم العدل في الأرض فلا يجور أحد على أحد، ولا تجور طبقة على طبقة، ولا تجور أُمَّة على أُمَّة، وإنَّما يحكم الجميع عدل الله الَّذي لا يفرِّق بين مخلوق ومخلوق، لا يفرِّق بين أبيض وأسود، ولا بين عربي وعجمي، ولا بين رجل وامرأة، ولا بين غني وفقير لأن الله رب الجميع وعدله للجميع.

QaradawiBooks.com

جاءت الرسالات السماويَّة لتحقق العدالة في الأرض بكل أنواعها، العدالة القضائيــة القانونية، والعدالة الاجتماعيَّــة، والعدالة الاقتصاديَّة، والعدالة الدولية بين الدول بعضها وبعض، كل هذا جاءت به الأنبياء.

معنى إنزال الحديد:

﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، ما معنى ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ هنا؟ وهل الحديد نزل من السماء؟ بعض الإخوة مثل الشــيخ الزنداني له أبحاث في هذا، يقول: فعلًا هناك علماء يقولون: إنَّ الحديد هذا نزل من الســماء. ولكنِّــي أرى أن كلمة «أنزلنا» هــذه تكررت في القــرآن لما خلقه الله بتدبير ســماوي وتقدير علوي، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، وقال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعــراف: ٢٦]، فهــذه الإنزالات من الله تقتضي الأشــياء الَّتي هيَّأها الله لعباده دون تدبير منهم وإنَّما بتدبيره العلوي السماوي، هذا التدبير الأعلى.

التنبيه إلى ضرورة إتقان الأُمَّة للصناعات الحربيَّة والمدنيَّة:

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ هــذا المعــدن الخطيــر ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، قوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ إشارة إلى ما ينشأ عن الحديد من صناعات حربيَّة عسكريَّة، وقوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ إشارة إلى ما ينشأ عن الحديد من صناعات مدنيَّة تسير بها الحياة، نحن للأسف لم نُتقن الصناعات المدنيَّة، ولا الصناعات العســكريَّة، ســلاحنا الأساسي الَّذي ندافع به عن أنفسنا ونذود به عن حمانا مستورد من هنا وهناك، لو أراد الَّذيــن يصنعون الســلاح أن يعطونا أعطونــا، وإذا أرادوا أن يكفُّوا أيديهم عنَّا فعلوا، ولا يعطونا من الســلاح إلَّا مــا أرادوا، وبالقدر الَّذي

QaradawiBooks.com

يريدون؛ من أجل هذا نقول: إنَّنا في دائر التأخر التقني أو التكنولوجي، هذه حقيقة ينبغي أن نعترف بها.

وقد قلتُ في عدد من كتبي ولا أزال أقول وأكرِّر: إن أُمَّة «سورة الحديد» لم تتعلم بعدُ صناعة الحديد، أُمَّة «سورة الحديد» لم تُتقن صناعة الحديد، لا في المجال العسكري، ولا في المجال المدني!

من فروض الكفاية على المسلمين، أن يُهيئوا العدد المدرب الكافي، لكل صناعة أو مهنة يحتاج إليها المجتمع حتَّى يكتفي المسلمون اكتفاءً ذاتيًا، فيأكلوا ممَّا يزرعون، ويلبسوا ممَّا ينسجون، ويسلِّحوا جيوشهم بما يصنعون، مهتدين بقول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾.

تخلُّف أمَّتنا العلمي والصناعي:

لقد بدأت مصر نهضتها الصناعيَّة مع اليابان في عصر واحد، بل قبل اليابان. فأين مصر من اليابان اليوم؟ ولقد رأينا بلادًا لم تبدأ نهضتها إلَّا من قريب، ولكنَّها خطت خطوات جبَّارة في وقت قياسي، كما في كوريا الَّتي بدأت بعد الحرب العالميَّة الثانية نهضتها الصناعيَّة والَّتي أصبح اليابانيون يرونها منافسًا خطرًا لهم.

إنَّنا لا نزال عالة على غيرنا في دنيا العلم التجريبي والتكنولوجيا الحديثة، حتَّى إن نصف ما نأكله أو أكثر لا نزرعه، وجل ما نستعمله لا نصنعه! وحتَّى السلاح الَّذي ندافع به عن أرضنا وعرضنا لم يزل صناعة أجنبية، نستورده ولا ننشئه!

إنَّ من المحزن حقًّا، أن تكون بلادنا زراعية، ولا نحقق لأنفسنا الغذاء الكافي، وإن من المخجل أن مناطق من فلسطين ظلت بأيدينا زمنًا طويلًا صحراء قاحلة فلمَّا استولت عليها إسرائيل حولتها إلى واحة خضراء.

QaradawiBooks.com

أمَّا تخلفنا الصناعي فحدِّث عنه ولا حرج، نستورد في كثير من بلادنا من الصاروخ إلى الإبرة، مع أن فقهاء الإسلام اعتبروا إتقان كل علم أو مهنة، أو صناعة يحتاج إليها المسلمون فرض كفاية، كما اعتبروا ذلك عبادة وقربة إذا صحت فيه النية.

واقعنا اليوم يؤكد أنَّنا نعيش خارج عصرنا، فلا نزال حتَّى الآن مستوردين لمنتجات الغرب، نشتري أغلى الأجهزة وأفخر السيارات المشتملة على كل الكماليات ـ الَّتي قد تُصنع لنا خاصَّة وبطلب منا ـ ونركب أحدث الطائرات، ولكنا لا نصنع شيئًا من هذا كله. لم نصنع محركًا «موتور» لطيارة ولا سيارة ولو صغيرة. ولذلك لو كفَّ الآخرون أيديهم عنا، ما تحرَّك لنا مصنع، ولا حلَّقت بنا طائرة، ولا سارت بنا سيارة.

في بعض بلاد الخليج توقفت الحياة في نصف المدينة الكبيرة لأن إحدى ماكينات الكهرباء الكبرى توقفت، ولا يوجد من يصلحها؛ لا بدَّ من خبير من بلادها الَّتي صنعتها، ومن المصنع الَّذي صدرها!

لقد صنع الغرب «الكومبيوتر» وطور أجيالًا منه، جيلًا بعد جيل، حتَّى وصل اليوم إلى ما وصل إليه من مكنة وقدرة وسرعة، مع صغر الحجم وقلة النفقات، ولا يزال يبدع ويطور ويحسِّن. ونحن العرب إلى اليوم مختلفون في مجرد تسميته: أهو العقل الإلكتروني، أم الدماغ الإلكتروني، أم الحاسب الآلي، أم الحاسبة، أم الحاسوب؟!

فالحديد يحتاج إليه النَّاس في حياتهم العسكريَّة وحياتهم المدنيَّة، فلا عجب أن سمِّيت هذه السورة سورة الحديد، وللأسف نحن المسلمين لم نفهم سر هذه التسمية، ولم نفهم اقتران الحديد بالكتاب في هذه

QaradawiBooks.com

السورة، ولذلك انتفع غيرنا بالحديد، وسخرت الأمم الحديد في حياتها وظللنا نحن المسلمين عالة على غيرنا.

نحن ينبغي أن نتعلَّم صناعة الحديد، ولماذا نتعلَّم صناعة الحديد؟ نحن نتعلَّمه لننصر الكتاب، ولهذا اقترن الحديد بالكتاب، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: لا بدَّ من كتاب هاد وحديد ناصر، ينصر هذا الكتاب، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، الحق والقوة، الحق يمثله الكتاب، والقوَّة يمثلها الحديد، إذ لا يمكن أن يعيش حق بغير قوَّة تسنده وتشد أزره وتحمي ظهره.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥]، المفروض أن أُمَّة سورة الحديد لا تتعلم الحديد ولا تتقنه ولا تصنع منه ما تصنع من أدوات وآلات حربيَّة لتعتدي على غيرها، الأُمَّة الإسلاميَّة ليست أُمَّة عدوان، وإنَّما تنصر به الحق، لا تغزو أحدًا من أجل الأسواق ولا من أجل المال وإنَّما تعلي كلمة الله، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الله هي كلمة الشرع، الأمر الإلٰهي والنهي الإلٰهي، ليحكم شرع الله دنيا النَّاس، هذا معنى قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وينبغي أن يكون لنا من هذين الاسمين نصيب، أن يكون لنا حظ من قوَّة الله القوي وعزة من عزة الله العزيز، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من أهل القرآن، ومن جند القرآن، ومن الَّذين يفقهون القرآن ويعملون بالقرآن ويعملون للقرآن، اللهمَّ آمين، وصل اللهمَّ على عبدك ورسولك مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

QaradawiBooks.com

الدرس الثاني

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[1]

هذه ليلة السابع والعشرين من رمضان، إحدى ليالي العشر الأواخر، وليالي الأوتار من رمضان، والعشر الأواخر مظِنَّة التماس ليلة القدر، وخصوصًا الأوتار منها، الليالي الفرديَّة، وقد ذهب عدد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين إلى أنَّها ليلة السابع والعشرين، منهم سيِّدنا عبد الله بن عبَّاس، وسيدنا أبي بن كعب، الَّذي كان يحلف أنَّها ليلة القدر.. ولكن لا يقين عندنا بأي ليلة هي ليلة القدر، وهذا من رحمة الله بالناس؛ فقد ذكر الحافظ ابن حجر تسعة وثلاثين قولًا في ليلة القدر، أي ليلة هي[2]؛ وذلك ليشمر النَّاس عن سواعدهم في رمضان كله، وفي العشر الأواخر خاصَّة.

فقد أخفى الله علينا هذه الليلة؛ حتَّى لا يتَّكل النَّاس، ويتكاسلوا سائر الشهر، ثمَّ يقولون: نقوم ليلة هي خير من ألف شهر، فنحن نرجو أن تكون هذه الليلة هي ليلة القدر، وعلينا أن نعمل ما نستطيع في سائر الليالي، ولعل الله تعالى يتقبل منا صالح أعمالنا، ويغفر لنا ما فرطنا فيه..

(١) من دروس تراويح ١٤٢٣هـ.
(٢) فتح الباري (٤/٢٦٢ ـ ٢٦٦).

نسخة محاينة
QaradawiBooks.com

اللهمَّ اغفر لنا ما مضى، وأصلح لنا ما بقي..

في الليلة الماضية استمعنا إلى سورة الحديد، وهي سورة مدنيَّة، من سور المسبِّحات، الَّتي تبدأ بتسبيح الله تعالى، ونقف عند آية منها، هذه الآية هي قول الله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

وقد جاءت هذه الآية بعد آية تحذّر من الغرور بالدُّنيا، وهي قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا﴾ النبات ترى فيه الخضرة، والنضرة، وبعد ذلك ييبس ويصبح هشيمًا تذروه الرياح، وهذا شأن الحياة والإنسان، فيبدأ الإنسان صغيرًا ثمَّ يكبر ويترعرع، ويكتمل، ثمَّ تبدأ الشيخوخة ويهبط، وهكذا الدُّنْيا كلها، إلى تغيُّر ثمَّ زوال، ثمَّ ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾

ثم قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾، وجوهر الدين: الزهد في الدُّنْيا والإقبال على الآخرة، وهذا هو الدين، فالناس خُلقوا للآخرة، أمَّا الدُّنْيا فقد خُلقت وسيلة للآخرة، يقولون: الدُّنْيا مزرعة الآخرة. أي: إنَّ النَّاس تزرع هنا لتحصد هناك.

والدنيا ليست هدفًا في ذاتها، وإنَّما قيمتها من حيث الإعداد لدار الخلود والبقاء. فالإنسان كم يعيش في هذه الدُّنيا، سبعين سنة؟ تسعين سنة؟ مائة سنة؟ مائة وعشرين؟ لقد كان عمر نوح عليه السلام ألف سنة إلَّا خمسين عامًا، وقالوا: لما جاء ملك الموت إلى سيِّدنا نوح، قال له:

QaradawiBooks.com

يا أطول الأنبياء عمرًا، كيف وجدت الدنيا؟ قال: وجدتها كدار لها بابان، دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر[١].

وهذه هي الدُّنْيا وحقيقة الدُّنيا، وكما يقول الشاعر:

وَإِذَا كَانَ آخِرُ العُمر مَوْتًا فسواءٌ قصيرُه والطويلُ[٢]

فالله حذَّر من الدُّنيا، فإن الخطر أن تصبح الدُّنْيا أكبر همك ومبلغ علمك، ولذلك كان من دعاء النبي ﷺ: «**ولا تجعل الدُّنْيا أكبر همّنا، ولا مبلغ علمنا**»[٣]، إنَّما يجب أن يكون أكبر همنا هو الآخرة، ولذلك قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، فهنا لم يكتف بالمسارعة، بل أمر بالمسابقة، فهي مسابقة بالعدو والركض، ولكن إلى ماذا؟ إنَّها إلى المغفرة والجنة، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]. هذا هو السباق المحمود.

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾

طلب الله السباق إلى المغفرة، قبل السباق إلى الجنَّة، وهذا يدل على أن كل إنسان له ذنوبه وسيئاته وخطاياه، فهو في حاجة إلى المغفرة، لا يزعم أحد أنَّه ملك مطهَّر أو نبي معصوم، أنت خلقت من الطين، والطين لا يخلو من الكدر، وأنت ابن آدم، وآدم نفسه وقع في الخطيئة، فليس بعيدًا أن يخطئ أبناؤه، ولذا قال ﷺ: «**كلُّ بني آدمَ خطَّاء**»[٤]،

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخه (٢٧٥/٦٢)، عن سفيان بن عُيَينة.

(٢) الشاعر العراقي بهاء الدين الرواس.

(٣) سبق تخريجه صـ١٤٥.

(٤) سبق تخريجه (٤٦٨/١).

QaradawiBooks.com

وما دام ابن آدم خطَّاء، فهو في حاجة إلى المغفرة، ولذلك قبل أن تطلب الجنَّة، اطلب المغفرة.. تتطهر أولًا.. التخلية قبل التحلية.

فكل إنسان في حاجة إلى أن يغفر الله له ذنوبه، ولو اعتقد إنسان أنَّه بلا ذنوب، فهذا هو الذنب نفسه، فالغرور نفسه ذنب كبير، ولا يوجد أحد يخلو من ذنب.

بل إنَّ الأنبياء أنفسهم طلبوا المغفرة، كل الأنبياء طلبوا من الله المغفرة، سيِّدنا نوح عليه السلاح قال: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا﴾ [نوح: ٢٨].

سيدنا إبراهيم قال: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

سيدنا موسى قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

سيدنا سليمان قال: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

كل الأنبياء طلبوا المغفرة من الله تبارك وتعالى، وأشدهم طلبًا للمغفرة هو مُحَمَّد ﷺ، الَّذي رويت عنه صيغ عديدة في طلب المغفرة من الله ﷻ، ومنها ما سمي سيد الاستغفار، وهو أن تقول: «**اللهمَّ أنت ربي لا إلـه إلَّا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي، فإنَّه لا يغفر الذنوب إلَّا أنت**»[1]. ويستحب للإنسان أن يقول هذا الدعاء في الصباح وفي المساء.

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٦)، عن شدّاد بن أوس.

QaradawiBooks.com

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يقولون: كنا نعدّ لرسول الله ﷺ، في المجلس الواحد، مائة مرَّة، يقول: «**رب اغفر لي، وتب علي، إنَّك أنت التواب الغفور**»[١].

ومن دعائه ﷺ: «**ربِّ اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللهمَّ اغفر لي خطاياي، وعمدي وجهلي وهزلي، وكل ذلك عندي، اللهمَّ اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدِّم وأنت المؤخر، وأنت على كلِّ شيءٍ قدير**»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها، أنَّها قالت: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهمَّ ربَّنا وبحمدك اللهمَّ اغفر لي**»[٣] يتأول القرآن. وتعني بأنَّه يتأوَّل القرآن، أنَّه كان يفسر قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

وليس هناك إنسان يستغني عن الاستغفار، كل النَّاس يحتاجون إلى الاستغفار، حتَّى إنَّ الله تعالى ذكر قوَّام الليل، وهم المتقون، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ۝ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٨]، يعني معظم الليل قوَّام متعبدون، وفي آخر الليل يقولون: يا رب اغفر لنا، وكأنهم كانوا في معصية، وليسوا في طاعة، وهذا يبين شعورهم بالحاجة إلى الاستغفار.

---

(١) سبق تخريجه (٥٨٦/١)..

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٩٨)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٩)، عن أبي موسى الأشعري.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨١٧)، ومسلم في الصلاة (٤٨٤)، عن عائشة.

نسخة محايدة
QaradawiBooks.com

فكل النَّاس بحاجة إلى مغفرة الله ﷻ، ولذلك علينا أن نستغفر الله، والاستغفار باللسان المصحوب بالقلب، فلا يكفي أن تقول: رب اغفر لي، رب اغفر لي.. وفي نيتك الإصرار على المعصية، فهذا كأنك مستهزئ بالله ﷻ. والله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، أمَّا مجرد لَوْك اللسان بكلمات الاستغفار دون حضور قلب، فهو أشبه بما قالته السيِّدة رابعة رحمها الله: استغفارنا يحتاج إلى استغفار.

﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾

إذا كان النَّاس يتسابقون في الدُّنيا، ويلهثون، ويركضون، لا يملُّون ولا يتعبون، لأجل الحصول على دنيا، قد يحصلون على شيء منها وقد لا يحصلون، حتَّى إذا حصَّلوها، هل تدوم لهم أو لا تدوم، وحتَّى لو دامت لهم، فهم أنفسهم لا يدومون، وصدق الشاعر:

هبِ الدُّنْيا تساق إليك عفوًا ... أليس مصيرُ ذاك إلى انتقالِ؟
وما دُنْياكَ إلَّا مثل ظِلٍّ ... أظلَّكَ ثمَّ آذنَ بالزوالِ[1]

التسابق في الدُّنْيا نراه أمام أعيننا، فلماذا لا نتسابق على الجنَّة، وهذا هو السباق المحمود، والمشروع، السباق إلى الجنة.

﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾

عادة العرض يكون أقل من الطول، فإذا كان العرض كعرض السماء والأرض، فماذا يكون طولها؟ قدِّر ما شئت! نحن لا نعلم أي شيء عن

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: لباب الآداب للثعالبي صـ ١٧٣، تحقيق أحمد حسن لبج، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.

QaradawiBooks.com

السماء والأرض، وما نعلمه هو فقط عن هذه السماء الَّتي تظلنا، وهذه الأرض الَّتي تقلنا، ولكن ملك الله واسع، فهناك أشياء بعد السماء والأرض، ولهذا نقول في دعاء الرفع من الركوع في الصلاة: «**اللهمَّ ربَّنا لك الحمد، ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد**»[1].

والجنة شيء واسع جدًّا لا يعلم حدوده إلَّا الله، الأحاديث الَّتي وردت في الصحاح، عن آخر أهل الجنَّة دخولًا، وهو آخر من يخرج من النار، ويسمِّيهم بعض الناس: الجهنميون. أي: الَّذين كانوا في جهنَّم، ثمَّ أُخرجوا منها، فيقول الله لهم: أخرجوا من النَّار كل من كان يعبد الله، فيعرفوهم من أثر السجود، فالنار تأكل كل شيء، إلَّا أثر السجود، لا تمحوه النار، فيعرفهم الملائكة ويخرجونهم، بعد أن عُذبوا في النار، بعد ما يقضوا مدتهم ألف سنة، أو مليون سنة.. الله أعلم.

فيقول آخر من يخرج من النار، وهو يوجِّه حديثه إلى النار: «**تبارك الَّذي نجَّاني منك، لقد أعطاني الله شيئًا ما أعطاه أحدًا من الأوَّلين والآخرين**». يعتبر مجرد نجاته من جهنَّم، منزلة وجائزة لم ينلها أحد مثله.. يقول النبيُّ ﷺ: «**فتُرْفع له شجرة، فيقول: أيْ ربِّ، أدنني من هذه الشجرة لأستظلَّ بظلِّها، وأشرب من مائها، فيقول الله ﷻ: يا ابنَ آدم، لعَلِّي إن أَعْطَيْتُكها سألتني غيرها! فيقول: لا، يا رب، ويعاهده ألَّا يسأله غيرها، وربُّه يعذره لأنَّه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظلُّ بظلِّها، ويشرب من مائها، ثمَّ ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي رب، أدنني من هذه لأشرب من مائها، وأستظلَّ بظلها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابنَ آدم، ألم تعاهدني ألَّا تسألني غيرها؟!**

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٧١)، عن البراء بن عازب.

QaradawiBooks.com

فيقول: لَعَلِّي إن أدنيتُكَ منها تسألني غيرها، فيعاهده ألَّا يسأله غيرها، وربُّه يَعْذُره؛ لأنَّه يرى ما لا صبر له عليه، فيُدنيه منها فيستظلُّ بظلها، ويشرب من مائها، ثمَّ ترفع له شجرة عند باب الجنَّة هي أحسن من الأُولَيَيْن، فيقول: أي ربِّ، أدنني من هذه لأستظلَّ بظلها، وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها. فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني ألَّا تسألني غيرها؟! قال: بلى يا ربِّ، هذه لا أسألك غيرها. وربُّه يَعْذُره لأنَّه يرى ما لا صبر له عليها، فيُدنيه منها، فإذا أدناه منها فيسمع أصوات أهل الجنَّة، فيقول: أيْ ربِّ، أدخلنيها. فيقول: يا ابنَ آدم، ما يَصْرِينِي منك؟ أيرضيك أن أعطيك الدُّنْيا ومثلها معها؟ قال: يا رب، أتستهزئ منِّي وأنت رب العالمين؟»، فضحك ابن مسعود، فقال: ألا تسألوني ممَّ أضحك؟ فقالوا: ممَّ تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ، فقالوا: مم تضحك يا رسولَ الله؟ قال: «**من ضحك ربِّ العالمين حين قال: أتستهزئ منِّي وأنت ربُّ العالمين؟ فيقول: إنِّي لا أستهزئ منك، ولكنِّي على ما أشاء قادر**»[1].

كم يكون ملك النَّاس في هذه الجنَّة، كم تكون سعة هذه الجنَّة، إذا كان هذا ملك أدناهم منزلة، فكيف بمن هم أعلى منه؟!

ونحن الآن في علم الفلك الحديث، وهم يحكون لنا عن سعة الكون، يقولون: هذا النجم جاءنا شعاعه بعد كذا مليون سنة، ويقولون: ولعل هذا النجم اختفى، ولكن حتَّى وصل إلينا نوره الآن.. فكم يكون بيننا وبين هذا النجم، وكم تكون سعة هذا الكون؟ لا تستبعدوا على ملك الله شيئًا، وكل ما نريده السعي إلى الجنَّة، ألا تشغلنا الدُّنْيا عن الجنة.

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٨٧)، عن ابن مسعود. ومعنى «ما يصريني» ما يقطع مسألتك مني.

QaradawiBooks.com

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾

هذه الجنَّة الَّتي عرضها السماوات والأرض، أُعدَّت للمؤمنين بالله وبرسله، ليس للكفار فيها نصيب، بل أعدت لهم النار، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

أمَّا الجنَّة فقد أُعدت للذين آمنوا بالله ورسله، والإيمان بالله ورسله أصل كل خير، ففي الآية الأخرى يقول الله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

والتَّقوى أيضًا فرع من الإيمان، فـ«**الإيمانُ بضعٌ وسبعون شعبة، أعلاها: لا إله إلَّا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[1]، فالتَّقوى هي من شعب الإيمان، والجهاد من شعب الإيمان، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، تريدون جنَّة دون أن تدفعوا شيئًا؟! هذا لا يكون.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]، فكيف تبغي الجنَّة دون أن تبذل نفسًا ولا مالًا؟ إن طريق الجنَّة مفروش بالأشواك، مدرَّج بالدماء، مليء بجثث الشهداء، الَّذين ابتُلوا وامتُحنوا في سبيل الله، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، تريدون جنة، دون أن تُصهروا في بوتقة الابتلاء، كما صُهر الَّذين من قبلكم؟ كان الرجل من الأولين

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

يُنشر بالمنشار فرقتين، ويُمشط ما دون عظمه من لحم وعصب، ما يصرفه ذلك عن دينه. ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾: البؤس والفقر في الأموال ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾: التعذيب والجراح في الأبدان، ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾: الزلزلة في النفوس، كل هذا أصابهم في الطريق إلى الله، فلا يمكن أن ينال الجنَّة، إلَّا من سار في طريقها، وطريق الجنَّة هو طريق الخير في الدُّنْيا والآخرة.

كان بعض مشايخنا يقول: الجنَّة بالنسبة للنار رخيصة جدًّا! فالذين يدخلون النار، يدفعون أموالًا طائلة في الخمر والنساء والقمار، ونحو ذلك من المنكرات.. أمَّا الجنَّة فليس إلَّا أن تصلي وتصوم.. وكلها أشياء ميسرة، فليس هناك أرخص من الجنَّة لمن سار في طريقها، سيجد اللذة، ويجد النشوة، ويجد الحلاوة، حلاوة الإيمان، ويجد السعادة، الَّتي قالها أحد الصالحين قديمًا، قال: نحن نعيش في سعادة لو علِم بها الملوك، لجالدونا عليها بالسيوف[1]، فهم لا يتركون للنَّاس شيئًا، ولكن الله أعماهم لأنَّهم لا يعلمون قيمتها، وهذا من فضل الله أنَّهم لا يعلمون قيمة السعادة الروحيَّة..

الجنة أيُّها الإخوة في حاجة إلى أن نبذل لها، ونسعى لها سعيها، ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

في إحدى الغزوات قرَّر رسول الله أن يَخرج من العائلة الواحدة شخص واحد، الأب أو ابنه، فاستهم سعد بن خَيْثمة وأبوه خيثمة، واقترعا أيهما يخرج، فخرج سهم سعد بن خيثمة، فقال له أبوه: يا سعد أنا أبوك، وليَ حق عليك، آثرني بها.

(١) سبق تخريجه صـ٣٧٦.

QaradawiBooks.com

قال له: يا أبت إنَّها الجنَّة، ولو كان شيء غيرها لآثرتك والله به[١].

يعني لو كان دنيا أو أرض أو حديقة أو أي شيء آخر لآثرتك به، لكنها الجنَّة، النَّاس يؤثر بعضهم بعضًا في كل شيء من أجلها، ولا يؤثرون بها. هذه الجنَّة الَّتي يتسابق إليها المتسابقون: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

فضل الله يؤتيه من يشاء، ونحن نعرف أنَّ الله سن للجنَّة طريقًا يجب أن يسلكه أهلها، فمن أراد أن يكون من أهل الجنَّة، فليسلك طريق أهل الجنَّة، وهو طريق واضح، كما أنَّ طريق أهل النَّار واضح، قال ﷺ: «**الحلال بيِّن والحرام بيِّن**»[٢]، طريق الرشد بيِّن وطريق الغي بيِّن، فلنسلك طريق أهل الجنة.

وإذا أردنا أن نخرج من رمضان بفائدة عمليَّة، ينبغي أن نخرج بنية صادقة أن نسير في طريق أهل الجنَّة، ونصمِّم عليه، ونصحب أهله، ونترك صحبة الأشرار، الَّذين يجروننا إلى النَّار جرًّا، طريق أهل الجنَّة أيُّها الإخوة هو طريق الخير، وطريق السعادة في الدُّنْيا والآخرة، ولا تطلب الجنَّة بالكسل، ولا تطلب بالمعصية، ولا تطلب بطريق أهل النار، إنَّما من أراد الجنَّة فليسلك سلوكها، وليسع سعيها.

رأى الحسن البصري رجلًا يسجد ويعبث بالحصى، ويقول: اللهمَّ أدخلني الجنَّة، وزوجني من حورها العين، فقال له: بئس الخاطب أنت، تخطب الحور العين، وتعبث بالحصى[٣].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٤٨٢/٣).

(٢) سبق تخريجه (١٠٧/١).

(٣) إحياء علوم الدين (١٥١/١).

QaradawiBooks.com

إذا كنت تريد أن تخطب الحور العين، ألا ينبغي أن تقدم المهر لها؟! والشاعر يقول:

ومن يخطب الحسناء لم يُغلِها المهر[١]

فلنقدِّم مهر الجنَّة، ولندفع ثمن الجنَّة، ولنطلب بعد ذلك من الله ﷻ، أن يُدخلنا الجنَّة مع المقربين، ويُدخلنا الفردوس، فقد قال النبي ﷺ: «**إذا سألتم الله الجنَّة، فاسألوه الفردوس الأعلى**»[٢]، لأنَّك تطلب من كريم، فلماذا تطلب أدنى الدرجات؟ بل اطلب أعلى الدرجات.

نسأل اللهَ أن يجعلنا من أهل الفردوس الأعلى، وأن يسكنا الجنَّة مع النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

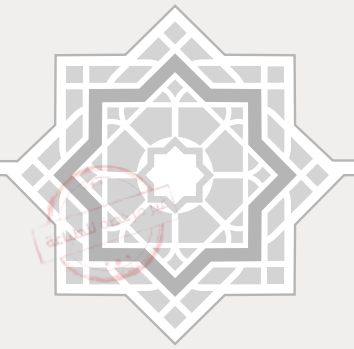
* * *

(١) من شعر أبي فراس الحمداني. وصدر البيت: تَهونُ علينا في المعالي نفوسُنا. انظر: ديوانه صـ ١٦٥.

(٢) سبق تخريجه صـ٣٨٩.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



من دروس التفسير

سورة الصف



نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

ثلاث نداءات إلى المؤمنين في سورة الصف[١]

ثلاث فرص لمغفرة الذنوب:

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل هذه الأيام والليالي المباركة بشير خير ونصر وفتح لأُمَّة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وأن يجعلها نذير وبال وحسرة وهزيمة على أعداء الإسلام حيثما كانوا، وأن يجعل حظنا من هذا الشهر الكريم الرحمة والمغفرة والعتق من النار.

لقد بشَّرنا رسول الله ﷺ حينما قال في الحديث المتَّفق عليه: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه**»[٢]. وقال: «**من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه**»[٣].

ثلاث قرب لمغفرة الذنوب؛ ليتطهر الإنسان ويغتسل من أدران خطاياه، ويخرج من هذا الشهر كيوم ولدته أُمُّه، ليلة من قامها إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه، ولكن جرت سُنَّة الله أن هذه الأشياء الكبيرة والخطيرة والَّتي لها آثار غير عادية في حياة الإنسان يخفيها عنا،

(١) من دروس تراويح ١٤٢٤هـ.
(٢) سبق تخريجه (٣٣٣/١).
(٣) سبق تخريجه (٣٣٣/١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ولا تظهر واضحة كما في الاسم الأعظم، اسم الله الأعظم الَّذي إذا سُئل به أعطى وإذا دُعي به أجاب، اختلفوا فيه، وكذلك مثل ساعة الإجابة في يوم الجمعة، الَّتي إذا دعا فيها عبد مسلم بخير استجاب الله له.

إخفاء ليلة القدر من رحمة الله:

وكذلك ليلة القدر، لم يشأ أن يعرِّفها لنا تعريفًا واضحًا، حتَّى لا يقول الإنسان: لماذا أتعب نفسي الشهر كله؟ أنا أتعب ليلة القدر ويكفيني، ويتعب ويجتهد ليلة معينة كفى، فالإنسان كسول بطبعه عن الخير، والشيطان يثبطه وأصدقاء السوء يثبطونه، والدنيا وزخارفها تلعب به، ولذلك أخفى الله تعالى عنَّا ليلة القدر.

حتى إنَّ النبي ﷺ خرج ليلة من الليالي وأراد أن يعرف أصحابه أي ليلة هي، فوجد اثنين يتشاجران ويتلاحيان في المسجد، فقال: «**إنِّي خرجت لأخبركم بليلة القدر، وإنَّه تلاحى فلان وفلان، فرُفعت**»[1]، يعني رُفعت من قلبه، وأنساه الله ما كان يريد أن يقوله، لينفذ حكم الله، وتبقى الحكمة الإلٰهيَّة أنَّها في شهر رمضان عامَّة، وفي الليالي العشر الأخيرة منه خاصَّة، وفي ليالي الأوتار بصفة أخص، وطبعًا ليالي الأوتار تختلف من بلد لبلد، فنحن الليلة نحتفل بليلة السابع والعشرين من رمضان، وفي مصر احتفلوا أمس بليلة السابع والعشرين، ولعل هناك أناس في بلد آخر يحتفلون غدًا في بنجلاديش ونحوها، فلا نستطيع أن نجزم، ولذلك الحزم أن يحيي الإنسان ليالي رمضان، ويزداد همة ونشاطًا في العشر الأواخر.

هناك من قال: إنَّها في ليلة إحدى وعشرين، وكأنَّه مذهب الإمام البخاري أو ما يميل إليه الإمام البخاري، وهو ما يحتفل به إخواننا

(١) رواه البخاري في الإيمان (٤٩)، عن عبادة بن الصامت.

QaradawiBooks.com

الإباضية في عمان، والشيعة في ليلة واحد وعشرين، وهكذا، وأهل السُّنَّة كثير منهم يحتفل بها ليلة سبعة وعشرين، لا على أنَّه مجزوم بها في هذه الليلة، ولكن أرجى ما تكون، هكذا قال ابن عباس[١]، وهكذا قال أبي بن كعب[٢]، وهكذا قال ابن عمر[٣].

ولكن ليس عندنا يقين، وهذا من رحمة الله بنا حتَّى لا نتواكل ونميت الليالي الأخرى ونحيي ليلة واحدة، وهذه الليلة ليلة سبعة وعشرين فيها قول قوي، ولذلك نحاول أن نستفيد من هذه الليلة، نحييها بذكر الله وطاعته وعمل الصالحات واستباق الخيرات، واجتناب السيئات، واجتناب اللغو من الكلام، والعبث من الأفعال، نصل الأرحام، نبر الوالدين، نتصدق في هذه الليلة الكريمة.

السور المكيَّة والمدنيَّة في الأجزاء الثلاثة الأخيرة:

أريد أن أقف معكم في الليلة وقفات ثلاث في سورة من السور الَّتي استمعنا إليها هذه الليلة من الجزء السابع والعشرين من القرآن الكريم، والجزء السابع والعشرون كله مكي، كل سوره مكيَّة، بخلاف الجزء الثامن والعشرين، جزء قد سمع كل سوره مدنيَّة، جزء تبارك كل سوره مكيَّة، إلَّا ما قيل في سورة الإنسان، وهذا ليس صحيحًا، أو آيات معينة

(١) عن عبد الله بن عباس، أنَّ رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: يا نبي الله، إنِّي شيخ كبير عليل، يشق علي القيام، فأمرني بليلة لعل الله يوفقني فيها لليلة القدر. قال: «**عليك بالسابعة**». رواه أحمد (٢١٤٩)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح على شرط البخاري. والطبراني (٣١١/١١).

(٢) قال أبي كعب: والله الذي لا إلٰه إلا هو، إنَّها لفي رمضان، يحلف ما يستثني، ووالله إنِّي لأعلم أي ليلة هي، هي الليلة التي أمرنا بها رسول الله ﷺ بقيامها، هي ليلة صبيحة سبع وعشرين. رواه مسلم (٧٦٢).

(٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما: أرى رؤياكم قد تواطأت في ليلة سابعة، فمن كان متحريها منكم، فليتحرها في ليلة سابعة». رواه عبد الرزاق في الصيام (٧٦٨٨).

QaradawiBooks.com

من بعض السور، بعضهم يستثني الآية الأخيرة من سورة المزمل، وبعضهم يستثني آية من سورة المرسلات، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨].

وقفة مع النداء الأوَّل في سورة الصف:

المهم أن هذه السور في الجزء الثامن والعشرين كلها سور مدنيَّة، نزلت تنظم شأن المجتمع الإسلامي في المدينة، ولذلك تكاثرت فيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ونحن نتحدث عن هذا النداء الإلٰهي للجماعة المؤمنة في سورة الصف.

في سورة الصف ثلاثة نداءات للمؤمنين، بهذا الخطاب المتفرّد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، هذا خطاب جديد على الأمة العربيَّة، لم تعرف الأمة العربيَّة في أدبها ولا في نثرها ولا في شعرها ولا في خطابة خطبائها ولا في رسائل الأدباء، ولا في وصايا الحكماء، لم تعرف هذا النداء، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، كانوا يتنادون: يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني فهر، يا بني كعب، يا عرب، يا عجم، إنَّما ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، هذا نداء جديد قرع سمع الجزيرة العربيَّة لأول مرَّة في المدينة المنورة بعد الهجرة، ولذلك يقول سيِّدنا عبد الله بن مسعود: إذا سمعتَ الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فافتح لها سمعك، فإنَّه خير تؤمر به، أو شر تصرف عنه[1].

في سورة الصف ثلاثة نداءات، وكلمة: «الصف» ماذا تعني؟ هذه الكلمة تعني معنيين كبيرين: تعني التكتل والنظام، هذا معنى الصف، وَحدة وانتظام، والإسلام يريد المسلمين أن يتوحدوا وينتظموا، لا يرضى

(١) رواه سعيد بن منصور في تفسيره (٥٠).

QaradawiBooks.com

منهم الفرقة، ولا يرضى منهم الفوضى، وإن كان المسلمون ـ للأسف ـ أصبحوا مثلًا مضروبًا للفرقة والاختلاف، والفوضى والاختلاف، مع أنَّ الصلاة نفسها تعلمنا الصف، هذه الصفوف الَّتي تشبه صفوف الملائكة، إنَّ الله لا ينظر إلى الصف الأعوج، استقيموا يرحمكم الله، لينوا بأيدي إخوانكم، لا تختلفوا فتختلف قلوبكم، صفٌّ منتظم، المفروض تكون هكذا صفوف المسلمين، هكذا يعلِّمنا الإسلام في الصلاة وفي الجهاد كذلك، وكان النبي ﷺ يعدل الصفوف بالقدح في يده[1]، ولذلك السورة اسمها: «سورة الصفِّ».

ينبغي أن نأخذ من معاني السور إيحاءاتها، فهناك سورة اسمها: «سورة الحديد»، لم تسمَّ «الحديد» هكذا اعتباطًا، ولكن لنهتم بصناعة الحديد، «سورة الشورى» لماذا سمِّيت بهذا الاسم؟ لنجعل الشورى قاعدة أساسيَّة في حياتنا الأسريَّة والفرديَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة.

النداء الأوَّل للمؤمنين في سورة الصف:

سورة الصف فيها نداءات ثلاث، أوَّل نداء فيه نوع من اللوم والتقريع، يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]، يعيب الله تعالى على المؤمنين أن يكونوا أناسًا يخالف فعلُهم قولَهُم، أو يخالف قولُهُم فعلَهم، لا بدَّ للمسلم أن تكون شخصيته واحدة، لا يكون مزدوج الشخصيَّة، ولا متناقض الشخصيَّة، يخالف ظاهرُه باطنَه، وفعلُه يناقض قولَه. لا. المسلم مستقيم في قوله وفي فعله، فلا ينبغي أن يقول شيئًا

(١) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٣٥٥٠). ولفظه: عن حبان بن واسع، عن أشياخ من قومه أن رسول الله ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدح يعدل به القوم...

QaradawiBooks.com

ويفعل ضده، أو يقول كلامًا ولا ينفذه، المسلم يحترم كلمته، يفي بها، كما قال الشاعر العربي:

ولا أقولُ: نعمْ يومًـا وأُتْبِعُها بلا ... ولو ذهبـت بالمَـالِ والوَلَـدِ[١]

إذا قلتُ: نعم فلا بـدَّ أن أنفِّذ ولو كلَّفني ذلـك ما كلفني، كما قال الشاعر الآخر:

إذا قلـتَ في شـيءٍ نَعَـمْ فأَتِمَّه ... فإنَّ نَعَمْ دَيْن علـى الحُرِّ واجبُ
وإلَّا فقلْ: لا، تسـترحْ وتُرِحْ بها ... لئلَّا يقول النـاسُ: إنَّك كاذبُ[٢]

كن عند كلمتك، ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾، النبيُّ ﷺ ذكر لنا أمراء من أمراء السوء، «**يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهـم بقلبـه فهو مؤمـن، وليـس وراء ذلك من الإيمـان حبَّة خردل**»[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾، يعني أن ممَّا يَعظُم مقته وسخطه والغضب عليه وكراهيته عند الله ﷻ أن يقول الإنسـان ما لا يفعـل، بل يجب أن يقول ويفعل، كما قال الشاعر:

وأراك تفعلُ ما تقـولُ وبعضُهم ... مَزِقُ اللِّسـانِ يقولُ ما لا يفعلُ[٤]

---

(١) من شعر عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر. انظر: عيون الأخبار (٤٦٣/١).

(٢) من شعر أبي الأسود الدؤلي، كما في ديوانه صـ ٣٢٦، تحقيق محمد حسن آل ياسين، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط ٢، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

(٣) رواه مسلم في الإيمان (٥٠)، وأحمد (٤٣٧٩)، عن ابن مسعود.

(٤) من شعر الأحوص الأنصاري. انظر: العقد الفريد (٢٦٥/٤).

QaradawiBooks.com

فينبغي أن يكون المؤمن هكذا، إذا وعد وعدًا أنجزه، وإذا عاهد عهدًا وفى به، وإذا قال كلمة صدَّقها بفعله، هذا هو شأن المؤمن، هذا أوَّل نداء للجماعة المؤمنة، أن يكون فعلُها مصدِّقًا لقولها.

وقفة مع النداء الثاني في سورة الصف:

إذا كان النداء الأوَّل في سورة الصف يحمل لومًا أو تعنيفًا أو توبيخًا فالنداء الثاني يحمل عرضًا وتحضيضًا وحثًّا وتحريضًا على شيء عظيم، سمَّاه القرآن: التجارة المنجية من العذاب الأليم، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الصف: ١٠]، تجارة تنجي من عذاب أليم، المفروض تجارة تربح وتكسب، أمَّا أنَّها تجارة وتنجي من العذاب فهذه تجارة غريبة وغير عادية، نعم هي تجارة تتاجر فيها مع الله الَّذي ﴿ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، ما دام الله اشترى منك فعليك أن توفِّي بالصفقة، وأن تسلِّم المبيع لتتسلَّم الثمن، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، وانظر إلى هذا الأسلوب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾، ما أجمل هذا وما ألطفه وما أرقه من أسلوب، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

ماذا يكون جواب المؤمنين؟ دلنا يا رب، إذا قال لك واحد: هل أدلك على الطريق الَّذي يوصلك إلى النجاة؟ إذا كان هذا الدليل يعرف الطريق، دليلًا خِرِّيتًا يعرف المسالك والطرقات والمنعرجات، يملك الخبرة والمعرفة، ويملك المحبة لك أيضًا، لأنَّه يجوز أن يعرف لكنَّه يريد أن يهلكك، إنَّما إذا كان يريد الخير لك وهو الخبير بما ينجي، أتقبل دلالته أم لا تقبلها؟ طبعًا تقبل.

انظروا إلى الأسلوب: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾، سبحان الله، أي رقّة وأي لطف في

QaradawiBooks.com

هذا الأسلوب، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، دُلَّنا يا ربنا، دلنا يا أكرم الأكرمين، دلنا يا أرحم الراحمين، دلنا يا أعلم العالمين، يا أحكم الحاكمين، ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

ما هذه التجارة؟

قال: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ [الصف: ١١]، هذه هي التجارة المنجية والمربحة، وهي أعظم وأربح تجارة في الدُّنْيا والآخرة.

هذه التجارة مكونة من عنصرين: إيمان وجهاد، إيمان بالله ورسوله، وجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾، الإيمان هو الأصل، والجهاد هو الدليل على وجود الإيمان، هو الأثر للإيمان، لا إيمان حقيقي دون جهاد، الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، الصادقون في إيمانهم، وما عدا ذلك يكون الإيمان دعوى، وما أكثر الدعوى وما أعز المعنى، الإيمان الحق هو الَّذي يؤدي إلى الجهاد بالمال والنفس، هذا ما ينبغي للمسلمين أن يفقهوه.

لا يمكن أن تكتب لهم النجاة من العذاب الأليم في الدُّنْيا وفي الآخرة حتَّى العذاب في الدُّنْيا بدون جهاد، الله تعالى يقول: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ [التوبة: ٣٩]، يعذبكم في الآخرة، ويعذبكم في الدُّنْيا على أيدي أعدائكم، حينما يستعبدونكم، وحينما يحتلون أرضكم، وحينما يسيرون أموركم كما يشاؤون، كأنكم قطعان من الأنعام يتحكَّمون في رقابكم، هذا عذاب،

QaradawiBooks.com

هذا ذل، التجارة الَّتي تُنجي من العذاب هـي الإيمان والجهاد، ولذلك جاء عن بعض السلف قال: ما غزي قوم في عقر دارهم إلَّا ذلُّوا[1]. والذل عذاب أي عذاب.

جهاد الدفع:

الأُمَّة عليها أن تجاهد في سـبيل الله، خصوصًا الجهاد الَّذي يسميه العلماء: جهاد الدفع، يعني الجهاد لدفع الأعداء وطردهم وتحرير الأرض منهم، هذا جهاد فرض عين على من احتلـت أرضه، فإذا قدر على دفع هـذا العدو فبهـا ونعمـت، وإلا انتقلـت الفرضية إلى مـن يليهم من المسـلمين، حتَّى ولو لم يعجز هؤلاء ولكن نكصوا وجبنوا ولم يقوموا بواجب الجهاد، وجب علينا أن ندافع عنها، لأنَّها ليست أرضهم وحدهم، وإنَّما هي أرض الإسلام، إذا تركناها ضاعت أرض الإسلام، فلو أن أهل فلسطين لم يدافعوا عن أرضهم لوجب علينا أن ندافع عنهم، فكيف وهم يدفعـون النفـس والنفيس، ويبذلـون الغالـي والرخيـص، ويقدمون التضحيات تلو التضحيات، والشهداء وراء الشـهداء، مواكب الشهداء، ومواكب المجروحيـن والمعوَّقين والمعتقلين والمسـجونين هذه كلها تضحيات نراها أمامنا، واجبنا إذن أن نجاهد.

الفقهاء قالوا: إذا لم يقم أهل البلد بالدفاع عن أنفسهم وطرد الأعداء ينتقل الواجب إلى من يليهم، ثمَّ من يليهم، ثمَّ من يليهم، حتَّى يشـمل المسـلمين كافَّة، وأنا أقول: إن على جميع المسـلمين في الأرض الآن واجبًا نحو تحرير القـدس، وتحرير الأقصى، وتحريـر أرض النبوات،

(١) من كلام عليّ بن أبي طالب. انظر: الأخبار الطـوال للدينوري صـ ٢١١، تحقيق عبد المنعم عامر، نشر دار إحياء الكتب العربي، القاهرة، ط١، ١٩٦٠م.

QaradawiBooks.com

أرض الإسراء والمعراج، علينا جميعًا واجب طرد اليهود المعتدين الغاصبين الآثمين الظالمين المستكبرين في الأرض بغير الحق، واجب الأُمَّة الإسلاميَّة كلها، وهو واجب مؤكد، من استطاع أن يجاهد بنفسه فليفعل، ومن لم يستطع فليجاهد بماله، ولا جهاد بغير المال.

الجهاد بالمال:

القرآن يقدِّم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس، الله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٠]، ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١]، ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١]، ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

فقُدم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس لأنَّ المال هو عصب الجهاد، فبالمال تُعِدّ السلاح، وبالمال تُعِدّ المجاهد، وبالسلاح تؤمِّن الجبهة الداخلية، وإخواننا في فلسطين الآن يحتاجون إلى المال لإطعام الجائع، لكسوة العاري، لمداواة المريض، لكفالة اليتيم، لكفالة الأسر الَّتي اعتُقل عائلوها، أو قُتلوا، يحتاجون إلى المال لإقامة البنية التحتية الَّتي هدّمها الصهاينة.

إخواننا يحتاجون إلى هذا، ماذا قدَّمْنا لهم؟ البلاد العربيَّة ما عادت تقدم لهم بأوامر أمريكية، والأغنياء أصبحوا خائفين، لأن الأمريكان يمكن أن يضعوهم في القائمة الإرهابية، أين الأُمَّة الإسلاميَّة؟ ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾، علينا أن نبذل ما استطعنا من أموالنا لإخوتنا

QaradawiBooks.com

هؤلاء وخصوصًا في هذه الأيام وفي هذا الشهر الكريم، نغيث الملهوف، ونقوّي الضعيف، ونرحم المسكين.

الدعم والبذل للمسلمين في فلسطين:

إخواننا يستحقون الدعم والبذل من أكثر من وجه، أنَّهم أصبحوا فقراء بعد أن حاصرهم اليهود وأصبحت البطالة ثمانين في المائة، وأصبحت مزارعهم تُجرف، وأشجار الزيتون تُحرق، ومنازلهم تُدمَّر، خصوصًا في الفترة الأخيرة، شارون السفاح أصبح يُدمِّر المنازل بالمئات، وتُترك الأُسَر في العراء، فهم يستحقون لأنَّهم فقراء ومساكين وأبناء سبيل وفي سبيل الله، ومن كل جهة من الجهات يستحقون الدعم، ادفع في سبيل الله، ادفع لأنَّهم أصبحوا مشردين، ادفع لأنَّهم أصبحوا مساكين.

نستطيع أن ندفع لهم ـ أيُّها الإخوة ـ من الزكاة، ومن زكاة الفطر، ومن صدقات التطوع، ومن ريع الأوقاف لمن عنده أوقاف، ومن وصايا الموتى، آباؤنا وأجدادنا من أهل قطر ترك آباؤهم وأجدادهم لهم وصايا في الخير، ندفع من هذه الوصايا، وكما قلتُ من قبل: هناك أموال مشتبه فيها، أو خالطها الحرام، مثل الأموال الَّتي جاءت من الصناعات.

وقد أفتينا مع عدد من العلماء بأن على من اشترك فيها وربح منها وباع أن يدفع ما ربحه في الحال، ولا يقول: أنتظر حتَّى يحول الحول، إذا بعتَ أسهم الصناعات وكسبت فيها ادفع لإخوانك في فلسطين، فهذا هو واجبنا، فاليهود في أنحاء العالم يبذلون لدولة الكيان الصهيوني إسرائيل، اليهود الَّذين هم أحرص النَّاس على حياة، وأبخل النَّاس بمال يبذلون الملايين، والمسلمون ـ للأسف ـ لا يبذلون.

QaradawiBooks.com

ثمرة الجهاد في سبيل الله:

﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الصف: ١١، ١٢]، هذا ثمرة هذا الجهاد في الآخرة، مغفرة الذنوب، ودخول جنات تجري من تحتها الأنهار، ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٢].

وليس الثمرة في الآخرة فقط، لا. هناك ثمرة في الدُّنيا، وما هي؟ قال: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣]، نعم هناك خسائر كثيرة، لكنهم رغم طول بقائهم، فهم غير آمنين، يشعرون أن هذه ليست أرض إقامة، وليست بلد استقرار، وكثير منهم إذا أتيحت له الفرصة يفر ولا يرجع. هذا ما نراه، والله تعالى يقول: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

وقفة مع النداء الأخير في سورة الصف:

النداء الثالث والأخير الَّذي خُتمت به سورة الصف، الآية الأخيرة تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]، ربنا ينادينا ويقول: ﴿كُونُواْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، نريد أن نكون أنصار الله، ماذا نقول نحن؟ نريد من يقول: يا رب نحن أنصار الله، نحن أنصارك، ربنا يدعونا لنكون أنصاره، ويأمرنا: ﴿كُونُواْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾.

اليهودية وجدت لها أنصارًا، النصرانيَّة وجدت لها أنصارًا، أربع ملايين وسبعمائة وخمس وسبعون مبشِّر ومبشِّرة، أو منصِّر ومنصِّرة في

QaradawiBooks.com

أنحاء العالم، خمسة ملايين إلَّا ربعًا أنصار النصرانيَّة، الشيوعيَّة وجدت لها أنصارًا يدخلون من أجلها السجون، وكل الديانات حتَّى الوثنيات وجدت لها أنصارًا، أين أنصار الإسلام؟ ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾، وأنصار الله يعني: أنصار دينه ونبيه وكتابه ودعوته.

رجل أجنبي دخل الإسلام بعد أن أعجب بتعاليمه وقال كلمة يجب أن نعيها وأن نسجلها في عقولنا وذاكرتنا ونكتبها بماء الذهب أو بماء العين، قال معجبًا بالإسلام: يا له من دين لو كان له رجال. قال: هو دين عظيم ولكنَّه لا يجد رجالًا عظماء، دين قوي ولكن يحتاج إلى رجال أقوياء، مع أنَّ الإسلام له مليار وثلث مليار من البشر أو أكثر، لأن المسلمين يتوالدون ويتناسلون ويتزايدون، ألف وثلاثمائة مليون أو يزيدون في أنحاء العالم، فمَن مِن هؤلاء يعد من رجال الإسلام، من أنصار هذا الدين، من هؤلاء؟ القليل جدًّا هم الَّذين يحسبون من هؤلاء، ألف وثلاثمائة مليون معدودون في الإسلام، محسوبون عليه، ومنسوبون إليه، ولكن نريد من هؤلاء الَّذين ينذرون أنفسهم لنصرة هذا الدين، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

وأنا أعتقد أنَّه بحمد الله لدينا فئة من هذا النوع موجودة في كل مكان، وفي كل بلد، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، تسمَّى الطائفة المنصورة الَّتي جاءت بها الأحاديث واستفاضت عن عدد من الصحابة، ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، هذه الطائفة المنصورة موجودة، ابحث عنها وكن واحدًا منها، وكن نصيرًا لهذا

QaradawiBooks.com

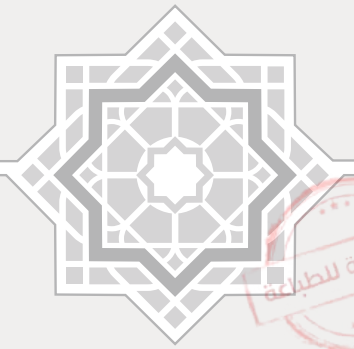
الدين، انصر الله، انصروا الله، ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾، ينصركم الله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٧، ٨].

أســأل اللهَ ﷻ أن ينصرنا وينصر بنا، ويُعِزَّنا ويعزَّ بنا، ويُثَبِّت أقدامنا على الحقِّ، ويجعل خير أيامنا يوم لقائه وخير أعمالنا خواتيمها، وصلى الله على سيِّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



غير مرخصة للطباعة

من دروس التفسير

سورة الطلاق



نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

فقد استمعنا إلى هذه الآيات الكريمة من أوائل سورة الطلاق، من الجزء الثامن والعشرين من القرآن الكريم، وهي آيات تتحدث عن العِدَّة وما ينبغي أن يُهيَّأ لها، ومن العجب أن يوجد في القرآن سورة تسمى سورة الطلاق ولا يوجد سورة تسمى سورة الزواج، بل إنَّ الصحابة سمُّوا هذه السورة: «سورة الطلاق الصغرى»، وسمُّوا سورة البقرة «سورة الطلاق الكبرى»؛ لأنَّها اشتملت أيضًا على آيات كثيرة تتعلق بأحكام الطلاق.

لماذا اهتم القرآن بأمر الطلاق أكثر ممَّا اهتم بأمر الزواج؟ لأنَّه اهتم بأمر الأسرة في حالة الانفصال أفلا يهتم بها في حالة الإنشاء؟ ذلك أنَّ النَّاس في حالة إنشاء الأسرة يكونون في حالة تراضي فيحفظ بعضهم حقوق بعض، ولكن في حالة الانفصال يكونون في حالة مغاضبة فيخشى أن يُخرجهم الغضب عن الحق وأن يجور بعضهم على بعض وأن ينسوا الفضل بينهم، من هنا كان التأكيد على أحكام الله ﷻ في حالة الانفصال وفي حالة الطلاق سواء في سورة البقرة أو في هذه السورة.

خطاب النبيِّ ﷺ:

بدأت هذه السورة بخطاب النبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، والله ﷻ لم يخاطب رسوله محمدًا ﷺ إلَّا بوصف النبوة أو بوصف الرسالة، لم يخاطبه باسمه وهذا تكريم إلٰهي لحبيبه ومصطفاه مُحَمَّد ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الطلاق: ١]، كما في

QaradawiBooks.com

هذه السورة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وهنا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، الخطاب ليس للنبيِّ في الحقيقة وإنَّما هو للأُمَّة ولذلك يقول: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]، إنَّما كان الأمر للنبيِّ ﷺ دلالة على أهميَّة هذا الموضوع يخاطَب به المسؤول عن الأُمَّة والمبلِّغ لرسالة ربِّه، ليشعر النَّاس من أوَّل الأمر بخطورة هذا الأمر الَّذي يقبلون عليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]، إن كان ولا بد من الطلاق وحدث الطلاق وهو أبغض الحلال إلى الله، لكن الله قد شرعه لأنَّه بمثابة عمليَّة جراحية لا بدَّ منها، إذا لم يوجد دواء آخر، وآخر الدواء الكي.

وإذا لم يكن إلَّا الأسنَّة مركبٌ فما حيلة المضطر إلَّا ركوبها[1]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، أي: طلقوهنَّ مستقبلات للعدة، كما جاء ذلك في تفسير النبي ﷺ أن تطلَّق المرأة في طهر لم يمسها فيه[2]، لا يطلِّقها في حالة الحيض، هذا طلاق ليس من السُّنَّة في شيء، لذلك أجمع المسلمون على تسميته «الطلاق البدعي»، أن تطلَّق المرأة وهي في حالة الحيض، إنَّما ينبغي للرجل أن يطلِّقها في حالة الطهر، فقد تكون حالة الحيض والمرأة متوترة عصبيًّا، والرجل محرَّم عليه أن يتصل بها جنسيًّا، فلعلَّ هذه الظروف تكون ظروفًا غير عادية فتتسبَّب في الطلاق.

---

(١) سبق عزوه (١/٦٠٠).

(٢) كما في حديث ابن عمر، أنَّه طلق امرأته وهي حائض في عهد رسول الله ﷺ، فسأل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: «**مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء**». متَّفق عليه: رواه البخاري (٥٢٥١)، ومسلم (١٤٧١)، كلاهما في الطلاق.

QaradawiBooks.com

فعلى الرجل إذن أن يتخير الوقت الَّذي يطلِّق فيه، ومعنى هذا أن ينتظر إذا كانت حائضًا حتَّى تطهر، ومعنى هذا مزيد من التفكير، وهذا كله يدل على أنَّ الإسلام لا يريد التعجل في مسألة الطلاق، إنَّما يختار الوقت المناسب والحالة المناسبة.

فالطلاق في حالة الحيض طلاق بدعي، والفقهاء اختلفوا فيه هل يقع هذا الطلاق أو لا يقع؟ والمشهور في المذاهب الأربعة أنَّه يقع وإن كان بدعيًّا ومحرمًا، وبعض الفقهاء قالوا: لا يقع لأنَّه ليس على أمر النبي ﷺ، وقد قال: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[1]، وهو طلاق لم يشرعه الله ولم يأذن به؛ فلا ينبغي أن يقع، هذا خلاف فقهي لا نقل فيه.

المهم أنَّ الطلاق المشروع أن يطلِّقها في حالة طهر لم يمسها فيه، أو في حالة أخرى أن تكون حاملًا مستبينًا حملها، معروف أنَّها حامل وواضح حملها هنا يجوز له أن يطلِّقها؛ لأن معناه أنَّه قرر الطلاق وهو يعلم أنَّها حامل، ﴿**وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ**﴾ [الطلاق: ٤]، إنَّما إذا لم يكن حملها مستبينًا فلا يجوز؛ لعله لو عرف أنَّها حامل لغيَّر رأيه وأصبح بينه وبينها ارتباط بهذا الجنين.

﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ**﴾ [الطلاق: ١]، ابتداء من يوم الطلاق لنعرف إذا كانت العِدَّة ثلاثة حِيَض كما هو بعض المذاهب، أو ثلاثة أطهار، أو إذا لم تكن المرأة من ذوات الحيض، أو كانت صغيرة، أو كانت آيسة، أي انقطع عنها الحيض كما في هذه

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

السورة: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾ [الطلاق: ٤]، فيكون بالأشهر، ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، حتَّى لا يجار على المرأة فتعتدَّ مدَّة أطول، أو تأخذ مدَّة أقل، وكل هذا غير جائز.

التذكير بتقوى الله:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾ [الطلاق: ١]، دائمًا القرآن في هذه الأمور يذكِّر بتقوى الله حتَّى تكون هذه التَّقوى هي المِلاك لهذه الأمور، لأن تقوى الله هي الَّتي تجعل الإنسان يراعي الأحكام، القوانين وحدها لا تُنشئ مجتمعًا، إنَّما الضمائر المؤمنة، ولذلك يقول: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١].

البقاء في بيت الزوجيَّة:

في حالة العِدَّة إذا وقع الطلاق ينبغي للمرأة أن تبقى في بيت الزوجيَّة، والقرآن يقول: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ مع أنَّه المفروض أنَّه بيت الزوج إنَّما هو بيتها، البيت ينسب إلى المرأة فهي ربة البيت، هي صاحبة هذه المملكة، حتَّى وإن كان هو بيت الزوج هو بيتها، ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ البيت الَّذي عاشت فيه ورعته لا تُخرجها منه، للأسف كثير من نساء المسلمين لا يراعين هذا.

﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾ [الطلاق: ١]، لا تخرجها من بيتها ولا يصح لها أن تخرج، إنَّما كلَّما وقع الطلاق نجد المرأة جمعت ثيابها وذهبت إلى بيت أبيها وأهلها، هذا لا يجوز، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ [الطلاق: ١]، لا يجوز للرجل أن يُخرجها، ولا يجوز لها أن تَخرج

QaradawiBooks.com

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾، الفاحشة المبينة أنَّها ترتكب فاحشة والعياذ بالله يقام بها عليها الحد، أو فاحشة اللسان تكون سليطة اللسان تؤذي أهل زوجها فلهم أن يخرجوها من البيت.

قيام الأسرة في الإسلام على أساسين: رباني وإنساني:

﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١]، أمور الأسرة في القرآن قائمة على أساسين كبيرين:

الأساس الأوَّل أساس ربَّاني وهو: ما يطلق عليه في القرآن: ﴿**حُدُودُ ٱللَّهِ**﴾، كما يقول هنا: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١]، وفي سورة البقرة: ﴿**تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٢٩]، والحدود هي الأحكام والأوامر والنواهي الَّتي نظمت شؤون الأسرة.

والأساس الآخر أساس إنساني وهو: المعروف، ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ [البقرة: ٢٣١]، والمعروف هو: ما تعارف عليه الفضلاء من البشر، فهذان هما الأساسان اللذان يجب أن تقوم عليهما الأسرة.

﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ [الطلاق: ١]، إذا بقيت المرأة في بيت الزوج، والزوج يصابحها ويماسيها داخل خارج عليها لعلَّ النفوس تتغير ويزول هذا

QaradawiBooks.com

الغضب وترجع المياه إلى مجاريها كما يقولون، والإنسان مخلوق من طين فممكن يحدث له هذا الكدر، ثمَّ يرجع إلى حالته ويتغلب العنصر الروحي على العنصر الطيني، ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

ولذلك بعض الفقهاء قالوا: هذا في الطلاق الرجعي، وهذا ما كانت تقوله فاطمة بنت قيس الصحابية وتجادل الصحابة وتقول: هذا ليس في الطلاق الثلاث، إنَّما في الطلاق الرجعي، وإلا فأي أمر يحدث بعد الطلاق الثلاث؟ ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، قالوا: هذا في الطلاق الرجعي، هناك خلاف فقهي في هذا.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ـ أي قاربن انتهاء العدة ـ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢]، إذا قاربت انتهاء العدة قرروا إذن، إمَّا أن تمسكها بمعروف وهذا أفضل، وإمَّا أن تفارقها بالمعروف، ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وليس كما يفعل كثير من النَّاس إذا افترقوا ينسون كل شيء، ويحاول كل واحد منهما أن يدمِّر الآخر ويقتله، لقد كانت بينكم عشرة يا ناس.

الإشهاد على الفراق أو الرجعة:

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]، على الفراق أو على الرجعة، الأصل في هذا الأمر أن يكون للوجوب حتَّى لا يجحد أحد الطرفين ويقول: أنا لم أراجعها أو تقول: لم يراجعني.

﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، أشهدوا اثنين من ذوي العدالة المرضيين عند النَّاس، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾، لا من أجل غرض، ولا من أجل فلان أو أجل علان، إنَّما الشهادة لله، هكذا ينبغي أن تكون الشهادة.

QaradawiBooks.com

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢]، من يتق الله في أحكام الطلاق ربنا يجعل له مخرجًا، إنَّما الَّذي يخرج عن حدود الله هو يغلق على نفسه الأبواب والمخارج، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وهذا في الطلاق وفي كل الأمور، التَّقوى سبب من أسباب الخروج من كل معضلة، وسبب من أسباب الرزق من الناحية الإيجابية ومن الناحية السلبية.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، القرآن الكريم دائمًا يؤكد هذه المعاني الربانية من التَّقوى والتوكل في أمور الأسرة حتَّى لا يجور بعض النَّاس على بعض، بدأها بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ [الطلاق: ١]، وبعد ذلك قال: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١]، وهنا قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وفي الآية التالية قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤]، وفي الآية الَّتي بعدها يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ [الطلاق: ٥]، دلالة على أنَّ التَّقوى هي الأمر اللازم والمِلاك لهذه الأمور كلها حتَّى لا يظلم رجل امرأته ولا تظلم امرأة زوجها ولا يتظالم أهل الفريقين، فهذه هي شؤون الأسرة في الإسلام، وهذه هي قيمة المؤسسة في الشرع الإسلامي.

نسأل الله سبحانه أن يفقهنا في ديننا وفي كتاب ربنا وسنة نبينا، وأن يهدينا صراطه المستقيم، ويجعلنا من ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]، اللهمَّ آمين.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي

غير مرخصة للطباعة

من دروس التفسير

سورة التحريم

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[1]

غير مرخصة للطباعة

النداء الإلٰهي للمؤمنين:

تَلَوْنَا أيُّها الإخوة والأخوات بالأمس الجزء الثامن والعشرين من هذا القرآن العظيم، وخَتَمنا بسورة «التحريم»، وفي سورة التحريم، نقف عند آية كريمة، يخاطب الله فيها جماعة المؤمنين، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾.

هذا النداء الإلٰهي، والخطاب الربَّاني، هو من مبتكرات القرآن الكريم، لم يعرف العالم في شرقه ولا في غربه، ولا في عربه ولا في عجمه، هذا النداء من قبل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وكان النَّاس يتنادون: يا عرب، يا عجم، يا أهل الفرس، يا أهل الترك، يا أهل الهند، يا بني عبد مناف، يا بني مُضر، ونحو ذلك. إنَّما أن يتخاطب النَّاس بنداء الإيمان، فهذا ممَّا جاء به القرآن، فكان لأول مرَّة يقرع سمع البشريَّة. هذا النداء، لا نداء لعرق، ولا لجنس، ولا للون، ولا لأهل إقليم، ولا لأهل طبقة، إنَّما نداء لأهل الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

(١) من دروس تراويح ١٤٢٣هـ.

QaradawiBooks.com

وإذا قيل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فهم معلومون، هم الَّذين آمنوا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، وبالقرآن منهاجًا، هؤلاء هم المؤمنون، فأصبح مصطلحًا مفهومًا معروفًا، على من ينطبق عليه هذا، ولم تنزل هذه الصيغة إلَّا في القرآن المدني، بعد أن تكَّونت للإسلام جماعة مؤمنة، يصحُّ أن يوجَّه إليها الخطاب.

فقد كان المسلمون في مكَّة أفرادًا، وليس لهم جماعة ولا سلطان ولا كِيان، أمَّا في المدينة فأصبحت لهم دولة، وأرض، وسلطان، وأصبحوا جماعة جديرين أن يُنادوا بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

ومن يتتبع الخطاب بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، في القرآن المدني، يجد الخطاب يتناول أشياء كثيرة: العبادات، والمعاملات، والحياة الدستورية، والحياة الجنائيَّة، والحياة الاجتماعيَّة، والسياسيَّة، وكل أنواع التكاليف.

فالتكاليف الَّتي تتعلق بالعبادة، مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وبالتشريع الجنائي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وبالتشريع المدني والتجاري: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]. فكل أنواع التكاليف تضمنها الخطاب الرباني لجماعة المؤمنين.

QaradawiBooks.com

ومن أنواع الخطاب الرباني: خطاب التزكية، تزكية الأنفس، لا ينبغي أن يضيع هـذا، في إطار تكويـن المجتمع، وتكوين الدولة المسـلمة، ومجابهة الجبهـات الَّتي تعترض طريق الإسـلام، الوثنيَّـة واليهودية، والنصرانيَّـة، والمجوسـية، لا ينبغي أن يُغفـل هذا الجانـب لأنَّه هو الأساس.. تربية النفوس المؤمنة، الَّتي ترجو الله تعالى وتخافه.

فعلى أسـاس هذا الرجاء فـي رحمة الله، والخوف مـن عذاب الله، تتكون النفس الزكيَّة، الَّتي تتغيَّر فيتغيَّر ما حولها، فقانون الله في الأرض أنَّ الله لا يُغيِّر الأمم والأقوام، حتَّى يتغيـر الأفراد، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعـد: ١١]، فأسـاس التغييـر الاجتماعـي والسياسي، هو التغيير النفسـي والأخلاقي عند الأفراد، غيِّر ما بنفسك يتغير التاريخ، وتتغير السياسة والاقتصاد، وكل شيء.

وأسـاس هذا التغيير هذه التربية والتوجيه الإلٰهي، ولذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾.

وهذا لا يتم إلَّا بأن تكون الآخرة نُصب أعين النَّاس، فلا يعيشوا في الدُّنْيا وحدها، لا يعيشـوا من أجل المال والولد والنساء، ومتاع الحياة، وشهوات الحياة الدُّنيا، فإنَّهم إذا عاشوا لهذه الشهوات وهذا المتاع انْتَهوا كمؤمنين، وإنَّما يجب أن تكون الآخرة نُصب الأعين.

الدنيا طريق إلى الآخرة:

قال لي أحد الناس: أنت بذلك تُقلل من شـأن الدُّنيا، والتزهيد فيها يعني أنَّ الدُّنْيا ليس لها قيمة في الإسلام.

قلت له: لا! بل هذا يعني أنَّ الدُّنْيا لها قيمة كبرى، لأنَّ قيمة الدُّنْيا في أن تتخذها طريقًا إلى الآخرة، الإسـلام لا يمنعك أن تستمتع بالدُّنيا، ولم

QaradawiBooks.com

يحرم عليك طيباتها، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ولكن الإسلام رضيَ لك أن تستمتع بها، ولكن لم يرضها لك غاية، هي وسيلة، ولذلك كان الصالحون يجعلون الدُّنْيا في أيديهم، ولا يجعلونها في قلوبهم، يعيشون في الدُّنيا، ولا تعيش الدُّنْيا فيهم.

فالدنيا لها قيمة كبيرة؛ لأنَّها الفرصة الوحيدة الَّتي تُكوِّن بها رصيدك للآخرة، لا يوجد حياة أخرى، ولا عمر آخر، ولهذا كان عمرك له قيمة كبيرة جدًّا، ووقتك ثمين جدًّا، فلو كان الإنسان يعيش مرتين أو عمرين، لقال: أضيِّع عمرًا وأعوضه في العمر الآخر؛ لكن للأسف لا يوجد عمر ثاني، ولا فرصة أخرى.

ولذلك لا يعرف الإنسان قيمة عمره، وقيمة دنياه، إلَّا ساعة الموت، فحين يأتيه الموت يقول: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، لو تتركني يا رب قليلًا، يومًا أو نصف يوم، ساعتين، ساعة، نصف ساعة، خمس دقائق، ولكن هيهات ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١]، ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

لذلك كان من المهم، أن نضع الآخرة نصب أعيننا، ولا نجعل الدُّنْيا أكبر همِّنا ولا مبلغ علمنا، كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠]، كل ما يعرفه، وكل همُّه، ومحور تفكيره، وجُلّ اهتمامه، يدور على الحياة الدنيا.

ولاحظوا قول الله تعالى: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، ليس المانع في أن تريد شيئًا من الدُّنيا، إنَّما يجب أن تجعل الآخرة هي الأصل.

QaradawiBooks.com

النَّاس صنفان: من يريد العاجلة ومن يريد الآخرة:

فالناس صنفان: من يريد العاجلة، ومن يريد الآخرة، ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ يعني لن يعطيه كل شيء، ولا كل أحد، وبعد ذلك: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]، المدار على الإرادة: إرادة الدُّنيا، وإرادة الآخرة، فماذا تريد؟ هل أنت من مريدي الآخرة؟ أم من مريدي الدنيا؟ أنت عبد الآخرة أم عبد الدنيا؟ حدِّد موقفك.

لقد تحدثنا بالأمس عن رجاء الجنَّة، والتسابق إلى الجنَّة، وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، فسمعنا حثّ الله لعباده أن يرجو الجنَّة، وها نحن اليوم نسمع تحذير الله من النار، وأمره لعباده أن يَقُوا أنفسهم وأهليهم من النَّار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾.

الرغبة في الجنَّة والرهبة من النار:

لتكن بين هذين الأمرين: الرغبة في الجنَّة، والرهبة من النار، ولذلك دائمًا نقول: اللهمَّ إنِّي أسألك رضاك والجنة، وأعوذ بك من سخطك والنار.. اللهمَّ إنِّي أسألك الجنَّة وما قرَّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النَّار وما قرَّب إليها من قول وعمل.

قال النبي ﷺ لرجل: «**كيف تقول في الصلاة؟**» قال: أتَشَهَّد ثمَّ أقول: اللهمَّ إنِّي أسألك الجنَّة، وأعوذ بك من النار، أمَّا إنِّي لا أحسن دندنتك

QaradawiBooks.com

ولا دندنة معاذ. فقال النبي ﷺ: «**حولها ندندن**»[١]، حول هذين ندندن: أن تنجو من النار، وأن تدخل الجنَّة، وبدون ذلك ـ والله ـ لن تنفعنا الأموال ولا الأولاد، فاجمع ما شئت من الأموال، وابن ما شئت من القصور، واجمع ما شئت من الملايين أو المليارات في البنوك، وكل هذا لن يغني عنك شيئًا، فغمسة في النَّار تُنسي كل هذا..

فضع الجنَّة أمامك، والنَّار أيضًا، ولهذا قال: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ احمِ نفسك وأهلك من النار، ابدأ أولًا بنفسك ثمَّ بمن تعول، احمِ نفسك من النار، ومن أسباب دخول النار، ومن موجبات النار، والنار معروفٌ أسبابها وما يؤدي إليها..

كان بعض السلف يقرِّب يده من المصباح، فتلسعه اللسعة، فيتذكر نار جهنَّم، ويقول[٢]:

جِسْمِي على الشمسِ ليس يَقْوَى ولا على أهونِ الحَرارَةْ
فكيف يَقْوى على جَحِيمٍ وقودُها النَّاسُ والحِجَارةْ؟

أنا لا أطيق هذه اللسعة، وهي من أهون الحرارة، فكيف أصبر على نار جهنَّم، والنبي ﷺ يقول: «**ناركم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم**»، قيل يا رسولَ الله إن كانت لكافية قال: «**فضلت عليهن بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرِّها**»[٣].

---

(١) رواه أحمد (١٥٨٩٨)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود في الصلاة (٧٩٢)، عن بعض أصحاب النبي، ورواه ابن ماجه في إقامة الصلاة (٩١٠)، وابن حبان في الرقائق (٨٦٩)، وصحَّحه النووي في خلاصة الأحكام (٤٤٣/١)، عن أبي هريرة.

(٢) ذكره بلفظ مقارب من غير نسبة: الشارعي في مرشد الزوار إلى قبور الأبرار (٤٣٨/١)، نشر الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٥)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٣)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

فيجب أن تتقي النـــار، والنبي ﷺ يقول: «**أنذرتكـــم النار**»[1]. فاحم نفسك من النار.

من أوصاف النَّار في القرآن:

وأوصاف النَّار في القرآن ترعب كل قلب حي، ففيها شجرة الزقوم، ومـــا أدراك ما شـــجرة الزقـــوم: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۞ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۞ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۞ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٦].

احم نفسك من النار، ومن شرابها وطعامها، ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۞ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۞ جَزَآءً وِفَاقًا ۞ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۞ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ۞ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ۞ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٢٤ ـ ٣٠]. ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۞ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ٣٦، ٣٧].

احم نفسك من النار، من طعامها، وشرابها، ومقامعها، ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۞ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۞ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [٣٠ ـ ٣٢]. لا بـــدَّ أن تذكر هذه النار.

وقد كان أكثر ما يدعو به النبي ﷺ، الدعاء القرآني: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

العذاب المادي والمعنوي:

والنار ليس فيها العذاب فقط، بل فيها الإخزاء والذل، ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، لم يعد لهم

(١) رواه أحمد (١٨٣٩٨)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده حسن. والحاكم في الجمعة (٢٨٧/١)، وصحَّحه على شـــرط مســـلم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣١٤٤): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. عن النعمان بن بشير.

QaradawiBooks.com

أي قيمة، ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، والله يقول لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، ذل ما بعده ذل، ويكفي أنَّهم محجوبون عن ربهم: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٥ ـ ١٧].

النعيم المادي والمعنوي:

والجنة ليست مجرد الطعام والشراب والحور العين ونحو هذه الأشياء، بل فيها رضوان الله ﷻ، ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وفيها رؤية الله ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

المؤمن مأمور أن يقيَ أهله النار:

والإنسان لا يجوز له أن يحميَ نفسه من النار، ثمَّ يترك أهله وأولاده، تأكلهم النار، لا بدَّ أن يكون بهم رحيمًا، وعليهم شفيقًا، فيحميهم من النار. يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾.

احم نفسك أولًا، ثمَّ احم أهلك، زوجتك، وأولادك، أبناءك وبناتك، احمهم جميعًا من النار، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، لا يجوز أن تترك امرأتك لا تصلي، تترك أولادك لا يصلون، أنت مسؤول عنهم، «**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر**»[(١)]، من أجل ماذا؟ من أجل أن تحميَهم من النار.

---

(١) رواه أحمد (٦٧٥٦)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الصلاة (٤٩٥)، وحسَّنه النووي في رياض الصالحين (٣٠١)، وقال الألباني في صحيح أبي داود (٥٠٩): إسناده حسن صحيح. عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

يظن بعض الآباء أنَّه لم يقصِّر في حقِّ أولاده، لأنَّه أدخلهم أفضل المدارس، وصرف من أجلهم كثيرًا من المال، وعلَّمهم أحسن التعليم، ووصلوا إلى أعلى المراتب في الدُّنيا، ويقول: ماذا أفعل لهم أكثر من ذلك؟!

إنك لم تحمهم من النار، لم تعلمهم الدِّين، لم تغرس في أنفسهم مخافة الله، لم تعلمهم: هذا حلال وهذا حرام، لم تصحبهم معك إلى المسجد، لم تعلمهم حب الله ورسوله..

لا يكفي أن تصرف من أجلهم المال، أو تعطيهم كل ما يريدون.. فربما كنت بذلك مفسدًا لهم ولأخلاقهم، ربَّما بتدليلهم، وترك الحبل على الغارب، تشجعهم على الفواحش.. ثمَّ تقول: لم أقصر في حقهم! لا! لقد قصَّرت كل التقصير، وأعطيتهم ما يعينهم على الفساد، لأن أبا العتاهية يقول:

إنَّ الشبابَ والفراغَ والجِدَةْ مَفْسَدَةٌ للمَرْءِ أَيّ مَفْسَدَةْ[1]

والجدة: أي يجد كل ما يريد، وجدان المال، وهي تعني قدرة على أن يصرف ويشتري ويفعل كل ما يريد بماله.. وخصوصًا في عصرنا هذا، صارت التربية فيه شاقة وعسيرة؛ لأن الأب لم يعد يستطيع أن يتحكم في أولاده، ولا الأم في بناتها، بل أصبحت هناك أدوات أخرى تشاركك في تربية الأولاد وتوجيههم، وصار تأثيرها أكبر من تأثيرك.

صارت أدوات الإعلام تشارك في توجيه الأولاد، وتؤثر عليهم، التلفزيون، والفضائيات، والأفلام والمسلسلات، والصحافة

(١) انظر: خاص الخاص للثعالبي صـ ١٠٩، تحقيق حسن الأمين، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت.

QaradawiBooks.com

والمجلات، والصور والإنترنت.. وهذه الأشياء كلها يمكن أن تأخذ أولادك منك وأنت لا تدري، ولذلك تحتاج إلى يقظة، وإلى أن تستعين بالله، وتقول: يا رب أعنِّي على تربية أولادي. وتسعى لأن تجمع أولادك وتربطهم بأولاد صالحين، يذهبون مع بعضهم إلى المسجد، أو إلى الجمعيات الخيريَّة، يشتركون في حلقة إسلاميَّة دراسية، يتعاونون مع أحد شيوخ الدين، وهكذا.. تحاول أن تربطهم بخيط من خيوط الخير وإلا فأنت مسؤول.

لقد فسَّر سيِّدنا عليٌّ رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ بقوله: علِّموهم الخير[1]. يعني: علِّم أولادك الخير، حتَّى ينشأ عليه؛ لأنَّ الخير عادة، والشرَّ عادة، وقال الشاعر:

ويَنْشَأُ ناشِئُ الفتيانِ مِنَّا على ما كان عوَّدَهُ أَبُوهُ[2]

فإن عوَّدت ابنك الخير، نشأ إن شاء الله على الخير، وإن عوَّدته على الشر، على الكذب، على المعصية، على شرب الدخان، على المجالس الفاسدة، نشأ كما عوَّدته.

ولا يصح أن تكون أسوة سيئة، ثمَّ تأمره بعكس ما تفعل، فالتربية بالأسوة أهم من الكلام، فحين تكون مدخنًا، وتأتي كل يوم بالسجائر الَّتي تصنعها أمريكا، فتحمل إثمين: إثم التدخين، واثم نفع الأمريكان.. فحين يراك ابنك هكذا، ثمَّ تحلف له بالأيمان المغلظة أن هذا التدخين مضرّ، وكذا.. إلخ، هل سيقبل منك؟! لا بدَّ أن تكون قدوة له.

---

(١) رواه الحاكم في التفسير (٤٩٤/٢)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي. وقال ابن حجر في فتح الباري (٦٥٩/٨): رواته ثقات.

(٢) هو أبو العلاء المعري، كما في اللزوميات (٤١٣/٢).

QaradawiBooks.com

وقاية الأولاد من النَّار تبدأ من الصِّغر:

ولا يجوز أن يهمل الأب تربية أولاده حتَّى يكبروا، ثمَّ يأتي ويقول لابنه: يا بني صـــلِّ. لماذا لم تعلمه وهو صغيـــر؟ انتهى الوقت ولم يعد ينفع الآن:

وَيَنْفَعُ الأدبُ الأحداثَ في صِغَرٍ ... وليـــس ينْفَعُ عند الشِّـــيبَةِ الأدبُ

إنَّ الغصـــونَ إذا قوَّمتها اعتدلت ... ولن تلين إذا قوَّمْتَها الخُشُـــبُ[1]

الغصن الطري تلويه فيلتوي، وتثنيه فينثني، وتصنع منه الأشياء، أمَّا بعد أن يصير يابسًـــا فإنَّه ينكســـر إذا لويته، ولن تلين إذا قومتها الخشب.

فاتقوا الله في أولادكم، في أبنائكم وبناتكم، احذروا أن يتفلَّتوا منكم ويضيعوا، هناك الآن شبكات تحاول أن تصطاد الشباب والأولاد وخاصَّة أولاد الموســـرين، وخاصَّة أبناء الخليج، هناك سماسرة في بعض البلاد ينتظرون هؤلاء عند الطائرة، فتضيع صحته، ويصـــاب بالإيدز، ويضيع ماله، ويضيع شـــبابه، ويضيع دينه ويضيع دنياه، وهذا ناشـــئ من عدم الاهتمام الأول.

فعليك أيُّها الأب أن تهتم بأولادك، اســـتعن بالله، وقل: يا رب أعني على تربية أولادي. لأنَّه لا يعين على تربية الأولاد في هذا الزمن إلَّا الله، فاســـتعن بالله، ثمَّ بالصالحين من إخوانك، على تربية أولادك وبناتك، عســـى أن ينشـــؤوا من الصالحين ومن الصالحات، ولا يضيعوا في هذا الزمن، زمن السوء، زمن الفتن ما ظهر منها وما بطن.

---

(١) من شعر صالح عبد القدوس. انظر: حماسة البحتري صـ ٤٦١.

QaradawiBooks.com

وبقي شـــيء أيُّها الإخوة قبل أن أختم، وهو: أن أحد الإخوة سألني بالأمس سؤالًا وأخطأت في إجابته، ســألني عن قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتــح: ٢٦]، وقــال: كلمــة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هل هي فاعل أم مفعول به؟ فقلت له: أظن أنَّها مفعول به. ثمَّ لما تأملت في الآية، لم أســترح لهذه الإجابــة، فراجعت ذلك، فوجدت أنَّ الَّذين كفروا هي الفاعل، هم الَّذين جعلوا في قلوبهم الحميَّة حميــة الجاهليَّة، فأرجو أن يصحــح الأخ المعلومــة، وأن يقابلني بعد الصلاة، لأطمئن بوصول الرسالة إليه.

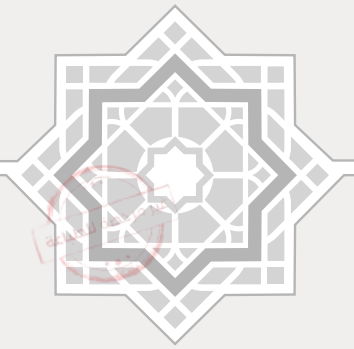
نسأل اللهَ تبارك وتعالى أن يتوب علينا توبة نصوحًا، وأن يقِيَنا وأهلنا نارًا وقودها النَّاس والحجارة. وصلى الله وسلم على سيِّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



من دروس التفسير

سورة الملك



نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١، ٢].

في هذه الليلة المباركة من ليالي العشر الأواخر من شهر رمضان نقف عند آيتين من كتاب الله من سورة الملك، أوَّل الجزء التاسع والعشرين، أو ما عرف عند النَّاس بـ «جزء تبارك»، نقف عند الآيتين الأوليين من هذا الجزء، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١، ٢].

بدأت السورة بهذه الكلمة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، وقد بُدئت سورة أخرى بهذا، وهي سورة الفرقان، وتكررت الكلمة ثلاث مرَّات في سورة الفرقان، وتكررت في القرآن كله تسع مرات، لأن معنى ﴿تَبَٰرَكَ﴾: ظهرت بركته وتعالت وتعاظمت، والبركة: كثرة الخير، وهل هناك أكثر خيرًا من الله تبارك وتعالى؟ بل كل الخيرات من الله ﷻ، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

كل النعم من الله، نعمة الإيجاد من الله، هو الخالق، نعمة الإمداد ـ الرزق، الهداية، تسخير ما في السماوات وما في الأرض، إعطاء الأموال، إعطاء الأولاد، إعطاء العلم، كل النعم ـ هي من الله، فهل هناك أكثر خيرًا من الله؟ كل الخيرات من الله تبارك وتعالى.

QaradawiBooks.com

مجيء كلمة تبارك بعد نعمة الخلق ونعمة التشريع:

ولذلك تأتي الكلمة في القرآن عقب ذكر الله تعالى لخلقه، أوَّل ما جاءت في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ثم في سورة المؤمنون حيث ذكر خلق الإنسان حين خلقه الله من نطفة، ثمَّ من مضغة، يقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤]، فـ ﴿تَبَارَكَ﴾ تأتي بعد ذكر نعمة الخلق.

أو تأتي ﴿تَبَارَكَ﴾ بعد نعمة التشريع والهداية كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، فالخلق نعمة والهداية نعمة، بل ربَّما كانت نعمة الهداية أعظم من نعمة الخلق، لأن بعض المخلوقين الَّذين لا تنالهم هداية الله ليتهم لم يُخلقوا، ما قيمة الخلق إذا كان مصيرك إلى النَّار وبئس القرار، الهداية أعظم من الخلق، ولذلك كانت نعمة الله بإنزال الكتاب نعمة عظيمة، كما قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال أيضًا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١]، فهذه نعمة الهداية.

صفة اليد:

هنا يقول الله تبارك وتعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، ما معنى: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾؟ هذه قضيَّة تُدخلنا فيما يسمونه في علم العقائد وعلم الكلام: «آيات الصفات»، هل لله يد أو ليس لله يد؟ بعضهم يقول:

QaradawiBooks.com

لله يد ليست كأيدينا، وله عين ليســت كأعيننا، وله جنب ليس كجنوبنا. وهكــذا في كل ما ذكــر في القــرآن من هذه الأشــياء الَّتــي نراها في المخلوقات تُمثــل جزءًا من كل، أو عضوًا من جســم، ماذا نقول فيها؟ بعض السلف قالوا: نسكت عنها، ولا تخوض فيها، نكلها إلى الله ﷻ، ما يتعلق بالله نتركه لله، لأن شأن الله أكبر منا، ولا نستطيع أن نخوض فيه، هذا جاء عن كثير من السلف.

وبعض الســلف قالوا: نُثبت ما أثبته الله لنفسه وننفي ما نفاه الله عن نفســه، فإذا قال: له يد، نقول: له يد ولكن ليســت كأيدينا، أو له قدم، نقول: له قدم ولكن ليست كأقدامنا، أو له أصابع، نقول: له أصابع ولكن ليست كأصابعنا، وهكذا.

وهذا ـ كما يقول بعض المحققين ـ هو لون مــن التأويل، لأن اليد الَّتي نعرفها هي الجارحة، فإذا لم تكن كأيدينا معناه أنَّها شيء آخر، فهذا فيه قدر من التأويل.

وهناك بعض السلف أوَّلوا، ورد عن بعض السلف أنَّهم أوَّلوا، ولكن الخلف اعتمدوا التأويــل، علماء الخلف العلمــاء المتأخرون اعتمدوا التأويــل، وأنا ألفتُ كتابًا فــي هذا حول آيات الصفــات وأحاديث في الصفــات، وهو كتــاب: «فصول في العقيــدة بين الســلف والخلف»، واعتمدت أنَّه لا مانع أن نأخذ بــرأي الخلف إذا كان التأويل غير بعيد، وكان مقبولًا في الخطاب العربي ولــم يكن متكلفًا، وهذا ما ذهب إليه الإمام سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام، وتلميذه ابن دقيق العيد، ولذلك أنا أختار هنا ما ذكره الحافظ ابن كثير في تفســيره، قال الحافظ ابن كثير: «يمجِّد تعالى نفســه الكريمة، ويخبر أنَّه بيده الملك، أي: هو

QaradawiBooks.com

المتصرِّف في جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عمَّا يفعل لقهره وحكمته وعدله، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]»[(١)].

وهذا هو الَّذي نعتمده في فهم الآية، لأنَّه حينما يقال: فلان بيده شأن هذا البلد، أو بيده شأن المؤسسة الفلانية، أو بيده أمر الجامعة، ما معنى بيده؟ النَّاس تفهم هذا أنَّه تحت سلطانه وتصرفه، وأنَّه هو الَّذي يحكم فيه بأمره، هذا هو المعنى، وهذا معنى عربي مقبول جدًّا نفهم القرآن في ضوئه.

الله سبحانه هو الملك والملك:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك: ١]، هو المالك والملك، كل شيء في هذا الكون بيد المالك والملك، له ما في السماوات وما في الأرض، وله من في السماوات ومن في الأرض مِلكا ومُلكا، ليس هناك من ينازعه المِلك ويقول: لي أنا نصف هذا أو ربع هذا أو عشر هذا، لا، لا ينازعه أحد في ملكية هذا الكون علويه وسفليه أرضه وسماواته، كله مِلك الله، وكله مُلك الله.

ما معنى المُلك؟ أي الَّذي يأمر فيه وينهى، هو الَّذي يحكم فيه ويتصرف، فهذا معنى أنَّه المالك والملك، ﴿بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۞ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧]، فهذا هو المالك والملك ﷻ.

---

(١) تفسير ابن كثير (١٧٦/٨).

QaradawiBooks.com

كل ما في هذا الكون ملكه، ملوك الأرض هم عبيد لله تبارك وتعالى، اسمهم ملوك ولكن في الحقيقة هم عبيد عند الله ﷻ لا يملكون من هذا الكون نقيرًا ولا قطميرًا، هؤلاء الملوك سيأتي يوم يزولون فيه عن هذا الملك، إمَّا أن يزول عنهم الملك، وإمَّا أن يزولوا هم عنه.

هارون الرشيد أعظم ملوك زمانه، أعظم ملك في الأرض في الشرق والغرب في ذلك الوقت، وهو الَّذي قال للسحابة: شرقي أو غربي وأمطري حيث شئتِ فسيأتيني خراجك[1]. وكانت ملوك الروم والأباطرة والقياصرة يتقرَّبون بالهدايا إليه، دخل ابن السماك عليه، وكان ابن السماك أحد الوعاظ المؤثرين، فقال له هارون الرشيد: عظني. فقال له: يا أمير المؤمنين لو كنت في برية في صحراء وعطشت وبلغ منك العطش مبلغه ولم تجد ماء، ثمَّ ظهر لك رجل معه كأس من الماء فقلت له: اسقني من الماء الَّذي عندك، قال لك: لا، فتضرعت إليه أن يسقيك، فقال لك: أعطني نصف ملكك وأنا أسقيك، هل تعطه ملكك؟ أم تموت من العطش؟ قال: أعطه نصف ملكي حتَّى لا أموت، فقال له: فلو شربت الماء وبعد فترة انحبس فيك البول حتَّى تألمت من ذلك وبلغ منك الألم مبلغه، فجاءك أحد الأطباء يقول لك: أنا أستطيع أن أداويك واستخرج منك البول وتعطيني نصف ملكك الباقي، هل تعطيه؟ قال: أعطيه نصف ملكي حتَّى لا أموت، قال: يا أمير المؤمنين فانظر قيمة ملك لا يساوي شربة وبولة[2].

هؤلاء هم ملوك الأرض، الملك الحقيقي هو الله تبارك وتعالى، هو مالك الملك وملك الملوك، وسيد هذا الكون، وكلنا عباد أو عبيد في هذا الكون والسيد وحده هو الله تبارك وتعالى.

(١) انظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي (٢٨٥/٣).
(٢) البداية والنهاية (٣٣/١٤).

QaradawiBooks.com

الله سبحانه على كل شيء قدير:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، لا يعجزه شيء، القدرة الإلٰهيَّة قدرة مطلقة، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، أمره بين الكاف والنون «كن»، خلق آدم من تراب، خلق عيسى من غير أب، ﴿ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٧]، ﴿ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]، يعزُّ من يشاء، ويذلُّ من يشاء، يُعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويضر وينفع، ويُعزُّ ويذلُّ، ويحيي ويميت، ويضحك ويبكي، ويفقر ويغني، هو القادر على هذا كله، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

الله تبارك وتعالى يمجِّد ذاته العلية بأن: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

خلق الموت والحياة:

ثم وصف نفسه بوصف آخر فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢]، خلق الموت؟ إذن الموت ليس عدمًا، لأن العدم لا يُخلق، إذا كان الله قد خلق الموت، فالموت إذن ليس ـ كما يتوهم الكثيرون ـ أنَّه عدم محض، أو فناء صِرْف، لا، الموت مرحلة من المراحل، انتقال من دار إلى دار، من حياة إلى حياة، من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية، كما قال عمر بن عبد العزيز: إنَّكم خلقتم للأبد، وإنَّما تنقلون بالموت من دار إلى دار[1].

الإنسان خلق ليخلد، ولكن لكي يخلد لا بدَّ أن يمر بهذه الدار الَّتي يمتحن فيها، يزرع هنا ليحصد هناك، يعمل هنا ليُجزى هناك، يصهر هنا في هذه الدار لتظهر النتيجة في الدار الأخرى، اليوم عمل ولا حساب

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٣٤)، في خطبة طويلة عن عمر بن عبد العزيز، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، نشر مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

وغدًا حساب ولا عمل، فالله تعالى خلق الموت فهو مرحلة من المراحل، خلقتم للأبد، وإنَّما تنقلون بالموت من دار إلى دار، كما قال الشاعر:

وما المـــوت إلَّا رحلة غيـــر أنَّها من المنزل الفاني إلـــى المنزل الباقي[1]

وكما قال أحد الصالحين: لا تظنوا الموت موتًا، إنَّه ليس إلَّا نُقلة من هنا. نقلة من هذه الدار إلى دار أخرى.

تقديم الموت على الحياة:

فالموت إذن مرحلة من مراحل الحياة ولهذا خلقه الله ﷻ، ولماذا قدم الموت على الحياة؟ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢]، لأن الإنسان قبل أن يخلق لم يكن شيئًا مذكورًا، فالموت بمعنى العدم كان هو السابق على الوجود قبل أن تحدث الحيـــاة، كما قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، فأحيانًا يطلق على المدة الســـابقة على الحياة وربَّما كانت ملايين الســـنين يطلق عليها الموت باعتبار ما.

الحكمة من خلق الناس:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملـــك: ٢]، أي: ليختبركم، وهل يجهل الله حالنا حتَّى يختبرنا؟ إنَّما يختبر من لا يعرف شـــأن المختبَر، إذا أراد أن يمتحنه عمل لـــه مقابلة شـــفهية أو امتحانًا تحريريًّا حتَّى يعرف مســـتواه، يعرف عقليته، ربنا يعلم كل شيء فلماذا يمتحنهم؟ هـــو يعاملهم معاملة المختبِر لهم حتَّى يحاســـبهم ويجازيهم على ما ظهر بالفعل من أعمالهم لا على ما علم منها، لن يقول لهم: أنا

(١) البيت لأبي العتاهية، انظر: الإعجاز والإيجاز للثعالبي صـ ١٥١، نشر مكتبة القرآن، القاهرة.

QaradawiBooks.com

عرفت أنكم ستفعلون كذا فعاقبتكم عليه، لا، وإنَّما يمتحنهم ويجازيهم بناء على ما وقع منهم بالفعل، فهو يعاملهم معاملة المختبِر.

أفعال الله تعالى وأحكامه معللة:

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، هذا تعليل، والله تعالى في القرآن يعلل أفعاله، ويعلل أحكامه، تعليل أفعال الله وأحكام الله بمقتضى الحكمة، أن كل ما خلقه الله لحكمة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، وكل ما شرعه الله لحكمة، وكما يقول الإمام ابن القيم: إن هذا التعليل بأساليبه المختلفة موجود في القرآن بنحو ألف موضع أو أكثر من ألف موضع[1]، ولذلك يقول أُولو الألباب حينما فكروا في خلق السماوات والأرض: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]، فالله لا يخلق شيئًا باطلًا، ولا يشرع شيئًا عبثًا.

ومن هنا خلق الله الموت والحياة ليختبرنا، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وقد جعل الله الابتلاء علة لكثير من الأشياء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، ليختبركم فيما آتاكم، فأفعال الله معللة بحكمته، أن كل شيء بمقتضى الحكمة.

شروط قبول العمل:

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، بعض السلف قال: لم يقل: ليبلوكم أيُّكم أكثر عملًا؛ لأن العبرة ليست بالكثرة، العبرة ليست بالكم، العبرة بالكيف، قد تعمل أعمالًا كالجبال ولكن لا يُقبل منها إلَّا ذرات،

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم (٩١٣/٢)، تحقيق عبد الرحمٰن بن حسن بن قائد، نشر دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٣٢هـ.

QaradawiBooks.com

لأنَّه ينقصها شروط القبول، القبول له شروط ذكرها الإمام الزاهد الفُضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ، قال له بعضهم: يا أبا علي قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، ما أحسن العمل؟ قال: أحسن العمل أخلصه وأصوبه، إنَّ الله لا يقبل من العمل إلَّا ما كان خالصًا صوابًا، فإن كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإن كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، وإخلاصه أن يكون لله، وصوابه أن يكون على السُّنَّة[١].

هذا هو العمل الأحسن، الأخلص والأصوب، الأخلص: هو أن تخلص النية في عملك، أن يكون عملك لله وحده، لا للرياء ولا للسمعة ولا لطلب الشهرة، ولا لطلب المحمدة، ولا لطلب المغنم أو الجاه عند النَّاس، لا بدَّ أن يكون عملك خالصًا لله، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[٢].

هذا معنى أخلصه، وأمَّا أصوبه أن يكون على السنة، يعني على المنهج الشرعي، قد تكون نيتك خالصة ولكنك تعمل أعمالًا لم يأذن بها الله، تشرع في الدين ما لم يأذن به الله، تبتدع صورًا للتعبد لم يرض الله عنها، لم يعطنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حقَّ إنشاء العبادات، العبادات توقيفية، العبادات الأصل فيها المنع إلَّا ما شرعه الله، إلَّا ما جاء به النص الصحيح الصريح، أمَّا المعاملات فالأصل فيها الإذن إلَّا ما منعه الله، فرق بين الأمرين، فإذا ابتدعت ابتداعات من عندك فهي مردودة عليك، قال النبي ﷺ:

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/٩٥).

(٢) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٥)، عن أبي هريرة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

«**من أحدث في أمرنا هذا** ـ أي: في ديننا ـ **ما ليس منه فهو رد**»[١]. أي مردود عليه، وقال ﷺ: «**وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[٢]. ولهذا حافظ الإسلام على عباداته وأركانه وشعائره من التزييف والتغيير الَّذي حدث في أديان أخر، لأن الإسلام حرم الابتداع.

الإسلام يريد الابتداع في أمور الدُّنْيا والاتباع في أمور الدين، وهكذا كان المسلمون في العصور الأولى، اتبعوا في أمور الدين، وابتدعوا وابتكروا واخترعوا في أمور الدُّنيا، حينما ساء حال المسلمين قلبوا الآية، جمدوا واتبعوا في أمور الدُّنيا، وابتدعوا وابتكروا في أمور الدين فأصبحوا في ذيل الأمم، العمل الأحسن هو: العمل الَّذي تتوافر فيه النية الصالحة والإخلاص لله، وأن يكون العمل على منهج الشرع.

وهناك أشياء كثيرة بالنسبة للعمل الأحسن، كما قال النبي ﷺ: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ**»[٣]. تريد العمل الأحسن؟ عليك بالعمل الأدوم، وليس فقط في شهر رمضان ـ مثلًا ـ تجتهد وتنشط وتحرص على الفرائض والنوافل في المسجد، ثمَّ بعد رمضان انتهى ما بينك وبين المصحف، انتهى ما بينك وبين إخوانك من ترابط، كأنك كنت تعبد رمضان، ومن كان يعبد رمضان فإن رمضان قد مات أو سيموت، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

---

(١) سبق تخريجه صـ٨٧١.

(٢) رواه أحمد (١٧١٤٤)، وقال مُخَرِّجوه: صحيح رجاله ثقات. وأبو داود في السُّنَّة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم (٢٦٧٦)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في المقدمة (٤٣)، عن العرباض بن سارية.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٦٤)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨٣)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

التمييز بين الحسن والأحسن:

المهم هنا ـ أيُّها الإخوة ـ القرآن يقول: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، انظروا إلى هذا التعبير، كأن الله ﷻ يريد التمييز بين الحسن والأحسن، ليس بين السيئ والحسن، أو المسيء والمحسن، لا، كأن المسيء هذا غير داخل، المنافسة هنا بين الحسن والأحسن، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وقد تكررت هذه الجملة في القرآن الكريم في ثلاث مواضع: في سورة هود: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، وفي سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، والموضع الثالث: هنا في هذه السورة سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

هذه فكرة في غاية الروعة يريد أن يغرسها الإسلام في قلب المسلم وفي عقله، أن يرنو دائمًا إلى الأحسن لا إلى مجرد الحسن، يريد أن يعلق قلبه بالأحسن، بالمرتبة العليا، لا يكن همك أنَّك تنجح بدرجة مقبول، بدرجة «د»، لا، إذا كنت تريد الرقي أكثر فلتكن في مرتبة الجيد، وأحسن منه أن تكون بدرجة جيد جدًّا، أهم شيء تكون في مرتبة الممتاز، الإسلام يريدك أن تتعلق بمرتبة الامتياز، ما دامت مؤهلاتك تسعفك لماذا ترضى بالدون والعيش الهون؟! انظر إلى ما هو أعلى، تطلَّع للأحسن، ولذلك النبي ﷺ يعلمنا هذا حينما يقول: «**فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فإنَّه أعلى الجنَّة، فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة**»[1].

(١) سبق تخريجه صـ٣٨٩.

QaradawiBooks.com

لا تقل: يا رب أدخلني الجنَّة مع أصحاب اليمين، هناك أصحاب اليمين وهناك السابقون، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١]، لماذا ترضى أن تكون في الصف الأخير؟ لماذا لا تتطلع إلى الصف الأول؟ «**لو يعلم النَّاس ما في النداء والصف الأول، ثمَّ لم يجدوا إلَّا أن يستهموا عليه لاستهموا**»[(١)]. لماذا ترضى لنفسك دائمًا أن تكون في آخر صف؟ لماذا لا تحاول أن تأتي مبكرًا لتدرك الصف الأول؟

كان الصحابة دائمًا يسألون النبي ﷺ ما أفضل الأعمال؟ ما أحب الأعمال إلى الله ﷻ؟ هذا يقول له أحب الأعمال كذا، وهذا يقول له أفضل الأعمال كذا، واحد يقول له: «**الإيمان بالله والجهاد في سبيله**»[(٢)]. وآخر يقول له: «**سرور تدخله على مسلم**»[(٣)]. وثالث يقول له: «**الصلاة على وقتها**»، ثمَّ أي؟ قال: «**بر الوالدين**»، ثمَّ أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[(٤)].

الجواب يختلف باختلاف أحوال السائل، ولكن المهم أنَّ السائل متطلع إلى خير الأعمال وأحبها إلى الله ﷻ وأفضلها عنده، وهذا ما يريده الإسلام، أن يعيش المسلم في هذا الأفق، يتطلع إلى الأعلى إلى الفردوس، المسلم يطمح إلى الفردوس، لا يكتفي بأدنى درجة في الجنَّة، الرسول قال لك هذا وعلمك هذا، «**إذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس**»، علمك أن ترنو عينك، أن يتطلع قلبك، أن تتعلق إرادتك

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦١٥)، ومسلم في الصلاة (٤٣٧)، عن أبي هريرة.
(٢) رواه مسلم في الإيمان (٨٤)، عن أبي ذر.
(٣) سبق تخريجه (٤٧٧/١)، وفيه: «ومن كظم غيظه...».
(٤) سبق تخريجه صـ٦٤٣.

QaradawiBooks.com

إلى الأفق الأعلى، إلى الفردوس، هذا شأن الإنسان المسلم، يطلب الفردوس، يتعلق بالفردوس، «**إذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس**»، وهذا مأخوذ من إيحاءات القرآن في مثل هذه الآية: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

الله تعالى يقول: ﴿وَاتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، أحسن ما أنزل إليك من الله حاول أن تتبعه، إذا كان ربنا قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فهناك أحسن منها، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، حاول أن تكون الأحسن، الله تعالى يقول: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

إذا أحببت أن تكون من هؤلاء المهديين من الله، ومن أولي الألباب وأصحاب العقول، ومن أولي النُّهى الَّذين يعيشون بنور عقولهم ولا يعيشون في ظلمات الجمود والتقليد، إذا كنت تحب أن تكون من هؤلاء فاتبع أحسن ما أنزل إليك من ربك، ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]، هذا ما يعلمه القرآن للإنسان المسلم.

نجد في القرآن العزيز كلمة «التي هي أحسن» تكررت في أشياء كثيرة، ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وتكررت في سورة الإسراء، ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]، ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

QaradawiBooks.com

ما معنى الَّتي هي أحسن؟

يعني لو كان هناك طريقتان طريقة حسنة جيدة وطريقة أحسن منها وأجود، أي الطريقتين تستخدم؟ استخدم الَّتي هي أحسن وأجود، هذا ما يعلمنا إيَّاه الإسلام.

استثمر أموال اليتيم بأحسن الطرق، لا تقل يكفيني أن أحافظ على أمواله، لا، حاول أن تنميها وتستثمرها، إذا كان هناك شيء يكسب خمسة بالمائة وشيء يكسب عشرة بالمائة لماذا تحرم اليتيم من العشرة في المائة، ابحث عن الطريق الَّتي هي أحسن.

اجعل الجدال بالَّتي هي أحسن، ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، إذا كانت هناك طريقة للجدال حسنة وطريقة أحسن منها تقرب الطرف الآخر، تقرب خصومك منك، تقلل الفجوة أو الجفوة بينك وبين خصمك، استخدم هذه الطريقة كما علَّمنا القرآن في كثير من الآيات الَّتي فيها حوار وجدال مع المشركين وغيرهم.

﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤]، بالكلمة الطيبة تدفع خصمك، بعض الصالحين سبَّه أحدهم، وقال له: يا مرائي، يا كاذب، يا منافق يا كذا يا كذا. بماذا رد عليه؟ يقول له: يا أخي إن كنتَ صادقًا في أنِّي مرائي ومنافق وكاذب وكذا فغفر الله لي، وإن كنت كاذبًا فغفر الله لك. هذه هي بالَّتي هي أحسن، ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤].

ينبغي أن يكون شعارنا دائمًا هو: «أحسن العمل»، أو «العمل الأحسن»، أو «التي هي أحسن»، أو «طلب الفردوس الأعلى»،

QaradawiBooks.com

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، هذا هو ما ينبغي أن يطمح إليه المؤمن دائمًا، وما ينبغي أن يطمح إليه أهل القرآن الَّذين يقرؤون القرآن ويسمعون القرآن ويتعلمون القرآن، ويتخذون القرآن منهاجهم ودستورهم هذا ما يجب أن يتعلموه.

العزيز الغفور:

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، العزيز: المنيع الجناب الَّذي لا يغلبه أحد، الغفور: الَّذي يغفر لمن أذنب وأساء ويسعه بمغفرته.

دائمًا يذكر القرآن اسمًا من أسماء الجلال مقرونًا باسم من أسماء الجمال، فالعزيز اسم من أسماء الجلال، والغفور اسم من أسماء الجمال، ومثل: «العزيز الحميد»، و«العزِيز الحكيم»، فالعزيز يدل على الملك، والحميد يدل على الحمد، فجمع بين الجلال والجمال.

نسأل اللهَ أن يجعل القرآن دستور حياتنا، وربيع قلوبنا، وأن يجعل شعارنا «العمل الأحسن»، و«أحسن العمل»، والطموح إلى الفردوس الأعلى إنَّه سميع قريب، وتب علينا إنَّك أنت التواب الرحيم، وصلى الله على سيِّدنا محمَّد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا.

* * *

نسخة مجانية
نسخة مجانية للطباعة
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الربانية والإنسانيَّة في القرآن الكريم من خلال جزء تبارك[1]

ها نحن في الليلة التاسعة والعشرين من شهر رمضان المبارك، وبقيت علينا ليلة من ليالي هذا الشهر الكريم، وجزء من أجزاء هذا الشهر الكريم، ونسأل الله تبارك وتعالى، أن يخرجنا من هذا الشهر مغفورًا لنا، وأن يجعل حظنا منه الرحمة والمغفرة والعتق من النار.

هذا الجزء المشهور بـ«جزء تبارك» سوره كلها مكيَّة، بخلاف جزء «قد سمِع» فسوره كلها مدنيَّة، أمَّا جزء «عم» فأكثر سوره مكيَّة، وفيه بعض السور المدنيَّة كسُوْرة «البينة»، و«النصر»، إلخ.

وهذا الجزء المكي «جزء تبارك» يذكر بالأصول الأساسيَّة لهذا الدين، التذكير بالله تبارك وتعالى، فمنذ بداية الجزء تجد قول الله تبارك وتعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١، ٢]، ومن العجيب أن يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، وهذا يدلنا على أنَّ الموت ليس فناء محضًا، ولا عدمًا صرفًا، كما يتصور الماديون؛ لأن العدم لا يُخلق.

(١) من دروس تراويح ١٤٢٢هـ.

QaradawiBooks.com

إن الموت رحلة، وانتقال من حياة إلى حياة، ومن دار إلى دار، كما قال عمر بن عبد العزيز: «إنكم خُلقتم للأبـد، وإنَّما تنقلون من دار إلى دار»[١]. ونحن ننتقل من هذه الدار إلى تلك الدار بـ «الموت».

وقال في ذلك الشاعر المؤمن:

وَمَا الْمَـوْتُ إِلَّا رِحْلَـة غَيْرَ أَنَّها مِنَ الْمَنْـزِلِ الفاني إلى المنـزلِ الباقي[٢]

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

هذه العبارة تكـررت في القرآن، ففي سـورة هود: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [آية: ٧]، وفي سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [آية: ٧]، لنختبرهم أيهم أحسن عملًا.

وهذه العبارة لها إيحـاء مهم جدًّا، فكأن التنافـس ليس بين العمل السيئ والعمل الحسن، فلم يقل ليبلوكم أيكم سيء العمل وأيكم حسنه، وإنَّمـا ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وكأنَّ التنافـس بين الحسـن والأحسن، فالسيئ ليس واردًا، فالله لم يخلق الموت ولا الحياة، والكون من أجل سـيء العمل، وإنَّما خلق الله النَّاس ليحسنوا، وليختبرهم أيهم أحسن عملًا.

والإنسـان المؤمن دائمًا، يرنو إلى الأحسـن، ويتعلق قلبه بالأحسن، يتوق إلى الأحسن، وهذا شأن الإنسـان المؤمن، فهو صاحب همة عالية، لا يهمه الحسن فقط، بل الأحسن، فهو يريد أن يكون صاحب أحسن شيء.

---

(١) سبق تخريجه صـ٨٩٨.

(٢) انظر: الإعجاز والإيجاز للثعالبي صـ١٥١.

QaradawiBooks.com

بعض طلابنا يقول: أريد أن أنجح ولو مقبول، المهم أن أتخطَّى الرسوب، وهذا ليس شأن المؤمن، فهو يريد الامتياز، والنبي ﷺ يقول: «**إذا سألتم الله الجنَّة، فاسألوه الفردوس الأعلى**»[1].

أنت تسأل كريمًا، فلماذا تسأل أقل الدرجات، وهذا ليعلقنا دائمًا، بالمعالي، بالمكارم، لا بسفاسف الأمور.

ولذلك وصف الله أولي الألباب من عباده فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]. هذا هو شأن النَّاس أصحاب العقول، ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥].

ففي هذا الجزء «جزء تبارك» يريد الله أن يركِّز ويغرس هذه المعاني الربانية، الصلة بالله تبارك وتعالى، وأيضًا في جانب آخر، يريد أن يركز على المعاني الإنسانيَّة.

فالإسلام يُعنى بالجانب الرباني، وبالجانب الإنساني، ويربط بينهما، فتجد في هذه السورة «سورة تبارك»، يقول الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾

فتجد الجانب الاقتصادي في الإسلام، ممزوجا بالجانب الربَّاني، ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ هيَّأ لكم الأرض، ذلَّلها، لتمشوا في مناكبها، وتلتمسوا الرزق في خباياها.

(١) سبق تخريجه صـ٣٨٩.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

لو أنَّ الأرض هذه من ذهب، فهل سنأكل الذهب؟ وماذا سنعمل بالذهب؟ بل جعلها من طين وتراب، ومن هذه العناصر الَّتي نحتاج إليها، وذلل لنا هذه الأشياء، ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾.

﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾

هذا الجانب الربَّاني، فهو الَّذي جعل لك الأرض مذللة، وأيضًا هو صاحب هذا الرزق الَّذي على الأرض، فحين تأكل ـ وهذا حقك وحظك كإنسان ـ لا تنسى أن هذا رزق الله إليك.

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾

يذكرك أيضًا بالمصير الأبدي. وهذه هي إحدى الأساسيَّات، والقواعد الكبرى في القرآن المكي، التذكير بالله، والتذكير بالمصير، وبالخلود، وبالدار الآخرة، وبالجزاء، وبالجنة وبالنار.

فهو يربط بين هذه الأمور كلها، بين الجانب الربَّاني والأخروي، والجانب الإنساني، والجانب الاجتماعي، خصوصًا جانب الضعفاء من النَّاس، الَّذين لا سند لهم، ولا ظهر، ولا حماية لهم في المجتمع، وتسحقهم الأقدام، ويفترسهم الضعفاء.

ونجد في هذا الجزء العناية بالمسكين، ففي سورة «القلم» قرأنا قصَّة أصحاب الجنَّة، أصحاب الحديقة والبستان.

كان أبوهم رجلًا صالحًا، يعطي من ثمار حديقته المساكين، فيعطيهم شيئًا، ويرُدُّ على الأرض شيئًا، ويدَّخر لأهله شيئًا.

فجاء أولاده، وشحُّوا بحق هؤلاء المساكين، وأرادوا أن يجزُّوا ثمار جنَّتهم بليل حيث لا يراهم أحد، ﴿أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي مبكرين.

QaradawiBooks.com

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ في بعض التفسيرات أنَّهم: لم يقولوا إن شاء الله. وفي تفسيرات أخرى: لم يستثنوا حقَّ المساكين.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۞ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ انتهت، وحرقت، وذهبوا إليها فلم يجدوا، ثمرًا، ولا زرعًا، ولا خضرة، ولا نضرة، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: تائهون. ضللنا طريق جنتنا العامرة بالخيرات.

ثم قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ لم نضل وإنَّما حرمنا الله وجازانا، لبخلنا بحقِّ الفقراء.

استمرار عناصر الخير في المجتمعات الإنسانيَّة:

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ وهذه من الإشارات المهمة، أنَّ الله يجعل دائمًا في كل مجتمع عنصرًا خيِّرًا، فلا يمكن أن يجمع النَّاس على الشر، بل لا بدَّ أن يكون في أيِّ مجتمعٍ عنصرٌ من عناصر الخير.

وتجد ذلك واضحًا أيضًا في إخوة يوسف عليه السلام، فلمَّا أرادوا قتله، خرج منهم من يذكرهم بعاطفة الأخوَّة، ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠].

دائمًا يذكرنا القرآن بأن هناك عنصر خير موجود في النَّاس، مهما غلب على النَّاس الشر.

ففي هذه القصَّة، أحرق الله الجنَّة، لاعتدائهم على حق المسكين، وبخلهم بحق هذا الإنسان الضعيف المسكين.

ونجد في سورة الحاقة، أصحاب الشمال، من أهل الغنى والمال

QaradawiBooks.com

والثروة والسلطان، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۞ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٢٩] لم ينفعني مال ولا سلطان، ولا جاه.

ثم يصدر عليه الحكم الإلٰهي، ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۞ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۞ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢]، ضعوه في هذه السلسلة، ولكن ما أسباب ذلك؟ وما حيثيات هذا الحكم؟ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٣، ٣٤].

الجانب الربَّاني: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والجانب الإنساني: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، ولهذا كان أبو الدرداء يقول لامرأته: إن لله سلسلة لم تزل تغلي فيها مراجل النار، منذ خلق الله جهنم إلى يوم القيامة، تُلقى في أعناق النَّاس، وقد نجانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم، فحضي على طعام المسكين يا أم الدرداء[1].

ولا يوجد دين ـ أيُّها الإخوة ـ يجعل الحضَّ على طعام المسكين، من أصول الدين، يعني من أجله يدخل الرجل النار، ويوضع في هذه السلسلة، لأنَّه لم يكن يحض على طعام المسكين.

ولهذا فالمطلوب من الإنسان: أن يُطعم المسكين إذا قدر عليه، وأن يحضَّ الآخرين على طعام المسكين، سواء أطعمه هو أم لم يطعمه.

فكل إنسان عليه فريضة إذن، وهي أن يدعو النَّاس إلى رعاية المساكين، وكلمة طعام، هي كناية عن الإقامة بجميع مطالبه، فهل يجوز أن تُطعمه ثمَّ تتركه مشردًا بلا سكن، أو تُطعمه ثمَّ تتركه عاريًا، تُطعمه

(١) رواه أبو عبيد في الأموال صـ ٤٣٨، تحقيق محمد خليل هراس، نشر دار الفكر، بيروت.

QaradawiBooks.com

وتتركه مريضًا وهو بحاجة إلى الدواء، وهذه كناية عن رعاية ضروراته، وحاجاته، فالحض على طعام المسكين من الأصول.

ولهذا ذمَّ القرآن المجتمع الجاهلي، بقوله: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۞ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الفجر: ١٧، ١٨]، اليتيم ضائع فيكم، والمسكين لا يحضُّ بعضكم بعضًا على إطعامه.

ولذلك يقول الأستاذ الإمام مُحَمَّد عبده في تفسيره لجزء عم: هذه الآية وأمثالها، أصل في إنشاء الجمعيات الخيريَّة؛ لإغاثة المساكين وإطعامهم، والبحث عن حاجاتهم[1].

والإمام مُحَمَّد عبده أنشأ الجمعية الخيريَّة الإسلاميَّة، وكلامه صحيح؛ لأنَّه ما دام الإطعام والحضُّ عليه فرضًا، فوجب علينا تأسيس مؤسسات تخدم هذه الفئات من النَّاس.

والله يقول: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۞ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الماعون: ١ ـ ٣]. فالكافر الَّذي يكذب بالجزاء وبالآخرة، وبالدين كله، من صفاته: أنَّه يقهر اليتيم، ويدفعه بعنف، ولا يحترم إنسانيَّته، والَّذي لا يحض على طعام المسكين، فهو إنسان أناني، لا يهمه إلَّا نفسه، فما دام يجمع على مائدته من الطعام ما لذَّ وطاب، فلا يهمه الآخرون، وهذا صاحب القلب القاسي، وهذا ليس من أهل الإيمان، ولا من أهل الدين، ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۞ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الماعون: ١ ـ ٣].

(١) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده صـ ١٦٢، تفسير سورة الماعون، نشر الجمعية الخيرية الإسلامية، ط ٣، ١٣٤١هـ.

QaradawiBooks.com

هذا الجزء «جزء تبارك» الجزء التاسع والعشرون، يُنشئ الإنسان الربَّاني الَّذي يعيش في الدُّنيا، بقلب أهل الآخرة، يمشي على الأرض وعينه ترنو إلى السماء، الإنسان الَّذي لا يحيا لنفسه، وإنَّما يعيش دائمًا مهتمًّا بغيره، و«**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**»(١).

هذا القرآن يؤسس إنشاء هذا الإنسان، ومن هذا الإنسان الصالح تتكون المجتمعات الصالحة، فأساس المجتمع الصالح، هو الفرد الصالح، والفرد الصالح لا يمكن أن ينشأ ويؤسس إلَّا على الإيمان والتَّقوى، وبالإيمان وبالتَّقوى نستطيع أن ننشئ الإنسان الَّذي يعبد الله تعالى في أرضه، والَّذي يعمر هذه الأرض، ويقيم فيها الحق، والعدل، فمن أجل هذا خلق الله هذا الكون، وخلق الله هذا الإنسان.

والإمام الراغب الأصفهاني يقول: مقاصد الله تعالى من الخلق ثلاثة:

المقصد الأوَّل: العبادة، وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

والمقصد الثاني: الخلافة: أي: الخلافة عن الله في الأرض، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

والمقصد الثالث: العمارة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٧٤٧٣)، والصغير (٩٠٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٤): رواه الطبراني في الأوسط والصغير، وفيه عبد الله بن أبي جعفر الرازي، ضعفه محمد بن حميد، ووثقه أبو حاتم وأبو زرعة وابن حبان. عن حذيفة.

QaradawiBooks.com

﴿ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١][1]. وعلماء العربيَّة يقولون: الهمزة والسين والتاء للطلب، فاستعمركم، أي: طلب منكم عمارة الأرض.

فعمارة الأرض إذن من الأهداف الَّتي خُلق من أجلها الإنسان، ولهذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، أي: إنَّ الله هيَّأها لتكون صالحة فلا تفسدوها، بل عمّروها، وجمّلوها، وأحيوها، ولذلك يعد الإسلام تعمير الأرض وزراعتها «إحياء الموات» هدفًا من الأهداف الَّتي خُلق من أجلها الإنسان، فالأرض غير المزروعة، وغير المبنية، تعد مواتًا، وأنت إذا غرست فيها غرسًا، أو زرعت فيها زرعًا، أو أقمت فيها بناء فقد أحييتها، ولذلك تسمَّى «إحياء الموات»، وهذا مأخوذ من حديث النبي ﷺ: «**من أحيا أرضًا ميتة فهي له**»[2].

هكذا ـ أيُّها الإخوة ـ يريدنا هذا الدين العظيم، ويريدنا هذا القرآن الكريم، أن نكون أناسًا صالحين، لنعمر الأرض، ولنقوم بالخلافة فيها، ولنعبد الله تعالى فيها، ولنعبد الله تعالى فيها، بالعلم النافع، والعمل الصالح، والخلق الكريم.

نسأل اللهَ ﷻ أنْ ينفعنا بما علَّمنا، وأنْ يفقِّهنا في ديننا، وأنْ يجعل يومنا خيرًا من أمسنا، وغدنا خيرًا من يومنا، وأنْ يحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأن يختم لنا بخير، إنَّه نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله وسلم على سيِّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين..

---

(١) انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني صـ ٨٢، ٨٣، تحقيق د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، نشر دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

(٢) رواه أحمد (١٤٨٣٩)، وقال مُخَرِّجوه: حديث صحيح. والترمذي في الأحكام (١٣٧٩)، وقال: حسن صحيح. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٧٥)، عن جابر.

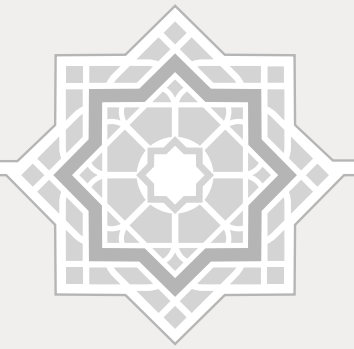
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِيِّ



غير مرخصة للطباعة

الفهارس العامة



- فهرس الأحاديث النبوية الشـــريفة.
- فهرس الموضوعات.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان	٤٠٦
أَبَرَّهُمَا وَأَوْفَاهُمَا	٥٢٥
أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك	٥٣
أحبُّ الأسماء إلى الله ﷻ عبد الله وعبد الرحمٰن، وأصدقها حارثٌ وهمَّام	٥٩٩
أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ	٩٠٢
الإحْسَانُ أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك	٨٠٦
احفظْ عورتك إلَّا من زوجتك	٤٣٦
إذا أتاكم من ترضون خُلُقه ودينه فزوِّجوه، إلَّا تفعلوا تكن فتنة في الأرض	٤٠٣
إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله	٣٥٥
إذا سألتم الله الجنَّة فاسألوه الفردوس، فإنَّه أعلى الجنَّة، وفوقه عرش الرحمن	٣٨٩، ٥٤٥، ٦١٨، ٨٥٠، ٩٠٣، ٩٠٤، ٩٠٥، ٩١١
إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلَّا من ثلاثة: إلَّا من صدقة جارية	٤٦٠
إذن يُعقر جوادك، وتستشهد في سبيل الله	٣٧
أرأيتم لو أنَّ نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كلِّ يوم خمس مرَّات	٦٣٥

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
أربع من كنّ فيه كان منافقًا خالصًا	٤٠٦
استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان؛ فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسود	١٣٣، ١٥١، ١٦٤
استهلت السماء في تلك الليلة فأمطرت	٥٨٣
أسلِم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيِّين	٨٤
أسلمْ تَسلمْ، يؤتك الله أجرك مرَّتين، فإنْ لم تفعلْ فإنَّما عليك إثم المجوس	٧٧٠
أشد النَّاس بلاء هم الأنبياء، ثمَّ الأمثل فالأمثل	٦١٨
أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعت	٣٤
أفضل نساء الجنَّة أربع: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد	٤٢٠
اقتلوهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة	٧٤٧
أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء	٤٥١، ٦٧٩
ألا أنبِّئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثًا، قالوا: بلى يا رسولَ الله، قال: الإشراك بالله	٤٥٦
ألا إنَّ لله في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها	٧٩٢
ألا تزورنا أكثر ممَّا تزورنا؟	٤١١
التمسوها في العشر الأواخر من رمضان	٧٩١
الله أكثر	٦٧٧، ٦٧٨
اللهمَّ اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك	٥٤١، ٥٨٤
اللهمَّ أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك	٥٤
اللهمَّ أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك	٥٤
اللهمَّ أنت ربي لا إلٰه إلَّا أنت، خلقتني وأنا عبدك	٨٤٢
اللهمَّ أنجزْ لي ما وعدتني، اللهمَّ آت ما وعدتني	٦٧٢
اللهمَّ إنِّي أشكو إليك ضعف قوَّتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على النَّاس	١٥٩

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
اللهمَّ ربَّنا لك الحمد، ملءَ السماوات وملءَ الأرض، وملءَ ما بينهما	٦٩١، ٨٤٥
اللهمَّ نصرك الَّذي وعدت، اللهمَّ أنْجِزْ لي نصرَك الَّذي وعدت	٥٩٠
ألم أخبر أنَّك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة؟ قال: بلى، يا نبي الله	٥٦٩
أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى	٧٠
أمُّك قال: ثمَّ من؟ قال: ثُمَّ أمُّك قال: ثمَّ من؟ قال: ثُمَّ أمُّك	٧٢٤
إنَّ الله اصطفى من الكلام أربعًا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلَّا الله	٢٤٤
إنَّ الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتَّى لا يفخر أحدٌ على أحد	١١٤
إنَّ الله ﷻ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار	٦٣٨
إنَّ الله ﷻ يحبُّ أن يرى أثر نعمته على عبده	٢١٧
إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة	٨٠٧
إنَّ اللهَ كتب على ابن آدم حظَّه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة	٣٩٥، ٨٠٩
إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم	٤٧٨، ٦١٣
إنَّ الله ليُمْلِي للظالمِ حتَّى إذا أخذه لم يُفْلِتْه	٩٢، ١١١، ١١٦، ٦٦٠، ٦٧٥
إنَّ الله يحبُّ إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه	٨٠٧
إن تغفر اللهمَّ تغفر جمًّا، وأي عبد لك لا ألمَّا	٨٠٩
أنَّ رجلًا زار أخًا له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته ملكًا	٧١٦
إنَّ رحمتي سبقت غضبي	٦٣٦، ٧٩٦
إن سلمان الفارسي أشار به ـ الخندق ـ على رسول الله ﷺ	٥٨٥، ٥٩٤
إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلَّا ما يرضى ربُّنا	٦٨
إنَّ في الجنَّة مائة درجة، أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله	٦٤٣

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إن للرحم حجنة متماسكة بالعرش تكلم بلسان ذَلِق: اللهمَّ صل من وصلني	٧٥٨
إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام	٦٣٤
أنَّ النبي ﷺ قرأ بهم في المغرب بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	٧٣٥
إنَّ هذا الشهر قد حضركم وفيه ليلة خير من ألف شهر	٦٠٢
أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي	٦٣٧
الأنبياء إخوة لعَلَّاتٍ، أمَّهاتُهم شتَّى، ودِينُهم واحد	٩١
انصُرْ أخاكَ ظالمًا أو مظلومًا قالوا: يا رسولَ الله؛ ننصره مظلومًا	١٢٠
إنَّما أنت فينا رجلٌ واحد، فخذِّلْ عنَّا إن استطعت، فإنَّ الحربَ خَدْعة	٥٨٧، ٥٩٧
إنَّما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين	٨٢٧
إنَّما النساءُ شقائقُ الرجال	٥٣٢
إنَّه طرأ عَلَيَّ حزبي من القرآن، فكرهت أن أقطعه حتَّى أفرغ منه	٨١٥
إنَّه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة	٤٧٩، ٧٠٦
إنِّي خرجت لأخبركم بليلة القدر، وإنَّه تلاحى فلان وفلان، فرُفعت	٨٥٤
أوثق عرى الإيمان الحبُّ في الله والبغض في الله	٧١٤
إيَّاكم والظلمَ؛ فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة	١١٧
إيَّاكم والغلو في الدين، فإنَّما هلك من كان قبلكم بالغلوِّ في الدِّين	٨٢٧
الإيمان بالله والجهاد في سبيله. وآخر يقول له: سرور تدخله على مسلم	٩٠٤
إيمانٌ بالله ورسوله، ثمَّ يقول: فأيُّ الرقاب أفضل؟ فيقول: أعلاها ثمنًا	٦٤٣
الإيمانُ بضعٌ وسبعون شعبة، أعلاها: لا إلٰه إلَّا الله، وأدناها: إماطة الأذى	٨٤٧
أيُّها النَّاس، إنَّ الله طيب لا يقبل إلَّا طيبًا، وإنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين	٦٧٠
أيُّها النَّاس، إنَّ ربَّكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب	٤٦٨، ٦١٢

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ب	
بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلَّا لأنِّي رأيتُ العرب رمتكم عن قوسٍ	٥٨٦
ت	
تابِعُوا بين الحجِّ والعمرة؛ فإنَّهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير	٦٣٥
تبارك الَّذي نجَّاني منك، لقد أعطاني الله شيئًا ما أعطاه أحدًا من الأوَّلين والآخرين	٨٤٥
تُحْشَرون حفاةً عُراةً غُرْلًا، قالت عائشة: يا رسولَ الله، الرجال والنساء	٥٧٦
تصدقن، فإن أكثركن حطب جهنم	٤٣٠
تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي	٤٤٧
تقولين: اللهمَّ إنَّك عفو تحب العفو، فاعف عني	٧٩٣
ث	
ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان..	٧١٥
ثلاث مهلكات: شُحٌّ مطاع، وهوًى مُتَّبَع، وإعجابُ المرء بنفسه	١٣٠
ح	
الحسنة بعشر أمثالها أو أَزِيْدُ، والسيِّئة بواحدة أو أَغْفِرُ	٦٣٦
حكِّموا من شئتم	٧٤٨
الحلال بيِّن والحرام بيِّن	٤٧٨، ٦٠٤، ٨٤٩
الحمد لله الَّذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور	٢٤٠
الحمد لله الَّذي أطعمنا وسقانا، وجعلنا مسلمين	٢٤٠
الحمد لله الَّذي بنعمته تتم الصالحات	٣٩، ٢٠٣، ٢٤١
الحمد لله الَّذي جعله عذبًا فراتًا برحمته، ولم يجعله ملحًا أجاجًا بذنوبنا	٢٤٠، ٤٩٧

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
خ	
خمس صلوات في اليوم والليلة	٦١٥
خير النَّاس قرني، ثمَّ الَّذين يلونهم...	٧٧٧
د	
دبَّ إليكم داءُ الأممِ قبلكم، الحسدُ والبغضاء، والبغضاءُ هي الحالقة	١٣١
الدعاء هو العبادة	٦٧٦
دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد يستشيرهما في فراق أهله	٤١٠
دعوة أخي ذي النون وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ﴾	٣٤٦، ٣٥٨
دعوةُ المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء	١١٧
ر	
رأيت شابًّا وشابة فخفت الشيطان عليهما	٤٢٩
ربَّ أشعثَ مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبَرّه	٧٠٦
ربِّ اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني	٨٤٣
رب اغفر لي، وتب علي، إنَّك أنت التواب الغفور	٨٤٣
رجلان تحابَّا في الله ﷻ، اجتمعا عليه وتفرَّقَا عليه	٧١٤
رَغِمَ أَنْفِه، ثمَّ رَغِمَ أنفه، ثمَّ رغم أنفه قيل: من يا رسولَ الله؟	٢٣١، ٧٢٦
الرؤيا ثلاثة: فرؤيا صالحةٌ بشرى من الله، ورؤيا تحزينٌ من الشيطان	١٥٠
س	
سبحانك اللهمَّ ربَّنا وبحمدك اللهمَّ اغفر لي	٨٤٣
سبعون ألفًا يدخلون الجنَّة بغير حساب	٣٣٦
سمَّاه الخضر	٢٥٨

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
سيِّد الشهداء: حمزة بن عبد المطَّلب، ورجلٌ قام إلى إمامٍ جائر	١٢٠
سيروا وأبشروا، فإنَّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين	٧٧٦
ش	
شيَّبتْني هود	١١٣
ص	
صلْ أرحامك، فإنَّهم أصلك الَّذي إليه تصير، وجناحك الَّذي به تطير	٧٦٢
الصلاة على وقتها	٦٤٣
الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان	٧٩٦
صنفان من أهل النَّار لم أرهما: قومٌ معهم سياطٌ كأذناب البقر يضربون بها النَّاس	٤٣١
ط	
الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان	٢٤٣
ع	
عبدنا الخضر	٢٥٢
عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله	٤٥٦
عِشْ ما شئتَ فإنَّك ميِّت، وأحببْ من شئتَ فإنَّك مفارقه	٥١٦
ف	
فقيل له: أيكون المؤمن بخيلًا؟ فقال: نعم	٤٠٦
فمن اتقى الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعِرضه	٦١٧
ق	
قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه	٩٠١
قال الله تعالى: وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ ممَّا افترضت عليه	٦١٦

نسخة مجانية
نسخة مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
قال الله ﷻ: وجبت محبَّتي للمتحابِّين فيّ، والمتجالسين فيّ	٧١٥
قال: يا محمَّد، أقرئ أمَّتك منِّي السلام وأخبرهم أنَّ الجنَّة طيِّبة التربة	٢٤٥
قتل رسول الله ﷺ يوم بدر ثلاثة صبرًا	٧٤٧
القرآن والصيام يشفعان للعبد يوم القيامة	٢٥٦
قل: آمنتُ بالله ثمَّ استقم، أو: قل ربي الله ثمَّ استقم	٦٥٥
ك	
كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان	٨١٣
كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانًا	٦٣٨
كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله	٥٤١، ٥٨٣، ٦٠٣
كان النبي ﷺ حينما يدخل الصلاة يسمع لصدره أزيز	٣٧٩
الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق	١٢٨
كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوَّابون	٦٤، ٨٠٩، ٨٤١
كلُّ عمل ابنِ آدم له إلَّا الصوم، فإنَّه لي وأنا أجزي به	٦٣٧
كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم	٥٣١، ٤١٠
كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان	٢٤٤
كن أبا خيثمة	٤٦
كُن في الدُّنْيا كأنك غريب أو عابر سبيل	٦٦٢
ل	
لا إلٰه إلَّا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج	٢٨١
لا تباشر المرأة المرأة، فتنعتها لزوجها كأنَّه ينظر إليها	٤٣٤
لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموه فاصبروا	٧٤٤

غير مرجعة للطباعة
QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا	٧٧٨، ٧٨١
لا تُقتل نفس إلَّا كان على ابن آدم الأوَّل كفل منها	٧٦١، ١٣٢
لا تقوم الساعة حتَّى تقاتلوا اليهود	٤٩٠
لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم	٦١٤
لا تلعنوه، فوالله ما علمت: إنَّه يحب الله ورسوله	٦١٤
لا. قال: فيلتزمه ويقبله؟ قال: لا. قال: فيصافحه؟ قال: نعم، إن شاء	١٦٢
لا، والله يا رب ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدَّة قط	٦١٩
لا، ولا بزفرةٍ واحدة	٢٣٣
لا، ولكن لا يقربك	٥٢
لا يبلغ الرجل درجة المتَّقين، حتَّى يدع ما لا بأس به حذرًا ممَّا به بأس	٦١٧
لا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيُعرض هذا	٧٦٣
للصائم عند فطره دعوة لا ترد	٦٧٩
لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج	٢٩٤
لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل النَّاس إليه	٥٦٠
لو عرفتم الله حقَّ معرفته، لزالت بدعائكم الجبال	٦٧٢
لو كان لابنِ آدم واديان من مالٍ لابتغى ثالثًا	١١٠
لو كان المُطعم بن عديٍّ حيًّا، ثمَّ كلَّمَني في هؤلاء النَّتنَى، لتركتهم له	٧٥٢
لو كنت سترته بثوبك، كان خيرًا لك	٤١٧
لو كنت متخذًا خليلًا غير ربي، لاتخذت أبا بكر خليلًا	٧١١
لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم	٦٤٢
لو يعلم النَّاس ما في النداء والصف الأول، ثمَّ لم يجدوا إلَّا أن يستهموا عليه	٩٠٤

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
لولا أنَّ الكلاب أُمَّة من الأمم لأمرتُ بقتلها	٧٤٣
ليأتينَّ على النَّاس زمانٌ، لا يبالي المرء بما أخذ المال، أمن حلال أم من حرام	٦٧٤
ليشربنَّ ناس من أُمَّتي الخمر يسمُّونها بغير اسمها، يُعْزَف على رؤوسهم	٤٥٧
م	
ما تقولون في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يُشَفَّع	٧٠٦
ما خلفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلتُ: بلى	٤٩
ما فعل كعب؟	٤٩
ما لي وللدنيا؟! إنَّما مثلي ومثل الدُّنيا، كمثل راكب	٦٦٤
ما من أمير عشرةٍ إلَّا يؤتى به مغلولًا يوم القيامة، حتَّى يفُكَّه العدل،	١١٧
ما من الأنبياء نبي إلَّا أعطي ما مثله آمن عليه البشر	٥٥٧، ٨٣٣
ما من مسلمٍ يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم	٦٧٦
ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي، إلَّا كان له من أمته حواريُّون وأصحاب	١١٩
ما يصيب المسلم من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حزنٍ ولا أذًى ولا غمٍّ	٣٧٥، ٦٣٦
ما يضحككم من دقَّة ساقيه، والَّذي نفسي بيده إنَّهما أثقل في الميزان من أحد	٤٧٩، ٧٠٦
مَثَلُ الجليسِ الصالح والسوء، كحامل المِسْكِ ونافخِ الكِير	٧١٣
مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسدِ	١١
مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر	٨٧٠
مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر	٨٨٦
من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه	٧٥٩
من أحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان	٧١٥
من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد	٨٧١، ٩٠٢

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
من أحيا أرضًا ميتة فهي له	٩١٧
من ادعى إلى غير أبيه لم يرح ريح الجنَّة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام	٤٣٢
من أصبح آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه فكأنَّما حيزت له الدُّنْيا	٣١٥
من تعظَّم في نفسه، أو اختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان	٤٥٠
من جهز جيش العسرة فله الجنة	٤٥
من حجَّ لله فلم يرفُث ولم يفسُق رجع كيوم ولدته أمُّه	٦٣٥
من رأى منكم منكرًا فليُغَيِّرْه...	١١٩
من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين	٢٤٣
من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنَّة، فلينظر إلى هذا	٦١٥
من سنَّ سُنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عَمِل بها	٧٦١
من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه	٦٣٥
من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنْبه	٦٠٣، ٨٥٣
من عاد مريضًا أو زار أخًا له في الله، ناداه مناد من السماء أن طبتَ وطاب ممشاك	٧١٥
من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله	٣٧
من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة	٣٥٦
من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه	٦٠٣، ٦٣٥، ٧٩٢، ٨٥٣
من كان متحرِّيًا ليلةَ القدر فليتحرَّها في العشر الأواخر من رمضان	٦٠٢
من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم	٩١٦
المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا	١١
المؤمن يرى ذنبه كالجبل يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب	٤١٨

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ن	
ناركم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم	٨٨٤
الناس لآدم، وآدمُ من تراب	٤٦٨، ٦١٢
نعم والَّذي نفس مُحَمَّد بيده إنَّه لفتح	٦٠٠، ٧٦٩
هـ	
هلك المتنطعون	٨٢٧
هم قوم تحابُّوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموالٍ يتعاطونها	٧١٥
هي من قَدَرِ الله	٦٧٧
و	
وأتبع السيِّئة الحسنة تمحُها	٦٣٥، ٦٤١
واتَّق دعوةَ المظلوم، فليس بينها وبين اللهِ حجابٌ	١١٧
والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار	٦٣٥
وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة	٩٠٢
وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماوات والأرض	٣٥٦
وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصَّة، وبعثت إلى النَّاس كافة	٧٠٤
ولا تجعلْ مصيبتنا في دِيننا، ولا تجعل الدُّنْيا أكبر همّنا، ولا مبلغ علمنا	١٤٥، ٣٧٥، ٨٤١
ولا تنتقب المرأة المحرمة، ولا تلبس القفازين	٤٢٨
وما رأيت أحدًا أسرع في مشيته من رسول الله ﷺ	٤٤٩
ومن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه	٧٩٢

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ي	
يا أبا بكر، إنَّ لكلِّ قومٍ عيدًا، وهذا عيدنا	٥٧٠
يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إنَّ الله معنا	٥٨٨
يا أسماء إذا بلغت المرأة المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلَّا هذا وهذا	٤٢٩
يا أيُّها النَّاس توبوا إلى الله، فإنِّي أتوب في اليوم إليه مائة مرَّة	٣٨، ٤٣
يا سعد، أطبْ مطعمك، تكنْ مستجاب الدعوة	٦٧١
يا عائشة، الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضُهم إلى بعض	٥٧٦
يا عبادي، إنِّي حرمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلته بينَكم محرَّمًا فلا تَظَالَمُوا	١٠١، ١١٥، ٦٧٨
يا معشرَ الشباب، من استطاع منكم الباءةَ فليتزوَّج؛ فإنَّه أغضُّ للبصر	٣٨٨
يا مُقَلِّبَ القلوب، ثبِّت قلبي على دينك	١١٣
يحسب ما خانوك وعصوك ويكذبونك وعقابك إيَّاهم	٣٦٧، ٥٧٨
يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل؛ يقول: دعوتُ فلم يُسْتَجَبْ لي	٦٧٥
يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا	٨٢٧
يقول الله تعالى: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها اسمًا من اسمي	٧٥٩
يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن	٨٥٨
يمد يديه إلى السماء: يا ربِّ، يا ربِّ. ومطعمه حرام، ومشربه حرام	٦٧١
يؤتى بأشدّ النَّاس بؤسًا في الدُّنيا، من أهل الجنَّة، فيصبغ صبغة في الجنَّة	٦١٩

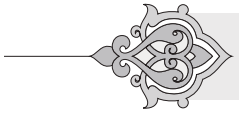
* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

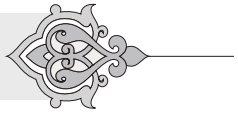
غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com



فهرس الموضوعات



• **دروس في تفسير سورة الأنفال** ٥

❖ **من دروس سورة الأنفال** ٧

• **دروس في تفسير سورة التوبة** ١٣

❖ **الدرس الأوَّل: خطر المنافقين والجبهات الَّتي تحارب الإسلام** ١٥

جبهات تُحارب الإسلام ١٥

أخطر الجبهات محاربةً للإسلام ١٧

المبشّرات بانتشار الإسلام واتّساع دولته ٢١

❖ **الدرس الثاني: المؤمنون والمشركون والمنافقون في سورة التوبة** ٢٣

حول «آية السيف» ٢٦

❖ **الدرس الثالث: صفات المؤمنين الَّذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم** ٣٣

❖ **الدرس الرابع: غزوة تبوك وتوبة الله على مَنْ سار فيها أو تخلَّف عنها من المؤمنين** ... ٤٢

توبة الله على الثلاثة المؤمنين الَّذين أخِّر قبول عذرهم ٤٦

• **دروس في تفسير: سورة يونس** ٥٧

❖ **الدروس الأوَّل: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾** [يونس: ٦٢ ـ ٦٤] ٥٩

أولياء الله ٥٩

من هم أولياء الله؟ ٦١

QaradawiBooks.com

هل معرفة الغيب دليل على التَّقوى والولاية؟ ٦٣
التقي ليس معصومًا من الذنوب ٦٣
علام يخاف الناس؟ ٦٥
الإيمان سد منافذ الخوف ٦٧
الغربيُّون وعصر الاكتئاب ٦٨
بشائر أهل الإيمان ٦٩
﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَتِ ٱللَّهِ﴾ ٧٠

• دروس في تفسير سورة هود ٧٣

❖ الدرس الأوَّل: التوحيد والإصلاح في دعوات الأنبياء من خلال سورة هود ٧٥
قصص الأنبياء من دلائل نبوَّة مُحَمَّد ﷺ ٧٥
كلُّ الأنبياء جاؤوا بالتوحيد ٧٧
كلُّ الأنبياء جاؤوا بالإصلاح ٨١
وقد عاقب الله قوم لوط بعقوبتين ٨٧
أهم ما تميزت به سورة هود عن سورة الأعراف ٨٨

❖ الدرس الثاني: قصة عاد قوم هود عليه السلام ٩٤

❖ الدرس الثالث: قصة شُعَيْب في سورة هود ١٠٣
رسالة الأنبياء رسالة إصلاحيَّة ١٠٣

❖ الدرس الرابع: الأمر بالاستقامة والنهي عن الطغيان والركون إلى الظالمين ١١٢

• دروس في تفسير: سورة يوسف ١٢٣

❖ الدرس الأوَّل: ممَّا تميزت به قصَّة يوسف ١٢٥
شخصيَّات قصَّة يوسف ١٢٦
الأحرف المقطعة في أوائل السور القرآنيَّة ١٢٧
أحسن القصص ١٢٨
الأدلَّة على نبوَّة يوسف عليه السلام ١٢٩

QaradawiBooks.com

❖ **الدرس الثاني: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾** [يوسف: ٤، ٥] **١٣٠**

خطر المعاصي القلبيَّة ١٣٠

ضرورة حذر الآباء في المساواة بين الأبناء في العناية والاهتمام ١٣٤

نهج القرآن في ذكر الخير بجانب الشر ١٣٥

أثر الجريمة ١٣٦

إكرام يوسف لإخوته ١٣٧

❖ **الدرس الثالث: يوسف في بيت العزيز** **١٣٩**

نجاح يوسف في الامتحان ١٤٠

ترجيح معنى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ ١٤١

معنى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ١٤٢

المُقَطِّعات أيدِيَهن ١٤٤

اللجوء إلى الله ١٤٥

محنة السجن ١٤٥

الرؤى والأحلام عند السجناء ١٤٧

❖ **الدرس الرابع: شخصيَّة يعقوب عليه السلام في قصَّة يوسف** **١٤٨**

يعقوب الصابر ١٤٨

أنواع الرؤى ١٤٩

حسد الإخوة لأخيهم ١٥٠

استشراف المستقبل ١٥١

علم تأويل الأحاديث يقوم على الفطنة والفراسة ١٥٢

الحفظ والعلم عنصران أساسيان للولاية ١٥٢

حبُّ يعقوب ليوسف ١٥٣

إبراز عناصر الخير ١٥٤

دموع التماسيح ١٥٥

غير مرخص للطباعة
نسخة محلية
QaradawiBooks.com

دلائل الجريمة ١٥٥
الأنبياء لا يعلمون من الغيب إلَّا ما أعلمهم الله به ١٥٦
خوف يعقوب على أبنائه ١٥٧
الصبر الجميل ١٥٨
الشكوى إلى الله ﷻ ١٥٩
رائحة يوسف ١٦١

❖ **الدرس الخامس: لمحات عن شخصيَّة سيِّدنا يعقوب** عليه السلام ١٦٣
يعقوب الأب والإنسان ١٦٣
شخصيَّة يعقوب ١٦٤
أثر العاطفة الزائدة في حب يوسف ١٦٥
المراد بوصف يعقوب بالضلال المبين ١٦٦
الحسد من أخطر الآفات القلبيَّة ١٦٦
أهميَّة التسوية بين الأولاد ١٦٧
ظهور شخصيَّة يعقوب من جديد ١٦٩
اصطحاب الأمل ١٧١

❖ **الدرس السادس: تمكين الله ليوسف** عليه السلام ١٧٤
خطة يوسف لإنقاذ مصر من المجاعة ١٧٦
مؤهلات المنصب ١٧٦
العمل بالمصالح الشرعيَّة ١٧٨
واجه يوسف عليه السلام الأزمة بهذه الأمور ١٧٩
الابتلاء طريق للتمكين ١٨٠
اليأس من لوازم الكفر ١٨٣
ارتباط التَّقوى بالصبر ١٨٤
إحسان يوسف عليه السلام ١٨٦
موقف العفو والصفح ١٨٧

• **دروس في تفسير: سورة إبراهيم** ١٨٩

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ **نِعَم الله تعالى في سورة إبراهيم ١٩١**
تسخير الكون للإنسان ١٩١
الأصل في الأشياء الإباحة ١٩٣
نعمة نزول الماء من السماء ١٩٣
نعمة تسخير السفن ١٩٤
تسخير الثروة المائية ١٩٦
تسخير الشمس والقمر ١٩٦
رأيي في هذه الآية ١٩٦
نعمة الزمن ١٩٧
نعم الله تعالى فوق العد والإحصاء ١٩٧
نعم الله تعالى قائمة لا تنقطع ١٩٨
جحود الإنسان لنعم الله ١٩٨
أثر الشكر والكفر في بقاء النعم وزوالها ١٩٩
ذكر النعم المفقودة ٢٠٠
مشكلة الإنسان في الطمع وليس في قلَّة النعم ٢٠١
كيف يشكر العبد ربه ٢٠٢

• **دروس في تفسير سورة النحل ٢٠٧**

❖ **الدرس الأول: من نعم الله على الإنسان في سورة النحل ٢٠٩**
سورة النعم ٢٠٩
توالي النعم يفقد الإحساس بقيمتها ٢١٠
النعم الماديَّة والمعنويَّة الجماليَّة ٢١٠
اهتمام سورة النحل بالعنصر الجمالي ٢١١
نعمة النقل ووسائل المواصلات ٢١١
نعم الله لا تعد ولا تحصى ٢١٢
نعمة الألبان ٢١٣
العسل فيه شفاء للناس ٢١٣

QaradawiBooks.com

نعمة الموت ٢١٤
نعم الحواس وأدوات المعرفة ٢١٥
شكر الله على نعمه ٢١٦
عاقبة كفران نعم الله ٢١٦

❖ **الدرس الثاني: من نعم الله على الإنسان في سورة النحل ٢١٨**
سورة النعم ٢١٨
هيَّأ الله الإنسان للتعلم ٢١٩
العقل الفطري ٢٢٠
عمل العقل ٢٢٠
الإنسان أُعطي أدوات يطل بها على الكون ٢٢١
بكفرهم ختم الله على قلوبهم ٢٢٢
متى يكون الإنسان أضل من الحيوان؟ ٢٢٤

• **تفسير سورة الإسراء ٢٢٥**

❖ **وصايا الحكمة الَّتي يُبنى عليها المجتمع المسلم ٢٢٧**
وصايا سورة الإسراء تفصيل للوصايا العشر في الأنعام ٢٢٧
وصايا الإسراء وصايا الحكمة ٢٢٨
وصايا الحكمة وتكوين العقيدة السليمة للشخصيَّة ٢٢٨
وصايا الحكمة وتكوين العقليَّة السليمة ٢٢٩
وصايا الحكمة وتكوين الأخلاق الفاضلة ٢٣١
وصايا الحكمة وتكوين الشخصيَّة المحسنة ٢٣٤
وصايا الحكمة وتكوين الشخصيَّة المتواضعة ٢٣٤

• **دروس في تفسير سورة الكهف ٢٣٧**

❖ **الدرس الأوَّل: حمد الله تعالى والثناء عليه في سورة الكهف ٢٣٩**
سور بدأت بالحمد في القرآن الكريم ٢٣٩
الصيغة الصحيحة لحمد الله تعالى ٢٤٠

QaradawiBooks.com

روايتان في صيغة الحمد ٢٤٠
حمد الله على كل نعمة ٢٤١
معنى الحمد لله ٢٤١
الله يستحقُّ الحمد بذاته ولذاته ٢٤٢
المفاضلة بين الحمد والتهليل ٢٤٣
آخر دعاء أهل الجنة ٢٤٥

❖ **الدرس الثاني: صور من النماذج البشريَّة «في سورة الكهف»** **٢٤٧**
نموذج فتية أهل الكهف ٢٤٨
نموذج صاحب الجنتين ٢٤٩
نموذج الراحل في طلب العلم ٢٥٠
بين الحقيقة والشريعة ٢٥٣
نموذج الحاكم العادل ٢٥٣

❖ **الدرس الثالث: تثبيت الإيمان بالغيب في مواجهة الماديَّات** **٢٥٧**
الإيمان في مواجهة الماديَّة ٢٥٧
المؤمن في مقابلة من يملك الثروة ٢٥٨
غيبيَّات لا يعلمها الكثير من الناس ٢٥٨
الأدب في تلقي العلم ٢٦٠
زكاة العلم ٢٦١
الصبر في طلب العلم ٢٦١
النسيان من طبيعة الإنسان ٢٦٣
الحكمة من خرق السفينة ٢٦٤
ارتكاب أخف الضررين ٢٦٥
الحكمة من قتل الغلام ٢٦٥
الحكمة من إقامة الجدار ٢٦٦
انتفاع الأبناء بصلاح الآباء ٢٦٦
الحفاظ على الثروات ٢٦٦

نسخة محايدة
غير مرخص للطباعة
QaradawiBooks.com

علم الشريعة وعلم الحقيقة ٢٦٧
حكم من خرج على الشرع ٢٦٧

❖ **الدرس الرابع: ذو القرنين نموذج الحاكم العادل ٢٦٩**
من ذو القرنين؟ ٢٦٩
الرحلة الأولى لذي القرنين ٢٧٢
من إقامة العدل: معاقبة المسيء وإثابة المحسن ٢٧٣
الرحلة الثانية لذي القرنين ٢٧٥
الرحلة الثالثة لذي القرنين ٢٧٦
من يأجوج ومأجوج؟ ٢٨٠

• **تفسير: سورة مريم ٢٨٣**

❖ **سورة مريم ٢٨٥**
ذكر اسم مريم في القرآن دون سواها من النساء ٢٨٥
احتفال القرآن بحمل مريم وولادتها ٢٨٦
موقف الإسلام من النصرانيَّة ٢٨٧

• **دروس في تفسير: سورة طه ٢٩٧**

❖ **الدرس الأوَّل: قصة آدم أبي البشر من سورة طه ٢٩٩**
الحروف المقطَّعة ٢٩٩
سورة الكليم ٣٠٠
نسيان آدم للعهد ٣٠٠
بين معصية آدم وإبليس ٣٠١
نسبة المعصية لآدم أمَّا حواء فهي تبع له ٣٠٣
لم يرث البشر معصية آدم ٣٠٤

❖ **الدرس الثاني: بين معصية آدم ومعصية إبليس ٣٠٦**
قصة آدم في سورة طه ٣٠٦
بين معصية آدم ومعصية إبليس ٣٠٧

QaradawiBooks.com

هل كان إبليس من الملائكة؟ ٣٠٨
تحذير آدم من العدوِّ المتربِّص به وبذريَّته ٣٠٩
الجنة الَّتي كان فيها آدم ٣١٠
الإنسان وغريزة حب الخلود ٣١٠
ذوق حواء بمشاركة زوجها آدم ٣١١
إبطال مزاعم النَّصارى ٣١٢
السعادة في الدُّنْيا والآخرة في اتِّباع هدى الله ٣١٣

❖ **الدرس الثالث: قصَّة موسى في سورة طه ٣١٦**
تكرار القصَّة القرآنيَّة ٣١٦
النداء الإلٰهي لموسى ٣١٧
معجزة العصا واليد ٣١٨
إعداد موسى لدعوة فرعون ومواجهة طغيانه ٣١٩
الإعانة على أداء المهمة ٣٢٠
معونة موسى بهارون عليه السلام ٣٢٠
دعوة موسى لفرعون ٣٢١
مواجهة السحرة ٣٢٢
إبطال كيد السحرة ٣٢٣
بين قوَّة المنطق ومنطق القوة ٣٢٤

• **دروس في تفسير: سورة الأنبياء ٣٢٧**

❖ **الدرس الأوَّل: عناصر التوحيد في سورة الأنبياء ٣٢٩**
الشرك الأكبر والأصغر ٣٣٣

❖ **الدرس الثاني: حوار إبراهيم قومه ٣٣٧**
لطائف الأدب في دعاء أيُّوب وذي النون ٣٤٥

❖ **الدرس الثالث: إجابة دعوات الأنبياء ٣٤٧**

QaradawiBooks.com

• **دروس في تفسير سورة الحج** **٣٦١**

❖ **من دروس سورة الحج التذكير بيوم الحساب في سورة الحج** **٣٦٣**

أيها الإخوة ٣٦٨

• **دروس في تفسير سورة المؤمنون** **٣٧١**

❖ **المؤمنون المفلحون الوارثون للفردوس** **٣٧٣**

حقيقة الإيمان ٣٧٧

أوصاف المؤمنين أهل الفلاح ٣٧٨

الوصف الأوَّل: خشوعهم في الصلاة ٣٧٨

الوصف الثاني: إعراضهم عن اللغو ٣٨٠

الوصف الثالث: إيتاؤهم الزكاة ٣٨٢

الوصف الرابع من أوصاف هؤلاء المؤمنين المفلحين ٣٨٤

الوصف الخامس: رعاية الأمانة والعهد ٣٨٨

• **دروس في تفسير سورة النور** **٣٩١**

❖ **الدرس الأوَّل: من تشريعات الإسلام لحماية المجتمع من الفواحش** **٣٩٣**

الانهيار الأخلاقي في المجتمع الغربي ٣٩٤

الغريزة العاتية ٣٩٦

غض البصر ٣٩٧

الاستئذان قبل الدخول ٣٩٧

الزينة الظاهرة ٣٩٨

ترغيب الإسلام في الزواج ٤٠١

❖ **الدرس الثاني: دروس من حادثة الإفك** **٤٠٥**

خطر إشاعة الفاحشة ٤١٧

❖ **الدرس الثالث: إقامة المجتمع الطاهر في سورة النور** **٤٢٣**

في رحاب سورة النور ٤٢٣

سورة النور تُعْنى بإقامة مجتمع نظيف طاهر ٤٢٤

QaradawiBooks.com

وسائل سورة النور لإقامة المجتمع الطَّاهر ٤٢٤
إقامة الحد ٤٢٤
التربية الإيمانية ٤٢٤
كل ما يخاطب به الرجال يخاطب به النساء ٤٢٥
الحكمة في تخصيص النساء بالذكر ٤٢٦
من دوافع السلوك الإنساني ٤٢٦
ما معنى ما ظهر منها؟ ٤٢٧
ترجيح المراد بما ظهر منها ٤٣٠
التحذير من التبرج ٤٣١
حِلّ إبداء الزينة لهؤلاء ٤٣٣
ما المقصود بنسائهن؟ ٤٣٤
النهي عن وصف الزوجة لامرأة أخرى أمام زوجها ٤٣٤
هذه الأصناف ليسوا كلهم في درجة واحدة ٤٣٦

❖ الدرس الرابع: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ٤٣٩

• دروس في تفسير: سورة الفرقان ٤٤٣

❖ صفات عباد الرحمن ٤٤٥

لوحات قرآنيَّة لنماذج بشريَّة ٤٤٥
الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ٤٤٨
الصفة الثانية: وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ٤٥٠
الصفة الثالثة: يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ٤٥٠
الصفة الرابعة: دعاؤهم: رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ٤٥٢
الصفة الخامسة: إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ٤٥٣
الصفة السادسة: ﴿لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾ ٤٥٥
الصفتان السابعة والثامنة: لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ٤٥٥
الصفة التاسعة: لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ٤٥٦

غير مرخص للطباعة

QaradawiBooks.com

الصفة العاشرة: إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ٤٥٨
الصفة الحادية عشرة: إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ٤٥٨
الصفة الثانية عشرة: دعاؤهم بصلاح الأزواج والذريَّة والإمامة في الدين ٤٥٩
الإمامة في التَّقوى ٤٦١
جزاء عباد الرحمن ٤٦١

• **دروس في تفسير سورة الشعراء** **٤٦٣**
الدرس الأوَّل: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ۝ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ...﴾ [الشعراء: ٢٠٨ ـ ٢٢٦] ٤٦٥
تكذيب نبيّ واحد تكذيب بجميع الأنبياء ٤٦٦
الأخوة القوميَّة بين الأنبياء وأقوامهم ٤٦٨
رسالة الأنبياء واحدة ٤٦٩
الدعوة إلى إصلاح المجتمع ٤٧٠
رفق الأنبياء بأقوامهم ٤٧٤
تنزه الأنبياء عن المكاسب الدنيويَّة ٤٧٤

❖ **الدرس الثاني: دعوة نوح عليه السلام لقومه** **٤٧٦**
من هو أوَّل المرسلين؟ ٤٧٦
الدعوة إلى التَّقوى ٤٧٧
موقف الكبراء من استجابة الضعفاء لدعوة الرسل ٤٧٧
صبر نوح على قومه ودعاؤه عليهم ٤٧٩
آية الله في إهلاك المتجبرين ٤٨٠

❖ **الدرس الثالث: هلاك الله للمعاندين لدعوات الأنبياء في سورة الشعراء** **٤٨٢**
هلاك الله لفرعون وملائه ٤٨٢
هلاك قوم نوح ٤٨٢
هلاك قوم عاد ٤٨٣

QaradawiBooks.com

هلاك قوم ثمود ٤٨٣
هلاك قوم لوط ٤٨٣
وننتظر هلاك إسرائيل ٤٨٤
أعظم إرهابي في العالم هو دولة إسرائيل ٤٨٥
لا يمكن أن نحصل على دولة مستقلة، إلَّا بالجهاد ٤٨٨
مهما تعددت قضايانا فقضيَّة فلسطين هي الكبرى ٤٨٩
عندنا من البشائر أنَّ النصر لنا والغد لنا ٤٨٩
يجب أن نكون عبادًا لله مسلمين له لنحقق النصر ٤٩٠

❖ الدرس الرابع: نبأ إبراهيم ونِعَم الله الكبرى عليه ٤٩١
ما نبأ إبراهيم؟ ٤٩٢
التقليد الأعمى للآباء والأجداد ٤٩٤
خمس نعم من نعم الله الكبرى ٤٩٦
١ ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ ٤٩٦
٢ ـ ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ﴾ ٤٩٧
٣ ـ ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ ٤٩٧
٤ ـ ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾ ٤٩٨
٥ ـ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ ٤٩٩
الحكم والحكمة في القرآن ٥٠٠

• دروس في تفسير سورة النمل ٥٠١

❖ حقيقة العلاقة بين الجن والإنس ٥٠٣
طفولة الماديين ٥٠٤
فهل هذا الكلام صحيح موافِق للشرع؟! ٥٠٥

• من دروس التفسير سورة القصص ٥١١

❖ الدرس الأول: قصة النبي موسى عليه السلام في سورة القصص ٥١٣
الحكمة من تكرار القصص ٥١٣

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

معاناة الأنبياء منذ الصغر ٥١٤
إرادة الله نافذة ٥١٥
سورة القصص عُنيت بشباب موسى ٥١٦
الأنبياء طلبوا المغفرة من الله ٥١٧
أعوان الظلمة ٥١٨
الأخذ بالأسباب ليس مذمومًا ٥١٩
ورود ماء مدين ٥٢٠
عمل المرأة خارج بيتها ٥٢٠
كلام الرجل مع المرأة ٥٢١
الرجل الكبير ليس شعيبًا النبيَّ ٥٢٣
أسس اختيار الرجال للأعمال ٥٢٣
لا عصبيَّة إلَّا للحق ٥٢٥

❖ الدرس الثاني ٥٢٧

❖ الدور الهامُّ للمرأة في قصَّة موسى عليه السلام ٥٢٧
المرأة في قصَّة آدم عليه السلام ٥٢٧
دور المرأة في قصص الأنبياء يكون إيجابًا وقد يكون سلبًا ٥٢٨
المرأة في قصَّة سليمان عليه السلام ٥٢٨
المرأة في قصَّة عيسى عليه السلام ٥٣١
المرأة في قصَّة موسى عليه السلام ٥٣٢
أساس اختيار الرجال للأعمال ٥٣٦
كلمات خالدة للنساء ٥٣٧

• من دورس التفسير سورة العنكبوت ٥٣٩

❖ الدرس الأول: مجادلة أهل الكتاب في سورة العنكبوت ٥٤١

❖ الدرس الثاني: القرآن الكريم وموقف أهل الكتاب منه ٥٤٩
ضرب الأمثال بالحيوانات والحشرات في القرآن الكريم ٥٤٩
دلالة قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ٥٥١

QaradawiBooks.com

تعنت المشركين في طلب الآيات من الرسل ٥٥٤
آيات نبوَّة مُحَمَّد ﷺ ٥٥٤
النذير المبين ٥٥٥
التحدي بالقرآن ٥٥٦
السرُّ في مخاطبة النبي ﷺ بـ: ﴿ قُل ﴾ ٥٥٨
شهادة الله لنبيِّه مُحَمَّد ﷺ بصدق نبوته ٥٥٩

• **سورة لقمان** **٥٦٣**

• **من دروس التفسير** **٥٦٣**

❖ **الدرس الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ... ﴾** **٥٦٥**
هل المراد بلهو الحديث: الغناء؟ ٥٦٥
الأغاني المحرَّمة ٥٦٨
الإكثار من سماع الأغاني ٥٦٩
لا دلالة في الآية على تحريم الغناء ٥٧٠
موقف النَّاس من الغناء ٥٧١

❖ **الدرس الثاني: التذكير بيوم القيامة** **٥٧٣**
ختام سورة لقمان ٥٧٣
الموت بداية رحلة لحياة أخرى ٥٧٤
يوم القيامة لا يذكر أحد أحدًا ٥٧٦
مشكلات العالم في نسيان يوم القيامة ٥٧٧
دقَّة الحساب يوم القيامة ٥٧٧
خوف السلف من يوم القيامة ٥٧٨

• **من دروس التفسير: سورة الأحزاب** **٥٨١**

❖ **الدرس الأوَّل: قوانين النصر في القرآن الكريم** **٥٨٣**
سرُّ الاهتمام بالعشر الأواخر لسببَيْن ٥٨٤
قوانين النصر في القرآن ٥٨٧

QaradawiBooks.com

❖ **الدرس الثاني: تثبيت الله للمؤمنين في غزوة الأحزاب ٥٩٢**
الردُّ على دعوى المستشرقين أنَّ الإسلام انتشر بحدِّ السيف ٥٩٢
استشارة الجنود والأخذ بأصوب الآراء ٥٩٤
المؤمن الحق يزداد يقينا عند نزول المحن ٥٩٦
دور نُعَيْم بن مَسْعُود في تخذيل المشركين ٥٩٧
جنود الله تشارك في ثلاث معارك ٥٩٨
الإسلام ليس متعطشًا للدماء ٥٩٩
❖ **الدرس الثالث: العشر الأواخر من رمضان وعِظم الأمانة الَّتي حملها الإنسان في سورة الأحزاب ٦٠١**
الاختلاف في تعيين ليلة القدر ٦٠١
فضل ليلة القدر ٦٠٢
التصوير القرآني للحقائق ٦٠٥
مسؤوليَّة التكليف الَّتي حَملها الإنسان ٦٠٥
التزوُّد لحمل المسؤوليَّة ٦٠٦
الحاجة إلى الشحنة الروحيَّة ٦٠٧
• **من دروس التفسير سورة فاطر ٦٠٩**
❖ **أُمَّة الدعوة وأُمَّة الإجابة من سورة فاطر ٦١١**
أصناف الأُمَّة المصطفاة ٦١٣
الظالم لنفسه ٦١٤
الصنف الثاني: المقتصد ٦١٥
الصنف الثالث من هذه الأمة المصطفاة: السابق بالخيرات ٦١٦
منزلة القرب ومنزلة الحب ٦١٦
• **من دورس التفسير سورة الصافات ٦٢١**
❖ **امتحان إبراهيم وفداء إسماعيل ٦٢٣**
الغلام الحليم ٦٢٤

غير مرخصة للطباعة
نسخة مسبقة
QaradawiBooks.com

الفداء بذبح عظيم ٦٢٦
الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق ٦٢٧

• **من دروس التفسير سورة الزمر** **٦٢٩**

❖ **سعة رحمة الله من سورة الزمر** **٦٣١**
الأمل في عفو الله ٦٣١
سعة رحمة الله ٦٣٢
الله تعالى أرحم الراحمين ٦٣٣
مكَفِّراتٌ للذنوب ٦٣٤
جانب العفو وجانب العقوبة ٦٣٦
رحمة الله سبقت غضبه ٦٣٧
من القصص النبوي ٦٣٨
حقيقة التوبة ٦٤٠
الجمع بين الخوف والرجاء ٦٤٢
القرآن يعلم المؤمن اتِّباع الأحسن ٦٤٢
وفي الختام ٦٤٤

• **من دورس التفسير سورة غافر** **٦٤٥**

❖ **الدرس الأوَّل: الرجل المؤمن في سورة غافر مؤمن آل فرعون ـ ١ ـ** **٦٤٧**
مصادر الشر في الأرض ٦٤٨
اتِّهام الرسل بالسحر ٦٤٩
إحياء سُنَّة فرعون في ذبح أبناء بني إسرائيل واستبقاء نسائهن للخدمة ٦٤٩
بروز العناصر الخيرة في أوساط الشر ٦٥١
تبعات كلمة: ربِّي الله ٦٥٤
عاقبة الكاذبين والصادقين ٦٥٦
من سنن الله في الضلال ٦٥٧
منطق الطغاة الأعوج ٦٥٨

غير مرخصة للطباعة
نسخة محاسبة
QaradawiBooks.com

❖ **الدرس الثاني: الرجل المؤمن في سورة غافر مؤمن آل فرعون ـ ٢ ـ** **٦٥٩**
التذكير بعبر التاريخ ٦٥٩
التخويف من المستقبل ٦٦٠
موقفهم من سيِّدنا يوسف ٦٦١
قيمة الحياة الدنيا ٦٦٢
الجنَّة وطن المؤمن ٦٦٣
الآخرة دار الجزاء ٦٦٤
الجزاء على السيِّئة بمثلها ٦٦٥
معيار قبول الأعمالِ الإيمانُ ٦٦٥
بين الدعوة إلى النجاة والدعوة إلى النار ٦٦٦
ختام الموعظة البليغة ٦٦٦
من أدلَّة عذاب القبر ٦٦٧

❖ **الدرس الثالث: من شروط الدعاء المستجاب «من سورة غافر»** **٦٦٩**
شروط استجابة الدعاء ٦٧٠
أولًا: أن يكون مطعم الإنسان طيِّبًا وحلالًا ٦٧٠
ثانيًا: إخلاء القلوب من معاصي القلوب ٦٧١
إجابة الدعاء كما يريد الله، لا كما يهوى البشر ٦٧٤
الداعي رابح ولا بدَّ ٦٧٦

• **من دروس التفسير سورة الشورى** **٦٨١**

❖ **آيات في شأن الألوهيَّة** **٦٨٣**
قبول توبة التائبين ٦٨٤
استجابة دعاء المؤمنين وزيادته من فضله ٦٨٤
حكمة الله في عدم بسط الرزق لعباده في الدنيا ٦٨٥
إنزال الغيث من بعد قنوط الناس ٦٨٧
خلق السماوات والأرض ٦٨٩
الإنسان والحيوان وكل ما يدب على الأرض من الدواب ٦٩٢

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ليست الملائكة من الدوابِّ ٦٩٢
قدرة الله على حشر المخلوقات يوم القيامة ٦٩٣
نزول المصائب بما كسبت أيدي الناس ٦٩٣

• من دروس التفسير سورة الزخرف ٦٩٧

❖ الدرس الأوَّل: موقف الجاحدين من رسالة النبيُّ الخاتم ﷺ ٦٩٩
الرسول المبين ٧٠٠
مقياس العظمة الحقيقيَّة ٧٠٢
صفات الرسل الأربع ٧٠٣
إعداد الرسول ﷺ للرسالة العامَّة الخالدة ٧٠٤
الرسول مُحَمَّد ﷺ هو القمة في كل ناحية ٧٠٥
الله سبحانه يوزع رحمته وهباته وفضله على من يشاء من عباده ٧٠٧
تسخير التنظيم والإدارة ٧٠٨

❖ الدرس الثاني: الاستمساك بالوحي والحرص على الصحبة الصالحة ٧١٠
يوم القيامة يوم الفرديَّة والأنانية ٧١٢
معنى الحبِّ في الله ٧١٤
منزلة الحبِّ في الله ٧١٤
من صور الإيثار ٧١٦

• من دروس التفسير سورة الأحقاف ٧١٩

❖ وصيَّة الله تبارك وتعالى بالوالدين من سورة الأحقاف ٧٢١
تكرر الوصيَّة بالوالدين في القرآن ٧٢١
الطفولة الإنسانيَّة ٧٢٢
معاناة الأمِّ أكثر وأثقل ٧٢٣
سر عناية الإسلام بالأمِّ ٧٢٤
برُّ الوالدين من أصول الفضائل ٧٢٥
بر الوالدين من خصائص المجتمع المسلم ٧٢٦

QaradawiBooks.com

خطر إيداع الوالدين دار المُسِنِّين ٧٢٧
سؤال الله شكر النعمة ٧٢٨
شرط قبول العمل عند الله ٧٢٩
الدعاء للذريَّة ٧٢٩
ضرورة الاهتمام بالذريَّة ٧٣١

• **من دروس التفسير سورة محمد ٧٣٣**

❖ **الدرس الأول: سورة مُحَمَّد وسورة القتال ٧٣٥**
الصد عن سبيل الله ٧٣٦
كيف يكون القتال وأسر الأعداء؟ ٧٣٧
لماذا نقاتل الكفار؟ ٧٣٨
إلى متى يظل ضرب الكفار ٧٤٠
معاملة الأسرى ٧٤٥
حكم قتل الأسرى واسترقاقهم وقتل مجرمي الحرب ٧٤٦
قتل يهود بني قريظة ٧٤٨
الاسترقاق معاملة بالمثل ٧٤٩
القول بنسخ هذه الآية ٧٥١
سنة الله في القتال وخوض المعارك ٧٥٢
فضل الشهادة في سبيل الله ٧٥٤
قانون النصر الإلٰهي ٧٥٤

❖ **الدرس الثاني صلة الأرحام من سورة محمد ٧٥٦**
بين الأسرة الضيقة والموسعة ٧٥٦
حق الأرحام وأولي القربى ٧٥٨
من بركات صلة الأرحام ٧٥٩
بين ولَدي آدم ٧٦٠
موقف يوسف من إخوته ٧٦١
لماذا يتخاصم الناس؟! ٧٦٤

نسخة مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

• **من دورس التفسير سورة الفتح** **٧٦٧**

❖ **الدرس الأوَّل: حاجتنا إلى فتح الدعوة والفكر «الآية الأخيرة من سورة الفتح»** **٧٦٩**

موقف الشيعة من الصحابة ٧٧٨

❖ **الدرس الثاني: محمد رسول الله والَّذين معه في سورة الفتح** **٧٨٠**

الشدة على الكفَّار المعتدين المحاربين للمسلمين ٧٨٢

مدح الذل في القرآن في موضعين ٧٨٤

علاقتهم بالله ﷻ ٧٨٤

إخلاصهم لله ﷻ ٧٨٤

صفة أصحاب رسول الله في التوراة ٧٨٦

غيظ الكافرين ٧٨٦

وعد الله للصحابة رضي الله عنهم ٧٨٦

• **من دروس التفسير سورة النجم** **٧٨٩**

❖ **الدرس الأول: رحمة الله ومغفرته وسعت كل شيء «من خلال سورة النجم»** **٧٩١**

قيمة هؤلاء المحسنين عند الله ٧٩٤

من المحسنون؟ ٧٩٥

تغليب بعض الفرق لجانب العدل عند الله على جانب الرحمة ٧٩٧

المحسنون ليسوا معصومين من الذنوب ٧٩٧

المحسنون لا يستمرِئُون المعصية ٧٩٨

❖ **الدرس الثاني: الإحسان من سورة النجم** **٨٠٢**

حكمة خلق السماوات والأرض ٨٠٢

العدل الإلٰهي ٨٠٤

مجالات الإحسان ٨٠٦

الخطأ من شأن الإنسان ٨٠٧

تعريف اللمم ٨٠٨

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

• **من دروس التفسير سورة الرحمن** **٨١١**

❖ **الصلة بالقرآن في رمضان** **٨١٣**

سورة الرحمن سورة مكيَّة ٨١٤

بداية المفصل وتحزيب القرآن ٨١٤

مخاطبة الجن والإنس في سورة الرحمن ٨١٦

اسم «الرحمن» ٨١٦

ذكر اسم الرحمن مفردًا ومقرونًا ٨١٧

إشاعة جو الرحمة والتذكير بالنعم الدينيَّة ثمَّ الدنيويَّة ٨١٨

خلق الإنسان وتعليمه البيان ٨٢٠

الشمس والقمر يجريان بحساب ٨٢٢

سجود النبات والشجر لله تعالى ٨٢٣

سجود الكون لله تعالى ٨٢٤

رفع السماء ووضع الميزان ٨٢٤

الميزان الكوني والشرعي ٨٢٥

ميزان الشرع ٨٢٥

• **من دروس التفسير سورة الحديد** **٨٢٩**

❖ **الدرس الأول: إرسال الرسل بالبينات والحكمة من إنزال الميزان والحديد** **٨٣١**

الرسل يمثلون الإرادة الإلٰهيَّة ٨٣٢

قيام النَّاس بالعدل هو هدف الرسالات السماويَّة ٨٣٤

معنى إنزال الحديد ٨٣٥

التنبيه إلى ضرورة إتقان الأُمَّة للصناعات الحربيَّة والمدنيَّة ٨٣٥

تخلُّف أمَّتنا العلمي والصناعي ٨٣٦

❖ **الدرس الثاني: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾** **٨٣٩**

QaradawiBooks.com

• **من دروس التفسير سورة الصف** **٨٥١**

❖ **ثلاث نداءات إلى المؤمنين في سورة الصف** **٨٥٣**

ثلاث فرص لمغفرة الذنوب ٨٥٣

إخفاء ليلة القدر من رحمة الله ٨٥٤

السور المكيَّة والمدنيَّة في الأجزاء الثلاثة الأخيرة ٨٥٥

وقفة مع النداء الأوَّل في سورة الصف ٨٥٦

النداء الأوَّل للمؤمنين في سورة الصف ٨٥٧

وقفة مع النداء الثاني في سورة الصف ٨٥٩

ما هذه التجارة؟ ٨٦٠

جهاد الدفع ٨٦١

الجهاد بالمال ٨٦٢

الدعم والبذل للمسلمين في فلسطين ٨٦٣

ثمرة الجهاد في سبيل الله ٨٦٤

وقفة مع النداء الأخير في سورة الصف ٨٦٤

• **من دروس التفسير سورة الطلاق** **٨٦٧**

خطاب النبيِّ ﷺ ٨٦٩

التذكير بتقوى الله ٨٧٢

البقاء في بيت الزوجيَّة ٨٧٢

قيام الأسرة في الإسلام على أساسين: رباني وإنساني ٨٧٣

الإشهاد على الفراق أو الرجعة ٨٧٤

• **من دروس التفسير سورة التحريم** **٨٧٧**

❖ **تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾** **٨٧٩**

النداء الإلٰهي للمؤمنين ٨٧٩

الدنيا طريق إلى الآخرة ٨٨١

النَّاس صنفان: من يريد العاجلة ومن يريد الآخرة ٨٨٣

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الرغبة في الجنَّة والرهبة من النار ٨٨٣
من أوصاف النَّار في القرآن ٨٨٥
العذاب المادي والمعنوي ٨٨٥
النعيم المادي والمعنوي ٨٨٦
المؤمن مأمور أن يقيَ أهله النار ٨٨٦
وقاية الأولاد من النَّار تبدأ من الصِّغر ٨٨٩

• **من دروس التفسير سورة الملك ٨٩١**
مجيء كلمة تبارك بعد نعمة الخلق ونعمة التشريع ٨٩٤
صفة اليد ٨٩٤
الله سبحانه هو الملك والملك ٨٩٦
الله سبحانه على كل شيء قدير ٨٩٨
خلق الموت والحياة ٨٩٨
تقديم الموت على الحياة ٨٩٩
الحكمة من خلق الناس ٨٩٩
أفعال الله تعالى وأحكامه معللة ٩٠٠
شروط قبول العمل ٩٠٠
التمييز بين الحسن والأحسن ٩٠٣
ما معنى الَّتي هي أحسن؟ ٩٠٦
العزيز الغفور ٩٠٧

❖ **الربانية والإنسانيَّة في القرآن الكريم من خلال جزء تبارك ٩٠٩**
استمرار عناصر الخير في المجتمعات الإنسانيَّة ٩١٣

• **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ٩٢١**

• **فهرس الموضوعات ٩٣٥**

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com